بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

إلى روح والدى ...

كان أعظم أمانيك فى أمرى .. رحمة الله عليك وعلى والدتى التى لم تكن تساهمك فقط ، بل تسابقك فيما يرجى فيه رضى الله تعالى ، حتى انى كنت أقنعتها قبلك ـ وأنا فى ملتقى الشباب والصبا ـ بأن تأذن لى وتستأذنك فى السفر لأول مرة إلى قيصرية المشتهرة بعلمائها بين مدن الأناضول ... كان أعظم أمانيك أن أجتهد فى طلب العلم وأصبح عالما من علماء الدين . وكنتَ فى رغبتك هذه أشد شرها من النهومَين[1] حتى انك لما أتيت الاستانبول من بلدنا توقاد ورأيتنى مدرساً فى جامع السلطان محمد الفاتح ـ الذى كان فى عهد الدولة العثمانية كالأزهر الشريف بالقاهرة وأفضل من الأزهر الحاضر ـ وأنا يومئذ فى الثانية والعشرين من عمرى ، قلتَ لبعض أصدقائك عنى : « استأذننى لطلب العلم فى الآستانة بعد القيصرية[2] فما لبث أن حصل على شهادة العالمية وتربع على كرسى التدريس . وكان الواجب عندى أن يستمر فى التعلم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل » .

---

[١] منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا (الحديث) .

[٢] أخذت العلم فى القيصرية عن الشيخ محمد أمين الدوريكى الشهير بداماد الحاج طرون أفندى، وقبلها فى بلدنا توقاد عن تلميذ أستاذى فى القيصرية الشيخ أحمد افندى زولبية زاده إلى آخر التصورات من شرح الشمسية للقطب الرازى ، وأخذت فى الآستانة عن محمد عاطف بك الأستانبولى وعن أحمد عاصم افندى الكوملجنوى الذى كان وكيل الدرس فى المشيخة الإسلامية والذى زوجنى بنته بعد أن توليت التدريس . فأولئك أساتذتى وشيوخى تغمدهم الله برحمته .

وقد كنت رحمك الله على حق فى استقلال مكتسباتى العلمية ، لكن استعجال القدر فى أمرى ظهرت حكمته بعد أن عاينت ما كان ينتظرنى من وقائع الحياة الهامة . ثم كان ثانى مالم يسرك من موقفى يومئذ أنى توليت وظيفة التدريس بمرتب من الحكومة ، وكان هذا على الرغم من أنك لست بذى ثروة تكفلنى وأسرتى المستقبلة . وبالقياس على هذا لاأرتاب فى أنك لو كنت حياً يوم توليت منصب المشيخة الإسلامية فى الدولة العثمانية ما ازددتُ مكانة عندك وحصولا على مرضاتك .

ولكنك لو رأيتنى وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق ، فى مجلس النواب وفى الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدها ، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها ، وأقضى ثلث قرن فى حياة الكفاح ، معانياً فى خلاله ألوان الشدائد والمصائب ومغادراً المال والوطن مرتين فى سبيل عدم مغادرة المبادئ ، مع اعتقال فيما وقع بين الهجرتين ، غير محس يوما بالندامة على ماضحيت به فى هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها — لأوليتنى إعجابك ورضاك .

وهذا الكتاب الذى وضعته فى سنواتى الأخيرة سنوات التوقف فى المهجر عن الجهاد السياسى متفرغا للجهاد العلمى الدينى ، والذى كتبت فيه مايحتاج المتعلم المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسلم عقيدته الدينية وتصمد أمام تيارات الزيغ العصرى وناضلت أشتاتاً من أهل العلم والأدب فى الشرق والغرب أحياء وأمواتاً[1] وقد توغلت فى طريق الجهاد حتى جاهدت مع الذين ناضلتهم ، عجمةَ قلمى عند الكتابة ... هذا الكتاب أرجو أن يكون مما يرضيك ويتفق مع ما كنت تتوقع منى بعد طلب العلم ، وأنا أحتسب فى رضاك هذا رضى ربى سبحانه وتعالى[2] .

---

[١] وبعضهم كانوا أحياء فى أثناء تأليف الكتاب ثم ماتوا قبل نشره .

[٢] رضى الرب فى رضى الوالد (الحديث) .

أما رضى الله مباشرة فذاك أجل وأسمى من أن يكون مبتغى مثلى من أقل عباد الله بواسطة كتاب مثل كتابى من أقل الكتب .

* * *

ثم إلى الفئة القليلة الذين يرغبون فى قراءة كتابى هذا رغم ماتضمنت قراءته من إتعاب الفكر وشغل غير قليل من الوقت ... إلى الذين يرغبون فى قراءته مهتمين به، لا قائلين بعد إجالة نظرات عابرة فيما اتفق لأعينهم من صفحاته ، مامعناه :

« مالنا وللتثبت فى العقيدة الدينية الضائعة بين العقلية القديمة والحديثة المتأثرة من تيار الشكوك التى أصدرها الغرب المسيحى من ناحية واللاديني من ناحية إلى شرقنا الإسلامى ، كما يُصدر سائر بضائعه ، وكان فى طليعة هذا النوع من الصادرات المتعلمون على النظام الحديث ... مالنا وللتثبت الذى يصل بنا هذا الكتاب إليه ويستأصل جذور تلك الشكوك فى ادعاء مؤلفه ؟ فهل فيه للفقير مايقوته أو يكسوه فى دنيا المجاعة والعرى ، وللعامل المجهود مايخفف عنه ثقل العمل ، وللمهموم مايعلله ويسليه ؟ وبالاختصار : هل فيه ماينفع الإنسان فى هذه الدنيا الدنية المرتدية برداء المدنية ؟ » أقول :

إن بين الدين والدنيا مسألة العلم لايمكن أن يتخلى عنها متعلمو البلاد كما لايمكن أن تتخلى البلاد عن المتعلمين . فهذه المسألة هى التى تكون رابطة بين الدين والدنيا وتمنع الدنيويين أن يتخلوا عن الدين ، لأن مرجعه إلى فلسفة مابعد الطبيعة التى هى الفلسفة العالية رغم المستخفين بها من فلاسفة الغرب والمحاولين إخراجها من العلم وحصرَ العلم فيما يستند إلى التجارب الحسية ، وتبعهم معالى هيكل باشا فى مقدمة كتابه « حياة محمد » والأستاذ فريد وجدى بك على طول مجلة الأزهر . ونحن سنثبت فى غير موضع من كتابنا هذا بعون الله وتوفيقه أن العلم الذى يستند إليه الدين أفضل من علم الماديين . وهنا نكتفى بأن نقول سلفا ان النفس الناطقة التى هى مناط العلم ليس

إلا أمراً ميتافيزيقيا كالعلم نفسه يعجز الطبيعيون عن إدراك ماهيته ، ولذا قال (شاتوبريان) : «إن الإنسان حيوان ميتافيزيقي» وفيه امتيازه على سائر الحيوانات .. وناهيك فى اتصال الدين الوثيق بالعلم قول الله عز وجل « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

قلنا إن مسألة العلم تتوسط بين الدين والدنيا وتربط أحدهما بالآخر فيحتاج إليها طالب كل من الطرفين ، وإن كان كتابى هذا يعنى العلم من ناحية اتصاله بالدين كما أنه أى كتابى يُعنى بناحية كون الدين حقيقة من الحقائق مقطوع النظر عن نفعه فى الدنيا والآخرة .. وهذا كما قد يكون العلم مطلوباً لنفسه من غير ملاحظة نفعه للدين أو الدنيا فهو يستغنى بما فيه من لذة الروح عن غاية أخرى ، ويكون مدّعو هذا القصد من العلم كثيراً وأصحابه أقل من القليل .. وإنى قوى الأمل فى أن كتابى يخدم مع أهل الدين هذه الطائفةَ القليلةَ الوجود من الراغبين فى العلم .

فبقيت الطائفة المتعلمة التى يكون مقصودها من طلب العلم الحصول على شهادة العلم لا العلم نفسه ، فإذا استفادوا بتلك الشهادة شيئاً من الدنيا كالمال والجاه والشهرة كان ذلك شهادة على شهادتهم التى تحتاج إلى شهادة ... بقيت هذه الطائفة لا يعنيهم الدين ولا صلته بالعلم ولا مبلغ هذا العلم من القوة والأهمية ، وهم الذين يكونون على كثرتهم وتجارتهم الرابحة ، رمزاً لفقر البلاد وإفلاسها المعنويين .

ولقائل أن يقول لى وأنا مشغول البال بالمتعلمين المتوقع منهم أن يكونوا قراء كتابى : إن للبلاد فى هذه الآونة شغلا شاغلا عن قراءة الكتب مهما كان مبلغ أهميتها فى الدين والعلم وفى فصل النزاع بينهما قِدماً فى الغرب وحديثاً فى الشرق الإسلامى منذ تفانى فى تقليد الغرب .. وهو شغلها بالسعى فى الاستقلال والتخلص من تحكم الدول الكبيرة الغالبة فى الحرب الأولى والثانية العالميتين ، فهى تسعى قبل كل شىء وترجيحاً على كل شىء أن تتخذ لها مكاناً بين الدول سويا تعيش فى الدنيا كما يعيش

غيرها فى مأمن من التدخل والعدوان ... وجوابى على هذا القول يحتاج إلى تبسط فى البيان على الوجه الآتى :

يا إخوانى المسلمين فى المشارق والمغارب ويا أمم الدول الصغيرة قدما أو بعد أن كانت دولة شامخة : إنا أضعنا الدنيا ، وبقينا ألعوبة فى أيدى ثلاث دول كبيرة من الكبائر، أولاها ثالثة الأثافى وثالثتها شر من أولاها ؛ وقد سنحت لنا بأجمعنا أثناء الحرب العالمية الثانية المنتهية انتهاء لفظيا ، فرصة أقل ما كان فى انتهازها أن لانقع فى ندامة من جرب المجرب وأن لانتطفل على الغالب تطفلنا اليوم ، فرصة فطن لها من فطن فتقدم مثالا لغيره يدعوهم إلى الواجب ، وكان كزيادة فرصة على فرصة ، ولكنهم خذلوه وضيعوه مع الفرصة : وهذه كلمة حق أقولها ولو كره المبطلون ، لعلها تنفعنى يوم ينفع الصادقين صدقهم .

أضعنا الدنيا وأضعنا الفرصة فأصبحنا ألعوبة فى أيدى الدول الكبرى اللاتى فعلن ما فعلن فى الحرب وقتلن من قتلن فيها من ملايين البشر .. والآن وقد مضت على انتهاء الحرب ثلاث سنوات لايزال الموت الذى فتحت الحرب أبوابه على مصراعيها ، يأكل من سكان الأرض الباقين بعد الحرب الصارخة صراخ النفخة الأولى المميتة من صور إسرافيل .. يأكلهم بأنيابها الصامتة من الجوع والعرى والتشريد .. مع أن هـذا النوع من الموت أعم وأشمل لغير المحاربين .. فما ذنبهم يشتركون فى تبعات الحرب التى لم يشتركوا فيها غالبين ولا مغلوبين ؟

ولم تقنع الدول المحاربة بإثارة هذا النوع من الموت على العالم فى السلم بعد الحرب بل ابتدعوا نوعاً آخر أدهى وأمر ، وهو أنهم أسسوا مجمعاً مسمى بهيئة الأمم دعوا إليها مندوبين من كل دولة صغيرة وكبيرة ليحكموا فيها على من يشاءون من الأمم بما يشاءون ظلما وعدوانا ويقسموا وبال الظلم والعدوان بين مجموع الهيأة ، حتى جعلوا من حق هذه الهيأة وفى وسعها أن تنزع بلاداً من أهلها وتمنحها قوما غيرهم من غير

حرب ، ولـكن كزكاة الظفر للحرب العالمية الثانية المنتهية ، وإن لم تـكن صلة هذه الحرب بتلك البلاد ولا بأهلها .. كما ترى هذه الحالة فى فلسطين التى تمنحها هيئة الأمم مشردى اليهود الافقيين لينشئوا فيهـا دولة .. حتى إن أمريكا وروسيا الحليفتين ضد الألمان فى الحرب وضد العرب بعد الحرب والجارّتين من ورائهما فى هيئة الأمم كثيراً من الدول الصغيرة ، لو اتفقتا على إنشاء دولة يهودية فى ألمانيا أو اليابان كان له شىء من المناسبة والمعقولية .. لـكنى أرى تلك الدول الصغيرة التى انحازت إلى جانب الـكبيرتين الظالمتين فى مسألة فلسطين أحق إلى التعيير والتشهير من أمريكا وروسيا وأحمق من هبنقة فى موقفها المؤيد لخصوم الدول العربية الظالمين[١] .

---

[١] كلنا يعلم فتنة اليهود المسلطة على المسلمين منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم بل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا الذى يحاربون فيه العرب لاغتصاب فلسطين من أيدى أهلها بقوة المهاجرين إليها من أبناء دينهم المشردين فى مختلف بلاد العالم لاسيما أوربا المسيحية . . يحاربون اليوم ليتملـكوا فلسطين ويختلقوا لهم فيها دولة ، بعد أن كانوا بين سكان تلك البلاد قلة ضئيلة ، فى استطاعة الحاكمين فيها قرونا طويلة قبل الحروب الصليبية وبعدها من العرب والترك أن يطردوهم أو يذيبوهم فى أمتهم . أما فتنة اليهود على النصارى فهى أعظم من فتنتهم على المسلمين وأعمق لإنها فتنة متعلقة بدينهم لا من حيث انهم حاربوا النصرانية وحاربوا سيدنا المسيح نفسه أشد وأصرح من محاربة سيدنا محمد ، حتى انهم قتلوه فيما يعتقدون . . بل من حيث أن ضررهم على الديانة المسيحية بعيد الأثر جدا . . فلما قتل المسيح فى عقيدة النصارى ثم قام حيا ورفع إلى السماء سبب ذلك عندهم التباسا بين ألوهية الله وبنوة المسيح ، التباسا يفسد عقيدة النبوة والألوهية معا ، فأخذوا يعدون المسيح ابن الله أو الله نفسه ويعدون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا ، ومعناه أنهم جعلوا العقيدة النصرانية مجمع النقائض والسخافات .

يتجلى من هذا البيان مبلغ تأثير اليهود فى إفساد ديانة المسيحية بسبب تصديقهم بقتل المسيح عليه السلام .

وزاد فى الفساد فساداً والسخافة سخافة تضحية الله بنفسه فى قتل المسيح توصلا بها إلى العفو عن ذنوب البشر . والله متعال عن أن يكون له مثل ضلال المعتقدين له هذه التضحية — كما ان عقيدة الدين الأصلى المنزل من عند الله على سيدنا المسيح براء من هذه السخافات الطارئة على المسيحية بعد رفعه إلى السماء ، بأيدى المحرفين المسرفين فى التحريف اسرافاً ليس وراءه اسراف — فيجعل الله من نفسه كبش الفداء لمصلحة المذنبين من عباده كأنه هو المذنب والمذنبون هم العافون =

وقد كان أجدر وأجدى للدول الصغيرة المضيمة للفرصة التى أشرنا إليها من قبل أن يجمعن شملهن بعد الحرب على الأقل فيعقدن فيما بين مجموعتهن حلفا رائما ويصبحن بفضل عددهن الكثير رغم مافى آحادهن من الصغر ، قوة رابعة فى خارج الدول الثلاث الكبرى الغالبة فى الحرب .

أضمنا الدنيا وخسرناها فلا نخادعْ أنفسنا بالاعتماد على قوة المستند العقلى وسلاح المنطق ، فهذا السلاح الذى كثيراً ما أدافع عنه فى هذا الكتاب ، إن كان يجدى كل أحد فى إثبات الحق أمام الحاكم العدل فلا يجدى أمام الحاكم بالقوة . فلو سعينا لأن نتقوى نحن أيضاً ـ ولا بد أن نسعى ونجتهد فى تعلم أسبابها ـ فلا نتقوى بقدر ماتقوت الألمان وتعلمت واجتهدت . ولو بلغنا مبلغها فى العلم والاجتهاد والاستعداد لما يكفينا ذلك فى بلوغ الغلبة النهائية كما لم يكف الألمان ، ولو سبقناهم واكتشفنا سلاحاً أمضى من القنبلة الذرية فلا يمهلنا حكام الدنيا المتغلبون لاستكمال تجاربه كما لم يمهلوا الألمان وكانت مزية الحلفاء الناجحين فى الحربين العظيمتين ، مزيتهم التى لاتبارى : أن كانوا سابقين غيرهم فى التحكم على أمم الأرض والاستيلاء على القواعد سبقاً زمانيا .

أضمنا الدنيا مع قوتنا البعيدة التدارك اليوم ، فلا نتوقع من بعدُ خيراً فيها ولا نأمل من سباع الإنس الضوارى إلا ولا ذمة .

= عن ذنبه بدلا من ذنوبهم والله الذي يملك العفو عن الذنوب مات فى عقيدة التضحية فليس هناك من يتولى العفو عن المذنبين غيرالمذنبين أنفسهم ، وليس هناك من يحيي الله الذى مات، فلو قلنا ان احياء الله بعد موته كان بيده لم تكن التضحية تضحية .

وإنى كنت قلت عن مسيحي أمريكا ورئيسهم ترومان الذين انحازوا فى مسألة فلسطين الى جانب اليهود وجانبوا العرب والحق .. كنت قلت عنهم إنهم أبعد الناس عن الغيرة الدينية كبعدهم عن الغيرة على الحق والعدل .. لولا أنى وجدت لفعالهم هذا الذى لايوجدله مثيل فى السخافة، اللهم الا ما فى عقيدة المسيحيين من تضحية الله بنفسه للعفو عن المذنبين والمجرمين من البشر الذين يدخل فيهم اليهود قتلة المسيح المعدود ابن الله أو الله نفسه ، دخولا أوليا .

ومما يؤسف له أن الدول الكبرى الغالبة التى وقفت البشرية بعد انتهاء الحرب بغلبتها تحت رحمتها ، أرادت إشراك الصغريات فى جناياتهم الحربية المفسدة للحياة المهلكة للحرث والنسل الجاعلة للدنيا تضيق على أهلها بما رحبت .. فحضّتها أى الصغريات على إعلان الحرب على الألمان وهم فى حالة سكرات الموت من الانهزام وفى غير سعة الوقت لأن تصل إليهم ضربة من المحاربين الجدد ولو على آخر رمق من حياتهم. فكان معنى إعلان هذه الحرب اشتراكا لآثام الغالبين إن لم يكن اشتراكا فعليا فى الحرب ، وبالاختصار حركة غير شريفة طلباً لمرضاة الغالب عله يتصدق على الدخيل من زكاة الظفر . وقد نال هذا الرجاء المبنى على خدمة القوى ضد الضعيف ما يستحقه من الخيبة .

وكانت مصر طالبت الإنجليز فى غداة الحرب الكبيرة الأولى أيضاً باستقلالها، مستندة فى تلك المطالبة إلى مساعدتها فى الحرب ضد الدولة العثمانية التى كانت مصر تابعة لها وموقف الإنجليز منها موقف الغاصب .. كما استندت فى مطالبتها الثانية إلى مساعدتها ضد الألمان فى الحرب الثانية التى لاناقة لها فيها ولا جمل[1] سوى التمهيد للاشتراك فى الغنيمة بعد غلبة الإنجليز على الألمان بفضل مساعدة مصر .

أما موقف مصر فى مساعدتها الأولى للإنجليز فكان عبارة عن مطالبة الغاصب بثمن المساعدة . وأعجب منه أنها رمتنى لما هاجرت إليها رفضاً لحكومة مصطفى كمال الذى كان يُعد فى ذلك الزمان عدو الإنجليز ومكرهها على الجلاء من الآستانة . فكأنهم عابونى بمشايعة المغلوب فى معارضة الغالب فى حين أنهم لاعيب عليهم فى مشايعة الإنجليز الغالبة وخذلان تركيا المغلوبة وإن كانوا جد غالطين فى توهم

(١) كما خرج هذا التعبير أثناء الحرب من لسان شيخ الأزهر المراغى وسبب اشمئزاز الإنجليز .

الخصومة بين مصطفى كمال والإنجليز ثم فى افتراضه غالباً عليها فى تلك الخصومة ، وجد ظالمين فى رمي بدائهم ودائه .

عود على بدء ... ضيعنا الدنيا حين ضيعنا اللبن فى الصيف . فمهمتنا اليوم أن نتمسك بديننا ونكسب الآخرة . وهذا الكسب هو الذى لايمكن الأقوياء الدنيويين من أعداء الدين أن يباروننا فيه والذى لاأدعو نفسى وأخوانى المسلمين إليه بدافع القنوط من الفوز الدنيوى ، فلو فزنا بالدنيا كان ما أدعو إليه أهم منها أيضاً .. لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قال ما معناه : « بلغت المنتهى فى اكتساب الدنيا فمهمتى اليوم كسب الآخرة ! » فهذا الكسب هو الصفقة الرابحة التى لاصفقة تعدلها والتى تموز الملوك . وإذا كان كسب الآخرة هو مهمة الناجح فى كسب الدنيا فلأن يكون مهمة الذين خسروها أولى .

* * *

ربما يوجد بين القراء المسلمين لاسيما مسلمى هـذا العصر من يشق عليهم التسليم بضياع الدنيا بل قد يوجد فيهم من لاترضيهم الآخرة المجردة من الدنيا مهما جل نعيم الآخرة وضؤل بجانبه نعيم الدنيا الفانية . . ولى كلام معهم أيضاً وطريقة توصلهم إلى الجمع بين سعادة الدارين الذى لايجانبه الإسلام القائل بلسان نبيه : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً فإن الدنيا بلاغ الآخرة » ولسنا نحن بفاقدى الأمل فى حالتنا الحاضرة كل الفقد إن كنا رجالا مستكملى العزم فى تدارك مافاتنا من كلا الأمرين . وإنى أعلنت إلى هنا كيف أضعنا الدنيا بتقصيرنا فيما كان يجب أن نعمل به على حسب ماحدث للدنيا من الأوضاع الجديدة ، ولم أذكر شيئاً عن تقصيرنا فى الأزمنة الطويلة المتقدمة على الأوضاع الأخيرة . . ذلك التقصير الذى استمر إلى الزمان الحاضر وهيأ لنا خسارة الدنيا والآخرة . وقد لفتُّ الأنظار هنا إلى الخسارة الأولى فقط لما تجلت هى أمام كل عين

بصيرة فأهبت بالمسلمين إلى الاحتفاظ ببقية مافى أيديهم من قوة الإسلام صونا لهم من خسارة الدارين .

أما إذا أرادوا أن يكونوا أقوياء فى الدين والدنيا معاً ويُبعثوا إلى الحياة مرة ثانية قبل مبعث الآخرة ، فطريق الوصول إلى هذه الغاية فى موقفنا هـذا الذى لا أمل لنا ولا قدرة على سباق الأمم الغالبة فى الحربين المذكورتين ، بالسلاح هو التمسك بديننا وأخذ القوة من قوته حتى القوة الدنيوية إلى حد أن نغلب الغالبين ؛ لأن الإسلام أقوى الأديان وأوفقها للعقل الذى يغلب بفضله غُلّابُ الدنيا . والقارئ يتبين هـذه النقطة الأساسية من هذا الـكتاب ، ويتبين منه أيضاً أن غلاب الدنيا فى الحروب الأخيرة يحاربون الأمم بسلاح العقل ، حتى إذا قام العقل يحارب دينهم الذى لايتفق مع العقل كسروا هذا السلاح واستسلموا للدين ولـكن لابد أن يكون هذا الدين الذى سبب قتل العقل وكسره ، مكسورا أيضاً وعلى الأقل متّهماً بقتل العقل .

ومع هذا فالقوم أصحاب هذا الدين المـكسور والعقل المـكسور يقومون بعجائب الأعمال . ونحن السليمى العقل والدين من اصطدام بعضهما ببعض بل المتقوى ديننا بعقلنا وعقلنا بديننا عاجزون أمامهم . فإن كان الدين قوة والعقل قوة فلماذا لانستفيد قوتين منهما سليمتين فى حين انهم يستفيدون من قوتهما مصطدمتين ؟ وماذا ينقصنا بالنسبة إليهم حتى وقعنا فى هذا العجز المقيم ؟

وقد يقال إنهم لا دين لهم أو بالأصح لا دين لرجال الدولة والسياسة والعلم الذين يقودونهم ويسوقونهم .. لا دين لهذه العناصر العقلية فيهم حتى يقع الاصطدام بين دينهم وعقلهم فيكون العقل فى واد والدين فى واد وتـكون السلطة فى غير جانب الدين . وهذا هو الشكل المعبر عنه بفصل الدين عن السياسة والدولة . وسيجىء بحثه منا فى هذا الـكتاب مع نتيجة البحث القائلة بعدم جوازه فى الإسلام . فهل هذا سبب قوتهم وتقدم بلادهم كما يدعى المدعون أيضا .

وجوابه أن فصل الدين وإقصاءه عن السياسة أخذ يُعمَل به من زمان قديما فى مصر وتماما فى تركيا الجديدة ولم يُر من تأثيره فى تقدم المملكتين ما يستحق الذكر .

وإنما يُرى أعظم تأثير الفصل فى إفساد الأخلاق حيث لا يمكن ادعاء بقاء الأخلاق على نزاهتها فى البلاد المقطوعة صلة حكومتها بالدين كما لا يمكن ادعاء وجود واسطة لصيانة الأخلاق من السقوط، أفضل من الدين . ولهذا أصبح التقدم المشهود فى بلاد الحضارة الجديدة مليئاً بالفسق والفجور، حتى ان اتساع الميدان للفسق والفجور فى تلك البلاد يعدّ من لوازم تقدمها . فإن كانت حاجة أية أمة فى أخذ حصتها من التقدم والنهوض فى الحضارة الجديدة ، مسلَّمة لحد لزوم الإغماض عما تستتبعه تلك الحضارة من فوضى الأخلاق ، فنحن المتأخرين نلام بالتقصير فى مهمتنا ونكون حريا أن يعتبرنا المتقدمون دونهم فى مرتبة الإنسانية ، وإلا فالأمر بالعكس ونحن أسعد منهم وفوقهم .

ولا يقتصر حال هؤلاء الأمم المتقدمة المتحضرة فى القبح ، على شيوع الفسق والفجور فى بلادهم بل ينضم إلى مثالبهم الداخلية اعتيادهم الظلم والغدر على أهل البلاد التى تطاولت أيديهم إليها ينغصون عليهم المعيشة والحياة فى بلادهم ويشاركونهم فى اجتناء منافعها محرّمين على أهل البلاد مايحللّونه لأنفسهم من حقوق الإنسان ومتوسلين فى كل ذلك بكل وسائط من الجبر والمكر والخديعة . ونحن نسمع الفينة بعد الفينة عن بعض الواقفين على أخلاق الإنجليز شعباً وأمة لا حكومة، أنهم مخلصون فى صداقة من يتصادقون معهم من غير بنى جلدتهم على الرغم من كون حكومتهم مع الأجانب أخدع من الضب وأخبث من الثعلب وأعيث من الذئب . لكن رأيى أن لايكون أصدقُ تمثيلا وتعبيراً عن الأمة من حكومتها ، لاسيما إذا كانت حكومة برلمانية مبنية على الانتخاب الحر لأن الحكومة الإنجليزية إن لم تتعلم المكر من أمتها فمن أى حكومة تعلمته ولا حكومة أمكر منها ؟ اللهم إلا أن تكون تعلمته من الشيطان .

ونحن لانعترف بكون الأمم المتحضرة الحاضرة المتغلبة على الدنيا بغياً وعدوانا بعد الحصول على أسباب تلك الغلبة من الاكتشافات العلميـة والأساليب المدبرة .. لانعترف بكونهم أعقل الأمم .. أما متدينوهم فلاصطدام عقولهم بدينهم ، واستسلامهم لذلك الدين ، وأما ملاحدتهم فلقصور عقولهم عن فهم الدين الذى هو فى طليعة الحقائق العالية العقلية كما يتبين من هذا الـكتاب ولأن المعقول من صاحب العقل الراجح أن لا يكون ظالما ضارا لأى واحد من بنى آدم . قال أحد ذوى العقول الـكبيرة :

نهانى عقلى فلا أظلم   وعز مكانى فلا أظلمُ

وعلى رواية (حلمى) فى البيت بدلا من (عقلى) فالحلم أيضاً بمعنى العقل كما فى قوله تعالى « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » ويلزم أن تـكون زيادة العقل فى الإنسان تتنافى مع الفسق والفجور أيضاً . ولذا قال الله تعالى حكاية عن أهل جهنم : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » فلا نسلم بكون أصحاب الحضارة الجديدة الفاجرة القابضين على زمام الدنيا أعقل الأمم .

نعم لعقولهم تقدم فى الماديات لا فى المعنويات . فلهم النصيب الأوفر من عقل ينفع صاحبه فى الدنيا ويستفيد منه شرار الناس أكثر من خيارهم، وعقولهم من جنس عقل الشيطان الذى لما أمره الله تعالى مع الملائـكة بالسجود لآدم فسجدوا وأبى ، زعم أنه أعقل من الملائـكة يدلل على إبائه قائلا : « أنا خير منـه خلقتنى من نار وخلقته من طين » مع أن العقل السليم لايتصور لأحد أن يجادل الله خالقه وخالق عقله ، فـكان ما اكتسبه الشيطان من عقله هذا الخاطىء الذى حفظ شيئاً وغابت عنـه أشياء ، أن أصبح رجيما ثم أذن له أن يكون من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ليغوى من بنى آدم من كان لهم عقل مثل عقله وغاية مكتسبة مثل غايته، كما أن غاية عقلاء الحضارة الجديدة أن يعيشوا ويموت غيرهم .

هـذا حال أهل الديانة فى الغرب المتحكم على الشرق المسلم ومرجعه التوغل فى الضلالات . وعقلاؤنا المثقفون من المسلمين الجدد يقتدون بالغرب ويعتبرون هذا الاقتداء عماد النهضة والثقافة لهم .

خطتى فى هذا الـكتاب الذى يشرح كل هذه الضلالات ويعالجها ويحل كل عقدة ارتباك فى عقولنا بعقل الغرب المسيحى والغرب اللادينى : خطة الانصراف عن تقليد الغربيين الذى دب دبيبه وهبت عاصفته ثم رست ورسخت فى أدمغة كتابنا المصريين وبعض علماء الدين . فخطتى وهى خطة النجاة للمسلم الجديد ـ ترك التقليد الذى كان قبل نشر هذا الـكتاب خطة المسلم الجديد ، وخطتى هذه ضد الخطة التى أوصى بها الدونـكيشوت الجديد ـ كما سماه الأستاذ سيد قطب ـ فى كتاب « هذه هى الأغلال » فهو لم ير التقليد الموجود كافيا ، فأوصانا بالتفانى فى تقليد أوروبا الموجهة كل سعيها للحياة فى هـذه الأرض كالسائمة السمينة القوية الخالية عن فـكرة التطلع إلى سماء الدين والأخلاق ، فإن كان قد يرفعهم من الأرض ما يركبونه من الطائرات ويقربهم إلى السماء فليس ذلك إلى الله تعالى بأجنحة من الدين وفضيلة الأخلاق ، والتطلع إلى الله على قول صاحب الـكتاب كفيل بإفساد الحياة !!

نترك التقليد فى العقلية الدينية وتقدير صلتها بالعلم فى معناه الصحيح ، فنملك استقلالنا فى العقيدة التى هى أساس الأعمال الصالحة والتى استقلالها يتقدم على الاستقلال السياسى للأمم الإسلامية ، والمسلم المتعلم إنما يكون مسلماً متعلماً بالاستقلال فى العقيدة الدينية ولا يجوز للمسلم المتعلم تقليد غيره من المسلمين فى العقيدة فما ظنك بتقليد غير المسلمين . وهذا الـكتاب يكفل لهذا المسلم المتعلم إن شاء الله بهذا الاستقلال . وليس ذلك من صعاب الأمور عليه ، لا يكلفه شيئا سوى استعمال عقله بحرية غير مقيدة بغير الدقة والاهتمام فى فهم مباحثها .

فللمسلم قوتان : قوة من دينه وقوة من عقله ولا قوة لمن لا دين له من دينـه ،

والمسيحى فى حرب مستمرة بين دينه وعقله المتعارضين ، فينقص كل منهما من قوة الآخر ولا يدخل فى قلب صاحبه إلا مفتوت المضد ، فى حين أن قوتى الدين والعقل سليمتان فى قلب المسلم متحالفتان . أما الذين يقلدون الغربيين فى الشرق متدينيهم وملاحدتهم معا فلهم قوة التقليد فقط .

وبعد اقتناع المسلمين المتعلمين بعقيـدة الإسلام اقتناعا يتفق مع العقل والعلم الصحيحين يكونون مسلمين حقيقيين ويسهل لهم الحصول على مايحتاجون إليه أيضا من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، إذ العمل مبنى على العقيـدة التى لايتعب بها الإنسان أصلا بعد استيقانها بعقله وفهمه ، بل تـكون له منها قوة ينشرح بها صدره ويستعين على القيام بالناحية العملية التى ليست بسهلة فى حد ذاتها سهولة الناحية الاعتقادية ، لانطوائها على تـكاليف وتضحيات .

وبانضمام العمل إلى العقيدة يحصل الـكمال فى الإسلام وينتفع المسلم العامل بدينه فى الدنيا قبل أن ينتفع به فى الآخرة . أما العقيدة المجردة من العمل فهى لاتجدى المسلم فى دنياه غير إعانتها على العمل لو عمل ، وتكون جدواها فى آخرته إنقاذه من عذاب الأبد ، إن أمكنه الاحتفاظ بها طول عمره سليمة من غير أن يعمل بمقتضاها، كما أن العمل من غير عقيدة مستبعد غاية الاستبعاد وعـديم الفائدة بالمرة فى آخرته . والمسلمون فى زماننا يتلاومون فيما بينهم بالتقصير فى العمل عازين إليه تأخرهم المشهود ، مع أن تقصيرهم فى العقيدة التى لاتقبل التقصير أصلا أشد من تقصيرهم فى العمل، وهو داؤهم الذي أصيب به الـكثرة الساحقة من مثقفيهم فعاقهم عن الصلاة والصيام ، وعاق حكومتهم عن العمل بقانون الإسلام فى بلاد معدودة من البلاد الإسلامية استبدالا به قانون فرنسا أو غيرها[1] أو تعديلا فى قانون الاسلام يتضمن الخروج

---

[١] دار الإسلام فى عرف الفقهاء تطلق على البلاد التى يحكم فيها بقوانين الإسلام ويسمى خلافها دار الحرب .

عليه باسم التسهيل على الأمة أو التوفيق بمصلحتها ، حتى ان الكثيرين يعجبهم فصل الدين عن الدولة ، وحتى كان الشيخ الأكبر المراغى لايعد الفقه من الدين ولا التغيير فى أحكامه تغييراً فى الدين[١] وكان كل هذه المحاولات يتظاهر أصحابها بالخروج على الجمود فى الإسلام طلبا للسهولة والمصلحة والتجديد فى ناحية العمل ، لكن الحقيقة أنهم خارجون على الإسلام نفسه من ناحية العقيدة أي ناحية الإيمان به الذي هو أساس العمل بأحكامه ، ولهذا سهل عليهم التغيير فى أحكامه العملية ، ولهذا أيضاً عُنيت فى هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية وصرفت كل جهدي فى تثبيتها ، وإنما قلت ان محاولى التجديد فى أحكام علم الفقه طلباً للسهولة والمصلحة العامة غير عادتها من الدين ، يريدون الخروج على الدين نفسه لأنا نراهم قد يجترئون أيضا على تغيير وتجديد فى عقائد الإسلام الثابتة بالكتاب والسنة ، ومثاله إنكارهم المعجزات الكونية للأنبياء ، فهل فى ذلك أيضا تسهيل على المسلمين وخدمة لمصلحتهم ، أو فى الاحتفاظ بالعقائد سالمةً عن التغيير تشديدٌ عليهم كأنهم أنفسهم يأتون بتلك المعجزات؟ وكأن فى إنكارها أو تأويلها بما يخرجها عن الإعجاز تخفيفا وتسهيلا على الله الذى هو مظهرها على أيدى أنبيائه ! وكأن الشيخ المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء المنصوص عليه فى كتاب الله ونزوله فى آخر الزمان المنصوص عليه فى الأحاديث النبوية يصعّد بنفسه فى السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق لو اعترف بالرفع والنزول ؛ فيضطر إلى تأويل القرآن برفع روحه ورفض ستين حديثا فى نزوله رواها ثلاثون صحابيا ! وهل المحاولون رد النبوات إلى العبقرية - لكون النبوة ومايلازمها من المعجزات خوارق والتباس خوارق العادة عليهم بخوارق العقل المستحيلة - لايدركون مبلغ خطورة الضلال فى الاعتقاديات معرضين عن درسها وتمحيصها إلى أن يتجلى لهم

---

[١] لهذا البحث تفصيل وتمحيص يأتى فى الباب الرابع من الكتاب .

الحق ويمتاز من الباطل[١] وهل الكسل فى درس العقيدة الدينية للطائفة القادرين على الدرس والتنقيب أو على الأخذ من القادرين ، يقاس بالكسل المتعلق بناحية العمل المؤدى إلى التقصير فى القيام بحقها ، أم له مغزاه المنبىء عن عدم الإيمان بالدين أو عدم التحرج من أن يكون إيمانهم خليطا بالشك ؟

* * *

أما إذا عاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى وصاروا مسلمين حقيقيين ، يتقدمهم خاصتهم المتعلمون فى متانة الناحيتين ، فيكونون خير مثال لعامتهم فى اعمار المساجد بالعبادات والمسارعة إلى الخيرات واجتناب المنكرات ، ويكون الكل المجموع من خاصتهم وعامتهم خير نموذج لأمم العالم ـ فى فضائلهم الخلقية ومبادئهم الإنسانية فتقصر المسافة بين أغنيائهم وفقرائهم كما تذوب الفروق القومية فى وحدتهم الإسلامية. وقد أثبتنا فى الباب الرابع من الكتاب أن الإسلام جنسية مستجمعة للوازم الجنسية لايدانيه فى هذه الميزة أى دين فتحصل بين كل مسلم ومسلم من مجموعهم الذى يناهز ثلاثمائة مليون نسمة شركة تضامن وتعادل لايفضل عربيهم على أعجميهم ولا أبيضهم على أسودهم إلا بالتقى ولا يحب مسلم لأخيه المسلم إلا مايحب لنفسه . . تضامن أصدق وأنزه وأسمى مما فى شركة الشيوعية العالمية الحديثة والماسونية القديمة ، لكون الغاية من هذا التضامن كسب الآخرة قبل كسب الدنيا ، يُتمسك به على أنه واجب دينى ، وكون الديمقراطية التى فيه أصح من الديموقراطيات القائمة على الدعايات والمخادعات .

---

[١] مما يدل على عظم خطورة الناحية الاعتقادية فى الإسلام التى هى الناحية العلمية ، بالنسبة إلى الناحية العملية ، مع كون الثانية أصعب من الأولى .. أن شارب الخمر بالفعل أو الزانى بالفعل مثلا لا يكفر مادام يعد نفسه آثما فيما فعله ، ويكفر من لم يزن ولم يشرب الخمر فعلا ولكنه أباحهما .

فالديمقراطية الإسلامية التى هى وضع إلٰهى تشعر بالمسئولية عند الله قبل الناس ويتسع صدرها لصالح البشر جميعا كما كان الله للجميع فى المثل الفرنسى ولا تعمل لحساب قومها على حساب أقوام أخرى ... لابد أن تفوق الديمقراطيات الموضوعة بأيدى رجال سياسيين وأن تخدم أكثر منها لخير البشر ، والفائدة التى تضمنت لحساب الفقراء تصل إليهم مباشرة وطوعا من الأغنياء الذين جعل الله فى أموالهم حقا للسائل والمحروم .. تصل إليهم ولا يبقى معظمها فى أيدي السماسرة السياسيين الذين ابتدعوا ماابتدعوه من الديمقراطية الشيوعية والبلشفية لإنقاذ الفقراء من أسر الأغنياء ، فأصبحت النتيجة وقوع الفقراء والأغنياء جميعا فى أسر أولئك السماسرة .

وأصدق ناحية القول عن البلشفة التى ينساق إليها الفقراء وأصحاب القلوب المتألمة بآلامهم من كل أمة ويقلق هـذا الانسياق بال كل دولة ، على الرغم من أن حال الفقراء فى بلاد البلاشفة أو بالأصح حال عامة الناس غير المديرين لتلك البلاد ، لا تزال فى ظلام دامس ، لاسيما من ناحية الحرية التى هى أعز مايملكه الإنسان ، فربما يتمكن غير البلشفى من الدخول فى البلشفة ولا يتمكن من الخروج عنها فى ديارها ...

أصدق ناحية القول عن البلشفة التى ينساقون إليها رغم خطرها ، انها دلت على إفلاس الديمقراطية القومية المقيمة من حيث انها لاتقبل الانضمام إليها من خارج القوم ، لكونها مؤسسة على الفوارق العنصرية لا على المبادئ الفكرية المباحة لكل من يعتنقها . ولهذا ترى الديمقراطيين القوميين إذا أرادوا أن يتوسعوا ويجعلوا لهم قوة مكتسبة فوق قوتهم الطبيعيـة ، احتاجوا إلى اعتناق أحد المبادئ الفكرية والمذاهب الاجتماعية منقسمين إلى أحزاب ، حتى ان الروابط الحزبية تتغلب على الرابطة القومية فتحدث الجدال والخصام بين أفراد قوم واحد . وكل هذا يدل على أن الإنسان

من حيث انه إنسان ينحاز إلى زملاء الفكر والروح ، وبه يتحقق معنى المدنية الخاصة بالإنسان . فهذا الإنسان قد يقع فى طريق البحث عن المبادئ الفكرية والمذاهب الاجتماعية قضاء لحاجته الروحية وتقوياً بالزملاء المكتسَبين الذين لايجد لهم حدود ، فى الشيوعية .

فانسياق الناس إلى البلشفة التى لهـا جاذبية المساواة وإلغاء الطبقات ، مع مافيها من خطر الحد الشديد من الحرية والطغيان على الفضيلة والأخلاق .. عبارة عن الغلط فى الاختيار من الديمقراطيات المبنية على مبادئ الفكر ، ولو اختاروا الديمقراطية الإسلامية لوجدوا فيها مايبحثون عنه من غير تورط فى أى خطر .

فالمسلمون إن كانوا مقدرين حق التقدير أن دينهم أقوى الأديان فى تأسيس رابطة بين العقل وعقيدته ورابطة متينة أخرى بين طبقات المتدينين به .. إن كانوا مقدرين قوة الروابط التى تجعلهم أقوى أمم الدنيا بغـير سلاح ، رأوا أن دينهم مستعد لأن يعلنوه بأقوالهم وأفعالهم أفضل مبدأ وأصلحه لدعوة البشرية إلى تحت رايته ليكونوا اخوة متعاونين على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، لايدانيه مبدأ القومية الضيّـق ولا مبدأ الشيوعية المنافق ، فكيف يكون الروس بفضل تمسكهم بمبدأ البلشفية التى تأخذ قوتها الممتازة من فقراء العالم فى كل أمة المنجذبين إليها وممن يرحمونهم من أصحاب القلوب .. أقوى الأمم الحاضرة ، ولا نـكون نحن المسلمين أقوى منهم بفضل التمسك بالإسلام ؟ فهل ميزة السوفييت فى كون باطنها مخالفاً لظاهرها[1]؟ أم فى

---

[١] فقد نقل الأستاذ التابعى فى (أخبار اليوم) عن أمريكى سماه (ر . ا . ت) قضى سنوات فى موسكو قبل الحرب وأثناء الحرب لايذكر أنه رأى فى أحد شوارعها واحدا يبتسم وأن الجميع يسيرون وكأن حملا ثقيلا من الهموم يركب رؤوسهم وأكتافهم .

ومن أدلة كون الروس السوفييت لايتفق باطنها مع ظاهرها . . من أدلته الواضحة المفضحة وقوف هذه الدولة فى مسألة فلسطين التى يتنازع فيها اليهود العرب ، بجانب اليهود ومسابقتها =

كونها تقضى حاجة الجسم فقط إن صح أنها تقضيها؟ فى حين أن الديمقراطية الإسلامية تقضى حاجة الروح أيضاً ، أم فى كونها ـ أى الديمقراطية السوفيتية ـ إباحية مستهترة فى مناسبات الرجال مع النساء ؟ كما كانت المدنية الأوروبية قريبة منها فى هـــذا الاستهتار ، يحتضن الرجل من اشتهاها من النساء الموافقات فيراقصهن فى المحافل والأندية بين ظهرانى أزواجهن أو اخوانهن ، وهل عيب الإسلام فى كونه غيوراً على أعراض النساء يصونهن عن مظان الانزلاق ؟

وإنى أخاف أن يكون الأمر كذلك فى عصر العقول الخفيفة والوجوه الصفيقة . كان الإنسان فى الماضى يحذر من أن يكون خليع العذار ، فأصبحنا فى زمان تمشى الفتيات فى الشوارع خليعات الإزار أو أشباه الخليعات ؛ وكان يقال «العينان تزنيان» ثم رأينا توسع الزنا إلى الأيدى والأعضد والصدور والخصور ، وكان يقال :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا   لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر   عليـه ولا عن بعضه أنت صابر

فأوشك من كثرة انضمام البعض إلى البعض أن يكون الـكل مقدوراً عليه. ومما يؤسف له بل يُبكى أن هذه الحالات الخليعة أخذت تسرى إلى المسلمين ، بدلا من سراية ما فى الإسلام من الإباء والاحتشام إلى غير المسلمين .

فإن كان مايعوق المسلمين فى عصرنا عن تدارك ما فاتهم من مجد الإسلام القديم بالطريقة التى شرحناها .. الاستسلام لتيار الشهوة الخليعة والاستهتار فى الاختلاط الجنسى فى المجتمعات والخلوات . ذلك التيار الآتى إلى بلادنا مخترقاً لسد الحياء الإســلامى وناقلا للغلبة الموعودة لسلاحنا فى ميادين المجد إلى سلاح الشيطان الذى ما أيس من بنى آدم إلا أتاهم من قبل النساء كما فى الحديث النبوى ...

= الدولة الأمريكية فى الاعتراف بدولتهم المزعومة التى لو تأسست ـ لاقدر الله ـ كانت أحق بوصف الرأسمالية من أى دولة أخرى.. فأين يبقى إذن ماهو المعروف من أن أول مبادىء البلاشفة الشيوعيين عداوة الدول الرأسمالية . ؟

إذا كان الأمر كذلك فلا لنا التأخر فى قوافل الحياة أبد الآبدين، والله لا يهدى القوم الفاسقين . على أن التمسك بالإسلام وتأييد المتمسكين به المحافظين على آدابه وشعائره واجب الأمم الإسلامية ، لا لاكتساب الغلبة فى مضمار الحياة العالمية .. بل للدفاع أيضاً عما بقى لهم فى حالتهم الحاضرة من الوجود واستقلال الوجود ولو فى قافلة المتأخرين . وهـذه البقية تدوم ماتدوم، بفضل وجود المتمسكين بالإسلام حيال ضغط الطبقات المالية الظالمة المؤدى إلى انفجار مظلوميها ثم وقوع الظالم والمظلوم فى هاوية الشيوعية والبلشفة . فالإسلام لاسيما إسلام الطبقات الفقيرة هو الحاجز الحصين اليوم دون خطر الوقوع فيهما . فلو كانت الطبقات الغنية أيضاً مسلمين حقيقيين لزال الخطر تماماً وحصـل الظفر . أما الثقافة المجردة عن الدين واتخاذها سلاحاً لدرء الأخطار فحاملوها إذا استغنوا يخوضون فى الفسق والفجور ، وإذا افتقروا أصبحوا دعاة الخطر بعينه .

وإنى أدعو علماء الدين إلى أن يكونوا رسل هذه الديموقراطية الإسلامية فيقوموا بالسعى البليغ لترغيب المسلمين فى تعديل مابينهم من الفروق الشاسعة الاجتماعية التى تجعل لأصحاب الطبقات السفلى حياة كحياة الاحتضار المقيم وتـكون خطراً على أصحاب الطبقات العليا مستعداً للانفجار فى كل يوم وليـلة .. والتى تنتصب منظراً فظيعاً وسدًّا منيعاً لاستقرار الأخوة المطلوبة بين المسلمين لاسيما فى هذا العصر الأخير الملىء بالفتن والتسويلات .

فإن قام علماء الدين بهذا الإصلاح الاجتماعى الذى نرى البلاد الإسلامية فى حاجة إليـه لاسيما مصر .. أسدوا أعظم خدمة للفقراء والأغنياء بل الدين نفسه أيضاً الذى واجبهم الخاص حراسته وإعلاء شأنه ، لأن معظم أهل الطبقات الدنيا الذين هم الـكثرة فى الأمم والذين تروقهم الشيوعية الزمنية ، يزعمون مالا طاقة باحتماله فى هـذا الزمن من دوام سلطة القادرين على العاجزين ودوام طاعة الآخرين للأولين ، قائماً على الدين

لكونه آمراً بطاعة أولى الأمر والمحافظة على الأمن والأسرة والملكية وناهياً عن الفتنة والثورة .. حتى يقال ان الدين هو أعظم ضمان للبلاد يصونها من الشيوعية والبلشفة . ونحن نقول إن هذا من عظيم فضل الدين على البلاد ، لكن معناه من ناحية أخرى ينم على كون الدين يحمى الطبقات العليا من ثورة الكثرة المظلومة فيعمل على إدامة سلطة القلة عليهم ويظلمهم مع الظالمين المتغافلين عن حقوق الفقراء على الأغنياء .

فيجب على علماء الإسلام رفع التهمة عن الدين تهمة كون الأغنياء يحافظون على طبقتهم الممتازة فى ظل حماية الدين مع حرمان الفقراء عن هذه الحماية محكومين على الصبر والسكون وممنوعين عن التوصل بالقوة إلى حقوقهم المضيعة .. وهذا التفريق بالنفع والضرر على الرغم من أن الدين إن كان باقياً فى هذا الزمان فممد غير الطبقات العليا .

يجب على علمائنا رفع التهمة عن الدين تهمة الظلم على الفقراء وعلى نفسه فى خذلان أنصاره ونصر غير الناصرين لأنصاره ... بأن يسدوا النصح المتواصل إلى المترفين ويقولوا : الإسلام الذى يصونكم من الثورة جعل فى أموالكم حقا للفقراء إن لم تؤدوه عن طيب نفس وتدعوهم فى بأسائهم فلا يحتملها الزمان إن احتملوها ، وإن كانت نتيجة عدم الاحتمال خسارة الثائرين مع المثور عليهم وانتفاع غيرها من تجار المبادئ العصرية الهدامة الماهرين .. ثم يرفعوا العقيرة لإيقاظ المترفين عن نومهم المقيم على شفا جرف خطر يدهمهم فى الدنيا قبل الآخرة ، من قِبَل مواطنيهم الذين يبيتون فى ظلامين من الجهل والليل ويظلون على جمرتين من حرارة الشمس وحمّى الأمراض ، يلبسون الاسمال ويشربون الأوحال التى لا يسوغ شربها لذة أو طبا .

* * *

وفى آخر كلمتى إلى القراء الكرام ألخص مابعثنى على تأليف هذا الكتاب مما رأيته فى مصر التى آوتنى بعد مغادرة بلادى فأصبحت بدلا منها يعنينى ما يعنيها من خير أو شر ويتحتم علىّ أن أخدمها بما يتوقع من مثلى شيخاً من مشايخ الإسلام حنكه الزمان ولم يفت فى عضده مالقيه من الشدائد فى سبيل المصارحة بكلمات الحق والصدق ـ التى تكون على الأكثر مرة ـ مع التنقيب فى درس مسائل العلوم المتعلقة بحياة الإسلام العلمية النافعة فى صيانتها من تيار الإلحاد الحديث ، فأقول :

إن دولة الترك المسلمة التى دفاعها بسيفها عن حياض الإسلام ضد أعدائه يستغرق الثلثين من تاريخه وتندرج فى ذلك ـ عند التحقيق ـ أدوار الحروب الصليبية الموجهة إلى البلاد الإسلامية والمنتهية بالنسبة إلى تلك الأدوار فى ردها على أعقابها ... هذه الدولة كان آخر سلاح حاربتها به الدول الوارثة لضغائن تلك الحروب ، نشرَ الإلحاد القائم على العلوم والمبادىء المادية بين أبنائها المثقفين ونشر المبادىء القومية بين العناصر المندرجة تحت لوائها .

وقد وجد أول هذين السلاحين عوناً للأعداء فى قلب تركيا ، فكان استعماله كفتح الحصن من داخله ، كما وجد السلاح الثانى رواجاً عظيما فى أطراف تركيا . وكفى السلاحان فى القضاء على دولة الترك المسلمة المجاهدة[1] .

---

[١] وهذا السلطان عبد الحميد آخر من تولى السلطنة العثمانية بمعنى الكلمة وحكم مدة ثلث قرن على البلاد الواسعة التى من ضمنها الأقطار العربية ، إلى أن خلع فى ثورة دبرها حزب الاتحاد والترقى ، وتفرقت تلك البلاد بعده أيدى سبأ فى حروب متعاقبة . . .

هذا السلطان كان سداً منيعا لنزول المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، وكان من المصادفات التى لها مغزى أن بلغ السلطان قرار البرلمان على خلعه ، قره صو اليهودى نائب سلانيك الذى اختارته لهذه المهمة الهيأة الممتازة لها من طرف البرلمان المؤلفة من خمسة رجال من الشيوخ والنواب المختلفى الدين والعنصر . . . والذى سبق له الحصول قبل إعلان الدستور فى تركيا على مقابلة السلطان مندوبا من اليهود الصهيونيين ، فاتحه فيها رجاءهم المتعلق بمسألة الهجرة إلى فلسطين مع تقديم هدية موعودة =

وكنت لما كنت فى بلادى كافحت هذين السلاحين على طول فترة انتقال الحكم فيها إلى أيدى الملاحدة وكان ظنى عند مغادرة تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب التى جاء نور الإسلام إلينا منهم ، أنى أستريح من مجاهدة الملاحدة . لكنى وجدت الجو الثقافى بمصر أيضاً مسموماً من تيار الغرب ، فشق هذا على نفسى أكثر مما شق علىّ موقف تركيا الجديدة من ذلك التيار ، كما شق وقوفى على أن اخوانى العرب يفضلون تركيا هذه على تركيا القديمة المسلمة ، فرأيتهم توغّلوا فى تقليد الغرب وسابقوا الترك فى الافتتان به . والانقلاب الثائر فى تركيا حصل عندهم فى شكل هادئ ومن طريق التأثير والتجديد فى الأزهر، فترى مجدده الشيخ محمد عبده الذى ناظره الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » وقال فى مناظرته : « إن الدين يخالف العقل والعلم لأنه الإيمان بخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ووحى ونبوءة ومعجزة وبعث وحشر وحساب وثواب وعقاب وكلها غير محسوسة ولا معقولة ، وأن العدو الحقيقى للأديان فى هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجاً عنها ، فهو عدو جديد أخرجه التمدن الجديد ... »

هذا الشيخ الذى ناقش ذلك الأستاذ فى الماضى البعيد تراه فى الماضى القريب يؤلف الأستاذ محمد صبيح كتاباً مسمى باسمه ويضع فى غلاف الكتاب لوحة تصور إيفل الباريسية مع مآذن الجامع الأزهر تقتبس رؤوس الثانية ضياء من رأس الأولى ؛ ويحكى المؤلف فى كتابه بكل إعجاب كيف قضى الشيخ على علماء الأزهر القدماء وعلومهم وكتبهم كما سيجىء تفصيله فى كتابنا هذا .

وكما ترى الأستاذ فريد وجدى بك الذى ناقش الشيخ التفتازانى المرحوم دفاعاً

= قدرها خمسون مليونا من الجنيهات الذهب لخزينة الدولة وخمسة ملايين منها لخزينة السلطان الخاصة على تقدير قبول المسئول ، فلقى رجاؤه رداً عنيفا من السلطان مقرونا بإخراجه من حضوره فى سخط واحتقار . . . فهل يعرف إخواننا هذه المواقف السابقة لفلسطين فى الماضى القريب ويقارنونها بالحالات الحاضرة ؟

عن الانقلاب الكمالى اللاديني فى تركيا ، وقال : « فنحن الذين شهدنا هذه الآية الاجتماعية يحرم علينا أن نصغر من شأنها أو نمر بها غير مكترثين ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مر بها الأتراك متى جاء دورنا فى نهوض حقيق صحيح . فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درساً فلا أقل من أن نعجب به مع المعجبين . »

وناقشنى هذا الأستاذ بعد سنتين منكراً لمعجزات الأنبياء ومضيفاً إليه عند النقاش إنكار البعث بعد الموت ، وقال : « ... ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره فتغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجمل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مئة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلا فيها ، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد متيقنا أنه مصير أخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية .

« وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسًّا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض . »

فيفهم من هذا ومما يأتى أن الدين فى مصر مع ما فيها من الجامع الأزهر وغيره من المعالم والمعاهد القديمة فى حالتها الراهنة ، ومع كون دستورها الجديد لا يزال ناطقاً بدين الدولة .. لفى حالة عجيبة ، لا من ناحية العمل بأحكام الشريعة الإسلامية

وقوانينها فحسب ، بل ومن ناحية الاعتقاد والاعتراف بأصول الدين الملخصة فى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

فمعجزات الأنبياء المعدودة من الخوارق التى تستند إليها نبواتهم غير معترف بها عند المبرزين من العلماء الذين اتخذتهم مصر الحديثة أئمة فى الدين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ الأكبر المراغى واقتدى بهم الكتاب من كبار المؤلفين مثل الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى بك الذى يعدُّ آيات المعجزات ، بل آيات البعث بعد الموت أيضاً من المتشابهات غير المحكمات .. إلى صغارهم مثل الدكتور توفيق الطويل القائل فى كتابه « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » ص ٢٧ :

« رأى ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث الذى ينكر الكرامات وخوارق العادات ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل متمشية مع سنة الكون مسايرة لطبيعة الأشياء » مع أن المعجزة المؤولة بما يتمشى مع سنة الكون لا تعود معجزة فتأويلها به واعتبارها بدون تأويل غير متفقة مع منطق العقل يرجع إلى إنكارها .

ثم إن نبوات الأنبياء تنهار بانهيار المعجزات لاشتراكهما فى علة المخالفة لسنة الكون . ولذا جاء تعريف الشيخ محمد عبده بالنبى — كما يأتى نصه فى الباب الثالث من هذا الكتاب — خالياً من خصائص النبوة المعروفة مثل الوحى والملك المرسل والكتاب المنزل والمعجزة . والنبوة المنهارة تتحول فى لسان الاتجاه الحديث إلى « العبقرية » فيعتبر أنها ماخسرت من ميزتها !.. فهذه حالة مصر الحاضرة — المستورة المكشوفة — فى عدم الاعتراف بوجود الأنبياء .

أما عدم الاعتراف بوجود الله فله علامات أبرزها تصريح الأستاذ فريد وجدى بك — كما سبق نصه وسيتكرر ذكره فى هذا الكتاب عند مناسبات كثيرة — بأن فى

الشرق الإسلامى نوابغ من الكتاب والشعراء اتصلوا بالغرب وعلومه فرأوا دينهم مقذوفاً به مع سائر الأديان إلى عالم الأساطير ، فلم ينبسوا بكلمة لأن الأمر أكبر من أن يحاولوه ولكنهم استبطنوا الإلحاد متيقنين أنه مصير اخوانهم كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية ، وهم اليوم مشتغلون بتهيئة الأذهان إلى قبول ماستبطنوه دسا فى مقالاتهم وقصائدهم، غير مصارحين به غير أمثالهم . والأستاذ نفسه منهم وفى طليعتهم وإن كان لاينسى تفريقه منهم بطريقة يتسع لها قانون الدس ، حسبك ماينادى به دستوراً علمياً يردده دائماً فى مجلة الأزهر التى يديرها ويرأس تحريرها منذ بضع عشرة سنة : من أن العلم لايعتد بمعقول لايؤيده محسوس كخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ونبوءة غير منظورة ووحى ومعجزة وبعث وحشر وحساب وثواب فى الجنة وعذاب فى النار ، وكلها — مما عده الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » عند مناظرة الشيخ محمد عبده وانطبق عليه دستور الأستاذ فريد وجدى بك العلمى — غير منظورة ولا معقولة .

وحسبك أيضاً تعليل الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر قارئيه بما ينتظره من الغربيين المشتغلين بالبحوث النفسية أنهم سيكتشفون وجود الله فيما يكتشفون . والجمهور من القراء يسرون بهذه المواعيد ولا يفطنون لما دس فيها الكاتب النابغة من أن وجود الله لم يثبت إلى الآن بالطريقة التى تقنع العلم توفيقاً لدستوره المذكور آنفاً .

وترى دعاية الأستاذ ، دعاية ويالللأسف ضد الديانة ، تتخطى من فوق منبر الأزهر إلى ساحة الأدب ، فيكتب مقالة فى مجلة « الرسالة » بعنوان « الدين فى معترك الشكوك » والمجلة تضعها فى صدرها ، يعلن فيها الكاتب أن الدين قضى عليه قضاء لايرجى له البعث إلا من طريق استحضار الأرواح . وهو أن الدين إن كان يعيش الآن فإنما يعيش فى قلوب السذج من العامة ... فلا يحرك هذا الإعلان الذى ينعى الدين ويتضمن أشنع دعاية ضده ، ساكناً فى مصر بين أوساط المتعلمين ، وكيف

يحرك والناعى مندوب الأزهر وممثله فى عالم الصحافة ؟ فياخسارة البلاد التى تسعى للتخلص من استعمار الإنجليز ، وأفظعُ الاستعمار الغربى الذى أفسد الدين والأخلاق ـ ولا شك فى مجيء هذا الفساد مع الإنجليز ـ يخيم فى عقول مثقفيها !..

وهل كان يخطر بالبال أن يكون هؤلاء المثقفون ـ ومعهم سادة الأزهر ـ ينكرون معجزات الأنبياء إلا معجزة القرآن لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، على أن يكون إعجازه أيضاً غير مفهوم منذ أزمنة طويلة خلت ؟ كما صرّح به الأستاذ الأكبر المراغى فى مقالة نشرها فى الفترة المتخللة بين مشيخته الأولى والثانية على صفحات « السياسة الأسبوعية » و « الأهرام » وقال فيها : « وقد انقضى عهد الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك ، ونحن الآن نقيم على الإعجاز أدلة عقلية ونقول انه تحدى العرب وأنهم عجزوا ، وهذا يدل على أنه من عند الله . »

فيرد عليه أولا : لماذا لايعترف هذا الشيخ بإعجاز القرآن حالا وبنفوذه فى نفسه وهو شيخ أكبر المعاقل الدينية والعربية الذى يستوجب أن يكون فهمه للعربية وللقرآن أكثر من غيره ؟ لماذا لايعترف بإعجازه حالا فيحيله على الماضى ؟ فهل هو الذى أعجز العرب القدماء لايعجز العرب الحاضرين ؟

ويرد عليه ثانياً : أن مسألة إعجاز القرآن على هذا لاتقوم على أدلة عقلية أيضاً ، وإنما تنقلب مسألة تاريخية وتقدر قوة ثبوتها بقدر قوة ثبوت المسائل التاريخية ، ومثلها مسألة معجزات الأنبياء مطلقا ، فلماذا إذن يعترف بمعجزة القرآن ولا يعترف بغيرها من المعجزات ؟ ولا محل لاستضعاف التاريخ فى تلك المعجزات لتأيدها بتصديق القرآن المنقول إلينا تواتراً والمسلّم إعجازه متحدّياً للعرب الماضين .

ومعنى إعجاز القرآن على قول معالى هيكل باشا وزير المعارف سابقاً ورئيس مجلس الشيوخ حالا أنه معجزة عقلية إنسانية بلغت أسمى مايستطيع الإنسان أن

يبلغه . قال فى « حياة محمد » ص ٤٤ من الطبعة الثانية :

« فحياة محمد حياة إنسانية بلغت أسمى مايستطيع الإنسان أن يبلغ ، وقد كان حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه ، حتى كان لايرضى أن ينسب إليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك . وقلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر إنما يدعو المستشرقين والمفكرين من المسلمين إلى هـذا الموقف من هذا الحادث ان حياة محمد كلها حياة إنسانية سامية وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى مالجأ إليـه من سبقه من أصحاب الخوارق . وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبى العربى كلها مالا يدخل فى معروف العقل . »

وهـذا القول من معاليه يستهدف انتقادات كثيرة نحصيها إن شاء الله فى الباب الثالث من هذا الكتاب ونقتصر هنا على القول بأن خلاصته تنزيل إعجاز القرآن ، الذى أتى به وكان أكبر وقائع حياته المقيدة بأنها حياة إنسانية لم يدخلها خارقة من الخوارق ـ إلى استطاعة إنسانية ، وإن كانت أسمى مايستطيعه الإنسان ، فى حين أن القرآن نفسه يصرح بأنه فوق استطاعة البشر وأنه كلام الله . وهل يظن معالى الباشا أن القرآن الذى لايستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله مجتمعين ، فى استطاعة محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتى به من عنده ؟ أما إتيانه به من عنـد الله على أنه كلام الله فهذا مالا يدخل عند الباشا فى معروف العقل وأنه يكون القرآن على هذا التقدير من الخوارق التى ينكرها معاليه ولا يراها جديرة بأن يلجأ إليها محمد صلى الله عليه وسلم .

أما قوله حكاية عنه ، بعد التنبيه على أنه بشر مثلهم : «يوحى إليه» فقد كنت قلت أنه جار على قلم معاليه استرسالا يساير فيه نظم الآية القرآنية ويحتمى به عند اللزوم فى ضمن قانون الدس ، إذ لو لم نقل هكذا كان ذلك القول من الحاكى خروجاً عن حدود معروف العقل ، ومن المحكى عنه لجوءاً إلى مالجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق ،

وكلاهما مالا يرضاه الباشا . فلا محل لاحتمال كونه جادا فى الاعتراف بالوحى ، لأنه متناقض مع سعيه لتنزيهه صلى الله عليه وسلم من الخوارق ... كنت قلت هكذا وكان لى الحق فى ذلك تأليفاً لأقوال معاليه عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم المنقولة آنفاً ، بعضها مع بعض ... لو لم يكن مفهوما من آخر مقدمة كتابه أنه يتشجع أمام العلم فيعترف له صلى الله عليه وسلم بالوحى ... فإذن يبقى قوله « يوحى إليه » مناقضاً لما أضاف إليه من الجمل .

وكان الأستاذ فريد وجدى بك وهو من غلاة منكرى المعجزات بدعوى أنها مخالفة للعقل وسنة الكون كما ادعى هيكل باشا ، حتى ان الأستاذ فريد ينكر البعث بعد الموت للسبب نفسه ... كان هذا الأستاذ أنكر إعجاز القرآن بألفاظه ومبانيه فى مقالاته التى كتبها دفاعاً عن فتنة ترجمة القرآن المثارة فى تركيا المنقلبة ، قائلا : « إنه لم يتحدّ أحداً ببلاغته وإنما تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله فى حكمته وشريعته » مع أن الأستاذ يعرف أن أمماً إسلامية لم تعجبهم شريعة القرآن فاستبدلوا بها شرائع الغرب قبل استبدالهم ألفاظاً أعجمية بألفاظه ومبانيه ، والأستاذ الذى ناصرهم فى تبديل ألفاظه لم يؤاخذهم يومئذ على تبديل شريعته ... فمنكرو المعجزات ، كما يفرقون بين الكتاب والسنة فيعوّلون على الكتاب ولا يعوّلون على السنة توسلا إلى إنكار أحاديث المعجزات لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ... يفرقون أيضا بين لفظ الكتاب ومعناه ، فيتمسكون بمعناه ويخذلون لفظه ، ويتمسكون بلفظه ويخذلون معناه على حسب مايقضى به هوى التجديد العصرى المتحكم .

وعلى كل تقدير فى موقف الكثرة من كتاب مصر وعلمائها الجدد إزاء معجزة القرآن خصوصا ومعجزات الأنبياء عموما ، فالنبوة لاتزيد على مرتبة العبقرية وهى ليست بمرتبة النبوة المعروفة فى الإسلام وفى سائر الأديان ، كما أن النبى الذى عرّفه الشيخ محمد عبده بإنسان فطر على الحق علماً وعملا بحيث لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل

إلا حقاً على مقتضى الحكمة... الخ » ليس بالنبي المعروف . فالنبوة مقضى عليها عند أصحاب القول السائد فى مصر الحديثة من الكتاب والعلماء ، منحلة فى بوتقة التأويل . وقد عرفت موقف مسألة الألوهية المخذولة عند أصحاب « مجلة الأزهر » و « الرسالة » فى معترك الشكوك ، قبل موقف النبوة .

فالدين بكلا ركنيه الأساسيين مقذوف به فى نظر الأوساط المثقفة المصرية بيد العلم الحديث الذى لايؤمن بغير ماثبت بالتجربة الحسية ، إلى عالم الأساطير .. لا فرق بين مصر وتركيا الحديثتين فى غلبة الإلحاد على الديانة إلا من حيث أن الانقلاب اللاديني تأسس فى تركيا جبراً من الحكومة مفاجأة من عهد مصطفى كمال ، وفى مصر بالنشر والدعاية المدسوسة من حملة الأقلام والمحاباة من الحكومة المرتبطة هى الأخرى بمحاباة من الغرب الذى هو رأس هذه الفتنة المدبرة فى المملكتين ، فانجلترا انتهزت فرصة كون تركيا فى عداد الدول المغلوبة فى الحرب العالمية الأولى ، فساومتها بواسطة مصطفى كمال الذى وجدته أنصع أهل لهذه المساومة على الاحتفاظ باستقلالها فى مقابل التنازل عن الخلافة والتجرد عن الدين والمشى فى السياسة الدولية من وراء الإنجليز ، كأنها مولى العتاقة لها ، وتسنى انتشار الإلحاد فى مصر تحت حماية الإنجليز من غير ثمن مقابل يذكر .

نعم ، إن تركيا الجديدة أخسر صفقة وأسوء عاقبة من مصر التى أدركت ماتضمر الإنجليز من البغض العميق نحو المسلمين فأخذت تقابل البغضاء بالبغضاء وتكرهها بكل قوتها على أن تكف يدها عن مصر فى حين أن تركيا دخلت فى حماية الإنجليز ووصايتها وكفرت بنعمة الله التى كانت لها فى بعد عنها حين كانت دولة إسلامية .

ولقائل أن يقول: تجلو الإنجليز بعد الحرب العظمى الثانية عن مصر ، لأنها بلغت رشدها فى الابتعاد عن الدين ولم تعد تحتاج إلى شيطان الوصاية[1] فالإنجليز عدو الإسلام وعدو الدولة العثمانية وصديقة تركيا الجديدة .

---

[١] بعد أن أدخل ــ هذا الشيطان ــ النزاع الغربى بين الدين والعقل فى عقول المثقفين =

تسافر بعثة أزهرية إلى أوروبا لطلب العلم فيقول الأستاذ الأكبر المراغى فيما يقول عند توديعهم فى محطة القاهرة : « إن العقول تنظر إلى الأديان نظرها إلى شىء تاريخى خال عن الحياة » ويتكرر ذكر العقل والعلم فى كلامه مناوئا للدين . وتكتب « السياسة الأسبوعية » عن أعضاء البعثة المؤلفة من الشبان المدرسين فى الأزهر : « انهم سيواجهون نهجاً فى البحث جديداً وهو أن يطالب الإنسان ليكون بحثه صحيحاً بأن ينكر كل مايعرفه وأن لايثبت شيئاً إلا إذا قام عليه دليل من التجربة والملاحظة والاستنباط » ثم تقول : « إن أساس المنهج العلمى الصحيح الشك فى كل شىء » ويقول الأستاذ الكبير أحمد أمين بك فى كتابه « قصة الفلسفة الحديثة » : « إن قانون التناقض الذى يقول به المنطق الشكلى القديم والذى يقرر أن الشىء يستحيل أن يكون وأن لا يكون فى آن واحد ، يجب عليه الآن أن يزول من أجل حقيقة «هيجل» العليا التى تنسجم فيها المتناقضات والتى ذهب إلى أن كل شىء يكون موجوداً وغير موجود» وهذا الأستاذ يكتب فى مجلة «الثقافة» التى هى مجلة لجنة التأليف والنشر « إن علماء التوحيد لم ينجحوا فى مهمتهم[1]، كما أن الأستاذ فريد وجدى بك رئيس تحرير مجلة الأزهر ينادى بالطعن فى علم هؤلاء العلماء المسمى بعلم الكلام .

= من أهل البلاد التى استعمرها فلبس الامر عليهم أيضا، وألبس جنودها برانيط الغربيين . فكأن الجالين أنابوها نائبة عنهم ناطقة بأن من تشبه بقوم فهومنهم ، ويكاد من يرى هؤلاء الجنود والضباط فى الشوارع والمراكب لايقتنع بجلاء الانجليز عن مصر

[١] يقول ان علم التوحيد برهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد ، ويذكر حكاية نابليون مع جلسائه من العلماء الملحدين على سفينة فى ليلة بديعة فقال لهم انظروا أيها الرفاق ماأبدع هذه النجوم وما أجلها فمن أبدعها ؟ قال ملحد : نحن لانسأل هذا السؤال ومايدور فى ذهنك لايدور فى أذهاننا انما نسأل نحن كيف تطور هذا العالم وكيف وصل الى ما نرى أن برهانك أيها الامبراطور دليل جميل لك . وكأن هذا الجواب الذى لنا كلام عليه فى محل آخر من هذا الكتاب ، أفحم نابليون فى زعم مجلة الثقافة .

ويقول الأستاذ الأكبر المراغى : « ليس علم الفقه علم الدين ». وتنقل « الأهرام » عن الأستاذ الكبير عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية سابقاً ووكيل لجنة الفضوليين المسمين أنفسهم « بلجنة التقريب بين المذاهب الإسلامية » أنه قال تصديقاً لقول رئيس اللجنة على علوبة باشا وزير المعارف السابق[1] «إن مذاهب الأئمة المجتهدين مبنية فى الواقع على السياسة » وفى هذا القول إساءة الظن بأئمة الشريعة الإسلامية مثل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل رضوان الله عليهم ، أى إساءة . وفى أهرام ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٦ قول الأستاذ الأكبر المراغى لوفد الشبان العراقيين : « إن من ينظر فى كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة والحذق يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ فى القرن الثانى من الهجرة ثم يجىء بعد ذلك فتطبق هذا القانون فى ١٣٥٤ هجرية . »

أقول إن القوانين التى وضعها أئمة الشريعة الإسلامية فى القرن الثانى الهجرى وأخذوها من الكتاب أو السنة .. إذا كان عيبها عند شيخ آخر الزمان قدمها إلى هذا الحد فماذا يكون عيب مأخذها وهو أقدم منها ؟

وترى الأستاذ فريد وجدى بك يفسر الإيمان بالغيب المثنى عليه فى كتاب الله ، بالإيمان بخلاف الواقع . ويكتب أستاذ مصرى من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية

---

[١] والقارئ يرى فى محل من هذا الكتاب أن الجامعة قررت فى عهد وزارة على علوبة باشا ، أن تكون شارات حراسها من صور آلهة المصريين القدماء فتكون شارة كلية الزراعة إله الزراعة وشارة كلية الطب صورة إله الحكمة وهلم جرا .. فكتب صديقى الشيخ المغفور له عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين مقالة فى الجرائد يستنكر هذا القرار ويلفت نظر الجامعة والوزارة إلى واجبهما نحو دين الدولة الذى هو الاسلام البعيد كل البعد عن الوثنية ورموزها ، فلم تسمعا له وسكتت مشيخة الازهر عن تأييد شيخ الكلية فاستقرت شارات الآلهة وشكر الله وحده سعى الشيخ اللبان . . . فلعل الباشا رئيس لجنة التقريب بين المذاهب مستعد لتوسيع هذا التقريب إلى ما بين مصر الاسلامية والفرعونية .

بالقاهرة مقالة يستحق بها الجائزة الأولى يوجب فيها على رجل القرن العشرين أن ينبذ العقلية الغيبية ويطاردها فى كل مكان حتى تستوى له عقلية علمية ، ويريد بالعقلية الغيبية العقلية الدينية ، ثم ينحى باللائمة على علماء أصول الدين القائلين بأن العالم يسير على نظام وضعه الله تعالى له وهو قادر على تغيير ذلك النظام الذى فطره وأبدعه ، مع أن نظام العالم (فى ادعاء الكاتب) من طبيعة الأشياء ليس مفروضاً عليها من خارجها، وهؤلاء العلماء لم يفهموا أن النظام المطرد فى العالم وتسلسل العلل ومعلولاتها أدل على القدرة اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام .
وصاحب المقالة الذى يعجبه تسلسل العلل والمعلولات إلى مالا نهاية له، لايدرى أن التسلسل فى جانب العلل المتراجعة إلى الماضى باطل عند العقلاء القائلين بوجود الله ليقطع هذا التسلسلَ الذى اهتدت عقولهم إلى بطلانه ويكونَ مبدأ له تنتهى فيه السلسلة، فى حين أنه لا توجد علة أولى فى مذهب التسلسل إلا وقبلها علة .. أو أنه يدريه ولا يعترف ببطلان التسلسل مقتفياً فى ذلك أثر الشيخ محمد عبده الذى حكم بأن كل ماقيل أو يقال فى إبطاله فهو من قبيل الأوهام الكاذبة ، وكان خطأ الشيخ فى حكمه هذا عظيما ، كما أن مسألة إبطال التسلسل فى العلل أصبحت من رؤوس مسائل هذا الكتاب.
والشاهد هنا أن الآراء المؤدية إلى نفى النبوة والألوهية تنفق سوقها فى مصر الحديثة وتمهد لأصحابها مراكز عظيمة بقدر عظمة الأخطاء التى تضمنتها .

ومن المظاهر المؤيدة لفكرة الإلحاد المستورة المكشوفة بمصر ، شغل الفلسفة الوضعية التى هى أحدث فلسفة الإلحاد فى الغرب ، وأشدها فى الخبث وإخفاء المكيدة للدين ، لايخفف عن سوآته السوآء نقد الأستاذ العقاد الخفيفُ فى كتاب « الله » عن هذه الفلسفة ـ مكاناً هاماً فى قلوب كبار الكتاب ، مع فكرة فصل الدين عن السياسة الذى يستلزم إلغاء المادة من الدستور الناطقة بأن دين الدولة الإسلام ، اكتفاء بدين

الأمة، إن كان يبقى دين فى الأمة الراضية لتجرد حكومتها من الدين .

وكل هذه الحركات المختلفة الساعية لتهيئة الأذهان إلى قبول فكرة الإلحاد ، منشؤها عدم إيمان العلم الحديث بوجود ماليس منظوراً بالعيون مما عدده الأستاذ فرح أنطون عند مناظرة الشيخ محمد عبده فى سالف الزمان ، وإيمان المثقفين المصريين عن صميم قلوبهم بهذا العلم الذى هو العدو اللدود الراهن للأديان ، كما قال الأستاذ فرح، ولم يزل قوله نافذا إلى الآن ، حتى ان أستاذ مجلة الأزهر لم يعدّ ـ فيما ننقل عنه عند تعداد أسباب التأليف رقم ٥ ـ ردود الشيخ محمد عبده عليه، كلمة منبوسة .

ومن فروع الإيمان بالعلم الحديث المنكر لغير المحسوسات إنكار فضيلة الشيخ شلتوت عضو جماعة كبار العلماء ومجمع فؤاد الأول للغة العربية ولجنة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وجودَ الشيطان الرجيم الذى نستعيذ منه كل يوم فى الصلوات الخمس ، وإنكاره لرفع سيدنا عيسى ونزوله فى آخر الزمان ، بل إنكار الأستاذ الأكبر المراغى أيضاً .

وزاد فى الإشكال الدينى الناشىء عن قصر التعويل على ماثبت وجوده بالتجربة الحسية وعدم الثقة بالدليل العقلى الذي كان علماء الإسلام يعتمدون عليه فى إثبات وجود الله ، فزاد فى الطين بلّة أن نقل الدكتور غلاب أستاذ الفلسفة فى كلية أصول الدين ، عن أحد علماء الغرب ، نقداً ينم على عدم صحة ذلك الدليل من الناحية العقلية أيضاً ... وإن كان الدكتور غلاب نقله فى سياق النقد على برهان « ديكارت » ، ولم ينبس بكلمة فى الرد عليه ، تصديقاً لقول الأستاذ فريد وجدى بك المار الذكر ، الذى يرى الرد على مافعله العلم الحديث بالأديان من قذفها جميعاً إلى عالم الأساطير ، أكبرَ من أن يحاوله محاول ، مع أن ذلك البرهان برهان علمائنا بعينه وسيجىء تفصيله وتمحيصه فى محله .

وهذا الكتاب يبدد هذه الشُبَهَ ويذيبها إن شاء الله بعونه وتوفيقه ويجدد كل ماطرأ عليه الخراب فى الشرق الإسلامى من نواحى الإيمان الدينى المبنى على أساساته العلمية القديمة ، مهما كان الخراب عظيما متولداً من استيلاء الإيمان بالعلم الحديث على مكان العلم القديم فى القلوب ... يجدد كل آثار الخراب ويسترد مركز الإيمان القديم إليه ، فى كفاح وحرب مشنونة ، إن لم تكن على العلم الحديث فعلى متعلميه وعلمائه الضالين فى تقدير قيمة ذلك العلم ومعرفة حدوده . ولم يهمل الكتاب بين مساعيه فى مكافحة الضلالات وإزالة الشبهات الحديثة معالجة ماقدم منها وانتقل من الماضى إلى الزمان الحاضر محتفظا برواجه فى سوق الضلالات الاعتقادية لكونه جديدا فى بطلانه لم يعف عليه الدهر رغم قدمه ، فكأن بطلانه أعاشه وأفاض عليه الجدّة فى نظر المصريين المغرمين بالأضاليل ... ونعنى بهذا مسألة وحدة الوجود التى لم نأل جهداً فى درسها واكتشاف منشئها واستئصالها بعون الله تعالى وقولنا هذا الذى هو عبارة هنا عن الدعوى المجردة ، يتجلى فى الباب الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله على القارئ المجد الصابر لا صاحب النظر العابر .

هذا مايتعلق بتعمير الدين وتعزيزه فى نواحيه الأساسية الاعتقادية المحتاجة إلى التعمير بعد الخراب والتعزيز بعد الاستهانة . أما ماطرأ على الناحية العملية والاجتماعية فحسبك فى تقدير مبلغه من الفساد أن تعرف مبلغ الضلال فى عقليات القائمين بتنظيمها وعلى الأقل المتكلمين فى أمرها فتقرأ معى فى الجرائد أو تسمع من الراديو فى الذكرى الثلاثين مثلا من ذكريات قاسم أمين صاحب الحملة على حجاب النساء ومؤلف كتاب « تحرير المرأة » ، مهزلةَ تأميل الثواب له من سفورهن .. نعم مهزلة تأميل الثواب له على الرغم من آيات الحجاب الموجودة فى كتاب الله . وسنتكلم على هذه المسألة أيضاً فى محله من الكتاب بما تستحقه من التفصيل . ومما يقضى العجب من تلك الذكريات أنها تحتوى الكشف عن كون حركة قاسم أمين مقرونة بتأييد الشيخ محمد عبده ،

فيقول الشاعر الكبير على الجارم بك خطاباً لقاسم صاحب الذكرى :

كنت فى الحق للإمام نصيراً والوفى الصفى من أصحابه
نم هنيئاً فمصر نالت ذرى الجد وفازت بمحضه ولبابه
منك عزم الداعى وفضل المجلى وعلى الله ما ترى من ثوابه

لا شك للإسلام فى كفر مستحل الحرام القطعى الذى منه رفع الحجاب عن النساء وجعلهن كالرجال فى الظهور أمام الأعين ، بل أكثر منهم إلى أن يصبحن كاسيات عاريات كما فى حالة النساء الحاضرة بعد العمل برأي قاسم أمين مفتى الديار المصرية فى النساء ، فى حين أن كتاب الله يحرم عليهن إبداء زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن إلى آخر الآية الواردة فى سورة النور بكل صراحة وتفصيل .

وإذا كان استحلال الحرام كفراً فى الإسلام فماذا يكون دعوى استحقاق الثواب على استحلال الحرام ؟ ولذا سميناها مهزلة .

التعريف بمنهج الكتاب فى نقد الأقوال :

لم أسلك فى الذين انتقدت آراءهم فى هذا الكتاب ـ وهم كثيرون ـ السبيل المتاد فى زماننا للتأليف ، لاسيما تأليف كتاب مثل كتابى فى خطورة الموضوع وجلالته ، وهو أن لا يشتغل المؤلف فى صلب كتابه بمناقشة كل من خالفه فى رأيه بأقوالهم المذكورة فى الكتب والمنشورة فى الصحف والمجلات ، بل يتعرضَ لما يستحق منها التعرض فى إشارة قصيرة على الهامش مع رقم صفحة الكتاب الذى يتضمن تلك الأقوال، أو على الأكثر مع النقل من نصوصها فى اقتضاب وغير كفاية ، حتى يحتاجُ من يريد من القراء أن يطلع على تمام النص أو ما يقوم مقام التمام ، إلى مراجعة ذلك الكتاب ليكون حكَما عدلا فى المقارنة بين المؤلف والمخالف . وفيه شغل للقارئ ربما يعده شاغلا فينصرف عن مراجعته ويكتفى بما نقل عنه نقلا منقوصا ويتقبله بغير حق كالمنقوض ، أو ينصرف فى سبيل المراجعة عن الاستمرار فى مطالعة الكتاب الذى بيديه ، أو على الأقل يتأخر فى قضاء حاجته الذهنية عن أوانه ، وربما تتعذر عليه المراجعة بالمرة .

وفضلا عن هذا فقد رأيت فى اختيار هذا الأسلوب فى نقد الأقوال شيئاً مما ينافى الأمانة والصراحة ويشبه الخلس والدلس فى عرض المسائل على الأنظار . أذكر مثالا لهذا من كتاب « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » المنتشر حديثاً للدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بجامعة فاروق ص ٩ .

فبعد أن عرّف الغيب نقلا عن « كشاف اصطلاحات الفنون» بالأمر الخفى الذى لايدركه الحس ولا تقتضيه بداهة العقل ، قال فى الهامش :

« وقد رأى الأستاذ محمد فريد وجدى أن الغيب يقابل الواقع (مجلة الأزهر فى الجزء الخامس من المجلد الثامن) ولكن هذا التعريف أحنق فضيلة الأستاذ مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية سابقاً فندّد به فى (القول الفصل بين الذين

يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) وقرر ص ١٤٩ ، بأن الغيب ماغاب عن الحاسة . والذى يبدو لناأن التعريفين ليس بينهما تناقض ، وإن كان كلاهما غير واف بالحاجة» .

فنقول ماذا يفهم القارئ من هذا القول ؟ يفهم أن كلاً منا ، أنا والأستاذ فريد وجدى بك مخطئ فى الإتيان بتعريف للغيب غير واف ، وزيادة على هذا الخطأ المشترك فانى مخطئ أيضاً فى الحنق على الأستاذ فريد وجدى الذى جعل الغيب مقابلا للواقع ، لكون تعريفه لايتناقض مع تعريفى . ونحن ننقل هنا نص الأستاذ فريد فى الجزء المذكور من مجلة الأزهر :

قال فى مقالته التى كتبها على وفاة جميل صدقى الفيلسوف (على تعبير الأستاذ) العراقى :

« أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلمات العقلية والقضايا المنطقية والتدرج منها إلى إدراك العلل الأولية (يعنى الإدراك المنتهى إلى الاعتراف بوجود الله) وهو أسلوب أصبح لايقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة (وكأن الأستاذ يعذر بقوله هذا المتوفى المعروف بالحاده) .

ومن أقوال الأستاذ عن المتوفى فى نفس المقالة : « افتتن بمقررات العلم الطبيعى وشغف حباً بالفلسفة المادية نخلعته عن العقائد الدينية ، ولم يستطع أن يتغلب على عقائده الوراثية فيعلن أنه أصبح ماديا ، فوقف حائراً لايدرى بأى فريق يلتحق : أبفريق الذين يؤمنون بالغيب أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع ؟ »

هذا قول الأستاذ فريد الذى أحنقنى لكونه جعل فريق المؤمنين بالغيب الذين أثنى عليهم الله فى رأس كتابه والذين نحن المسلمين منهم ، مقابلا لفريق المؤمنين بالواقع ، ومعناه انه اعتبر الفريق الأول أعنى المؤمنين بالغيب ، مؤمنين بغير الواقع ! على الرغم من أن الإيمان بالله داخل فى الإيمان بالغيب دخولا أوليا ثم يأتى الإيمان بملائكته

وكتبه ورسله واليوم الآخر . فهل كل هذا إيمان بخلاف الواقع ؟ فالأستاذ فريد كاتب مجلة الأزهر يعيب على الفريق المثنى عليهم فى كتاب الله، مادحاً ضد هذا الفريق بأنهم المؤمنون بالواقع ، مع أن الفيلسوف الذى تظاهر الأستاذ بانتقاد عقيدته كان يتردد — على رأي الأستاذ — حائراً بين الفريقين، غير جازم بتفضيل فريق الذين لا يؤمنون بالغيب على الذين يؤمنون به ، كما فضل الأستاذ فهو أشد فى ارتباك العقيدة من الفيلسوف الزهاوى .. ولا أدرى لماذا لم يحنق الدكتور الطويل ما أحنق الشيخ مصطفى صبرى مؤلف « القول الفصل » من حالة الأستاذ فريد وجدى فى جعل المؤمنين بالغيب وغير المؤمنين عاليهم سافلهم ومناورته القادحة فى الفيلسوف الملحد بما يشعر المدح ؟

وبعد هذا البيان يظهر خطأ الدكتور فيما لايرى تناقضاً بين تفسيرى للغيب وتفسير الأستاذ كاتب مجلة الأزهر الذى يتناقض مع رؤوس عقيدة الإسلام ، فضلا عن تناقضه مع تفسيرى .

أما كون الدكتور المؤلف يعد كلا من التعريفين غير واف بالحاجة فخطأه فيه ظاهر أيضاً بالنظر إلى اكتفائه فى التعبير عن تعريف الأستاذ بأنه غير واف بالحاجة ، بل تعبير الدكتور نفسه غير واف بما يستحقه تعريف الأستاذ من التشدد فى الرفض .

وأما خطأ ذلك التعبير بالنسبة إلى تعريفى فإنى لم أقصد بما ذكرته فى « القول الفصل » عن الغيب بما غاب عن الحاسة تعريف الغيب إلا بقدر مايتبين به تخبط الأستاذ كاتب مجلة الأزهر فى تفسير الغيب ، ولا أقول فى تعريفه ، ولعله أيضاً لم يرد التعريف . لكنه فسره ولو عرضا وإجمالا وأخطأ فيه خطأ فاحشاً ، كما ذكرته واكتفيت فى تصحيح ذلك الخطأ بحمل الغيب على ماغاب عن الحاسة لا عن الوجود كما يوهمه تفسير المخطئ فيكون الغيب على تفسيرى مقابلا للشهادة كما ورد فى قوله تعالى « عالم الغيب والشهادة » ويكون مغزى التفسير هو الرد على جعله مقابلا للواقع المفهوم منه كونُ الإيمان بالغيب إيماناً بغير الواقع . وقد كفانى هذا التفسير فى الرد على ذلك

الخطأ الفاحش ، كما فسره الفخر الرازى صاحب التفسير الكبير بما فسرتُ به أعنى الغائب عن الحاسة وقال إنه رأى جمهور المفسرين .

هذا ، ولكون مقصودى مما ذكرته فى « القول الفصل » متعلقاً بتفسير الغيب، بل من « القول الفصل » كله وغيره مما نشرته وأنشره إن شاء الله من الآثار ... تصحيحَ ما صادفته فى نشريات المعاصرين المغترفين من مناهل الغرب غير المصفاة ، من الأخطاء الضاربة لعقائد الإسلام فى صميمها ، لا الاشتغال بتفسير الألفاظ وتفصيل المعانى والتكاثر بكماليات العلوم والمعارف ـ اكتفيت فى تعريف الغيب بما يفى بحاجتى التى ذكرتها ، غير مبال بأنه قد لا يكون وافياً بحاجة غيرى ، كمن أراد التأليف فى موضوع الغيب فأتى بتعريف من « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى أضيف فيه إلى ما غاب عن الحاسة « مالا تقتضيه بداهة العقل » ولا مانع من أن يكون هذا التعريف أفضل من تعريفى لمن أراد أن يأتى بتعريف للغيب يحدده تحديداً فنياً ويخرج منه ماغاب عن الحاسة فقط .

على أن لى أن أقول : لاشك فى أن المعنى المتبادر من الغيب فى كلام العرب وفى كتاب الله الذي نزل على لغتهم وعلى ماتنساق إليه أفهامهم فى استعمال الألفاظ ، هو مقابل الشهادة ... أما ماتقتضيه بداهة العقل من غير المحسوسات فإن لزم إخراجه من الغيب ـ رغم كونه غائباً عن الحاسة ـ وإدخاله فى الشهادة ، فالمعقول أن يكون ذلك من طريق إلحاقه بالشهادة تشبيهاً ، لا لكونه مشهوداً حقيقة .

ولى أن أقول أيضاً إن الله تعالى داخل فى الغيب الذى أثنى فى كتابه على المؤمنين به كما صرح به علماء الإسلام . ومع هذا فلا مغالاة فى القول بأن إدراك وجود الله مما تقتضيه بداهة العقل على ماذهب إليه الفيلسوف العظيم ديكارت من أن الإنسان يدرك وجود الله بعد إدراك وجود نفسه وقبل إدراك وجود العالم ، وسيجىء بحثه فى هذا الكتاب . فالأولى بالجمع بين هاتين الدقيقتين أن يُقتصر فى تفسير الغيب على

ما غاب عن الحاسة ، لئلا يكون الله خارجاً عن الغيب الذى يؤمن به المؤمنون ، على مذهب ديكارت أيضاً .

فهذا نموذج أسلوب النقاش الذى التزمته فى كتابى ترجيحاً على الأسلوب المعتاد عند المعاصرين من أصحاب التأليف الذين يستأثرون لأقوالهم بمتسع من صلب الكتاب يخاطبون منه خصومهم من غير أن يؤذن لهم بالدفاع عن آرائهم إلا بكلمات مقتضبة يهمسونها من دهاليز الصفحات (الهوامش) وقد رأيتم نموذجه المنقول من كتاب الدكتور الطويل ، فليقارن القراء بين الأسلوبين .

نعود إلى استعراض مناهج المؤلفين فى كتبهم إزاء مخالفيهم : وكما لا يعجبنى عند النقل من الأقوال التى يراد نقدها أن لا يعطى حق النقل ، كذلك لا يعجبنى الإعراض عن أقوال طائفة من المخالفين بالمرة مهما كانت صلتها بموضوع الكتاب ، بل ومهما كانت قيمتها فى نفس الأمر ، لعدم كون أصحاب تلك الأقوال من أكفاء المناظرة للمؤلف ، سواء كانوا من غير أكفائه حقيقة أو فى زعم المؤلف . فى هذا المنهج الذى يُهتم فيه بالقائل أكثر من القول تقصير ظاهر فى مراعاة حق البحث العلمى ، ترجيحا لمراعاة حظ النفس المتكبرة . ومن الناس من يتخذ من طبقات المناصب الحكومية طبقات فى العلم يوشك من ارتقاها أن لا يصعد إليه صوت ناقد ، وإنى رأيت مصر فى طليعة بلاد لا تعدم أناساً من هذا الطراز أقاموا حولهم سياجاً من سمك المناصب الرسمية إذا استووا عليها سقط عنهم التكليف مثل غلاة الصوفيين المختلقين فى مراتب الطريقة مرتبة تسقط التكاليف الشرعية عمن بلغها .

وقد سبق حين حدثت فى تركيا الكمالية فتنة ترجمة القرآن أن كتب الأستاذ الأكبر المراغى مقالة طويلة فى « السياسة الأسبوعية » وفى « الأهرام » يرتأى فيها، لا جوازَ القراءة فى الصلاة للأعاجم بتراجم القرآن على لغاتهم مع القدرة على قراءة الأصل

العربى ، بل ترجيحَ قراءة التراجم على قراءة الأصل ، فضلا عن جوازها[1] وكنت انتقدت تلك المقالة فى كتابى « مسألة ترجمة القرآن » المنتشر سـنة ١٣٥١ هـ انتقاداً مفصلا ، وكان الأستاذ لم يجب على انتقاداتى ؛ ثم تجدد النقاش على موضوع ترجمة القرآن بعـد سنين بين بعض الفضلاء الذائدين عن حمى القرآن كالشيخ محمد سليمان والأستاذ محمد الههياوى[2] رحمهما الله وبين الذائدين عن حمى مشيخة الأزهر المروجة للموضوع ، مثـل الأستاذ فريد وجدى ، فإذا بمقالة الأستاذ الأكبر المراغى القديمة قد نشرت فى مجلة الأزهر مرة ثانية بعينها إصراراً على مافيه من الأخطاء التى من جملتها عدم إصابة صاحب المقالة فى فهم أقوال الفقهاء الأحناف التى كان يستند إليها . وقد نبهت عليها فى كتابى المذكور ، فتجوهل للتنبيه والمنبه ، فلعله لم يرنى كفوًا لمناظرته!

أما مسألة التصريح بأسماء الذين أناقشهم على آرائهم أو الكف عن ذكر الأسماء فى المعاصرين والاكتفاء بنقد الأقوال والآراء كما أشار به إلىّ بعض الأصدقاء وأصر بعضهم على ترجيح هـذا الرأى قائلا ان خلافه يخرج الكتاب عن وقاره فيجعله كتاب جدال وقيل وقال ويجلب عليـه الخصومات ـ فهذه المسألة تحتاج إلى شىء من الإيضاح والتمهيد، فأقول :

أيها القارئ الكريم ، ما أعظم المهمة التى أخذها هذا الكتاب على عاتقه ، وما أغمض المشكلة التى وعدك حلها وتحليلها قبل حلها ، أعنى مشكلة إنقاذ الدين عن الشكوك المستولية على قلوب المتعلمين العصريين . لأن عملية التحليل الذى يتوقف عليه الحل تؤدى إلى نصب كلمات بنصها كتبها أصحاب تلك الشكوك فى مقالة كذى

---

[١] ومما يلفت النظر أن هذه الفتنة على الرغم مما وجدت مظاهرين متطوعين فى مصر مثل الأستاذ فريد وجدى والشيخ المراغى ، مانجحت حتى فى تركيا التى هى محل حدوثها

[٢] سمعت فى تأبين هذا الاستاذ قصيدة لمحمدالحناوى لم يرقنى روقها فى صدقالقولشىء مما سمعته بمصر من المراثى .

أو كتاب كذا أمام الأعين ، ثم إن الشكوك لاتُلقى فى الأكثر صريحة على أنها شكوك فى الدين ومُلقيها يريد التشكيك والتوهين فى عقائد المؤمنين، بل تُلقى على طريقة الدس وتهيئة الأذهان التى يشتغل بها نوابغ الشرق من زمان كما سبق نقله من كلام الأستاذ فريد وجدى بك .

وبالنظر إلى كون أصحاب الشكوك راضين عن شكوكهم مرتاحى القلوب إليها فى عصر سيادة العقلية الريبية فى الغرب الذى هو قدوة الشرق الحديث فى الثقافة ، فهم ليسوا فى حاجة إلى أن أنبههم على أخطائهم وأذكرهم بأسمائهم فى الكتاب مع أقوالهم التى أخطأوا فيها جنباً لجنب ، ليكون ضماناً لوصول التنبيه إليهم لعلهم يستفيدون منه . على أنى ضعيف الأمل جداً فيما إذا كان ينفعهم التنبيه ، مادامت الشكوك راسخة فى رؤوسهم لاتساورهم ولا تقض مضاجعهم ، لكونها شكوكا فى الدين الذى لايهمهم كما يهم المؤمنَ القديم ، وكونها فى زعمهم شكوكا مبنية على أسباب علمية غير مرجوة الدفع ، لاسيما إذا كان من تولى الدفع واحداً من علماء الدين الذين أصبحوا منذ أزمنة طويلة غير مسموعى الكلم وامتاز من امتاز بينهم برواج القول، تابعاً لتيارات الضلال الحديثة لامتبوعاً فى معارضتها. وعلى كل حال فذكر الأسماء عند نقد الأقوال، أعترفُ بأنه لاينفع القائلين ولا يؤثر فيهم غير إثارة الضغائن على الكتاب ربما تحول دون ذيوعه أو دون إذاعة من أراد الإعلان عنه .

أما القراء فهم لايلفتهم كل كلمة تثير الشك فى الدين على أنها تثيره أو على أن المثار شك ذو خطر على عقيدة الإسلام ، إلا بالقياس على خطورة مركز المتكلم ، فلا ينجع مابذلته فى الكتاب من الجهود ليكون كفيلا بتصحيح مافسد من العقائد إزاء التشكيكات العصرية، مع دوام مراكز المشككين محفوظة فى قلوب الناس ولو بالنسبة إلى كلماتهم التى تضمنت الزيغ والإذاعة فى العقيدة . فحقيقة الواجب الذى توليت القيام به ليست عبارة عن تأليف كتاب فى علم أصول الدين يشرح مسائله أو يشرح طائفة

مهمة منها تشتد الحاجة فى هـذا الزمان إلى معرفتها على وجه الصحة ، وليس كتابى كـكل كتاب علمى يحتذى خطته المتادة ، وإنما الغاية التى أهدف إليها مكافحة الشبهات العصرية المسلطة على مسائل تقوم عليها دعائم عقيدة الإسـلام وغيره من الأديان، مع مكافحة أشخاص المثيرين لتلك الشبهات من الغربيين ومطبقيها على عقائدنا من الشرقيين.. مكافحة الشبهات ومكافحة مثيريها معاً ، بل ومكافحة المـكامن أيضاً التى ربما يستتر المثيرون وراءها، إلى أن ينتزع مكان الشبهات مع مكان مثيريها فى قلوب الناس كائنين من كانوا ... فتنهار الشبهات ومروجوها وتسلم عقيدة المؤمنين من شرورهم وتسويلاتهم التى قد لا يحسونها بأنفسهم أو لا يقدرون قدر مضارها ، وموقفى منهم موقف المحارب ولا تـكون الحرب خفية ، فإن كانت فأنا لا أعرف مزاولتها كما يعرفون . ثم إنهم مشكـكون ويكفيهم العمل فى الخفاء كالصيد فى الماء العكر ..

فلا بد إذن من التصريح بأسماء الذين أناقشهم ... وقد قلت فى مقدمة الـكتاب التى أحصيت فيها أسباب تأليفه مبسوطة كل البسط : « ولما هاجرت بعد انقلاب تركيا إلى مصر وجدت فيها العلم الحديث الغربى الناظر إلى الأديان نظره إلى الأساطير، أنطق لساناً من علم أصول الدين الإسلامى وأعلى صوتاً .. » فـكان من واجبى إثبات صدق هذا القول .. وقد كان معلوماً أن مهمة هذا الـكتاب الرئيسية مكافحة اللادينيين ومحاربتها بطريقة علمية متجلية فى القضاء على كل شك يرمى إلى الإلحاد . ومن المعقول أن تتقدم هذه المرحلة التى هى مرحلة الغاية مرحلة أخرى يُشرح فيها وقوع الشرق الإسلامى فى خطر من انسياب العقليات الغربية المناوئة للدين إلى أذهان المثقفين ، وإثبات هذا الخطر يتوقف على سرد شواهد من كلمات رجال يستدل بأهميـة مراكزهم الرسمية أو الأدبية على أهمية الخطر .

وليس من حق القارئ المنصف أن يتوقع منى فى هذا الـكتاب عند نقد الأقوال التى لا يجوز الإغضاء عليها من رجال الدين أن أضع توطئة لعملية النقد فى كلمات متقدمة

تتضمن مدح أصحاب تلك الأقوال وإكبارهم كما هو المتاد فى زماننا ... وفى ظنى أن الأقوال التى تستوجب التعقيب والاستنكار فالاشتغال قبلهما بمدح وإكبار القائلين أصبح عادة متبعة بين نقاد الشرق الإسلامى بعد أن تعودوا تقليد الغربيين وهى من زيوف مدنيتهم فيهتمون بالمصانعة أكثر من المصارحة ، مع أن فى الشرق اليوم شخصيات وأسماء أكبرت واتخذت قدوة فى الزيغ عن محجة الإسلام .. فالحق أو بالأولى من واجب رد الحق إلى نصابه ، الحط من مراكزهم فى القلوب بقدر ماحازوه منها بغير حق .

هذا واجب الكتاب ليطمئن على كونه نافعاً للقراء المحايدين .. ثم إنى غير مسىء للذين أصارحهم ساعياً لإقامة ما فى عقيدتهم أو فهمهم لعقيدة الإسلام من عوج ، ومصارحتى إياهم بالحق أنفع لهم من أن يغضبوا علىّ بسبب هذه المصارحة ، ومن كلمات الحكمة : « صديقك من صدقك لا من صدّقك » . والمقصد الأسمى هو خدمة الدين والعلم بمعناه الصحيح وخلاصتها خدمة الحقيقة من غير مسايرة العادات والتيارات أو مراقبة المراكز . ولو كنت سايرت فى خدمة الدين والعلم الاعتبارات الخارجة عنها لقلت مع القائلين المصريين أن العلم والدين ضدان لايجتمعان وانصرفت عن تأليف هذا الكتاب أو جعلته كتابين مفترقين تفريقاً لخدمة أحدهما عن خدمة الآخر ، كما فرق الشيخ الأكبر المراغى فى خطابه للبعثة الأزهرية إلى أوروبا عند توديعهم فى محطة القاهرة ، وسيجىء نقله فى هذا الكتاب بنصه .

ثم إن فى عدم التصريح بأسماء الذين أناقشهم ، بعض التنكب عن مسلك الصراحة وأهم من ذلك أن القول الذى أريد نقده من غير تمييز صاحب القول قد يُظن انى زدت على أصله أو نقصت أو غيّرته وصوّرته فى صورة يسهل الرد عليه ، ولو ذكر نصه بين القوسين وأراد القارىء أن يتبين صحة النقل وتمام مطابقته للأصل صعب عليه تمييز

حل القول من غير تعيين القائل . فالأولى بمصلحة العلم وأمانة البحث ما اخترته من طريق الصراحة .

وأمر ثان : وهو أن البعض الآخر ممن قرأت عليهم من أصدقائى بعض أبحاث الكتاب وجد فى أسلوب مناقشاته شيئاً من الشدة والقسوة ورأى أن التأثير على القارئ عند الملاينة يكون أكثر .. وجوابى عليه :

أن ردى على المخالفين صفته فى درجات مختلفة من الشدة واللطف وانه ليس تعنيفى وتشديدى موجهاً إلى القراء ، بل إلى الذين أناقشهم ، وهم لا أمل لى فى تحويلهم عن آرائهم الضالة المضلة بما جربتهم وجربهم غيرى . وإنما أنا أهزمهم وأقضى عليهم بوابل من النقد العلمى ولا غرو إذا كان الوابل قد تصحبه الرعد والبرق . وبذلك أكون مؤثراً فى عقول القراء الذين يجرى النقاش فى مرأى ومسمع منهم والذين عنيت بتأليف هذا الكتاب لأجلهم ، ولست بشاتم للذين صوبت نحوهم سهام النقد الحاسم . ثم إنى ماقسوت فى القول إلا على الذين قست أقوالهم على أساس من أسس الدين أو علم من علومه أو طائفة من علمائه . وما فرطت فى جنوب من ناقشتهم وفيهم المفرطون فى جنب الله والمستهينون بالعقل والمنطق .

وقولى فى الذين ناقشتهم « وهم لا أمل لى فى تحويلهم عن آرائهم الضالة والمضلة بما جربتهم ... » ، أذكر لهم مثالا من الأستاذ فريد وجدى الذى يُرى اسمه كثيراً فى هذا الكتاب فقد ناقشته على إنكاره لمعجزات الأنبياء فى بضع مقالات من الطرفين منشورة فى « الأهرام » قبل سنوات ، فلم يقلع عن رأيه بل أضاف إليه فى ردوده علىّ إنكار البعث بعد الموت . ومثالا آخر من فضيلة الشيخ شلتوت عضو كبار العلماء : انتقدت فى « القول الفصل » قوله المنشور فى « الرسالة » المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء ونزوله منها فى آخر الزمان ؛ فردّ علىّ بخمس مقالات أخرى مصرًّا على إنكاره . وسيرى القراء جوابى على هذه المقالات إن شاء الله .

وأحدث مثال لعدم تأثير بيان الحق فى قلوب المثقفين المصابين بالضلال العصرى مهما كان الحق ظاهراً وبيانه مفحماً ، أن الدكتور توفيق الطويل مؤلف « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » يقول فى هامش الصفحة (٢٧) :

« رأى ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث الذى ينكر الكرامات وخوارق العادات ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل ، متمشية مع سنن الكون ، مسايرة لطبائع الأشياء ، وبهذا يمتنع وصفها بالخوارق . ويقال ان القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول وما عداه شبهة لا حجة . وقد تصدى لدفع هـذا الاتجاه الشيخ مصطفى صبرى وهاجم من أجله بعض أعلام المحدثين . »

وأنا أقول : ليس ابن خلدون وحده يخالف ماسماه الدكتور الاتجاه الحديث الذى ينكر الكرامات وخوارق العادات ويؤول المعجزات بما يخرجها عن كونها معجزات تتمشى مع سنن الكون وتساير طبائع الأشياء ، بل جميع علماء الإسلام على خلافه إلى أن جاء الشيخ محمد عبده ومن أخذوا منه ، لأن تأويل المعجزات بما يخرجها عن خوارق العادة ، يخرجها أيضاً عن كونها معجزات ويؤدى إلى إنكار نبوات الأنبياء مع المعجزات لما فى إنزال الوحى والكتب عليهم وإرسال الملك إليهم خرقاً لسنن الكون ، ولا تكون المعجزات معجزات بدون خرقها ، حتى ان القرآن الذى يتظاهر الدكتور الطويل باستثنائه بين المعجزات والاعتراف بكونه وحده حجة قطعية مع من قلدهم من المترفين ، لا يكون حجة إن لم يكن كغيره من المعجزات خارقة من الخوارق ، وهو متوقف على كونه كلام الله إذ لو كان كلام سيدنا محمد لا يكون معجزة كما لا يكون خارقة . فمعنى الاتجاه الحديث المنكر للكرامات وخوارق العادات والمؤول للمعجزات بما يخرجها عن إعجازها ويرجع إلى إنكارها أيضاً اتجاه إلى رفض أساس من أسس الدين . فكيف يتأسس هذا الفكر المترجم عن الكفر البائح والجهل الفاضح

فى جامعة مصر الإسلامية وينشر بقلم مؤلف من مدرسيها من غير أن يلقى نكيرا من داخل الجامعة وخارجها ؟

أما ان المعجزات بدون تأويل، لاتتفق مع منطق العقل فتخرق العقل والعادة معاً، فهو غلط ناشئ من عدم التمييز بين خارق العادة الممكن وخارق العقل المستحيل . وإنى خصصت لتحقيق هذه المسألة وتوضيحها ١٥ صفحة « من القول الفصل » (من ٢٥ إلى ٣٩) ونبهت فيها إلى أن المتملين المصريين لايدرون أن دائرة الإمكان أوسع بكثير مما يظنون . والدكتور الطويل الذى يُرى أنه قرأ كتابى ، لاأقول لم يفهم تلك الصفحات بل تعمّد أن لايفهمها عناداً وإصراراً على عقليته الراسخة فيه تقليداً للاحدة الغرب أوتقليداً للمقلدين من أساتذته المصريين، وهم يستهينون بالعقل والمنطق مستضعفين الأدلة المبنية عليهما ، ثم يقولون عن المعجزات الخارقة للعادة وبعبارة أخرى لسنة الكون والتى لا مانع من اتفاقها مع العقل والمنطق : « لا تتفق مع منطق العقل » وليتهم قلدوا من علماء الغرب المتكلمين بمنطق العقل ، وهم موجودون ومذكورون فى « القول الفصل » .

«قال (ويليام استانلى جون) من كبار المنطقيين الإنجليز : « القدرة التى خلقت العالم لا تعجز عن حذف شىء منه أو إضافة شىء إليه ، ومن السهل أن يقال عنه انه غير متصور عند العقل (لكونه مخالفاً لسنة الكون) لكن الذى يقال عنه انه غير متصور عند العقل ، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم .

«يعنى لو لم يكن شىء من هذا العالم موجودا غير رجلين أحدهما ينكر المعجزات الخارقة ولا يتصور وجودها ، والآخر يؤمن بها فقال المؤمن للمنكر سيوجد عالم كذا كان جوابه أنه غير متصور وكان نفى تصوره أشد من نفى تصور المعجزات .

«وأصل هذه الإنكارات يرجع إلى عدم الإيمان بوجود الله ، قال (استوارت ميل)

عند انتقاده لإنكار « هيوم » المعجزات : « إن من لايؤمن بموجود فوق الطبيعة ولا بتدخله فى شئون العالم لايقبل فعل إنسان خارق للعادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقاً بما يخرجه عن كونه معجزة » .

ومن كلامنا فى «القول الفصل» : «نقول لمنكرى المعجزات الخارقة لنظام العالم وهم يدعون أنهم يؤمنون بالله : أليس واضع هذا النظام المسمى بسنة الكون هو الله ، فكيف تقيدون الله بالنظام الذى هو واضعه بقدرته وإرادته واختياره ، فهل يكون القادر المختار عاجزاً عن تغيير ما وضعه متى شاء ذلك ؟ أما انه لم يغيره فيما رأيناه وهو سنته التى لن تجد عنه تحويلا ، فذلك بالنسبة إلينا . ومعناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون ، فلا تكون النار إلا حارة محرقة لكل ما من شأنه الاحتراق بموجب نظام العالم ، ومصلحتنا فى استمرار نظامه أنا نعتمد عليه مطلقاً فى أمورنا وحاجاتنا وتحصل لنا منه قواعد مضبوطة . ولكن نظام النار هذا مثلا الذى نحن مقيدون به لا خالق النار وواضع نظامها ، ليس بمانع أن يجعلها الله برداً وسلاماً على نبيه وخليله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، تأييداً لرسالته من عنده».

قلنا هذا وأكثر من هذا فى صفحات « القول الفصل » التى أشرنا إليها وقرأها الدكتور الطويل ، ثم قال القول المذكور سابقاً كأنه لم يقرأها وافترض أن القراء لم يقرأوها أيضاً .

وقرأ الدكتور فى ص ١٢١ رداً على الشيخ رشيد رضا القائل بأن المعجزات الكونية شبهة لا حجة ، قولى : « إعتبر قول علماء المصريين حجة ، حين لا يعتبر معجزات الأنبياء حجة ، ولاتعبير القرآن عن تلك المعجزات، تارة بالحق وتارة بالبينات وتارة بالآيات الكبرى وتارة بالسلطان وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان ــ حجةً فى أنها

حجة». وقرأ بعده الآيات التي تنطوى على هذه التعبيرات ، ثم قال قوله المذكور سابقاً: « إن القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول وما عداه شبهة لا حجة » .

ونحن نقول هنا إذا كان القرآن حجة قطعية على نبوة رسولنا لزم أن يكون حجة أيضاً على أن معجزات الأنبياء غير القرآن حجة على نبواتهم ، بشهادة القرآن فى آياته التى أشرنا إليها وأحصيناها فى « القول الفصل » . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ أم تقولون أن القرآن شهد على نبواتهم فلا حاجة إلى شهادة معجزاتهم التى هى شبهة لا حجة ، رغم تعبير القرآن عنها بأسماء عالية ؟ فإذن يلزم أن تكون نبواتهم قبل نزول القرآن قائمة على شبهة ، وإيمان من آمن بهم فى عهدهم مبنياً على شبهة ، ومعجزاتهم بعد أن نزل القرآن وأشاد بذكرها وتفنن فى الإشادة أى تفنن ، لا تزال شبهات . أمثل هذه اللوازم المتصلة بإنكار حجية المعجزات والتى ينقض بعضها بعضاً تتفق مع منطق العقل حين لا تتفق المعجزات نفسها معه من غير تأويل يخرجها عن كونها معجزات ؟!

ولو كان الدكتور الطويل وغيره ممن يصرون على تأويل المعجزات واعتبارها شبهة لا حجة مثل الشيخ رشيد ، مصارحين بأنهم لا يأبهون بنصوص القرآن التى أحصيتها فى «القول الفصل» لكونهم غير مخلصين أيضاً فى الإيمان بحجية القرآن — لهان الأمر وانتهى الكلام .

وهذا هو الاتجاه الحديث الذى قيل عن أعلامه بمصر إن الشيخ مصطفى صبرى هاجمهم ، أما ماقيل فى نفس الهامش عن مهاجمته بقسوة على تعريف الشيخ محمد عبده للنبي ورد الدكتور الطويل عليه بالتخفيف ، فقد أرجأت التكلم عليه إلى محله ، وقد طال الكلام هنا قبل الدخول فى الكتاب ، وسبق الجواب على ما يرى فى أسلوب نقدى من القسوة . ولى جواب آخر عليه :

وهو أن ان موقفى فى الكتاب ليس موقف الواعظ ، ولو كان كذلك لكان

الرفق واللين أوفق وأنجع ، وكان للوعظ أهل غيرى من أهل اللسان العربى . لكن موضوع الكتاب على بحث تنفق فى سوقه الحقائق المجردة من كل تمويه وتطلية وتُقرع فيه الحجة بالحجة ، ولا بدع إذا كان صوت القراع والصدام شديداً ، لاسيما مع أصحاب الأقلام الذين طالما تلاعبوا بعقول قرائهم وباعوا الضلالة بيع الهدى ، حتى أنهم إذا عرضوا على الناس الإيمان بالله عرضوه غير مستيقنين ، إن لم يكونوا مستبطنى الإلحاد . أو إذا عرضوا عليهم الإيمان بالرسول لاتكون بضاعتهم فى ذلك غير سمسرة للمستشرقين أعداء الإسلام . ولا شك أن إنقاذ القراء واجتذابهم من أيديهم يتطلب عملا عنيفاً وصراعاً قاسياً .

فأمامنا عند النقاش محاربون لعقيدة الإسلام محاربة مباشِرة أو من وراء الحواجز، واللين مع المحارب من شيمة الأحمق أو العاجز .

هـذا ، وقد يخطر ببال بعض قراء الكتاب أن بعض المناقشات التى عنيت به كان المحل الأولى به الصحف والمجلات ، لاسيما وفى ذلك عدم التأخر فى الرد على مايستحق الرد من الأقوال والأفكار التى انتقدتها فى الكتاب، عن أوانه . والجواب عليه أن تلك الأقوال المنتقدة نُشرت متفرقة فى أزمنة مختلفة ولفتت نظرى فأثرت فى نفسى تدريجاً ، حتى حصل عندى من مجموعها خبرة وقناعة بموقف مصر من الإسلام وحاجتها إلى ماقمت به فى هذا الكتاب من تدقيق مسائل هامة متعلقة بأصول الدين وفلسفتها وإزالة شبه الزائغين فيها ، وقد عرضتها فى الكتاب شواهد فعلية لأنواع ذلك الزيغ المطلوب إزالته ، وكان الأولى والأوقع فى النفوس عِرضها جملة والرد عليها جملة وتخليدها جملة فى كتاب ، لا تفريقها فى مقالات مفرقة على الأزمنة المختلفة والصحف والمجلات المختلفة والقراء المختلفين .

ولقد رأيت كثيراً من كبريات الصحف والمجلات الواسعة الانتشار واقعة تحت سيطرة كتاب متآزرين فى السعى لإضعاف نفوذ الدين فى المجتمع متلاعبين بأحكامه

وقواعده ، فلهذا لا تتسع صدور تلك الصحف والمجلات لمقالات الذود عن الدين برغبة صحيحة[1] . وقد ضاق نطاق استطاعة مصر المالية إلى الآن عن تأسيس جريدة يومية إسلامية فى حين أنها تملك عدة جرائد حزبية . أما المجلات الإسلامية بمصر فهى إما ضعيفة الانتشار أو ضعيفة التمسك بالمبدأ ، فقد رأينا مجلة (الإسلام) لم تحجم عن رثاء مصطفى كمال جاعل دولة الترك المسلمة لادينية وماحى آثار الدين فيها حتى الحلف الرسمى باسم الله ، لما مات فبكت عليه مع الباكيات وكم ذا بمصر من المضحكات .

وعلى الرغم من أن كلمة التعريف بمنهج الكتاب فى البحث والنقد تزداد طولا على طولها بانتقال الكلام من مسألة إلى مسألة وتؤخر الدخول فى الكتاب على قدر طولها ـ لابد من إيراد مثال لعدم اتساع صدور المجلات المعروفة بين المصريين بمصر لمقالات الذود عن حمى الدين وكرامة أهله، حتى بعد أن كان الاستفزاز إلى الذود وقع من جانب تلك المجلات بمقالات منشورة فيها ، فقد كتب الأستاذ فريد وجدى بك مقالة افتتاحية لمجلة « الرسالة » عدد ٦٠٢ عنوانها (الدين فى معترك الشكوك) وكانت مقالة يُظن من خطورتها الناعية للدين أنها تثير عواطف شديدة فى قلوب أهل الدين الذين لابد أن يكونوا موجودين فى هذه البلاد وعائشين ، مهما نُعى الدين نفسه من زمان وانقضى عهده كما نصت عليه مقالة الأستاذ . وكانت هذه المقالة كالذكرى عن ميت قديم ربما لم يبق منه عظم بدون أن يدركه البلى ، وكانت كذكرى شماتة لا ذكرى حسرة أو رحمة ، والعلاج الذى ذكره صاحب المقالة لإحياء هذا الميت أشبه بالهزء

---

[١] فقد كانت جريدة « الأهرام » تنشر مقالاتى وتشيد بها أيام كانت تصدر تحت إشراف الأستاذ داوود بركات، ثم تغير وجه الجريدة فى استقبال ما أكتبه إلى حد أنها أبت فى عهد أنطون الجميل باشا الإعلان عن كتابى المسمى (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) المنشور فى السنين الأخيرة مع استلام نسخة من الكتاب مهداة إليها اتباعا لعادة الإهداء إلى الجرائد من مؤلفى الكتب ، فأعلن عنه كل جريدة اهديت إليها واطلعت هى على محتوياته وشذت (الاهرام) فى الاباء عن الإعلان .

والسخرية أو الشعوذة منه بالعلاج ، ومع كل هذه التي تضمنتها مقالة الأستاذ فلم تحرك ساكناً والحركة التي أردت أنا إبداءها قد قوبلت بمحاولة الإطفاء والإخفاء من بعض شركاء الناعي الشامت الذين يظاهرونه من وراء الستار . وهذا هو المعنى الظاهر من كتابي الرد على الأستاذ فريد وجدي وإرساله إلى « الرسالة » لتنشره كما نشرت مقالة الأستاذ ، ثم إباء « الرسالة » عن نشره وانفهام إبائها بعد انتظار النشر بأسابيع. ولم يكن نشر مقالة الأستاذ في « الرسالة » دون مجلة الأزهر التي هي مجلته نفسه ، صونا للأزهر عن مثل تلك المقالة الماسة للدين، بعد أن لم تصن المجلة والأزهر عن كاتب المقالة طيلة سنوات تستغرق تمام عهد المشيخة الثانيـة للشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبدالرازق وقسما من عهدمشيخةالظواهري قبلهما ... بل اختير نشرها في «الرسالة» ليقرأها المثقفون المصريون الذين لايقرأون (مجلة الأزهر) وإن كانت تصدر تحت رئاسة واحد منهم .

وإني أريد أن أكتب هنا مقالتي التي لم تحظ عنـد « الرسالة » ، توفية للمثال حقه ، وقبل الشروع في المقالة أريد البحث عن سبب هـذا الحرمان ماذا يمكن أن يكون :

لا تأبى (الرسالة) نشر مقالة الدكتور زكي مبارك التي يعبر فيها عن علماءالدين بالجهلة كما يأتي نصه ، وتنشر مقالة الأستاذ فريد وجدي الذي يردد فيها ذكر أهل الدين الصادقين في إيمانهم بالله ورسله ، باسم (الاعتقاديين) ويصفهم بالسذاجة العامية ويرى الدين نفسه تحت شبهات لم تدع محلا للعقيدة بعد أن أخذ العلم ينتشر بخطوات واسعة وضعفت حجة الاعتقاديين أمام هذا التحدي[1] .

---

[١] لايقال إن مقالة الأستاذ فريد لم تجد محلها في صدر « الرسالة » لكونهامقالة اعتداء على الدين وأهله ، بل باعتبارهامقالة المعالجة التي تنجع في إزالة الشبهات العصرية المتوجهة إليه ، بعد ماتبين عدم فائدة المعالجات القديمة ، لأني أقول إن كان هذا زعم «الرسالة» في مقالة الأستاذ=

تنشر « الرسالة » وسائر المجلات بمصر الراقية فى أسلوبها الأدبى ـ كأن بين الأدب الراق وبين ضعف الدين نسبا ـ هذه الطعنات فى الدين وأهل الدين على حين غفلة أو مساعة من الشعب المتدين ، سواء كانوا مسلمين أو هوداً أو نصارى .. وعلى حين أكثر من مساعة من حكومة البلاد التى لها دين رسمى ـ وليس الرسمى هنا بمعنى ضد الحقيق ـ تنشر تلك المجلات مقالات الطعن فى الدين ويتسع لها صدرها اتساعاً لايخلو من الترحيب ؛ وتنشر « الرسالة » مقالات لمؤلف كتاب « لماذا أنا ملحد » أو تعتذر إليـه فى غاية من اللطف والمجاملة ، ولا تنشر مقالة الدفاع عن الدين رداً على المتدين . وإنى أقرأ فى الصحف شيئاً كثيراً عن حرية الصحافة فى البلاد الديموقراطية وعن الاهتمام العظيم بشأنها ، فهل المقصود منها حرية خاصة بأصحاب الصحف التى هى صاحبة الجلالة كما يقولون ، من غير أن يستفيد منها غيرهم من أفراد الأمة إلا بشرط أن يدخلوا تحت حماية أصحاب الصحف ، فتكون حصة الأمة من هذه الحرية الخاصة بالصحف مقصورة على قراءة ماينشر فيها ، حتى إذا أنـكرت صحيفةٌ فيما تـكتبه حقاً أو روّجت باطلا أو مست كرامة وأراد أى واحد من القراء الرد على ذلك فالصحيفة حرة فى نشر الرد أو وقفه بعيداً عن وقوف الجمهور عليه . فعلى الحـكومات أن تعترف بحرية الصحف وليس على أصحاب الصحف أن يعترفوا بحرية النشر للناس ، فمن أراد الحصول على ذلك فليؤسس صحيفة لنفسه إلى أن ينقلب القراء كلهم صحفيين أو يسايروا أهواء الصحفيين !

فأنت إذا فتشت عن دخيلة الصحف والمجلات بمصر وجدت فى أصحابها الدعين

= فريدكان الواجب عليها تصحيح خطئها الفاحش فى ذلك الزعم بعد مطالعة مقالتى التى أحييت فيها ماأماته الأستاذ من المعالجة وأمت ما أحياه . فان لم يكن تقدير « الرسالة » لمقالتى بهذا الحد الذى أقدره أنالها ، فلا أقل من ان يعرضها على الرأى العام بدلا من اخفائها ، وإلا كان هذا اشتراكا للرسالة مع الأستاذ فى الجناية على الدين المصورة فى صورة الخدمة له .

لحرية النشر كثيراً من أعداء هذه الحرية . نعم ، أنا معترف بمعذرة الصحف والمجلات إن لم تنشر كل ما ورد إليها من القراء ، ففيه ما يجدر بالنشر وفيه مالا يجدر . والثانى ينقسم إلى مالا يجدر لتفاهته أو مضرته أو لعدم توافقه مع مبدأ الصحيفة . وأنا أسلم بحرية الصحف أيضاً فى امتناعها عن نشر مالا يتفق مع مبدئها ، بشرط أن تكون مصارحة لذلك المبدأ . أما المتسترون فى المبادئ ففيهم الطامة الكبرى ، وعليهم ينطبق قول أبى العلاء المعرى : « نطق اللسان لاينبئ عن اعتقاد الإنسان » وهم الذين ينشرون كل دعاية ضد الدين ، لاسيما إذا كان تحت ستار التعبير « بالغيب » ويكفون عن نشر كل دفاع عن الدين ، لاسيما إذا كان الدفاع قويا .

ولا محل لاحتمال أن يكون ردى على مقالة الأستاذ فريد وجدى بك لم يعجب « الرسالة » لشدة لهجته ، إذ لا يكفى كون الرد شديد اللهجة مانعاً عن نشره إذا كان المردود كبيرة من الكبائر . وأى ذنب أكبر من التشكيك فى الدين ؟ وعند ذلك يكون التشدد فى الرد عملا بمقتضى الحال الذى يُهتم به فى قانون البلاغة ، وإن لم أكن أنا من البلغاء [1] ولا يلام على الرد الشديد اللهجة إلا إذا كان مع ذلك ضعيف الحجة . أما شدة اللهجة مع قوة الحجة فلا يرغب عن نشر مقالة تجمع بينهما إلا ناشر يضمر المخالفة لمبدأ المقالة ويتظاهر بعدم الموافقة على لهجتها . وفى ظنى الذى يوشك أن يكون يقيناً كان السبب فى استنكاف «الرسالة» عن نشر ردى ما ذكرته فى هذه الصورة الأخيرة وكان الذى لم يعجب المستنكفين عن نشر الرد قوة حجته التى لاتدع استطاعة الجواب للأستاذ المردود عليه المتفق مع « الرسالة » فى المبدأ ، لاشدة لهجته

---

[١] فان كنت لم أحسن فى ردى الشديد اللهجة على مقالة تصور دينى مهزوما فى معترك الشكوك شر هزيمة ، بل ميتا مدفونا فى قلوب السذج من العامة . . فهل أحسنت مجلة «الرسالة» فى دفن مقالتى فى سلة الإهمال مانعة لها عن أن تجد محلا ولو فى قلوب العامة بجانب الدين المدفون ، حين كانت المجلة فتحت صدرها للمقالة المردود عليها وحين كانت مقالتى وحيدة فى الرد ؟

التي يمكن أن يتعللوا بها ، وهي في الحقيقة شدة الوطأة . والمقصود من عدم النشر محاباة الأستاذ فريد وجدي من «الرسالة» وهي السلاح السري لشركة احتكار النشر في هذه البلاد التي يتعارف أصحابها فيما بينهم بتوافق المبادئ « غير مصارحين بها غير أمثالهم » كما يقول الأستاذ فريد وجدي ـ في مقالة أشرنا إليها وسنضعها موضع البحث ـ عن نوابغ الكتاب والشعراء في الشرق الإسلامي المستبطنين للإلحاد المهيئين أذهان الناس لقبوله دساً في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم [1] .

والآن نشرع في عرض مقالة الرد على الأستاذ فريد وجدي التي لم يجد محلا للقبول في صفحات « الرسالة » [2] ، على نظر القارئ وبها تنتهي الكلمة الطويلة المتقدمة على الكتاب :

---

[١] أما احتمال كون مقالتي تستهل بصب اللام على الشيخ محمد عبده إمام مصر الحديثة ، لم يعجب « الرسالة » وسبب الإعراض عنها ، فجوابي عليه ان مقالة الأستاذ فريد التي يتسع لها صدر « الرسالة » تحارب الأدلة القديمة التي كان يقوم عليها إثبات وجود الله إلى الآن وتكسرها على زعم كاتبها من غير إقامة دليل جديد مقامها فتقضي على عقيدة وجود الله ولو إلى حين الحصول على ذلك الدليل الجديد . فكيف يصبر أصحاب «الرسالة» على هذا ولا يصبرون على ما في مقالة الرد على مقالة الأستاذ من كسر بعض الأصنام الجديدة المصرية. وإني أوردت في هذا الكتاب انتقادات هامة علمية على آراء هذا الامام وتلامذته الآخذين منه ، فالواجب على كل من يريد الانتصار له أن يجيبوا على تلك الانتقادات لا أن يسدوا آذانهم لئلا يسمعوا الكلام ضده . فإن كان الدفاع عن كرامة الإمام محمد عبده وتلامذته عند هؤلاء الأنصار أهم وألزم من الدفاع عن حياة الإسلام وكرامة أصول الدين فلا كلام لي معهم .

[٢] وكانت مقالة الأستاذ فريد أولى من مقالتي بكف « الرسالة » عن نشرها قائلة : ألا تكفي الأستاذ مجلته الأزهرية ؟

آخر وحي الغرب إلى الأزهر الحديث

عفا الله عن الشيخ محمد عبده لما أراد النهوض بالأزهر حارب علماءه القدماء وفض المسلمين وخصيصاً الشباب المتعلمين من حولهم ... حاربهم حتى أماتهم أو على الأقل أنساهم نسيان الموتى ، فأصبح بفضل النهضة التى نادى بها الشيخ محمد عبده يقول رجل مثل الدكتور زكى مبارك « الرسالة » عدد ٥٧٢ : « نزعنا راية الإسلام من أيدى الجهلة (يريد بهم علماء الدين) وصار إلى أقلامنا المرجع فى شرح أصول الدين » .

ولم تقف الحالة التى أدى إليها مشروع محمد عبده فيما ذكرنا من مرحلة الهدم ، بل ظهر الأستاذ فريد وجدى بك منذ سنوات على منبر الأزهر الناهض لحارب علوم العلماء الذين حاربهم الشيخ محمد عبده فقتلهم ، وقتل الأستاذ فريد علوم هؤلاء العلماء المقتولين وعلى رأسها علم أصول الدين ، حتى انه قال فى الجزء التاسع من المجلد الثانى عشر من « مجلة الأزهر » التى يديرها ويرأس تحريرها : « فإذا كان فى الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام فهو الإسلام » .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لإماتة علماء الدين وعلومهم التى يعتمد عليها الدين موت الدين نفسه ، فقد وقع ذلك أيضاً بفضل هذا الأستاذ ! وكم لعب فى مقالاته دور النعى له وهو الذى كتب فى مقالة قديمة له عنوانها «سطوة الإلحاد على الأديان» :

« تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين ، فاقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الإقناع ، وفى هذه الأثناء كان العلم يؤتى ثمرات من استكشاف المجهولات وتخفيف الويلات وترقية الصناعات وابتكارات الأدوات والآلات ويعمل على تجديد الحياة البشرية تجديداً رفعها عن المستوى ، فشعر الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا إليه فى عهد الحياة الحرة وتحت سلطان العلوم المادية ، وبينما كانوا عليه أيام

خضوعهم لحفظة العقائد ، فانتهز الإلحاد فرصة هذا الشعور الجديد ، وازداد كلباً على مهاجمة الدين واستهتر فى فظائعه فرمى إلى القضاء عليه القضاء الأخير » .

وكتب قبل أسبوعين مقالة افتتاحية لمجلة « الرسالة » عدد (٢٠٢) بعنوان (الدين فى معترك الشكوك) ردد فيها ذلك النمى قائلا :

« حفظ الدين وجوده فى العصور الأولى للإنسانية بالغريزة الطبيعية، فلم يجد العلماء فى تاريخها كله جماعة مجردة عن الدين حتى فيما نقبوا عليه من عهودها الأولى قبل التاريخ.

« ولما أجال الإنسان فكره فى الوجود المحيط به ونشأت فيه خاصة النظر والاستدلال أيد الإنسان دينه بالعقل .

« ولما استبحر علم الكون ، وافتتن العقل بالبحوث المادية تحت تأثير المكتشفات الطبيعية فى عالم القوى والنواميس ووضع الدستور العلمى[١] وظهرت آثاره فى ترق المعارف وتجنب الأخطاء التى كان دليلها مجرد النظر العقلى ، لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان ، وأصبح الدين لا يستطيع البقاء إلا إذا كان له دليل من الوجود المحسوس . وصرح علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر بأن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامية ؛ فإذا نشر العلم على العامة رواقه زال الدين كما يزول كل ماليس له أصل ثابت يقوم عليه .

« على هذا كان الإجماع منعقداً فى العالم العلمى إلى زمان ليس ببعيد . فهل العقل يكفى لإيجاد الإيمان فى العهد الذى نحن فيه ؟

« يكفى إذا كان يستمد مسلماته من العلم الكونى المحسوس ، أما والعقل الذى يعتمد عليه الاعتقاديون يقوم على مسلمات لازال فى نظر العلم مسائل تعوزها الحلول

---

[١] مراد الأستاذ من الدستور العلمى الذى يردده فى مقالاته ان كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به .

كنشوء الكون والمادة .. الخ فما يقرره الاعتقاديون اعتماداً على أمثال هذه المسلمات لايراه العلم جديراً بالاعتبار[١] .

« ومعنى هذا أن الاعتقاديين فى هذا العصر قد أصبحوا عزلا من الأسلحة التى تصلح للكفاح فى هذا المعترك . فإذا لم يستكمل هذا النقص فلا يرجى للموضوع الذى هم بسبيله بقاء » .

ونحن نقول بعد التنبيه على أن مراد الأستاذ من الذين يسميهم الاعتقاديين هم المؤمنون بالدين : إنا نرى فى هذا الكلام الذى نقلناه عن « الرسالة » بنصها ، نعى الدين بتمام معنى الكلمة من الأستاذ ترجمان لسان الأزهر واعترافاً منه بأن الدين ليس له فى العصر الحاضر أصل ثابت يقوم عليه .

ثم أيد الأستاذ كلامه بقول (و . ميرس) مدرس علم النفس بجامعة كمبردج : « كنت مقتنعاً بأنه لو أمكنت معرفة شىء عن العالم الروحى على أسلوب يستطيع العلم أن يقبله ، ولن يكون ذلك بالتنقيب فى الأساطير القديمة (يريد المعجزات المنقولة إلينا من عصور الأنبياء) ولا بالتأمل فى علم مابعد الطبيعة (كاستدلال علماء الكلام على وجود الله بالأدلة العقلية) ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقنا على الظواهر التى تشاهد أساليب المباحث المضبوطة ، تلك الأساليب التى نحن مدينون لها بمعارفنا على العالم المرئى المحسوس ، هذه المباحث لايجوز أن تبنى على التأكيدات التى صدرت عن هذا الوحى أو ذاك ، بل يجب أن تؤسس ككل بحث علمى بمعناه الصحيح على

---

[١] يتمسك الاستاذ رئيس تحرير « مجلة الأزهر » فى معترك الشكوك الذى أثاره ضد الدين ، بما يتمسك به منكرو الأديان القائلة بأن الله كان ولم يكن معه شىء وأنه خلق العالم من عدم ، فيدعى المنكرون أن العالم قديم بمادته غير قابل للخلق والايجاد ، والاستاذ رئيس التحرير يقيم لتلك الدعوى وزنا ، حتى بعد أن كشف العلم الذى يعتمد عليه الأستاذ فى اثارة الشكوك ضد الدين ، عدم وجود المادة فضلا عن قدمها الذى يمتنع معه عدمها ، والذى كان يقول به أدعياء العلم إلى يومنا هذا . وسيجىء منا فى هذا الكتاب فصل خاص بحدوث العالم .

تجارب يمكننا تـكرارها اليوم ، مؤملين أن نزيد عليها غداً ، ويكون الدافع إليها هذه القضية : إذا كان يوجد عالم روحانى ظهر للناس فى أي عهد كان ، فيجب أن يكون كذلك قابلا للظهور فى أيامنا هذه . »

يشترط مدرس كمبردج للاقتناع بصحة الأديان المنقولة إلينا من عهود الأنبياء والتى تستند إلى نزول الوحى عليهم بتلك الأديان من عالم غير عالمنا يعنى من طرف الله فـكان لهم على مايقولون اتصال بذلك العالم يشاهدون منـه أموراً مثل مانشاهد نحن من عالمنا الحاضر . فيشترط هذا المدرس الإنجليزى للتصديق بصحة وقوع تلك الحالات المروية عن الأنبياء ، أن يظهر لنا فى هذا الزمان أيضاً مثل ماظهر لهم فينزل علينا مثلا الوحى من الله كما نزل عليهم ويظهر على أيدينا ما كان يظهر على أيديهم من المعجزات فـكأن الرجل يقول : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، ويقول الأستاذ فريد وجدى بك فى مقالته بعد أن نقل قول المدرس الإنجليزى :

« ونحن نقول هذا شرط العـلم فى قبول الأصول الاعتقادية (يعنى فى الاعتراف بصحة الأديان السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام) وهو شرط لايجوز الاستخفاف به ولا إغفاله ، لأن العلم آخذ فى الانتشار بخطوات واسعة وأساليبه المحررة (أى المحررة للإنسان من التقيد بالقيود الدينية) وآثاره الفاتنة أثرت فى العقول أبلغ تأثير . وانتشرت معها شبهات لم تدع محلا للعقيدة وضعفت حجة الاعتقاديين (يعنى المؤمنين بالأديان) أمام هـذا التحدى ضعفاً ظهرت آثاره فى الجماعات وخاصة فى البلاد الشرقية » .

ونحن نرى الأستاذ فريد يحكى فى هذه الجمل ما وقع فى الشرق لاسيما الشرق الإسـلامى ولا سيما بين متعلميه المصريين من انتشار التجرد عن الدين ، يحكى ما وقع من غير تحميل تبعة الواقع على عاتق أحـد غير الدين نفسه ، فـكل ما منى

به الدين عند الأستاذ من الاندراس ناشئ من ضعف حجته أمام انتشار حجة العلم المشهود آثاره كل يوم بالتجربة ، فى حين أنه لا نصيب للدين من تأييد التجارب. فالعلم الحديث أصبح فى زماننا ألد أعداء الدين الذى زاحمه إلى أن قضى عليه القضاء الأخير ، وهذا القضاء أمر طبيعى على ماقاله الأستاذ من أن آثار العلم الفاتنة أثرت فى العقول أبلغ تأثير . لكن هذه العقول لاقيمة لها عندنا ، بل عند أصحابها أيضاً ، لكونها عقول الذين يقولون ليس للمنطق سلطان على الإنسان ويقولون ان مجرد النظر العقلى يكون دليل الأخطاء ، فهى عقول الذين خرجوا على سلطان العقل والمنطق . وهل يعرف أصحاب تلك العقول أن عدم كون الدين مؤيداً بالتجربة ليس لعيب فى الدين بل فى التجربة نفسها لكونها ميزاناً قاصراً على الماديات ، والدين أرفع شأناً من أن يدخل فى متناول هذا الميزان ، وإذا لزمت التجربة للدين فلا يجربه إلا العقل الذى هو أيضاً منحة للإنسان من العالم العلوى كالدين ، والذى يسمونه العلم ويقوم على التجربة فإنما يكون نفعه فى الماديات لا فى المعنويات ، وكل مخترعات الغرب أمور مادية يستخدمونها فى تطمين شهواتهم ومطامعهم ، فهم وإن كانت لهم عقول فلا يهتمون بها إلا للاستفادة منها فى المنافع الدنيوية ، ولا ينقادون لأحكام العقل فى غير ذلك ، ولهذا نرى مقلديهم منا كالأستاذ صاحب المقالة المنتشرة فى «الرسالة» تتناقض آراؤهم فى أمر العقل يجلونه تارة ويحتقرونه أخرى كما سبق مثاله آنفا ، واحتقارهم العقل ازاء التجربة حجة قاصرة ينطبق حكمها على عقول المحتقرين فقط . وعلى كل حال ففى عقول الغربيين المنهمكين فى المادة وعقول مقلديهم منا خلل يستعصى على مداويه ، وهم رغم تبجحهم بفهم أسرار الكون لاسيما ما يكون كثير الاتصال بنا منها ، بعيدون عن فهم ماهية العقل كما أنهم بعيدون عن النجاح فى معالجة الأمراض العقلية رغم ترقيهم فى الطب فلا يتصور منهم يوماً من الأيام أن يعملوا فيما عملوا ويعملون من الأعضاء الصناعية للإنسان ، مخاً صناعياً مع أن صنع المخ ليس صنعاً للعقل .

نعود إلى ما كنا فيه : فأستاذ (مجلة الأزهر) يتفق مع أستاذ جامعة كبردج — كما تبين مما نقلنا عنهما — على أن ثبوت الدين فى نظر العلم يتوقف على كون أصوله الاعتقادية ككل بحث علمى بمعناه الصحيح مؤسسة على تجارب حسية يمكن تكرارها لكل من أراد ، فيجب أن لانؤمن بوجود الله من دون أن نرى شخصه أو نسمع صوته يكلمنا كما يكلم واحد فى التليفون أو الراديو على الأقل ، وأن لانؤمن بالأنبياء الماضين إلا بشرط أن يأتينا ماأتاهم من الوحى أو الملك المبلغ عن الله أو الكتاب المنزل من السماء ، وإلا بشرط أن يظهر على أيدينا ماظهر على أيديهم من المعجزات المعبرة بالأساطير مادام هـذا الشرط لم يتحقق إلى الآن ، ويجب أن تكون التجربة لصحة الدين وثبوته كتجربة كون النار محرقة أو كتجربة كون التيار الكهربائى قاتلا إذا مس الإنسان أو الحيوان ، ويجب أن يتبين خطأ المنكر للدين عند التجربة الحالية كما يتبين خطأ المنكر لاحتراق النار أو خطر التيار الكهربائى .

ونحن نقول: لكن طبيعة الدين تأبى الشرط الذى اتفق على قبوله عقل الأستاذين وذوقهما ، فهو لا يكون إلا غيباً كما جاء فى نص القرآن فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وما أحسن قول الشاعر التركى القديم :

غيبه ايمان كتير أى ملحد بى دين كه سكا — آخرتدن خط تعليق ايله حجت كلز

ومعناه : « آمن بالغيب أيها الملحد إن كنت تريد أن تكون مؤمناً ، وإلا فلن تأتيك براءة من الآخرة بالخط الفارسى أو الديوانى كما تخط به البراءات! » والأستاذان المتفقان يحاولان فى الشرط الذى وضعاه للإيمان أن لايبقى امتياز المؤمن على الكافر، فإما أن يتحقق شرطهما فلا يبقى على الأرض كافر ، كما لايوجد أحد ينكر كون النار تحرق يده عند مماستها .. وإما أن لايتحقق شرط الأستاذين فلايبقى على الأرض مؤمن بالدين . لكنهما لايدريان أن الإيمان يتجلى فى الإنسان بهداية الله وتوفيقه ، فلا يزال

الناس منقسمين بين من شرح الله صدره للإيمان فيؤمن مستغنياً بأدلته العقليــة عن غيرها ، وبين من جعل صدره ضيقاً حرجاً ليشترط على إيمانه بما يجعل الدين من الأمور العادية التي لايختلف فيه الناس ولا يمتاز من ينتفع بعقله على من لاينتفع . ولا يدرى هذا القسم الغافل أنهم لايؤمنون حتى ولو تحقق شرطهم الذى لايتحقق ، كما قال الله تعالى فى الذين حُرموا هداية ربهم وحقت عليهم الضلالة : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عنــد الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائــكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولــكن أكثرهم يجهلون » .

وأنا لا أتعجب من أستاذ كمبردج ، وإنمــا أتعجب من الأستاذ فريد وجدى بك الذى يقال إنه كتب فيما مضى تفسيراً للقرآن أو كتب القرآن مفسراً ، كيف لم ير هذه الآيات ! لــكن المسألة إذا كانت فى هداية الله أو الحرمان عن هدايته فلا عجب مطلقاً ، إذ ليس موقف من اشترط على الإيمان شرطا بعد أن رأى هــذه الآيات فى كتاب الله ، بأعجب من موقف الذين نزلت الآيات المذكورة لبيان مبلغهم فى عدم الاستعداد للإيمان. ولم يفكر الأستاذ الأول ولا الثانى الذى يصدّق الأول فى اشتراطه للاقتناع بالدين اقتناعَه بوجود عالم روحانى وراء هذا العالم الجسمانى ، أن رأس الدين هو الاقتناع بوجود الله ، وأكبر شبهة الشاكين فى الدين يكون فى وجود هــذا الرأس . وبعد الاقتناع بوجود الله فــكل مشكلة سهلة الحل . فإذا لم ينفع الأستاذين مثول هــذا العالم الجسمانى أمام أعينهما بكل عظمته وبداعة أنظمته ، فى الدلالة على وجود الله مالك هــذا العالم وموجده ، فأولى بأن لاينفعهما ظهور عالم آخر لأعينهما أخفى من عالمنا لــكونه غير جسمانى ، وأولى بمن لا يعترف بحاجة العالم الجسمانى الذى

يكون وجوده فى غاية الظهور ، إلى موجد ذلك العالم ومالكه : أن لا يعترف بالحاجة إلى الموجد المالك للعالم الثانى الذى ليس فى الظهور للعيون بدرجة العالم الأول، فيرتابَ فى وجود هذا العالم نفسه ، قبل أن يرتاب فى وجود موجده، ويعتبرَ ظهوره لعينه من قبيل الخيال الخادع .

ثم إن الأستاذ الثانى أعنى أستاذ مجلة الأزهر وكاتبَ المقالة فى « الرسالة » بعد اعترافه بوجوب تحويل الإيمان بالغيب لإثبات صحة الدين فى نظر العلم ، إلى الإيمان بالمعاينة ... أشار إلى طريق الحصول عليه من اكتشاف العالم الروحانى الذى يسعى له طائفة من العلماء فى الغرب منذ مائة عام ويزداد الأمل ـ أمل الأستاذ ـ يوماً عن يوم لفوزهم فى مساعيهم !

* * *

كان الأستاذ قبل تعيينه مديراً ورئيس تحرير لمجلة الأزهر يهاجم الدين ويهدمه بمعول العلم الحديث الغربى. والنزاع بين العلم والدين معروف فى الغرب ، ولم يكن الدين الذى ينازعه العلم دين الأستاذ ، ومع هذا كان ينقل ذلك النزاع إلى مابين العلم وديننا، كأنه الآخر ليس دين الأستاذ أيضاً . فلما جىء به قبل بضع عشرة سنة إلى رأس « مجلة الأزهر » ليبنى الدين الذى هدمه لم يدر ماذا يعمل . وليس بواقع منه طول حياته الكتابية أن يتنازل عن رأيه معترفاً بخطائه ، فلاح له أن يهاجم العلم الذى كان سلاحه عند مهاجمته للدين ، فاشتغل بذلك حيناً ، ولم يكن العلم علمه كما لم يكن الدين دينه ، وإنما الذى للأستاذ من هذه الأمور خالصاً صحيح النسبة إليه أن يكون واسطة الغرب إلى الأزهر فى أحدث آرائه وأفكاره إن لم يكن آراء جميع العلماء هناك فليكن رأى بعض منهم . ثم ما وسع الأستاذ أن ينكر عدم إمكان القضاء على العلم الذى يقضى على الدين ، فأخذ يتزلف إليه من جديد بدعوى كون الاستمرار فى تجارب البحوث النفسية واستحضار الأرواح الذى ينتظر منه التأييد للدين ، معدوداً

من الاستمرار فى الطريق العلمى ، والتأييـدِ المنتظر من تلك التجارب تأييداً علمياً . فاهتم بهذه المسألة وذاك الانتظار حتى جعل « مجلة الأزهر » مجلة دعاية لاستحضار الأرواح وأداة لنشر وترويج أعمال المشتغلين به من الغربيين، فى الشرق .

وأنا الذى[1] كنت أتعقب مقالات الأستاذ فى « مجلة الأزهر » وغيرها منذ ناقشته على إنـكار معجزات الأنبياء . ـ وكان تعيينه لرئاسة المجلة قبل أن يجف مداد ذلك النقاش فى صفحات الأهرام، من عجائب مصر الحديثة التى تبز عجائبها القديمة ـ حتى رأيت انتهاء نزاع العـلم والدين فى ذهن الأستاذ وهو القائد الصحفى الأزهرى الأعلى لفض هـذا النزاع وحسمه ، إلى حالة النزع للدين ، بل الحـكم بموته ودفنه فى قلوب من بقى على الأرض من العامة السذج ، الحـكم بموته وعدم إمكان إعادة الحياة إليه إلا بشرط نجاح الغربيين المشتغلين باستحضار الأرواح فى مهمتهم ، علهم يجدون بين الأرواح التى يكتشفونها أو يستحضرونها روح الدين أيضاً المفترقة من بدنه فيعيدونها إليـه وينقذون البشرية من وباء الإلحاد ، إلحاد الخاصة العام إن لم يكن إلحاد العامة !..

أنا الذى أتعقب مقالات الأسـتاذ وأمثاله ممن يتلقون الوحى من الغرب حتى فى الدين ، تاركين وحى الشرق الإسلامى وراءهم ظهريا ، وأرى الصعوبات فى مقابلة المقالات بالمقالات للدفاع عن تراثنا العلمى ، جهة من كون أولئك المستوحين المستعجلين فى الشرق طلوع الشمس من مغربها ، تغلبوا فى حلبة الصحافة واحتكروها فضاقت على أقلام غيرهم بما رحبت ـ قد كتبت كتاباً (هذا الـكتاب) حللت فيه مشكلات

[1] صفة (لأنا) المبتدأ لاخبر عنه ، والخبر (قد كتبته) الجائى بعد بضعة عشر سطرا . والـكاتب يحتاج إلى وصف الضمير عند اقتضاء الحال وإن منعه ابن الحاجب رحمه الله فى « كافيته » قائلا: « والضمير لا يوصف ولا يوصف به » .

الأستاذ الاعتقادية، وذللت بعون الله وتوفيقه كل صعب فى علاج مرضه العقلى العميق الذى هو مرض مصر الحديث والذى قد يكون سبب هلاكها فى الدنيا والآخرة ، إن بقى على حالته الحاضرة ، وهو الكتاب الذى نشرت الباب الثالث منه قبل بضعة أعوام على شكل كتاب مستقل مسمى « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » وأرجأت نشر الكل المسمى « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » إلى ما بعد أزمة الورق . وهذا الكتاب الذى كرست فيه حياة مشيبى حتى كان لى أرذلُ العمر بروح مستمدة منه ، أعزّه والذى أرجو أن يكون كتابُ أعمالى يوم عرض الأعمال نسخةً منه .. هذا الكتاب سأقدمه إلى مصر التى آوتنى بعد مغادرة بلادى .. أقدمه إليها لتقرأه وتثبّت عقيدتها الدينية المتزلزلة من تشكيكات سماسرة الغرب الشرقيين ، وليس ببعيد أن يسألها الله عن هذا الكتاب فيما يسألها عند يوم الحساب .

لا أشتغل بتقريظ كتابى إلى القراء المصريين فسيرونه ، وإنما أنقل هنا صفحة منه لتكون جواباً على مقالة الأستاذ المنشورة فى « الرسالة » الذى نفى فيها الأدلة العقلية ونفى الدين المبنى فى الإسلام قدماً على تلك الأدلة . والجواب بهذه الصفحة من الكتاب المكتوبة من زمانٍ المتقدمة على مقالة الأستاذ الجديدة ، معجزةُ الدليل العقلى الذى استهان به الأستاذ فى مقالته . فقد كان حضرته منذ مدة مديدة يروج مسألة البحوث النفسية ويعرضها على الأنظار كملجأ للشاكّين فى الدين مؤملا منها إثبات الدين على الطريقة الحديثة العلمية المبنية على التجربة الحسية ، بعد ادعاء عدم كفاية إثباته بالطريقة العقلية لكونها طريقة قديمة ميتة ، فأحييت فى الكتاب طريقة الإثبات التى أماتها الأستاذ وأمتّ الطريقة التى اعتمد على حياتها ، أمتُّها فيما يتعلق بمسألتنا ، وفى غيرها فضلتُ ما جعله الأستاذ مفضولا على ما جعله فاضلا . ودعواى هذه التى لابد أن يستبعدها الأستاذ كل الاستبعاد تنجلى فى أعين الغافلين عن عظمة

الإسلام ومتانة الأساس الذى وضع علماؤنا عليه إيمان المسلمين ، تنجلى فى أعينهم بعد التغلغل فى أعماق الكتاب ، ولا يمكننى أن أدرج كتابى المؤلف من أربع مجلدات كبيرة فى هذه المقالة ، مع أن فى نموذج الإفحام الذى تضمنته الصفحة المنقولة عنه ، كفاية وهى :

« إن المؤمنين بالله القدماء إيماناً بالغيب أى من غير مشاهدته بإحدى الحواس الظاهرة ، ولكن مستيقنين بوجوده كأنهم شاهدوه ، لاسيما علماء المؤمنين ، أسندوا إيمانهم — على قول الأستاذ وغيره من المصريين — إلى غير مسند ، وهو الدليل العقلى ، إلا أنهم كانوا يزعمونه دليلا يُقتنع به فاقتنعوا وآمنوا . ولنقل : وقد تحقق بذلك ماذكره الأستاذ فى بعض مقالاته من أن الله تعالى يأتى العقول فى كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل النجاح ... وبانقلاب الزمان تبين للأستاذ وزملائه المتصلين بالعلم الحديث الغربى أن دليل الأولين ليس بدليل على جدير بالاعتبار والاقتناع — كما نص عليه فى مقالته المنتشرة فى « الرسالة » — لكن الأستاذ وجد أخيراً مايعوضه عما فات : وهو ما اكتشفه بعض العلماء الغربيين فى بحوثهم النفسية ، فاقتنع به واعتبره دليلا قاطعاً علمياً ، وإن لم يوافقه على ذلك كثير من العلماء الآخرين وقالوا انها أوهام قوم مخدوعين .

« وعلى فرض كونه دليلا قاطعاً يلزم التنبيه إلى أن ماوجده الباحثون الغربيون واكتشفوه بالطريقة العلمية التجربية ليس ذات الله أو وجوده بل وجود الروح ، إلا أن هذا الاكتشاف قد أطمع الأستاذ فى أنهم يجدون الله أيضاً فى الزمن القريب أو البعيد ، سواء تحقق فى المستقبل ما كان يطمع فيه أو لم يتحقق وصار طمعاً مقضياً عليه بالخيبة ، وعلى كلا التقديرين فليس لدينا ، لا ، لا بل ليس لدى الأستاذ وأمثاله المصريين غير المقتنعين بغير الأدلة التجربية ، ليس لديهم فيما بين الزمان الماضى الذى كان يُعتمد فيه على الدليل العقلى المنطقى وبين الزمان الذى يجد الباحثون الغربيون فيه

ذات الله بالطريقة العلمية التجريبية ـ إن وجدوها ـ كما وجدوا الروح ... ففيما بين هذين الزمانين من المدة ـ مدة انتظار نتيجة البحوث النفسية ـ التى يمكن أن تطول أعصارا ، وفيها زماننا الحاضر الذى وُجد الأستاذ فيه على رأس مجلة الأزهر وهو يدافع عن الدين ـ ليس لديهم دليل على وجود الله . ولا يجرى بالنسبة إلى هذا الزمان المتوسط ماقاله الأستاذ من أن الله يأتى العقول فى كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث ، لأنه لم يأت العقول الحاضرة أعنى عقول المصريين ، وفيها عقل الأستاذ ، بما أحست الحاجة إليه من الدليل على وجود الله ، وإنما أتاها بأن الدليل القديم على وجوده لا يكفى لإثباته علميا . ولا أحست تلك العقول بالحاجة إلى دليل جديد يكفيه ، إذ لو أحست لأتى به ، وإنما أحست الانتظار إلى أن يكتشفه الباحثون. فليس لدى الأستاذ وأمثاله المنتظرين فى العصر الحاضر دليل على وجود الله ولا حاجة إليه محسوسة !! وما لا دليل على وجوده فلا مانع من أن يقال عنه إنه غير موجود عندهم فى الزمان الحاضر !!!

« بل أقول ان الله تعالى لم يكن موجوداً عندهم فى الأزمنة الماضية أيضاً التى كان الناس فيها يظنونه موجوداً ، لعدم كون دليلهم على وجوده دليلا علميا يصح الاعتماد عليه .. بل أقول لادليل عندهم أيضاً على أن الله تعالى سيكون موجودا، بأن يكتشف وجوده فى المستقبل بالدليل العلمى ، إذ لا معنى لانتظار الاكتشاف فى المستقبل عن وجود ما لم يوجد إلى الآن ولم يقم على وجوده دليل يعتمد عليه[1] فالله تعالى على رأى الأستاذ المنجلى من أقواله ـ ويا للأسف انجلاء منطقيا ـ ليس بموجود فى أى زمان من أنواع الأزمنة الثلاثة ، نعم كان الله تعالى موجوداً عند أصحاب السذاجة العامية

---

[١] فلو كان وجـود الله معلوما بالدليل وكان المنتظر هو اكتشاف ذاته وحقيقته وكنا سلمنا بإمكان هذا الاكتشاف ، كان الانتظار وجه معقول .

والذين يلتحقون بهم من العلماء المعتمدين على الدليل العقلى ، غير أن العلم الحديث قضى على هؤلاء العلماء ودليلهم المبنى على العقل والمنطق ، والأستاذ بلّغنا نبأ هـذا القضاء من منبر الأزهر الحديث !..

«فهذه خلاصة أعمال الأستاذ فى رئاسة تحرير مجلة الأزهر منذ بضع عشرة سنة أعنى إعدام الله الموجود عنـد الناس الذين يسميهم الأستاذ « الاعتقاديون » وتعليق الحـكم بوجوده من جديد إلى أجل غير مسمى بل غير مرجو المجىء ... هذه خلاصة أعمال الأستاذ وخدمته للأزهر خاصة والإسـلام عامة ، فليقدر أجرها فى الدنيا والآخرة القادرون !! »

وهذه صفحة من كتابى تتضمن نموذجاً من الدليل العقلى المنطقى فى الرد على مقالات الأستاذ ضد هذا النوع من الأدلة . فإن لم تـكفه مفحمة ومفهمة لخطأه الفاحش فى تقدير قيمة الدليل العقلى المنطقى قدرها فسيقول ردًّا علىّ : هـذا كلام معقول منطقى ولـكن لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان[1] .

---

[١] المنطق الذى يستهين به من يستهين من المصريين مثل الأستاذ فريد وجدى بك رئيس تحرير مجلة الأزهر معلنين استهانتهم بأن يسموه المنطق القديم أو المنطق الصورى أو التجريدى كما فعل معالى الدكتور حسين هيكل باشا فى مقدمة كتاب « حياة محمد » — هو المنطق العظيم الذى يجد القارئ أمثلة ونماذج هامة من عظمته وبراعته ، فى أماكن مختلفة من كتابنا هذا . . . ومن طريف غفلة المستهينين به فى وصفه صوريا أو تجريديا . أن منشأ عظمة هذا المنطق وقوته ، فى صوريته كما سيطلع عليه القارئ أيضا . . وقد استعان كتابنا هذا الفريد فى تحليل خرافة وحدة الوجود العالمية الذى يجئ دوره فى الجزء الثالث من الـكتاب ، استعان فى أدق مراحله كثيراً من فيض وفضل ذلك المنطق .

ومن تلك النماذج الدالة على براعة هذا المنطق أن فى أدلة الفيلسوف ديكارت على وجود الله دليلا مسمى بالدليل الأنطلوجى ذكره وأطراه صديقنا الدكتور عثمان أمين فى كتابه (ديكارت) وأيده الأستاذ الـكبير العقاد فى كتابه (الله) على الرغم من أن ذلك الدليل نقدعلى كاشفه قدما . . . فلم يجدنفعا نقد الناقدين فى الحيلولة دون اتفاق الدكتور عثمان والأستاذ العقاد على الإعجاب بالدليل المذكور والاعتراف بمتانته . =

وهنا انتهيت من إيضاح منهج الكتاب في نقد الأقوال بعد كلمتي إلى القراء . والآن أشرع في سنخ الكتاب مستعيناً بالله ومستمداً من توفيقه .

مصطفى صبري

= وأنا قوى الظن بأن الأستاذين لن يسعهما بعد استماع بحثه منى أنا الآخر بلسان المنطق، إلا أن يسحبا اعتمادهما على ذلك الدليل ويقتنعا بالخطأ المختفى فى محل الاعتماد منه، وسيأتى بيانه فى الجزء الثانى من الكتاب .

لكن من الصعوبة بمكان فهم القواعد المنطقية ثم تطبيق المسائل المعضلة عليها ، الأمرين اللذين بينهما وبين الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر المستهين بالمنطق بون بعيد ، إلى حد أنه ينتظر كل الانتظار من الأستاذ العقاد والدكتور عثمان الاعتراف بفضل هذا المنطق بعد اطلاعهما فى هذا الكتاب على مسائل استعنت به فى حل مشكلاتها ، ولا ينتظر من الأستاذ رئيس التحرير إلا ماهو دأبه من الإصرار على ماقال، سواء أصاب فيه أو أخطأ .

بسم الله الرحمن الرحيم

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .

سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضى نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

سبحان من كان لايحصى ثناء عليه من لا أُحصى ثناء عليه فيقول أنت كما أثنيت على نفسك ، وهو كما أثنى عليه من هو كما أثنى على نفسه صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

وبعد فيقول العبد الفقير فى الدنيا إلى هداية ربه لسبيله وصيانته بعد الهداية من زيغ القلب وسوء المنقلب ، وفى الآخرة إلى عفوه ومغفرته وواسع رحمته الشيخ مصطفى صبرى التوقادى ابن احمد بن محمد القازابادى :

إن لهذا الكتاب المعروض على نظر القارئ قصة تستحق الذكر هنا[1] وهى أنى كنت قرأت مقالة نشرتها مجلة «الرسالة» قبل أكثر من عشر سنوات للأستاذ

[١] وهى أول وآخر قصة مع كلمة تاريخية أعتذر إلى القارئ عن وجودهما فى كتابى الذى لايعنيه فيما يتناوله إلا التمحيص والتعمق العلمى فى مسائل هامة دينية وفلسفية ، وهذا على عكس مالايجده القارئ فى أكثر الكتب الفلسفية المؤلفة بعصر غير الحكايات التاريخية والتراجم .

محمد عبـد الله عنان عنوانها « حرب منظمة يشهرها الـكماليون على الإسلام » وكان من جملة ما كتبه الأستاذ فى مقالته هذه الأسطر :

« ومهما يكن من أمر البواعث التى تحفز الـكماليين إلى هذه الخصومة المضطرمة نحو الإسلام فإن الإسلام أقوى وأرسخ من أن يتأثر بمثل هذه الثورات العصبية الطارئة ، وقد صمد الإسلام وما زال يصمد لخصومة الغرب كله مع ما يحشده الغرب لغزوه من العوامل والوسائل الخطرة . ذلك أن الإسلام أقوى بعقائده ومبادئه ...

« ولن يضير الإسلام أن يسقط من عداده تركيا الـكمالية ، وإذا كان الإسـلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة ، فـكيف يحاول اليوم أن يعتز بهـذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة ؟ »

فآذتنى الجملة الأخيرة من هذا القول التى خرج فيها الـكاتب خروجاً ظاهراً عن حدود الحق والإنصاف[1] فقد تعجبت أولا كيف يجمع الـكاتب فى نفسه التى بين جنبيه البغضاء نحو تركيا الجديدة والقديمة معاً ، وهو يعرف مايحشده الغرب من الوسائل الخطرة لخصومة الإسلام ، ولا يعرف انه أى الغرب كان يحفظ فى خصومته للإسلام خصومةَ تركيا القديمة وأن إنشاء تركيا الجديدة وإبادة تركيا القديمة من أهم تلك الوسائل الخطرة التى حشدها لخصومة الإسلام . والأستاذ عنان ينضم بعداوته لتركيا القديمة الإسلامية العثمانية ، إلى تلك الوسائل المحشودة لخصومة الإسلام ويؤيد

---

[١] ولو كان طعن الـكاتب فى تركيا قديمها وجديدها بدافع من الغيرة الصادقة على الإسلام والخبرة الصحيحة عبادئه لعذرته بعض المعذرة وعاملته بالتسامح ، لـكن الأمر ليس كذلك بشهادة أنه كان لايرى فى الخطوات الأولى للثورة الـكمالية مثل إلغاء الخلافة وحل الجماعات الدينية والصوفية وفرض الثياب المدنية والقبعة، ما يثير الأذهان المستنيرة (على تعبير الأستاذ الـكاتب) بل يقول : كانت هذه الأذهان تتبع جهود تركيا الجديدة فى سبيل التجديدالقومى والاجتماعى (على أن يكون فى تلك الجهود تجريد الدولة من صبغتها الدينية) بمنتهى الإعجاب والعطف .

جديدها الذى تظاهر بمعاداته مع قديمها ، كما يؤيده الغرب الحاشد . وليس الأستاذ صميميا فى هـذه المعاداة ، وإنما هو جاد فى خصومة تركيا القديمة الإسلامية الشامخة التى لابد أن يكون من خاصمها من خصوم الإسلام ، والأمور التى أعجبت الأستاذ مما فعلته تركيا الجديدة وأحصيناها فى الهامش الآنف ، تدل على ماقلنا دلالة باهرة .

ثم إنك قد رأيت هذا الأستاذ يعترف بشموخ دولة الترك فى الماضى . أما كون تلك الدولة من الدول الإسلامية المعمرة فلا شك فيه لأحد ، ولا يمكن أن يشك فيه الأستاذ أيضاً ، وقد كان عمر العثمانيين مع السلاجقة وأبناء طولون والماليك الترك وغيرهم لايقل عن ألف سنة . فهل يمكن إذن أن تكون دولة إسلامية من الدول الشامخة ومعمرة غاية التعمير ثم لا يعتز بها الإسلام ؟ فهذا يخالف بداهة العقل ، وقد كانت صلة الدولة العثمانية التى هى أطولها عمراً وآخر دولة الترك الإسلامية ، بالإسلام بدرجة أن هذه الصلة عدها الترك الجدد من أسباب انقراضها ، وصدّق ذلك المسلمون القاصون حيث أصبحوا يعتبرون تركيا الحاضرة التى خلفت الدولة العثمانية وشهرت حرباً منظمة على الإسلام بشهادة الأستاذ عنان ، أقوى من الدولة العثمانية فى أواخر عهدها .

وإنى لمـا قرأت مقالة الأستاذ عند انتشارها وقمت للرد عليها والانتصاف لدولة الترك القديمة المسلمة المنتهية فى الدولة العثمانية وأخذت أكتب مقالة فى هذا الصدد ، لم أملك إرادتى فى تحديد مقدارها حتى صارت من طولها كتاباً ، وانتقل الكلام فى الكتاب إلى مبحث دينى طال القول فيـه أيضاً حتى لاح لى اخراجه من الكتاب الأول وجعله كتاباً بمفرده ، وكان الدافع إلى وضع الكتاب الأول الدفاع عن الدولة التركية الماضية المسلمة ، فإذا بى أدافع فى الكتاب الثانى عن الإسلام نفسه ، وإذا بدافع الثانى قد غلب فى نظرى وأنسى الكتاب الأول موجهاً كل عزيمتى إلى تحقيق الغرض الثانى الأسمى ، حتى حصل هذا الكتاب بإذن الله وحمده وتوفيقه وليد الكتاب

الأول . فإن لم يتيسر لى بعد هذا العودُ إلى الكتاب الوالد فإنى أتأسى بأن وليده قد يقوم مقامه ويسد فراغه من حيث ان هذا الكتاب تأليف رجل من الترك المسلمين العثمانيين ، فإن أدى فيه خدمة للإسلام يعتز بها خادمه إن شاء الله ، على الرغم من أنه قد سبق أن طُعن بخيانة الدين والوطن إبان مجيئه إلى مصر مهاجراً ، بسبب معارضته لمصطفى كمال [1] كما طعن الأستاذ عنان الدولة العثمانية بل الدول التركية الإسلامية بأجمعها ـ كان كتابه هذا جواباً على مقالة الأستاذ يغنيه عن الجواب .

على أنه قد رد على هذا الكاتب قبل ردى بل قبل صدور مقالته عن قريحته الحاقدة على «الرسالة» كاتب مصرى أكبر منه بكثير وهو المغفور له محمد فريد زعيم الحزب الوطنى وخليفة مصطفى كامل باشا حيث قال فى أول كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية :

« وبعد فقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى أهلوه من أهوال الأحوال ماتشيب له الأطفال وتندك من وقعه عزائم الرجال بل شوامخ الجبال . وما كان ذلك إلا بعد أن انفرط عقد بنيه وتناثر نظام أهليه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه ، فأغار الدهر بخيله ورجله على الشرق ودوله وقلب لأبنائه ظهر المجن وقلبهم بين الإحن والمحن ، فتناسوا ما كان لهم من فخامة الاقتدار وجلالة الحضارة وضخامة العمران واصالة الإرادة وانغمسوا فى بحار الكسل والخمول ذاهلين واستكانوا إلى الذلة والهوان صاغرين حتى صاروا وهم على شفا جرف هار وقد أوشكوا أن يقضى عليهم الدمار والاندثار ويكونوا عبرة لأولى البصائر والابصار .

---

[١] حتى كان بين الطاعنين من قال انك است شيخ الإسلام والمسلمين بل شيخ الأبالسة والشياطين . ومن أراد معرفة أسماء الذين أمطروا على المطاعن فليراجع الصحف المنتشرة بعد قليل من انتشار قصيدة الشاعر شوقى بك التى أولها : ارفعى الستر وحى بالجبين * وأرينا فلق الصبح المبين فى مفتتح جريدة الأهرام والتى أطرى فيها مصطفى كمال واعتدى على السلطان وحيد الدين . فرددت الاعتداء على الشاعر بخطاب مفتوح ، فهاجم على أتباعه الغاوون .

« لـكن العناية الصمدانية تداركتهم بلم الشعث ورم الرث ورتق الفتق ورقع الخرق فأضاءت الأفقَ الإسلاميّ بظهور النور العثمانى وأمدته بالنصر اللدنى والعون الربانى فقامت الدولة العلية بحياطة هذا الدين وحماية الشرقيين ، ودعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر فـكانت من المفلحين . ثم وقفت فى طريق أوروبا حاجزاً منيعاً وسوراً حصيناً وحالت دون أطماعها وألزمتها بكف غاراتها بأنواعها ، ثم اهتمت بالإصلاح وسمت فى تأييد النظام فصار لها بين الدول المقام الأول والرأى الراجح والقول النافذ فـكانت لا يضاهيها دولة من الدول بمـا أحرزته من الأملاك الواسعة فى قارة أوروبا وآسيا وأفريقية ، ونالت من العزة والتوفيق مايجدر بكل شرقى أن يتذكره الآن لتستفزه عوامل الغيرة ودواعى النشاط فى بذل نفسه ونفيسه فى سبيل تقويتها وتعزيز رايتها وتأييد كلمتها ما كان ولا يزال من الحسنات الحسان على كافة بنى الإنسان من غير نظر إلى الأجناس والمذاهب والأديان مما لايراه الباحث فى أى دولة غيرها قديماً وحديثاً بل نرى عكس ذلك فى الدول ذات الدعاوى الطويلة العريضة التى تتقول بأنها عماد المدنية والإنسانية ، وهى مع ذلك تصدر أوامرها الرسمية بارتـكاب الفظائع والبشائع التى لايكاد يصدقها السامع ممـا نمسك اليراع عن تعداده فى هذا المقام لعدم دخوله فى موضوع الـكتاب ، لاسيما وأن التلغرافات والجرائد تتوارد علينا كل يوم ببيان هـذه الأنباء الشنيعة ، وذلك بخلاف الدولة العلية ، فإن جميع الناس تعيش فيها بغاية الحرية والسلام وكل المطرودين من الدول الأوروبية يفدون إلى أراضيها فيرتعون فى بحبوحة الراحة والهناء آمنين على أنفسهم وأعراضهم وعروضهم ، وقد أصبحت الآن ملجأ وحيداً لـكل من تلفظه الدول الأخرى من أبناء الإنسان ، فماذا يكون حظ هؤلاء المذكورين إذا جارتهن فى هذا المضمار وناظرتهن فى هذا الفعال . وهـذه حسنة من أقل حسناتها يحق للعثمانى مهما كان جنسه ودينه أن

يفاخر بها ويذكرها فى كل فرصة وفى كل حين ، وفى ذلك أكبر داع وأعظم باعث إلى الوقوف على تفاصيل تاريخها » .

فانظر قول المرحوم محمد فريد هـذا الذى يضع الدولة العثمانية المرحومة فى أرفع مكان تبلغه دولة إسلامية فى الاحتفاظ بعزة الإسلام والمسلمين على وجه الأرض فى أحوج أدوار التاريخ إلى هذا الاحتفاظ ، ثم انظر قول الأستاذ عنان إن الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة : فهل ترى أن محمد فريد الذى لايزال المصريون يكبرون منزلته فى وطنيته وتضحيته ومجاهدته لمصر ، ارتكب الكذب الصريح فى قوله المنقول آنفا المزكى للدولة العثمانية تزكية إسلامية وإنسانية عظيمتين، أم الكاذب هو الأستاذ عنان الذى أنكر كل خدمة وكل سابقة لدول الترك فى إعلاء كلمة الله وتمجيد الإسلام والمسلمين ، حتى إنه لايحنقه حكم الفرنسيس والإنجليز فى مصر ولا الصليبيين فى بلاد العرب ، حنقه على حكم العثمانيين فيها ، كما سيأتى .

وإذا اعتمدنا على قول زعيم مصر الوطنى أكثر من قول الأستاذ عنان كاتب المقالة المنشورة فى « الرسالة » فالدولة العثمانية المرحومة ، فضلا عن أنه لو لم تكن حمايتها للإسلام ووقوفها طول حياتها فى وجه أعدائه لعاد الإسلام غريباً قبـل ستة قرون من غربته الحاضرة الظاهرة للعيون ـ عم نفع هـذه الدولة لغرباء آخرين من بنى الإنسان المختلفى الأجناس والأديان .

ومع قطع النظر عن هذا الرد المفحم فإن انتهاء الحروب الصليبية وانقطاع دابرها من الشرق الإسلامى بعـد ظهور الدولة العثمانية وانتقال الحرب إلى بلاد الصليبيين أنفسهم واعتزاز الإسلام بهذا التحول العظيم طيلة أعصار ، مما لايمكن الجدال فيه .

وقال الأستاذ فرح أنطون مؤلف كتاب « فلسفة ابن رشد » وصاحب مجلة « الجامعة » الذى ناقشه الشيخ محمد عبده وتحامل فى نقاشه على المسلمين من غير العرب ، بأنهم أفسدوا الإسلام (ص ١٧٤ فلسفة ابن رشد باب الردود) : « إن

الفرس لم ينفعوا الإسلام الحاضر إلا من حيث العلم ، وأما الأتراك فقد حفظوا حياته بقوة السيف ، وقد جاء فى أمثال الافرنج : « أريد أن أحيى قبل أن أخلد » ففضل الدولة التركية على الإسلام لاينكره أحد » .

وقال هذا المؤلف فى رده على الشيخ ص نفسها : « إن دولة سلاطيننا آل عثمان ورثت الميراث العربى بانتخاب طبيعى فكفت بقوتها ذلك الميراث ما كان يحدق به من المصائب والأخطار » ثم قال : « إن ميراث العرب لولا الدولة العثمانية لم يبلغ هذا المقام ، بل ربما لم يثبت بعد أصحابه بضعة أعوام » أقول وشهادة هـذا الشاهد البالغة ، وربما المبالغة فى فقرتها الأخيرة ، عن قيام الدولة العثمانية بحراسة كيان الإسلام فى عهدها الطويل ، لاتفترق فى المعنى عن شهادة محمد فريد بك الوطنى الكبير.

ومهما اجتهد الأستاذ عنان فى غمط الترك القدماء المسلمين ماسبق لهم فى خدمة الإسلام وإعلاء كلمته ، فالحق لايعدم أنصارا .. فقد كتب الأستاذ حسن حبشى مقالة فى « الرسالة » عدد ٦٦٣ بعنوان « السلاجقة عنصر قوة فى الإسلام » قال فيها بعد كلام : « ... إن الحالة التى وصلت إليها الدولة العباسية من الضعف كادت تودى بها لولا أن قيض الله لها السلاجقة فأنقذوا الإسلام » ثم قال نقلا عن تاريخ كمبردج : « كما أن شخوصهم شطر الغرب وأضاف عنصراً جديداً إلى الإسلام مكن المسلمين من الوقوف ضد الغزاة الأوربيين ووحدوا الإقليم الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة وإن كان لفترة محدودة ، وردوا الصليبيين البزنطيين » ثم قال نقلا عن نفس المرجع : « ويعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية بمصر » .

وكتب هذا الأستاذ فى الهامش : يقول لين بول فى Mohamed Dynastis 150 ولقد أحيوا عصبية المسلمين بعد ركودها وأوجدوا جيلا من المحاربين المسلمين المتعصبين الذين يرجع إليهم ــ أكثر من شىء آخر ــ ما منى به الصليبيون من إخفاق مرات عديدة . وهذا ما يجعل للسلاجقة المكانة الهامة فى تاريخ الإسلام » .

فلو سئل الأستاذ عنان الذى ينكر اعتزاز الإسلام بالترك حتى ولا يوم كانت دولة شامخة : من أكبر رجل فى تاريخ مصر الطويل بعد فتحها فى عهد سيدنا عمر بيد الصحابى العبقرى عمرو بن العاص ، تولى ملك مصر وخدم الإسلام وجاهد فى سبيله حق الجهاد ؟. فكان جوابه صلاح الدين الأيوبى ، فهل لا يخجل هـذا الأستاذ إذا قيل له : إن قيام الدولة الأيوبية بمصر يرجع إلى السلاجقة الترك ؟

وإذا فكرنا فى أن السلطان صلاح الدين الأيوبى الشهير بمجاهداته الإسلامية كان متخرجاً من مدرسة الجهاد ضد الصليبيين التى أسسها السلطان محمد نور الدين ابن زنكى التركى السلجوقى ، تبين كون النصيب الأسمى فى الحروب المنتصرة على سيول الاعتـداء الصليبى نحو الشرق الإسلامى قبل ظهور الدولة العثمانية ، لطوائف الملوك السلجوقيين .

قال مؤلف « الفتوحات الإسلامية » أحمد بن زينى دحلان مفتى السادة الشافعية بمكة المكرمة نقلا عن ابن الأثير : « قد طالت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى زمننا هـذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين » . وقال صاحب الفتوحات فى صلاح الدين الأيوبى : « وهو مع ماجمع الله فيـه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمد نور الدين بن زنكى فإنه هو الذى أقامه حتى صار من الكاملين ومن عباد الله المقربين » . وقال أيضاً : « كان السلطان صلاح الدين بن أيوب من أتباع السلطان نور الدين فجهزه إلى مصر » ونقل عن صلاح الدين نفسه قوله : « كل ماترى فينا من عدل فمنه تعلمناه ! » وكان نور الدين قد عمل منبر البيت المقدس رجاء أن يفتحه الله على يديه وأمر الصناع بتحسينه وإتقانه إلى حد أنه لم يعمل مثله فى الإسلام . ولمـا فتحه صلاح الدين أمر بإحضار ذلك المنبر فحمل من حلب ونصب ببيت المقدس وكان بين عمله وحمله مايزيد

على عشرين سنة وعدّ ذلك من كرامات نور الدين كما فى « الفتوحات الإسلامية » ص ١٥ من الجزء الثانى .

فلولا أولئك المجاهدون من السلاجقة الأتراك وفروع السلاجقة من الأيوبيين والمماليك الترك ومماليكهم الشراكسة ... ولولا ظهور العثمانيين فى الأناضول آخذين التوسع إلى أوروبا الصليبية ودام زحف جيوش الصليبيين إلى مصر وسوريا وفلسطين ما كان من المستبعد أن يتقلص ظل الإسلام من تلك البلاد باستقرار الصليبيين فيها ، وأن لايحتفظ الأستاذ محمد عبد الله عنان اليوم بهذا الاسم . وليس ببعيد أن يكون الذين يبغضون الدولة العثمانية المستولية على الشرق العربى من الكتاب المصريين ـ وقد رأينا منهم من حمد الحملة الفرنسية ـ يبغضونها لكونها السبب فى عدم وقوع ما ذكرنا من الاحتمال .

فقد انبسطت عزة الإسلام وسلطانه على القارات الثلاث كما ذكر المرحوم محمد فريد الوطنى ودامت مدة دوام العز والغلبة للعثمانيين ، حتى أنهم قد وضعوا الحصار على فينا فى قلب أوروبا مرتين ، وهم ما كانوا يفعلون مافعلوا من الفتوحات باسم الترك بل باسم الإسلام[1] ولم يكن الحاكم فى البلاد التى يحكمونها قانون الترك

---

[١] وقد ظل لفظ الترك يستعمل أجيالا طويلة على لسان الغربيين كرادف المسلمين كما صرح به المرحوم الدكتور على زينى عميد كلية التجارة بجامعة فؤاد فى كتابه «أصول القانون التجارى» ص٤١ وكما كتب ابنى وصديق العزيز الأستاذ على حسين يعقوب الألبانى اليوجوسلافى الموظف بمكتبة جامعة فؤاد والذى تطوع بتبييض هذا الكتاب ، لما وصل إلى هذا المحل ، كلمة من عنده قائلة : «ولايزال لفظ الترك يستعمل فى ألسنة عامة الشعوب البلقانية كرادف المسلمين» فأثبتها هنا شاكرا له. وفى هاتين الشهادتين مايقصم ظهر الأستاذ عنان المحاول لقطع صلة الترك بالإسلام فى أدوار اعتزازه وانتصاره . أما أنا فقد كتبت فى الباب الرابع من هذا الكتاب على هامش قول الدكتور زينى المنقول هناك أيضا بعد كلام من كتابه انتهى إليه :

أعظم مفخرة امتاز بها قومى الترك إلى أن جاء دور الإنقلاب الكمالى فى تركيا وأعظم مخزاة للترك بعد ذلك الانقلاب اللادينى . فليس بكثير إذن أن ألف فى أوروبا المعادية للاسلام منذ الحروب =

بل قانون الإسلام الذى أعرضت عنه تركيا الجديدة الكمالية فأخذت قانون سويسرة كما أعرضت مصر فأخذت قانون فرنسا .

وإن كنت فى ريب من أن الدولة العثمانية كان الحاكم فيها هو الإسلام فانظر ما قاله (اد . انكلهارد) من سفراء فرنسا بتركيا ، فى مقدمة كتابه « تركيا والتنظيمات فى تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية » :

« كان الغرض من التنظيمات تقريب الهيأة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التى عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة ، ولا شبهة فى خطورة المشكلات التى يتضمنها هذا المشروع ، فقد كان العامل فى وقف الأمبراطورية العثمانية فى موقفها بالقرون الوسطى الذى غمسها يوماً عن يوم فى ظلام تلك القرون الكثيف ، والذى سينتج يوماً من الأيام اندراسها التام — بقاء الحكومة العثمانية

= الصليبية ما ينيف على ستمائة كتاب اشادة باسم زعيم الانقلاب القاضى على إسلام الترك الذين كانت أوروبا تستعمل اسمهم كمرادف للمسلمين .

ولعل ذلك لانتهاء الحروب الصليبية المبتدئة منذ عهد السلاجقة الأتراك ، فى أيدى الترك العثمانيين وتحول تلك الحروب فى عهدهم من شكل الدفاع إلى شكل الهجوم كما أشار إليه زعيم الوطنيين المصريين محمد فريد . فلذلك اعتبرت أوروبا انتهاء الدولة العثمانية وانتهاء الخلافة بفضل مصطفى كمال ، انتهاء دولة الإسلام .

فليس بكثير إذن تلك الكتب المؤلفة فى أوروبا بشأنه . وليس بكثير أيضاً كتاب الأستاذ عزيز خانكى بك عنه بمصر المسمى « كمال آتاتورك » ولامعيب عليه لكونه فى دين الصليبيين المحاربين القدماء إن لم يكن فى عروقه شىء من دمائهم .

وما نقله أعداء الإسلام من أمم أوروبا فى الإشادة المنقطعة النظير بظهور مصطفى كمال فى تركيا، قد وقع مذكرا لما سبق أن أقامت الدول المسيحية من أعياد المسرة والفرح على وفاة السلطان محمد فاتح العثمانى، مالم يقم مثلها فى الدنيا على وفاة أحد . ومن عجائب المصادفات أن الأستاذ خانكى بك أنكر كون السلطان المذكور فاتح قسطنطينية فى نقاش جرى بينى وبينه على صفحات جريدة الأهرام، فهو يعترف بمصطفى كمال فاتح تركيا المسلمة ولا يعترف بالسلطان محمد الثانى العثمانى فاتح قسطنطينية المسيحية !! فهل كانت إذن تلك الأعياد على وفاته عبثا ؟

منفردة فى خارج الهيأة الدولية الأوروبية ، وكان السبب الحقيق فى هـذا الانفراد هو الدين .

« وفى الحقيقة أن الإسـلام الذى قد كان مؤسسَ الحـكومة العثمانية بقى حاكما مطلقا فوق الحـكومة ناظما ، فقد كان القانون المدنى متحداً مع القرآن .. ولـكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لايمكن تفريق بعضها عن بعض ، كانت تشكيلات الأمة لاتقبل التغيير كالعقائد الدينية .

« فوجب لتحصيل الائتلاف الذى لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه ، إما إزالة الحائل فى البين بالمرة أو تخفيف وطأته . ومعناه إما أن تحول الحـكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها عن تأثير القوانين الدينية كما وقع فى العالم المسيحى ، وإما أن تخلص بالتدريج من الحدود والقيود الدينيـة من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعا .

« وللاحتراز من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب لا يلبث أن ينفعل ويتأثر من كل شىء ، كانت الحـكومة العثمانية اختارت الشق الثانى . »

فهذه الـكلمة المنقولة من كتاب (اد . انكلهارد) الذى ألفه فى سنة ١٨٨٢ للبحث فى تاريخ تطورات الدولة العثمانية منذ عهد السلطان محمود الثانى وطبعت ترجمته إلى التركية بقلم على رشاد بك فى سنة ١٩١٢ ، تعلن ما كان يضمره الترك المتفرنجون أن يفعلوه بدين الأمة ـ ثم ظهر مع الانقلاب الـكمالى ـ وما يضمره المتفرنجون العرب فى مصر وغيرها ، ولم يظهر تمامه بعد .

وفى قول هذا المؤلف الفرنسى عن صلة الدولة العثمانية بالإسلام لحد كون الإسلام فى تلك الدولة مؤسس الحـكومة وبقائه بعد ذلك حاكما مطلقاً فوق الحـكومة أكثر

من خمسمائة سـنة إلى زمان التنظيمات الجديدة .. وعن كون المقاومة لإسلام هذه الحـكومة على طول عهدها ، شغلا شاغلا لدول أوروبا المسيحية ، حتى ان تلك الدول لجأت إلى طريق الحيلة بعد أن رأت عدم نفع الشدة فى المقاومة ... فى هذا فخر عظيم للدولة العثمانية المرحومة وإرغام للأستاذ محمد عبد الله عنان الذى أنـكر اعتزاز الإسلام بالترك حتى يوم كانت منهم دولة شامخة ، وكيف لا يعتز الإسلام بدولة يصفها المنكر نفسه بالشموخ وتشهد الدنيا باتصالها بالإسلام اتصال الجسم بالروح ؟

نعم إن المؤلف الفرنسى أتى بهذه الشهادة عائباً على الدولة العثمانية صلتها القوية بالإسلام وعادًّا لها فى رأس الأسباب الموجبة لضغائن الدول الأوروبية المسيحية عليها، تلك الضغائن المتمادية التى انتهت إلى انقراض الدولة كما يقول بذلك الترك الجدد اللادينيون أيضاً الذين ورثوا دولة الترك القدماء المسلمين . لـكنى أنا لا أبالى بذاك التعييب المتولد من عدم اتباع العثمانيين لأهواء الدول المسيحية المتغلبة على الأرض ظلماً ، فمن حق كل حكومة أن تختار لنفسها من القوانين مايتفق مع طبيعتها ودينها ، وإنما المطلوب مراعاة العدل فى معاملة الحـكومة مع الناس ، ولا شبهة فى كون الدولة العثمانية المتمسكة بقانون الشريعة الإسلامية لا تظلم أحداً من سكان بلادها مهما كان جنسه ودينه .

لا أبالى بذاك التعييب وأباهى بتلك الشهادة المثبتة لدعواي ضد الأستاذ عنان المدعى خلافها ، بل أباهى بطول عمر الدولة العثمانية المسلّمة رغم تألّب الدول أعداء الإسلام عليها من الخارج ومشايعيهم المنافقين فى الداخل ، حتى كان انقراضها بأيدى أعدائها الداخليين ، ولـكل أمة أجل (١) .

---

[١] وقد كان تجريد الدولة من دينها وخلافتها ومحاكمها الشرعية ومعاهدها الدينية، استجلابا لرضاة الدول الـكبيرة الغالبة فى الحرب العالمية الأولى ، ثم أضافوا الى ذلك تغيير كل شيء من مشخصات الأمة كزيها وحروفها التى تشترك فيها مع الأمم الإسلامية . فـكنى هذا التغيير الأخير =

هذا ، وقد كنت منذ قرأت مقالة الأستاذ عنان فى « الرسالة » وكتبت فى الرد عليها إلى أن أصبح ردى من طوله كتابا ، ثم تولد منـه كتاب ثان انصرفت بكل عنايتى إليه ونسيت كتاب الرد .. كنت طيلة هذا الزمان وما حصل لنفسيتى فيه من التطورات ، لا أعرف طعنا للأستاذ فى دولة الترك الماضية غـير مانقلته من مقالة « الرسالة » فإذا بى عند التأهب لنشر هذا الـكتاب المولود ، أطّلع على طعنات له فى تأليفاته يكاد نقلها بجملتها والاشتغال بالرد عليها يعوقنى من نشر الـكتاب الذى هو قرة عينى وذخر آخرتى فى آخر عمرى ، ويرجعنى إلى الـكتاب الأول الوالد بعد الانصراف عنه ، لـكنى أغالب نفسى الثائرة من جديد وأ كف عن سرد تلك الطعنات ، مكتفياً بنقل ما كتبه فى كتابه « مصر الإسلامية » ص ١٤٩ وهذا نصه :

« إن مصر الإسلامية لم تعرف رغم ماتوالى عليها فى عصور الاضطراب والفتنة من الخطوب والمحن نكبة أعظم من الفتح العثمانى ولم تعرف حكماً أقسى وأمر من حكم الدولة العثمانيـة الذاهبة . وإذا كانت فتوح الوندال والبربر والهون تبقى على مر الأحقاب ، مضرب الأمثال فى الشناعة والهول ، وإذا كانت آثارها المعنوية تقدر دائماً بمعيار ماحطمت من صروح المدنية الرومانية وما قتلت من مجتمعات أوروبا نصف المتحضرة فإن غزاة الترك كانوا أشـد وندالية وفظاعة إذا ذكرنا فروق الأعصار

═ وحده فى قطع صلة تركيا بماضيها ومؤلفاتها العلمية والأدبية. واليوم لايؤذن لـكتاب من مؤلفات الترك أنفسهم أن يدخل من حدود تركيا بسبب كونه مطبوعا أو مخطوطا بالحروف العربية . وقد حصلوا فى أقل من ربع قرن بعد الانقلاب الـكمالى على انساء الماضى . حتى إذا أرادت الحـكومة معرفة مسألة تتعلق بتاريخ الترك القريب احتاجت إلى ترجمان من بقية السلف القادرين على قراءة الحروف العربية .

وفى السنوات الأخيرة أخذوا يحدثون تغييرات فى اللغة نفسها تثقل على اللسان والفهم والذوق ولا تفيد فائدة غير إيجاد حاجز ثان بين حاضر الترك وماضيها القريب والبعيد ، فمن أراد أن يرى أمة مسخت نفسها لتجعلها أمة جديدة مبتعدة عن قديمها فى كل ناحية من نواحى القومية غير اسم الترك ، فلير تركيا الحاضرة !!

والمدنيات وإذا قدرنا مدى الضربة التى أصابت الإسلام والأمم الإسلامية من جراء الفتح العثمانى . »

ثم قال : « والحقيقة أن فتح الترك للأمم العربية الإسلامية لم يكن إلا تتمة لأعمال السفك والتخريب الهائلة التى بدأها هولاكو وبرابر التتار بسحق الدولة العباسية والمدنية الإسلامية واستأنفها تيمورلنك فى أواخر القرن الرابع عشر، بيد أن الفتح العثمانى كان باستقراره أعمق أثراً من الوجهة المعنوية وأشد تقويضاً للمدنية الإسلامية من الفتوح التتارية المؤقتة . »

وقال فى ص ١٦١ : « لبث سليم الأول فى القاهرة ثمانية أشهر يذيق وجنده المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة وجمع من تراث مصر وثروتها الفنيــة كل ما وصلت إليــه يده ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية ويبعث بها إلى القسطنطينية ويقبض على أكابر مصر وزعمائها وعلمائها ورجال الفنون ومهرة الصناع والعمال ويحشدهم أكداسا فى السفن ويبعث بهم إلى القسطنطينية . »

والأستاذ يسمى هذا البعث فى محل آخر من كتابه « النفى » . ولعل معظم الآثار التى ادعى نقلها إلى الآستانة هى الـكتب المخطوطة كما سمعته من غير الأستاذ عنان ، لـكن كيف يعد عمل السلطان بالـكتب الدينية والعلمية التى وجدها فى خزائن مصر ونقلها إعجاباً بها واعتناء بشأنها إلى عاصمة ملـكه بعد أن أصبحت مصر جزءاً من بلاد الدولة لا فرق بينها وبين الآستانة فى ذلك ــ من أعمال التخريب ويعتبره تتمة لتخريبات هولاكو فى بغداد الذى قذف بما فى خزائنها من الـكتب إلى الدجلة والفرات؟ وكيف يعد الذين أخذهم من علماء مصر وزعمائها ومهرة الصناع فيهــا وذهب بهم فى معيته إلى عاصمة ملـكه ــ منفيين ؟ فهل فى نقل أولئك إلى بلد يقيم فيه السلطان نفسه وإيوائهم به ليكونوا من المقربين إليه ويكون نفعهم عاما لجميع البلاد التى يحكمها والتى

من جملتها مصر وأهلها اخوان المصريين فى الدين والوطن ـ معنى النفى المتضمن للإبعاد والإيذاء ؟؟

لكن الأستاذ الذى فى قلبه مرض التفريق بين المسلمين العرب والترك وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان لايتحرج من تصوير عمل التقريب والتحبيب من السلطان سليم فى صورة النفى والتعذيب . فالذى يُغضبه من عمله بمصر فتحُها أكثر مما جرى بعد الفتح من الأعمال التى ذكرها . ولم يكن مقصود سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية، فإن رضيه الأستاذ كان هذا معنى الفتح . وإن أبى وعدّه انتزاع مصر من حكم المماليك الشراكسة فقد كانوا هم الآخرون انتزعوها من حكم المماليك البحرية الترك وهم مماليك هؤلاء المماليك ، ولم تكن مصر يومئذ تحت حكم فاتحيها العرب ، ولا المقصود من الفتح التحكم على الشراكسة والمصريين العرب . ويؤيد ما قلنا أمير الشعراء المصرى بقوله فى قصيدته الطويلة التى عنوانها « فى وادى النيل » :

واذكر الترك انهم لم يطاعوا — فيرى الناس أحسنوا أم أساءوا
حكمت دولة الشراكس عنهم — وهى فى الدهر دولة عسراء

هذا جوابى على الفقرة الأخيرة من مطاعن الأستاذ فى آل عثمان بمناسبة فتح مصر وما فعل فيها سليم الأول[1] . أما تسمية أولئك الفاتحين عامة بأشنع أسماء البرابرة

---

[١] ان السلطان سليم فتح مصر بعد محاربة إيران وهزم جيوشها الى أن اغتنم عرش الشاه إسماعيل الصفوى المحفوظ الآن فى خزينة المتحف التركى ، ويقال إن حرب إيران دعت إلى محاربة مصر التى أحس سليم فى أثناء الحرب مع الايرانيين بانحيازها إلى جانبهم والتى يحاول الأستاذ عبد الله عنان أن يأخذ ثأرها بحملاته ضد السليم الأول عن الدولة العثمانية كما أخذ مصطفى كمال ثأر الدول الأفرنجية بهدم هذه الدولة التى عانت منها تلك الدول ماعانت ، وساعده فى هدمها غلاة الروافض الموجودون فى تركيا المسمون (قيزيلباش) ولهم قرى خاصة فى أنحاء الأناضول وهم الآخرون أخذوا بواسطة الانقلاب الذى تم على يد مصطفى كمال، ثأر هزيمة الإيران بيد السليم العثمانى . =

الطغاة الهمج فإنى أكتفى فى الرد عليها بنقل أسطر من مقالة فى « الأهرام » (٢٢ / ١٠ / ١٩٤٤) بعنوان : « آخر الخلفاء » وقلم كاتب مصرى أكبر بكثير أيضاً من الأستاذ عنان وأكثر معرفة بالترك وهو سعادة عبد الرحمن عزام بك (باشا) أمين الجامعة العربية ، وهذا نصها :

« لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية ، فكسروا أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية . فهم الذين قضوا على نظام الاقطاع والارستقراطية ليحل محله نظام المواطن الحر والرعية المتساوية الحقوق ، فوصل فى دولتهم الرقيق الشركسى والصقلبى وغيره إلى أكبر مقام فى الدولة كما وصل النابه من عامة الناس حتى المجهول الأصل إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا ، وتعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل .

« فترتب على ذلك تطور هائل فى اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة . وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس الأمن والرخاء والسلام الروحى ، ولم تكن فوز آل عثمان كما يظن بعض الناس مستمدة من سيف وشجاعة بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة ، احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع .

« ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتغطية الضعف لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور .

= والباحث يجد فى بعض معاهدات الدولة العثمانية مع الإيرانيين نصوصا تفرض عليهم أن يكفوا عن شتم سيدنا أبى بكر وعمر وسيدتنا عائشة ، فانظر المجتمعين ضد الدولة العثمانية لأخذ الثأر !!.

« لقد رويت لى فى رحلاتى بالبلقان وملدافيا أمثلة باقية فى لغــة العامة من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذى طال أمده وتنوعت رعاياه وقد ثقلت كفته بالخير والرحمة والمروءة والشرف . »

أقول من الغريب المفهوم من شهادة سمادة هذا الوزير المصرى سابقاً وأمين الجامعة العربية حاليا، أن آل عثمان الذين وصفهم الأستاذ عنان بأفظع الوندالية وأوحش الهمجية المتغلب على همجية التتار ، نشروا الحرية والديمقراطية والعدل والمروءة والمساواة فى شرق أوروبا وتعلم غربها منهم الحرية والديمقراطية الحديثة .

هذا ، وما وسعنى مهما سعيت فى إيجاز القول على موضوع الدولة العثمانية[1] إلا أن أنقل بعض كلمات قصيرة مما قرأته فى تعليقات صديق المرحوم أمير البيان شكيب أرسلان[2] على « حاضر العــالم الإسلامى » (الجزء ٣ ص ٣٢٦) نقلا عن كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا » تأليف « دجوفارا » عقب الحرب العالمية الأولى

---

[١] وأنا أرجو من قراء كتابى أن يعذرونى فيما شغلتهم بهذه النبذة التاريخية الخارجة عن موضوع الـكتاب وينظروا إلى أنها غير خارجة عن موضوع الـكتاب الأول الذى له حق فى ذمة هذا الـكتاب الثانى المولود منه والذى اشتغالى به عن مولوده لايبلغ عشر معشار اشتغالى بالمولود عن الوالد

[٢] الذى قال فى ديوانه ص : ١٢٩ يخاطب الأتراك العثمانين مرغما لأنف الأستاذ عبد الله عنان القائم بدعوى عدم اعتزاز الإسلام بالترك قط يوم كانت لهم دولة شامخة ودعوى أنهم همج لم تر الإنسانية خيرا منهم كما لم ير الإسلام :

أحبكم حب من يسعى لطيته ... فى طاعة العقل لافى طاعة الغضب
أحبكم حب من يدرى مواقفكم ... فى خدمة الدين والاسلام من حقب
ومذ تقلدتموا أمر الخلافة قد ... آويتموا بينها من كل مغترب
وكل غر يمارى فى فضائلكم ... لايعرف الخشف البالى من الرطب
مهما يكن من هنات بيننا فلنا ... معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى العهادة فيما بيننا نسبا ... إن لم تـكن جمعتنا وحدة النسب
مجدى بعثمان حامى ملتى وأنا ... لم أنس قحطان أصلى فى الورى وأبى

والمؤلف ـ على تعبير الأمير ـ من أفاضل وزراء رومانيا . قال بعد كلام طويل :

« ثم إن احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة من مزايا العثمانيين يدور عليهما التاريخ كله » ثم قال : « فإن كان الشعب التركى قد غُلب (يعنى فى تلك الحرب) فإنه قد فقد كل شىء إلا الشرف » وأنا أقول ـ القائل الأمير شكيب ـ احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة الذى يدور تاريخ العثمانيين كله عليه ناشئ من كونهم مسلمين حقيقيين . »

وقال الوزير الرومانى أيضاً بعد أن أحصى مائة مشروع تقسيم لتركيا ونقلها الأمير شكيب مفصلة : « هذه كانت فى مدة ستة قرون مساعى المسيحيين فى سلطنة العثمانيين التى كانت من أعظم الممالك التى عرفها تاريخ البشرية » وقال : « كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضا مستندة على شرع سماوى » وقال : « العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين فى الحرية الدينية التى يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية » وقال : « مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية » . أقول : ولعل عداوة الأستاذ عنان لهذه الدولة من تأثيرات العداوة المسيحية المعدية إلى بعض المسلمين فى الأزمنة الأخيرة الذين لا يعرف بعضهم بعضاً ومن الإسلام إلا اسمه . (انظر الهامش السابق فى أول هذا المبحث ص٧٢)

وقال الأمير شكيب: « بقى علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف دجوفارا الرومانى مؤثرين منقوله على مقولنا لأنها شهادة رجل أجنبى عنا ، رجل سياسى مسيحى كانت الأمة التى ينتمى إليها من جملة الأمم التى تحررت من حكم تركيا » . أقول فهل الدولة العثمانية التى لم تظلم المسيحيين من أتباعها بشهادة شاهد من كبار السياسيين المسيحيين ، كانت تظلم العناصر الإسلامية حتى استجلبت شكاية الأستاذ عنان المارة الذكر وهى فى غاية المرارة ، أم كان الظالم هو الأستاذ نفسه ؟؟

وقال الأمير أيضاً عن المؤلف الرومانى : « ثم ذكر فى خلاصة كتابه أن أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التى كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالأ وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية . وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هـذه الحقيقة أم لم يعلنها فإنها الحقيقة التى لا شائبة فيها . ولذلك تجد ملاحدة أنقرة يجعلون من جملة حججهم فى التفصى عن الشريعة الإسلامية قولهم انه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم يطرأ عليها هذه المصائب التى لزمتها مدة قرون بسبب كون الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث ، مسيحيين وبأن الشريعة كانت تمنع السلاطين من إجبارهم على الدخول فى الإسلام أو الجلاء . »

وأنا أقول ولئن كان حقاً ما يقول ملاحدة أنقرة من كون تمسك الدولة العثمانية بالإسلام وجهادها فى سبيله جرّ عليها عداوة نصارى الدنيا وجرت هذه العداوة التى لم يخففها ما ناله أهل الذمة تحت حكم آل عثمان من الحرية والتسامح ، مصائب جمة لم تنته إلا بعد انتهاء الدولة — فإن رقى هـذه الدولة إلى أوج عظمتها ثم بقاءها هذه المدة الطويلة فى جهاد متوال لأعداء الإسلام منقطعة النظير بين الدول الإسلامية فى طول بقائها وكثرة أعدائها بل واتساع بلادها ... كان نعمة عليها من نعم الإسـلام ومعجزة من معجزات الجهاد فى سبيله لا يقدر على إنساء تلك النعمة وتلك المعجزة مَن تمادى فى معاداة العثمانيين ومعاداة الإسلام معهم والدعاية ضده وضدهم حتى بعد انقضاء عهدهم ، من ملاحدة أنقرة وغيرهم .

وآخر رد على الأستاذ عنان جدير بالذكر تولاه كتاب « تاريخ أوروبا الحديثة » تأليف رتشاردلوج وتعريب محمد عبـد الله عنان ، حيث قال (جزء ١ ص ٤٧) : « وسر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم فى تضحية نفوسهم وهى عاطفة الجهاد التى

غرسها الإسلام فى قلوبهم وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية والحربية »

وهنا أنهينا الكلام فى مناقشة الأستاذ عنان ، دفاعاً عن الدولة العثمانية المرحومة التى لا نحصى شهادات الرجال من مختلفى الأجناس والأديان بأن الإسلام وما يستتبعه من الإنسانية والرجولة والمروءة أيضاً ، عاش قروناً طويلة فى وجه الأرض عزيزاً مرفوع الرأس ، مع قوة تلك الدولة وعزتها . وأنا لا أقول إن آل عثمان حتى الأعاظم المشهورين منهم فى تاريخ العالم براء من كل ماينتقدونهم به ، وإنما أرد على من أنكر اعتزاز الإسلام بهم .

* * *

دامت عزة الإسلام إلى أن أخذ يطرأ الضعف على صمصام الدولة العثمانية . فعند ذلك بدأ الإسلام أيضاً يضعف يوماً بعد يوم ويسير جنباً لجنب مع ضعف شوكتها ، فكأن بين قوة الحجة وقوة السيف رابطة طبيعية إن كان الإسلام الذى يسمو بعقائده ورجحان مبادئه فى غنى عن هذه الرابطة كما قال الأستاذ عنان ، فطبيعة الإنسان الراكنة إلى الغالب ، فى حاجة إلى الاحتفاظ بهذا الارتباط . ولا يرتاب مسلم ساهر على دينه أن الإسلام فقد حتى بين مسلمى الأزمنة الأخيرة كثيراً من كرامته وأهميته. فهل زالت فى هذه الأزمنة قوة حججه وبراهينه التى كان يعتمد عليها ؟

فالحق أن تجريد الإسلام من قوة السيف ـ كما يسعى إليه كثير من حملة العلم والقلم بمصر ـ يكون كتجريد الإسلام من غزوة بدر الكبرى .

ومن غريب المصادفات الهامة المؤثرة فى التحول الطارئ على مركز الإسلام ، أن اكتشاف الآلات الجديدة الحربية الذى كان مبدأ قوة الدول الغربية وضعف دولة الإسلام . . لا يختلف زمانهما عن زمان ظهور العلم الحديث فى الغرب ، ذلك العلم الذى يدور مع الحس والتجربة ولا يعتد بحجة العقل ، على الرغم من أنها كانت

مستند أساس الدين منذ قرون الإسلام التى راج علم الكلام فيها عند علماء المسلمين واحتفظ برواجه مدة احتفاظ الأمم الإسلامية برواج الدين فيما بينهم . فلولا تقهقر دولة تلك الأمم أمام سلاح الدول المادية للإسلام لما تسنت مزاحمةُ العلم الحديث المادى وفلسفته الوضعية الإلحادية لعلم الكلام الإسلامى وفلسفته وتقهقرُ سلاح هذا العلم أمام سلاح ذاك ، المنتهى إلى احتلال العلم الثانى مكان الأول فى قلوب المتعلمين ، كما احتلت تلك الدول بلاد المسلمين . ومعنى هذا القول مع عدم الرابطة الحقيقية بين قوة السلاح وقوة الحجة، انه لولا قوة السلاح المادى وغلبته التى أضاعها المسلمون وتملكها غيرهم، لما أضاع أبناؤهم المتعلمون الذين هم الآخرون المعتلون بعلة الميل إلى الغالب ، قوةَ التفكير الصحيح فى تقدير الحجج قدرها .

وزادت فى إضعاف المسلمين وإضعاف الرابطة الدينية بينهم بل وفى إضعاف الإسلام نفسه فى قلوبهم بقدر ما أضعف السلاح الحديث والعلم الحديث من كل ذلك .. فتنةُ النزعات القومية الداخلة فيما بين الأمم الإسلامية تقليداً منهم لأمم الغرب ، وإغراء من تلك الأمم بينهم بواسطة الدعاة إلى تلك النزعات ، فقد قرأت كتاب « حاضر العالم الإسلامى » من ترجمته العربية فأحسست منه أن مؤلفه الأمريكى كتبه لتنفير المسلمين العرب من المسلمين الترك ؛ وقد أدخل الإنجليز الدعاية ضد عهد الدولة العثمانية بمصر فى برامج المدارس المصرية .

فمن كل هذا ضعف مركز الإسلام عند المسلمين أنفسهم فضلا عن سواهم، وهزل حتى بدا من هزاله كلاه ، فالمسلمون اليوم أقوام متفرقة أكثر من أنهم مسلمون ، فلا يمنع إسلام قوم أن يناوئهم ويتجرأ عليهم مسلمون من قوم آخر .. بل لا مانع لمن شاء من المسلمين أو بالأصح لمن تسمى بأسمائهم عن التجرؤ على الإسلام نفسه .

فهذا محمد عبد الله عنان العربى الذى ينكر إفادة الإسلام من تركيا يوم كانت دولة شامخة ويرميها بأشد أنواع الهمجية والتخريب ... ويقوم شيخ عربى نجدى

قصيمى فينكر إفادة الدنيا من المسلمين أجمعين فى جميع القرون ويرميهم بما رمى عبدالله عنان به الترك ، حتى قال الأستاذ سيد قطب كاتب مقالة الرد على الشيخ فى جريدة « شباب محمد » — النذير — : « وليس المسلمين هم الأتراك مثلا فأجد عذرا ، ولكنهم أصحاب محمد بن عبد الله وعمر بن الخطاب بل القرآن الذى أباح التخريب والتمثيل : (ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين .) »

ويقوم شاعر عربى فيقول :

أليس قريشكم قتلت حسينا   وقام على خلافتكم يزيد

وقد كذب الأستاذ عدو الترك ، وكذب الشيخ عدو الإسلام ألف مرة ، وصدق الشاعر ، وقال أصدق القائلين : « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . »

وأنا أقول إذا تكلمنا فى المفاضلة بين الأقوام فإنى فضلت العرب على قومى الترك وأعلنته قبل موقفى الحاضر بمصر مهاجرا من تركيا — أعلنته فى البرلمان العثمانى يوم كنت عضوا فيه وسمعه أعضاؤه العرب السوريون والحجازيون والعراقيون واليمانون . وأنا اليوم أيضا ثابت على رأيى القديم فى تفضيل العرب ، لأن القرآن نزل على لغتهم وبقى محفوظا كما نزل فأصبحت هذه اللغة بفضل القرآن وباهتمام علماء الإسلام بها من كل أمة ، بذلك الفضل — وقد وضعوا علم النحو العربى الذى ليس له مثيل فى أى لغة الدنيا [1] — أصبحت لغة العرب أفصح جميع اللغات وأفضلها . . . ولأن فيهم أى

---

[١] وفى الأيام الأخيرة أخذت نغمة جنونية تسمع فى مصر من الكتاب المستصعبين لعلم النحو العربى داعية إلى إلغاء هذا العلم أو تعديله على وفق أهواء الجاهلين به، مع أن له صلة قوية بعلم الفقه الإسلامى الذى هو من معجزات هذا الدين . كما ان فى إلغاء النحو جناية كبيرة على لغة العرب ومساسا بإعجاز القرآن المنزل من عند الله . . فى حين أن علم النحو العربى ليس ملك أولئك المجانين ولا ملك العرب خاصة بل ملك جميع علماء الإسلام الذين لم تكن خدمتهم للقرآن وعلم النحو أقل من خدمة العرب وهى أعظم مفاخرهم القومية ، فهل تجد فى الدنيا لغة من اللغات =

العرب فضلا عن محمد بن عبد الله العربى المبعوث إلى الناس خاتم النبيين ورحمة للعالمين — رجالا ممتازين مثل أبى بكر وعمر لايوجد ولا يمكن أن يوجد نظيرهم فى الإسلام والإنسانية فى غير العرب . . . وإن كان فى العرب أيضا مثل الأستاذ عبد الله عنان المصرى والشيخ عبد الله القصيمى[١] اللذين أولهما أعمى التعصب القوى الجاهلى عينه وقلبه فلم يتحرج عن محاربة دولة مرحومة حاربت طيلة عهدها فى سبيل الإسلام . وثانيهما ملأ الكفر والنفاق إهابه فتولى دعاية الأوروبيين فى غاية من التذلل والتطفل

= الحية بقيت على مر العصور غير مختلف قديمها عن حديثها فى الالتذاذ والاستئناس بها اليوم ولو حال دون القديم والحديث ألف ومئات من السنين . ومن عجائب مصر المضحكات المبكيات أن واحدا من أكابر أعضاء مجمع اللغة العربية اقترح قبل سنين استبدال الحروف اللاتينية العاجزة عن كتابة كثير من الحروف الموجودة فى لغة العرب ، بالحروف العربية، وفى اقتراحه النام على مناوأة النحو العربى الناشئة من استصعابه ، مناوأة اللغة العربيـة نفسها من طريق هدم الفصحى التى بها تتحد لغة العرب بلغة القرآن، ومع كل هذا لا يخرج الرجل من عضوية المجمع رغم خروجه على المجمع وما وضع له ، وقد حاول سد الفراغ الحاصل من وجود حروف فى لغة العرب لامقابل لها فى الحروف اللاتينية ، بوضع حروف جديدة تضحك الثكلى نصفها لاتينى ونصفها عربى، وتفسد الحروف اللاتينية والعربية معا .

وانى قد كتبت كثيرا فى رجحان الحروف العربية التى كانت حروفنا نحن الترك أيضا قبل الانقلاب الكمالى اللادينى — على الحروف اللاتينية ، لما كنت فى بلاد اليونان أحارب فتنة تغيير الحروف فى تركيا ونصدر مع ابنى إبراهيم جريدة تركية . ومما قلته فى هذا الموضوع أن الغربيين إن كان لهم عقل يميز الراجح من المرجوح فليقلدونا فى حروفنا العربية بدلا من أن نقلدهم فى حروفهم اللاتينية .

[١] اطلعت عليهما بعد بيانى المذكور فى البرلمان العثمانى على مسمع من نواب الولايات العربية. وقبل اطلاعى عليهما كنت أعرف قتلة حسين من العرب وفيهم عمرو بن سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ، عينه عبيد الله بن زياد ابن أبيه قائدا أعلى للجيش المأمور بقتال حسين ووضع جسده بعد قتله وفصل رأسه عنه ، تحت أقدام الخيل لتطأه على صدره ثم على ظهره ، واتفق مع الرجل على هذه الأعمال الشنيعة فى مقابل إمارة رقة التى سألها من عبيد الله والى كوفه ، فقام بكل ماأمر به لابغضا لحسين ولكن حبا فى المنصب الموعود .

حيث يهجم المسلمين ويهجم معهم الإيمان والأديان والأخلاق ويجمع فى نفسه الدعاية للمستعمرين أعداء الإسلام مع الدعاية لدولة الحجاز خازنة بيت الله وروضة الرسول ، مستظلا برعاية هذه الدولة ومدعيا بين كفرياته وتحاملاته على المسلمين فى جميع القرون أنه يحمل جميع أوزار التأخر والانحطاط عليهم أنفسهم وينفى عن الدين ذاته هـذه الأوزار . وهنا ينسى المجنون حملته على القرآن الذى لايمكن تفريقه عن الدين إن أمكن على زعمه تفريق جميع المسلمين عنه .

وجوابه أن الآية التى أوردها بهذا الصدد وهى « ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين » نزلت فى بنى النضير ، وهم رهط من اليهود نقضوا العهد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صالحهم على أن لا يكونوا عليه ولا له .. فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا النبى المنعوت فى التوراة بالنصر ، ولما هُزم المسلمون بأحد ارتابوا ونـكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى المدينة وحالفوا أبا سفيان عند الـكعبة ، فأمر رسول الله محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ، ثم صبّحهم رسول الله بالـكتائب وهو على حمار مخطوم بليف ، فقال لهم اخرجوا من المدينة فقالوا الموت أحب إلينا من ذلك فنادوا بالحرب .. وقيل استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فبعث إليهم عبد الله بن أبى وقال لاتخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلـكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم .. فحصّنوا الأزقة ، فحاصرهم رسول الله إحدى وعشرين ليلة .. فلما قذف الله الرعب فى قلوبهم وأيسوا من مدد المنافقين طلبوا الصلح ، فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ماشاءوا من متاعهم ، فجلوا إلى الشام إلى أريحا واذرعات إلا أهل بيت منهم آل أبى الحقيق وآل يحيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة .

فالنبى صلى الله عليه وسلم شدّد فى معاملة بنى النضير لـكونهم نقضوا العهد مع

المسلمين وسلكوا سبيل الغدر والخيانة فاستحقوا التشديد فى الجزاء وجاء القرآن مؤيداً له .

وقد سبق قبل غلبة الفتنة الكمالية فى تركيا وأنا لم أغادر البلاد ، أن كتب الدكتور عبد الله جودت صاحب جريدة « الاجتهاد » المعروف بنزعته اللادينية مقالة عاب فيها على النبى صلى الله عليه وسلم مافعله بيهود بنى قريظة حيث أمر بقتلهم بعد استسلامهم للمسلمين وعدّه ظلماً !. وكتبت أنا فى مقالة الرد عليه أنهم نقضوا العهد فى أحرج وقت على المسلمين وانضموا إلى أعدائهم فى حرب الأحزاب التى زحفت إلى المدينة من فوقها ومن تحتها وحاصرت عاصمة الإسلام ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا[1] .

---

[١] كانت أحزاب المشركين الذين اجتمعوا وزحفوا إلى المدينة لقتال المسلمين زهاء ١٢ ألفا، وعلى قول (فتح البارى شرح البخارى ٢٤ ألفا) إذ جاءوهم من فوقهم ـ كما حكاه القرآن ـ وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد وضامنهم اليهود من بنى قريظة والنضير . ومن أسفل منهم وهم قريش ومن شايعهم من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة .. فاضطر المسلمون وكان عددهم ثلاثة آلاف، إلى حفر الخنادق حول المدينة بأمر رسول الله بعد استشارة سلمان ، واشترك الرسول فى عملية الحفر . ومضى على الطرفين مايقرب من الشهر لاحرب بينهما غير حرب الأعصاب .. حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن بالله الظنون المختلفة باختلاف أصحاب الظن ونجم النفاق بين المنافقين حتى قال معتب بن قشير : « كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط » .. وغير حرب جرت بين فوارس من قريش يتقدمهم عمرو بن عبدود اقتحموا من الخندق مكانا ضيقا ، فخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين وقتل عمراً فانهزمت خيله بقتله، وقتل مع عمرو رجلان . وقيل لم يكن بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر إذ أرسل على أعداء المسلمين الذين طوقوهم ريحا وجنودا لم يروها ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال . وفى صبيحة الليلة التى هزم جنود الله جنود الأحزاب فولوا هاربين ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح ـ أتى جبريل رسول الله ، فقال : أتنزل لأمتك والملائكة ماوضعوا السلاح ، إن الله يأمرك أن تسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم ، فأذن فى الناس أن لايصلوا العصر إلا ببنى قريظة ، فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار =

فهل يظن الرجل الذي يعد ظلماً مالقى ناكثو العهد من الجزاء الشديد بعد إنقاذ الله المؤمنين من المأزق الذى زادت خيانةُ الناكثين خطراً على خطره ... أن سياسة الإسلام ينبغى أن تكون سياسة الحمق المغفلين بعيدة من الحزم والحسم يَغتفِر مالا يُغْتَفَر ويضع الندى فى موضع السيف ؟؟

= فقال تنزلون على حكمى؟ فأبوا ، فقال على حكم سعد بن معاذ سيد أوس؟ (الذى كان بنو قريظة من حلفائها) فرضوا به ، وقد نسوا ما قالوا له لما جاءهم مع سعد بن عبادة سيد الخزرج يحذران مغبة الالتحاق بالأحزاب .. ولما ذكرهم مابينهم وبين رسول الله من العهد قالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه ولا عقد ... فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم ، فكبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : لقد حكمت بحكم الله — يريد حكم التوراة — فقتل منهم ٦٠٠ أو ٤٠٠ مقاتل وفيهم امرأة طرحت الرحا على خلاد بن سويد تحت الحصن .. حكم به على الرغم من أنه حليفهم وأوصاه كثير من الأنصار بالرحمة عليهم فى الحكم ، وكان سعد بن معاذ لما دعى للحكم يداوى من الجرح الذى أصابه فى حرب الأحزاب بسهم واحد من قريش لا من اليهود حتى يتأثر به حياده فى الحكم .

كان موقف بنى قريظة المنضمين إلى أعداء المسلمين فى حرب الخندق لا يقاس فى شدة الخطر وجسامة احتمال الضرر على المسلمين بموقف بنى النضير المار ذكرهم وإن كانت كلتا الطائفتين خانت ونكثت عهدها . . لكون خيانة بنى قريظة فى أحرج وقت على المسلمين ، حتى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما سمع نبأ هذه الخيانة وأرسل زعيمى الأوس والخزرج وأنصاريين آخرين ليقفوا على جلية الأمر لفتهم إلى أن يتكلموا فى العودة بما لا يفهم غيره صلى الله عليه وسلم إن كان حقا ، كيلا يفتوا فى أعضاد الناس ، لكون خيانتهم مؤدية إلى انقطاع المدد والميرة على المسلمين وفتح الطريق لدخول المدينة من ناحيتهم .. فألقاهم الرسل على أخبث مابلغ عنهم ... وحتى انه صلى الله عليه وسلم فكر فى البعث إلى غطفان يعدها ثلث ثمار المدينة إن هى انسحبت ، ثم رجع عنه لما استشار السعدين فى الأمر فقالا ان كانت هذه الفكرة وحيا من الله ، وإلا فنحن لم نؤد هذه الجزية فى الجاهلية فكيف نؤديها فى الإسلام الذى أتانا بحياة جديدة وسر هذا الجواب رسول الله غاية المسرة ... أما ما كتب معالى هيكل باشا فى كتابه « حياة محمد » (صحيفة ٣٢٦ الطبعة الثانية) من تنفيذ فكرة البعث إلى غطفان بالوعد المذكور وإيهام تأثيره فى انسحاب غطفان فلا أصل له .. وإنما هو مسايرة من المؤلف المعتل بعلة إنكار المعجزات ، على مبدأ بناء انهزام الأحزاب على أسباب مدبرة دون بنائه على المدد السماوى المذكور فى كتاب الله ، وكانت دعواه فى مقدمة كتابه أنه لايثق بما جاء فى كتب الحديث من تلك المعجزات فاذا عذره فيما جاء به القرآن؟ .

وكتبت فى آخر هذه المقالة التى أشرت هنا إلى خلاصتها والتى نال شكراً من السلطان المغفور له محمد وحيد الدين ... قول أبى تمام :

وما خير حلم لم تشبه شراسة   وما خير لحم لا يكون على عظم
وهل غير أخلاق كرام تكافأت   فمن خلق طلق ومن خلق جهم
نجوم فهذا للضياء إذا بدا   تجلى الدجى عنه وآخر للرجم

* * *

نعود إلى ما كنا بصدده :

استمر تقهقر الدولة التى تولت الجهاد فى سبيل الإسلام من استمرار تألب أعدائه عليها واستمر معه تقهقر مكان العلم القديم ــ الذى تولى قروناً طويلة الحاجة لانتصار عقائد الإسلام ــ أمام العلم الحديث المبنى على الحس والتجربة . ولم يكن هذا التقهقر ناشئاً من نفس العلم القديم ، كما سينجلى ذلك على قراء هذا الكتاب ، بل من نظر أناس أحداث متزلفين إلى العلم الحديث تزلفاً إلى الأمم الغالبة بأسلحتها المستفادة من ذلك العلم ، فالتبست عليهم الغلبة بالسلاح بالغلبة بالحجة ... استمر التقهقر للمسلمين من الناحيتين ، حتى انه لما ختمت الدولة العثمانية أنفاسها وانسلخت الدولة المحتلة مكانها

= على أن المؤلف كتب فى الصفحة التالية ماينافض قوله الأول عن بعث رسول الله إلى غطفان يعدها ثلث ثمار المدينة ، من أن ذلك الوعد لم يتم أن اعترض سعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله ، وماذا يكون معنى عدم تمام الوعد بعد أن بلغ غطفان كما يدل عليه ما قاله من تردد غطفان فى الإقدام على قتال محمد ، متأثرة بما كان قد بدأ به من وعدهما ثلث ثمار المدينة . إلا إخلافه صلى الله عليه وسلم ماوعده باعتراض أصحابه؟ وفيه مالاينبغى له ولا لأصحابه . كما أنه لامعنى لاستشارته إياهم بعد الوعد .

من صبغتها الإسلامية ، استتبع هذا الانقلاب الخاص بتركيا انقلابات كثيرة فى البلاد الإسلامية الأخرى أيضاً ، فلم يقتصر تعرى النساء من جلابيبهن وخمرهن على نساء تركيا المقلدة للغرب فى الظاهر والباطن . ولما هاجرت بعد انقلاب تركيا إلى مصر وجدت العلم الحديث الغربى فيها الناظر إلى الأديان نظرها إلى الأساطير ، أنطق لساناً من علم أصول الدين الإسلامى وأعلى صوتاً حتى عند الأزهريين ، أو على الأقل عند ذوى القول السائد منهم .. حسبك دليلا على هذا أن الأستاذ الأكبر المراغى شيخ الجامع الأزهر قال فى كلمة ألقاها قبل سنوات عند توديعه للبعثة الأزهرية المؤلفة من بعض شبان المدرسين إلى مدارس أوروبا لطلب العلم : « ولو أن حملة الدين سايروا حملة العلم .. » فذكر حملة الدين فى مقابلة حملة العلم واعتبر علماء الدين خالين عن العلم بالمرة، لعدم كون ماعندهم من العلم جديراً عنده باسم العلم . وتمام الكلام منا على كلمة الأستاذ الأكبر يأتى فى مكان آخر من هذا الكتاب مع نقل تمام الكلمة بنصها .

ومن الدليل الواضح على كون علوم الدين القديمة غير محتفظة بقيمتها وكرامتها عند سادة الأزهر الحاضر ، صدور « مجلة الأزهر » تحت إشراف الأستاذ فريد وجدى بك مدير المجلة ورئيس تحريرها ، على الرغم من حملاته الشنيعة على علم الكلام فى الجزء التاسع من المجلد الثانى عشر للمجلة . وسيجئ ردنا أيضاً على تلك الحملات . ودليل آخر أهم منه كون تلك الحملات لم تحرك ساكناً من الاحتجاج والانتقاد . وقد قرأت قبل ذلك فى جريدة « الأهرام » لشاعر مسلم قوله بعد أبيات :

آمنوا بالعلم ديناً وهدى   ليس بعد العلم للافهام دين

ومما زاد فى الطين بلة أن المعروف عند حملة الأقلام بمصر كون المراد من العلم ذلك العلمَ الحديث الذى يتمرد على الدين فيقذف به فى الأساطير كما سننقله عن الأستاذ فريد وجدى بك ، أو على الأقل كما يقول عنه هيكل باشا : « لا يثبت ولا ينفى » وهم لا يرضون بغيره من العلوم المعروفة عندنا أن يسمى علماً ، فليس علم أصول الدين

مثلا ـ وهو اسم آخر لعلم الكلام الذى كان علماؤنا يبنون إيماننا بالله ورسله عليه ـ يستحق عندهم لاسم العلم . وعلى هـذا يكون الإسلام خارجاً عن ساحة العلم مثل النصرانية ، كما ادعاه الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » فى مناظرته الشيخ محمد عبده ، وسيجئ تمام قول الأستاذ فرح . وهنا مسألة أخرى وهى أن هذا الشيخ الذائع الصيت فى البلاد العربية وفى عالم الإسلام بواسطتها ، يكافح الأستاذ الذى قد ضرب أساس الأديان فى مناظرته بمعول التشكيك ، ثم نراه أى الشيخ ومن تلمذوا عليه مثـل الشيخ الأكبر المراغى والشيخ رشيد رضا ينكرون معجزات الأنبياء ويسعون لتأويلها بأمور عادية ، كما ستطلع عليه فى الباب الثالث من هذا الكتاب[1] وتطلع أيضاً على أن إنكار المعجزات ليس إلا رمزاً لإنكار النبوات وأن أساس الدافع إلى هذه الإنكارات هو العلم الحديث الذى لايقبل الخوارق .

فدهشت من كل ذلك وقلت فى نفسى ما هذه الحالة التى وقفت عليها بمصر ؟ فكأن شيطان العلم الحديث الغربى قد أضل مبرزى كتابها وعلمائها السبيل فتسابقوا بوسوسته فى الخروج على الإسلام ، إن لم يكن علانية ففى السر ، وكأن ماقاله الأستاذ فريد وجدى بك فى مقالة منشورة على « الأهرام » وسننقله عنه بنصه من أن نوابغ الكتاب والشعراء فى البلاد الإسلامية يستبطنون الإلحاد ويهيئون الأذهان لقبوله دسا فى مقالاتهم وقصائدهم ، قد كان .. وكأن فى مصر مثل مافى تركيا من الانقلاب غير أن ذلك حصل هناك واستتب أمره جبراً من الحكومة ، وفى مصر اختياراً من كتابها وعلمائها بعد البحث والتفكير فيما بينهم .. وإنا نحن المهاجرين من تركيا المنقلبة لو وجدنا حرية القول فيها من غير خطر على حياة القائل لما فاتتنا الغلبة بالحجة على دعاة الانقلاب ولما احتجنا إلى مغادرة البلاد ، أليس فى مصر من العلماء والعقلاء من يضطلع

---

[١] قد وفقنا بحمد الله لنشر هذا الباب من قبل ، فى شكل كتاب مستقل مسمى « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون » .

الوقوف فى وجه انقلابها المقنَّع أو بالأولى من يسعى لكشف قناعه ثم مواجهته بضربات الحجج؟ مع أن أصحاب القلم من العلماء وخُلص المسلمين فى مصر أكثر منهم فى تركيا ، ولا خطر يخاف منه بمصر فى سبيل الجهاد للدين إلا على مناصب المجاهدين؛ وهذا إذا فرضنا كفة نفوذ الملاحدة أثقل فى ميزان الحكومة . فلعل البقية الصالحة من العلماء والكتاب الذين لم يغفلوا عن مكايد الملاحدة الإسلام ولم يشايعوهم فى الإيمان بالعلم الحديث ، أكثر من الإيمان بالله ورسله ـ تهيبوا معارضة ذلك العلم ولم يثقوا بالنجاح فى معارضته ، فالتزموا السكوت وخلوا الجو للملاحدة ومشايعيهم .. مع أن حقيقة الموقف الذى يقفه المجاهد المدقق ليست معارضة العلم المذكور ، بل معارضة طائفة من علمائه الغربيين الذين يستخرجون منه مضادة الدين ومناوءته ، ومعارضة مقلديهم من ملاحدة الشرق . إذ لا يمكن أن يكون أى علم من العلوم الناصبة نفسها لاكتشاف الحقائق ، مناوئاً للدين الصحيح الذى هو أيضاً حقيقة من الحقائق التى لايتصور أن يزاحم بعضها بعضاً .. وإن أمكن دائماً أن يكون علم من العلوم غير مطلع على بعض الحقائق لكونه خارجاً عن موضوعه ، أو لكون العلم المذكور لم يبلغ فى مرحلة رقيه الحاضرة مبلغ الاطلاع عليه .

وعلى كل حال فمصر فى حاجة إلى أن لاتخذل دينها الذى يوشك أن يتغلب عليه الإلحاد، لقوة دعاته وانقسام العلماء المكلفين بحراسة الدين على أنفسهم .. فهل لى أن أكون القائم بهذه المهمة على الرغم من شتات بالى بعد شتات شملى فى حياة المهاجرة وضعف صحتى بعد مفارقة شبابى مفارقة بعيدة ؟. فهل لى أن أجد بين مفارقة الشباب ومفارقة البلاد والأحباب ما يعوضنى عن كل ذلك بما هو أعز من الكل ألا وهو خدمة الإسلام ؟ ولقد أحسن من قال :

فى الله من كل ماضيعتَه خلف   وليس لله ان ضيعت من خلف

إن دولة الترك الماضية الشامخة الوارثة لحكومة الإسلام قد حفظت تراثها مدة

حياتها الطويلة بقوة سيفها ثم شابت ثم ماتت ، ولكل أمة أجل .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قراع الكتائب

وبعد انتهاء الدولة العثمانية لم تظهر دولة أخرى تقوم مقامها فى الذود عن حياض الإسلام بسلاحها ، فانتهت قوة السيف فى الإسلام[1] وإنى أتيت مصر فى هذه الفترة فوجدت مافيها من قوة الإسلام العلمية أيضاً فى حالة النزع بعد نزاع دام مدة بين أنصاره وأعدائه ، وكان من آثار حالة النزع أنى رأيتها لا تميز بين أنصار الإسلام وأعدائه ، فرمانى بعض أهلها فى الجرائد بخيانة الدين والوطن وسكت الباقون سكوتاً ينبئ عن موافقتهم على رمى الرامين .. ولكنى مضيت فى سبيلى واثقاً أن الحق يمرض ولا يموت .. وكما أن الدولة العثمانية ودعت الحياة مسلولة السيف بعد الدفاع عن الإسلام ستة قرون ، فقد عزمت أنا الآخر على أن أدافع فى آخر عمرى عن قوة هذا الدين العلمية التى تعيد الشيوخ المجتهدين تحت رايتها إلى الشباب .. وأنا عارف بما يحيطنى من عوامل الضعف التى ذكرتها ، على أن بى ضعفاً آخر كدت أنساه مع جدارته بالذكر قبل كل شىء ، وهو ضعف اللغة ، مع ما كان فى طبيعتى من شدة الحرص على التعمق فى المسائل التى أضعها موضع البحث ، فكيف يكون لى الجمع والتأليف بين ضعف اللغة والتعمق فى بحث المسائل ؟ أضف إلى ذلك أن القارئ المصرى ينجذب فى الغالب إلى قوة اللغة وجمال الأسلوب ، ويسأم من التعمق فى البحث مهما كان الموضوع هاما حيويا ، ولا يبالى بأن يكون مثله فى هذه الحالة كمثل مريض يسأم من

---

[١] وإنى أقرأ على المسلمين المنهومين فى أكل لحوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبد الله عنان وغيره ، قول حطيئة الذى كان الأستاذ على عبد الرازق بك (باشا) قرأه فى غير محله على المسلمين الذين لا يعجبهم أفعال مصطفى كمال فى تركيا الجديدة وذلك فى مقالة له منشورة فى الزمان الماضى :

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم　　من اللوم أو سدوا الفراغ الذى سدوا

فلو كانت الدولة العثمانية ورابطة مصر بها موجودة لما اجترأ فيها الكاتب عبد الله عنان على ما اجترأ ، وخصيصا ما اجترأ الشيخ القصيمى أن يعتدى فى مصر على المسلمين وكتاب المسلمين .

لحص أسباب المرض وأماراته ولا يهتم بتنفيذ ما فى تذاكر العيادة الطبية .. بل ربما يلقيها بعد تمزيقها فى سلة الإهمال ، بحجة أنها لم تكتب على أسلوب عال من الأدب الفنى .. وإنى أرجو الله تعالى أن يجعل ضعفى فى اللغة وما يؤدى إليه من معاناة الصعوبة عند الكتابة ، ثقلة للكتاب فى ميزانى يوم عرض الأعمال لا ثقلة على قارئه فى الدنيا .. والله تعالى قادر على أن لا يخيب سائله مهما كان السائل عاجزاً عن القيام بمهمته ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

عذيرى من لسان أعجمى　　أراوده على تعريب كتبى
وقد أنطقته ما اسطاع حتى　　إذا لم يُرونى أنطقت قلبى

* * *

انتهينا من قصة الكتاب وقد فهم من القصة سبب تأليفه إجمالا .. لكننا لا نكتفى بذلك ، بل نضم إلى هذا الإجمال تفصيلا طويلا قد يزيد فى طول مقدمة الكتاب لنورد فى غضونها شواهد تثبت ما قلنا فى الإجمال عن حالة مصر بالنظر إلى عقلية كتابها العصريين وعلمائها التابعين لهم بغير إحسان من التابع والمتبوع المتفقين على هدم العقليات القديمة الإسلامية فنقول :

إن مما لا يخفى على المسلمين الذين يهمهم بسبب إخلاصهم لدينهم أولا وتأثيره فى حالاتهم الاجتماعية ثانياً ، ما مر ولا يزال على الإسلام فى الأزمنة الأخيرة التى اتصل فيها الشرق بالغرب ، من أدوار أعقبت عقليات مختلفة فى خواص النـاس المحدثين ، مع الاتصال المذكور ، إن لم يكن فى عامتهم وفى خاصتهم القدامى .. فكان أول مرحلة أن أثيرت الشكوى من جمود المسلمين وعلماء الإسلام فى دينهم ، وشاطر تلك الشكوى وناصرها بعض العلماء أنفسهم .. ولعدم كون الشاكين ومناصريهم على جانب كبير من العلم الناضج والعقل السليم التبس الأمر عليهم فهُجم على الدين نفسه عند الهجوم

على الجمود فى الدين[1] .

واستمرت الشكوى ولا زال شىء من جماحها باقياً فى بعض الأقلام حتى أذيب الجامد فنجم الجاحد وتطاول الناقص بفضل جحوده على الزائد ، ثم حل تقليد الغرب محل الجمود فى الإسلام .. وجاء دور ساد فيـه القول بين صراحة ودلالة بأن العلم لايعترف بوجود ما لا يثبت وجوده بالتجربة الحسية وربما أُلحق العقل بالعـلم فى عدم الاعتراف بغير المحسوسات ، ولم يفحص أىّ علم ذاك العلم وأى عقل ذاك العقل فقُبل كل منهما على إطلاقه عدواً للدين لعدم استناده إلى دليل محسوس ، واعتبر الإلحاد مذهب العلم والعقل .. واستقر الأمر على هذا حتى استولى اليأس على قلوب الغيورين على دينهم ، وأصبح لا يجترئ على الدفاع عن دينه علمياً إلا متهور أو متغاض عن معارضة العلم والعقل .. وربما خالج بعض الأذهان أن العقل عُرف فى سالف الزمان باستدلاله على وجود الله ، ثم لم تثبت هذه الفكرة كبصيص الأمل للمدافعين عن الدين أن أطفئت بنفس واحد يعيد اليأس إلى قلوبهم قائلا : إنه حلم العقل المحض والمنطق التجريدى اللذين لا يقام لهما وزن فى أعصر العلم المثبت .

ثم تبين لمتحمسى المراحل الأولى بعد أن قضى الناس شهواتهم من الأمانى اللادينية فى المراحل الثانية والثالثة ، ما ترك الإلحاد فى أرواحهم من الخلاء الوحش وأخذوا ينزعجون منـه ويحسون بحاجهم إلى ملء ذلك الفراغ ، وكادوا يندمون ويتحسرون على فراق ذلك الأنيس الروحى الذى هو الدين ، لولا أن العلم والعقل اللذان باعدا بينهم وبينه ، بالمرصاد يقطعان عليهم طريق العود إلى حضانته المؤنسة المُطَمْئنة .

[١] وهانت تهمة الجمود موجهة إلى الإسلام نفسه — مع أنها غـير هينة — لو اقتصرت على أحكامه العملية واعتمدت على دفع الحرج ولم تتعد إلى العقيدة التى لايتصور فيها الحرج ..

ومن هذا يتبين أن أصحاب الشكاية عن الجمود فى الدين غير مخلصين فى مرامهم ونواياهم يبتغون الهدم لا التيسير . إذ لايسوغ ولا يعقل أن يكون معنى السهولة فى العقيدة إلا سهولة الضلالة بالنسبة إلى الهدى .

فلنبدأ من تحليل ماحدا هيكل باشا إلى تأليف « حياة محمد »

١

قال معالى هيكل باشا فيما يقرب من آخر مقدمة كتابه « حياة محمـد » :
« فالتفكير الإسلامى ـ على أنه تفكير علمى الأساس على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به وهو من هـذه الناحية واقعى بحت ـ ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون وخالق الكون ، ويبدع له ذلك فى النواحى النفسية والنواحى الروحية آثاراً قد يقف العلم بوسائله حائراً أمامها لا يستطيع أن يثبتها ولا أن ينفيها وهو لذلك لا يعتبرها حقائق علميـة .

«ثم هى تظل مع ذلك قوام سعادة الإنسان فى الحياة مقومة سلوكه فيها . فما الحياة؟ وما صلة مكان الإنسان من الوجود ووحدته ؟!

« هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدى ووجدت أدبا مترامى الأطراف لكنك تجد حلها فى حياة محمد وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا ـ المنطق التجريدى الذى أفنى فيـه المسلمون قرونا منذ القرن العباسى[1] وأفنى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر مما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى . ثم وقف العلم فى الماضى كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية ، ولا سبيل إلى درك هذه السعادة إلا العود إلى حسن ادراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود فى وحدته التى لا تتغير سنتها ولا يعتبر الزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبى لحياتنا القصيرة . وحياة محمد هى لاريب خير مثال لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية لمن أراد ودراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحـاول هذا الاتصال فى مراتب أولية لبعد ما بينه وبين الصلة الإلهية التى أفاء الله على رسوله. وأكبر ظنى أن هاتين الدراستين خليقتان يوم يتاح لهما التوفيق أن تنقذا عالمنا الحاضر

[١] يشير إلى زمان تدوين علم الكلام الإسلامى ممزوجا بالفلسفة المشتقة من الفلسفة اليونانية ومستندا إلى منطق أرسطو اللذين اطلع عليهما علماء الإسلام فى عهد الخليفة العباسى المأمون .

من وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ، وثنية جعلت المال وحده معبودا ، وسخرت كل ما فى الوجود من علم وفن ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده » .

وخلاصته أن معاليه من المستيئسين من إحياء الفكرة الدينية فى قلوب الناس ، مبتدئا من إثبات وجود الله على طريقة علمية ، وبانيا لأساس الأخلاق التى هى مدار سعادة الجمعية البشرية على هذا الدين المثبت .. وهو يعتبر ما اعتمد عليه علماء الإسلام المتكلمون قرونا طويلة من إثبات عقائد الدين بأدلتها المبسوطة فى كتبهم والتى يدرس شىء منها فى كلية أصول الدين الأزهرية ، غير جدير بأن يسمى إثباتا بالطريقة العلمية ولا أدلة ذلك الإثبات أدلة علمية ، بناء على أن العلم الحديث الغربى لا يعتد بتلك الأدلة ولا يعد العلوم المشتملة عليها علما .

وقوله فى ص ١٥ أصرح فى هذا الصدد : « انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها ، وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعى والفلسفة الواقعية « الوضعية » يقررانه ، من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدى (الميتافيزيقى) ليس هو أيضاً من الطريقة العلمية فى شىء . »

وترى معاليه قائل هذين القولين يناقض نفسه فيقول فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ص ٥٥ : « فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى أكثر من النظر فى هذا الكون الذى خلقه الله »[1] مع أن النظر فى الكون لا يكفى المستدل على

---

[١] لا يجوز وصف الكون عند النظر فيه للوصول إلى معرفة وجود الله ، بأنه خالق الله كما فعل المؤلف . وإلا كان فى هذا الاستدلال مصادرة على المطلوب نفسه ، لأن من يعرف أن خالق الكون هو الله لا يحتاج فى الإيمان بالله إلى النظر فى الكون ، ومن يحتاج للإيمان به إلى النظر فى الكون لا يعرف أنه خالق الله .

وجود الله فى نظر العلم الحديث كما ذكرنا فيما نقلنا عن معاليه آنفا . لكن قوله هذا وقع بصدد نفى الحاجة فى الدين إلى الإيمان بالمعجزة ، فلم يتحرج أن يعترف فى سبيل هذا النفى بما لا يعترف به العلم من وجود الله .

وإنكار المعجزة اعتماداً على الإيمان بالله، واستغناء الإيمان به عنها ثم إنكار الدليل على وجود الله اعتماداً على العلم الحديث من عجائب العقليات الحديثة ، مع أن الإيمان بالله يذهب بالإنسان إلى الإيمان بالمعجزة لا إلى إنكارها .

وعلى كل حال فمؤلف « حياة محمد » لا يعجبه عدم وجود الله وإن كان يعجبه عدم وجود المعجزات، مع أن المانع من وجود الأمور الغيبية كلها يرجع إلى أصل واحد هو العلم الحديث والعقل المقيد به . ولا ينتظر من معالى المؤلف شن الحرب على هذا العلم وهذا العقل اللذين شنا الحرب على وجود أى شىء ثابت فيما وراء الطبيعة .

فبالضرورة التجأ المؤلف إلى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ودل الناس على الالتجاء إليها لعلهم يجدون فيها ما لا يجدون فى العلم والعقل من طريق الوصول إلى الدين وواضعه جل شأنه .

ونحن نأمل من الاطلاع على سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم كل خير وبركة وهداية لاسيما سيرته المكتوبة على وجه أمثل مما كتبه معاليه . إلا أن هذه السيرة المباركة التى لم يأل معالى المؤلف جهداً فى تصويرها على صورة لا تتنافى مع سنن الكون ليأتلف مع العلم والعقل ، لا مناص من أن تتعارض نتيجتها التى تنتهى إليها — وكان الانتهاء إليها مقصود المؤلف أيضاً من كتابه وهى صلة الإنسان على تعبير المؤلف بالوجود وخالق الوجود — لا مناص من أن تتعارض هذه النتيجة مع العلم والعقل المقيد بالعلم . فكيف يتصل الإنسان بخالق الوجود الذى لا يقر العلم والعقل بوجوده إن كان هذا الإنسان مقرا بالعلم والعقل ؟ وكيف يتصور رسول الله مجردا عن الله إن أمكن

تجريده عن المعجزات ؟ مع أن العلم والعقل اللذين لا يعترفان بالمعجزات لكونها من الأمور الغيبية الميتافيزيقية ، لا يعترفان بالله أيضاً للسبب نفسه .

وصفوة القول هنا أن الدين يقوم على ركنين رئيسيين: الإيمان بالله والإيمان برسوله من البشر . لكن العلم الحديث التجريبي الذي هو أساس مايؤمن به المتعلمون المصريون بعصر المقلدة للغرب ، لايعترف بالله ولا برسوله على أنهما من الحقائق الثابتة المستندة إلى التجربة الحسية . أما العلم القديم المبني على العقل المحض والمنطق التجريدي والذي آمن بالله أولا وآمن برسوله بعد الإيمان بالله وآمن بهما علماء الإسلام المتكلمون من قديم الزمان بواسطة هذا العلم — فغير معتد به عند المتعلمين المصريين .. فالعلم قديمه وحديثه لايضمن الإيمان بالله ورسوله ، ولهذا اتخذ معالي هيكل باشا تتبع حياة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خير وسيلة للإيمان بالله ، عكس ترتيب العلم القديم وعلمائه المتكلمين ، وإن لم يصرح بترتيبه هذا .

وقد يلاحظ في أسلوب معالي الباشا للإيمان بعض الشبه بإيمان المسلمين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ويمكن أن يكون هذا الشبه هو الذي جذبه كما قال في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه (ص٥٥) :

«ولو أن أمة غير مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين : رجل لم يتلجلج قلبه ولم يتعثر فؤاده بل هداه الله إلى الإيمان أول مادعى إليه كما هدى أبا بكر فآمن وصدق من غير تردد ، وآخر لم يلتمس فيما وراء سنة الكون من خوارق ، بل التمسه في خلق الله هذا الكون الفسيح الأرجاء الذي يقصر تصورنا دون ادراك حدوده في الزمان أو في المكان ، وتجري أموره مع ذلك على سنن لاتحويل لها ولا تبديل ، فاهتدى من سنة الله في الكون إلى بارئه ومصوره ، سواء عند هذين أكانت الخوارق أم لم تكن . »

وخلاصته أن من يهتدى إلى الإسلام فى هذا الزمان من الأمم غير المسلمة يهتدى إليه بأحد طريقين : إما بأن يدخل الإيمان فى قلبه أول مادعى إلى الإيمان وأول ما سمع القرآن فيؤمن من غير أن يتلجلج قلبه كما آمن أبو بكر من غير تردد . فهذا الرجل لا يحتاج طبعاً إلى غير معجزة القرآن . وإما بأن ينظر إلى سنة الله فى هذا الكون الفسيح الأرجاء فيهتدى منها إلى بارئه . وهذا الرجل أيضاً لا يحتاج فى إيمانه بالله إلى المعجزات والخوارق . أما إيمان هذا الرجل بالرسول فكأنه تكفل به معجزة القرآن .

وأنا أقول مؤلف كتاب « حياة محمد » معلول العقلية بداء إنكار المعجزات غير معجزة القرآن[١] ولذا ينساق إلى تأييد هذه العقلية المريضة فى مناسبة وغير مناسبة . ونحن نوفى حق الكلام على مسألة المعجزات فى الباب الثالث من كتابنا هـــذا . والمقصود هنا التنبيه على أن ماذكره من الطريقين لإيصال أى أمة غير مسلمة إلى الإيمان بدين الإسلام فى هذا الزمان فكلاهما غير ضامن للوصول إليه . فالرجل الأول الذى يؤمن أول مادعى إلى الإيمان من غير تردد وحاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن كما آمن أبو بكر ، لا وجود له فى هذا الزمان الذى لا يوجد فيه داع إلى الإيمان كالنبى صلى الله عليه وسلم ولا مدعو كأبى بكر . والرجل الثانى الذى ينظر إلى الكون الفسيح الأرجاء وسنته المنظمة للاهتداء إلى بارئه غير مضمون له الإيمان أيضاً على مذهب المؤلف ، لأن طريقة هذا الرجل إلى الإيمان بالله تعالى هى طريقة الاستدلال من الآثار إلى مؤثرها ، أعنى بها طريقة العلم القديم المبنى على العقل المحض والمنطق التجريدى اللذين لا يعتد بهما العلم الحديث ولا متعلموه المصريون أشباه المؤلف ، ولا يعتبرون ما يبنى عليهما من المسائل حقائق علمية . وهل هـذا إلا تناقض من المؤلف مع ما ذكره أولا وبنى عليه تأليف كتابه . ولعله يظن أن الدين غير لازم بلوغه عنـد المتدين مبلغ الحقائق

---

[١] على أن رأيه فى معجزة القرآن الذى يأتى تفصيله فى محله يتنافى مع الاعتراف التام بكون القرآن معجزة .

العلمية ، وفيه حط الدين عن مرتبة العلم وعلمائه عن مرتبة العلماء وسيسمع القارئ كلمة من الشيخ الأكبر أيضاً تنم على هذا .

ولو تغاضينا عن هذا التناقض وفرضنا كفاية النظر إلى الكون وسننه فى إيمان الرجل الثانى ببارىء الكون وبلوغ هذا الإيمان فى قلبه مبلغ الحقائق الثابتة مخالفاً لرأى العلم الحديث فيه — فماذا يكون سبب إيمان هذا الرجل بالرسول من غير حاجته إلى التصديق بالمعجزات غير القرآن ؟ ولم يذكر المؤلف هذا الإيمان منه ولا سببه . فإن قال إن السبب هو القرآن، ورد عليه ماذا يكون تأثير معجزة القرآن التى يدعى المؤلف استغناء أى أمة غير مسلمة فى هذا الزمان عن التصديق بمعجزة غيرها، فى إيمان الأمم من غير العرب ؟ والعرب نفسها لا تربط اليوم معجزة القرآن بهذا الدين كثيراً من أبنائها المثقفين . وقد انقضى عهد الذين أدركوا الإعجاز بالذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك، على ماقاله الأستاذ الأكبر المراغى فى مقالة نشرها فى «الأهرام» و« السياسة الأسبوعية » قبل بضعة عشر عاما فى مسألة ترجمة القرآن وانتقدناها عليه فى كتاب نشرناه يومئذ . قال :

« إن قراءة الأعاجم للنظم العربى نفسه لايدلهم على الإعجاز وليس فى استطاعتهم فهمه ، والأمم العربية الآن ومن أزمنة طويلة خلت لايفقهون الإعجاز من النظم العربى، وقد انقضى عصر الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك . ونحن الآن نقيم على الإعجاز دلائل عقلية فنقول إن القرآن تحدى العرب وانهم عجزوا وهذا يدل على أنه من عند الله . »

أما قول معالى المؤلف بعد أسطر من القول الذى نقلنا عن كتابه آنفا : « مثل الذين يؤمنون اليوم بالله ورسوله من غير أن تحملهم المعجزات على الإيمان ، كمثل الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبى العربى . فلم يذكر التاريخ أن المعجزات حملت أحداً

منهم على أن يؤمن، بل كانت حجة الله البالغة عن طريق الوحى على لسان نبيه وكانت حياة النبى فى سموها البالغ غاية السمو هى التى دعت إلى الإيمان . »

فجوابى عليه انى كنت أيضاً فى رأى معاليه ، على أن تكون طريقة الإيمان هذه خاصة بالأمة العربيـة التى تنقاد أفئدتهم لجمال البلاغة ويعلمهم التعمق والاستقصاء فى الاستدلالات العقلية ، ولا أزال شديد التعجب من أن يكون المرء يفهم القرآن ولا يدين بالإسلام ، ولا أزال أيضاً قوى الاعتقاد بأن مسئولية أبناء العرب إزاء الإسلام تـكون أشد .

إلا أنه مع كل هذا فبين الذين يتوقع منهم الإيمان بالله ورسوله فى الأزمنة الأخيرة وبين المؤمنين به فى عصر النبى فارق عظيم من حيث ان العلم الحديث والعقل الحديث اللذين اقتبسهما الشرق المقلد من الغرب واللذين يُعتبران مانعين عن الإيمان بالله ورسوله وجاعلين وجود الله ورسوله فى خارج الحقائق الثابتـة ثبوتاً علميا — لم يكونا موجودين حين آمن النبىَّ صلى الله عليه وسلم أصحابه . ومن هـذا الفارق نرى معالى الباشا كاتب حياة نبينا يجتهد فى إخلائها عن ماعدا القرآن من المعجزات التى يعبر عنها بالخوارق .. كما يظهر مبلغ اجتهاده هـذا من الـكلمتين المنقولتين عن كتابه . ولا يدرى معاليه أن معجزة القرآن بصفة أنها معجزة يلزم أن تـكون هى أيضاً من الخوارق التى يصر على نفيها من حياته صلى الله عليـه وسلم ، حتى ان النبوة نفسها خارقة تقتضى إخلاء حياة النبى العربى منها على شرط كاتبها الحديث . وسنبين ذلك فى محله إن شاء الله . فمعاليه يناقض نفسه من حيث لايشعر ويبتعد فى مسألة النبوة ومعجزة القرآن عن العلم . ولذا نرى الأستاذ فريد وجدى بك يرد النبوة فى «السيرة المحمدية على ضوء العلم والفلسفة » التى أخذ يكتب مقالات بهذا العنوان فى « مجلة الأزهر » — إلى العبقرية كما سنذكره . فهذا الـكاتب عن حياة النبى صلى الله عليه وسلم بعد الدكتور هيكل باشا يراعى جانب العلم أكثر من معاليه ، لأن العلم فى نظر الـكتاب

المصريين كما لا يقبل المعجزة لايقبل النبوة أيضاً بمعناها المعروف عند المسلمين وغيرهم من أهل الملل .

ثم من الفوارق بين اليوم وعصر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن فى عصره مستشرقون من أهل الغرب يدرسون حياته من غير إيمان بنبوته ويكون أكثر اعتماد كتاب من المسلمين عن حياته على أقوالهم ، حتى انه يوشك أن يتبعوهم أيضاً فى عدم الإيمان بنبوته لكون النبوة بمعناها المعروف خارقة لسنة الكون كخوارق المعجزات[1] فى حين أنهم يهتمون بإخلاء حياته عن الخوارق أى اهتمام ، فيجعلون نبوته أو يلزمهم أن يجعلوها عبقرية !! فلو كان درس حياته صلى الله عليه وسلم مؤدياً كافياً لدارسيها

---

[١] بل النبوة تنطوى على ثلاث معجزات كما قال الفخر الرازى فى تفسيره عند قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » . « البحث الثانى أن الرسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان خبيث . وعلى هذا التقدير فالوحى من الله تعالى لايتم إلا بثلاث مراتب فى ظهور المعجزات : المرتبة الأولى أن الملك اذا سمع ذلك الكلام من الله فلا بد من معجزة تدل على أنه كلام الله ، والمرتبة الثانية أن الملك إذا وصل إلى الرسول فلا بد له أيضا من معجزة ، والمرتبة الثالثة أن الرسول اذا أوصله الى الأمة فلا بد له أيضا من معجزة ، فثبت أن التكليف لايتوجه على الخلق الا بعد وقوع ثلاث مراتب من المعجزات » .

أقول ان هذه الكلمة القصيرة التى نقلتها من تفسير الإمام الرازى مهمة جدا من حيث ان فيها تجلية لزوم المعجزة للنبى وخصيصا للرسول الذى أخص من النبى وتجلية أن الرسالة من الله متضمنة لثلاث معجزات ، لا يكون الرسول رسولا بدونها ، وبها يحصل التثبت فى الروابط الثلاث التى يحتاج إليها تحقق صفة الرسالة من الله المذكورة فى قوله تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » والذين يؤلفون فى حياة سيدنا محمد من الكتاب العصريين المنكرين للخوارق يناقشوننا فى الاعتراف بالمرتبة الأخيرة من مراتب المعجزات الثلاث التى هى أوضح المراتب ، فضلا عن المرتبتين الأوليين اللتين يغفلون عنهما بالمرة فليقرأوا هذه الكلمة المنقولة وليقرأها معهم طائفة من الكتاب والعلماء المحدثين بعصر ابتلوا بداء الإعراض عن كتب التفسير القديمة استخفافا بشأنها ونكرانا لجميل مؤلفيها عليهم الرحمة والرضوان .

إلى الإيمان بالله ورسوله لكان أولى الناس بهذا الإيمان هم المستشرقين الذين لهم الحظ الأوفر فى درس حياته على رأى معاليه ، حتى انه يعول على ما كتبوا عنها أكثر من كتب مؤلفى الإسلام كما يطلع عليه القارىء فيما يأتى .

فالحق أن تأثير الاطلاع على حياة نبى الإسلام فى إيمان أى امرىء بنبوته مشروط بطهارة دماغ المطلع عن عقليات تمانع الإيمان كإنكار الخوارق لسنن الكون ونفى كل ما يغيب عن الحواس واعتبار هذا النفى وذاك الإنكار أو على الأقل نفى وإنكار ثبوت شىء منها ، علما .

وقد علمت من كلام الدكتور هيكل باشا أن الايمان بالله لا يكفل به العلم الحديث لكونه حائراً فى مسألة وجود الله لا يثبته ولا ينفيه لعدم كونه فى متناول التجربة . والعلم القديم لا اعتداد عند العصريين بما أثبته ، فوجود الله تعالى إذن غير ثابت ثبوتا علميا فى نظر مؤلف « حياة محمد » وأمثاله من المثقفين ثقافة جديدة غربية ، وعلمت من كلامى أن درس حياة النبى صلى الله عليه وسلم الذى التجأ إليه الدكتور المؤلف لإثبات الدين لا يجدى بمجرده فى دفع الشبهة فى وجود الله لاسيما للذين شحنوا أذهانهم بصادرات الغرب ، وإن كانت الشبهة فى وجود الله تضر دارس حياته صلى الله عليه وسلم أيضا وتبعده عن الاقتناع بنبوته .

فيجب إذن على من يريد إثبات الدين أن يتشجع ويبدأ الأمر كما قلنا من إثبات وجود الله إن لم يكن بالعلم الحديث فبالعلم القديم . وسيعلم الذين يستخفون بهذا العلم أن هذا العلم يثبت وجود الله إثباتا أقوى وأفضل مما لو أثبته العلم الحديث وأحرى من هذه الناحية أن يكون إثباتا علميا .

ولا بد إذن لإثبات الدين الذى هو اتصال الانسان بخالقه ـ ويكون مبدأ هذا الاتصال ومجلاه فى اتصال النبى الذى يبدأ الدين منه ـ وإثبات إمكان هذا الاتصال ،

أن نكافح العلم الحديث المانع عن الإيمان بالغيب والعقلَ المقيد بذلك العلم ، مادام لا ينفع الفرار من مكافحتهما ، فإن لم نكافحهما نحن المؤمنين بالغيب فهما يكافحاننا ... وبعبارة أولى وأوضح لابد أن نبتدئ الأمر بدعوة العلم والعقل إلى الإيمان ، وهما بشرط أن لانكون نحن الداعين جبناء أسارى التقليد للغرب اللاديني من ناحية والغرب المسيحي من ناحية الذي يبني دينه على العاطفة الروحية لا على العلم والعقل — أكثر استعدادا لقبول الحق من مدعي العلم والعقل الغافلين .

فأمامنا ثلاث مسائل : وجود الله ووجود منصب النبوة ووجود معجزة النبي . فالمسألة الأولى مع كونها أساس المسألة الثانية بل أساس كل شيء .. لا يجد المتعلمون تعلّماً عصريا الاستطاعة في أنفسهم والشجاعة لإثباتها علميًّا فيغفلونها[1] والمسألة الثالثة لا يريدون إثباتها ولا يرون حاجتهم إلى ثبوتها ، لكونها مخالفة لسنن الكون والعلم المبني على التجربة الحسية، وهذا المانع نفسه هو المانع لثبوت المسألة الأولى . فبقيت المسألة الثانية أعني مسألة النبوة أسوة للذين يحنون إلى الدين بعد خراب بنيانه ، فاليوم يبكي على أطلالها من أراد أن يبكي على الإسلام .

ثم إن هؤلاء الذين تمسكوا بالنبوة وخلَّوا ما يسمونه العلم يقضي على المسألة الأولى والثالثة ، لا يروقهم النبوة أيضاً من دون أن يجرى عليها عملية من التعديل يجعلها ملتئمة مع العلم . فالعملية الأولى تجريدها من المعجزات . وربما يكون هذا التجريد

---

[١] نعم كتب الأستاذ العقاد كتابه الحديث عن الله مسمى باسمه جل وعلا ، وهو كتاب ينقب وينقر عن منشأ فكرة الألوهية في الإنسان ويهدف إلى الإحاطة بتاريخ تطورات هذه الفكرة، أكثر من إثبات وجود الله علميا وحل شبهات تخالج أذهان المتعلمين العصريين حول هذا الاثبات الذي هو حاجة مصر العاجلة في هذا الزمان بل الشرق الإسلامي كله . وإن كان الكتاب لاينقصه أيضا مايتعلق بهذا الصدد عرضا من بعض نفائس لم نكتم إعجابنا به في محله المناسب ومآخذ لم نحجم عن نقدها .

مغيراً للنبوة عن حقيقتها الأصلية ويغنى المجددين عن إجراء العملية فى نفس النبوة ، بناء على أن النبوة نفسها معجزة خارقة لسنن الكون ، لأنها بمعناها المعروف عند المسلمين اتصال صريح بعالم الغيب لايشبه صلة العاقل بذلك العالم بعقله وصاحب الحدس بحدسه ، مع أن العلم وأعنى به العلم الحديث المؤسس على شهادة الحواس لا يعترف بوجود عالم الغيب .

وصفوة الصفوة من الكلام الذى يجرنا إليه تحقيق الحق فى هذا المقام : أن قضيتنا نحن المسلمين القدماء الذين لم يطرأ على عقيدتهم بحمد الله أدنى شبهة فى وجود الله ورسله رغم تطور الزمان واتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، وكذا قضية المسلمين الذين أصيبت قلوبهم بشىء من الزيغ أو على الأقل خالجها شك فى عقيدتهم وزين لهم الشيطان هذا الشك أو ذاك الزيغ باسم التجديد أو الخلاص من التقليد ، على الرغم من كون حقيقة هذا الخلاص هو الميل إلى التقليد الجديد .. خالجها شك ، ثم حدث فى نفوسهم الحنان للرجوع إلى صوابهم واطمئنانهم اللذين لا يجدونهما فى غير أحضان عقيدتهم القديمة .. قضية هاتين الطائفتين التى هما فى حاجة إلى اكتسابها وتخليصها من شر دعاة الإلحاد الذين هم أشد المبشرين فى هذا الزمان خطراً على الإسلام ، لايدانيهم مبشرو النصرانية مكيدة وخبثاً لكونهم جائين من جانب العلم — تتكون من مسألتين : وجود الله ووجود رسل الله . ولا ريب فى أن إثبات وجود الله أهم وأقدم من إثبات وجود رسل الله ، حيث لا معنى لوجودهم على تقدير عدم وجوده أو على الأقل على تقدير الشك فى وجوده ، فضلا عن أن دليل وجوده أقوى وأظهر من دليل وجودهم ، وحسبك من الفرق أن الرسول ليس بواجب الوجود مهما صح وثبت وجوده ، ولو وجب وجوده لكان الله وكان واحداً . ولما أن الفرق بين المسألتين واضح لحد الفرق بين الله ورسله ، تجد الكثرة الساحقة من الفلاسفة الغربيين ، مؤمنين بالله وتجد أقل قليل منهم يؤمنون بالنبوات ، حتى إنهم أغفلوا مبحث النبوة فى المطالب

الفلسفية وحتى إن المذهب السائد اليوم فى أوساط الغرب المثقفة الاعترافُ بوجود الله دون وجود الأنبياء، بل هو مذهب كثير من المثقفين المصريين منا أيضاً الذى يكنونه فى صدورهم ولا يظهرونه إلا إذا خلوا إلى أمثالهم . وهذا مع الفرق فى إيمان المصريين منا بالله من إيمان الغربيين ، بناء على أن إيمان الأولين أضعف من إيمان الآخرين لكونهم مقلدين ولكون ميلهم إلى ملاحدة الماديين من الغربيين ، لا يقل عن ميلهم إلى المؤمنين منهم . وحالة هؤلاء المثقفين هذه التى تلازمهم هى سر ضعفهم الذى يلازمهم ويضمن لمثلى الغلبة عليهم دائماً عند النقاش فى أى مسألة دينية ، فليس لهم حق التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، وانهم فى حرمان دائم عن بركة هذين المنبعين، فإن تمسكوا بهما فقلما يستفيد المرء من تمسكه بما لايكون ممسكا عنده ، وفى هذا أيضاً سر كونهم يخطئون كثيراً فى فهم معانى القرآن متى وقعت آية من آياته محل الخلاف بيننا وبينهم .

ومن كل هذا الذى قلنا ، نرى تقديم مسألة وجود الله فى الإثبات على مسألة وجود الأنبياء حين كان الكتاب المصريون الموجهون أنظار الناس إلى درس حياة نبينا ، يرون أنفسهم فى غنى عن درس المسألة الأولى حتى بعد الاعتراف منهم بعدم قول العلم فيها إثباتاً أونفياً المؤدى إلى القول بالتشكيك الذى لايجتمع مع الإيمان بالله. على أن المسألة الأولى التى هى إثبات وجود الله ، نحن محتاجون إليها أيضا فى الاقتناع والإقناع بوجود رسل الله ، ولذا جعلناه مسألة ثانية وقلنا انه أصعب من الاقتناع والاقناع بالمسألة الأولى التى هى إثبات وجود الله . فكأن كتابنا المصريين اهتموا بإثبات الأصعب واستغنوا عن إثبات الأسهل . وكنا قلنا عن القيام بواجب الخدمة للإسلام على هذا الشكل من الترتيب : إنه أوفق لمسلك الأنبياء وحال المسلمين فى مبدأ الإسلام ، حيث كانوا يلبّون دعوة الرسول بعد اختبار صدقه فى دعوى الرسالة من الله بمعجزته التى هى وسام صدق تلك الرسالة، فيؤمنون برسالته ويصدقونه فيما بلَّغه

من الله ، ويكون تصديقهم هـذا يتضمن الإيمان بالله أيضا ... كنا قلنا كذلك لو لم نـكن نرى أولئك المصريين المشتغلين بكتابة حياة نبينا ، خصومَ معجزات الأنبياء الأَلدّ ، جريا وراء العلم الحديث المادى . ولو لم تكن أيضا هذه الخصومة منهم كالسعى فى هدم ما تستند إليـه نبوة النبي الذى يشتغلون بالـكتابة عن حياته ، فعملهم بالبناء مقترن بالهدم ، والدسم الذى يقدمونه للقراء خليط بالسم ، ليس فيـه مايسر المسلم الساهر على دينه ومنزلة نبيه ... إلا ان النبوة التى لم يبلغ دليل إثباتها فى القوة والظهور مبلغ أدلة وجود الله والتى أهملها الفلاسفة ولم يدخلوها فى المطالب الفلسفية .. أصبحت فى نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم بفضل حياته الناصعة المضبوطة ، ذاتَ قوة وجاذبية حملت كتابنا المصريين الذين أخذوا يرجعون إلى رشدهم ويقومون بدور علماء الدين فى دعوة الناس إلى الرغبة فى الإسلام وتقدير نبيه الجليل قدره .. حملهم نصوع حياة هذا النبي وجاذبيتُها على تقديم مسألة النبوة فى ترتيب الخدمة للدين الإسلامى وعقيدته فى عصر ساور كثيرا من القلوب الشك فى صحة جميع الأديان .

وكانت هذه الفائقية الناصعة فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم أمرا زائدا على علامة نبوة النبي يصح عدها من الـكماليات وأكمل الـكماليات بالنسبة إلى الضروريات التى هى المعجزات الخارقة .. لـكن الـكتاب المصريين تصوروا ــ وياللأسف الزائد ــ فى النصوع والفائقية المشهودين فى حياة محمد ، مزاحمة للمعجزات[1] ، ساعين فى تفسيرها بتجريد حياته عن الخوارق ، مع كون النبوة نفسها منها ، فأبانوا رغم اشتغالهم بكتابة حياة النبي ، عن عدم فهمهم لأساس معنى النبوة والرسالة من الله التى هى اتصال بعالم الغيب .. ومنشأ المرض كون العلم الحديث لا يقبل وجود عالم الغيب وكون الـكاتبين لايزال يزاحم إيمانهم بهذا العلم إيمانَهم بالنبى .

---

[١] رغم ماينبغى للعاقل أن يرى فيهما تأييدا للمعجزات .

٢(١)

ومن هـذا نرى الأستاذ فريد وجدى بك الذى كان قبل بضع عشرة سنة قد أنـكر معجزات الأنبياء على صفحات جريدة « الأهرام » فلما أنـكرتُ عليه هذا الإنـكار أضاف إليه إنـكار البعث بعد الموت لـكونهما من جنس واحد يأباه العـلم ولا يسيغه العقل المدرب على العلم ... نراه فى الأزمنة الأخيرة يكتب فى مجلة «الأزهر» التى يرأس تحريرها ، مقالات بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العـلم والفلسفة » محاولا إثبات إمكان الوحى بوجود المبقريات ، ثم يتحول فينفى عن نفسه القول بأن النبوة عبقرية ، ومع هذا لايجاوز فى إيضاحها إلى ماوراء التمثيل بالعبقريات، تجنبا لمخالفة العلم وخرق سنن الـكون، وهو غافل أو متغافل عن أن النبوة لاتـكون نبوة إلا بخرق سنن الـكون التى يعترف بها العلم ولا يعترف بما وراءها . والأستاذ يجعلها أى النبوة حدا بين العبقرية والخارقة ، بل يجعلها عبقرية ممتازة فاقت فى محمد صلى الله عليه وسلم كل مافى عباقرة الدنيا !.. يشهد به قوله :

« ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمى أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصاً عظيما ، إن لم يغفل إغفالا تاما ، وإغفال هـذا الجانب منها يجعلها أمراً طبيعيا فتفقد النبوة صبغتها المميزة وتصبح سيرة النبى كسيرة أحدعظماء الرجال، وليكن من الممكن إثبات انه أعظمهم، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

« نقول : لا ، فإننا إن سرنا على شرط العلم فى إثبات الحوادث وعزوها إلى عللها القريبة فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائراً لايستطيع تعليل صدوره من فرد واحد ، وسيكون مضطراً إلى أن يعترف بأن محمداً صلى الله عليه وسلم

[١] تحت هذه الأرقام نعد بعض الأسباب الداعية إلى تأليف هذا الـكتاب .

كان عبقريا من طراز خاص فاق جميع العباقرة . وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته[١] لأن العبقرية فى العلم لا تعنى ما تعنيه فى عرف العامة . هى فى العلم مايلقى فى روع العبقرى من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجىء فذا لا سابقة له تتخذ مثالا لغيره ولا يمكن تقليده . فالعبقرية بهذا المعنى العلمى تقرب معنى النبوة إلى العقل[٢] وتسوغها فى العلم » (الجزء الأول من المجلد العاشر من « مجلة الأزهر » ص ١٥)

وأنا أقول كثرة وقائع العبقرية لا تصعد العبقرى إلى مرتبة النبى ولا يكون فى هذه الكثرة كسب للقائلين بنبوة سيدنا محمد وإن طمع فيه الأستاذ الذى وضع نبوته موضع المساومة، وإنما يكون فيها كسب القائلين بعبقريته الفائقة . والأستاذ يحاول أن يتصور فى نبينا نبوة يسوّغها العلم الذى لايسوغ الخوارق والمعجزات ، فيحذف شيئاً من إعجاز النبوة ويستلين شيئاً من قسوة العلم فيتردد بين الضدين ، ويقول : « العلم حائر أمام عبقرية محمد » يعنى أنها نبوة لا عبقرية ، ثم يقول بعد أن أدخل فيه ما أدخل من التغيير : « ان العلم يسوغها » يعنى أنها عبقرية لا نبوة . ومهما أتعب الأستاذ قلمه فإنه لا يستطيع أن يحمل العلم الذي لايعترف بغير الطبيعيات يقبل النبوة التى هى حالة وراء الطبيعة ، اللهم إلا أن تكون نبوة معدّلة عصرية للمسلمين العصريين! فليقل الأستاذ بصراحة : هل يعترف العلم أى العلم الذى لايعترف بشىء فيما وراء الطبيعة وهو يؤمن بهذا العلم وبمبدئه القائل : « كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به » وهو يعلم انه بمبدئه هذا لايعترف بالله ولا بالنبوة ولا بالمعجزة ولا باليوم الآخر كما قال معالى الدكتور هيكل باشا « ان العلم يقف حائراً أمام مثل هذه الأمور لا يستطيع أن ينفيها ولا أن يثبتها » ومعنى هذا أنه ينفى ثبوتها فلا يصدقها وينافى بذلك الدين كل المنافاة ، ولذا قال بعده : « وهو بذلك لايعتبرها حقائق علمية » .

---

[١] ليتأمل القارىء القائل بنبوته تعبير الأستاذ .

[٢] المفهوم من هذا أن النبوة من غير تأويلها بالعبقرية بعيدة عند الأستاذ عن العقل .

فليقل الأستاذ فريد وجدى بك بصراحة : هل هذا العلم ومن لا يسمهم من الكتّاب إلا أن يسايروه مثل الأستاذ الذى اشترط على نفسه كتابة السيرة المحمدية على أصول الدستور العلمى .. هل يعترف ومعه المسايرون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه ملك ويأتيه ببلاغ من الله ؟ وليقل بصراحة إنه لايعترف به . فمن شاء فليكن مع العلم ومن شاء فليكن مع الدين .. ليقل ذلك ولايتعلل بإخراج نبوة محمد إلى سوق السماسرة ليكسب القائلون بنبوته فى تلك السوق بعض أرباح معوضة عن فقد النبوة صبغتها المميزة .. وماذا يقول الأستاذ فى نبوة سائر الأنبياء الذين لايجتمع فيهم مايجتمع فى سيدنا محمد من حوادث العبقرية ليجعل له من جملتها عبقرية من طراز خاص ، فيخسر القائلون بنبوتهم على تقدير ردها إلى العبقرية ، حتى ما يكسبه القائلون بنبوته؟

وهذا الأستاذ الذى سيراه القارئ عندما أمعن فى قراءة مقدمة كتابنا هذا الطويلة ، فى موقف عجيب من العلم المزاحم للدين ، لايقر له قرار أيستمر فى التمسك به أم ينبذه ويحمل عليه .. هذا الأستاذ له فى مراحل خضوعه للعلم ، كلام فى سوق المساومة على مسألة وجود الله أسخف من كلامه فى سوق المساومة على نبوة سيدنا محمد . قال فى المقالة التى كتبها للعدد الممتاز من مجلة « الرسالة » المنتشرة فى ٥ يناير ١٩٤٧ :

« ظل العلم من الناحية الاعتقادية عدوا للدين راميا إلى محو أثره من النفسية البشرية لاعتباره إياه عاملا انقضى زمنه وبطلت الحاجة إليه ومااليس إليه حاجة مادية وأدبية كان وجوده معطلا للآخذين به من التأدى إلى الكمال المنشود .

«ولكن فى القرن التاسع عشر نفسه الذى نال العلم فيه أقصى مناه من الدين، ظهرت آثار علمية قضت بها الضرورة كان لها أثر فى إعادة سلطان الدين إليه ، منها الحاجة الملحة إلى افتراض وجود عنصر أولى لطيف إلى أقصى حد، مالىء للكون كله، وهو الأثير لايخلو منه حيز فى الأرض ولا فى السماء ، وإنه كان موجودا من أزل الآزال

وسيبق موجودا أبد الآباد وانه أصل المادة ، منه نشأت وإليه تعود . وغلا الأستاذ هيكيل المدرس بجامعة يينا من المانيا فكتب فى كتابه « وحدة الوجود » « المونيسم » يقول :

« إن نظرية الأثير إذا أخذت كقاعدة للإيمان يمكنها أن تعطينا شكلا معقولا للدين وذلك إذا جعلنا إزاء تلك الكتلة الجامدة الثقيلة وهى المادة ذلك الأثير الموجود فى كل مكان الذى يمكن اعتباره إلها خالقا »

ثم قال الأستاذ فريد بعد نقل قول فى الأثير عن أستاذ ألمانى آخر يؤيد قول الأول: « لعمرى ان ماذكرناه لربح للدين من العلم أعاد إليه ماسلبه منه من الاحترام فى نظر أتباعه ، فكان هذا جزاء للعلم من جنس العمل على نحو لا يمكن إخفاؤه ، يجب أن يفطن له الذين يهيمنون على العقائد »

ثم نقل أقوالا لعلماء الغرب عن المادة وعن التنويم المغناطيسى يزعمها نافعة للدين. وقال فى مختتم مقالته : « أليس من العجيب بعد هذا أن رجال الدين لايأبهون لهذه الأسلحة العلمية بل يوجد فيهم من يكذبها ويعمل على ملاشاتها ! ألا فليتحققوا أن العصر الذى نعيش فيه عصر العلم ، وأن أى مدرك من المدركات لايمكن أن يأبه به أحد إلا إذا جاء من طريق العلم فلا نجعلن بيننا وبينه حجابا »

أقول بعد التنبيه على أن مراده من العلم العلم الحديث الذى لايعترف بغير ماثبت باحدى الحواس الظاهرة والذى لايعرف الأستاذ غيره علما ولايأبه به : لكنه أى الأستاذ يغفل عن أن الاعتراف بوجود الأثير ضرورةَ تعليل بعض ظواهر الطبيعة به تراجعٌ من العلم الحديث المبنى على الحس إلى العلم القديم العقلى الذى يستند علماء الدين إليه فى إثبات عقائد الدين غيرَ محتاجين إلى شهادة الحواس كما احتاج أهل العلم الحديث .

وثانيا ان احتمال تصور الألوهية للأثير وتصور الكسب للدين من هذا الاحتمال

لا يطوف إلا ببال الغافلين عن أول مانع فى الأثير عن الألوهية وهو تركبه من الأجزاء المنبئ عن حاجته إليها ، فإن كان كل جزء منها إلهاً كان آلهة متعددة بعددها الذى يكاد أن يكون غير متناه ، وفسدت السماوات والأرض بها أكثر من فسادها على فرض إلهين اثنين، وإن كان الله مجموع تلك الأجزاء كان محتاجا إلى كل جزء منها . ولهذا يُعنى العلم القديم بنفى كل شائبة التركب عن الله . ولعل الأستاذ لا يعرف هذه الأمور[1] ولا كون الفلاسفة القدماء ينزهون الله تعالى حتى عن الأجزاء الذهنية فيقولون ان وجوده عين ذاته كيلا يكون مركبا من الذات وصفة الوجود .

وثالثاً أن الأثير على تقدير وجوده يكون أضأل الموجودات وأوغل الخامات فى الخامية وبالاختصار أقرب الأشياء إلى التلاشى وأبعدها عن العلم والقدرة والإرادة ، فكيف يكون إلهاً خالقاً للكون ؟

نعود إلى أقوال الأستاذ فى مسألة النبوة :

وانظر إلى ما قاله فى الجزء الثانى من المجلد العاشر من مجلة الأزهر أى فى العدد الذى يلى العدد المتقدم ص ٩٠ « الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحى كثيرة ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقتنع بها فإن الفلسفة المادية قد أثارت شبهات جمة على النبوات ونفت وجود العالم الروحانى وادعت أن كل مايقال فيه ويسند إليه من أوهام الأقدمين وأساطيرهم ، وقد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحى أن يعدل عن الاستناد

---

[١] كما أنه كان الزهاوى الشاعر العراقى لا يعرفها ، وقد كتب عنه إلى مجلة « الرسالة » عدد ٧٤٥ من الموصل بتوقيع لؤى النورى أنه كان يعتقد أن الله هو الأثير لقوله :

مالكل الأكوان إلا إله　　　واحد لايزول وهو الأثير

أقول ولعل الكاتب من الموصل أيضا لا يعرف ما فى الأثير على تقدير وجوده من موانع الألوهية حيث احتاج إلى استفتاء الأستاذ العقاد .

إلى الأدلة المنطقية، إلى الأدلة العلمية بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية مرى على بحثها الأسلوب العلمى . »

كأن الواجب على من يعالج مسألة النبوة والوحى نظراً إلى قول الأستاذ أن يعدل عن الأدلة المنطقية إلى الأدلة الغير المنطقية ومن هنا تبتدئ عقلية الأستاذ غير المنطقية ولذا قال بعده : « وهذه محاولة عنيفة تستدعى كثيراً من الجهد يبذل فى سبيل جمعها وترتيبها وتهيئتها للدفاع عن النبوة » .

أقول من الصعب فى الحقيقة إثبات مسألة بأدلة يلزم أن تكون علمية ولا تكون منطقية فى وقت واحد ، بل ان هذا لايمكن حتى بعد بذل الجهود التى ذكرها ، لأن الدليل إن كان علميا كان منطقيا ، وإن لم يكن منطقيا لم يكن علميا أيضاً . وكان الواجب على الأستاذ الذى يرى التعارض بين العلم والمنطق مع الرائين من ذوى العقلية العصرية الذين عزا إليهم الاستخفاف بالأدلة المنطقية ، وهو واحد منهم، لكنه يتظاهر كالحاكى عن الآخرين اتباعا لقانون الدس فى ترويج الأباطيل كما أشار إليه فى مقالة من مقالاته عازيا ذلك أيضاً إلى غيره ... كان الواجب عليه أن يبطل أحد المتعارضين من العلم والمنطق بصراحة ، ولو كنت مكانه لما ترددت فى إبطال العلم المخالف المنطق الذى وضعه العقلاء لتمييز صحيح الفكر من سقيمه . لكن الأستاذ يفضل الانحياز إلى جانب العلم وإلى جانب الذين تسربت إلى عقولهم الفلسفة المادية ولم يعرفوا المنطق عن كثب . وأى مزية لعلم لايخضع المنطق فتخضع له عقول الناس ؟ فهل مزيته فى معارضته للدين وفى معارضته المنطق مع الدين ؟ وأصدق القول ان الانحياز فى تدقيق المسائل إلى مالا يتفق مع المنطق شىء مضحك والتبجح به جهل فاضح[1] . ومن الأمور

[١] وقد ظهر قبل سنين ملحد باسم اسماعيل أدهم ونشر كتابا باسم « لماذا أنا ملحد ؟ » فحاول الأستاذ فريد وجدى بك حل شبهة الرجل بما كتبه فى مجلة الأزهر مع أن النجاح فى حل شبهته كان متوقفا على الأدلة العقلية المنطقية التى يعاديها الأستاذ بدل أن يعرفها . ويأتى بحث هذه المسألة أيضا فى كتابنا هذا إن شاء الله .

المشرّفة لكتابى هذا أنه يتولى الدفاع عن حقوق المنطق كما يتولى الدفاع عن الدين .

وعندى أن محاولة تأليف النبوة بالعلم الذى لايقبل وجود شىء فيما وراء العالم المادى المحسوس ولا يعترف حتى بوجود الله ، من قبيل طلب المحال . ففضلا عما فى مسلك الأستاذ من عيب التنازل عن المنطق فلا بد إما أن يكون العلم الذى يريد أن يتمشى معه، يأبى الاعتراف بالنبوة مصراً على إبائه وإما أن تخرج النبوة عن حقيقتها . وكيف يقر العلم برسالة من الله وهو لايقر بوجود الله ؟ ثم ما حاجة الناس إلى رسول من الله إن لم يكن لهم البعث بعد الموت ؟ كما هو مذهب الأستاذ تمشياً منه أيضاً مع العلم . وسيجىء الكلام فى مذهبه هذا ، كما أن للكلام منا على مقالاته المنونة « السيرة المحمدية على ضوء العلم والفلسفة » بقية تأتى فى محله .

الحاصل أن أصحاب العقليات الحديثة المتمسكين بالعلم المادى مع الاعتناء بسيرة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، لا يستقيم لهم الطريق كما لايستقيم للجامع بين الضدين ، وماذا قد يكون مأرب المؤمنين بالعلم المعارض للايمان بالغيب المستهينين بالأدلة المنطقية وفلسفة ماوراء الطبيعة .. ماذا قد يكون مأربهم فى سيرة محمد ونبوته التى هى اتصال بعالم الغيب عالم ماوراء الطبيعة وبعالِم الغيب والشهادة ؟ إلا أن يكون مأرباً قومياً للباحث العربى فعند ذلك يجوز أن لايراعى المنطق فى مبحث النبوة كما لايراعى فى المباحث القومية .

فالمتعلمون المصريون الذين أبعدهم عن الدين ما اقتبسوه من علم الغرب المادى ثم أحسوا بحاجة الرجوع إلى حضانة الإسلام فحاولوا أن يجدوا مافقدوه من لذة الإيمان والاطمئنان فى مطالعة حياة نبينا .. تراهم لايزالون تحت سلطة العلم الذى أضلهم الطريق أولا ، حيث أنكروا المعجزات فى حياة النبى الذى يؤملون فى مطالعتها هداية لهم إلى الحق بعد الضلال ، فحرفوا تلك الحياة عن حقيقتها وأفسدوها بدلا من أن يستفيدوا

منها الصلاح والهداية لأنفسهم . بل أفسدوا نبوة النبي ساعين في تحويلها إلى العبقرية ليمكنهم الاعتراف بها ، فأصبح مثلهم كمثل مريض أفسد الدواء عند التداوي به .

وقد كنت رأيت في عدد مجلة « الرسالة » الممتاز الخاص بأول العام الهجري ١٣٥٨ مقالة للدكتور زكي مبارك بعنوان « النواحي الإنسانية في الرسول » كان يقول فيها بعد أمور كثيرة نرجئ ذكرها إلى الباب الثالث من هذا الكتاب « إن محمدا حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان وبفضل الكتاب الذي بلّغه عاش البيان » فماذا الذي يعنيه الرجل : أيمدح سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بعدم الجري من وراء الشهرة والظهور أم يرميه بالكذب في نسبة القرآن إلى الله ؟؟

وكان أصل الضلال في عدم إيمان هذه الطائفة المتعلمة بالدين عدم إيمانهم بالأمور الغيبية التي في رأسها وجود الله ثم وجود الأنبياء المتميزين عن الناس بمعجزاتهم، ونبواتُهم كمعجزاتهم من الغيبيات التي لا يعترف بها علمهم الحديث . فهؤلاء المتعلمون النادمون على مافقدوا من حضانة الدين وحلاوة اليقين لن يصلوا بأي وسيلة مباركة إلى ماينشدونه من استدراك مافات ، ماداموا ينكرون الأمور الغيبية . ومعناه أنهم ينكرون المعقولات ولا يؤمنون بغير المحسوسات ، ولعدم إيمانهم بغير المحسوسات لايؤمنون أيضاً بالمنطق ويكون إيمانهم به وبالعقل مشوباً بالاستخفاف . وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين . فإذا كان داء المرء في عقله ومنطقه فلا دواء له ، وأشد أدواء العقل والمنطق يتجلى في الاستخفاف بهما وحصر الثقة في المحسوس .

فالواجب عليهم قبل كل شيء أن يقيموا أود عقليتهم التي جعلتهم لايؤمنون بغير المحسوسات وينتبهوا إلى مافي علمهم الذي ينهاهم عن الإيمان بالغيب مطلقا ، من الجهل .

ونحن الذين نأمل كل خير وبركة — كما قلنا من قبل — في درس حياة نبينا التي اتخذها كتاب مصر العصريون موضوع كتاباتهم في الأزمنة الأخيرة لسد الفراغ

الحاصل فى قلوب الناس من ضعف العقائد الدينية التى حاربها بين تصريح وتلميح هؤلاء الكتاب وحلفاؤهم من العلماء الأزهريين حتى حصل الضعف ... نحن الذين نأمل كل خير وبركة فى درس حياة نبينا ، لانأمل من أقلام هؤلاء الدارسين خيراً إلا ومعه شر أكبر منه .. خير يسر المسلم الذى وصفه الحديث النبوى بأنه غر كريم ، يسره رواج سيرة النبي بين حملة الأقلام وينيمه عن المكائد الزمنية الموجهة إلى الإسلام ، وشر يهمس فى أذن المتعلم الناشئ بأن نبيك ليس نبيا وإنما هو عبقرى من الطراز الأول ونحن عباقرةَ الكتاب نطلعك على هذه الحقيقة الخفية التى اكتشفها العلم الحديث الغربى .. نطلعك عليها بين تصديق لنبوته وإنكار لمعجزاته غير القرآن . وأنت تفهم معنى معجزة القرآن مع إنكار المعجزات !.. هذا ما يرمى إليه الكتاب المصريون لاسيما وقد نقلنا من إفشاءات الأستاذ فريد وجدى بك عن نوابغ الكتاب والشعراء فى الشرق الإسلامى بعد اتصاله بالغرب وعلمه الحديث أنهم يستبطنون الإلحاد وأنهم يهيئون الأذهان لقبوله دسا فى مقالاتهم وقصائدهم .. وكان الأستاذ نفسه يلعب فى هذه الإفشاءات الهامة دور شاهد الملك ، وإفلاتها من قلمه وقع قبيل توليه الوظيفة الأزهرية وسيجىء الكلام مفصلا على هذه المسألة .

وقد علمت أن مبدأ الضلال إنكار الأمور الغيبية وأوضح مايدل على وجود عالم الغيب هو المعجزة التى تخرق سنن الكون والتى نعتبر الاعتراف بها علامة الاعتراف بالأديان وإنكارها علامة لإنكار الأديان . ولشدة اتصال المعجزة بالدين نرى الكتاب المصريين الذين نحن مضطرون إلى الشك فى ديانتهم ، ينفون المعجزات ويخصون هذا النفى بعناية بالغة ، حتى إن مؤلف « حياة محمد » وضع جميع كتب الحديث والسيرة وجميع مافيها من الأحاديث المنسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم تحت شبهة الكذب، لئلا يصدّق الروايات الواردة فى تلك الكتب عن معجزات نبينا الكونية أى المخالفة

لسنة السكون كما ستطلع عليه فى الباب الثالث[1]. ومن قرأ ما كتبه الدكتور شبلى شميل مقدمة لتعريب كتاب بوخنر فى شرح مذهب داروين وهو يسمّى الإيمان بالدين إيمانا بالمعجزة المستحيلة . ولكن الغافل لا يعرف أن المعجزة مهما كانت مما تستبعده طبيعة الإنسان المرتبطة بالعادات والمحسوسات فلا يكون استبعادها بدرجة الإلحاد الذى تسلّط على ذهنه وأقنعه بوجود هذا الكون من غير موجد ولاسيما وجود هذا الكون المنظم من غير موجد حكيم عليم .

ثم إن من أخطاء الرجل — أعنى شبلى شميل — الفاضحة أنه يرى فى الإلحاد سعادة الدنيا مع أن السعادة بعيدة عن الدنيا التى لا تكون فيها مخافة الله ، لكون الأخلاق التى تتوقف سعادة الدنيا على سيادتها لا تجد ضمانا أقوى من هذه المخافة ، حتى قال الفيلسوف «فيخته» : «إن الأخلاق من غير دين عبث» وقد بنى الفيلسوف « كانت » إثبات وجود الله على دليل الأخلاق كما يأتى بيانه مع الكلام عليه . وقال « كلفين »

---

[١] مما يسرنى ذكره لإعطاء كل ذى حق حقه، أن الدكتور هيكل باشا مع كونه فى غاية البعد عن الحق نظراً لاصراره على إنكار المعجزات وكونه فى مرتبة واحدة مع الأستاذ فريد وجدى بك فى هذه المسألة .. يفترق بالنظر الى رأيه فى مسألة النبوة ، عن الأستاذ فريد وجدى ويقترب الى جانب الحق لأن الأستاذ لايقبل النبوة الا بعد التلاعب فى تصويرها وإخراجها عن حقيقتها ، فلا حاجة للنبي فى مذهبه إلى تلقى الوحى من الله بل يكفيه وحى عقله الزائد الى حد العبقرية الممتازة ، كما عرفت رأيه فى نبوة سيدنا محمد . أما معالى هيكل باشا فهو مجتنب عن إنكار الوحى ومستعد لقبوله فى شكله المعروف عند المؤمنين بالأنبياء ، وهو مع هذا حائر فى تأليفه مع العلم الذى لايعترف بالوحى كسائر المغيبات والذى يؤمن به معاليه ويريد أن يجمع بين اعانه بالعلم وإيمانه بالوحى فلا يستطيع ، كما يفهم من مقدمة كتابه . وكان تمام الحق أن يبت فى تخطئة نظر العلم الى الوحى ، بعدم القبول ، وقد أوشك معاليه أن يصل الى هذا التمام فى قوله — هداه الله الى مثله فى مسألة المعجزات — : « وقد يصل العلم الى ادراك بعض الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون ، وقد يظل بعضها لايتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهى مع ذلك حقائق يقينية تهتدى قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها على حين تظل قلوب عليها أقفالها جاهلة إياها لغفلتها عنها » حياة محمد ص ٤١ .

المصلح المشهور الذى كان هو و « لوتر » سبب وجود البروتستانية : «ان الملك الذى لاينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وإنما يقيم لصوصية . »

٣

ومما اطلعت عليه بعد مهاجرتى إلى مصر أنه جرت مناظرة قلمية قبل أكثر من أربعين عاما بين العالم الشهير الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية وبين الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » فى ست مقالات من الطرفين[١] فجرّت الشيخ المفتى إلى القول بأن الدين المسيحى لايتفق مع العقل والأستاذَ المنشىء إلى مقابلته بادعاء: «أن كل دين كذلك لافرق فيه بين المسيحية والإسلام وغيرهما ، لأن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ووحى ونبوءة ومعجزة وبعث وحشر وحساب وثواب وعقاب فى الجنة والنار وكلها غير محسوسة ولامعقولة . ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين فى كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين . بل ان الأديان تخالف أيضا العلم الذى يجب أن يوضع فى دائرة العقل لكون قواعده مبنية على المشاهدة والتجربة والامتحان . وأما الدين فيجب أن يوضع فى دائرة القلب لأن قواعده مبنية على التسليم بما ورد فى الكتب المقدسة من غير تمحيص فى أصولها »

ثم قال الأستاذ فرح : « إن العدو الحقيقى للاسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والكونفوشيوسية والوثنية فى هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجا عنها ، فهو عدو جديد أخرجه التمدن الجديد . وهذا العدو اللدود تطربه أصوات تنازع الأديان بعضها مع بعض ويثلج صدره سرورا كلما رآها يكفر بعضها بعضا ويطعن بعضها على بعض ، وهذا العدو الذى يهددها على السواء والذى إذا استطاع هدم واحدة منها هدم معها الباقيات بلا مراء ، هو المبادىء المادية المبنية على البحث بالعقل دون سواه »

---

[١] والمقالات جمعها الأستاذ فرح وكتبها فى باب الردود من كتابه « فلسفة ابن رشد »

وأنا أقول كلام الأستاذ فرح مناظر الشيخ محمد عبده يستهدف لانتقادات واسعة فى أمكنة مختلفة من كتابى هذا ، حتى انى قلت فى أحدها انه أى الكتاب استئناف المناظرة التى جرت فى الماضى بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون[١]. وسلفا أقول هنا وأزيد على قول الأستاذ الذى تعزّى بمعاداة العلم الحديث المادى للاسلام كمعاداته للمسيحية : إن ذلك العلم أضرّ بالإسلام أكثر من المسيحية وإن كان الإسلام المتضرر إسلام المتعلمين المحدثين المكتفين فى تعلمهم بالتطفل على الغربيين . ولم يكن السبب فى هذا الفرق بين المسيحية والإسلام من ناحية التأثر والتضرر من العلم الحديث ، زيادةَ الإسلام فى الابتعاد عن العقل الذى يلازم ذلك العلم ، بل كون الإسلام بالعكس متمشياً مع العقل ومبنياً فى أصوله على أدلة عقلية .

وتوضيحاً لهذا رأيت أن أنقل القسم الأول مما كتبته فى التقرير المتقدم إلى وزارة الأوقاف المصرية لما جمعتْ قبل سنين رجالا من المفكرين باسم « لجنة النهوض بالمساجد » تحت رئاسة الوزير ودعتنى عضواً فيما بينهم :

حضرة صاحب المعالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق بك .

أتشرف بعرض آرائى الخاصة فى إنهاض المساجد على الوجه الآتى :

١ — لفتنى ماسمعته فى خطبة ألقيتموها فى ديوان الوزارة وفتحتم بها الجلسة الأولى للجنة النهوض بالمساجد ، من أن مساجدنا لا يَرَى فيها الباحثُ عن الذين يُسَمَّوْن الطبقة العليا مايحث عنه ، فى حين أن معابد مواطنينا اليهود والنصارى لا يقل

---

[١] وان كان من ناحية أخرى استئناف مابين الشيخ محمد عبده وبين مشايخ الأزهر القدماء من الخلاف الذى انحاز فيه المثقفون المصريون الى جانب الشيخ وخذلوا خصومه .. فى حين أنهم خذلوه فى اختلافه مع الأستاذ فرح أنطون وانحازوا الى الأخير .. وكل هذا ينجلى للقارئ النبه عند التغلغل فى أعماق الكتاب .. وينجلى أيضا امكان القول بأنه أى الكتاب يتلخص فيما عدا بحث « وحدة الوجود » ومسألة فصل الدين عن الحكومة ، بهذين الاستئنافين .

فى المصلين بها أشراف القوم وكبار الماليين . وقد بنيتم معاليكم هـذا القول على مشاهداتـكم ، كما أن حضرة الدكتور منصور فهمى بك (باشا) من أعضاء اللجنة أيّد قول معاليكم بما رآه فى مدن أوربا وقراها من عمارة المعابد ، سواء بحضارها أو بجمع أسباب الجمال فى داخلها وخارجها ومحيطها .

وفى الحقيقة أن مساجدنا نحن المسلمين نراها مقفرة من علية القوم وخاصتهم مثل رؤساء الدواوين وكبار المثقفين ، لا يتردد إليها غير العامة والفقراء والقليل من تلامذة المدارس وصغار الموظفين . وهذه الحالة عميقة السبب لاتستطيع لجنة النهوض بالمساجد علاجها . وأصل المرض المؤدى إلى مانرى من هذا البون الشاسع بين مساجدنا ومعابد أهل الملل الذين نساكنهم فى بلاد الشرق أو نطّلع على أحوالهم فى الغرب ، ينتهى إلى أمرين :

الأول أن المسيحيين متغلّبون اليوم فى الأرض ، والمعروف أن الغالب يكون له ولمن يمت إليه بصلة ، كرامة النفس التى توحى إلى صاحبها أن يكون دينه أيضاً محفوظ الـكرامة . فهو يدرى جيداً أن لا كرامة لنفس من لا كرامة لدينه ، من حيث انه أقرب شىء إلى نفسه . وحسب صاحب الـكرامة اعترافاً بهذا القرب كونه منسوباً إلى الدين الذى يدين به فى التقسيمات الرئيسية الأولية للأمم . أما اليهود فلهم سيطرة مالية على العالم إن أعوزتهم سيطرة الحـكومة ، وكلاهما من عوامل الغلبة التى تدور معها كرامة النفس والدين . فخلاصة الـكلام أن المسلمين فقدوا كرامة دينهم فيما بينهم ، منذ فقدوا كرامة نفوسهم بانتزاع قوة السلاح من أيديهم . ومهما كان لخلو معابدنا عن مغريات النظافة والجمال دخل فى إعراض كثير من الناس عنها ، فإن التقدير الصحيح فى منشأ الأمر هو ماقلنا ، بناء على أن المعرضين عن المساجد بالمرة لا يصلون

فى بيوتهم أيضاً . فالإعراض عن الصلاة فى المساجد ناشئ من الإعراض عن الصلاة نفسها التى هى عماد الدين الإسلامى .

الثانى ـ وهو المهم ـ أن الإعراض عن المساجد يبدو على الأكثر كما قلنا من كبار المسلمين ويكون أكثر هؤلاء الكبار فى زماننا من المثقفين ثقافة غربية ، ثم يسرى المرض من هؤلاء إلى غيرهم، فيصبحون شر قدوة للناس ويأخذ المرض أو سيأخذ شكل الوباء العام . أما إعراض المثقفين عن المساجد فسبب هذا المرض فيهم أعمق مما يظن فى بادئ النظر ، ومعنى هـذا أن ضعف رغبتهم فى حضور المساجد ليس راجعاً إلى ضعف الرغبة فى الصلاة فحسب، الناشئ من تكاسل النفس أو ضعف كرامتها كما قلنا فى الفقرة السابقة ، بل إلى ضعف فى العقيدة أيضاً مبنى على الشك فى صحة الدين الذى ورثوه من آبائهم . وهم وقعوا فى هذه الحالة بعد اتصالهم بعلوم الغرب التى لا تؤمن بغير المحسوسات . ولذا قال الله تعالى فى كتابه : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » أقول قولى هذا بالصراحة التى جُبلت عليها ، ومن هذا قلت أولا إن لجنة النهوض بالمساجد لا تستطيع علاجه، فهل فى وسعها أن تقترح على الحكومة سن قانون يحتِّمُ على رؤوس الدواوين ، وفيهم الوزراء المسلمون، أن يحضروا صلوات الجمعة على الأقل ويضطرُّ الغائبين من غير عذر إلى الاستقالة من مناصبهم ؟ فعند ذلك تكون هذه اللجنة لجنة النهوض بالمساجد فى معناه الصحيح ، ويتحقق كون هذا النهوض مقترناً بإرادة حقيقية من الحكومة .

وإلا فما دام الشك فى قلوب المثقفين المصريين المؤمنين بالعلم الحديث فوق إيمانهم بالدين ، ومادمتم لاتخرجون الشك من قلوبهم أو لاتُدخلون فيها الخوف على مناصبهم، فلا تستطيعون أن تدخلوهم المساجد . والاعتناء بالمواعظ والخطب فى المساجد ، الذى كان موضوع البحث فى الاجتماع الأول للجنة ، لا يجدى نفعاً فى البعيدين عن المساجد وعن سماع تلك الخطب والمواعظ، للسبب المذكور الذى جعلهم معرضين عن

المساجد والصلاة . بل لاتنفع فيهم الخطب والمواعظ ولو سمعوها فى غير مناسبة الصلاة بالمساجد ، وإنما تنفع فيهم الحاجة فى الصحف والمجلات والكتب إلى أن يقلع الشاكون عن عقليتهم الباطلة القائلة بأن الثقافة الحديثة الغربيــة من حق حاملها أن يشك فى دينه .

بقى هنا سؤال : وهو لمــاذا تذهب الثقافة الحديثة بحاملها من بعض المسلمين إلى ضعف فى الدين ، ولا تذهب بالمثقفين من اليهود والنصارى إلى هذه النتيجة المشؤومة فلا يكون العلم خطراً على دينهم ، ومن هــذا لا نراهم معرضين عن معابدهم على خلاف مانرى فى المسلمين ، حيث يبعدهم العــلم بمعناه العصرى عن المساجد والصلاة والصوم والعقيدة الدينية ؟

والجواب أن اليهود أصحاب المبادئ الراسخة المحافظون على قوميتهم ودينهم الذى مزجوه بقوميتهم كل المزج ، بل انهم أفنوا قوميتهم فى دينهم فلا يوجد لهم اسم من أسماء القوميات يُدعون بها ويمتازون عن غيرهم من الأمم إلا اليهود، أينما كانوا ومهما اختلطت دماؤهم بدماء الأمم المختلفة . فعنصر الدين اليهودى يبقى فيهم ويُحتفظ به رغم كل انقلاب سياسى أو ثقافى فى العــالم . بل ان اليهود على ماسمعت من الواقفين على أحوالهم لا يعملون أى دعاية لترغيب الأجانب فى دينهم ، فلا يعتنق اليهودية من يعتنقها من غيرهم إلا على خلاف إرادتهم ، لأنهم ينظرون إلى دينهم كأعز مايملــكونه فيغارون عليها من دخول الأجنبى .

والنصارى يعتمد دينهم الحاضر على العاطفة[1] ولا صلة له بالعلم تأييداً أو نقضاً . فلم يكن العلم مؤيده بأدلته القديمة، حتى ينقلب ضده بأدلته الحديثة المبنية على التجارب

---

[١] ولذا جعل له الأستاذ فرح أنطون المار والآتى ذكره، دائرة القلب دون العقل .

الحسية . لكن الإسلام ليس كذلك[١] ، فقد كان له فى الماضى أدلة من العلم مبنية على العقل والمنطق الذى يستخف به اليوم بعض المتعلمين منا بحجة انه منطق تجريدى! ومنذ أصبح العلم فى الغرب والشرق المقلد له لا يعترف إلا بما يثبت وجوده بالتجربة الحسية ويقول إن كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به ، ظن كثير من الناس الذين هم فى عقلية المتعلمين المذكورين المستخفين بالمنطق التجريدى : أن الإسلام فقد مستنده من العلم ، وإن شئت فقل ظنوا أن العلم الذى يستند إليه الإسلام أصبح لايقام له وزن ، وربما ظنوا الظنون بالعقل أيضاً فرجعوا عن ثقتهم بالعلم المبنى على العقل . وهذا خطأ عظيم ناشئ من طغيان التجربة على العقول الضعيفة[٢]

انتهى ما أردت نقله من التقرير الذى قرأته فى لجنة النهوض بالمساجد بوزارة الأوقاف المصرية . والجملة الختامية منه أعنى بها قولى : « وهذا خطأ عظيم ناشئ من طغيان التجربة على العقول الضعيفة » يشرحها هذا الكتاب إن شاء الله .

نعود إلى بحث الأستاذ فرح أنطون مناظر الشيخ محمد عبده : وكانت فيما ادعى

---

[١] ليس معنى قولى هذا ترجيح بناء الدين على العواطف القلبية كما وقع من بعض الأساتذة المصريين بمصر وسيجئ الكلام عليه .

[٢] ولم يسلم بعض علماء الدين بمصر منذ عهد قريب من تأثير هذا التيار ، ففسروا نصوص كتاب الله وسنة رسوله المتعلقة بالمغيبات والتى لاتتفق مع العلم الحديث ، بما يخرجها عن ظواهرها ، وفتحوا أمام حملة الأقلام بابا واسعا لتأويل النبوة بالعبقرية ورد معجزات الأنبياء الخارقة للعادة ، إلى العاديات . وكان هذا بمثابة الغاء الفارق بين رسل الله وبين عقلاء الناس المتطوعين بإصلاح المجتمع بدافع من جبلتهم ، بإلغاء الرمز الحقيقى الذى ميز الله به رسله عن غيرهم كما يميز الملك مندوبه برسومه الخاص ، وهو المعجزة الخارقة . فأصبح بعد ذلك الوحى والملك والكتاب المنزل بواسطة الملك كلها ملغاة ، وعاد عدم تصديق الأنبياء فى دعوى رسالتهم من الله : لافرق بينه وبين عدم تصديق المصلحين من الناس الممتازين عن الجمهور بقوة عقولهم فقط ، إن لم يترتب على عدم التصديق هذا عقاب فى الدنيا فلا معاقبة عليه فى الآخرة قطعا . فبهذا الشكل الذى أوضحته ذهب دين الطبقة العليا أدراج الرياح .

هذا الأستاذ فى مقالاته حاجة الأمم فى إصلاح أحوالها إلى فصل الدين عن الدنيا وعن سياسة الحكومات ، وقد عزا رقى أوربا فى العلم والمدنية إلى العمل بهذا الفصل كما رأى سبب تأخر المسلمين فى إهمال العمل بمبدأ الفصل . ومناظره الشيخ ناقشه فى هذه المسألة أيضاً ولم يوافقه فى الظاهر على رأى الفصل ، أما تأخر المسلمين فأجاب عنه بحمل تبعته على جمود علماء الدين .

وعلى ضوء هذه المناظرة وضع الشيخ محمد عبده كتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » وبالنظر إلى شهرة الكتاب وتأثيره فى شهرة واضعه يُظن أنه غلب خصمه فى تلك المناظرة ، لكن الواقع الذى نشاهد آثاره اليوم فى جو مصر الثقافى غلبة فكرة الإلحاد الدالة على غلبة الأستاذ منشئ مجلة « الجامعة » فى المناظرة على الشيخ المفتى . فيفهم أن الشيخ اكتسب الشهرة وخصمه اكتسب القضية المنازع فيها ، فمن الذي يستحق منهما لقب الغالب إذن ؟ ولو كان الشيخ هو الذى اكتسب القضية ضد مناظره لما ارتكزت فى مصر اليوم عقلية اعتبار الدين فى جانب والعقل والعلم فى جانب مقابل ، ولما سرت هذه العقلية حتى إلى الأزهر ، وقد ذكرنا وسنذكر له من الأمثلة ما يقتنع به القارئ إن شاء الله .

ثم لو كان محمد عبده هو الذى كسب القضية ضد مناظره لما اجترأ الأستاذ فريد وجدى الذى لابد أن يكون فى طليعة الشاهدين لتلك المناظرة أو على الأقل العارفين بها ، على نشر قوله الآتى فى رقم (٥) على صفحات « الأهرام » والذى أسفر عن قضاء العلم على الأديان كلها كما يراه الأستاذ فرح ، وعن استيلاء الإلحاد على نوابغ الشرق الإسلامى .

أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين فقرّب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات ، ولم يقرب

اللادينيين إلى الدين خطوة . وهو الذى أدخل الماسونية فى الأزهر[١] بواسطة شيخه جمال الدين الأفغانى ، كما أنه ـ على ما يقال وسيأتى إيضاحه فى هذا الكتاب ـ هو الذى شجع قاسم أمين على ترويج السفور فى مصر .

فالشيخ ، بدلا من أن يتغلب على مناظره ويهزم جيوش المتفرنجين الكامنين وراءه ، هزم جيش علماء الدين الذى هو جيشه نفسه ، بطول ما رماهم به من وصمة الجمود ، وبفضل ذلك حاز مكانة عظيمة عند المتفرنجين طبعاً وعند المنهزمين تبعاً[٢] .

قال الأستاذ محمد صبيح فى كتابه « محمد عبده » (ص ٨٦ ـ ٨٨) :

« لم يتحرج محمد عبده طول حياته فى أن يسعى إلى المعارك العقلية والعلمية يخوض غمارها ، وهو يعلم أن سلاحه بتار وأنه سيوقع الرجفة فى قلوب خصومه ويفتح أعين الناشئين من أبناء الأزهر وأجياله المتعاقبة ...

« ففى أثناء درس من دروس التوحيد التى كان يلقيها قال لطلبته : « إنكم تعلمون أن الإيمان بوحدانية الله تعالى هو الأساس الأعظم لدين الإسلام . ولذلك جُعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه ، حتى إذا ما قالها المشرك فى ميدان القتال وجب الكف عنه . وسيكون موضوع درسنا الآن إقامة البرهان على هذه العقيدة

---

[١] روى ثقة عن أستاذ من المدرسين فى إحدى كليات الأزهر الذى كان من أقرب أصحاب المرحوم الشيخ بخيت أنه استفسر الشيخ ذات يوم من أخريات أيامه عن الماسونية ، فنهره بشدة وتحذير ينمان على التأسف والتندم على ماسبق له من الانتساب إليها . ثم لقيت أنا هذا الأستاذ يوما من الأيام فسألته عما جرى له مع الشيخ المرحوم فأجاب بتصديق ما سمعته أولا ونقلته آنفا .

[٢] وكان من مضار الشيخ بالاسلام وعلمائه الناشئين بعده أن حملة الأقلام بعصر المنحرفين عن الثقافة الإسلامية ، لما أكبروا الشيخ وآراءه الشاذة ـ التى انتقدتها فى هذا الكتاب ـ وأوجدوا له من السمعة العلمية السامية مالا يزال طنينه فى أذن الشرق الإسلامى ـ ولا شك فى تأييد القوة الماسونية له ـ كان ذلك حثا للذين يحبون الشهرة والظهور من شباب العلماء وكهولهم ، على نيل ما أرادوه بواسطة الشذوذ فى الرأى والتزلف إلى الكتاب المتفرنجين بل الانتماء إلى الماسونية .

وإنى سأحضر معى عند المجىء إلى هذا الدرس ١٠٠ جنيه وأعدكم بأن من أقام أمامى البرهان على الوحدانية قبل أن يسمعه منى وأمكنه أن يجيب عما أورده عليه من الاعتراض جواباً صحيحاً فإنى أدفع إليه هذا المبلغ ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب .

« ألقى الشيخ محمد عبده هذه القنبلة متحدياً الأزهريين شيوخهم وشبابهم قدماءهم ومحدثيهم فدوت فى رحابه دوياً شديداً . أذهلت الناس كلهم ، وأيقن الجميع أن حدثاً من أعظم الأحداث فى تاريخ الفكر الإسلامى يوشك أن يحدث أو هو حدث فعلا قبل المناظرة وقبل تمثيل فصولها . »

ثم قال الأستاذ المؤلف : « ما معنى التحدى من هذا الشيخ المتعقب ؟. معناه أنه لا يوجد بين علماء الأزهر طبعا أن يجادل عن عقيدة وحدانية الله تعالى جدلا قويا يرد كل شبهة وينفى كل اعتراض . معناه أن الأزهر بعلومه وشيوخه ، ومتونه وشروحه لا يصلح لإظهار مسلم مستنير يجابه الجدل بقوانينه الحديثة ويفتح عينيه بثبات أمام أضوائه .

« وكان من المنتظر فى الموعد المضروب ، أن يفد عالم أو علماء يتصدون للرد والجواب، لا طمعاً فى الجنيهات المئة ولكن رغبة فى إزالة شبهات الجهل التى ألصقها بهم الشيخ محمد عبده ، وقد ازدحمت ساحة الأزهر بخلق عديد من كل لون ومثال . وأخذ الشيخ مجلسه وقال :

« هذه هى الجنيهات المئة فمن كان مستعداً لإقامة البرهان قبل أن يسمع منى فليتقدم .

« وكان صمت وطال الصمت . وكان انتظار وتقليب البصر فى وجوه من حضر.. ولكن لم ينهض للمبارزة فارس من فرسان العلم . »

ثم أطرى الأستاذ صبيح فى البرهان الذى أقامه محمد عبده فارس مضمار العلم الوحيد ،

بين ظهرانى علماء الأزهر الذين أصمتهم التحدى .. أطرى البرهان وأطرى مافى تقريره من البلاغة من غير نقل كلمة عن نص البرهان المعجز بمادته وصورة تقريره ، كما هو عادة أكثر المؤلفين بعصر فى العلم والعالِم، يكتبون حكاية وترجمة أو منقبة ولا يدخلون فى مسائل العلم . . ذكر هذا المؤلف أيضا جميع ماحدث فى مجلس التحدى واستحق الذكر من حركات الشيخ القاهر وسكنات شيوخ الأزهر المقهورين ، وإنما لم يذكر شيئا من لب المسألة العلمية، ونسى فيماذكره من الحركات والسكنات أن ينص على انتهاء الجلسة بأن قام الشيخ ملقيا جنيهاته التى وضعها على المنصة إلى جيبه، وخرج يمشى مشية الظافرين .

والذى فعل الأستاذ فى السطور المنقولة عن كتابه عبارة عن إصغار علماء الأزهر حاضرهم وغابرهم وعلومهم وكتبهم متونا وشرحا ، لإكبار الشيخ محمد عبده . وإنى لاأعرف هؤلاء العلماء هل كانوا جاهلين إلى حـد ماحكاه الأستاذ المؤلف من عجزهم عن إقامة الدليل على وحدانية الله ، وإنما أعرف كون الشيخ محمد عبده نفسه عاجزا عن إقامة الدليل على وجود الله قبل أن يقيم على وحدانيته، بناء على أنه ينـكر بطلان التسلسل ولايفهم أن وجود الله لايمكن إثباته مالم يبطل التسلسل كما سيجىء بحثه . وإنى مدرك بثقل هذا القول منى ، ولـكنى لايسعنى أن أضحى بالله وبالحقيقة فى سبيل إكبار الشيـخ محمد عبده كما ضحى الأستاذ مؤلف كتاب « محمد عبده » بعلماء الأزهر أجمعين فى هذه السبيل !

أمامسألة إثبات الوحدانية فقد راجعت رسالة التوحيد للشيـخ محمد عبده، فوجدت هذه المسألة أيضا لم يؤد حقها بأن يقول: « لو تعدد الواجبون (يعنى الآلهة) تخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم وهوخلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد فى جميع الممكنات فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإراداته ولامرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون

الأخرى فتضارَبُ أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وإراداتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال » .

لأن مدار الإثبات فى هذه الجمل الكثيرة على اختلاف الآلهة فى علومهم وإراداتهم واستحالة الاتفاق فى الأفعال بعد هذا التخالف ، مع أن هؤلاء الآلهة المفروضين لابد أن يكونوا قادرين على الاتفاق فيما بينهم من الأفعال كما يكونوا قادرين على الاختلاف. وليس كونهم متخالفين فى العلوم والإرادات بمعنى التضاد والتضارب حتى يستتبع التضارب فيهما التضارب فى الأفعال، بل بمعنى الاستقلال فى العلم والإرادة . فلاضرورة لأحد منهم أن يكون على خلاف مع صاحبه فيستحيلَ الاتفاق ويتعين الاختلاف، وإلا لا يكون مستقلا ولايصح فرضه إلها . وهذا ظاهر لا يحتاج الإنسان فى فهمه إلى أن يكون من العلماء المبرزين بدرجة الشيخ محمد عبده الذى تحدى مشايخ الأزهر فأعجزهم وأصمتهم .. فضلا عن أن يكون ذلك المتحدىَ نفسه . وكان فى إمكان الشيخ المتحدى والمتعدى إثبات وحدانية الله بصحة وسهولة ، مادام يعرف أن الله تعالى واجب الوجود أى من يضطرنا العقل إلى الاعتراف بوجوده لبناء وجود العالم على إيجاده ، وسيجد قارىء هذا الكتاب تفصيلا وافيا عن أهمية وجوب الوجود الذى هو أخص ميزة الله تعالى على سائر الموجودات ..

كان فى إمكان الشيخ أن يستخرج دليل وحدانية الله من كونه واجب الوجود، فيقول باختصار : لو تعدد الآلهة الواجبون وكانوا على الأقل إلهين اثنين أى واجبين فإما أن يحتاج كل منهما أو أحدهما إلى الآخر فى إيجاد العالم فلا يكون أى منهما أو أحدهما المحتاج إلها ، وإما أن يستغنى كل منهما أو أحدهما عن الآخر فى إيجاد العالم

فلا يكون المستغنىُ عنه واجبَ الوجود . وكلا الاحتمالين يؤدى إلى خلاف المفروض أى التناقض المحال .

والشيخ المتحدى أراد إثبات الوحدانية بدليلها المعروف المسمى « برهان التمانع » فلم يأت بالصورة الصحيحة له التى لاتقبل النقض ، ونحن نذكرها إن شاء الله فى محله من هذا الكتاب ، وليكتف القارئُ هنا بما ذكرنا .

* * *

وانظر ما قاله معالى هيكل باشا فى مقدمة كتابه « حياة محمد » بعد الكلام عن الطاعنين فى الإسلام من كتاب الغرب المتعصبين ، يدلك على أن الشيخ محمد عبده ما نجح فى الدفاع عن الإسلام لعدم سلوكه الطريقة العلمية فيه ، ولكونه متهماً بالكفر والإلحاد والزندقة . ومع هاتين الوصمتين اللتين ألصق به إحداها على الأقل معالى هيكل باشا ، لم ينصرف عنه الشبان المتعلمون الذين ذكر معاليه انصرافهم عن الأديان وهذا قول الباشا بنصه :

« ولقد قام بعض علماء المسلمين بمصر فى ظروف مختلفة فحاولوا إدحاض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب ، واسم الشيخ محمد عبده من أنصع الأسماء فى هذا الصدد ، لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التى زعم أولئك الكتاب والمؤرخون الأوروبيون أنهم يسلكونها لتكون لحجتهم قوتها فى وجه خصومهم . ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم قد اتُّهموا بالإلحاد والكفر والزندقة، فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام . ولقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر فى نفوس شباب المسلمين المتعلمين . »

وفيه أن الحجة إن كانت قوية فلا يضعفها كون المستند إليها متهماً بعيب فى نفسه، لاسيما إذا كان ذلك عيباً فى نظر المسلمين يبعد أصحاب الحجة عن محاباتهم . ومن المعروف أن العبرة بالقول لا بالقائل ، حتى ان معاليه الحاكى لحالة المتهمين والمتهمين

وشباب المسلمين المتعلمين المذكورين فى الحكاية ، عابوا المتهمين وأكبروا المتّهمين نظراً إلى قوله بعده :

« شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق فى نظر جماعة من علماء المسلمين وأن الإلحاد عنــدهم قرين الاجتهاد كما أن الإيمان قرين الجمود » فلا نظام منطقياً بين كون الاتهام المذكور أضعف من حجة العلمــاء المتهَمين أمام خصوم الإسلام وبين كونه أعلى منزلتهم عنــد المتعلمين من شباب المسلمين، حتى انصرفوا بسبب ذلك الاتهام الممقوت من الأديان كما ـ سيذكره أيضاً ـ ولم ينصرفوا من العلماء المتّهَمين .

وفى الحقيقة ماذا يمكن أن يكون سبب اشتهار الشيخ من بين علماء مصر واستحقاقه لدوام الصحف والمجلات فى الإشادة باسمه ، هل هو عدم سلوكه الطريقة العلمية كغيره فى الدفاع عن الدين وعدم نجاحه فيه لهذا السبب، كماذكره هيكل باشا أو كونه متّهماً فى دينه ؟ والأول غير معقول جداً أن يكون سبباً لاشتهار أحد من العلماء وامتيازه على غيره ، فتعين الثانى .

ولا تقل غير معقول أيضا أن يكون اتهام الرجل فى دينه مزية له ومنقبة أدت إلى ارتفاع درجته عند الناس ، إذ لا يستبعد كونه مزية له عند الذين يعدون هذه التهمة حرية وعبقرية ، وهم المتغلبون فى زماننا . وقد قال فضيلة الأستاذ المراغى شيخ الجامع الأزهر فى خطبة ألقاها بمناسبة الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده يوم ١١ يونيــه سنة ١٩٤١ نقلا عن الإمام الغزالى : « استصغر كل من بالـكفر لا يعرف وبالضلال لا يوصف » وكان هذا القول من الشيخ الخطيب بعد كلام عن الاتهام المعروف الموجه نحو الشيخ المحتفل بذكراه . لـكن صيغة القول المذكور ، كائنا من كان قائله سيئة جدا ، بحيث ان الإمام الغزالى ان كان قال هذا القول الذى يحث العلماء على الـكفر والضلال والناسَ على اتباع المشهورين منهم بهما ، كان أحق العلماء عنده بالإكبار ،

أكفرهم وأضلهم فى نفس الأمر ، فلابد أن يكون هو أى الإمام الغزالى أيضا متهما فى دينه أو عقله ، وإلا فعقل المسلم السليم لا يقبل أن يكون مجرد الاتهام بالكفر والضلال رمزاً للعظمة فى علم الدين. نعم يحتمل كون الشيخ محمد عبده أعلم معاصريه وأنجحهم فى الدفاع عن الدين فيحسدوه عليه ويختلقوا له تهمة الكفر والزندقة، لكن الشيخ الخطيب مدح بالقول الذى نقله عن الغزالى «الاتهام» مطلقا حقا أو باطلا . وقد صرّح هيكل باشا بعدم نجاح محمد عبده فى الدفاع عن الإسلام لعدم سلوكه الطريقة العلمية فى دفاعه ، فلا وجه لكون معاصريه من العلماء يحسدونه .

ثم إنه يجب التنبيه هنا على أن الطريقة العلمية التى عاب الدكتور هيكل باشا على الشيخ محمد عبده وغيره أنهم لم يسلكوها ، يلزم أن تكون الطريقة العلمية التى فضلها الأستاذ فريد وجدى بك فيما نقلناه سابقا من كلامه، على الطريقة المنطقية: فيفهم أن الشيخ وأصحابه أغفلوا هذه الطريقة التى يسميها المصريون الطريقة العلمية ، وسلكوا الطريقة المنطقية فاعتبر هذا ذنبا عليهم! فانظروا أى مبلغ بلغت عقلية الكتاب المسلمين العصريين ؟ فيحتاج المنطق نفسه فى نظرهم إلى الدفاع عنه ، قبل الدفاع عن الدين ، ويظهر أن ذنب الشيخ محمد عبده الحقيقى ومن معه عدم دفاعهم أولا عن حقوق المنطق إزاء الخصوم الغربيين المتمسكين بالعلم من غير خضوع للمنطق ، وإزاء مقلديهم من المسلمين الذين ينصرفون عن المنطق عندما رأوا الغرب ينصرف عنه . فالشيخ محمد عبده لم يقدر موقفه فى الدفاع عن الإسلام مع موقف خصومه الذين يناقشهم والسامعين الملتحقين بالخصوم ، حق قدرها . فهو أى الشيخ وأضرابه الذين نص الدكتور هيكل باشا على عدم نجاحهم فى دفاعهم عن الإسلام لعدم سلوكهم الطريقة العلمية ، اما لم يفطنوا لكون خصوم الإسلام ، بل خصوم الأديان جميعا الناجين فى الغرب والمتشبثين بأذيالهم من الشرقيين، يصوبون حملاتهم على الأسس العلمية التى يستند إليها العلماء المدافعون عن الدين، فلا يقيمون الأدلة العقلية المنطقية التى هى أفضل ما عند العلماء

وأقصى مايرغبون فيه ، وزنا ولا يعتبرون الأدلة العقلية أدلة علمية، ويسمون المنطق الذى نعتبره رمزا لقوة الدليل وقطعيته، منطقا تجريديا أو صوريا ، وإنما الدليل العلمى عندهم مايكون مستندا إلى الحس والتجربة، والمنطق الموثوق به فى نظرهم هو المنطق الاستقرائى، فكأن المنطق الاستقرائى يناوئ المنطق التجريدى ويزاحمه، وكأنما الجديد منهما نسخ القديم وقضى على قيمته العلمية . على أنا لا نرى فى أقوال المدعين العصريين مسحة من المنطق قديمه وحديثه .

فالشيخ محمد عبده ومن معه إما لم يفطنوا لِمَحال الضعف فى دفاعهم عن الدين عند الخصوم . أو فطنوا لها ولم يقدروا على مجابهة الخصوم بإثبات القوة لما يستضعفونه وتبيين الخطأ فيما يدعونه ويتمسكون به من الانقلاب فى نظام الاستدلال ، كما نفعله نحن إن شاء الله . فقد تولينا مستعينا بتوفيقه احياء ماحاول الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى بك ومن على عقليتهما من إماتة العلم القديم المبنى على الأدلة العقلية المنطقية والذى اعتمد عليه علماء الإسلام المتكلمون قرونا طويلة فى إثبات الدين المبنى أساسه على وجود رب العالمين، وحرسوا المسلمين على طول تلك القرون من الوقوع فى هاوية الإلحاد السائد اليوم بين المتعلمين العصريين القاصرين اعتمادهم على العلم الحديث المبنى على شهادة الحس والتجربة والحائرين فى وجود كل مالا يدخل فى متناول الحواس والتجارب كوجود الله ، مع العلم الحائر فيه الذي قال عنه الدكتور هيكل باشا «لايثبت ولا ينفى » فإن قالوا بوجود الله كان قولا غير علمى .

فنحن نخرق هذه العقلية المظلمة فى هذا الكتاب إن شاء الله، وندافع عن حقوق العلم القديم المستند إلى العقل والمنطق أمام العلم الحديث المباهى باستناده إلى الحس والتجربة . ولعل الشيخ محمد عبده لم يقم بهذا الواجب لعدم كونه تام الإيمان بالعلم القديم كما يدل عليه إنكاره لبطلان التسلسل بتهور لا مثيل له، مع أن إبطال التسلسل له موقف خطير فى مسألة إثبات وجود الله ، وسيجئ بحثه .

والمقصود هنا التنبيه على موقف الشيخ محمد عبده الأستاذ الإمام لمصر الحديثة ، موقفه العجيب المرتبك ارتباكا شديداً يصيب رأسَ الناقد البصير منه الدوار : يدافع عن الإسلام طائفة من العلماء ، يقول معالى هيكل باشا اسم الشيخ محمد عبده أنصع الأسماء بهذا الصدد ، ثم يقول ما خلاصته أنهم لم ينجحوا فى دفاعهم لعدم سلوكهم الطريقة العلمية وأنهم والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم قد اتُّهموا بالإلحاد والكفر والزندقة، فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام .

ويدافع الشيخ أيضاً عن الإسلام عند ما جرت مناظرة بينه وبين منشئ مجلة «الجامعة» الأستاذ فرح فيقول فيها الشيخ إن الإسلام دين العقل ، ويدعى خصمه أن جميع الأديان لاتتفق مع العقل والعلم فينفق ادعاؤه فى سوق الثقافة المصرية بمصر وينتشر الإلحاد والاجتهاد فى تهيئة الأذهان لقبوله إن لم يكن جهاراً فدساً فى المقالات المنشورة فى الصحف كما سنذكره فى أحد الأرقام الآتية نقلا عن الأستاذ فريد وجدى بك ومعزواً إلى نوابغ الشرق الإسلامى المستبطنين للإلحاد ، تيقناً منهم بأنه مصير أخوانهم كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية ... ينفق رأى الأستاذ خصم الشيخ فى سوق الثقافة ولا يُسمَع قول الشيخ بأن الإسلام دين العقل ، بل الشيخ نفسه يخالف العقل فينكر بطلان التسلسل ، مع أن وجود الله الذى هو رأس الدين يتوقف إثباته بدليله العقلى على إبطال التسلسل كما سنذكره فى محله من هذا الكتاب . فإن كان العقل يقبل التسلسل ولا يقبل بطلانَه كما هو رأى الشيخ فلا يقبل العقل وجود الله لتوقف إثباته على إبطال التسلسل الذى لا يمكن إبطاله . وإن كان العقل لا يقبل التسلسل لزم أن لايقبل عقلُ الشيخ الذى يقبل التسلسل ولا يقبل بطلانه ، وجودَ الله . ثم إن الشيخ الذى قال معالى هيكل باشا إنه متهم بالإلحاد والكفر والذى لا يأتلف عقله مع العقل الدينى المبطل للتسلسل ، لا يعترف بكثير من المغيبات عن الحواس كالملائكة والشيطان والمعجزات التى نصت الكتب المقدسة على أنها ظهرت للناس فى عهد الأنبياء ولكنها

لايظهر مثلها للناس فى هذا الزمان . فكأنه أى الشيخ يتفق مع خصمه فى المناظرة ويخالف نصوص الكتب المقدسة ويكون له إصبع فى سفور المسلمات ، وهو القائل بأن وجود شىء فى القرآن لايقتضى صحته ، كما نقلوا عنه هذا القول عند حدوث فتنة القصص الفنى فى القرآن بمصر ، وسنوفى بحثها فى أحد الأرقام الآتية .

فما هى حقيقة موقف الشيخ من الدين الذى يدافع عنه ثم لا يقبل كثيراً من نصوصه، ويخرج على صراحة الكتاب فى احتجاب النساء ، ويكون دفاعه عن الدين غير ناجح لعدم سلوكه الطريقة العلمية قديمها وحديثها ؟ أما حديثها فهو مراد هيكل باشا فى قوله بأن الشيخ وزملاءه من العلماء المدافعين عن الإسلام لم يسلكوا الطريقة العلمية ، وأما قديمها فقد علمت وستعلم أنه يجيز التسلسل فى العلل ويرى ما قيل أو يقال فى إبطاله للتوصل إلى إثبات وجود الله ، أوهاما وخيالات كاذبة . وينحرف فى تعريف النبي والرسول عن طريقة العلماء المتكلمين فيأتى بتعريف غير معروف ينطبق على العظماء المصلحين من الناس غير الأنبياء والمرسلين الحقيقيين . وسيأتى تفصيل هذا البحث أيضا .

فماهى إذن حقيقة موقف الشيخ من الدين؟ هل هو صديقه الساهر أوعدوه الماكر؟ وماذا سر إصرار الأقلام العصرية على إكباره وإعلاء منزلته بين العلماء مع عجزه عن إثبات وجودالله وإثبات وحدانيته ، رغم تبجحه بأنه المثبت الوحيد ، وتمرده على كثير من نصوص الدين وعدم نجاحه عند دفاعه عنه إلى حد اتباع المثقفين رأى خصمه فى النقاش والمناظرة ؟ فهل هو يناقش ويناضل أعداء الدين ليغلبوه ويكون هو من الخاسرين مع الدين ؟ أجل ، إنه فاز فى إحدى محارباته فقط وهى محاربته لشيوخ الأزهر القدماء فأسقطهم من عيون الناس[1] وفوزه هذا أيضاً جدير بأن يعد من غلبات خصمه

[١] كنت أردت عند قولى عن محيط القاتم باستانبول فى كلمة خاطبت بها روح والدى وكتبتها فى أول الكتاب : « انه كان أفضل من الأزهر الحاضر » ... أن أضع هامشا لذلك =

الأستاذ فرح أنطون على الشيخ ، حيث عاب الإسلام بعدم فصل الدين عن السياسة الذى أدى إلى تقدم الغربيين وعدمُه فى الإسلام إلى تأخر المسلمين. وكان جواب الشيخ عليه عبارة عن حمل تبعة هذا النقص فى الإسلام على علماء الدين الذين يتهمهم بالجمود، ويعنى بهذا الحمل والاتهام انه من أنصار فصل الدين عن السياسة أى الدولة، رغم انه مضاد للإسلام الذى يعلو ولا يعلى عليه، وفصله عن السياسة إدخاله تحت حماية السياسة ورحمتها كما سنفصله فى محله من الكتاب . فالشيخ يغلب علماء الأزهر والأستاذ فرح أنطون يغلب الشيخ ، فلعله وصديقه أو شيخه جمال الدين أرادا أن يلعبا فى الإسلام دور لوتر وكلفين زعيمى البروتستانت فى المسيحية فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين ، وإنما اقتصر تأثير سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنّع بالنهوض والتجديد . وكان مؤسسو البروتستانت لم يريدوا هدم المسيحية ، وإنما أرادوا هدم اللاعبين الأولين بها ، وقد أعانهم كون المنابع الأصلية للدين المسيحى لم يُحتفظ بها سليمة كما احتُفظ بها فى الإسلام ، فأراد المتزعمان للتجديد فيه أن يضعا أئمة الفقه المجتهدين مثل الإمام أبى حنيفة واخوانه فى درجة الاجتهاد رضى الله عنهم وحاشاهم ، موضع اللاعبين الأولين فى الإسلام وتشجعا لفتح الباب إلى هدم ما قاموا به[1] كما

= القول الخاص بما قبل عهد الكماليين، ثم رأيت إرجاءه وكان نص الهامش هكذا: يدل على رجحان استانبول بعلماء دينها الراسخين فى مبادئهم العلمية أمران : الأول أن الشيخ جمال الدين الأفغانى لم يستطع أن يسحرهم برسالته التى أنجحها فى مصر فخرج من بين علمائها من يشد ازره ويشترك فى أمره ثم يلعب دورا هاما فى هدم الأزهر بزحزحته عن نهجه القديم القويم . والأمر الثانى: ان وباء الماسونية لم يجد بيئة صالحة للانتشار بين رجال الدين فى الآستانة كما وجدها بين أقطاب الأزهر . وهذا على الرغم من أن مصر كانت فى الماضى البعيد مركزا كبيرا للعلوم الإسلامية قبل دخول الإسلام فى استانبول .

[١] وفى تصريح رجلين من تلامذة محمد عبده ومن أقطاب الأزهر الأستاذ الأكبر المراغى بمناسبة مناقشة الرسائل التى قدمها لأول مرة المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة =

هدم لوثر ومساعده الكثلكة والأرتودوكس فأسسا البروتستانت ولكن خان القياس للشيخين أيّ خيانة ، فأبان ما فى محاولتهما من الجناية .

نعود إلى أسباب سيادة الزيغ فى عقليات المتعلمين : ومن ناحية أخرى فإن كون كتب الفلسفة المهمة المؤلفة فى الشرق والغرب غير سهلة الدرس والمطالعة وكون الاهتمام بتدقيق المسائل وقتلها بحثاً ، غير معتاد بين الأوساط العلمية بمصر سبّبا شيوعَ الإلحاد فيها .

وقد كان لإهراع أبناء أعيان البلاد وبناتهم إلى الغرب وكل من استطاع إليه سبيلا من الناشئين ليرووا غلتهم من مناهله ، من غير اكتراث بالمحافظة على كيانهم الإسلامى ، أثرٌ أيضاً فى تكون الجو اللاديني بمصر ، لكن فكرة الإلحاد ما راجت فى الغرب رواجها اليوم فى مصر وأن دور رواجها فى الغرب عقّب الثورة الفرنسية وبلغ غايته فى القرن الثامن عشر [١] ثم لم يلبث أن ثابت العقول إلى رشدها وخمدت سورة الماديين المنكرين للإله الخالق ، وإن كانت مصر الحديثة المخيرة تزعم كتركيا الحديثة المسيّرة أن الغرب باق على عهده الذى ساد فيه اعتقاد أن الكون بجميع أجزائه تابع لقوانينه الطبيعية التى لا يمكن تغييرها ، وما نرى فيه من النظام مصادفة

= الأستاذية فى الشريعة ، والأستاذ عبد المجيد سليم المفتى الأكبر سابقا ، بمناسبة كونه وكيل لجنة التقريب بين المذاهب لاحقا .. فى تصريح الأول بعدم عد علم الفقه من الدين — وسيجيء تفصيله فى الباب الرابع من هذا الكتاب — وتصريح الثانى بأن مذاهب الأئمة المجتهدين مبنية على السياسة ، تأييد ظاهر لما قلنا .

[١] ومع هذا فلم يؤلف فى أى قرن ما ألف فى ذلك القرن من الكتب الكثيرة فى إثبات وجود الله على ماذكره الفيلسوف الفرنسى « پول ژانه » مؤلف « المطالب والمذاهب » فى تاريخ الفلسفة ، حتى قال انه أجدر بأن يسمى عصر العقلية الإلهية « ده تيزم » من أن يسمى عصر الإلحاد « آته تيزم » .

مجردة عن تدبير مدبر وإرادة مريد . فلا إله ولا فعل له فى الـكون ولا نبوة ولا معجزة ولا الحياة الأخرى بعد الموت بل ولا الحياة الدنيا ولا الروح، والإنسان آلة ميكانيكية وجسم متحرك من غير إرادة لا فرق بينه وبين الأجسام المتحركة[1] . وقد كان أحد

[١] قال المادى المعروف « بوخنر » فى خلاصة الفصل الثالث والعشرين من كتابه « الطاقة والقوة » : « حتى ان المتفكر المشهور « شوبنهاور » لم يتخلص ـ تحت تأثير أفكاره الفلسفية الباطلة ـ من فكرة القوة الحيوية وعد المعترض عليهـا من الحمق » ثم قال « بوخنر » : « وهى يعنى فـكرة القوة الحيوية ـ كما قال « ويرشو » ليست بخطأ فقط بل فـكرة باطلة كالشيطان والاكسير » .

ثم قال « بوخنر » : « إن الحياة غير تابعة لأى قانون استثنائى وإنما هى محصلة الفعل المشترك للقوى الطبيعية والـكيميائية أو مثال آخر للحركات الميكانيكية وهيأة مجموعة لها مختلطة معقدة ـ بحد غير معلوم ـ يقتضى إيضاحها بقوانين الطبيعة المادية المعلومة . ومن لم يفهم الحياة إلا بفرض قوة حيوية فقد استدل بصورة غير معقولة كما حاول إيضاح حركة ساعة بقوة خصوصية للساعة بدلا من إيضاحها ببنيتها الميكانيكية . فـكما أن حركة الساعة محصلة الحركات المرتبة المنتظمة للمواد اللازمة المنتظمة والقوى المتصادفة بعضها مع بعض ، فـكذلك الحياة ليست بقوة بل محصلة حركات أو حركة لأقسام مجتمعة معينة » .

ثم قال : « والحادثات الطبيعية فى داخل الجسم ذى الحياة تقع مثل الحادثات الـكيميائية . وحركة الدم ميكانيكية خالصة والجهاز الذى يحصلها مشابه من كل وجه الماكينة المصنوعة بيد الإنسان » ثم قال : « إلا أنه يجب أن يعترف بأن جميع الحادثات الواقعة فى العضو ذى الحياة إن لم يوضح بالقوانين الطبيعية والكيميائية وصودف المعمى فى المعمى فليس ذلك بناشئ من طبيعة الأشياء بل من نقصان علومنا ، وذلك النقصان يقل كل يوم برقى العلوم . وهـذا يظل يجعلنا قادرين على إرجاع الحادثات الحيوية يوما عن يوم إلى القوانين الطبيعية » .

أقول وهـذا تسويف لاينقضى أمده . وكان اللائق بصاحب العلم الواقعى أن يقتدر حالا على إرجاع الحياة إلى القوانين الطبيعية والكيميائية ، بل على إيجاد ذى الحياة توفيقا لتلك القوانين ، ثم يقول نحن قادرون .. ونحن نجتزئ بنقل أقوال « بوخنر » الدالة على حماقته كما نقل هو نفسه عن « شوبنهاور » وإنما نعلق كلمة قصيرة على قوله : « فالجهاز الذى يحصل القوى الحيوية يشابه من كل وجه الماكينة المصنوعة بيد الإنسان » فنقول : ومن هو صانع هذا الجهاز؟ فهل هو إنسان أيضا؟ . وكلمة على قوله : « إن حركة الساعة محصلة الحركات المرتبة المنتظمة للمواد اللازمة والقوة =

الغربيين المضلين ألف فى عصر الإلحاد كتاباً سماه « هوم ماشين » يعنى الإنسان الذى هو ما كينة . فراج فى سوق الضلالة . ومع ذلك كله كان العالم الشهير « مونتسكيو » رد فى ذلك الحين على هؤلاء الملحدين قائلا : « ما أبعد أن تكون قدرة عمياء خلقت ذوى العقول! » ورد كثيرون آخرون لاسيما فى العصر الأخير ومنهم الحكيم المشهور « جوستاف لوبون » وإن لم يكن من الحكماء الإلهيين، حيث قال فى كتابه « الأفكار والعقائد » : « العلم الذى أفلت من يوم إلى يوم من العقيدة فهو خليط بها وتابع لها فى جميع الأمور التى لم يعرفها الإنسان حق المعرفة كأسرار الحياة[١] ومنشأ الأنواع[٢] والنظريات المتبهمة فيها لاقيمة لها غير سمة الأساتذة الذين قرروا نظرياتهم فى شكل الدساتير . »

وهناك غلطة فظيعة وجمجمة مثارة حول الذين يسمون الإثباتيين . ويبتدئ الغلط من تسميتهم أصحاب الفلسفة المثبتة بادعاء أنهم يبنون العلم على ماثبت من طريق الحواس والتجربة فينكرون كل ماثبت من غير طريقها ويخرجونه من دائرة العلم . وهم الذين كانوا عاملين فى زيغ فرنسا إلى الحكومة اللادينية «لائيك» وزيغ الشرقيين الذين اتخذوا فرنسا قدوة لهم[٣] فهم أعنى الإثباتيين مع حلفائهم الماديين أصبحوا أئمة

= المتصادفة بعضها مع بعض . » فنقول إن كان هناك ترتيب وانتظام فلا تصادف، ثم من المرتب والناظم ؟ وإن كان تصادف فلا ترتيب ! وهل سمعتم ساعة مصنوعة بالمصادفة ؟

هذا ، والمقصود هنا بيان أن الملاحدة ينفون الحياة والروح ويتحملون تبعة إنكار البديهيات لحاجة فى نفوسهم قضوها على زعمهم ، وهى عدم اللجوء إلى الاعتراف بوجود الله خالق الحياة والروح .

[١] تعريض لإنكار غلاة الماديين القوة الحيوية والروح كما نقلنا قريبا عن « بوخنر » .

[٢] تعريض لمذهب « دارون » النافق عند مثقفى مصر وسائر بلاد العرب لحد أن من علماء الدين من تأهب لتأويل آيات القرآن التى لاتأتلف وهذا المذهب إزاء كل احتمال .

[٣] الفلسفة الإثباتية أو الفلسفة المثبتة يسميها أصحاب الثقافة العصرية بمصر : « الفلسفة =

الكفر يأثم بهم من سفه نفسه وكفر بدينه من مثقفة الشرق أنصاف العلماء ، وقد قال « باكون » إمام المذهب التجربى ما معناه : « إن قليل العلم يبعد صاحبه عن الله وكثيره يرجعه إليه . »

= الوضعية » والتسمية الأولى لمثقفين الترك وهى أحسن ، وإن كان بوزيتيويزم الذى هو الاسم الأصلى الفرنسى لتلك الفلسفة تحتمل كلتا الترجمتين . لأن الترجمة التركية تتضمن معنى مادحا لتلك الفلسفة وتكون أوفق بمقصود صاحبها الفرنسى الذى أسسها وسماها بذلك ، فى حين أن الفلسفة الوضعية لاتتضمن معنى خصوصيا تمتاز به هـذه الفلسفة ويوفى زعم صاحبها ، إذ لابد أن يكون كل مذهب فلسفى وضعيا أى موضوع شخص أو طائفة من الفلاسفة .

وهذه الفلسفة الإثباتية ــ أو الوضعية على التعبير المصرى ــ لم تخل أقوال الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى بك المنقولة فى كتابنا هذا ، عن التنويه بها ! حتى ان الأستاذ فريد قال فى الجزء الثالث من المجلد السادس عشر من مجلة الأزهر ص ٩٩ عنها : « انها أدق وأصدق من جميع الفلسفات العصرية فى أصولها الأولية » !..

جاءت مدرسة الفلسفة الإثباتية فادعت للروح الإنسانية حالات وأطوارا ثلاثا ! الحالة الإلهية والحالة وراء الطبيعة والحالة الإثباتية أو العلمية . فالحالتان الأوليان عرضيتان زائلتان والحالة الأخيرة هى الحالة الكمالية والحالة الحدية (مقابل « العرضية ») فالإنسان فى حالته هـذه يترك مسائل المبدأ والمعاد ويتفرغ لمشاهدة الحادثات وما بينهما من النسب الثابتة . فيجب على رأى « اوجوست كونت » مؤسس هذه الفلسفة أن ينحى الدين والصبغة الدينية عن العلم . وقد أطاع هذا القانون مؤلفو الشرق العصريون حيث أخلوا مطالع كتبهم عن التبرك باسم الله وبحمده .

ومع ذلك مالبث زعيم الإثباتيين أن وضع دينا جديدا تثليثيا قال : « أقانيمه الموجود الأعظم وهو الإنسان ، والوثن الأعظم وهو الأرض ، والمحيط الأعظم وهو الفضاء المحيط بالأرض . فالوثن الأعظم ضحى بنفسه فعرضها للتقلب والمذلة ليكون منشأ للوجود الأعظم ، فنحن مدينون له بالعبادة شكراً ، لكن ممثل الكمال الأعلى هو الإنسان فهو الحقيق لأن يتخذ معبوداً ، بل الإنسان أفضل من الله وأجدر بالعبادة لكونه مستفيدا من محبتنا ومحتاجا إلى خدمتنا ، ولأنه لايمحنا بوعد المكافأة على الملاحظات الكسبية ، ولا سيا المرأة فى الجدارة بالعبادة لكونها محلا لتحقيق أمانى الصداقة والعشق وهى رمز البشرية ، فالأم تمثل الماضى والمرأة ــ يعنى الزوجة ــ تمثل الحال والبنت تمثل الاستقبال . » وفى هذا الدين ٨٤ عيداً فى السنة للاحتفال بالمرأة و ٩ مراسم التقديس .

وهذا الدين اشتهر بدين الأشراف . وعندى أن الأنسب تسميته بدين المشاق والفساق . قال

وكلمة « باكون » هذه ربما يستشهد بها غيرى على الموضوع نفسه ، وفعلاأعرف الأستاذ فريد وجدى بك استشهد بها فى بعض أعداد « مجلة الأزهر » كما أنه يستشهد فى كل عدد من أعداد تلك المجلة بكلمات فلاسفة آخرين غربيين يؤمنون بالله ، ولكن شواهده لاتؤثر فى تصحيح عقلية المستشهد المربوطة بالعلم الحديث ، بله عقليات قارئيه المنصرفين عن الدين، لأنه لايزال يعتقد عدم إمكان المعجزات والخوارق المخالفةلقوانين

= « بول ژانه » : « إن (اوجوست كونت) سواء كان الدين الذى وضعه جافا أو فلسفيا قليلا فهو حسبه ناقضا نقضا تاما لقانون الحالات الثلاث الذى اتخذه أساسا لدينه وفلسفته والذى اعتبر الانكشافات الدينية فى الإنسان الحالة الأولى الابتدائية . »

وفى التزامه التثليث دليل على أن فلاسفة الغرب حتى ملاحدتهم لايزالون يحومون حول النصرانية وللفيلسوف « اسبنسر » أيضا حملات على هذا الدين كما أن « لها كسلهى » رداً على نظرية الحالات الثلاث . ولما التحق العلامة « باستور » بالأكاديمية الفرنسية وألقى خطبته التى تتضمن الثناء على سلفه « ليتره » ـ كما هو المعتاد ـ وكان أكبر تلامذة « أوجوست كونت » نبه على الخلاف بينه وبين سلفه فى الأفكار الفلسفية فعاب على مذهب الفلسفة المثبتة عدم مراعاته لملومة اللامتناهى التى هى أهم المعلومات المثبتة ، وأراد بمعلومة اللامتناهى معلومة وجود الله . ثم إن تعليل رجحان الإنسان على الله عند الإثباتيين فى استحقاق العبادة ، باستفادته من محبتنا واحتياجه إلى خدمتنا ، غاية فى السخافة .

بقى أن صديقى العالم الكبير مترجم كتاب « بول ژانه » « المطالب والمذاهب » إلى اللغة التركية ذكر بمناسبة الدين الذى وضعه « اوجوست كونت » أموراً تلفت النظر ، منها أن اعتراض العصريين على ممنوعية التصوير فى الإسلام بدعوى انه لا احتمال للإنسان من بعد فى الرجوع إلى عصر عبادة الأوثان ، ينتقض باتخاذ المرأة معبودة فى دين الإثباتيين الموضوع فى عصر الرقى الغربى .

ومنها أن العاقل إذا نظر فى الدين الذى وضعه فيلسوف كبير فرنسى وقارن بينه وبين الدين الذى أتى به من عند الله نبى أمى قبل ثلاثة عشر قرنا يندهش من الفرق الباهر بين الدين الحقيق المنزل من عند الله وبين الدين الصناعى ولو كان مصنوعا فى عصر العلوم .

ومنها أن كتب تاريخ الأديان التى ألفها علماء الغرب يعتبرون الوثنية « فتيشيزم » أصلا والتوحيد تطورا وتكاملالها ، لكن دين الإثباتيين « بوزيتويزم » يرى عكس ذلك ويثبت أن الوثنية تحدث بازدياد الشهوات بعد أن كان الأصل هو التوحيد .

العلم الطبيعى ، ولهذا يصعب عليـه تصوير مسألة النبوة فيذهب لتقريبها من المقول مذاهب بعيدة ، وخصيصاً يعتقد الدستور العلمى القائل « كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به » حقا !. فـكيف يعترف إذن بوجود الله قبل أن رآه بعينه ؟ كما قاله الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة «الجامعة» فى مناظرته الشيخ محمد عبده ، وعلى الأقل كيف يعترف به علمياً ؟ والعلم حائر فيـه لايثبته ولا ينفيه لعدم قابليته لأن يكون موضوع التجربة . وكيف يجمع بين ذلك الدستور العلمى وبين هذا الاعتراف ؟

لـكنى عند ما أستشهد بقول « باكون » لا أفعله جزياً على عادة الاستشهاد بأقوال علماء الغرب ، كما أنى قبل الاطلاع على قوله أعرف بعقلى الذى أعطانيه الله أنه لا يصح قولهم : « كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به » على إطلاقه ولا يمكنه أن يصح . وعند ما أستشهد بقول « باكون » أقف عليه وأستوقف القارئ فأقول : هذا إمام العلم التجربى كيف يقول هـذا القول الناصّ على اعترافه بوجود الله لو صح أن العلم لا يعترف به ؟ حتى انه يبنى اعترافه على اعتراف العـلم ، انظر قوله فى شطره الثانى : « كثير العلم يوصل صاحبه إلى الله ! » مع أن أساتذتنا العصريين إن تفضلوا فقادونا إلى الإيمان بالله قادونا مهربين عن العلم حذرين ، فما قولك فيهم ؟ ألا ينطبق عليهم الشطر الأول من كلام « باكون » أعنى أليس هذا من نقصان العلم ؟

ولى تعليقة أو بالأصح وقفة على قول « باستور » العظيم أيضا الذى استشهدت به فى الهامش السابق ، تأتى فى محلها من الـكتاب إن شاء الله تعالى . وهـذا الأستاذ فرح أنطون مناظر الشيخ محمد عبده على الرغم من تصريحه بأنه مسيحى صميم ، يظهر من قوله المار النقل أنه من الذين يؤمنون بالعلم ويزعمون أن الإيمان بالعلم يجافى الإيمان بالله ورسله ، وبالاختصار من الذين يبيعون بضائع الغرب القديمة الفاسدة بأثمان باهظة فى الشرق .

٤

وإن أردت زيادة الوقوف على مبلغ اعتلال العقلية فى أساتذتنا المصريين واختلالها وابتعادها عن الحق إزاء الدين والعلم وعلماء الدين ، فانظر قول معالى هيكل باشا فى مقدمة كتابه « حياة محمد » وقد كنا نقلنا رأيه فى دفاع الشيخ محمد عبده وغيره من العلماء عن الإسلام وهو أنه ما كان دفاعاً دافعاً نافعاً لعدم سلوكهم الطريقة العلمية ولأنهم اتُّهموا بالكفر والإلحاد والزندقة فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام ؛ ونقلنا قوله أيضاً بعده : « ولقد كان اتهامهم هـذا عميق الأثر فى نفوس شباب المسلمين المتعلمين ... » ثم قال :

« شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق فى نظر جماعة من علماء المسلمين ، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد كما أن الإيمان قرين الجمود . لذلك جزعت نفوسهم وانصرفوا يقرأون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة اقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين ، وهم لم يفكروا فى كتب المسيحية والتاريخ المسيحى بطبيعة الحال ، إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة يتلمسون فى أسلوبها العلمى رى ما فى نفوسهم من ظمأ محرق للحق ، وفى منطقها ضياء للجذوة المقدسة الكمينة فى النفس الإنسانية ووسيلة للاتصال بالكون وحقيقته العليا . وهم واجدون فى كتب الغرب سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب الفلسفى وكتب الأدب نفسه الشىء الكثير مما يغرى الإنسان بالأخذ به لروعة أسلوبها وقوة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق. لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها ، حرصا منهم على أن لا تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية .

« انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية

وصاحبها ، وزادهم انصرافا مارأوا العلم الواقعي والفلسفة الواقعية «الوضعية» يقررانه من أن المسائل الدينية لاتخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى وأن مايتصل بها من صور التفكير التجريدى ليس هو أيضا من الطريقة العلمية فى شيء . ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحا صريحا فى البلاد الغربية ورأوا البلاد التى تقرر دساتيره أن ملكها هو حامى البروتستنية أو الكثلكة أو تقرر أن دين الدولة الرسمى المسيحية ، لاتقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمراسم ومايتصل بها ؛ فأرادوا انخراطا فى هذا التفكير العلمى وحرصا على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب . »

فأنت ترى معاليه ينتقد كلا الفريقين من العلماء الجامدين والذين ذابوا فى بوتقة التجديد حتى اتُّهموا بالكفر والزندقة والإلحاد ، وكان انتقاده العلماء الجامدين أشد من انتقاده العلماء المتهَمين بالزندقة والإلحاد ، بل ومن انتقاده للشبان المتعلمين المنصرفين عن الدين الذين بينما يأسف لحالهم إذا به يسرد أعذارا عنهم ويروّجها من عنده ثم يحمل أوزارهم — إن كان لهم ذلك — على العلماء الجامدين المتهِمين للعلماء المجددين ، متهما أولئك المتهمين بأنهم اعتبروا حكم العقل ونظام المنطق زندقة والجمود إيمانا ، ولهذا اختار الشبان المتعلمون الزندقة التى تتفق مع حكم العقل ونظام المنطق ، ونبذوا الإيمان مع الجمود.

ولم يكن معاليه منصفا فى اتهام العلماء بمناوأة حكم العقل ونظام المنطق ، لأنى لاأعرف عالما من علماء الدين بعد تأسس علم الكلام فى الإسلام يستهين بالعقل والمنطق ، بل الأساتذة المصريون أنفسهم هم الذين يستهينون بهما ولايعدون طريقتهما طريقة علمية . ومعاليه نفسه عند ماعاب على الشيخ محمد عبده وزملائه المدافعين عن الإسلام بأنهم لم يسلكوا فى دفاعهم الطريقة العلمية ، إنما عاب عليهم سلوكهم الطريقة القديمة المنطقية التى حكم أولا بأن علماء الإسلام أفنوا فيها قرونا طويلة ، كما أن الأستاذ فريد وجدى تمدّح بأنه سلك الطريقة العلمية فى إثبات إمكان النبوة ولم يسلك الطريقة المنطقية . أما حكم العقل فعلماؤنا يتمسكون فى إثبات وجود الله بالدليل العقلى والأساتذة العصريون لا يعدون الدليل

العقلى دليلا علميا ! وسيرانى القارئ كيف أعنى فى هذا الكتاب بالدفاع عن كرامة العقل إزاء المستخفين بها .

ولم يكتف معاليه باتهام العلماء الجامدين فى انصراف الشباب المتعلمين عن الدين ، بل اتهم الدين نفسَه أيضا حيث عاب المسائل الدينية بعدم خضوعها للمنطق ، وقدكان فيما نقلنا عنه عاب المنطق التجريدى الذى أفنى فيه المسلمون قرونا طويلة . فالمسائل الدينية إذن معيبة مطلقا خضعت للمنطق أولم تخضع ، حتى إنها إن خضعت للمنطق يكون المنطق نفسه معيبا معها : فيلزم لأن ينال المنطق تقدير المنصرفين عن الدين والذين يعذرونهم ، أن يكون منطقا خاصا بالعلم الذى انصرفوا إليه لما انصرفوا عن الدين . لكن المنطق الذى هو ميزان العلوم لايختص بعلم ويكون تجريديا بطابعه الأصلى .. ولذا قال الفيلسوف « كانت » منتقداً لمذهب الإحساسية : « إن المنطق مستند إلى القوانين العقلية المحضة وإن الخواص التى هى موضوع الرياضيات ومايتبعها من القوانين ليست بموجودة فى الطبيعة وإنما هى موجودة فى العقل ، فالحادثات الطبيعية تحل بهذه القوانين » .

وهذا المنطق الذى يجله معاليه تارة ويحتقره أخرى محترم مطلقا إذا كان منطق الغربيين فهو يمدح كتبهم بدقة المنطق ، ويزيد فيقول : « يتلمس الشبان المتعلمون فى منطقها ضياء للجذوة المقدسة الكمينة فى النفس الإنسانية » وأنا أقول فهل لذلك كان انصرافهم عن الدين غير الخاضع للمنطق ؟

وكان أبشع أقوال الدكتور هيكل باشا وأمسها بكرامة مؤلفى الإسلام وكتبهم وصفه لمؤلفى الغرب بصدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق ، مما لم يجده الشبان المتعلمون أو بالأصح لم يجده عاذرهم الدكتور هيكل باشا حتى فى كتب أئمة الإسلام الأقدمين من المحدثين والمجتهدين[1] ولذلك أسقط فى مقدمة كتاب « حياة

---

[١] وأنا لا أنكر أن فى الغرب وكتبه العلمية والفلسفية والأدبية مانحتاج إلى الأخذ منه =

محمد » (الطبعة الثانية) جميع ما فى كتب الحديث فضلا عن السيرة، مثل صحيح البخارى ومسلم وسنن أبى داود والنسائى وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد وغيرها من أحاديث معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم، من حيز الاعتداد والاعتماد[1] حتى إن هذه المقارنة

= والاعتبار به ، وليت علماء مصر تعلموا من علماء الغرب ان لم يتعلموا من علمائنا الماضين، السعى البالغ لتدقيق المسائل العلمية من غير ملل، وتقويم الآراء والأفكار بقيمتها الذاتية لا بمراكز أصحابها الرسمية ولا بسمعتهم المموهة ، وليتهم تعلموا الشجاعة والجهاد والتضحية فى نصرة الحق وإزهاق الباطل وعدم السكوت عليه ، بعد استعمال البصيرة والتثبت فى تمييز الحق من الباطل.. وخصيصا الأنكر ما يحتاج إليه كتاب مصر وأدباؤها وشعراؤها من تعلم هذه الخصلة الشريفة خصلة الجهاد والتضحية فى نصرة الحق بعد بذل المجهود فى تمييزه من الباطل ، فلهم وظائف عالية غير الوقوف فى صف المداحين أمام الأحياء لذين قال عنهم نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم : «احثوا فى أفواه المداحين التراب » وفى صف النائحات من وراء الأموات ، فقد كان الشاعر الفرنسى « هوجو » يمطر فى أشعاره من منفاه سهام الانذار والتنديد على نابليون الثالث .

ومن أوجب واجبات الشعراء أن لا يمدحوا من يمدحونه إلا بميزان ومقياس ينطبق على الممدوح فلا يطول عن قده كثوب طويل يكنس بأذياله مواطىء الأقدام ، وخلافه يكون إعلانا من الشاعر بأن مدحه لا قيمة له فيبذله جزافا بغير حساب (ولهذا الهامش بقية وضعتها لطولها فى آخر هذا الجزء من الكتاب .)

[١] ولمعالى الدكتور هيكل باشا المنكر لمعجزات سيدنا محمد مع تظاهره باستثناء معجزة القرآن عنها ، محاولة غير محمودة فى مقدمة كتابه « حياة محمد » ترفع الأمان عن كتب الأحاديث وتشكك فى صحة ماورد فيها بجملته منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، للتشكيك فى صحة أحاديث المعجزات . . . وكلامه المنقول هنا فى إكبار مؤلفى الغرب وإصغار مؤلفى الإسلام يحوم حول تلك المحاولة .

وإنى، بجانب موقف معالى الباشا المذكور ضد كتب الحديث، أعتبر علم الحديث والفقه وأصول الفقه تلك العلوم التى دونها علماء الإسلام وقاموا فى تمحيصها بمساعى جبارة لم ترعين الدنيا مثلها فى أى طائفة من أهل العلم المتطوعين بالبحث عن الحقائق العلمية ، لافى سبيل الوصول إلى الغايات الفانيات بل فى سبيل الحصول على رضوان من الله أكبر . . ثم اتخذتها دول الإسلام العظيمة من العرب والترك والمغول أساسا لقوانينها فى القرون الطويلة التى كان المسلمون فيها أصحاب الكلمة النافذة على وجه البسيطة وحماة الحقوق الإنسانية الصادقين لا يجرمنهم شنآن قوم على أن لا يعدلوا .. وقد صدق القول بأن الإسلام دين ودولة .

بين مؤلفى الغرب والإسلام المثيرة للشبهة فى أمانة المؤلفين المسلمين، تضر كتاب هيكل باشا هذا أى « حياة محمد » الذى فى مقدمته هذه المقارنة .. تضره فتحط من قيمته بصفة أن مؤلفه من كتاب المسلمين ، ولا تحول دون هذا الحط المضر المزرى تزكية

أعتبر هذه العلوم وعلماءها ــ وقد ذكرته فى أمكنة مختلفة من هذا الكتاب ــ معجزة من معجزات الإسلام الباقية بعد عصر نبيه صلى الله عليه وسلم كالقرآن وأعم تأثيراً من القرآن الذى لايسحر اعجازه غير العرب ، بل لاتلين له أيضا قلوب كثير من العرب الحاضرين ومنهم الشيخ الأكبر المراغى كما صرح فى مقالته المنشورة لترويج فتنة ترجمة القرآن.. وأنا الذىاعتبر علم الحديث والفقه وأصول الفقه وعلماءها من معجزات الإسلام ولابد أن يشاطرنى فى هذا الاعتبار غيرى ممن لهم صلة بتلك العلوم من كثب ... يعز على وعلى أولئك الشاطرين أن يستهين معالى الدكتور هيكل باشا بعلماء هذه العلوم أئمة الحديث والفقه وأصول الفقه فيفضل عليهم المؤلفين الغربيين ... حتى فى صدق القصد وخلوص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق .

نعم أنا أكبر علم الحديث والفقه وأصول الفقه إلى حد عدها من معجزات الإسلام مع عدم كونها من الخوارق الحقيقية لسنن الكون ، ومع أن كون المعجزة من الخوارق ليس بلازم فى نظر معاليه ، ولهذا فاعتبار هذه العلوم وعلمائها من معجزات الإسلام كان أولى منى بمعاليه ، لو كانت له صلة بتلك العلوم ولم تكن معرفته بها وبعلمائها تقتصر على ما قرأه فى كتب الغربيين عنا وعنهم .

فهل يمكن أن يكون محمد الأمى حكيما فقط وإن شئت فقل كما قالوا : عبقريا فقط ، لكن إلى حد أن يستخرج علماء الإسلام من أقواله وأفعاله التى نسميها نحن الكتاب والسنة ، قوانين كافية لإدارة الدول الكبيرة وسيادة الدنيا والآخرة . وقد بسط أحد هؤلاء العلماء بتلك القوانين فى كتاب يكون ثلاثين مجلداً على مذهب الإمام أبى حنيفة فى الفقه سماه « المبسوط » .. هل يمكن أن تكون أقوال وأفعال محمد الأمى تحتوى خزائن أحكام يكتشفها ويستخرجها علماء أمته ، ثم يكون هذا الاختزان منه وذاك التوفيق للعلماء المستخرجين، من غير أن يكون ذلك الأمى نبياً مؤيداً من عند الله، وهؤلاء العلماء المستخرجون معجزة من معجزات نبوته ؟.. وكم يكون مضحكا مايدعيه بعض الغربيين الذين أكبر معاليه علماءهم مستهيناً بعلمائنا ، أن الكنوز التى حفظها أئمة القراءة والحديث مما أوتى محمد الأمى من الحكمة وفتحها وشرحها أئمة الفقه المجتهدون، إنما هى تفصيل ما تعلمه من الراهب المسيحى بحيرا فى دقائق معدودة من مقابلته فى طريق سفره إلى الشام وهو مراهق فى الثانية عشرة من عمره ؟. ولماذا لم ينفق ذلك الراهب من خزائن علومه التى فتحها علماء الإسلام ، فى دينه المسيحى ؟

المؤلف نفسه لكتابه ولا تزكية فضيلة الأستاذ الأكبر المراغى شيخ الجامع الأزهر ، بمدإن لم تنفع شهادة المسلمين قاطبة فى جميع قرون الإسلام الماضية على أن أصح الكتب بمدالقرآن صحيحا البخارى ومسلم ، ولاشهادةالقرآن على أمانة هذه الأمة بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله : « وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » بناء على أن المسلمين متهمون كائنين من كانوا وتهمتهم إسلامهم ، ولو ذكرتم المؤلف أن إجماع المسلمين حجة قاطعة وهو ثالث الأركان الأربعة التى تقوم عليها الشريعة الإسلامية، فلعله يضحك منكم ويقول أنا لا أعتمد على ركن السنة وهو قول النبى وفعله وأنتم تذكرون لى أقوال الناس .

وقد أخذنى العجب كل الأخذ من قوله بعد هذه المقارنة الظالمة : « لذلك انصرفت نفوس شباب المسلمين المتعلمين عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها ، حرصاً منهم على أن لايثور بينهم وبين الجمود حرب لاثقة لهم بالانتصار فيها . » فلماذا لايثقون بانتصارهم فى محاربة الجمود والدكتورالمؤلف المحارب نفسه صعد إلى كرسى الوزاراة ؟ وكذا مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » قاضى المنصورة الشرعى سابقا والمفصول بسبب كتابه عن الأزهر ، والشيخ المحارب قبلهما كان مفتى الديار المصرية . وانتصاره الأكبر أن اسمه يعيش على الصحف والمجلات أكثر من اسم أى عالم عاش من قبله بمصر[1] وقبل عشر سنوات أنكر الأستاذ فريد وجدى بك معجزات الأنبياء وأنكر البعث بعد الموت أثناء المناظرة بينى وبينه على صفحات جريدة « الأهرام » يعنى أنه حارب الجمود ، وعقب المحاربة والمناظرة قرر مجلس الأزهر الأعلى

---

[١] أما أستاذه ومجدده جمال الدين الأفغانى فحدث عن مركزه بمصر ولا حرج . وأنا لا أدرى أحداً من النازلين بها اشتهر ودامت شهرته فى ألسنة المتعلمين وأقلامهم مثل جمال الدين، حتى إن الإمام الشافعى لا يعدله فى التذكار إن لم يكن فى الإكبار ، كما أن فرعون أشهر فى مصر الحاضرة من سيدنا موسى وأدعى منه إلى الفخر للمصريين المجددين .

تعيينه بمرتب قدره خمسون جنيها مديراً ورئيس تحرير « لمجلة الأزهر » المسماة يومئذ « نور الإسلام » ولو أحصيت أسماء المتنصرين فى محاربة الجمود لطال الكلام فماذا يطلبون فوق هذه الانتصارات؟[١] .

---

[١] وهل يظن معاليه أننا لاندرى أن الرياء القديم الذى كان يطلق على الظهور فى مظهر الديانة من غير أهلها قد كسدت سوقه وانقلب على عكسه ، حتى ان بعض ضعاف الدين من العلماء والكتاب يودون اليوم أن يظهروا فى مظهر الخروج على أحكام دينهم ليختلسوا من يد الدهر المقلوب ما يستحقونه من المركز الدنيوى ، يودون ذلك لو أن مبدأ الديانة سامح ذويه ولم يحظر عليهم التنكر والإنكار معاً كما سامح المتفرنجين مبدأهم وسوغ لهم التسلح فى نضال الحياة بسلاحين. وقد يكون هذا المبدأ موافقاً لمبدأ التحرر التام .

وهل يظن معاليه أننا لا ندرى ومعنا الواقفون على الأحوال أن ضعف الدين أضمن للنجاح فى مضمار الثقافة المصرية من قوة العلم ، كما أن شهادات العالمية لاسيما الشهادات المكتسبة فى الغرب أكثر رواجا من العالمية نفسها .

وقد ظهر فى الآونة الأخيرة كتاب يدعو فيه مؤلفه الشيخ عبدالله القصيمى — كما قال الأستاذ سيد قطب فى مقالته المنشورة فى « مجلة الرسالة » عدد ٧٠٢ « إلى إيثار العقلية الأوروبية ، لأنها خلعت ربقة الدين وربقة الخلق وربقة التطلع إلى الله وانطلقت تهدف إلى الأرض وحدها ولا تطلق نظرها مرة إلى السماء لأن التطلع إلى الله كفيل بإفساد الحياة .

« وفى ثنايا هــذا الذى يبدو تحررا فكريا فى ظاهره ، يخدع المخدوعين ممن يحسب التحرر الفكرى مجرد التحلل من الأديان والأخلاق على أى وضع من الأوضاع ؛ من ثنايا هذا يدس الإيحاء إلى الشرق العربى المسلم بأن لا حق له فى كراهة الاستعمار والمستعمرين لأنهم ورثة الأرض التى يستحقون كنوزها وخيراتها . »

وأنا أقول لقد أحسن الأستاذ فى كشف الستار عن الضجة المفتعلة التى أثيرت حول هــذا الكتاب التافه المريب كما عبر الأستاذ والتى انزلق فيها بعض كبار الكتاب مخدوعين بما صور لهم المؤلف من مخاوف تحيط به وتدنيه من حبل المشنقة بسبب كتابه كما قال الأستاذ أيضا ؛ وأحسن كل الإحسان فى عد هذه الضجة وذلك الانزلاق فضيحة أدبية لمصر وربما دليلا على غفلة النقد فيها إلى حد مخجل .

ثم أقول ليس كل مقصود المؤلف المعتدى الأثيم التزلف إلى المستعمرين الأقوياء فى مغارب الأرض ومشارقها ، بل التزلف أيضا أو بالأصح أولا إلى الأوساط المثقفة المسموعة الكلم فى الشرق =

ولا أدرى لماذا كتب معالى المؤلف بعد سرد أعذار الشباب المتعلمين فى انصرافهم من الأديان ، قوله : « ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية؟ » ولماذا لم يأتهم الإحساس بهذه الضرورة المكملة فى نتيجة الانصراف بكليتهم إلى كتب الغرب المهذبة للنفوس ؟

= الإسلامى الحديث وفى مصر خاصة التى يعجبها ضعف الدين ويروج عندها كأقوى شهادة علمية تؤهل صاحبها مركزا ممتازا ، لاسيما إذا كان المؤلف من الشيوخ المعممين . يؤيدنى فى هذا التوجيه قول الأستاذ صاحب المقالة التى قصمت ظهر الشيخ القصيمى وقذفت بكتابه إلى أسفل سافلين :

« ... أولئك هم جميع المسلمين فى نظر المؤلف وهذه هى عقليتهم الإسلامية التى جرد قلمه لينسفها نسفا . فيقف جماعة من النقاد فى مصر معجبون بهذا القلم القوى البتار . »

فليس الشيخ المؤلف سوى واحد من مستبطنى الإلحاد فى الشرق الإسلامى الحديث المذكورين فى مقالة الأستاذ فريد وجدى القديمة .. واحد منهم آن له أن يخلع ثوب الاستبطان ويخرج على الملأ عريانا . فإن كان الأستاذ فريد وصفهم بالنوابغ وكان الشيخ بعيداً عن هذه الصفة اللهم إلا أن تعده نابغة فى سرقة فصول كاملة من كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف، فهو على كل حال يؤمل الحصول على رتبة النبوغ فى الأوساط المذكورة الذى من أعظم وأسهل شروطه ضعف الدين .

أما النقد فى مصر فليس الحاكم فيه هو الغفلة فقط كما يرى الأستاذ قطب ، وإنما هو يستند أكثر من الغفلة إلى يقظة متنكرة أو متغافلة ويباع كسلعة فى سوق التغرير والإغراض السوداء الصائتة أو الصامتة ويبتعد ابتعاداً من النقد الحر .

ولابد أن أذكر هنا مثالين ذكرتهما من قبل أيضا : فقد سبق أن حدثت فتنة ترجمة القرآن فى تركيا الكمالية وكتب الأستاذ الأكبر المراغى فى « السياسة الأسبوعية » و « الأهرام » مقالة طويلة يرتأى فيها لا جواز القراءة فى الصلاة للأعاجم بتراجم القرآن على لغاتهم ، مع القدرة على قراءة الأصل العربى . . بل ترجيح قراءة التراجم على قراءة الأصل ، فضلا عن جوازها . وكنت انتقدت مقالته تلك انتقادا مفصلا فى كتابى « مسألة ترجمة القرآن » المنشور سنة ١٣٥١هـ وكان الأستاذ المراغى لم يجب على انتقاداتى ، ثم تجدد النقاش على موضوع ترجمة القرآن بعد سنين بين بعض الفضلاء الذائدين عن حمى القرآن كالشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا والأستاذ الهمياوى صاحب جريدة « المنبر » تغمدهما الله برحمته وبين الذائدين عن حمى مشيخة الأزهر المروجة =

ثم إن معاليه اعتنى غاية الاعتناء بالفلسفة الوضعية « پوزيتويزم » التى سبق منا ذكرها باسم الإثباتية مع التنبيه على زعيمهم الذى احتقر فكرة الدين وعدها حالة ابتدائية فى الإنسان ثم وضع ديناً جديداً معبوده الإنسان ولا سيما المرأة ، وعلى أنها أحدث فلسفة لدعاة الإلحاد فى الغرب العاملين فى زيغ فرنسا إلى الحكومة اللادينية» اعتنى بهذه الفلسفة الملعونة لحد اعتبارها حجة للمنصرفين عن الدين واستهان بالتفكير التجريدى الميتافيزيقى أعنى فلسفة ماوراء الطبيعة التى منها الفلسفة الإلهية ولم يعتد بها تفكيرا علميا لكونها ميتافيزيقية غير مستندة إلى التجربة الحسية ولعدم اعتداد الميتافيزيق من العلم . وهـذا هو المرض المستولى على عقول المتعلمين المصريين ـ طبقا لبرنامج الملاحدة الإثباتيين ـ والذى بذلت لمداواته كل مجهود فى هذا الكتاب . وأنت ترى

للموضوع فإذا بمقالة الأستاذ الأكبر المراغى القديمة قد نشرت مرة ثانية بعينها فى « مجلة الأزهر » إصراراً على مافيها من الأخطاء التى من جملتها طيش سهم صاحب المقالة عن فهم أقوال الفقهاء الأحناف ـ وهو يشبه خطأه فى فهم بيت من أبيات البردة استشهد به فى مدح كتاب هيكل باشا نافياً لمعجزات سيدنا محمد غير القرآن ، ثم سد أذنيه لئلا يسمع نقدى كما أغمض عينيه عن أبيات أخرى فى نفس القصيدة ناطقة بتلك المعجزات المنفية ومكذبة للمادح والممدوح . وقلما يوجد فى الدنيا استهتار كهذا فى الجهل والتجاهل ـ وكنت قد نبهت إليها فى كتابى المذكور فتجوهل للتنبيه والمنبه اعتمادا على غفلة الناس عن الاطلاع على الحقيقة .

والمثال الثانى أنى لما نشرت كتابى «القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون» وفيه انتقادات على كثير من كبار الكتاب وذوى المناصب لاسيما معالى هيكل باشا مؤلف «حياة محمد» وجريت على عادة المؤلفين فى الإهداء إلى الجرائد المعروفة فأعلن عن كتابى كل جريدة أهديت إليها واطلعت هى على محتوياته وشذت « الأهرام » فى الإباء عن الاعلان مع استلام النسخة المهداة إليها . فكانت هذه المحاولة الصامتة من الجريدة فى عهد رئيس تحريرها أنطون جميل باشا ، دفن النقد الحر فى التراب ، كما أن ترك الرد من الأستاذ الأكبر على نقدى تجاهلا له كان خوفا من شيوع النقد أكثر من النقد نفسه .

وعندى مثال ثالث أغرب من الأولين لقيه كتابى « تحت سلطان القدر » المنشور قبل «القول الفصل» وبعد «مسألة ترجمة القرآن» ليس من الحكمة أن أذكره ، وربما يذكره التاريخ .

الفيلسوف الكبير ديكارت يقول تقديرا لجلالة قدر الميتافيزيق : « لما كان الذهن الإنسانى مشغولا بالمحسوسات فقد وجب تخليصه منها وفتحُ عينيه إلى مسائل الميتافيزيقا لكى يرى الأفكار والمعانى فى صفائها وجلائها ويحتاج ذلك إلى مجهود خاص وهو مايسمى بالانتباه أى تركيز الفكر كله فى الأمر المعروض عليه[١] .

ويقول أيضا : « من أراد الوصول إلى الحقيقة فى المسائل النظرية وجب عليه أن يتدرب على المنهج وأن يمارس قواعده لكى يصل إلى استعمالها فى يسر واطمئنان ، وبعد أن يطول مران الإنسان على استخدام المنهج يجب أن يبادر بالنظر فى الفلسفة الحقيقية التى جزؤها الأول الميتافيزيقا والثانى الفيزيقا الخ . . . واذن فالمنهج قد ألف ليكون سبيلا لإقامة الميتافيزيقا التى منها يكون الشروع فى كل ماعداها[٢] .

ويقول « إن القوانين التى تسيطر على العالم الطبيعى يحددها ماتُعلِّمنا الميتافيزيقا عن الله[٣] وإذا كان الله تعالى لايثبت وجوده إلا بطريقة ميتافيزيقية وكانت هذه الطريقة غير معترف بها من العلم، فماذا فائدة كتاب عن حياة محمد رسول الله الذى لم يثبت وجوده علميا ؟ وماذا فائدة مراعاة الطريقة العلمية الحديثة الغربية فى تأليف هذا الكتاب كما ادعاه مؤلفه وكرر دعواه بهذا الصدد تكريرا ؟ وهل أول مراعاته الطريقة العلمية الحديثة الغربية فى وضع كتاب عن حياة محمد رسول الله أن يعتبره رسولا من غير ثبوت وجود مرسله ثبوتا علميا ؟ اللهم إلا أن تكون فائدته إثبات زعيم عربى عظيم مستحق بالوجوه للزعامة ، ووضع كتاب عن حياة ذلك الزعيم تحت عنوان رسول الله كما أشرنا إليه من قبل أيضا ، فإن لم تثبت رسالته لعدم ثبوت وجود مرسله فلا كلام فى زعامته واستحقاقه للزعامة .

---

[١] ص ٨٣ من كتاب « ديكارت » للدكتور عثمان أمين ــ طبعة ثانية .
[٢] ص ١١٦ من الكتاب المذكور .
[٣] ص ١٨٢

لـكنا نحن لايقنعناولا يُروى علمَنا وعقلنا إلاأن يكون الله موجودا أحق بالوجود من كل موجود وأقدم ، وإلا أن يكون محمد العربى صلى الله عليه وسلم رسولَ الله ، على الرغم من كون كل من وجودالله والرسالة عن اللهمن المسائل الميتافيزيقية، فتلزم لضرورة وجود الله قبـل كل شيء الذى هو موجود ميتافيزيق ، ضرورةُ الاعتراف بالموجود الميتافيزيق ، فإن كان فى الوجود موجود فيزيقى فلابدأن يكون قبله موجود ميتافيزيقى كما ستعرف ذلك فى هذا الـكتاب إن شاء الله . فإذن الموجود الميتافيزيقى أثبتُ فى الوجود من الموجود الفيزيقى ، بله أن يكون وجود الأول أضعف ثبوتا من وجودالثانى كما أوهمه كلام معالى المؤلف .

وكما أن الله تعالى موجود ميتافيزيقى فالعقل الذى به نفكر فى كل شيء ونحكم بوجوده أوعدم وجوده ميتافيزيقى أيضا . ومن هنا قال « شاتوبريان » : إن الإنسان حيوان ميتافيزيقى » ومن هنا أيضا لايعترف العلم الذى لايعترف بما وراء الطبيعة ، بالعقل كقوة خاصة تمتاز عن القوى العادية الطبيعية، كما لايعترف بالله ولابالروح .

لا يقال إن الماديين النافين للميتافيزيق لا ينفون العقل، ولايلزم من إنـكار كونه قوةخاصة مختلفة عن القوى الطبيعية نفيُ وجوده بالمرة، فهم يقولون إن الإدراك فعل المخ وأثره الطبيعى كما يلد الـكبد الصفراء والـكلية البول . لأنا نقول ليس الفـكر أثر المخ الذى هوموجود مادى وإن كان وجود المخ شرطا عاديا لوجودالفكر . فلوكان الفكرأثرالمخ ومولودَه لـكان ماديا كالمخ وكان متعلقَ إحدى الحواس كما كانت الصفراء والبول . فليس الفكر مادة ولاقوة من القوى المادية المعلومة ، مع أن الموجود الطبيعى منحصر فى المـادة وقواها المعلومة ، فيلزم أن لايكون الفكر موجودا على قاعدة العلم الطبيعى لعدم كونه محسوسا بإحدى الحواس... فوجود الفكر فى الإنسان أجلى دليل على وجود موجود ميتافيزيق ، ووجوده غير القابل الإنـكار ينقض نقضا ظاهرا لقاعدتهم

القائلة بأن كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به[١] حتى إن وجود الروح لو ثبت بالتجارب الجديدة الحسية كما يدّعونه وأمكن الماديين أن يعترفوا بوجودها إلحاقا لها بالمادة لكونها محسوسة ، فلا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الفكر كوجود الأشياء المادية الطبيعية .

ولِأن يكون معالى المؤلف قد جمع أخطاء جمة فى صفحة واحدة من مقدمة كتابه ، أثنى فى مختتم كلامه على المبدأ الغربى المتعلق بفصل الدين عن الدولة فصلا واضحا صريحا . والدين فى مصر وإن كان مفصولا عن الدولة والحكومة إلى حدما، لانقسام المحاكم فيها إلى شرعية وغير شرعية ولعدم دخول شيخ الأزهر فى هيأة الوزارة ، .. لكن معاليه يتمنى فصلا أوضح وأصرح ، بأن يحذف بتاتا من الدستور كون دين الدولة الرسمى الإسلام كما وقع فى تركيا الحديثة، أو يجرد لفظه عن كل معنى حقيقى كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحى الذى يبتديء خطأ الخاطئين من قياس الإسلام عليه .. وهذا الفصل الواضح الصريح الذى هو آخر آمال المتعلمين المصريين وآخر منالهم من ديننا والذى ذكره الأستاذ فرح أنطون أيضا عندمناظرته الشيخ محمدعبده وجعل رقى أوروبا مدينا له ، ويفهم من اتفاق رأى معاليه مع رأى الأستاذ فرح صدق ما قلته من قبلُ أن الرجل اكتسب القضية ضد مناظره عند الرأى العام ـ أفردت فى آخر كتابى بابا للنظر فيه .

وهنا أقول سلفا وباختصارٍ إن معناه خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام ورقابته عليها وخروج الأمة أيضا من ربقته باختيارها الحكومة الخارجة على الإسلام حكومةً لها ، لاسيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة ، فمثل الفصل فى تلك الحكومات كمثل المناداة بالردة حكومة وأمة . وإذا كان فى الأفراد أو على الأصح

---

[١] بل المحسوس أشد احتياجا إلى تأييد المعقول من عكسه فلا يمكن الاقتناع بوجود المحسوس لو لم يكن المعقول ، وسيأتى بيان كل ذلك إن شاء الله .

فى بعضهم دين يعيش إلى أن ينقضى جيلهم ، يعيش محكوما للحكومة لا حاكما عليها كما كان قبل الفصل . وهذا وحده كاف فى أن يكون الفصل كفرا لاسيما إذا كان تنزيل الإسلام عن عرش حكمه ، بأيدى المسلمين أنفسهم ، لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. والمضحك المبكى أن حكومات المسلمين أيام كانت فى أوج عزها وقوتها وخضعت لها الدول ، كانت تخضع لحكم الإسلام وترضى أن تكون تحت رقابته وإشرافه ، والآن يُسوّلُ لحكومات المسلمين العاجزة المهزولة أن تخرج على الإسلام وتتحكم هى عليه .

وقد يقول المجددون الأكياس لا حاكم هناك ولا محكوم عليه ، وإنما يراد بالفصل أن يكون الدين والحكومة مستقلين لا يتدخل أى منهما فى شأن الآخر . لكنى أعرف جيدا ويعرف الإسلام الذى هو أكيس منهم أن الجانب الذى يتولى السياسة والسلطة، لابد أن يحكم على الجانب الذى تنازل عنهما ، فيصير الدين المنعزل عن السياسة كالخليفة الزائف عبد المجيد الذى تنازل عن السلطة لمصطفى كمال فكفى فى اجلائه عن عرش خلافته الاسمية وعن بلاده فى منتصف ليلة من الليالى ، ورودُ أمر من أنقره إلى مدير البوليس بالأستانة وقيام البوليس بتبليغه أياه مع إيقاظه عن نومه بكلا معنييه .

وبالنظر إلى أن بلاد الإسلام تطلق فى عرف الشرع على بلاد تحكم فيها قوانين الإسلام وأن عزل الدين عن التدخل فى أمور الدولة يُخرج تلك البلاد من عداء بلاد الإسلام .. فبالنظر إلى هذا وعلى الرغم منه إن كانت المخالفة لمبدأ الفصل والعزل معدودة من الجمود المعيب عند معاليه وأمثاله من المجددين ، فأنا أجمد الجامدين وأحمد الحامدين لله تعالى على جمودى هذا ؛ وباقى الكلام على مبدأ فصل الدين عن الدولة يأتى إن شاء الله فى محله الذى هو الباب الرابع من هذا الكتاب .

وكنت أود إرجاء الجواب أيضا على قول معاليه فى الدول الغربية المنتمية إلى الدين إنها لا تقصد منه سوى مظاهر الأعياد والمراسم ، إلى ذلك الباب الذى ينتهى فيه الكتاب ، ومعنى قول معاليه هذا أن الأولى بالدول الإسلامية أيضا أن تكتفى فى

دیانتها بما اكتفت به الدول المسيحية ؛ لكن خطورة هذا المعنى تضطرني إلى أن أتعجل في الجهر بالحق فأقول :

إن كون الدولة لاتقصد في ديانتها سوى مظاهر الأعياد والمراسم ليس من الديانة الحقيقية في شيء ، وإنما هو نفاق أي ديانةٌ في الظاهر وكفر بالدين في الباطن إن كان الدين المسيحي يقتنع بهذا وينخدع فلا يقنع الاسلام ولا ينخدع به في المنتمين إليه أفرادا أوجماعات متشكلة .. ولهذا فنحن المسلمين إن كنا جادّين في ديننا معترفين بأننا تحت حكم الله وتكاليفه الواصلة إلينا بواسطة رسوله، فلا فرق بيننا في هذا الموقف منفردين أومجتمعين ، فكما لايجوز أن ينفصل الفرد المؤمن بالله ورسوله عن دينه فيكونَ في أفعاله محررا عن القيود الدينية ، لايجوز لدولة تُعتبر دولةَ المسلمين فصل الدين عن نفسها لتكون الهيأة الحاكمة فيها تفعل ماتشاء غير مقيدة بأمر الدين ونهيه . فإذا خرجت حكومة أمة مسلمة عن حدود دين الأمة من غير ادعاء لنفسها حق الانفصال عن الدين ، كانت حكومة فاسقة كأحد المذنبين من أفراد المسلمين، ولم تكن حكومة مرتدة عن الاسلام، لأنها فصلت الدين عن الدولة عمليا لاعلميا واعتقاديا. فينطبق عليها قول الله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .

أما إذا خرجت عن حدود الدين مدعية لكون الخضوع لأمر الدين ونهيه واجبا على الأمة دون الحكومة، فهذا فصل الدين عن الدولة مبدئيا أي علميا واعتقاديا، وهذا ارتداد الدولة عن الإسلام وارتداد الأمة معها إذا رضيت هذه الحالة لحكومتها أو كانت في حكم الراضية بأن تكون الحكومة حكومة برلمانية تحكم بالنيابة عن الأمة . فينطبق عليهما حينئذ قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وموقف الحكومات الاسلامية من الاسلام لايقاس على مواقف الحكومات الغربية المكتفية من دينها المسيحي بمظاهر الأعياد ، لأن رجال تلك الحكومات

الذين لابد أن يكونوا من عقلاء بلادهم ، لابد أيضا أن يكونوا غير صميميين فى دينهم الذى لايتفق مع العقل ، (كما سبق بيانه منا فى أول هذا الكتاب) فيكتفون بالمظاهر احتراما للعامة المتدينين واعترافا بمصلحة البلاد فى احتفاظ العامة بالدين .

بخلاف الإسلام الذى تسير أصول الدين فيه مع العقل ويحق من هذه الحيثية أن يكون دين العقلاء ، فلا يختلف خاصة المسلمين عن عامتهم فى إخلاصها للديانة ، بل يكون الخاصة أولى به من العامة .. وكتابنا على طوله يثبت هذا المدعى ، حتى ان مؤلفه يحتاج عند كل دفاع عن الإسلام إلى الدفاع عن قيمة العقل وكرامته .

هذا ، ومع كون الإسلام لايقاس بالمسيحية إن كانت هى يتسع صدرها لفصل الدين عن الدولة ، فقد صرح المصلح المسيحى المشهور « كالفين » بالاسم الذى يستحق أن تسمى به الدولة المتجردة عن الدين كما سبق نصه فى آخر الرقم (٢) .

٥

وانظر إلى قول الأستاذ فريد وجدى فى جريدة « الأهرام » ردًّا على مقالتى فى فى مسألة معجزات الأنبياء ، والقارئ يرى مقالتى ومقالة الأستاذ المنشورة قبيل توليه الوظيفة الأزهرية .. يراهما بتمامهما فى ذيل الكتاب .

يقول الأستاذ[1] : « فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى

---

[١] قول الأستاذ هذا سبق ذكره منى مراراً بعينه أو بصورته الملخصة ، وسأذكره كذلك بنصه أو بخلاصته عند كل مناسبة تقتضيه ، فقد عزمت على ذلك ووعدته للقارئ فى أوائل الكتاب . لأنى وجدته حجة ضد الأستاذ ومن على عقليته من ضعاف الإيمان بالإسلام أفلتت من قلمه عند أول ما التقينا فى حلبة المناظرة على صفحات الأهرام . وكان مقصوده من هذا الإنشاء عن الشرق الإسلامى المنهزم أمام سلاح العلم الحديث ، تهديدى بسمعة ذلك السلاح عند المنهزمين ، ومقصودى من تكرارها عكس سلاح الأستاذ عليه والاستمرار فى تذكيره بأنى لا أعبأ بذلك السلاح الذى غالى فى إعظامه .

كانت تساوره حتى تغلب عليها فدالت الدولة إليه فى الأرض ، فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه[١] فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا «الأساطير» ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض لجمل من ذلك مجموعة تُقرأ لا لتقدس تقديساً ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده، غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ، ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله [ليتأمل القارئ هذه الكلمات] ولكنه استبطن الإلحاد متيقناً أنه مصير اخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية [ليتأمل القارئ] .

« وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسًّا فى مقالاتهم وقصائدهم ، غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض .

« وقد عثرنا نحن فى جولاتنا العلميـة على ماعثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق لولا أن من الله علينا بوجود المخلص منها وهو قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات.. الآية » فسجدنا شكراً وقلنا مانعة الصواعق بل مانعة الغرق » .

وأنا أقول ماذا هو مناسبة كون القرآن مشتملا على المحكمات و المتشابهات ـ حتى ولو فرضنا فرض المحال أن آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت داخلة فى المتشابهات لا المحكمات كما زعمه الأستاذ .. ماذا مناسبة هذا بكارثة حلت بالأديان

[١] يريد بأسلوبه قانونه القائل بأن كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به .

وهى كونها مقذوفاً بها بيد العلم الحديث فى عالم الأساطير ثم جعلُ مجموعةٍ منها تُقرأ لا لتقدس تقديساً بل تقرأ كتاريخ الأديان ليفهم منــه الإنسان الحديث مبلغ حماقة قديمه الذى استعبد نفسه لدينــه وضحى فى سبيله بماله وروحه ؟ فهل كانت مانعةُ الصواعق أو مانعة الغرق هذه أعنى متشابهات القرآن منقذةً للأديان عامة وللإسلام خاصة الذى رآه المسلمون الشرقيون المطلعون على علوم الغرب مقذوفاً به مع سائر الأديان إلى حفرة الأساطير ، فلم ينبسوا بكلمة فى الدفاع عن دينهم لــكون حكم العلم الذى هو صاحب الدولة اليوم فى الأرض ضد الأديان ، أكبر من أن يحاول دفعه محاول ، فلهذا تركوا الدفاع عن دينهم بل تركوا دينهم ، واستبطنوا الإلحاد وتمسكوا به غير مصارحين الناس متيقنين بأن مصيرهم أيضاً الإلحاد متى وصلوا إلى درجتهم العلمية ؟

كلا ، لم تُنْقِذ آية المتشابهات شيئاً من ذلك ، وإنما سجل الأستاذ فريد وجدى فى كلته هذه على كبار المثقفين من أهل الشرق الإسلامى باستبطان الإلحاد وعلى نفسه بما يؤول إليه ، وإن شئت فسمه باستبطان الاستبطان !. فلو فُرض أنااستقبلناالملاحدة المعتدين على الأديان عامة والإسلام خاصة بسلاح العــلم الحديث الذى لايؤمن إلا بما ثبت بالتجارب الحسية .. لو فرض أنا استقبلنا سلاحهم بالسلاح الذى اخترعهالأستاذ فريد وجدى بك وقلنا لهم إن فى كتاب الله المنزل على رسولنا آيات محكمات وآيات متشابهات ، لضحكوا منا ومن مناسبة كلامنا بدعواهم ضد الأديان . فهم لايعترفون بوجود الله لعدم كونه فى متناول التجربة الحسية التى لايعتمد العلم الحديث على غيرها، ونحن نقول لهم إن فى كتاب الله آيات كذا وكذا ! .. لــكن مصر لم تضحك من الأستاذ فريد ومن تظاهره بالدفاع عن الإسلام بل ولّته إدارة مجلة الأزهر ورئاسة تحريرها ليستمر فى الدفاع عن الدين من فوق منبر الأزهر بهذا الشكل المضحك لأعداء الإسلام وأعداء الأزهر، ولم يضحك الأستاذ من نفسه بل من المسلمين الغافلين

الذين انتدبوه للدفاع عن دينهم وهو نفسه من الضاحكين مع أولئك الأعداء .

وكما لم تكن آية المتشابهات التى تمسك بها الأستاذ لإنقاذ الإسلام من قذف العلم الحديث به مع سائر الأديان إلى حفرة الأساطير ، منقذة له منه ومنقذة لنوابغ الشرق الإسلامى وفيهم الأستاذ نفسه من استبطان الإلحاد ، ولم يوجد فى تلك الآية أي مخلص من الصمق أو الغرق ـ فكذلك لا تكون هذه الآية ولن تكون بمنقذ للأستاذ من إنكار معجزات الأنبياء والبعث بعد الموت ، افتتانا منه بالعلم الحديث الذى لا يعترف بالمغيبات الخارجة عن متناول التجربة فى الزمان الحاضر .

فلا وجه إذن لتمسك الأستاذ بهذه الآية كعروة النجاة من الانزلاق إلى الإلحاد الذى انزلق إليه غيره من نوابغ الكتاب والشعراء فى الشرق الإسلامى وكان هو الآخر نفسه موشكا للانزلاق لولا هذه الآية فى كتاب الله .. لا وجه للتمسك بها دفعاً لتيار الإلحاد الجارف ، إلا أن يكون معنى التمسك بها أن السبب فى إلحاد هؤلاء النوابغ وانصرافهم من الأديان انطواء الأديان على أنباء من الماضى والمستقبل لايصدقها العقل لمخالفتها السنن الكونية ولا العلم لعدم إمكان وزنها بميزان التجربة كظهور خوارق المعجزات على أيدى الأنبياء السالفين المعروفين بأسمائهم فى الكتب المقدسة وبعث الناس من قبورهم للنشأة الآخرة بعد أن ماتوا وأكلت الأرض أبدانهم .

فالأستاذ فريد على زعمه أو بالأصح على مايتظاهر منه ، حلّ هذه المشكلات التى أخرجت غيره من دينهم ، بآية المحكمات والمتشابهات ، فكأن هذه الآية تقول إن أنباء الخوارق الماضية والآتية المذكورة فى كتاب الله لم يرد الله بها ما يفهمه الناس منها، لكونها من قسم المتشابهات التى تنقسم آيات القرآن إليها وإلى المحكمات ، فلا معانى لها مفهومة ولا مطلوبة الفهم، وما أراده الله بها مستور عنا .

لكنه يرد على حمل التمسك بالآية المذكورة على هذا المعنى أن فيه تصديقاً للعقلية

غير المعترفة بالمغيبات الخارجة عن متناول التجربة الحسية ، ويدخل فى هذه العقلية عدم الاعتراف بوجود الله أيضاً كما قال الأستاذ فرح أنطون « إن فى رأس الدين الإيمان بخالق غير منظور » فليس الله على هذه العقلية بموجود أى ثابت الوجود حتى يكونَ له كتاب منزل كالقرآن ويكونَ فى آية من آيات ذلك الكتاب حلٌّ شبهة الأستاذ وإنقاذه من المشكلة العلمية التى تسوق الإنسان إلى اعتناق فكرة الإلحاد وقد ساقت إليه غيرَه من نوابغ الشرق الإسلامى الذين لم يطلعوا على ما اطلع عليه ذكاء الأستاذ من الآية المذكورة المنقذة .

فتبين أن الأستاذ لم يكن له أى نفع من الآية التى تمسك بها يجعله مختلفاً عن الملاحدة النوابغ ، فهو كهؤلاء لا يعترف بما لا يعترف به العلم الحديث الذى هو سائقهم إلى الإلحاد ، فينكر المعجزات وسائر المغيبات كما ينكرون . بل الأستاذ أسخف موقفاً منهم ، لأنهم على الأقل لا يضيفون إلى ضلال الإلحاد الذى فى إنكار المغيبات ضلالا آخر هو حمل آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت الصريحات المالئات للقرآن ، على المتشابهات غير مفهومة المعانى ، لكن الأستاذ ينكر المغيبات فيلحد ويقيم على إلحاده دليلا من القرآن[1] فيلغى بهذا الدليل آيات لا تحصى من القرآن ويخليها عن المعنى المفهوم .

---

[١] لا أريد أن أتهم الأستاذ بالكفر والإلحاد ولا أخاله ينفى وجود الله عمدا . فهو ليس غير رجل متقلب فى شكه الذى استفاده من العلم الحديث ، وربما تراه فى بعض تاراته وتطوراته خصما هاجما على هذا العلم الذى أكبره هنا كل الأكبار ، تراه خصما هاجما عليه من غير تخلص عن مخالب إضلاله ... لا أريد أن أتهمه وإنما ألفت النظر إلى ما يلزم أقواله التى صرح بها أو يستنتج منها . وأنا أعرف أيضا عدم جواز الحكم فى حق أحد بما يلزم قوله أو يستنتج منه . وأعترف بأن لزوم الكفر ليس بكفر ، وإنما الكفر فى التزامه كما أن لازم المذهب ليس بمذهب إلا أن يكون اللزوم فى المسألتين لزوما بينا ، إذ عند ذلك يكون اللزوم فى قوة الالتزام .

أعرف كل ذلك وليس لى أى عداوة أو خصومة نحو الأستاذ . لكن من واجبى فى هذا =

وكان الأستاذ قد كتب قبل مقالته التى نقلنا الجمل السابقة منها ، مقالة ادعى فيها استحالة كل ما ورد فى القرآن من قصص معجزات الأنبياء عليهم السلام وقصة أصحاب الكهف وخروج دابة من الأرض تكلم الناس وخروج الموتى من قبورهم للحشر والحساب .. ادعى استحالة كل ذلك عند العقل والعلم ، ثم رد تلك الآيات الواردة فيها والتى تكاد تكون من كثرتها وتكرارها ربع القرآن ، إلى متشابهات غير مفهومة المعانى. وكان هذا سبب ردى عليه فى مقالات نشرتها « الأهرام » وقد جمعتها وكتبتها فى آخر هذا الكتاب مع مقالات الأستاذ التى قابل مقالاتى بها ، لتسهل المقارنة بينهما للقارئ .

= الكتاب، وقد أردت أن أكون مشخصا للداء المصرى الذى أصيب به المسلمون المتعلمون فى دينهم، حق التشخيص ثم مداويهم بكل ما أوتيته من قوة والهمته من حجة ـ أن أتتبع أقوال الأساتذة العصريين وأتعقبها ، فربما يكون لازم القول الذى لايكون عقيدة لقائله، مذهبا متبعا لكثير من الذين اتخذوا ذلك القائل قدوة لهم . فيكون فيما لايضر القائل ـ إن فرضنا ذلك ـ ضرر عظيم لقرائه فيجب تنبيههم عليه ، لأنى كتبت هذا الكتاب للقراء المحايدين الصادقى الرغبة فى معرفة الحق واتباع ما هو الأحق بالقبول ، ولم أكتب للأساتذة الذين ناقشتهم وأنا أعرفهم لا يعترفون بأخطائهم مهما تبينت عند النقد ، لأنهم مرتبطون بما وصل إليهم من مذاهب الغربيين فلا يحيدون عنه ، وحسبك أنهم لا يعتدون بالأدلة المنطقية فأصبحوا لا دواء لدائهم كما قال الشاعر :

جنونك مجنون ولست بواجد ... طبيبا يداوى من جنون جنون

وحسبك أنهم لايثقون بغير ماثبت بالتجربة الحسية ، وقد قال الأستاذ فريد وجدى : كل معقول لايؤيده محسوس فلايعتد به، لأن ذلك ماوصل إليه من علم الغرب. ومقتضى هذا عدم ثبوت وجود الله ثبوتا علميا لأنه لايدخل تحت التجربة الحسية ، وعلى الأقل لم يدخل إلى الآن .

ثم إن الأستاذ رغم هذا المانع العلمى يصدق بوجود الله لأن كبار العلماء فى الغرب مثل « كانت » الألمانى يؤمنون بالله ولا يسع الأستاذ أن يخالفهم. وهو أى « كانت » لايبنى إيمانه على دليل عقلى نظرى بل على دليل سماه دليلا أخلاقيا أساسه الإيمان بالنشأة الأخرى كما سيأتى تفصيله فى هذا الكتاب . لكن الأستاذ لا يؤمن بالنشأة الآخرة ويرد آيات البعث بعد الموت أيضا إلى متشابهات القرآن فلا يتمشى مذهبه فى الإيمان بالله مع مذهب « كانت » أيضا ! فهل يستطيع أحد من العقلاء المنصفين أن يقول معتذراً عن الأستاذ : ليس فى رد آيات البعث بعد الموت فى القرآن إلى المتشابهات غير مفهومة المعانى ولا سيما غير مفهومة المعانى لاستحالتها ، إنكار للنشأة الآخرة ؟

ولا شك أن تلك الأمور المذكورة التى أنكرها الأستاذ زاعماً عدم إمكانها ، لايراها المتقدون للأديان والمقتنعون بوجودالله خارجةً عن متناول قدرته المحيطة بجميع الممكنات ـ وهى ممكنة فى حد ذاتها ـ فلا يترددون فى تصديق أن ما نطق به كتاب الله من أنباء المعجزات ، قد وقع كلها فى عهود الأنبياء الماضين كما نطق وفُهمت معانيها وتفهم حالا واستقبالا كما نطق وفُهمتْ معانيها وتفهم حالا واستقبالا فهمَ معانى أوضح آيات الكتاب ، كما أن ما نطق به من أحوال النشأة الآخرة فُهِمَت معانيها وآمن بهـا المؤمنون فى كل عصر ، وكيف لا تُفهم وقد خصها الله سبحانه بالاعتناء بتفهيمها ، فيرى قارئ كتاب الله فى آياته التى قلما تخلو عنها سورة من سوره كيف يجادل القرآن منكرى البعث بعد أن كان الإنسان تراباً أو عظاماً نخرة ويتشدد فى محاجتهم . حتى إذا قال أحد من الناس المدعين لأنفسهم الفهم أكثر من غيرهم أو المتساوين معهم فى الفهم : « لا أفهم تلك الآيات كان ذلك معاندة القرآن ، لا أكثر ولا أقل وهذا كما تحدى الله بما أظهره على أيدى رسله إلى الناس من المعجزات ، منكرى رسالاتهم فى القرون الماضية وقد أظهرها الله لإعجازهم عن المعارضة بأمثالها ، وقصها القرآن تذكرة وعبرة للخلف من عجز السلف لا لإعجاز الخلف عن فهم ماوقع للسلف مع أنبياءهم . فهل يمكن بعد هذا وذاك أحداً ممن يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر أن يبلغ به استبعاده لوقوع معجزات الأنبياء فيما مضى من الزمان كما قصها الله علينا فى كتابه ، ووقوعِ البعث بعد الموت فى مستقبل الزمان كما أخبر الله به فيما لايحصى من آيات كتابه ، مبلغ أن يقول : لا أفهم ماذا يقول الله فى تلك الآيات الكثيرة ولا يفهمه أحد من أصحاب العقول ، فتلك الآيات آيات متشابهة خارجة عن طور الفهم لما أراده من معانيها ، كما أن المعانى الظاهرة منها خارجة عن طور العقل والإمكان ... فإن بلغ به استبعاده لما نطقت به تلك الآيات الصريحات الصارخات ، مبلغ أن يقول هذا القول كان ذلك إنكاراً مضاعفاً لتلك الآيات وما نطقت هى به .

لا ، لا ، إن دعوى كون تلك الآيات من المتشابهات غير المفهومة احتقار من الأستاذ لقراء كلامه بنسبتهم إلى العجز عن فهم مايرمى إليه بدعواه من عدم إيمانه بصدق تلك الآيات ، أو إشارةً منه إلى أن فى مصر يقول من شاء ما يشاء ولا يخاف تبعة ما قاله، لا من حيث حرية القول الدستورية، بل من حيث أنه لاتراعى بها حرمة القول وكرامته ، فيُلقى به جزافاً ولا يبالى بكونه حقاً أو باطلا أو مصادما للبديهى . وإنما يبالى بأسلوب الإلقاء وبما فى القول من إرضاء هوى محمى بقوة من القوى الزمنية.. فقد قرأت لأحد من كبار الأساتذة بمصر ــ المرحوم عبدالله عفيفى بك ــ أنه كان يدعى فى مناقشة واحد من أعيان محررى «الأهرام» أن الشاعر المتنبى لم يهجُ الأمة المصرية فى مناداتها بقوله : « يا أمة ضحكت من جهلها الأمم » فى قصيدة له فى هجاء كافور(١) .

[١] وفى مصر التى أصبح العلم فيها عبارة عن تحسين الكلام وتزيينه ، لم يحتفظ الكلام أيضا بقيمته ولم تعد صلة صحيحة بين اللفظ ومدلوله ، إذ لا يقرأه القارئ ــ من تعويدة الكتاب عليه ــ على أنه كلام صادق وإنما يقرأه على أنه قول بليغ جاذب . وهذا هو الذى تواضع الكتاب وقراؤهم عليه ، وهذا هو ما ينتظره القراء من الكتاب ، فلو شذ أحد واهتم فيما كتبه بمطابقة الواقع ذهب اهتمامه هدرا ، فارتفع الأمان من تأثير القائل بقوله فى قلب السامع من ناحية مطابقته للواقع . وإذا كان قول الله فى كتابه عن معجزات أنبيائه وبعثه الناس عن قبورهم للنشأة الآخرة وما بعد البعث من الحشر والحساب والثواب والعذاب ، لا يؤثر فى قلب قارئ القرآن على ماتلقاه الأستاذ فريد وجدى ، بوقوع تلك المعجزات فى سالف الزمان ووقوع تلك الأحوال الأخروية فى المستقبل، فما ظنك بما يقوله الإنسان ليؤثر بقوله فى نفوس سامعيه .

ثم إنك لو أردت مثلا أن تمدح أحدا بما يستحقه فقد قيل بمصر فيمن هو أدنى من ممدوحك بما هو أكثر من قولك وأغلى ، وإن شئت أن تهجو أحداً بما يتفق مع حالته فقد هجى فى مصر من هو أهون شرا من مهجوك بما هو أشد وأمر من قولك الذى وازنته مع المقول فيه وقدرته بقدره . وقلما يقرأ كتاب فى مصر ويشاد بذكره من دون محسوبية ، كما أن الموظفين يعينون لوظائفهم وينالون فيها المنح بهذا الشكل وأكبر المحسوبيات التى تنال بها كبريات الوظائف هو المحسوبية المتصلة بالإنجليز ثم الأقوى فالأقوى من القوى الداخلية المختلفة الألوان وليس للحق أى نفوذ بجنب هذه القوى ، فمن العجائب أن الجريدة المعروفة الإنجليزية « تيمس » كانت هى التى رشحت الأستاذ المراغى لمشيخة الأزهر الشريف فى المرة الثانية .

وهنا شيء آخر وهو أن منكرى معجزات الأنبياء والنشأة الأخرى يكونون فيما نعرفه من منكرى الأديان ، أما الجمع بين إنكار المعجزات وإنكار اليوم الآخر وبين ادعاء الإسلام و « رئاسة » نور الإسلام[١] فهذا أول قارورة كسرت وأعجب حادثة وقعت من عجائب مصر التى تبارى أمريكا بلاد العجائب . وقد كان الشيخ محمد عبده أورد فى كتاب « الإسلام والنصرانية » أمثلة فى تاريخ الخلفاء عن سماحة الإسلام ، فلو عاش ورأى الأستاذ فريد وجدى بك فى رأس «نور الإسلام» و « مجلة الأزهر » لأضاف مثالا هاما إلى أمثلة سماحة الإسلام وشاهداً إلى شواهدها ، ولاعترف بأن الأستاذ بقوله فى تفسير آيات المعجزات وآيات البعث قد ضرب الرقم القياسى الذى وضعه الشيخ فى تفسير سورة الفيل !!

وكانت قد أدهشتنى عقلية الأستاذ فريد فى زعم أن معجزات الأنبياء مستحيلة عند العقل ، وكذا البعث بعد الموت ، طبق زعم الملاحدة من الماديين والطبيعيين وزعم أن هذا الحكم باستحالتهما مقتضى العلم كما أنه مقتضى العقل ، وهو يعلن عقليته هذه على صفحات « الأهرام » ولا يقابلها الرأى العام الإسلامى بالاستنكار ، حتى ولا إفشاءه عن نوابغ البلاد الإسلامية من الكتاب والشعراء فى استبطانهم الإلحاد وتمسكهم بها تماشياً مع العلم والعقل ، ولا يكون بين إعلان هذه العقلية عن نفسه وعن نوابغ الشرق الإسلامى وبين تعيينه لرئاسة مجلة « نور الإسلام » الأزهرية إلا بضعة أيام[٢] .

---

[١] اسم المجلة الأزهرية فى مبدأ تولى الأستاذ الوظيفة .

[٢] ومن العجائب أن الشيخ المرحوم الظواهرى الذى كان شيخ الأزهر يومئذ يقول فى مذكراته التى نشرها ابنه بعد وفاته (ص ٢٨٩) متعمداً لتبرير هذا التعيين ومتحملا لأوزاره عند الله : « عند انتشار مجلة نور الإسلام أوصانى توفيق نسيم باشا بتعيين صديقه عبد العزيز محمد بك (الباشا وزير الأوقاف سابقا) مديراً لها وأثنى عليه كثيراً فعينته ولكن بالأسف وجدته بعد ذلك غير كفء لها فأبعدته وعينت الأستاذ فريد وجدى بدله فتألم توفيق نسيم باشا من =

ساورتْ أفكارى هذه الاحجيات الغامضة حتى اطلعتُ على المناظرة القلمية بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة «الجامعة» الذى ادعى فى غضون المناظرة أن جميع الأديان تتنافى مع العقل والعلم ، ولم يتغلب الشيخ المناظر على خصمه أو على الأقل لم يقتنع الرأى العام الثقافى بغلبته عليه ، بل تأثر الشيخ نفسه من عقلية الأستاذ[١] ولم يسلم عن التأثر بها حتى بيئة الأزهر . وبفضل هذا الاطلاع انحلّ علىّ كثير من الألغاز العجيبة المصرية حتى أصبح مفهوماً سر استقبال كتاب «حياة محمد» الذى سعى مؤلفه جهد طاقته لإخلاء حياته صلى الله عليه وسلم عن المعجزات ، برغبة عظيمة من القراء استلزمت طبعه مرة ثانية قبل أن يمضى على طبعته الأولى سنة ، وما كفت ثانية الطبعة فى رى الرغبات المتعطشة حتى احتيج إلى ثالثتها .. أصبح سره مفهوما ومعه سر تقريظ الأستاذ الأكبر المراغى للكتاب المذكور .

فبعد أن رأيت بعصر ذلك التيار الذى يقلب الحقائق رأساً على عقب. فيعد الديانة جهلاوغباء ، والإلحاد علماًوعقلاًونبوغا ، وقد علا التيار حتى تسلق منبر الأزهر، وبعد

= ذلك كثيراً وكان هذا من ضمن مخاصمته لى فيما بعد » .. وكان المعقول للأستاذ فريد وجدى بك الذى ثبت فى منصبه الأزهرى على طول عهد مشيخة الأستاذ المراغى الثانية ، أن يكون تعيينه أيضاً فى ذاك العهد ولا أدرى من أوعز إلى الشيخ الظواهرى الضعيف الإرادة بهذا التعيين السابق لأوانه. ولم يبعد الشيخ الظواهرى فى هذا التبديل عبد العزيز بك محمد فقط بل أبعد معه عن المجلة الأزهرية فضيلة الأستاذ محمد الخضر حسين لعدم إمكان اتفاقه مع الأستاذ فريد وجدى فى المبادئ فاستبدل بهذين الرجلين المؤمنين بمعجزات الأنبياء والنشأة الآخرة من أنكرها على صفحات الأهرام ولم يجف مداد الإنكار بعد .

[١] وكان الشيخ قبل مناظرته الأستاذ تحت تأثير مشكك آخر . ومن أجل ذلك قابل شبه خصمه فى مناظراته هذه بإيمان ضعيف لا يكفل لحجته النجاح والغلبة . ولو لم يكن الشيخ تحت هذه المؤثرات لما وسعه أن يذهب فى تفسير بعض آيات القرآن الحكيم إلى تأويلات سخيفة لايقبلها العقل والذوق السليمان كقوله فى عرش بلقيس إنه لم يؤت به إلى سليمان عليه السلام كما هو مقتضى صراحة القرآن وإنما صنع مثله، وقوله فى انفلاق البحر لموسى عليه السلام ثم انطباقه على فرعون وجنوده إنه كان جزرا ومدا .

أن رأيت بها من العجائب باسم العلم ما يعتبر الممكنات مستحيلات ـ فى حين أن العلم يسمى فيكاد يجعل المستحيلات ممكنات ـ وباسم الدين وتأليفه مع العقل والعلم ما يلغى ربع القرآن ويخليه عن المعنى باسم المتشابهات ... بعد أن رأيت كل هذا أصبح عندى من الواجب كبح جماح المقتنمين والمغترين بالدعاوى الإلحادية ، تقليداً منهم وانخداعاً بمـا سمعوا من بعيد أن فى الغرب علوماً مثبتة وعلماء إثباتيين وعلى التعبير المصري : وضميين لا يعترفون إلا بما يشهد به الحس وينكرون ما وراء ذلك لعدم ابتنائه على أساس صحيح من العلم . فمنهم الأستاذ فرح أنطون مناظر الشيخ محمد عبده الذى يقول إن العقل والعلم لايعترفان بوجود الله لعدم كونه منظوراً بالعيون ، وكذا كل ماجاءت به الأديان ولم يدخل تحت المشاهدة والتجربة لأهل هـذا العصر من المعجزة والوحى والنبوة والبعث والجنة والنار . ومنهم نوابغ الـكتاب والشعراء المسلمون الذين شهد الأسـتاذ فريد وجدى بك باستبطانهم الإلحاد من غير ذكر أسمائهم . ومنهم الأستاذ المذكور نفسه المنقول كلامه من قبل وهو ينص على أن الأديان لا تأتلف مع العـلم . فهى منبوذة بيد العلم إلى عالم الأساطير ، وكل ماورد فى كتبها المقدسة مما ذكرنا فمن المستحيلات فى نظر العلم والعقل، وغاية مايقال فى تأويلها انها متشابهات غير مفهومة .

وقد كان من جملة أقوال الأستاذ فريد وجدى المنقولة : « ان الشرق الإسلامى لما اتصل بالغرب وارتشف من مناهله العلمية ووقف على الميتولوجيا والأديان المقذوف بها فيها ووجد الإسلام أيضا بين تلك الأديان ـ لم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ولـكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير اخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية »..ففى هذا القول شىء كثير من المغزى جدير بأن تطال عليه وقفة التأمل : رجال من نوابغ البلاد الإسلامية يستنبطون الإلحاد ويتسترون فى تهيئة الأذهان لقبوله ولايصارحون به غير أمثالهم لئلا يقاطعوا أو يُنفوا من الأرض، مع أن الأستاذ يعرف أن الإلحاد فى زماننا لا يكون مدعاة لنفى الملحد أو مقاطعته بل يهيء له

مركزاً وأنصاراً بقدر مايهيىء له من الأذهان الجديدة فضلا عن المهيئين والمهيئين من قبل، وإنما السبب في اجتنابهم المصارحة لغير أمثالهم أن الدعوة إلى الإلحاد من وراء الستار تكون أنجح، وهم يعرفون ذلك كما يعرف الأستاذ ويقلدهم في السعى من وراء الستار.

ثم لا شك أن الأستاذ صور نفسه حين يصور الشرق الإسلامى الذى أخبرنا باستبطانه الإلحاد بسبب اتصاله بالغرب وعلومه، إذ لا معنى لاستبطان الشرق الإسلامى وخصوصاً لا معنى لقوله « وتمسك به متيقناً أنه مصير اخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية ! » لأن ذلك القول لا ينطبق على الشرق الإسلامى، فمن هم اخوان الشرق الإسلامى الذين سيكون مصيرهم مصيره فى الإلحاد متى وصلوا إلى درجته فى العلم؟ فهل الشرق الإسلامى ألحد أولا واستبطن إلحاده انتظارا منه أن يصل أخوانه الشرقيون غير المسلمين إلى درجته العلمية فيلحدوا مثله[1] ؟

والحق أنه لا معنى لهذا البيان، فليس مراده من الشرق الإسلامى إلا نفسه واخوانه الذين ينتظر أن يكون مصيرهم مصيره، اخوانه.. ثم ذكر أن فى البلاد الإسلامية نوابغ مثله من الكتاب والشعراء يستبطنون الإلحاد ويهيئون الأذهان لقبوله دسا فى مقالاتهم وقصائدهم كما يدس الأستاذ.. فإن كان للفقرة المتقدمة من كلام الأستاذ معنى غير ماذكرنا كانت هذه الفقرة الثانية تكراراً للأولى من غير طائل[2]

[١] ومن العجائب أن مشيخة الأزهر تحاول دعوة الغرب إلى الإسلام بواسطة ترجمة القرآن إلى لغات الغربيين فى حين أن الشرق الإسلامى يستبطن الإلحاد على قول رئيس تحرير « مجلة الأزهر » و « نور الإسلام » فهل لايلزم إذن أن يكون الشرق الإسلامى أحوج إلى الدعوة إلى الدين قبل الغرب؟ وإن كان المراد من الشرق الإسلامى المستبطن للإلحاد هو الأستاذ نفسه أعنى رئيس تحرير مجلة الأزهر، تبتدىء الحاجة إلى الدعوة من دعوة الأزهر وتستفحل الرزية.

[٢] مثلا إن الأستاذ لا يصدق أو على الأقل يلزمه أن لا يصدق بخارقة تولد المسيح عليه السلام من مريم البتول بسبب كونها مخالفة لقانون العلم الطبيعى ويرد قول كتاب الله فيها إلى المتشابه كما رد إليه سائر آيات المعجزات بمين السبب ونص الكتاب هكذا : =

وكان دس الأستاذ أبلغ وأقرب إلى المصارحة ، لاسيما فى قوله « لم ينبس بكلمة لما رأى دينه ماثلا بين الأديان المقذوف بها إلى عالم الأساطير ، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله » يعنى أنه يرى غير ممكن أن ينقذ دينه فيخرجه من الحفرة التى قذف به إليها مع سائر الأديان ، بأن يدافع عنه بالحاجة ، فقد سجل على نفسه نيابة عن الشرق الإسلامى بالعجز عن الدفاع عن الإسلام ولقّن من يحاول الدفاع عنه درس اليأس ، وبهذه تم الدس !!

وقد جاءت كتابة هذه الكلمات من الأستاذ جواباً عما كتبته فى الرد على مقالته الأولى ، فكأنه حاول تهديدى بسلاح العلم الحديث قائلا : إن هذه المسائل التى تصر أنت على الاحتفاظ باعتقادها وتوصى بها للناس ليعضّوا عليها بالنواجذ ، قد قذف بها العلم الحديث — الذى له الدولة اليوم فى الأرض — قذف بها مع الأديان المنطوية عليها إلى حفر الأساطير .. وقد جرى قبلك أمور أنت فى غفلة منها وهى أن متعلمى الشرق الإسلامى بعد الاتصال بعلوم الغرب رأوا دينهم فى تلك الحالة المنبوذة ، فلم يستطيعوا أن يتكلموا فى الذود عن دينهم كلمة ... قاله وظننى أتهيب كون القاذف بالأديان جملة هو العلم وأكم فمى كما تهيّب الشرق الإسلامى وكم فمه ، وقد عرفت أنه كنى بالشرق الإسلامى عن نفسه ؛ أو ظننى أشوب دفاعى عن كرامة الدين الإسلامى

= « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . »

ولينظر القارئ كيف تكون هذه الآيات الصريحة متشابهة غير مفهومة ؟ نعم فيها من المتشابه قوله تعالى فقط « فأرسلنا إليها روحنا » .

بشيء من التخوف والتقهقر أمام ذلك السلاح الراق كما شاب الشيخ محمد عبده فى مناظرة الأستاذ فرح أنطون لما حمل عليه الأستاذ بسلاح فصل الدين عن الدولة الذى تمسك به الغربيون فتقدموا على زعمه بفضل هـذا التمسك وأهمله المسلمون فتأخروا . فحملته أى الشيخ هـذه الحملة يتقهقر أمامها ويهاجم علماء الدين بدلا من خصمه متهما إياهم بالجمود ومحملا عواتقهم وبال تأخر المسلمين . فكأنه لولا جمودهم الذى يمنعهم من الأخذ بكل جديد لاقتبس المسلمون مبدأ الفصل أيضاً ، كأنه لا مانع من العمل به غير جمودهم ، أو كأنه لا جواب عن مسألة إهمال هذا المبدأ غير الطعن فى علماء الدين بدلا من الطعن فى مبدأ الفصل نفسه !

لكن الأستاذ سيرانى إن شاء الله أصمد ولا أتقهقر أمام أى خصم فى الدفاع عن الإسلام حتى ولو كان الخصم علماً من العلوم أو بالأصح ولو كان زعم كثير من الناس كذلك . لأن لى عقيدة راسخة وإيماناً ثابتاً يكفلان لى بأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه وأنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

أما تظاهر الأستاذ بالدفاع عن الإسلام بعد أن لقّن الناس درس اليأس عن الدفاع، برد ما فى القرآن من أنباء المعجزات والبعث عن القبور للحشر والحساب والثواب والعقاب .. برد كل ذلك إلى المتشابهات ـ فلا يزيد على العجز الذى سجله على نفسه فى تسجيله على الشرق الإسلامى ، بشيء غير ما يشبه قولهم : « عذره أقبح من ذنبه » إذ ليس معنى رد تلك الأنباء إلى المتشابهات إنكارَ ما جاء عنها فى القرآن بلطف ، بل معناه إنكاره بأقسى تعبير وأشنعه .. ففيه تكذيب القرآن بادعاء أن ما ورد فيه على صورة الواقع غير واقع ، وفيه تجهيل القرآن بادعاء أنه لا يميز المحال من الممكن فيحدث عما لا يمكن وقوعه فى صيغ الواقع [1] وفيه مع ذلك رمى القرآن بالفشل

---

[١] وكان واجب الأستاذ لو أن عنـده شيء من الغيرة الدينية أو استقلال الفكر ، أن لا يحكى فعل العلم الحديث هذا بالدين كمسلم بصحة مافعله، بل يحتج عليه بما معناه : غاية مايكون =

والإخفاق فى محاجة المنكرين فلا يحصل على شىء من غير إضاعة أنفاسه ، حيث يجتهد ليقيم شواهد على قدرة الله وصدق أنبيائه بالمعجزات التى أخبرنا بظهورها على أيديهم ، فتكون نتيجته عجز الله عن خلق تلك المعجزات وعن تفهيم الناس أنباءها المسرودة فى كتابه المنزل على خاتم رسله... ففضلا عن إقناعهم بوقوعها، يأتى بالقول المتشابه بدلا من المقنع . كما أنه أى القرآن يحاول محاجة المنكرين لليوم الآخر استبعاداً منهم لبعث الموتى عن قبورهم بعد أن كانوا تراباً ، بإيضاح قدرة الله عليه فى فنون من أساليب الإقناع وأمثلة القدرة ليقربه من الأفهام فلا يستطيعه ويُقضى عليه بالفشل ، فهو فيما يقول مثلا فى آخر سورة يوسف :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولـكن تصديق الذى بين يديه ... » الآية .

وفيما يقول : « ذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون . »

وفيما يقول : « فلينظر الإنسان ممَّ خُلق خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تُبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل .. »

وفيما يقول : « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا نعم فأذَّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين

= من حق العلم المبنى على التجربة الحسية أن لا يحكم فى شأن الدين إثباتا أو نفيا كما قال معالى الدكتور هيكل باشا « لا يثبت ولا ينفى » أما قذفه بالأديان جملة إلى عالم الأساطير ، الذى يرجع إلى الحكم فيها بالنفى فليس ذلك من حق هذا العلم بميزانه الحسى الضيق ، فإذا اجترأ عليه خرج عن حدوده فانقلب جهلا . وسيطلع القارئ على تحقيق قولى هذا وتفصيله إن لم يطلع عليه فيما سبق من هذا الكتاب .

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون . »

وفيها يقول : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إنى كان لى قرين يقول أءنك لمن المصدقين ، أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون . »

وفيها يقول : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه[1] وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون . »

وفيها يقول : « ومن آياته خلق السموٰات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . »

وفيها يقول : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير . »

وفيها يقول : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . »

وفيها يقول : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد . »

وفيها يقول : « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموٰات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير . »

---

[١] الأستاذ فريد أحوج الناس إلى البعث ليبين له الله ما اختلف فيه مع مجادليه وفيهم القرآن وآياته التى أوردنا بعضاً منها . ولم يقع من الأستاذ أن عدل عن دعواه واعترف بأنه مخطىء أمام أية حجة قطعية . ولعله ينكر البعث لئلا يظهر أخطاؤه فى مجادلاته مع الناس ظهوراً لا قبل له بإنكاره .

وفيما يقول : « ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الـكافرون هذا شيء عجيب . أءذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد . قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . »

وفيما يقول : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوِّيَ بنانه . بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة . »

وفيما يقول : « ويل للمكذبين الذين يكذبون بالدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال هذا الذى كنتم به تـكذبون . »

وفيما يقول : « ويل يومئذ للمكذبين . فبأى حديث بعده يؤمنون[١] . »

وفيما يقول : « يوم يقوم الروح والملائـكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا إنا أنذرناكم عذاباً قريباً . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الـكافر يا ليتنى كنت تراباً . »

وفيما يقول : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تُبـدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحـد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوهَهم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب » .

فى كل ذلك وأمثاله التى لاتحصى من كثرتها، يلزم على رأى الأستاذ فريدوجدى

[١] وهذه الآية آخر سورة كرر فيها قوله « ويل يومئذ للمكذبين » عشر مرات .

أن يكون القرآن ببلاغته المسلَّمة لم ينجح فى مهمته ولم يقم بحجته وإنما أتى بعبارات غير مفهومة . وإذا لم ينجح القرآن فى تفهيم قدرة الله على إنشاء الناس بعد موتهم وكونهم ترابا ، نشأة ثانية ، بالرغم من كمال اعتنائه بتفهيم ذلك فليس بناجح فيما سواه من مقاصده ، ولم يبق معنى لكونه فى أعلى درجات البلاغة..وإذا كان القرآن معجزاً فهل إعجازه فى أن لا يستطيع تفهيم كلامه وتبليغ مرامه فيأتىَ بما لا يفهم ويكرره فى أساليب منوعة غير مفهومة ؟ فهو معجز أم عاجز ؟[1] مع أن نصوصه التى أوردنا قبل هذا الكلام نماذج منها واضحة يفهم معانيها كل من يعرف العربية الفصحى . والحقيقة أن قول القائل فى حق كلمات ظاهرة المعانى : « انها لا تُفهم » معناه إنكار مافهم منها ببرود ومرود .

هـذا إذا كان مراد الأستاذ من اعتبار آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت من المتشابهات اعتبارَها من متشابه اللفظ الذى لا يفهم معناه اللغوى كالحروف المنفصلة الواردة فى أوائل بعض السور[2] أما إذا كان مراده من رد المتشابهات اعتبارَها من متشابه المعنى مثل « الرحمن على العرش استوى » بناء على أن له معنى مفهوما ولكن

---

[١] وليت شعرى كيف يؤلف الأستاذ فريد الذي كان فى طليعة المحبذين لحادثة ترجمة القرآن إلى اللغة التركية ليقرأها المصلون فى تركيا الحديثة ، وفى طليعة المنفقين فى سبيل تحبيذها كثيراً من الحبر والورق ، كيف يؤلف بين ادعاء إمكان الترجمة وبين كون كثير من آيات القرآن متشابهاً عنده لا يفهم مراد الله منه ؟

أجل ولا عجب فى ذلك فإن الأستاذ فسر القرآن فيما مضى من الزمان من أوله إلى آخره . فيظهر أنه فسره من غير فهم ، فلا بدع إذن إن ترجمه المترجمون أيضا غير فاهمين .

[٢] وهذا الاحتمال على الرغم من كونه فى غاية البعد قد حملنا مراد الأستاذ عليه أولا لكون المحذور المترتب على الاحتمال الثانى الذى ذكرناه بعده وهو تكذيب مانطق به القرآن ، مستوراً غير ظاهر فى هذا الاحتمال ولأن مادعاه الأستاذ فى مقالاته التى رد بها علىّ ، من عدم كون ماأراد الله من تلك الآيات مفهوما ولا كونه مطلوب الفهم ، يميل إلى هذا الاحتمال ، كما كان فى كلامه ما يميل إلى الاحتمال الثانى أيضا .

المعنى المفهوم منه محال فى حقه تعالى لإيهامه الجسمانية . فكأن المعانى المفهومة من آيات المعجزات وبعث الأموات مستحيلة أيضاً لاستحالة وقوعها ، وقد صرح الأستاذ فى مقالاته بهذه الاستحالة عند نقاشنا المسألة . فإذا كان الأمر كذلك كان مراده من تسمية هذه الآيات بالمتشابهات تكذيبها لكونها ناطقة بالمحالات ، مع استبطان هذا التكذيب .

ثم إنا لو فرضنا أن الأستاذ يتأول آيات المعجزات والبعث والنشور بهذا التأويل الفاسد المبنى على الفاسد وينقذ القرآن على زعمه من أن يكون ناطقاً بالمستحيلات ، فماذا يفعل فيما يعتقده المسلمون من أن القرآن كلام الله المنزل بواسطة الملك على محمد صلى الله عليه وسلم وينطق به القرآن نفسه كما ينطق بنزول التوراة والإنجيل والزبور على موسى وعيسى وداود عليهم السلام ؟ مع أن العلم الحديث الذى تبجح الأستاذ به وبنبذه الأديان إلى عالم الأساطير ، لايقر بمسألة الوحى وإنزال الكتب ، ويراها أيضاً من المستحيلات المخالفة لسنة الكون كما يرى المعجزات وبعث الأموات منها [1] ويعتبر هذا الرأى فى رأس أسباب نبذه الأديان إلى عالم الأساطير ، فهل يصدق الأستاذ العلم الحديث فى رأيه هذا أيضاً ، ثم يراجع المخلص الذى ابتدعه إزاء آيات المعجزات وإحياء الموتى فيرد آيات الوحى وإنزال الكتب أيضا إلى المتشابهات التى لا تفهم معانيها أو لا تقبل على ظواهرها وينتهى بسخافته إلى إنكار أساس النبوة وإنكار أن يكون القرآن كتاب الله المنزل ؟؟ وإذن فما معنى تأويل آياته وتأليفها بمقتضى العقل والعلم ؟ وما الحاجة إلى هذا التكلف فى تصحيح نصوص كتاب ليس بكتاب الله ولا بضرورى

[١] ألا ترى أن الأستاذ فرح أنطون حين أحصى مالا يقبله العقل والعلم على زعمه من العقائد الدينية الأساسية مثل وجود الله والمعجزات والبعث والحشر والثواب والعقاب ، ذكر معها الوحى والنبوة أيضا ! ومن هنا يظهر سر اجتهاد الأستاذ فريد لما لاح له أخيراً أن يكتب مقالات فى « مجلة الأزهر » لإثبات إمكان النبوة والوحى ، فى تصوير النبوة بما يشبه العبقرية إن لم يجعل منها صراحة . وقد سبق الكلام عليه .

من هـذه الناحية أن يكون جميع ما حواه مضمون الصحة ؟ مع أن ذلك التصحيح في معنى الإفساد والإلغاء .

هذا رأى الأستاذ فريد وجدى بك وهـذا ما ينتهى إليه رأيه وهو يعلن على صفحات جريدة « الأهرام » ولا يقابله الرأى العام الإسلامى بمصر بالاستنكار حتى ولا إفشاءه عن كتاب المسلمين وشعرائهم النوابغ فى استبطانهم الإلحاد وما ينتظرونه من أن يكون مصير غيرهم مصيرهم متى وصلوا إلى درجتهم العلمية .

وقد يتوقع من الأستاذ بعد اطلاعه على قولى هـذا أن يقول : « إذا كان الرأى العام الإسلامى لم يقابل ما جهرت به من الفكرة بالاستنكار ولا الكتاب والشعراء النوابغ الذين أفشيتُ عنهم مايستبطنونه من الإلحاد ومايدسون فى مقالاتهم وقصائدهم من تهيئة الأذهان لقبول ما يستبطنونه إلى أن يكون الباطن ظاهراً ... إذا كان هؤلاء وهؤلاء لم ينكروا علىّ ما كتبته وأنا اليوم رئيس تحرير « مجلة الأزهر » ومديرها بعد مجلة « نور الإسلام » فماذا يكون من حق الشيخ مصطفى صبرى أن يقوله ، ومتى من المؤيدات ماأحصاه هو نفسه ؟.. ومن بديع المؤيدات أن تعيينى من مجلس الأزهر الأعلى لرأس مجلة الأزهر المسماة يوم التعيين « نور الإسلام » صادف زمناً أوشك فيه النقاش بينى وبين الشيخ أن ينتهى ولم ينته بعد ، فجاء ذلك جواباً على حملات الشيخ أبلغ من الرد الذى تتضمنه مقالاتى المقابلة » !!

وأنا أجيب على قول الأستاذ هذا المفروض بأنى لا أنكر هذه المؤيدات لاسيما الأخيرة التى نالها كمكافأة على رأيه فى معجزات الأنبياء وبعث الناس بعـد الموت وتحمسه فى حكاية مافعله العلم الحديث بالأديان وما عجز الشرق الإسلامى أن يفعله من الدفاع عن دينه وما زاد الطين بلة من تطوع نوابغ الكتاب والشعراء وكلاء العـلم الحديث الغربى فى الشرق الإسلامى للسعى فى القضاء على مابقى فى القلوب من الإسلام

وإقامة الإلحاد مقامه ، دساً فى مقالاتهم وقصائدهم ... أنا لا أنكر وقوع المكافأة على مالعب الأستاذ من دوره فى هذه الأفعال التى مثّلها بمهارة ، حتى إنى لا أنكر احتمال ارتقائه بعد حملاتى الجديدة عليه فى كتابى هذا ، إن لم أقل إلى مشيخة الأزهر فإلى مشيخة كلية أصول الدين !.. وربما أكون أخدم مصلحته بتلك الحملات ولا أضن به عليه ، بصفة رجل ضحى بكل شىء فى سبيل التصريح بكلمة حق ، لاسيما فيما يتعلق بالدفاع عن الإسلام وعقائده العزيزة ... لا يمنعنى من نقد أفكار الأستاذ ومبادئه المستندة إلى التقليد المحض للغرب ، كثرة المؤيدات التى وجدها وقد لايزال يجدها فى مصر الحاضرة المقلدة بل المستبطنة للإلحاد على تقدير الأستاذ نفسه فى حق الشرق الإسلامى الذى لايمكن أن تكون مصر خارجة عنه ، ولا يكبر فى عينى أن تكون الدنيا مع الأستاذ زيادة على مستبطنى الإلحاد النوابغ بل ولا العلم الذى يدعى أنه يستند إليه فيما يستند إليه ، إذ لا يمكن أن يكون العلم الذى يدعو منعلميه إلى الإلحاد، علماً صحيحاً تجاه قوله تعالى « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ».

بل إنى أقول قولا يحل ما أشكل على الأستاذ فى مسألتى المعجزة والبعث بعد الموت من أساسهما : وهو أن الأستاذ الذى أنكرهما وادعى استحالتهما عند العقل.. لاشك أنه تابع فى هذا الرأى للغربيين علماء العلم الحديث الذى أطراه فى صدر مقالته كما نقلناه من قبل ، ولكن هل يعرف الأستاذ أن منكرى المعجزات والنشأة الأخرى من علماء الغرب ينكرونها لعدم اعترافهم بوجود الله وبنائهم الكائنات على أساس الطبيعة ؟ فلو كانوا اعترفوا بوجود الله الذى يخلق ما يشاء ويختار فلا داعى إذن إلى إنكار المعجزات والنشأة الثانية ولا إلى القول باستحالتهما عند العقل لأنه إذا كان الله هو الذى خلق الناس فى نشأتهم الحاضرة فى الإمكان دائما أن يخلقهم بعد موتهم وتلاشى أبدانهم مرة ثانية أو ثالثة أو كلما شاء ذلك . وكذا إذا كان الله خالق الحيوان والنبات بجميع أنواعهما فمن السهل عليه أن يخلق ثعبانا من عصا موسى عليه السلام

ولا مانع منه أصلا فى نظر العقل بعد تسليمه بوجود الله ، وبعد الاعتراف بوجود الله يكون كل شيء سهلا ويكون التوقف فى مسألة المعجزات أو البعث بعد الموت لاداعى له إلا غباوة المتوقف[١] .

فلابد للأستاذ فريد وجدى إما أن يؤمن بالله ويؤمن معه بما جاء فى كتابه من أنباء معجزات أنبيائه وبعث الناس بعد موتهم كما يفعله كل مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإما أن لايؤمن بالله ولا بما جاء فى كتابه من أنباء المعجزات والبعث كما يفعله الذين أخذ عنهم إنكار المسألتين من ملاحدة الماديين والطبيعيين والذين سأناقشهم فى هذا الكتاب على أساس ضلالاتهم أعنى إنكار وجود الله .

٦

ثم إنا لانقتصر فى الاستشهاد لغلبة عقلية الإلحاد فى مصر بين المتعلمين المصريين بدافع تيار الضلال العلمى ، على الشواهد المتقدمة ، وإن كان كل من تلك الشهادات لاسيما شهادة الأستاذ فريد وجدي بك بالنظر إلى مركزه الأزهرى الذى حصل عليه قبل خروجه من حلبة المناظرة ، قائمةً مقام شهادات شهود غفيرة :

فقد وقع فى مقالة أرسلت من باريس إلى مصر قبل سنوات[٢] نالت الجائزة الأولى فى المباراة الصحفية عنوانها : « عدة النجاح لرجل القرن العشرين » وقد نشرتها جريدة «الأهرام» فى عددها ١٨٥٨ :

---

[١] على أن الفيلسوف الكبير « كانت » الذى انتقد جميع أدلة وجود الله المعروفة واختار دليلا آخر اخترعه كما سيأتى بيانه فى هذا الكتاب ، أثبت وجود عالم الآخرة بالدليل نفسه الذى أثبت به وجود الله ، ومعنى هذا أن لوجود عالم الآخرة أهمية عند « كانت » بدرجة أهمية وجود الله حتى إنه إن لم يصح وجود الآخرة لعيب فى دليله لم يصح وجود الله أيضا لاستنادهما عنده إلى دليل واحد .

[٢] لكاتبها عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس ، السوربون والماجستر فى الآداب

« ... وإذا أردت أن تعرف الفرق بين العقليتين « الغيبية والعلمية » فسل من شئت من عامة الناس لماذا يطير الطائر ؟ فسيكون جوابه حتما : لأن له أجنحة ، وهو بذلك يجعل الطيران نتيجة العضو ، والعـلم يرى عكس ذلك أى يرى الوظيفة متقدمة وقد نتجت عنها العضو .

« وصفوة القول أن الرجل المصرى يجب أن ينبذ العقلية الغيبية[1] ويطاردها فى كل مكان حتى تستوى له عقلية علمية من هذا الطراز الذى نشاهده فى معامل العلماء .

« يتصل بالعقلية الغيبية هـذا الاعتقاد الشرقى بأن العالم مسيَّر لا قدرة لنا فيه وأن القوة المسيِّرة تتدخل فى تتابع أحداثه فتقدم وتؤخر وتحيى وتميت بغير حساب ، ويجوز أن تعدل عما سبق أن كتبت من آجال، وقد تسرب هذا الاعتقاد إلى فلسفاتهم دينية كانت أو عقلية ، فقد بحث متكلمو المسلمين فى هل يستطيع الله أن يقدم الآجال أو يؤخرها عن ساعتها فذهب بعضهم إلى إمكان ذلك ، وهم لعمرى لم يفهموا بذلك قدرة الله تعالى ، فإن النظام المطرد فى العالم وتسلسل العلل ومعلولاتها أدل على القدرة اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته[2] وكأنى بأولئك المتكلمين ومن لف لفهم ، يتصورون هذا النظام على أنه ليس من طبيعة الأشياء نفسها ولـكنه فُرض فرضاً عليها من خارجها يمكن تعديله أو العدول عنه فى كل لحظة ، لهذا استسلم أهل الشرق إلى ما أسموه تارة « بالقدر » وتارة « بالقسمة » أو « النصيب » .

---

[١] يريد بها العقلية الدينية .

[٢] يريد به التعريض لمسألة المعجزة والطعن فى المؤمنين بها أيضا . فالله تعالى يمدح الإيمان بالغيب ويجعله رأس أوصاف المهتدين بهدى القرآن فيقول « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون » وكاتب المقالة من باريس يوصى قومه بمصر أن يطاردوا العقلية الغيبية وتراها لجنة المباراة الصحفية بها جديرة بالجائزة الأولى .

أوجب كاتب المقالة على رجل القرن العشرين أن يطارد العقلية الدينية ، التي ذكرها تحت ستار العقلية الغيبية أي عقلية الإيمان بالغيب، في كل مكان ويطارد معها مايتصل بها من الاعتقاد الشرقي القائل بأن العالم مسير لا قدرة لنا فيـه ، ذلك الاعتقاد الذي نسميه الإيمان بالقدر .

وأنا أقول إن الشرقيين المتدينين يعتقدون كون العالم مسيرا من قِبل الله وهـذا مالايرضاه الـكاتب ، لأنه على مذهبه الذي يفهم من كلامه سائر بنفسه ولامسيِّر له . وخلاصة ما لاكه بين فـكي قلمه هي الشكاية المعروفة المبتذلة من تأخر الشرق المتدين باستسلامه إلى القدر وإهماله السعي والعمل وهو يزعم أن منشأه الإيمان بالقدر المستور عنا، في ضمن الإيمان بالغيب الذي أوله الإيمان بالله على الرغم من كونه غير منظور كما قال الأستاذ فرح أنطون وذكرناه في رقم (٤) والإيمان بالله ـيقود المؤمن إلى اعتقاد أنه الحاكم المسيطر على العالم الذي هو ملـكه لايشاركه فيه أحد ولا يجرى في ملـكه إلا مايشاء . فلايسع عقل الـكاتب القصير تأليف السعي والعمل للإنسان وتقدير أي قيمة لسعيه وعمله ، مع اعتقاد أن العالم في قبضة الله لاينفذ فيه غير مشيئته، وتـكون نتيجة عجزه عن هذا التأليف أنه يسعى لتحريض الشرق المؤمن بالله وبالقـدر خيره وشره من الله ، على مطاردة العقلية الدينية الغيبية ويعد تلك العقلية رأس كل خطيئة ، وتعد لجنة المباراة الصحفية بمصر مقالة هذا الـكاتب ـ ويااللاسف ـ جديرة بالجائزة الأولى. فلو علم الـكاتب بالاختصار قول نبيه صلى الله عليه وسلم « اعملوا فـكل ميسَّر لما خلق له » أوقرأ بالتفصيل كتابي « تحت سلطان القدر » المنشور قبل مقالته بعامين، لما فقد عقله بين العقلية الغيبية والعلمية وماتعذر عليه التأليف بين سعي الإنسان وإيمانه بالقدر .

وإني جد متعجب من كون الطاعنين في الإيمان بالقدر وفيهم كثير من علماء هذا الزمان، يعيبون هذه العقيدة القائلة بأن كل شيء في العالم يجرى تحت مشيئة الله وفيه أفعال الإنسان وإراداته ، بأنها تجر معتقدها إلى الـكسل وتمنعه عن العمل ، مع أن أصحاب

هذه العقيدة الرادين كل مايقع فى العالم إلى مشيئة الله ، يقولون إن الإنسان يعمل تحت مشيئة الله ولا يقولون انه يكسل ويتوقف عن العمل تحت مشيئة الله ، ومن أين يحكم أولئك الطاعنون أن الله تعالى يريد لعباده الكسل ولايريد لهم العمل ؟ نعم يتثاقل من يتثاقل عن السعى بمشيئة الله ويسعى من يسعى أيضا بمشيئة الله ، فلافرق فى مسألة السعى والبطالة بين العقيدتين عقيدة كون الإنسان فى قبضة مشيئة الله وعقيدة كونه مستقلا فى أفعاله . ولهذا لم يقع فى السلف ترجيح أحد المذهبين المختلفين بين الأشاعرة والمعتزلة فى مسألة أفعال الإنسان على الآخر بسبب تأديته إلى العمل والآخر إلى الكسل ، وإنما حدث هذا الترجيح فى زماننا من بعض العلماء الغافلين تقليدا للجريان الآتى من الغرب الرامى إلى اتهام المسلمين فى عقائدهم ، وكاتب المقالة ماش على طريقة هذا الاتهام. ومن أين له — وستعلم مبلغ عقله ومنطقه — التقدير بدقة المسألة التى التبست على عالم كبير مثل المرحوم الشيخ بخيت كما هو مبسوط فى كتابى المار الذكر ؟ فقد لايُستكثر التباسها على كاتب المقالة من باريس . إلا أن هناك نقطة أخرى توجب معاتبة الكاتب ومؤاخذته عليها ، وهى أنه يعيب الشرق المتدين بعقيدة القدر لكونها عقيدة الجبر بالإجمال وهو لايدرى أن الإنسان مسيَّر أيضا فى مذهب ملاحدة الماديين والطبيعيين الذين يروِّج الكاتب آراءهم فى غير موضع من مقالته لكنه مسير عندهم من قِبل الطبيعة لامن قِبل الله ، ويسمى مذهبهم مذهب الإيجابية ، والجبر الذى فى مذهبهم أشد وأقسى من جبر الله الذى يؤلفه باختيار الإنسان وقد حققته فى «تحت سلطان القدر» كما إنى سأزيد على تحقيقه فى هذا الكتاب إن شاء الله . وهذا الذى قلنا يشهد به أن المادى والملحد المشهور « بوخنر » ينفى فى كتابه « القوة والمادة » الإرادة والاختيار للإنسان ، لكن كاتب المقالة غير عارف حتى بمذهب الذين يقتدى بهم .

فقوله بصدد الاستهانة بالمتكلمين علماء الإسلام : «وكأنى بأولئك المتكلمين ومن لف لفهم يتصورون هذا النظام [فى العالم] على أنه ليس من طبيعة الأشياء نفسها

ولكنه فرض فرضا عليها من خارجها يمكن تعديله أو العدول عنه » من ذلك الفارض، صريح فيما ذهب إليه ملاحدة الماديين والطبيعيين مثل « بوخنر » الألمانى وغيره من أن نظام العالم الذى يجد فيه المتكلمون فى الشرق والفلاسفة الإلهيون فى الغرب أجلى دليل على وجود ناظم حكيم عليم خارج عن العالم المعبر عنه بما سوى الله ، أتاه من نفسه وطبيعته لا من خارجه . فكاتب المقالة يزين هذا المذهب القديم الباطل فى أعين القارئين بزى حديث علمى يليق برجل القرن العشرين أن يتخذه مذهبا له ويستغنى عما كان الناس يعتقدون فى القرون الماضية من وجود إله خالق للكائنات ونظمها ... ذلك المذهب الذى عُنينا بإبطاله فى هذا الكتاب ، ولجنة المباراة الصحفية بمصر ترى المقالة مستحقة للجائزة الأولى معلنة بذلك تحبيذ ما اقترحه الكاتب فى مقالته على أهل بلاده من نبذ العقلية الدينية التى يسميها العقلية الغيبية استنكاراً لها ونبذ ما عليه المتكلمون علماء أصول الدين من أن واضع نظام العالم هو الله الذى خلق العالم . وهذا كارتقاء الأستاذ فريد وجدى إلى رئاسة مجلة « نور الإسلام » الأزهرية عقب نشر مقالاته المنكرة لمعجزات الأنبياء والنشأة الآخرة للناس بعد موتهم ..

أما إيهام كاتب المقالة الباريسية فى سياق كلامه كأنه يؤمن بالله وبقدرته السامية فهو تكتم ظاهر ومراعاة لصنعة الدس الذى ذكره الأستاذ فريد وجدى لمستبطنى الإلحاد من الكتاب والشعراء النابغين فى الشرق الإسلامى . فإن لم يكن كاتب المقالة من النوابغ فهو يسعى بدس الإلحاد فى مقالته ليكون منهم ، حيث يتكلم عن قدرة الله تعالى اللامتناهية التى فطرتها نظام العالم وأبدعه ثم يدعى أن ذلك النظام آت من طبيعة الأشياء نفسها لم يُفرض فرضا عليها من خارجها كما يتصوره المتكلمون ، ويعنى بهذا أن نظام العالم لم يأته من قِبل الله . وهذا تناقض واضح ينفجر من بين عقلية الكاتب اللادينية العلمية وبين تظاهره بالإيمان بالله وبقدرته اللامتناهية ، رثاء لا تتماسك أركانه ، وقلما تكتب فى الدنيا مقالة ملأى بالمناقضات والاغلاط العلمية كهذه المقالة . فلو قدرت

لأعطيت لجنة المباراة الصحفية المصرية التي أنالت المقالة الجائزة الأولى، جائزة الاختيار المعكوس الأولى. وبهذا كانت مصر أتت بشاهد جديد لصدق ماقلت عنها سابقا من أن ضعف الدين يروج فيها أكثر من قوة العلم ، وإنى أرجح هذا الاحتمال على احتمال كون أعضاء اللجنة بعيدين إلى هذا الحد من تمييز الكاسب فى المباراة عن الراسب !..

ومن مناقضات كاتب المقالة لنفسه الدالة على جهله العميق بالمباحث العلمية التي يتكلف التكلم فيها أنه قال بعد رمى المتكلمين بعدم الفهم لقدرة الله أو تفهيمها للناس[١] «إن النظام المطرد فى العالم وتسلسل العلل والمعلولات أدل على قدرة الله اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته . »

وأنا أقول: تسلسل العلل والمعلولات ليس إلا قول المنكرين لوجود الله ، فهم يقولون إن العالم عبارة عن مجموعة سلسلة العلل والمعلولات اللامتناهية فكل علة فى السلسلة معلولة لعلة تقدمتها وكل معلول علة لمعلول آخر يعقبه، فلا تنتهى سلسلة العلل المتصاعدة إلى علة تكون هى العلة الأولى وينقطع فيها التسلسل لعدم وجود علة تتقدمها ، كما لا تتنازل المعلولات إلى معلول أخير لا معلول بعده ، فسلسلة الكائنات ـ وكم فيها من سلاسل ؟ـ كالحلقة المفرغة من حيث أنها لا أول لها ولا آخر ، وإن كانت مختلفة عن الحلقة فى شكل الامتداد ، إذ لا تنازل فى الحلقة ولا تصاعد كما كانا فى سلاسل الكائنات الممتدة بين الماضى والمستقبل .

فهذا هو تسلسل العلل والمعلولات ، والذين يثبتون وجود الله يثبتونه بإبطال هذا التسلسل من جانب الماضى أى تسلسل العلل الذى لا ضرورة على تقدير القول

---

[١] انظر كيف يصغر المتكلمون مدونو عقائد الإسلام ومؤسسوها على أسس علمية ، فى عين طالب بالجامعة المصرية أولا ثم بباريس وفى عين لجنة المباراة الصحفية التى منحت هذا الطالب الجائزة الأولى .

بعدم بطلانه للاعتراف بوجود الله فيجعلون الله تعالى مبدأ لسلسلة الكائنات ويقطعون به تسلسل العلل الذى هو تسلسل فى جانب الماضى . والقائلون بهذا التسلسل يريدون أن يستغنوا به عن الاعتراف بحاجة العالم إلى وجود الله ، وكاتب المقالة يقول عن هذا التسلسل الذى يتمسك به نفاة الله ، للاستغناء عن القول بوجوده: « إنه أدل على قدرة الله اللامتناهية » فكأنه تعالى خلق آثارا ومؤثرات تتعاقب فى الوجود وتغنى من كثرتها وعدم تناهيها عن أن يكون الله هو نفسه موجودا، على أن يكون المؤثر الأول الذى لامؤثر قبله ، لأن الحاجة إلى وجود الله إنما تتصورعلى تقدير انقطاع سلسلة العلل المؤثرةفى جانب الماضى ، أما إذا لم تزل السلسلة مستمرة فى الانتقال من علة سابقة إلى أسبق ولم تنته إلى علة ليست قبلها علة فلا يكون الله موجودا ولا يأتى فى السلسلةالممتدةإلى جانب الماضى ، دورالحاجة إلى وجوده مهما تمادى متماد فى الرجوع إلى ذلك الجانب . وكان كاتب المقالة إلى لجنة المباراة يأخذ على المتكلمين أنهم يجعلون من قدرة الله وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته ، ويعتبر ذلك تصورا ركيكا ، والحال أن الأستاذ نفسه يجعل من قدرة الله تعالى اللامتناهية وسيلة لإغناء الكائنات عن وجوده أى الله نفسه ولا يرى مافيه من الركاكة البالغة حد الاستحالة وهى قدرة الله على أن تجعل سلسلة الكائنات مستغنية عن الله نفسه فتجعلها أى الكائنات موجودة من غير حاجة منها إلى وجود الله ، فبالنظر إلى أن هذا الجعل من الله فالله موجود وبالنظر إلى وجود الكائنات من غير حاجة إلى وجود الله فالله غير موجود ؛ فهذا تناقض ناتج من كلام الأستاذ فى مقالته ، منشأه تجويز تسلسل العلل من غير انتهاء إلى العلة الأولى ، الذى يتمسك به نفاة وجود الله بالمرة ، والكاتب من المعجبين بهم مع التظاهر بالاعتراف بوجود الله . ولا معنى لهذا الاعتراف غيرالتناقض المردود أو الدس المعهود .

ومسألة بطلان التسلسل الذى يأتى تحقيقه إن شاء الله فى المطلب الأولمن الباب

الأول من هذا الكتاب وفى الفصل المعقود لمسألة حدوث العالم من الباب الثانى ، لم يفهمها الشيخ محمد عبده بل الفيلسوف الألمانى الكبير « كانت » أيضا لمّا انتقد أدلة وجودالله المعروفة ، فماظنك بالأستاذ الكاسب للجائزة الأولى من لجنة المباراةالصحفية الغافلة أو المغرضة ، وماذنب علماء الأزهر المتأخرين بقليل فى تجرؤ من هب ودب من الكتاب الأحداث على العلوم الدينية من غير أن يكون لديهم إلمام بها . وهـذا بعد ذنب البيئة العلمية التى نشّأت هذا الشاب مجهزاً بخليطة من العلم بدنياه والجهل بدينه مع الظن بأنه علم أيضا يقضى على علوم علماء الإسلام المتقدمين .

والمسئول الأول عن ضلاله الطريق العلمى المستقيم بل المذنب الأول الذى شجعه على التخبط فى مسائل تتعلق بالدين الإسلامى من غير تزويده بما يجعله أهلا للتكلم فيها هو الجامعة المصرية إن كانت هى منشأه . وإن كان ناشئا من جامعة غربية فالمذنب الحقيقى سُوق مصر الثقافية التى تقيم لأبناء البلاد المتخرجين من جامعات الغرب وزنا زائدا ، والشاب المنغمس إلى ذقنه فى أخطاء علمية ليوجه حملات طائشة إلى دينه وعلماء أصول دينه المتكلمين ، لابد أنه ضحية أولئك المذنبين الأولين .

أما عد قول المتكلمين القائلين بقدرة الله على تغيير النظام الذى فطره وأبدعه فى الكائنات ، من التصور الركيك ففيه نزعة إلى منكرى المعجزات مدعين أنها تغيير نظام العالم ، وأنه محال . إلا أن محالية التغيير هذا مبنية على قولهم بكون نظام العالم طبيعيا ناشئا من العالم نفسه لادخل فيه لصنع الله، إذ لو كان هو صانعه وواضعه وكان مختارا فى وضعه لكان من الضرورى أن يقدر على تغييره إذا شاء ذلك ككل واضعى نظم وقوانين ، حيث يقدرون على تغيير ماوضعوه عند اللزوم . لكن كاتب المقالةخلط قول المنكرين لتغيير نظام العالم إنكارا ناشئا من إنكار وجودالله وإنكار كونه واضع ذلك النظام ، بكونه فاطره ومبدعه وهو تشوش وتناقض .

ومع كون الكلمة التى نقلنا عن مقالة هذا الكاتب مكتظة بالأخطاء الفاحشة الدالة على أنه يتخبط فى مسائل علمية لاعلم له بها إلا سماعا لبعض نواحيها من بعيد .. فمع ذلك لا مناسبة منطقية بين الجمل التى ربط بعضها ببعض وانطوى كل منها بمفرده على غلط فكرى . انظر قوله : « يتصل بالعقلية الغيبية هذا الاعتقاد الشرقى بأن العالم مسيَّر لاقدرة لنا فيه » يعنى ونحن مسيرون مع العالم لاقدرة لنا فى أفعالنا ولا اختيار. فهو يحاول الطعن فى الإيمان بالقدر ، وقد قلنا إنه يريد بالعقلية الغيبية التى يراها — سامحه الله — جديرا بالمطاردة فى كل مكان ، العقلية الدينية . مع أنه لا اتصال بين مسألة كون الإنسان مسيرا لاقدرة له ولااختيار وبين العقلية الدينية اتصال تلازم : فقد يكون المرء من أهل الدين ولا يكون فى مذهب التسيير كالمعتزلة من المسلمين ، بل الماتريدية أيضا ؛ وقد يكون فى مذهب التسيير مع كونه غير معتقد للدين كملاحدة المادية الإيجابية من الغربيين ومقلديهم فى الشرق ؛ وقد يكون الرجل الغربى أو الشرقى مسيحيا أى متدينا ويكون عنده الإيمان بالقدر كالمسلم الشرقى ، فلا صلة إذن بين الأمرين اللذين ذكرهما الكاتب متصلين . أما تدقيق مسألة التسيير الذى يتضمنه الإيمان بالقدر ، للتوصل إلى كونه حقا أو باطلا ، فالكاتب بمعزل عن الدخول فى ذلك البحث الذى اتخذته موضوعاً لكتاب مستقل ولم يخل عنه هذا الكتاب أيضاً .

ومن أمثلة الخلط والخبط فى كلامه قوله : « فقد بحث المتكلمون فى هل يستطيع الله تعالى أن يقدم الآجال أو يؤخرها عن ساعتها ؟ » فيقال له متى ساعة الأجل ، ومن ذا يعيِّنها حتى يُبحث فى هل يستطيع الله تقديم الآجال أو تأخيرها من ساعتها؟ فإن كان الله تعالى هو معيِّن ساعةِ الأجل فالبحث فى استطاعته التقديم والتأخير أو عدم استطاعته لتقديم الآجال أو تأخيرها عبث وتناقض ، وإن كانت الطبيعة تحكم فى الكائنات فلا معنى لوجود الله وتدخله فى تقديم الآجال أوتأخيرها ، وليس فى علم الكلام متكلم تكلم فى استطاعة الله أو عدم استطاعته لتقديم الآجال أو تأخيرهم

عن ساعتها. ولعل هذا القول من الأستاذ كاتب المقالة تحريف مسألة كلامية «هى أن المقتول ميت بأجله خلافاً للمعتزلة » الذاهبين إلى موته قبل أجله ، لكن هذا التقديم عندهم من القاتل لا من الله كما فى قول كاتب المقالة . ثم لا مناسبة أصلا بين هذه المسألة التى لا محل لها فى علم الكلام أعنى مسألة هل يستطيع الله تعالى تقديم الآجال أو تأخيرها عن ساعتها ؟ وبين ما ذكر الكاتب بعده معتدياً على المتكلمين : « وهم لعمرى لم يفهموا بذلك قدرة الله تعالى فإن النظام المطرد فى العالم وتسلسل العلل والمعلولات أدل على القدرة اللامتناهية » ولا بين هذا القول الأخير وما يعقبه من قوله : « من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته » كما يبناه . وكذا لا مناسبة بين قوله : « وكأنى بأولئك المتكلمين يتصورون هذا النظام على أنه ليس من طبيعة الأشياء بل فُرِض فرضاً عليها من خارجها .. الخ » وبين قوله: « لهذا (أى لكون متكلمى الإسلام قائلين بأن نظام العالم ليس من طبيعة الأشياء بل له ناظم من خارج العالم فَرَض هذا النظام على كل شىء فيه وهو الله ،) استسلم أهل الشرق إلى ما أسموه .. » يعنى أن رأس الخطأ فى استسلام الشرقيين إلى ما أسموه القدر اعتقادُ وجود إله واضع لنظام هذا العالم . فكأن الرجل ينعى على الشرقيين هذا الاعتقاد وذاك الاستسلام الذى يتفرع عليه وهو كفر صريح يستحق به الكاتب النعى على نفسه وعلى مانحيه الجائزة الأولى .

وأما تمثيله العقلية الغيبية والعقلية العلمية ليتبين الفرق بينهما، بمثال أجنحة الطائر، سائلا هل هو يطير لوجود أجنحة له أم أن كونه ذا أجنحة نتيجةٌ لوظيفة الطيران المتقدمة على الأجنحة ، وبالاختصار هل يطير لكونه ذا أجنحة أم أنه ذو أجنحة لكونه فى حاجة إلى الطيران ؟ ومجيباً باختيار الشق الثانى واعتباره العقلية العلمية دون الشق الأول المبنى على العقلية الغيبية ــ فما يثير الضحك ، وقد قلنا إن مراده من العقلية الغيبية العقلية الدينية . ولم يكن من الصعب إيراد مثال بل أمثلة لإيضاح الفرق

بين العقليتين ولا لمسألة أجنحة الطائر، صلة بالدين . لكن الأستاذ كاتب المقالة وكاسب الجائزة وحّد بين العامى الجاهل والمتدين المؤمن بالغيب وجعل لهما عقلية واحدة سماها العقلية الغيبية ثم حاول فى تمثيلها بمثال أجنحة الطائر أن يفيد الناس من علومه الحديثة فعرض عليهم مسألة من نظريات « لامارك » الذى كان زعيم مذهب النشوء والارتقاء قبل « دارون » وقد وجد هذا الأخير عيباً فى آراء الأول وانتزع الزعامة منه . واليوم حين انتقدوا نظرية « دارون » وظهرت علامة الإفلاس فى أساس المذهب ، يحاول الكاتب الكاسب أن يبيع نظرية «لامارك» التى أفلست قبل نظرية دارون، بثمن غال .

وإذا رجعنا إلى بحث المثال فلامارك هذا يرى أن العضو نتيجة الحاجة إليه ، فالحيوان يحتاج مثلا إلى الطيران للفرار من أعدائه ويسعى إلى الجهة التى تنجيه منها فتذهب سيالات من بدنه إلى المحل المحتاج إلى العضو فيحصل فيه الجناح . وكذا الاستعمال واعتياده يقوّي العضو ويزيد فى نموه .

ولا كلام لنا فى صحة المسألة الثانية أعنى نمو العضو بكثرة استعماله فهى ثابتة بالتجارب ، إلا أن « لامارك » اجتاز منها إلى المسألة الأولى أعنى كون وجود العضو نتيجة الحاجة إليه ، عملا بالقياس ، لكن حصول العضو من عدم بمجرد الحاجة إليه والاجتهاد فى تحصيله لا يقاس على نمو العضو الموجود بكثرة استعماله لكونه قياسا مع الفارق ، بل لا إمكان للقياس بناء على ما قلنا .

وكما لا صحة لهذا القياس ، لاتثبت التجربة حصول العضو من الاحتياج، فلو كانت أجنحة الطيور نابتة من احتياجها فى زمن من الأزمنة الماضية إلى الفرار من مهلكة والسعى فيه لحصلت أجنحة فى أفراد الجيش المنهزم الهارب وأفراد الجيش الغالب المعقب ، ولا سيما إذا تكرر الهرب من الأول والتعقيب من الثانى . وفضلا عنه

لو صح ماقاله كان الأولى بالناس فى عصر الطيران هذا أن يبذلوا جهودهم فى الحصول على الأجنحة العضوية ليطيروا بأنفسهم بدلا من أن يبذلوا فى إنشاء الطائرات ، أو على الأقل فى الجمع بينهما . وقد سعى أحد الأمريكيين على ما كتبته الجرائد أن يطير بأجنحة صناعية وقضى نحبه فى سبيل الطيران بها ، فليته تعلّم نظرية « لامارك » من الأستاذ كاتب المقالة من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية بمصروفكر فى الحصول على أجنحة عضوية إنسانية، والطيران بهذه الأجنحة كان أسلم من خطر السقوط قياسا على أجنحة الطيور .

هـذا ، ويمكن أن يكون مراد بطل المباراة الصحفية مما أتى به مثالا من أجنحة الطائر للفرق بين العقلية الغيبية والعقلية العلمية ، أن ملاحدة الماديين ينكرون وجود العلل الغائية فى نظام العالم إنكاراً منهم للنظام نفسه وتوسلا به إلى إنكار وجود الله الذى أنشأ العالم عالِماً بما يصلح له كل جزء من أجزائه من الوظائف ، فيدعون أنه لا شىء فى العالم يدل على القصد والإرادة ولا شىء من الموجودات قد وجد لأى غاية أو فائدة ، فإن كانت تترتب على وجوده فائدة من الفوائد فذاك ترتب اتفاق غير مقصود . فالعين تبصر والأذن تسمع والمخ يفكر والأجنحة تطير لا لأن كل ذلك وظائف عينت لها هذه الأعضاء ، إذ لا منشىء ولا وظائف ولا تعيين ، وإنما يحصل كل ما يحصل من الأشياء فى العالم على طريق المصادفة والاتفاق . فالطائر يطير لأن له جناحين لا أن له جناحين ليطير بهما ، ومعنى هـذا أنه لم يُعْطَهُمَا ليستعين بهما عند الطيران وإنما وجد له جناحان مصادفة وحصل بهما الطيران مصادفة من غير أن يكون معطى الجناحين ولا قصد شىء من إعطائهما . وسيجىء بحث هـذه النظرية العجيبة التى بنى الملاحدة عليها صرح الإلحاد ، مستوفى فى محلها من هذا الكتاب .

فبطل المباراة الصحفية يعتبر هذه العقلية المنكرة للعلل الغائية فى العالم ونظامه إنكاراً ناشئاً من إنكار وجود الله ـ يشهد به قوله بكون النظام ناشئاً من طبيعـة

الأشياء غير مفروض عليها فرضاً من خارجها ـ عقليةً علمية ، ويعتبر العقلية المعترفة بالعلل الغائية والنظام فى العالم عقلية غيبية غير علمية . ونحن نبطل فيما سيأتى إن شاء الله ما اعتبره البطل عقلية علمية كما أبطلنا هنا كثيراً من اعتباراته ومزاعمه .

وتوجيه قوله فى تمثيل الفرق بين العقليتين بأجنحة الطائر ، على هذا الوجه الثانى أوفق للتقابل بينهما وللتعبير عن العقلية الدينيـة بالعقلية الغيبية ، وإن كان فى تطبيق كلامه على هذا الوجه نوع من الصعوبة ولذا أخرناه عن الوجه الأول .

٧

قد اطلع القارئ مما كتبنا فى الرقم السابق على طعن واحتقار موجهين إلى المتكلمين من صاحب المقالة المرسلة من باريس إلى لجنـة المباراة الصحفية بمصر ومن اللجنة نفسها لـكونها رأت تلك المقالة مستحقة للجائزة الأولى .

وقد رأيت فى كتاب الأستاذ الفاضل محمد احمد الغمراوى[١] الذى نشره وسماه : « فى سنن الله الـكونية » فصلا بعنوان « العـلم والدين » اقتبسته « مجلة الأزهر » تنويهاً بالـكتاب ، قال فيه الأستاذ المؤلف :

« يظن من لا خبرة له بالعلم أو بالدين أو بكليهما أن هـذه العلوم المسماة بالعلوم الطبيعية والتى يصح تسميتها بعلوم الفطرة علوم مستحدثة وأنها غريبة عن الدين وأن من الجائز وجود تناقض بين حقائقها وحقائقه ، لـكن ظنهم هذا باطل لأن هذه العلوم الطبيعية هي فى الواقع علوم إسلامية لأنها فى الواقع علوم قرآنية ، قرآنية فى موضوعها قرآنية فى طريقها قرآنية فى اسمها لأن مادة « علم » بهذا المعنى الطبيعى المعروف واردة أيضاً فى القرآن . »

---

[١] المدرس بكلية الطب والمنتدب لتدريس علم سنن الـكونية بكلية أصول الدين الأزهرية سابقاً

تصدير كتاب مؤلف فى علم الطبيعة بهـذا الفصل الذى أثنى مؤلفه الفاضل فيه على ذلك العلم بأنه علم قرآنى بموضوعه وطريقه واسمه وخطّأ ظن المنافاة بين حقائقه وحقائق القرآن ، إنما كان يناسب فى دور من الزمان يوجد فيه أُناس متجنبون دراسة هـذا العلم وأشباهه بداعية من التعصب الدينى فى غير موضعه . أما بعد أن أُدخل تدريس هذه العلوم فى مدارس الأزهر ومضى وقت طويل لم يسمع فيه صوت اعتراض من المسلمين على دراستها ، بل أخذت أصوات الاستغناء والاستثقال تُسمع موجهة إلى علوم عريقة الدخول فى الأزهر عريقة المكانة فى علوم الدين الرئيسية مثـل علم الـكلام الذى بلغ مركزه بين العلوم الإسلامية مبلغ أن يسمى بعلم أصول الدين .. بعد أن أصبحت دنيا الإسلام مقلوبة إلى هذا الحد ، فإنى أرى تصدير كتاب فى علم الطبيعة بهذا الفصل غير متناسب مع حاجة الزمان ولازمة التحوط والتحفظ من مؤلفى الإسلام لمصلحة دينهم فى كل ما يكتبون .. أرى هـذا التصدير غير المصادف لأوانه يزيد فى تشويش العقليات ويؤيد العقلية المنقلبة ضد كل ما ورثنا من أسلافنا بعد اتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، لاسيما وقد ضمّنه المؤلف طعناً فى موقف المتكلمين من تحرى الحق وتجنب التقليد الأعمى وحطًّا لمرتبة الاستدلال العقلى فجاء كوخزة فى محل الأمراض العصرية التى أريدُ مداواتها بهذا الـكتاب .

ثم إن المؤلف ذكر العلم الطبيعى عند سوق الـكلام فى مدائحه باسم «العلم» المطلق كقوله عنـه إنه « قرآنى بموضوعه » و « قرآنى بطريقه » و « قرآنى باسمه » كأنه أى العلم الطبيعى هو العلم لا علم غيره ، وهذا الاصطلاح البدعى فى التسمية الذى شاع فى الغرب وقلده الشرق العصرى من غير محاسبة، نري الأستاذ المؤلف ينحاز فيه أيضاً إلى جانب المقلدين .

فإذا كان علم الـكلام متهماً علماؤه كما قال الأستاذ الغمراوى بتقليد فلاسفة اليونان،

وإذا كان ذلك العلم مستغنًى عنه فى الإسلام بل متنافياً مع طبيعته كما قال الأستاذ فريد وجدى بك رئيس تحرير مجلة الأزهر فى الجزء التاسع من المجلد الثانى عشر من المجلة المذكورة (ص ٥٦٧) : « فإذا كان فى الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام فهو الإسلام » وقال (ص ٥٦٩) : « إن مضىّ مائة وخمسين عاما على أمة أتمت فيها نشوءها وتطوراتها الاجتماعية والأدبية ووصلت إلى أبعد فتوحاتها وهى طوال ذلك العهد الذهبى لا تحتاج فيه لعلم الكلام لأدل دليل على أن هـذا علم دخيل لا فائدة له لا فى تقوية إيمان ولا فى تأييد عقيدة ولا فى إنارة طريق . »

فإذا كان علم الكلام دخيلا فى الإسلام والعلم الطبيعى قرآنيا بموضوعه قرآنيا بطريقته قرآنيا باسمه، فماذا يحاول الأستاذان أن يقولا ؟ فهل لمصر أن تخرج علم الكلام رغم كونه مسمى بعلم أصول الدين ، عن كلية أصول الدين الأزهرية وتكتفى بتدريس العلم الطبيعى فى الأزهر على أن يكون الأزهر مخيراً فى تسمية علم الطبيعة بعلم أصول الدين، أو تخرج كلية أصول الدين عن الأزهر بأن تلغى تلك الكلية ؟ .. لكنى أشك فى أن الأستاذ الغمراوى الذى أعجَب بكتبه ومقالاته وأحفظ له فى قلبى مكاناً ممتازاً بين كتاب مصر، يرضى بهذه النتيجة وإن كنت مقتنعاً برضاة الأستاذ فريد وجدى بك .. فإذا قيل لهذا الأستاذ الثانى : ولم يكن علم الفقه أيضاً ولا علم أصول الفقه موجوداً فى صدر الإسلام فليس ببعيد أن يكون جوابه : فلنلغهما أيضاً بإخراج دراستهما من كلية الشريعة أو بإلغاء الكلية نفسها أيضاً[1] مع أن القول باستغناء المسلمين فى زماننا عن العلوم التى استغنوا عنها فى صدر الإسلام ، يكون كالقول باستغنائنا عن أسلحة الحرب التى لم يستعملها مسلمو عصر الإسلام الذهبى لا أكثر ولا أقل .

---

[١] يأتى فى هذا الكتاب إن شاء الله كلام بشأن علم الفقه .

ومما يجب التنبيه إليه أنى لا أغمط العلم الطبيعى حين جعله الأستاذ الغمراوى الذى عرّض بعلم الكلام والمتكلمين ، علماً قرآنياً بموضوعه وطريقته واسمه ، وأسلّم بأن القرآن دعا عباد الله إلى التفكير فى آياته التى اختزنها فى الكون وأن هذه الآيات تُعرف حق المعرفة بما يقال عنه اليوم العلم الطبيعى .. وسيرى قراء كتابى كيف اعتنيت بشأن هذا العلم فى مبحث دليل نظام العالم الذى أطلت الكلام فيه أكثر من غيره . لكن هذا العلم الذى أطراه الأستاذ الغمراوى من الناحية الدينية لا يتعلمه من يتعلمه فى الشرق والغرب ويخوض فيه من يخوض لغرض الاطلاع على آيات الله وأسراره فى الكون ، كيف ، والملاحدة أكثرهم من الطبيعيين ، فهل يقاس بهم المتكلمون ؟ وأين الذين تزندقوا فى زماننا من التعمق فى علم الكلام على مقتضى القول المشهور : « من تكلم تزندق »؟ فى حين أن زنادقة العصر يلزم أن يبحث عنهم بين الجاهلين بعلم الكلام المعرضين عنه إعراض رجل عدو لما جهله . ولم ينس قراء هذا الكتاب مانقلته فى أحد الأرقام السابقة من قول الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده أن عدو الأديان اللدود فى هذا الزمان هو العلوم المادية التى لا تمتد بغير المسائل الثابتة بالتجربة الحسية كما أن الأستاذ الغمراوى وأستاذ « مجلة الأزهر » متفقان فى تفضيل الأدلة التجريبية على الأدلة العقلية .

أما أنا فبصفة رجل من رجال الدين يكون أول مايمنعنى عن مصافاة علم الطبيعة فى بحث مقارنته بعلم الكلام ، تسميته بعلم الطبيعة ، فإن كان هذا العلم علمَ ما وضعته الطبيعة من النظم والقوانين التى يسير عليها العالم ، ومرماه الذى يَدُلُّ عليه اسمه دلالة صريحة ، قطعَ صلة العالم بالله إنكاراً لوجوده وربطَه بطبيعة الأشياء ... لزم أن يكون معنى تفضيل هذا العلم على علم الكلام تفضيل علم الإلحاد على علم الإيمان بالله[1] ولهذا نرى الأستاذ الغمراوى المؤمن بالله يغير اسم الطبيعة عند تفضيل علمها على علم الكلام

[١] وسيأتى منا فى هذا الكتاب ابطال ربط العالم بما يسمونه الطبيعة .

ويعبر عنها بسنة الله الكونية ولكن الناس لا يستمعون إلى تغيير الأستاذ الغمراوى مصرين على تسميته بعلم الطبيعة .. وبالنظر إلى هذا الإصرار يسقط الاعتراض علينا بأنا نتمسك بالألفاظ والأسماء معرضين عن المسميات والمقاصد[1] على أن المقصود من علم الطبيعة لا يمكنه أن يعادل المقصود من علم الكلام فى خدمة الإسلام بعد التنازل عن دلالة الأسماء والألفاظ .. بل لا يعادل علمَ الكلام غيره من العلوم الإسلامية فضلا عن علم الطبيعة وقد صرح العلماء المحققون أمثال القاضى عضد الدين الإيجى صاحب المواقف وسعد الدين التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى بأنه أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية ورئيس العلوم الدينية ، والتكلم ضد علم الكلام إن كان سلامة صدر فى الماضى أو غفلةً عن المستقبل فهو اليوم بعد ظهور أعداء جديدة يهاجمون الأدلة العقلية ويسعون لهدم أسس الدين من وراء هدم علم الكلام جناية أو جهالة .

قال العلامة الشريف الجرجانى فى شرح المواقف : « إن المقصد الأعلى فى علمنا هذا إثباته تعالى فإذا لم يثبت وجود صانع عالم قادر مرسل للرسول منزل للكتب لم يتصور علم تفسير وحديث وفقه وأصوله فكلها متوقف على علم الكلام » .

نعم إن دليل نظام العالم الذى تمسكت به فى إثبات وجود الله وعددته من خير

---

[١] لأن هذا الإصرار العام فى الغرب والشرق من غير الأستاذ الغمراوى المؤمن بالله ، ينادى بالإصرار على إسناد نظام الكون إلى طبيعة الأشياء والتمسك بفكرة الاستغناء عن الاعتراف بناظم من خارج الكون يسمونه الله ، لكونه خارجا أيضا عن دائرة العلم الحديث الذى لا يذعن لغير ماثبت بالتجربة ــ كما تمسك بطل العقلية العلمية الأستاذ كاسب الجائزة الأولى من لجنة المباراة الصحفية بمقالته المرسلة من باريس المذكورة فى الرقم ٦ ــ وهذا العلم غير المؤمن بالله يكون ممدوح الأستاذ الغمراوى المؤمن ، حينما يكون العلم المؤمن وعلماؤه مذمومين عنده !! فهل العلم الحديث الذى يحتكر له المغرمون به اسم « العلم » ويقصرون لقب العلماء على علمائه ، يراهم الأستاذ وعلمهم غير المؤمن أحق بالانطباق على « أولى العلم » فى قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » من العلم القديم المؤمن بالله وعلمائه الذين يدخل فيهم علماء التوحيد أى المتكلمون دخولا أوليا ؟

الأدلة يستفاد من علم الطبيعة ، ومن هذا كان علماء هذا العلم أجدر بتصديق وجود الله كما ذكرته عند مؤاخذة الملاحدة من أولئك العلماء .. لكنى قلت مع ذلك إن الدليل المأخوذ من العلم الطبيعى التجربى ليس بكاف فى إثبات وجود الله مالم ينضم إليه شىء من الدليل العقلى الكلامى[1] ولا أن إثباته موضوعُ ذلك العلم أو مقصوده ، كما كان ذات الله وصفاته وأفعاله فى الدنيا والآخرة ، موضوعَ علم الكلام أو مقصوده الأعلى ، على أن يكون موضوعه المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً ، وهو التعريف المختار .. فهل يعرف الأستاذ رئيس تحرير «مجلة الأزهر» القائل «بأن علم الكلام لافائدة له لا فى تقوية إيمان ولا فى تأييد عقيدة ولا فى إنارة طريق» أن موضوع علم الكلام كل معلوم يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً .. ولذا صرحوا بأن هـذا العلم يتناول من كل علم شرعى أو غير شرعى كلّ ما يتعلق بالعقائد الدينية الإسلامية .. حتى إن العلم الطبيعى إذا كان فيه مايصلح للنظر فى درس عقائد الإسلام فهو داخل فى علم الكلام ، وقد جعلوا موضوعه : « المعلوم » ليشمل الموجود والمعدوم . قال فى « المواقف » :

« المقصد الرابع فى مرتبته (أى مرتبة علم الكلام) قد علمت أن موضوعه أعم الأمور وأعلاها فيتناول أشرفَ المعلومات التى هى مباحث ذاته تعالى وصفاته وأفعاله . وغايته التى هى الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان وإرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة ، وحفظ قواعد الدين عن أن تزعزعها شبه المبطلين وبناء العلوم الشرعية عليه وتقوية الإخلاص فى العمل بأحكام الشرع بتقوية الاعتقاد .. والتى غاية كل ذلك الفوز بسعادة الدارين ـ أشرف الغايات وأجداها . ودلائله يقينية يحكم بها صريح العقل وقد تأيدت بالنقل وهى الغاية فى الوثاقة ، وهـذه هى جهات

---

[١] ولهذا يكون فى علماء الطبيعة الذين لايضمون إلى علومهم الأدلة العقلية الكلامية ملاحدة .

شرف العلوم لايعدوها . فهو إذن أشرف العلوم . » قال : « ومسائله كل حكم نظرى لملوم هو أي ذلك الحكم النظرى يدخل فى العقائد الدينية أو يتوقف عليه إثبات شيء منها توقفاً قريباً أو بعيداً.. وهو العلم الأعلى الذى ينتهى إليه العلوم الشرعية كلها، فليست له مبادئ تُبيَّن فى علم آخر سواء كان شرعياً أو غير شرعى . »

وقال شارح المواقف العلامة الشريف الجرجانى : « وذلك أن علماء الإسلام دونوا لإثبات العقائد الدينية المتعلقة بالصانع تعالى وصفاته وأفعاله وما يتفرع عليها من مباحث النبوة والمعاد ، علماً يُتوصل به إلى إعلاء كلمة الحق فيها ولم يرضوا أن يكونوا محتاجين فيه إلى علم آخر أصلا فأخذوا موضوعه على وجه يتناول تلك العقائد والمباحث النظرية التى تتوقف عليها تلك العقائد سواء كان توقفها عليها باعتبار مواد أدلتها أو باعتبار صورها وجعلوا جميع ذلك مقاصد مطلوبة فى علمهم هذا.. فجاء علماً مستغنياً فى نفسه عما عداه ليس له مبادئ فى علم آخر . » قال فى المواقف : « فنه يستمد العلوم الشرعية وهو لايستمد من غيره ، فهو رئيس العلوم الشرعية على الإطلاق لنفاذ حكمه فيها بأسرها وليس ينفذ فيه حكم شيء منها . »

أقول يُعلم من هذا سبب الفرق بين كلام القدماء وكلام المتأخرين الذى مزجوه بفلسفة اليونان والذى عيب عليه ذلك من بعض السلف كما حكى عنهم تحريم علم المنطق. وإنى أرى هـذا التعييب وذاك التحريم نفسهما عيباً يجب تنزيه الإسلام الذى يباهى بكونه دين العقل عن مثله كائناً من كان العائبون[1] فهل نجعل الإسلام كالمسيحية فى

[١] قال الإمام القشيرى فى رسالته المشهورة المسماة « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة » على مانقل عنها التاج السبكى فى طبقاته رداً على القائلين بأن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ومخالفة لطريق السلف :

« الاسترواح إلى مثل هـذا الكلام صفة الحشوية الذين لاتحصيل لهم . وكيف يظن بسلف الأمة أنهم لم يسلكوا سبيل النظر ورضوا بالتقليد ؟ حاش لله أن يكون ذلك وصفهم. ولقد كان =

إبعاد العقل والمعقولات عن ساحة عقائده؟ فإذا كان فى الفلسفة مايؤيد الدين أو المذهب الحق فى الدين فلا لوم على عالم كلامى إذا ذكرها فى علم الكلام استظهاراً به لدينه أو مذهبه .. وإذا كان فى الفلسفة مايتنافى مع الدين أو المذهب الحق فى الدين وذكره العالم الكلامى للرد عليه فلا لوم أيضاً . ولا تنس أن فلاسفة اليونان الذين دخلت فلسفاتهم فى كلام المتأخرين مثل أرسطو وأفلاطون كانوا قبل كل شىء موحدين مثبتين الله الواجب الوجود وواضعين منطق الاستدلال العقلى الذى لابد أن يستند إليه من يريد إثبات وجود الله فى نفسه وفى إزاء منكريه استنادا إجماليا أو تفصيليا ، وقد وقع منى فى هذا الكتاب اشتغال بفلسفة الغربيين ونقل عن حقهم وباطلهم للاستظهار

= السلف من الصحابة رضى الله عنهم مستغنين بما عرفوا من الحق وسمعوا من الرسول من أوصاف المعبود وتأملوه من الأدلة المنصوبة فى القرآن وأخبار الرسول فلما ظهر أهل الأهواء والبدع من الخوارج والجهمية والمعتزلة وأوردوا الشبه انتدب أئمة أهل السنة لمخالفتهم والانتصار للمسلمين بعماية طريقتهم والرد عليهم لما أشفقوا على القلوب أن تخامرها شبههم فحاموا عن دين الله بإيضاح الحجة .. » إلى أن قال : « وفى الجملة لايجحد علم الكلام إلا أحد رجلين جاهل ركن إلى التقليد وشق عليه سلوك أهل التحصيل وخلا عن طريق أهل النظر ، والناس أعداء ماجهلوا ، فلما انتهى عن التحقيق بهذا العلم نهى الناس ليضل غيره كما ضل .. أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة فينطوى على بدع خفية يلبس على الناس عوار مذهبه ويعمى عليهم فضائح طويته وعقيدته ويعلم أن ذوى التحصيل من أهل النظر هم الذين يهتكون الستر عن بدعه والقلاب (مزيف النقود) لايحب من يميز النقود ، والخلل فيما بيده من النقود الفاسدة لافى الصراف ذى التمييز والبصيرة » .

فانظر هل الأستاذ فريد وجدى بك أحد ذينك الرجلين أو كلاهما حيث يتقلب دائما فى النقل عن أقوال فلاسفة الغرب فى حين أنه يطعن فى علم الكلام الإسلامى مع من يطعن لاختلاطه بالفلسفة القديمة . وإذا كان الحق يقال فالسبب الحقيقى للأستاذ فى معاداة علم الكلام أنه لا يستطيع التمسح بذلك العلم من قشره إذ لا قشر له ، كما يتمسح بفلسفة الغرب من القواميس المدونة من غير دخول فى لبها ، حسبك دليلا على صدق قولى هذا ما سيأتى فى محله من هذا الكتاب الخاص بالنظر فى رد الأستاذ على الملحد الجديد إسماعيل أدهم مؤلف كتاب « لماذا أنا ملحد » ... أن الأستاذ لا علم له بالصورة الصحيحة لفلسفة « كانت » فيما يتعلق بإثبات وجود الله وانتقاده لعامة الأدلة النظرية القائمة على هذا المطلب .

بالأول والرد على الثانى ، ولعلى ما أسأت صنعا ولم أشتغل بما لا يعنينى فى خدمة الحق وعقيدة الإسلام التى هى قطب دائرة الحق ، كما لم يكن أسلافى الذين أخذوا فى كتبهم ماراوا أخذه من فلسفة اليونان ، مسيئين ولا مشتغلين بما لايعنيهم. وإذا كانت مباحث الطبيعيات فى علم الكلام لاتسد حاجة العصر الحاضر فلا أقل من أن تكون هذه المباحث جوابا ماثلا أمام أعين المولين وجوههم عن علم الكلام جاعلين من العلم الطبيعى مزاحما له مفضلا عليه ... جوابا بأنهم لايعرفون علم الكلام ولا كون دائرته الواسعة تحيط بالعلم الطبيعى . أما أن مباحث الطبيعيات فى علم الكلام المنتقل إلينا من علمائنا باسم كلام المتأخرين لا تسد حاجة العصر الحاضر ، فلا لوم على علماء الكلام من ذلك ، وهم كانوا حاكمين فى علوم زمانهم حتى جعلوا ما ليس بإسلامى من العلوم إسلاميا وأدخلوه فى علم الكلام الذى عرفتَ مبلغ سعة موضوعه وحمّلوا بتأسيس هذه السنة المباركة واجبا كبيرا على عواتق الخلف ، والخلف بعد أن مكثوا حقبة من الدهر فى عجزهم وتوانيهم عن تحمل هـذا الواجب أخذوا يريدون لإنساء واجبهم إنساء علم الكلام نفسه .

فإذا كانت مكانة علم الكلام عند علماء الإسلام وسعة دائرته كما قدمنا ، فحكم رئيس تحرير « مجلة الأزهر » ضده حكم جاهلى ناشئ من عقلية جاهلية حديثة ليس فيها تقدير العلوم الإسلامية والجهود التى بذل علماؤنا فيها لإعلاء كلمة الحق ، قدرها وإنما فيها نكران ذلك التراث العظيم . والمؤسف أن أكثر الذين يكتبون عن العلوم فى الجرائد والمجلات المصرية يحومون حول الناحية التاريخية أى تراجم العلماء من غير ولوج فى داخل العلم . فمن نظر إلى تاريخ علم الكلام وجد فيه فتنا وإحنا ومحنا تكفى لتنفيره عنه إن لم تكن عنده خبرة من لباب العلم نفسه أو رغبة غريزية فى استقصاء دقائق العلوم . وإنى أذكر شاهداً على صدق ماقلته وأرجو من الله تعالى العفو والمغفرة ومن القراء الكرام أن لايحملوه منى على الإعجاب بالنفس ، وهو : أن مسألة وحدة

الوجود من يدرى كم كتب عنها أناس فى الصحف والمجلات بل الكتب أيضاً بمصر؟ فليقارن من شاء ما كتبوه مع ما كتبته عنها وسيجيء إن شاء الله فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

بقى سؤال فى أهمية علم الكلام ولزوم دراسته وهو أن كل أحد لايتسنى له الانتفاع بهذا العلم فى تثبيت أو تصحيح عقائده وأنه يكثر الخلاف فى مسائله ويكثر الخطأ بمدد كثرة الخلاف بناء على أن الخلاف يكون أحد طرفيه حقاً وأحد طرفيه باطلا .. وجوابى على هذا السؤال أولا أن أكثر الاختلافات الواقعة فى علم الكلام لايبلغ مبلغ إكفار المخالف[1] ، مثلا أن متكلمى المعتزلة الذين قامت أشد الحرب الكلامية بينهم وبين علماء أهل السنة ، تمسكهم بالإسلام أقوى بكثير من المسلمين الحديثين المستهينين بعلم الكلام ، فليس منهم أحد ينكر اليوم الآخر كالأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر . وثانياً أن الذين يشكون من عدم جدوى علم الكلام يريدون أن يجديهم ذلك العلم من غير اتعاب الأنفس فى دراسته . وثالثاً — وهو المهم — أن استفادة كل أحد من أي علم لاسيما العلوم العزيزة المنال تكون على قدر حظه من العقل وحظه من هداية الله وتوفيقه ، فإذا كان القرآن يضل الله به كثيراً ويهدى به كثيراً فما ذنب

[١] يجدر بنا التنبيه إلى أن أكثر الخلافات فى علم الكلام مع كونه لا يؤدى إلى إكفار المختلفين بعضهم عن بعض ، لا تقل عن أن يكون جانب الخطأ فيه ضلالا ومن المعروف تسمية الفرق المخطئة فى هذا العلم بالفرق الضالة ، ولهذا لايمكن الجمع والتأليف بين مذاهبه التى تدور بين الإيجاب والتحريم ، فمن أراد توحيد المذاهب الكلامية ودعا الناس فى دروسه وأحاديثه إلى رفع هذه الخلافات فيما بينهم وهم على دين واحد كما وقع من الأستاذ الأكبر المراغى (راجع حديث رمضان له نشرته الأهرام قبل وفاته بقليل) فمنشأه عدم الاعتقاد والاقتناع من نفس الداعى بأى مذهب من تلك المذاهب ، فلهذا يكون من السهل عليه التنازل لكل أحد من مذهبه الذى استقر رأيه على اختياره . ومما يجدر أن يذكر بهذه المناسبة أن التقليد لا يجوز فى المذاهب الكلامية المتعلقة بالاعتقاد ، بخلاف المذاهب الفقهية المتعلقة بالأعمال .

علم الـكلام إن لم يكن نافعاً فى نظر الأستاذ فريد وجدى بك ؟ وهل نفعته مئات من آيات كتاب الله ناطقة بدلائل قدرة الله على بعث الموتى من قبورهم بعد أن كانوا تراباً وعظاماً ، لتجعله مصدقاً لليوم الآخر يوم البعث والحشر ومصدقاً لدلالة تلك الآيات القطعية على ذلك اليوم ، حتى تنفعه دلائل علم الـكلام فى تأييد عقائد الإسلام؟

فرّقنا بين الأستاذين فى الرضى بإلغاء تدريس علم الـكلام لعلمنا بأن الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر لا يقنعه إثبات وجود الله الذى كان القائم به إلى يومنا هذا علمَ الـكلام وأنه ينتظر فيه ويستنظر غيره مع غير القانعين ، فيحيل إثباته على مايؤمله من مستقبل البحوث النفسية الجارية فى الغرب ، ولا إخال الأستاذ الغمراوى رغم تكلمه ضد علم الـكلام يكون مثل الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر صبوراً عن البت الحالى فى إثبات وجود الله .

ومن عجائب الأستاذ رئيس التحرير انه أورد فى المقالة التى تكلم فيها ضد علم الـكلام أيضا وهى فى الجزء الثامن من المجلد الثانى عشر أى قبل الجزء الذى نقلنا عنه قوليه السابقين ضد علم الـكلام — نقلا طويلا عن « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده معنوِناً له بالإمام الحجة ومستشهداً بكلامه فى رسالته .. فهل هو لا يعرف أن تلك الرسالة رسالة فى علم الـكلام وأن أحد أسماء علم الـكلام « علم التوحيد » . ومن أسمائه « الفقه الأكبر » كما أن من أسمائه علم « أصول الدين » وأن الشيخ لم يكفّ فى رسالته عن الخوض فى مسألة القضاء والقدر التى ينهى الأستاذ عن التكلم فيها مستنداً إلى آية المحـكم والمتشابه فى القرآن ، حتى إن الشيخ يختار عنـد المقارنة بين المذاهب المختلفة فى تلك المسألة مذهب إمام الحرمين الذى انتقدناه نحن فى « تحت سلطان القدر » والأستاذ رئيس مجلة الأزهر كما انه انتقد بنقد علم الـكلام كتاب من اتخذه الإمام الحجة من حيث لا يشعر ، انتقد أيضا بنقد هذا العلم إمامَه الأكبر المراغى المتكلم عن مسألة الجبر والقدر فى أحد دروسه المنشورة فى مجلة الأزهر . فإن كان

هذا الإمام بطعنه فى مذهب الجبر لم يشتغل فى ظن الأستاذ بعلم الكلام بل بإبطال مذهب من المذاهب الكلامية فالسعى فى إبطال مذهب من المذاهب المذكورة فى علم الكلام اشتغال بعلم الكلام أيضا ، بل اشتغال بإثبات مذهب كلامى هو مذهب القدرية أى المعتزلة بدل مذهب الجبر . أما ان إمام الأستاذ لم ينجح فى إبطال ما حاول إبطاله فى الدرس المذكور وإثبات ما حاول إثباته فتلك مسألة أخرى يأتى بحثها منا فى محل آخر من هذا الكتاب .

ومن عجائب الأستاذ فى الجزء التاسع المذكور قوله (ص ٥٦٨) : « إن آية المحكم والمتشابه فى القرآن لا تسمح بنشوء علم الكلام فى الإسلام » فى حين أن الإمام الرازى الذى يسميه الأستاذ دائما عند الاستشهاد بكلامه فى تفسير آية من آيات القرآن « إمام المفسرين »[١] يقول فى تفسير آية المحكم والمتشابه : « إن هذه الآية تدل على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله وصفاته . » فانظروا هذه الشهادة فى علماء الكلام ودلائلهم العقلية ..

وآية المحكم والمتشابه فى القرآن التى هى قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » سلاح عجيب فى يد الأستاذ فريد وجدى يستعمله فى كل زمان بما يقتضى هواه ؛ وربما يكون قراء مقالاته الجديدة فى « مجلة الأزهر » غير عارفين أو ناسين كون الأستاذ قد تمسك بهذا السلاح

---

[١] المعروف بين علماء الإسلام إطلاق لقب الإمام على الرازى فى العلوم العقلية مثل الكلام والمنطق لا فى التفسير وإن كان له تفسير كبير مسمى « بمفاتيح الغيب » لكن الأستاذ الذى لا يعرف هذه العلوم من كتب لا يعرف أى علم هو الذى كان الرازى إماماً فيه ؟

قبيل توليه الوظيفة الأزهرية لما جرى بينه وبيني نقاش على صفحات جريدة «الأهرام» فى مسألة معجزات الأنبياء المذكورة فى القرآن فأنكر تلك المعجزات وأضاف إليه إنكار البعث بعد الموت بحجة عدم إمكانها عقلا والغى فى سبيل إنكاره جميع الآيات الصريحة الواردة فى القرآن بشأن المعجزات والبعث، رادًّا لها إلى المتشابهات غير الصالحة للاحتجاج ، ولم يفكر فى أن آية المحكم والمتشابه إذا كانت تنعى على مبتغى التأويل للمتشابهات ابتغاء الفتنة فماذا يكون حال من يبتغى تأويل المحكمات مثل آيات المعجزات وآيات البعث لاسيما آيات البعث التى هى من أصرح آيات القرآن وآكدها ، ليردها إلى المتشابهات أى ليلغيها تحريفاً للكلم عن مواضعه ؟

ثم ان آية المحكم والمتشابه تسع احتمالين رئيسيين يُظهرهما الوقف على جملة « وما يعلم تأويله إلا الله » أو عطف « والراسخون فى العلم » على الله . وعليه فإما لايعلم تأويل المتشابه غير الله أو غير الله وغير الراسخين فى العلم . فالآية نفسها إذن من المتشابهات والأستاذ فريد يتبع هذه الآية المتشابهة فيجعل منها سنداً فى غير مناسبة قريبة ولا بعيدة يستند إليه فى إلغاء آيات المعجزات وآيات البعث فى القرآن بردها إلى المتشابهات غير مفهومة المعنى ولا مطلوبة الفهم، لكونه من الذين فى قلوبهم زيغ وهو يبتغى فتنة إزاحة المؤمنين بمعجزات الأنبياء وباليوم الآخر ، عن عقائدهم .

آية المحكم والمتشابه يحتاج تفسيرها فى حد ذاتها إلى كلام طويل لايتحمله المقام ، لكن علاقة الآية بمقامنا مقصورة على ما إذا كان فيها تأييد لدعوى الأستاذ فريد وجدى بك الغريبتين اللتين غرابتهما أشد من بطلانهما وبطلانهما أشد من غرابتهما. احديهما دلالة الآية على ممنوعية الاشتغال بعلم الكلام فى الإسلام ! فكأن الآية تنهى المؤمنين عن إثبات وجود الله بعلم الكلام ضد المنكرين وجوده أو الشاكين فيه وتأمرهم بالانتظار إلى أن يثبته الغربيون ببحوثهم النفسية « اسپيرتيزم » فيراه الناس بأعينهم ويلمسونه بأيديهم كما رأوا النفس ولمسوها على ما يقولون ، وإثبات الوجود

على زعمه لا يكون إلا هكذا . وثانية الدعويين كون الآية أعنى آية المحكم والمتشابه قرينة مانعة عن دلالة آيات المعجزات وآيات البعث فى القرآن على ما تدل عليه من وقوع المعجزات فى أزمنة الأنبياء السابقة كما حكى القرآن أنباءها ووقوع بعث الأموات من قبورهم إذا جاء وقتها كما قال الله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون » يعنى أن المعجزات لم تقع وأن البعث بعد الموت لا يقع ولم يكذب الله فى آيات المعجزات والبعث ولكنه تكلم بما لا يفهم أو لم يقدر - وحاشاه - على تفهيم ما هو مراده من تلك الآيات على الرغم من كمال وضوحها ، وقد دلت على هذه الحقيقة الخفية على جميع قارئى القرآن غير الأستاذ ، آيةُ المحكم والمتشابه التى لاتبلغ صراحتها ووضوحها معشار مافى آيات المعجزات وآيات البعث ولا سيما آيات البعث من الصراحة ووضوح الدلالة ، فكل آية غيرها فى القرآن على زعم الأستاذ يمكن التحلل من وجوب التصديق بمضمونها لكل من شاء ذلك وطريقه ردها إلى المتشابهات مهما كانت صريحة المعنى ، فهى لا تكون أصرح من آيات البعث التى قد أوردنا نماذج منها فى الرقم (٥) .

لا ، لا ، يا أستاذ لم يكن دليلك الحقيق فى عدم تصديقك بآيات المعجزات والبعث بعد الموت متلاعباً بها وبعقول الناس فى دلالتها ، آية المحكم والمتشابه ، فلست مصاباً فى عقلك لهذا الحد ولا الناس مصابين ليلتبس عليهم موقف آية المحكم والمتشابه من آيات المعجزات ، وآيات البعث ! وإنما دليلك الحقيق ظنك بأن العلم الطبيعى الذى أطراه الأستاذ الغمراوى وجعله قرآنياً بموضوعه قرآنياً بطريقته قرآنياً باسمه ، يمنع صدق آيات المعجزات وآيات البعث ، مع الظانين من أهل الغرب والشرق المقلد. وحضرتك تؤمن بأحكام العلم أكثر منك بآيات القرآن[١] ، كما أشرت إليه فيما

[١] وليس العلم الذى تؤمن به أكبر من نصوص كتاب الله جديراً بهذا الاسم على إطلاقه محيطا بجميع الحقائق ، وإنما هو علم خاص بالماديات يستند إلى التجارب الحسية ويقصر مداه عن =

كتبته رداً عليّ قبل توليك الوظيفة الأزهرية ، وما استنادك إلى آية المحكم والمتشابه غير تستر وتملل ـ وبتعبيرك أنت نفسك استبطان الإلحاد ـ فلو ذكرتَ للأستاذ الغمراوى سندك هذا فى إنكار معجزات الأنبياء والبعث بعد الموت لضحك منك على الرغم من اشتراكه معك فى الحط عن منزلة علم الكلام؛ ولهذا كان الواجب على هذا الأستاذ الذى لا يمكن أن يكون من الظانين بأن العلم الطبيعى يمانع صدق آيات المعجزات وآيات البعث كما ظننته لمّا جرى بينى وبينك نقاش فى مسألة المعجزات والبعث .. كان الواجب

= اليقين الضرورى الأبدى. وهناك علم أسمى وأقوى يغفل عنه أستاذ مجلة الأزهر ويستهين به عند استهانته بعلم الكلام الذى يبنى علماء الإسلام مسألة وجود الله على الأدلة المأخوذة منه ويتحدون به المنكرين كما أنى سأتحداهم وأتحدى أستاذ مجلة الأزهر لما جاء فى هذا الكتاب دور الاستدلال على وجود الله بدليله العقلى الكلامى، فإن وجد فيه محلا للاعتراض فليقل وليدخل البحث والنقاش من بابه ، وإلا فلا ينفع الطعن فى علم الكلام بأنه دخيل فى الإسلام لا فائدة له فى تقوية إيمان ولا فى إنارة طريق ، لأن هذا طعن من ضل الطريق ونكب عن طريق علماء الإسلام غير مستمع لصوت الداعى إليها، منتظراً لأصوات الغربيين المشتغلين بالبحوث النفسية أن يقولوا : إنا وجدنا الله ، لمسناه بأيدينا وقبضنا عليه ليراه أستاذ مجلة الأزهر ويلمسه بيديه فيؤمن بوجوده .

وهذا الأستاذ الذى يلقى من علا منبر الأزهر منذ عهد عدة من شيوخه الأكابر درس اليأس للمسلمين من إنقاذ دينهم وإخراجه من حفرة الأساطير التى قذف به العلم الحديث إليها مع الأديان الأخرى وخصيصا درس اليأس من إثبات وجود الله الذي هو رأس الأديان ، بأدلته العقلية المبسوطة فى علم الكلام ساعياً لإسقاط هذا العلم القديم من عيون المسلمين المعاصرين ومعلقاً اعتماده على الدليل المحسوس الملموس الذى لابد أن يكتشفه الباحثون الغربيون !! فكأن ذلك الدليل لا يكون عند الأستاذ دخيلا فى الإسلام . نعم إنه لايكون دخيلا عندنا أيضا، بناء على أن اكتشافه من المستحيلات التى لاتقع ، وقولنا عنه إنه لا يكون دخيلا فى الإسلام صادق لصدق القضية السالبة مع عدم وجود موضوعها . لكن الأستاذ لا يعرف ـ لعدم معرفته بعلم الكلام ـ أن الحصول على الدليل الملموس لإثبات وجود الله محال ، كما أنه لا يعرف السبب فى صدق قولنا بأن ذلك الدليل المنتظر المستحيل لا يكون دخيلا فى الإسلام لعدم معرفته بعلمى الكلام والمنطق .

وذنب علم الكلام الذى لا يقتنع الأستاذ بدليله الموجود لإثبات وجود الله فيحيله على الدليل الملموس المحال ، أن أدلة علم الكلام تكون مبنية على العقل والمنطق اللذين لا يحبهما الأستاذ ، =

عليه أن يشاركنى فى الرد عليك وقت تلك المناقشة أو يكتب شيئاً من هـذا القبيل عند تأليف كتابه ويدرجه فى المقدمة التى صدّر بها الـكتاب، تبرئة للعلم الطبيعى الذى يُحسن الظن به ويقرّبه إلى القرآن ، من ظن سيئى الظن . أما دليل الأسـتاذ رئيس مجلة الأزهر من هذا العـلم ضد آيات المعجزات والبعث وما بعده من أحوال الآخرة فإنى بعون الله تعالى وتوفيقه سأقضى عليه فى الباب الثالث من هذا الـكتاب .

نعود إلى الـكلام على فصل « العلم والدين » الذى صدر به الأسـتاذ الغمراوى كتابهُ فى عـلم الطبيعة : كان الأستاذ المؤلف أثنى على العلم الطبيعى بكونه قرآنياً بموضوعه وطريقته واسمه ثم فصّل هذه القرابة بين ذلك العلم والقرآن الحـكيم بمهارة علمية وخبرة دينية لابد أن أشكره عليهما مع كل قارئ غيور على دينه وقرآنه ، إلا أن المؤلف قال فى آخر الفصل : « لو بحثنا فى تاريخ الفلسفة الإسلامية وما كان بين علماء المسلمين من خلافات كلامية وجدنا أكثر هذه الخلافات إن لم يكن كلها راجعاً

= وقد ساقه عدم معرفته بعلم الـكلام إلىالبحث عن الله الذى فقده مع عقله ومنطقه فى الأثير كما سبق منا الـكلام عليه ؛ وفيما يأتى من هذا الـكتاب سينجلى للقارئ كيف أخفق هـذا الأستاذ فى ردوده على الملحد الجديد مؤلف كتاب « لماذا أنا ملحد » وذلك الإخفاق أيضا ناشئ من عدم معرفته بعلمى الـكلام والمنطق.

وآخر ذنوب علم الـكلام وأدلته العقلية المنطقية على أسـتاذ مجلة الأزهر ، أو بالأولى أول ذنوبه انه صعب المزاولة يحتاج إلى العقل السليم المجهز بالمنطق الفطرى ، ولهذا تراه فى كتاباته يعيب تلك الأدلة بكثرة وقوع الخلاف والأخطاء فيها، فلما لم يعول على عقله فى تمييز الدليل الصحيح من الفاسد بين الأدلة العقلية ولا على عقول المميزين من علماء الإسلام ، وجد الطعن على علم الـكلام أسهل من الدخول فى ميدان الاستدلال على وجود الله الذى هو ميدان هذا العلم ، كما انه ميدان القرآن القائل : « أفى الله شك فاطر السماوات والأرض » .

لـكن الأستاذ لم يقتنع بأدلة علم الـكلام والقرآن وعدها دخيلة فبقى على شك فى ثبوت وجود الله أو على الأقل بقى عاذراً للشاكين من المتعلمين العصريين ملقياً درس اليأس عليهم إلى أن يظفر الغربيون علىالدليل الملموس بإدخاله فى متناول التجربة الحسية رغم تعذر دخوله فيه .

إلى قضايا فلسفية أخذها المسلمون عن اليونان من غير تمحيص » وهنا اتهم الأستاذ علماء الإسلام المتكلمين بالتقليد الأعمى الذى شدد النكير عليه فيما سبق من كلامه، باسم العلم والقرآن المتفق فيه مع العلم .

ثم قال : « كان قدماء الفلاسفة يرون العقل مصدراً للحقائق مستغنياً بذاته عن المشاهدة، أما محْدَثوهم فيرونه وسيلة . أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث فهى خارج النفس وخارج العقل . كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء نفسها ضرورياً لطلب الحقيقة . أما المحْدَثون فلا يرون سبيلا للوصول إلى الحقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل . والعلم الحديث باكتشافاته واختراعاته قد وُلد حين ترك الإنسان مذهب الأقدمين فى طلب العلم عن طريق التفكير البحت وبدأ هو يطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير . لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث مشاهدة تكاد تكون بحتة ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها . »

وقال أيضاً : « إن العلم يمنع التقليد فى النظر من غير وقوف على الدليل والاقتناع به والعلم الحديث يخالف العلم قديماً فى هذا لأن العلماء قديما ، خصوصا فى القرون الوسطى ، كانوا كثيراً مايقنعون فى الاستدلال على الصحة والبطلان بإثبات أن القضية توافق أو تخالف رأى فلان أو علان من المشاهير ، فكان مايثبت عن أرسطو مثلا حجة قاطعة فى موضوعه من غير أن ينظر فى رأى أرسطو هذا فى ذاته ومن غير أن يسأل ما دليل أرسطو وكان هذا منبع شر كبير ، ولعله كان سبب كثير من الشبه الكلامية التى قامت بين علماء المسلمين ؛ بعد أن ترجمت كتب اليونان فى العصر العباسى، فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة، وما كانوا يسمونه الحكمة ، يريدون بالحكمة غالباً ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل أفلاطون وأرسطو حتى جاء أمثال الغزالى فوضعوا الأمر فى نصابه . »

وأنا أقول عدد الأستاذ مفاخر العلم الحديث قائلا إنه فعل كذا وفعل كذا وبقى

شىء فقط من مفاخره لم يقله وكان الأستاذ فريد وجدى بك قاله فى أثناء حدوث النقاش بينى وبينه وهو يهددنى بالعلم الحديث لأتقهقر فى الدفاع عن عقائد الإسلام المبنية على المؤيدات العقلية والنقلية دون التجربة والمشاهدة فى الحال الحاضر، كاعتقادنا بوقوع معجزات الأنبياء فى الزمان الماضى ووقوع البعث بعد الموت فى المستقبل . وذلك الباقى من مفاخر العلم الحديث الذى لم يذكره الأستاذ الغمراوى وذكره الأستاذ فريد وجدى بك يفهم من قوله الآتى وقد نقلته عنه من قبل أيضا :

« ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية.

« وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض .

« وقد عثرنا نحن فى جولاتنا العلمية على ما عثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق لولا أن من الله علينا بوجود المخلص منها وهو قوله تعالى :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات.. الآية » .

فانظروا ماذا فعل العلم الحديث : قضى على الأديان كلها ولم يستثن منها الإسلام وقضى على معتقدات نوابغ الكتاب والشعراء الإسلامية فجعلهم يستبطنون الإلحاد فى بلاد الإسلام ويهيئون أذهان أهلها لقبول الإلحاد من غير إشعار بهم . هذا ما اعترف به الأستاذ فريد وجدى بك على حساب نوابغ الكتاب والشعراء الموجودين فى البلاد الإسلامية المشتغلين بالدعاية المقنّعة ضد الأديان ، أما الأستاذ نفسه وهو لا يرضى من غير شك أن لا يكون من نوابغ الكتاب فقد استثناه فى الظاهر من استبطان الإلحاد، وإنى قلت عن هذا الاستثناء : «استبطان الاستبطان» ..وما ذكره من المخلص الذى لولاه لوجد نفسه من تأثير العلم الحديث فى مكان سحيق عن الدين ، لا يغر غير السذج. أما أولا فلِمَ لم ينقذ هذا المخلص وأعنى به آية المحكم والمتشابه غير الأستاذ من نوابغ الكتاب والشعراء المسلمين إن كان فيهما ما يصلح لإنقاذ المشرف على الإلحاد بسبب مايراه من مخالفة عقائد الأديان لقواعد العلم الحديث ؟ وأما ثانياً فلأن خلاص الأستاذ بفضل تلك الآية عن ورطة الإلحاد الناشئة من التخالف المذكور بين عقائد الدين وقواعد العلم ، ليس معناه أن تلك الآية قضت على العلم المخالف للدين وجعلت الدين غالباً عليه فى المحاجة أو أزالت الخلاف الواقع بينهما ، وإنما معناها أن الآيات الواردة فى القرآن منبئةً بوقوع ما لا يقبله العلم الحديث كأنباء المعجزات والبعث وما بعد البعث من الحشر والحساب والجنة والنار ، لا عبرة بها ولا تعويل على دلالتها لكونها من المتشابهات . فالعلم الحديث على قول الأستاذ قضى على تلك الآيات وآية المحكم والمتشابه قضت على قيمة دلالتها تصديقاً للعلم الحديث . فلا صحة إذن لعقيدة الإسلام فى المعجزات والبعث وما بعد البعث كما يقتضيه العلم الحديث وتصدّقه آية المحكم والمتشابه فى القرآن، فالقرآن والعلم الحديث متفقان ضد عقيدة الإسلام .

هذا معنى خلاص الأستاذ من مشكلة التخالف بين العلم والدين بفضل آية المحكم والمتشابه ، وفيه خلاصه وتخليص قرائه من اليوم الآخر ومن مخافة الحساب والعذاب فى ذلك اليوم . وهـذا الأستاذ الذى أعلن مذهبه ضد الأديان عن طريق الدس الذى ذكر هو نفسه أنه طريق مستبطنى الإلحاد النوابغ، ليفهمه من يفهمه ، وهيأ الأذهان لقبوله ، هـذا الأستاذ هو اليوم ومن سنوات طويلة لسان الأزهر الناطق ومعلم الأزهريين الأول لا يعترض عليه من يريدمنهم أن يقيم أوده ويقفَ فى وجه دسائسه.. ومن قام بهذا الواجب من علماء الأزهر يقوم على تخوف من مركز الأستاذ ومكانته عند الأستاذ الأكبر (المراغى) فيُفسد الواجب بين إنكار القول وإكبار القائل، والكثيرون لا يتنبهون لما يذيعه فى منبر الأزهر من الأضاليل فضلا عن الوقوف فى وجهها .

أما الأستاذ الغمراوى فكما أنى أبرئه عن شوائب الظِّنّة فى عقائد الدين، أربأُ به عن مشابهة أستاذ مجلة الأزهر فى رفع العلم الحديث وخفض العلم القديم من غير تحديد لناحية الرفع والخفض فى العلمين . ولا شك فى أن العلم القديم أدى واجبه فى ساحة العقليات وإثبات أساس الدين ، فى حين أن العلم الحديث الذى لا ينكَر تقدمه فى الماديات شوهد ضرره بالدين أكثر من نفعه ، وإن كان العامل فى ذلك سوء فهم الطائشين من علمائه وأذناب علمائه دون العلم نفسه .

وبعد أن يكون هذا البيان معلوماً للقراء الكرام فأقول إن الأستاذ الغمراوى ما أنصف علماء الإسلام المتكلمين فى رميهم بتقليد فلاسفة اليونانيين ولا هؤلاء الفلاسفة فى رميهم بطلب العلم عن طريق التفكير البحت والاستغناء به عن طريق المشاهدة . بل الحق أن مذهب التقليد للغرب وفلسفته سائد عنـد المسلمين وعلمائهم اليوم أكثر مما كان منه لقدمائنا إزاء الفلسفة اليونانية ، لأن الكتب الكلامية التى ورثناها من أسلافنا ملأى بنضال الفلاسفة ونقاشهم التامّ على أنهم رحمهم الله لم

يهملوا التمحيص فى مسائل العلم أصلا[1] حسبك مثالا اهتمامهم العظيم بمسألة حدوث العالم الذى له صلة قوية بكون الله تعالى فاعلا مختاراً بالمعنى الحقيقى ، لا مختاراً بالمعنى الأعم الجامع للايجاب الذى اخترعه أنصار الفلاسفة وفسروه بقولهم « إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل » بدلا من قولنا « إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل » . وهذا البحث يأتى إن شاء الله مفصلا فى فصل خاص من هذا الكتاب يحسن بى أن أنقل شيئا مما قلت فيه ، فلعله يطول انتظار القارئ إلى أن يجئ دور ذلك الفصل فى الجزء الثالث أو الرابع من طبع الكتاب ، وهو :

ثم إن العالم ليقوم بواجبه الذى هو إثبات وجود الله بوضوح ، يلزم أن يكون حادثا ، حيث إن حاجة القديم الذى لا أول له ولم يسبقه العدم ، إلى الموجد غير واضحة. وبهذا تزداد مسألة حدوث العالم أهمية وخطورة فى علم الكلام ، على الرغم ممن خفى عليه خطورة المسألة كابن رشد فلم ير بأساً فى مذهب الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعاب على المتكلمين تشددهم على هؤلاء .

و لمّا خصصنا الفصل الأول من الباب الثانى لدرس مذهب وحدة الوجود ومَنشئه الذى هو عبارة عن تعيين حقيقة لله تعالى على أنها الوجود وعن القول بأن الوجود فى كل موجود هو الوجود ولا موجود غيره ، وكان مقتضى هذا أن يكون الله كل الموجودات فيتحد العالم مع الله ـ أردنا أن نبين فى هذا الفصل الثانى موقف العالم الحقيقى من الله وهو أنه ما سوى الله ومخلوقُه الحادث أى الكائن بعد أن لم يكن ، كما

---

[١] وليأخذ الأستاذ مثالا صغيرا منى وأنا من أقل أعقاب المتكلمين القدماء ولينظر كيف ناضلت الفلاسفة الذين كان علماؤنا يناضلونهم . كيف ناضلتهم ومن انحاز إليهم من علمائنا فى مبحث وجود الله هل هو عين ذاته أو زائد عليها كما سيراه القارئ فى الفصل الأول من الباب الثانى المعقود لمسألة « وحدة الوجود » وكيف سلكت فى هذا الكتاب مسلك التثبت والتمحيص والنقد من غير هوادة ولا تقليد أعمى لأحد من العلماء والفلاسفة الشرقيين والغربيين مهما جل مركزه .

هو مذهب علماء الإسلام المتكلمين بأجمعهم ، بل مذهب المليّين مطلقا . والمخالف فى هذه المسألة أيضاً الفلاسفة والصوفية الوجودية ، وإن كان دأب العلماء المؤلفين فى علم أصول الدين أن يناقشوا الفلاسفة فقط عند درس مسألة حدوث العالم ويضربوا عن أذنابهم صفحاً وأعنى بهم الصوفية القائلين بوحدة الوجود .

مذهب فلاسفة اليونان أن العالم قديم إلا فى رواية عن أفلاطون يقول فيها بحدوثه، وعن جالينوس يتردد فيها بين القول بحدوثه وقدمه[1] وأكثر القائلين بقدم العالم من أولئك الفلاسفة معترفون بوجود الله وبتأثيره فى وجود العالم . والملم بعلم الكلام يشهد معركة عظيمة بين متكلمى الإسلام وهؤلاء الفلاسفة فى هذه المسألة لو تذكرها وحدها على الأقل الأستاذ الفاضل الغمراوى المار الذكر فى الجزء الأول من الكتاب، الخاص بأسباب تأليفه ، أو هيئةُ (مجلة الأزهر) ـ ولا أقول لو عرفوها ـ لكفت فى منع الأول عن رمى المتكلمين بتقليد فلاسفة اليونانيين فى المسائل الكلامية ، وفى منع الآخَرين عن إشادة كتاب الأستاذ بنشر ما يتضمن ذلك الرمى منه فى مجلتهم .

اعلم أن المتكلمين علماء أصول الدين قد عُنوا بمسألة حدوث العالم عناية عظيمة حتى شنوا على الفلاسفة القائلين بقدمه حرباً شعواء لا أغالى إذا قلت لا مثيل لها فى أى مسألة خلافية بين الفريقين . ومن الغفلة استكثار هذا التشدد من المتكلمين فى الإنكار على مذهب القدم زعماً من المستكثر أن المسألة لا علاقة لها مباشرة بموضوع الإلهيات ، فكأنه يقول : « إن وجود الله مضمون عند الفلاسفة كما أنه مضمون عند المتكلمين وليكن العالم بعد ذلك ما كان » ومثال تلك الغفلة ما وقع للقاضى أبى الوليد بن رشد الأندلسى من الاستخفاف بمسألة قدم العالم أو حدوثه من ناحية

---

[١] على ماحكى عنه أنه قال فى مرضه الذى توفى فيه لبعض تلامذته : « اكتب عنى ماعلمت أن العالم قديم أو حادث » قال الإمام الرازى وهذا دليل على أن جالينوس كان منصفا طالبا للحق ، فإن الكلام فى هذه المسألة قد يقع من العسر والصعوبة إلى حيث يضمحل أكثر العقول فيه .

الدين وإنحائه باللوائم على المتكلمين الذين اعتبرهم مبتدعى هـذه البدعة باسم مسألة حدوث العالم أو قدمه .

فأولا ان كون الله تعالى فاعلا مختارا لا يتفق مع قدم العالم ، ومن هذا اعتُبر الخلاف فى حدوث العالم وقدمه ناشئاً من الخلاف فى كونه تعالى فاعلا بالاختيار أو فاعلا بالإيجاب . وقيل بالعكس أى ان الخلاف فى هذا ناشئ من الخلاف فى حدوث العالم وقدمه . والحق أن كلا من المسألتين له خطورته الخاصة ، زيادة على ما بينهما من شدة الاتصال . فلو صرفنا النظر عن علاقة القول بقدم العالم مع القول بكون الله فاعلا غير مختار ، كفانا ما نحس فى القول بقدم شىء مما سوى الله من استغنائه عن فاعليته بالمرة لا مختاراً ولا موجباً ، إذ لا تعقل حاجة القديم الذى لم يزل موجوداً ولم يسبقه العدم إلى إيجاد من الفاعل، فأى شىء يوجد الفاعل من الموجود الأزلى ؟ أليس إيجاد الموجود تحصيلا للحاصل أى تناقضا ؟ وإذا كان القائلون بقدم العالم يعترفون باستناده إلى الله استناد المعلول إلى علته كانت حاجته إلى وجود الله لا إلى فاعليته ، وحاجتُه إلى فاعليته لا تتحقق إلا بالاستناد إلى إرادته التى هو مختار فيها ، إذ الإرادة بالمعنى الذى ابتدعه الفلاسفة ليست من الإرادة فى شىء ... على أن الله تعالى غير متصف عندهم بأى صفة زائدة على ذاته ، فليس هناك إرادة ولا علم ولا غيرهما وإنما هناك ذات . فإذا كان الله تعالى فاعلا للعالم على أن لا ينفك فعله للعالم من ذاته ولا يتأخر عنها فمعنى هذه الفاعلية لزوم وجود العالم لذات الله بحيث لا يمكن وجود الله مستقلا عن وجود العالم كما لا يمكن وجود العالم مستقلا عن الله ، وفعله الغير الإرادى يجعله أشبه شىء بالماكينة المسخرة منه بالفاعل، بل الاشتغال غير لازم للماكينة لزوم الفعل لله عندهم ، فهل يقال عن الماكينة إنها فاعلة ؟ وإذا قيل فهل يكون ذلك قولا حقيقيا ؟ ولذا اعتبر فاعل القطع بالسكين هو الإنسان والسكين آلة القطع لا فاعله وإن صح لغةً إسناد القطع إلى السكين أيضاً، بل وإن كان السكين أحق بإسناد القطع إليه من الإنسان الذى استخدمه ، وأقرب .

وكل هذه الفروق ناشئة من ترجيح صاحب الإرادة لأن يكون فاعلا . وليس فى الله إرادة على مذهب الفلاسفة القائلين بأن الله تعالى لايمكنه أن لايفعل كالشمس لايمكنها أن لاتشرق، وغير المريد لا يوصف بالقدرة حتى فيما فعله لعدم قدرته على أن لايفعل .

أما قول صاحب (الأسفار) : « المريد هو الذى يكون عالما بصدور الفعل الغير المنافى عنه ، وغير المريد هو الذى لا يكون عالما بما يصدر عنه كالقوى الطبيعية، وإن كان الشعور حاصلا لكن الفعل لم يكن ملائما بل منافرا مثل المُلجأ على الفعل فإن الفعل لا يكون مراداً له » ففيه أنه ردٌّ الإرادة إلى العلم والعلم لا يجعل صاحبه مريداً ، كالإنسان يعلم مرضه وليس ذلك بقصده وإرادته ، فإن قلنا إنه غير ملائم فصحته التى يعلمها وهى ملائمة ، تحصل أيضاً من غير قصد وإرادة منه . على أن حديث الملائم أو غير الملائم فيمن سلبت عنه الإرادة وردت إلى العلم يكون حديث خرافة ، إذ الملائم يمتاز عن غير الملائم بموافقته للإرادة ، ولا إرادة هناك[1] . »

---

[١] وإنى أقول هنا قولا لعله لم يلح ببال أحد وهو أن وجوب أفعاله تعالى عنه من غير اختيار منه عند الفلاسفة ووجوب مفعولاته المبنى على وجوب أفعاله والمستلزم لقدم العالم وكون صدوره منه كصدور الإشراق من الشمس ، وقد نص بعض أنصارهم مثل صاحب (الأسفار) على هذا التشبيه مع ادعاء الفرق بينهما بعدم وجود الإرادة فى الشمس ووجودها فى الله ، ومع كوننا لا نعترف بهذه الإرادة المردودة إلى العلم المردود إلى ذات الله ... كل ذلك مما يقرب العالم من ذات الله ويزيد فى تقريبه حتى يجعله — لا أقول كصفة من صفاته إذ لا صفة له عندهم إلا وهى منتفية فى الذات بل أقول كما قال صاحب الأسفار : « شأنا من شؤونه وطوراً من أطواره » فيلغى كلمة ماسوى الله ويفتح طريقا إلى مذهب وحدة الوجود أى مذهب اتحاد العالم مع الله . ويؤيده ماقلت فى الفصل السابق المعقود لتحليل ذلك المذهب ولا أزال أقول من أن الصوفية الوجودية بنوا آراءهم فى الله على آراء الفلاسفة ، ومن أجل ذلك ابتعدوا عن عقائد علماء أهل السنة والجماعة ، وكانوا أى الصوفية الوجودية هم الحقيقين بتفنيد الأستاذ المراغى وتعييبه بتقليد الفلاسفة اليونانيين لا علماء أهل السنة المتكلمون .

وقد نرى هناك مذهبا ذا وجهين من الفلسفة والتصوف بعكس مافعله الصوفية الوجودية =

انتهى ما أردت نقله مما قلت فى فصل حدوث العالم ، ليكون نموذجا لإثبات أن علم الكلام لم يكن علم تقليد لفلاسفة اليونان . فهل يمكن الذين لايقدرون الأوائل حق قدرهم أن يُرُونا من الآثار الحديثة فى الفلسفة الإسلامية ما يعدل أو يدانى آثار السلف كيفاً أو كماً وينافل فلسفة الغرب الحديثة الملحدة كالفلسفة المادية أو الوضعية.. إن أسلافنا لم يسكتوا إزاء مايتنافى مع مبادئ الإسلام من الفلسفة القديمة اليونانية ولم يتقهقروا ولم يقل أحد منهم على رؤوس الأشهاد مثل ما قال مدير (مجلة الأزهر) ورئيس تحريرها قبل تولى الوظيفتين :

« ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض ، فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ،

= فيبنى الفلسفة على التصوف الوجودى ، ومثال هذا ما قاله صاحب (الأسفار) عند تفضيل مذهب الفلاسفة القائلين فى علم الله بارتسام صور الأشياء فى ذاته تعالى وحصولها فيه حصولا ذهنيا على الوجه الكلى ص٩٧ : « وأما تحاشيه أى تحاشى شيخ الاشراقيين وتحاشى من تبعه عن القول بالصور الإلهية لظنهم أنه يلزم حلول الأشياء فى ذاته وفى علمه الذى هو عين ذاته ، فقد علمت أن ذلك غير لازم إلا عند المحجوبين عن الحق الزاعمين أنها أى الأشياء كانت غيره تعالى وكانت أعراضا حالة فيه ، وأما إذا كانت عينه من حيث الحقيقة والوجود وغيره من حيث التعين والتقيد ، فبالحقيقة ليس هناك حال ولا محل بل شىء واحد متفاوت الوجود فى الكمال والنقص والبطون والظهور ، ونفس الأمر عبارة عند التحقيق عن هذا العلم الإلهى الحاوى لصور الأشياء كليها وجزئيها وقديمها وحديثها فإنه يصدق عليه أنه وجود الأشياء على ماهى عليها فإن الأشياء موجودة بهذا الوجود الإلهى الحاوى لكل شىء . »

وأنا أقول إذا لم تكن الأشياء غير الله ، بل كان كل شىء عينه فحدث كما شئت عن أى مسألة شئت ولاحرج، إنما المخطىء والمصيب ليسا غير الله ، ولو قلنا تعالى الله عما يقول الظالمون لقال هذا الفيلسوف الصوفى : ولا الظالمون أيضا .

ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة ، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية . »

ولم يقل أحد منهم أيضا لتحريض المسلمين على تقليد أوروبا كما قال هـذا الأستاذ نفسه : « إن اليابان لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد أن خرجوا على جميع تقاليدهم القديمة وجعلوا حكومتهم لا دينية وانتحلوا علوم أوروبا وثقافتها حتى إلحادها وقلدوا الأوربيين فى مراقصهم وملاهيهم . »

الحاصل أن مافعله الأستاذ الغمراوى من رمى علماء الإسلام المتكلمين بتقليد فلاسفة اليونان ليس إلا مثالا كبيراً لرمى الكلام على عواهنه[1] ، وكذلك رمى فلاسفة اليونان بإهمال المشاهدة وبناء علومهم على التفكير البحت ، فقدقال سيدالمحققين فى شرح «المواقف» فى المرصد الرابع من الموقف الأول عندقول المصنف : «وإليهاأى وإلى الحسيات تنتهى علومهم » : «إن العلم الإلهى المنسوب إلى أفلاطون مبنى على الاستدلال

---

[١] علماء الكلام المساكين وعلمهم المغموط يطعن فيهم ابن رشد الأندلسى وصدر الدين الشيرازى صاحب « الأسفار الأربعة » ، بمخالفتهم الفلاسفة اليونانيين والأستاذ الغمراوى بموافقتهم وكذا ابن تيمية وابن قيم الجوزية ومن تابعهما — وفى مصر كثير منهم يعتبر علم الكلام علم اليونان — ويكرههم قوم ويبدعون علمهم ، وهم الذين يكرهون العلوم العقلية ويترددون فى القول بجواز تعلم المنطق وتعليمه ، وهو منتهى الجمود . وأصحاب هذه الفكرة غير الذين يعرضون عن العقل والمنطق تزلفا إلى العلم الحديث . ويقدح فى المتكلمين أيضا أصحاب مذهب « وحدة الوجود » =

بأحوال المحسوسات المعلومة بمعاونة الحس[1] وأكثر أصول العلم الطبيعى المنسوبة إلى أرسطو كالعلم بالسماء والعلم بالكون والفساد وبالآثار العلوية وبأحكام المعادن والنبات والحيوان مأخوذٌ من الحس ، وعلمُ الأرصاد والهيأة المنسوب إلى بطليموس مبنى على الإحساس وأحكام المحسوسات ، وعلم التجارب الطبية المنسوب إلى جالينوس مأخوذ من المحسوسات . »

وقال « درابر » فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » : « لقد كان تفوق العرب ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى مباحثهم وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلى المحض لايؤدى إلى التقدم وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدات الحوادث ذاتها . من هنا كان شعارهم فى بحوثهم الأسلوبَ التجربى والدستور العلمى . »

وفضلا عن هـذه التصريحات فإن بداهة العقل تأبى عزو نقيصة الإهمال لطريق المشاهدة والإحساس إلى الفلاسفة اليونانيين بجملتهم وتقليدَ علماء الإسلام إياهم فى ذلك من غير تمحيص، أليس لهم أجمعين المقلِّدين والمقلَّدين أعين يبصرون بها أو آذان يسمعون بها . نعم يمكن أن لايوجد عنـد الأوائل من آلات المشاهدة والامتحان ما يوجد عند الآخِرين فتفضل مشاهداتهم على مشاهداتهم ، ومع هـذا فإن فلاسفة الغرب الجدد الذين استخف الأستاذ الغمراوى بالفلاسفة اليونانيين عنـد إكبارهم ، لا يرضون هذا الاستخفاف بل يعدونهم المعلمين الأولين ولا يستخرجون من رقيهم

= ولـكن مسلك المتكلمين لاسيا أهل السنة والجماعة منهم كالأشاعرة والماتريدية ، أقوم من مسالك جميع الفئات المذكورة المختلفة وأخدم للإسلام .

[١] يمكننا أن نستخرج من هـذا القول جوابا على عائبى الدليل الـكلامى القائم على إثبات وجود الله الراجع إلى إثبات وجوده بوجود العالم ، موهمين أنه دليل مبنى على التفكير البحت وهم لا يدرون أن ذلك استدلال مبنى على المشاهدة والإحساس بالعالم ، لا إلى التفكير البحت .

الحاضر مايحط من مقادير الأسلاف لأنهم يعرفون أن العلوم تزداد بتلاحق الأفكار وتقادم الأزمان ، وإنما الاستخفاف بالأسلاف وغمطهم من خصائصنا نحن المسلمين الأحداث ، حتى إنه لا يكفينا غمط أسلافنا مباشرة فنتوسل إليه بغمط أسلاف غيرنا .

قلنا إن الأستاذ الغمراوي أورد من قوله الذى نقلناه مثالا كبيراً لرمى الكلام على عواهنه ، ونقول أيضاً إن الأستاذ الذى عاب علماء علم الكلام بتقليد فلاسفة اليونان من غير تمحيص أظهر لنا من نفسه مثالا رائعا للمقلد ، لأنا لا نراه فى إطراء التجربة وانتقاص العقل البحت إلا مقلداً لما شاع فى الغرب من المنهج بعد الفيلسوف « كانت » صاحب «انتقاد العقل المحض» .. ولكن هل يعرف الأستاذ أن هذا المنهج أعنى منهج اطراء المشاهدة والتجربة وانتقاص العقل المحض توسل به من توسل إلى الطعن فى أدلة وجود الله لعدم ابتنائه على المشاهدة ، كما أن « كانت » نفسه انتقد بهذه العقلية جميع الأدلة النظرية المنتصبة لإثبات وجود الله ، ثم بنى عقيدة وجوده على دليل الأخلاق؟ وستعرف عند الكلام عليه ضعفه وعدم كفايته فى أكبر مطلب علمى كمسألة وجود الله .. وبهذه العقلية أيضاً استمهل الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر الشبان المتعلمين الشاكين فى وجود الله فعلق الأمل فى إثبات وجوده على وجه صحيح علمى بتقدم البحوث النفسية « اسبيرتيزم » فى الغرب، وقد تكلمنا من قبل على هذا الاستمهال وسنتكلم أيضاً .. وقد عرفت أيضاً كيف وقع الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده ، فى خطأ مزدوج من إنكار العقل والعلم بصحة الدين الذى فى رأسه الإيمان بخالق غير منظور ، ومن التباس إنكار المشاهدة عليه بإنكار العقل حتى قال بتنافى العقل مع الدين، بناء على أن العلم يجب أن يوضع فى دائرة العقل لكون قواعده مبنية على المشاهدة والتجربة والامتحان فى حين أن الدين يجب

أن يوضع فى دائرة القلب لـكون قواعده مبنية على التسليم بما ورد فى الـكتب المقدسة من غير فحص فى أصولها . قال : « ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين من كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين ، أما عقلاء الفلاسفة فلأنهم يكرهون مقاومة معتقدات الناس ، وأما رجال الدين فللفرار من برهان العقل الذى يهدم كل شىء لا يقع تحت حسه . »

فتراه أي الأستاذ فرح أنطون كيف تطور فى خلسة تفكير أو غفلة من إنـكار المشاهدة والعلمِ الحديث المبنى عليها للدين، إلى إنكار العقل أيضاً للدين . وهذا هوغلطه المزدوج .. وبمثل هـذا الغلط المزدوج أنـكر الأستاذ فريد وجدى إمكان معجزات الأنبياء وإمكان البعث بعد الموت عقلا واستند فى هذا الإنـكار إلى العلم الحديث المبنى على المشاهدة أى التجربة الحسية. وسيجىء تفصيل كل ذلك منا مع ردوده بما لا مزيد عليه .. فهل الأستاذ الغمراوى الذىأظهرافتتانه بالعلمالحديث مثل الأستاذين المذكورين يوافقهما أيضاً فيما رتبا على افتتانهما من عدم الاعتراف بوقوع معجزات الأنبياء فى الماضى والبعث بعـد الموت فى المستقبل اعترافاً علمياً وعقلياً ؟ وهل الأستاذ الغمراوى أيضا يؤمن بالله بقلبه دون عقله وعلمه ؟

نحن نربأ بالأستاذ الغمراوى الذى لا نشك فى صحة دينه وسلامة عقله وعلمه ، من كل ذلك، والذى نريد أن نحيطه علما بأن المقارنة بين العلمالقديم والحديث وترجيح كفة الحديث على القديم لابتناء الأول على المشاهدة والثانى على العقل البحت ، مما يدندن به على الأكثر ملاحدة العصر الحديث تزييفا للدين المبنى على الدليل العقلى فقط دونالتجربة الحسية ، فلا يروقنا أنيشابه صنيع الأستاذ صنيعهم، لاسيما إذا اقترنت به مذمة المتكلمين علماء أصول الدين .

مع أن هذه المقارنة بين العقل وبين الحس والمشاهدة مما ينم على السذاجة.. ومن أين للحس المشترك بين الإنسان والحيوان أن يبارى العقل الذى فيه كل ميزة الإنسان

على غيره ؟ فها أنا أرفض بعقلي البحث هذه المقارنة وذلك الترجيح من غير أن أحتاج إلى إعانة التجربة المحسوسة ، لأن العقل هو الذى يرشد الإنسان إلى الاستعانة بالتجربة والمشاهدة فيما يحتاج إليهما، وهو وحده الذى يفسرهما ويستخرج المعنى منهما، وهما ليستا بشيء إزاء العقل وبدون العقل[1] حتى إنهما بدونه لا يستطيعان الخطأ فى معرفة أى شيء ، بله إصابة الحق . فالإصابة والإخطاء كله يصدر من العقل فهو معدن الإدراك مطلقا ما يتعلق بالمحسوس وما يتعلق بغيره .

ثم إنى لا أنكر فضل التجربة على العلوم الطبيعية المتعلقة بالماديات واحتياج العقل فى تلك الساحة إلى مساعدة الحواس ، حتى إن عقلى هو الذى يدفعنى إلى الاعتراف بهذه الحاجة.. فالعقل لا ينكر قيمة التجارب الحسية وقيمة العلم الطبيعى المبنى عليهما . لكن المغرمين بالتجربة لا يقدرون العقل حق قدره حيث ينكرون علم ماوراء الطبيعة لعدم ابتنائه على التجارب الحسية . وهذا الفرق أيضا فى التقدير وعدم التقدير من مميزات العقل على الحس . والأستاذ الغمراوى لا أحسبه ينكر علم ما وراء الطبيعة وإنما غاب عنه أن علم الكلام بالنظر إلى مباحثه الرئيسية المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله لا يختلف عن علم ماوراء الطبيعة إلا أنه إسلامى غير مترجم عن فلسفة اليونان؛ أو غاب عنه أن العلم الطبيعى ليس كل العلوم حتى يلزم من احتياج العقل فيه إلى التجربة

---

[١] وقد قلت فى أحد المواضع من هذا الكتاب إن الملاحدة الماديين ينعون فى توهين السند العقلى ويعادون العقل مع الدين المستند إليه فيقولون لا قيمة للاستدلال العقلى المجرد من التجربة والمشاهدة ونحن ندافع فى هذا الكتاب عن العقل ليتسنى لنا الدفاع عن الدين .. ومن حسن حظنا فى موقف مناضلة الخصوم أن يكون العقل معنا فندافع عنه ويدافع عنا ، فلو لم يكن لنا إلا كوننا فى موقف الدفاع عن العقل وخصومنا فى موقف المخاصمة للعقل لكفانا وكفاهم . وقلنا أيضا فإن اعتذر معتذر عن الخصوم بأنهم لا يفضلون الحس ولا يستهينون بالعقل وإنما يشترطون فى التعويل على العقل شرط استناده إلى الحس وتأيده بها فالجواب أن هذا استهانة بالعقل المحض بجعل الثقة دائرة مع الحس والتجربة وليس تفضيل الحس على العقل غير هذا .

الحسية احتياجه إليها فى جميع العلوم ، أو بالأصح غاب عنه مايترتب على سلب الثقة بالاستدلال العقلى من المفاسد العظيمة التى منها أن يكون الشاك فى وجود الله معذوراً فى شكه ، بل الملحد فى إلحاده .

فلو قيل للأستاذ غير الواثق بالدليل العقلى مغرما بالدليل التجربى مع المغرمين : إن « كانت » الذى سن سنة انتقاد جميع الأدلة العقلية النظرية لوجود الله التى اعتمد عليها علماؤنا المتكلمون، كما سيجىء تفصيله مع ردوده ، عاد فانتقد أيضاً دليل نظام العالم الذى نعتبره فى محله من الكتاب الدليلَ التجربى ـ انتقده بأن نظام العالم إنما يدل على وجود ناظم ولا يدل على كون الناظم هو الله، أو يدل على وجود ناظم كامل بقدر ما فى نظام العالم من الكمال ولا يدل على وجود ناظم أكمل الذى هو الله القادر على وضع نظام أبدع من نظام العالم . فلو قيل للأستاذ هكذا فكيف يدفع اعتراض « كانت » ويُثبت كون واضع نظام العالم هو الله من دون أن يضيف إلى الدليل التجربى المستفاد من نظام العالم ما نضيفه من أن نظام العالم من الممكنات لا من الواجبات الضروريات ولا من المستحيلات؟ ولهذا يحتاج إلى ناظم يخرجه من العدم إلى الوجود ويعيِّن له هذا الشكل الذى اختاره على غيره من الأشكال، فلو كان له ناظم غير الله كان ممكنَ الوجود كالنظام نفسه لا واجب الوجود لأن وجوب الوجود خاص بالله تعالى . وإذا كان ممكنَ الوجود كان محتاجا إلى علة موجدة فننقل الكلام إلى علته الموجدة الممكنة أيضاً ، إلى أن يلزم التسلسل فى العلل الممكنة أو ينتهى إلى موجد واجب الوجود ، ونحن نبطل التسلسل فى الفصل الأول من الباب الأول من أبواب الكتاب الأربعة.. فيتعين الشق الثانى أى الانتهاء إلى موجد واجب الوجود ، وهو الله . وخلاصة هذا الكلام أن إثبات وجود الله عبارة عن إثبات موجود واجب الوجود ، ولا يمكن إثبات هذا الموجود بالتجربة من دون أن يضم إليها شىء من الاستدلال العقلى ، والذى يَثبت بالتجربة والمشاهدة وجود شىء لا وجوب وجوده .

ولو قيل للأستاذ إن أصحاب الفلسفة الإثباتية أو بعبارة معروفة بين مثقفي مصر الثقافة الغربية : أصحاب الفلسفة الوضعية أتباع « اوجوست كونت » وأكثر الماديين المنتمين كلهم إلى العلم الحديث المبنى على التجربة ركنوا إلى الإلحاد بحجة أن التجارب العلمية لا تُرى فى العالم غيرَ القوى الميكانيكية التى تعمل عملها من غير شعور ولا إرادة ولا تُري التجربةُ حتى وجودَ أى ناظم وأن ما يُرَى فى صورة النظام ليس بنظام صادر عن قصد تنظيم وإرادته ، وإنما هو مصادفة صادرة بنفسها من غير فاعل . فلو قيل للأستاذ هكذا فكيف يجيب عنه ويُثبت وجود فاعل النظام من دون مراجعة الدليل العقلى القاضى باستحالة المصادفة لكونها راجعة إلى الرجحان من غير مرجح وكون هذا الرجحان راجعاً إلى التناقض المستحيل كما سنوضحه فى أمكنة كثيرة من هذا الكتاب؟[1] .

ولو قيل للأستاذ إن العلم الحديث المثبَت المبنى على التجربة الحسية لايعترف بالنظر إلى آخر آرائه بوجود أى شىء فى الكون غير الحركة حتى إنه لا يعترف بوجود المادة أيضاً لعدم وصول التجربة إليها كما قال « كانت » وغيره من التدريبيين : « نحن نعرف الشؤون ولا نعرف ذا الشئون » وكما قال « بول ژانه » فى كتابه عن تاريخ الفلسفة « مطالب ومذاهب » : « إن مذهب التدريب ينتهى إلى السوفسطائية الحسبانية.» الحاصل أن الذى أجمعوا على معرفته بالتجربة الحسية هو الشؤون والحادثات التى يردون جميع أنواعها إلى الحركة . ثم إن الذين لا يعترفون بوجود الله من أهل العلم المثبَت يقولون إن العالم بجميع أجزائه عبارة عن سلاسل الحركات على أن تكون

[١] ولا يجوز أن يظن بنا أنا ندافع عن الدليل العقلى لكوننا نحتاج إليه ونعتمد عليه فى إثبات العقائد الدينية التى فى رأسها إثبات وجود الله لا لكون الدليل العقلى حقيقا بالاعتماد فى نفس الأمر .. لا يجوز أن يظن بنا ذلك بل إننا نثبت فى هذا الكتاب أن الدليل العقلى المنطقى أقوى الأدلة وأفضلها محتفظا بقوته وتفوقه أبد الآبدين .

علةُ كل حركة هى الحركةَ التى تقدمتها ، ولما كان كل سلسلة من سلاسل الحركات تمتد نحو الماضى امتداداً لا نهاية له ، فكل حركة فى كل سلسلة تجد علتها الحركة فى داخل السلسلة التى لا أول لها وتستغنى عن وجود محرك من خارجها . فلو قيل للأستاذ هكذا فكيف يثبت وجودالله المحرك لهذه الحركات التى تتشكل منها سلاسلها أو على الأقل كيف يثبت المحركَ الأول لهذه الحركات الذى أثبته أرسطو الفيلسوف الكبير اليونانى بدليلة الخاص العقلى ؟ وكيف يثبته الأستاذ المستهين بالدليل العقلى وبفلاسفة اليونان من دون البراهين العقلية المبطلة للتسلسل ؟

ولا يغرنَّ الأستاذَ ما قاله الشيخ محمد عبده فى تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية (ص ٢٨) : « وجميع ما قالوه فى إبطال التسلسل من البراهين فإنما هو مبنى على أوهام كاذبة . وإلى الآن لم يقم برهان خطابى فضلا عن يقينى على وجوب تناهى سلسلة اجتمعت أجزاؤها فى الوجود مع الترتيب أو لم يكن كذلك .. وطريق إثبات الواجب متسع لنا فيه مندوحة عن ارتكاب هذه الأوهام . »

لا يغرن الأستاذ قول الشيخ الذى يتبع فى آرائه الخاصة هواه فى الازدراء بآراء علماء الإسلام .. ومسألة بطلان التسلسل الذى أجمع عليه علماؤنا المتكلمون والذى كان عليه فلاسفة اليونان بشرطين فجاء علماؤنا المقلدون ـ كما قال الأستاذ ـ وألحقوا ما لم يوجد فيه الشرطان بما وجدا فيه واستقر إجماع الفريقين على بطلان التسلسل فى أمور مرتبة مجتمعة فى الوجود وفى رأس هـذا النوع تسلسل العلل .. ثم يجىء الشيخ محمد عبده فيخالفهم حتى فى محل إجماع الفريقين على بطلانه لأنه مملول بداء الخلاف والشذوذ .

ولا يدرى الشيخ المعجب بعقله ولا عقلاء مصر المعجبون به أن إثبات وجود الله يتوقف على إبطال تسلسل العلل[1] ، كما لا يدرى هو والمعجبون به أن تسلسل العلل

[١] فالذين التزموا إثبات وجود الله الذى هو إثبات موجود واجب الوجود ، بالعقل =

إلى مالا نهاية له بديهى البطلان بالنسبة إلى العقول السليمة ، والبراهين التى أقامها العلماء لإبطاله كبرهان التطبيق وبرهان التضايف والتى اعتبرها الشيخ أوهاماً كاذبة ، مُقَامَةٌ للذين لا يفهمونه من غير تفهيم وتنبيه . ونحن بفضل الله تعالى نزيح فى الفصل الأول من الباب الأول النقاب عن وجه هـذا البطلان بكل بداهة بحيث لا يستطيع أى منكر إنـكاره ولو كان الشيخ محمد عبده . فيتبين هناك أن سلسلة العلل المحتاجة إلى علة إن لم تنته إلى علة لا تحتاج إلى علة لتكون مبدأ السلسلة ، بل امتدت إلى غير نهاية ، وهو التسلسل الذى أجازه الشيخ وأنـكر بطلانه كل الإنكار ، فهى معدومة بجملتها وأن وجود سلسلة كهذه مبنى على أوهام كاذبة ، لا البراهين المقامة لإبطال التسلسل كما توهم الشيخ . والدليل المختصر الذى ذكره[1] لإثبات الواجب واستغنى

= النظرى ـ وعليه علماء الإسلام جميعا والحـكماء الإلهيون قديما وحديثا عدا « كانت » ـ كان حتما عليهم إبطال تسلسل العلل الممكنة الوجود المحتاجة إلى علة موجدة ، إلى غير نهاية ، حتى ينتهى فى علة واجبة الوجود .. أما « كانت » الذى لم يقتنع ببطلان التسلسل كالشيخ محمد عبده فقد عدل لذلك عن إثبات وجود الله بالعقل النظري ، لـكونه يعرف أن إثبات وجود الله بالعقل النظرى ، يتوقف على إبطال التسلسل ، واستدل على هذا المطلب بدليل آخر يخصه ، وسننقله ثم ننقده إن شاء الله .

لـكن الشيخ محمد عبده مع كونه شريك « كانت » فى عدم التنبه لبطلان الذى فى التسلسل لاسيما تسلسل العلل والذى لا عذر للعقل السليم فى عدم التنبه له ـ مفترق عن « كانت » ومضيف إلى عدم تنبهه هذا عدم التنبه أيضا لـكون الطريق إلى إثبات وجود الله مسدوداً على العقل النظرى ما لم يبطل التسلسل ، كما تنبه « كانت » فعدل إلى دليل غير دليل العقل النظرى ، وبقى الشيخ الذى لا دليل له غير دليل العقل النظرى ، بلا دليل .. وحق لنا أن نقول : لا عجب إن شاعت عداوة علم الـكلام فى أوساط المتعلمين بعصر الحديثة ، بعد أن كان أستاذها الإمام تخبط فى أعظم مسألتين من مسائل علم الـكلام وهما إثبات وجود الله وإثبات وحدانيته . وقدم الـكلام منا على تخبطه فى المسألة الثانية فى الرقم ٣ .

[١] ص ٨٢ من كتابه المذكور آنفا .

به عن إبطال التسلسل يتوقف على إبطال التسلسل وإن خفى هذا التوقف على الشيخ لأن إثبات وجود الله كما قلنا من قبل أيضا عبارة عن إثبات موجود واجب الوجود، والذى بنى عليه الشيخ دليله واكتفى به هو إبطال الرجحان من غير مرجح، وإبطال هـذا وإن كان ضروريا أيضا فى إثبات وجود الله، لـكنه إنما يثبت به وجود صانع للـكائنات مطلقا لا وجود صانع واجب الوجود فتبقى الحاجة فى دليل الشيخ إلى إثبات وجود صانع لصانع الـكائنات وهلم جرا .. فيلزم التسلسل ويتوقف إثبات الواجب على إبطاله، ولا يمكن إبطاله عند الشيخ فلا يمكن إثبات الواجب أى إثبات وجودالله عنده، وإنما يقوم العالم على سلاسل العلل الممكنة الوجود غير المتناهية التى يغنى عدم تناهيها فى زعم المتمسكين بها عن وجود الله الواجب الوجود[1].

نعود إلى ما كنا فيـه : أما قول الأستاذ الغمراوى : « أما الحقائق نفسها فهى خارج النفس خارج العقل » فأنا أجيب عنه مضيفاً إليه قولى : خارج الحس أيضا . قال « ا. رابو »[2] : « من البديهى أن الإدراك الخارجى أعنى الإحساس لا يصل إلى ماهيات الأشياء ولا تحدثنا التجربة ماهو العالم فى حد ذاته. لأنه إذا عمق النظر فى المسألة فلا إدراك خارجيا أصلا، والتى نقول عنها الأشياء « اوبژه » ما هى إلا تـكيفات نفسية رسمها بوهمنا فى خارج شعورنا »[3] .

وقال أيضاً : « لا نستنبط من إحساس أكثر من إحساس ولا يُستثنى من هذا الحـكم الإحساسات اللمسية التى يخوّل لها على الأكثر امتياز كونها تجعلنا فى حالة التماسّ مع الخارج، فإحساس المقاومة التى يفسّر بها اللمس داخلى محض كإحساس اللون. »

---

[١] هنا هامش طويل أرجأناه إلى نهاية هذا الجزء من الـكتاب .

[٢] فى دروس الروحيات ص (١٥٧) من الترجمة التركية للأستاذ الـكبير محمد على عينى.

[٣] « المطالب والمذاهب » لپول ژانه .

وقال « كانت » سائلا عن معيار الحق[١] « فهل نحن نبحث عنه فى متعلق المعرفة العينى ؟ » ثم قال : « إن الحقيقة عبارة عن مطابقة المعرفة للعين « الواقع » فالاقتناع بحقية معرفتنا يكون مشروطا بمطابقتها للواقع، والحال أن موازنة المعرفة بالواقع ليست غير موازنتها بالمعرفة فتكون نتيجة المطالبة بمطابقة المعرفة للواقع هى المطالبة بمطابقة المعرفة للمعرفة ، لأنه لما كانت معرفتى فىّ والواقع خارجاً منى فغاية ما أحكم به موافقة معرفتى بالواقع لمعرفتى بالواقع أو عدم موافقتها أعنى موافقة المعرفة للمعرفة لا للواقع . وكان الحسبانيون يعبرون عن هـذا الدور (بالمصادرة) . فتعريف الحقيقة دور كما قالوا وهو يشبـه أن يقوم أحد فى تأييد ما أخبر به فيأتىَ بشاهد غير معروف عند الناس مدعياً له العدالة والصدق وساعياً فى إقناع النـاس بشهادته ، فالاعتراض على طريق معرفة الحق وارد جدا ، وحل هذه المشـكلة ممتنع لجميع العالم امتناعا مطلقا . »

فيُرى أن فيلسوفاً كبيراً مثل « كانت » مؤسس انتقاد العقل المحض ذلك الفكر الذي حاز إعجاب الأستاذ الغمراوى مع المعجبين من الغربيين والشرقيين ، يحكم بكون الطريق إلى معرفة الحقيقة مسدودة لعدم إمكان الوصول لنا إلى الواقع الخارج ، بالخروج منا .. فنحن محصورون فينا ولا يخرجنا من هذا الحصار أى واسطة لا عقل ولا حس كما ذكره « ا. رابو » .

ولست أنا على رأى « كانت» لأنه حسبانى كما سيأتى تحقيقه فى آخر الفصل الأول من الباب الأول ولـكنى ذكرت قوله هنا ليعلم الأستاذ أن الحس كالعقل فى عدم الوصول إلى الحقيقة عند علماء العلم الحديث لأن المدرك فى الإحساس أيضا هو العقل، فإذا كانت الحقائق فى خارج النفس وفى خارج العقل كما قال الأستاذ فالعقل الذى

---

[١] ص ٨١ من الكتاب المذكور آنفا .

لا يخرج من محله ولا يدخل إليـه شيء من الخارج لايتصل بالحقيقة التى فى الخارج ولاتجعله الحواس متصلا بها، فإدراك الخارج الذى نعبر عنـه بالإحساس داخلى محض كما أن التصور الذى هو الإدراك بغير واسطة الحواس داخلى محض .

أما الإشكال العظيم الذى أثاره « كانت » وقال لا جواب له فيعلم جوابه مما سنذكره عند تدقيق مذهب « كانت » وهو أن الإشكال الذى نصادفه فى مبحث المعرفة والذى لا يمكن حله ، راجع إلى كيفية معرفتنا لا إلى المعرفة نفسها . وقد قلنا هناك إن الإنسان يعرف ما يعرفه من المحسوسات والمعقولات ولا يعرف كيف يعرفه، لأن الله عرّفه ماشاء أن يعرفه ولم يعرّف كيفية معرفته، فعندنا معلومات من المحسوسات والمعقولات نعرفها ونعرف أننا نعرفها وإنما لا نعرف كيف نعرف ، ولا يضر معرفتنا بما نعرف كوننا لا نعرف كيف نعرف . فاندفع الإشكال الذى تصوره « كانت » ، ولو ورد الإشكال لورد على المعقول والمحسوس سيّين ، كما أن « كانت » نفسه لم يفرق بينهما فى إيراده. فما نعرفه بعقولنا المحضة وما نعرفه بواسطة الحواس سيان فى أنهما لولا تعريف الله لانعرف بهما أىّ شيء لا أنا نعرف بواسطة الحواس ولا نعرف بواسطة العقول لكون الحواس تصل بنا إلى الواقع الخارج ولا تصل العقول .. والدليل على عدم الفرق بينهما فى عدم الوصول بنفسهما كوننا لا نعرف عند ما نعرف بكل منهما ما نعرفه ، كيف نعرف ، ولا يزال هذا الجهل فينا وهو الإشكال الذى ظن « كانت» أنه فى معرفة ما نعرفه مع أنه كان ولا يزال فى كيفية معرفتنا .

وجواب آخر عن إشكال « كانت » وإن لم يكن فى درجة الجواب الأول : وهو أن المطلوب فى المعرفة ليس الوصول إلى الواقع الخارج بالخروج منا والولوج فيـه أو خروجه منه وولوجه فينا ، بل المطلوب معرفته اليقينية عن معرفة دليلها العقلى والحسى ، فتكون معرفة الشيء بدليله فى مثابة معرفة الواقع التى هى المطلوب ، ومثال الإخبار بالشيء ثم الإتيان بشاهد غير معروف عند الناس الذى ذكره الفيلسوف بكل

حذاقة ومهارة ، لا يكفي في تصوير الدقة التي ينطوي عليها موقف العارف بالشيء معرفة يقينية . وسنوفي القول حقه في بحث المعرفة عند الكلام على فلسفة « كانت » .

وقال الفيلسوف « ليبنتز » : « اليقين على ثلاث درجات اليقين البديهي واليقين البرهاني واليقين الحسي ، فنحن نعرف وجودنا بالبداهة ووجود الله بالبرهان ووجود الأشياء السائرة بالإحساس . واليقين البرهاني يرجع إلى اليقين البديهي الذي ينطبق على الرابطة بين القضايا المتعددة بدلا من انطباقه على حقيقة منفردة . أما اليقين الحسي فمع أنه لا كلام في حصولنا بالإحساس على معنى شيء خارج منا فإن محل النظر هو معرفة أن يكون لنا حق التقيد به باعتقاد فطري »[1] .

ففي المعرفة الحسية أيضا يقين عند « ليبنتز » كالمعرفة البديهية والبرهانية إلا أنه يلزم وجود معيار للتمييز بين المعرفة الحسية والتخيلات الواقعة في النوم واليقظة ، ولا تكفي شدة التمثلات في أن تكون معياراً ، وإنما الحقيق بأن يعد معياراً حقيقياً هو الارتباط الواقع بين الشؤونات كتوافق التجارب من أناس مختلفين في أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة واتحاد نتائجها . فارتباط الشؤونات التي توثق الحقائق الواقعة بشأن الأشياء المحسوسة في الخارج منا ، يحقّق بحقائق العقل . وخلاصته أن الحقائق الحسية تعتمد على الحقائق العقلية . فليُفهم من هذا مبلغ خطأ الذين يظنون أن مرتبة الأدلة العقلية دون الأدلة التجريبية .

وقد قلنا من قبل إن العقل وحده هو الذي يفسر التجربة والمشاهدة ويستخرج منهما المعنى وهما ليسا بشيء بدون العقل فالإحساس بدونه أعمى والتجربة بدونه خرساء ، فاستخراج المعنى منهما ثم توثيق ذلك المعنى وتحقيقه إنما يكونان بفضل العقل. فإذا كان الأمر كذلك وكان العقل يخطيء ويصيب فكلا الاحتمالين جارٍ في المعقول

---

[١] المطالب والمذاهب

والمحسوس . والخطأ فى المحسوس كثيراً ما يقع فيما إذا كان المعنى المستخرج من الإحساس مركبا ، ومن هذا لا يندر أن العلم المبنى على التجربة قد ينتقض قديمه بحديثه . فدار الإصابة سواء كانت فى المعقول أوالمحسوس ، على سلامة العقل ومدار الخطأ فيهما على عدم سلامته ، فلن يخطئ سليم العقل والمنطق مهما كان ناقص التجربة وغيرُ سليمهما يخطئ وسط التجارب .

وإنى أذكر كلما اقتضت المناسبة ما وقع لأكبر أدباء تركيا فى العصر الأخير « جناب شهاب الدين بك » عند مناظرتى إياه فى مسألة تعدد الزوجات ، من عدم اعترافه بفائدته المعروفة فى إكثار النسل ـ رغم كون فائدته هذه كالثابت بالدليل الرياضى من حيث ان الزوجات العديدة يلدن أكثر من زوجة واحدة ـ مدعياً أن الإحصاءات « ستاتيستيك » تُرى انتقاص عدد الأهلين فى البلاد التى تبيح تعدد الزوجات بله ازديادهم، ومطمئناً على أن الإحصاء لا يكذب.. فكنت قلت يومئذ ما معناه أن الإحصاء لا عقل له ولا منطق ، ومن هذا لا يكذب وإنما يكون تابعاً لعقل ومنطق من يستنطقه وربما يقوّله مالم يقله.. فإذا شهد الإحصاء على انتقاص الناس فى أي مملكة تبيح تعدد الزوجات على مر الزمان من غير وقوع مهاجرة منها إلى الخارج ، فشهادته يجب أن تقصر عليه أى الانتقاص نفسه فقط ، وأما سبب الانتقاص فهو خارج عن شهادة الإحصاء ودلالته وإنما هو علاوة على مدلوله من عقل من يستشهد به ، فإذا وقع الخطأ فى المسألة فالمخطئ عقل صاحب العلاوة الذى جعله يظن انه استند فى الحكم بتعيين سبب الانتقاص ، ومثله الازدياد إلى الإحصاء. وكذلك كل حكم تجربى اتفق عليه الناس حقبة من الدهر بل اتخذوه دستوراً علمياً ثم تبين أنه خطأ ، فسبب الخطأ الخروج فى الحكم الأول من حدود التجربة ولا خطأ للتجربة فى حدودها . وهذه مزلقة أقدام المجربين الذين لا يتحوطون حق التحوط فى تحديد ما دلت عليه تجاربهم ، والذنب ذنب عقولهم التى لم تقفهم عند حدود التجربة . وأكبر مثال فى هذا الباب

أن المادة التي كان الماديون قائلين بأزليتها وأبديتها ولم يكن عنـدهم شيء أحق باسم الموجود منها وأسلم من الهلاك والفناء ، وكانوا يقولون ما قالوا فيها بناء على التجارب المستمرة منذ تاريخ العـلم الطبيعى إلى هذا الزمان المسفرة عن أنها يتغير شكلها أو خصوصية نوعها ولا يضيع شيء من كميتها وثقلها . وكانت النتيجة المعقولة التي يجب أن يكتفى بها فى الاستنباط من تلك التجارب أن يقال إننا لا نقدر على محو المادة ولا على معرفة انمحائها بنفسها بوسائطنا الحاضرة فتبقى كمية الأجسام فى تقديرنا بهذه الوسائط محفوظةً دائماً .. لـكنهم جاوزوا حدود مدلول التجربة وحكموا بأن المـادة لا تتغير ولاتقبل المحو ، بل قالوا إنها أزلية أبدية .. فلما ظهر أخيراً أن بعض الأجسام مثل « أورانيوم » و « راديوم » ينشر أشعة غير مرئية وينمحى بالتدريج ، ثم تبين بتجارب أخرى أن هـذه الحالة أعنى نشر الأشعة والانمحاء التدريجى لا يختص بالجسمين المذكورين بل يعم جميع الأجسام إلا أنه يكون فيهما أزيد من غيرهما ، وإن كان فناؤهما أيضاً فى بطء لا يمد بمئات ألف من السنين .. فلما ظهر ذلك ثبت أن ما يعتقدونه الدائم الباقى من الأجزاء الفردة للأجسام البسيطة يتفرق فى بطء متناه وينمحى شيئاً فشيئاً مضيعاً لصفاته التي بها تعتبر المـادة مادة .. وظهر لاحق التجربة ناقضاً لسابقها فى أشهر أمثلتها وأصحها عندهم .. وما سبب ذلك الخطأ السابق إلا المغالاة فى قيمة التجارب وإضافة الضرورة إلى نتائجها حتى كانوا يحكمون باستحالة فناء المادة مع أن الضرورة والاستحالة خارجتان عن حدود التجربة داخلتان فى حدود ما وراء الطبيعة الذى القول الفصل فيه قول العقل ، فله وحده الحق فى الحـكم بالضرورة التي تجعل الاحتمال المخالف مستحيلا ولا يكون هذا الحق أبداً للتجربة ، والتجربة نفسها بريئة من ادعاء هـذا الحق لها وإنما الذنب لعقول المجربين وأذنابهم فى إلصاقه بها كما ذكرنا[1] والاختلاف بين المتمسكين بالتجربة والمتمسكين بالدليل العقلى لا يكون

---

[١] وإنى أحس فى الرأى المرتب على التجارب الأخيرة فى فناء المادة أيضا بعض الخروج =

خلافاً بين التجربة والعقل بل بين عقول الطرفين ويكون الحق دائماً فى جانب الأقوى والأقوم منهما عقلا .. وليس معنى هـذا إلغاء التجربة والاستغناء عنها بالدليل العقلى بل العقل نفسه يقضى بلزوم التجربة فى المسائل المادية التى تحتاج إليها وتخضع لها .. فمن أراد الاستغناء بالعقل فى مثل تلك المسائل لا يكون أقوم عقلا من ملتزمى التجربة. فالعقل يقدر التجربة قدرها فى حين أن المولعين بالتجربة لا يقدرون العقل حق قدره، وهو مما يدل على فضل العقل.

على أنه لاشك فى أن الدليل العقلى أسمى قيمة من الدليـل التجربى ، ومن هذا تـكون الأحكام الضرورية إما بديهية أى مستندة إلى بداهة العقل أو إلى البرهان العقلى المحض كالبراهين الرياضية والمنطقية لا مستندة إلى التجربة التى لا ينقطع دابر احتمالات الشبهة فيها فيبقى دائما احتمال مخالف مكنون فى أحد الأزمنة والأمكنة ، وقد اعترف بها كبار علماء المذهب التجربى مثل « ستوارت ميل » . قال فى منطقه : « إنه وإن كان هناك بعض تجارب غير منحلة وغير منتقضة فليست أى تجربة غير ممكنة الانحلال والانتقاض فقد كان اقتُنع بناء على تجارب متكررة فى مدة طويلة أن الطائر (Le Cigne) لا يكون إلا أبيض ، فلما اكتشفت استراليا تبين بطلان هذا الاعتقاد » حتى إن هذا الفيلسوف لما كان مذهبه أن المبادئ الأولى للمعرفة التى لا يشك أحد فى قطعيتها

= عن حدودها فيقولون مثلا إنما كان يظن من قبل من وجود شيئين باسم المادة والقوة تبين الآن أنهما شيء واحد وهو القوة أما المادة فلا وجود لها وإنما هى عبارة عن قوات مجتمعة متكاثفة ، فهذا أيضا زيادة على مدلول التجربة الأخيرة ومدلولها الصحيح كون المادة تفترق وتفنى .. أما عدم كونها موجودة منذ الأول .. أما انها عبارة عن قوى مجتمعة فالتجربة ساكتة عنه بل يأباه قديمها وجديدها ويأباه العقل ، إذ لا يمكن أن تجتمع قوات لا ثقل لها أصلا فتحصل مادة ثقيلة ولا أن تجتمع أعراض لا تقوم بذاتها فتقوم بذاتها . ومنشأ هذه الأغلاط الزعم القديم بأن الموجود لا يقبل العدم والمعدوم لا يقبل الوجود . ومذهبنا أن الله تعالى أوجد الكائنات بعد ان لم تكن ، وهو يعدمها متى شاء .

ويقينيتها محصول الاختبار والتجربة ، أثار حولها شكا قائلا :

« لا ريب فى أنها أى المبادئ الأولى تمثل جميع التجارب السابقة فى الماضى ، إلا أن عدد الحالات الواقعة مهما كان عظيما فليس بشىء إزاء ما يحتفظ به المستقبل من المدد غير المتناهى .. والقول بأنه لا سبب داعياً على أن لا تكون حالات المستقبل طبق الماضى مؤيدةً للتجارب السابقة خروجٌ عن دائرة التجربة وإقامةُ مبدأ آخر مقامها ، فمن الممكن أن يوجد فى أنحاء العالم الذى لا يحد له حد محل لا يُعترف فيه بهذه المبادئ » .

وفى قول الفيلسوف هذا على الرغم من كونه من أكبر علماء المذهب التجربى فى الغرب عبرة عظيمة للذين يكبرون التجربة ويستخفون بالدليل العقلى لأن المبادئ الأولى التى هى رأس اليقينيات والبديهيات كمبدأ التناقض ومبدأ العلية لما كانت عند هذا الفيلسوف مستنبطة من التجربة تنزلت قيمتها اليقينية باعترافه حتى قال بإمكان أن لا تكون هذه المبادئ مسلمة فى مكان من أمكنة العالم الذى لا يحد لسعته حد . إلا أن مذهبه التجربى فى المبادئ الأولى لما لم يكن مختاراً عند المحققين كما سيأتى فى الفصل الثالث من الباب الأول لهذا الكتاب ، لم يؤثر تشكيكه فى قيمتها اليقينية .

فقد عرفت أن مايدرك بالحس والتجربة فدور العقل فيه أكبر منهما ومالا يدرك بالحس والتجربة فكل الدور فيه للعقل . والذين لايعترفون بهذا النوع من المدركات أو يُحلونه محلا دون محل المدركات بالحس والتجربة ثم يبينونه بأحلال العقل نفسه دون محل الحس والتجربة فدافعُهم إلى كل ذلك ضعف عقولهم بالنسبة إلى حواسهم .

نعم ، إن ما يدرك بالحس والعقل فاجتماعهما فى إدراكه أصح وأقوى أو بالأصح أظهر وأوضح من انفراد العقل . وهذا أيضاً من أحكام العقل إلا أنه يكون من التباس الأمور على المرء أن يطبق قاعدة الترجيح هذه فيما لا سبيل فيه للتجربة والمشاهدة ،

فيجعل المحسوسات فوق المعقولات فى مرتبة الإدراك . فالمعقولات أعنى مايدركه العقل مما لا يتعلق به الحس يدركها العقل بقوة لا تقل عن إدراك العقل والحس معاً للمحسوسات إن لم تفضل عليـه . ولا يضره تمحض العقل فى إدراكه لأن المعقول محل هذا التمحض بخلاف المحسوس الذى يحتاج العقل للتثبت فيه إلى مساعدة الحس ، ولا يحتاج إليها فى المعقول كمسائل ما وراء الطبيعة . وقد علمت أن المدرِك فى الـكل هو العقل إلا أنه لعدم المناسبة بينـه وبين الماديات مباشرة احتاج فى إدراكها بيقين إلى توسط آلة من الحواس ، أما المعقولات فهى متجانسة مع المدرِك أى العقل ، فإدراكه إياها بنفسه وبمحضه يكون تاما من غير حاجة إلى توسط آلة . فلما كانت مسائل ماوراء الطبيعة لاسيما الإلهيات التى هى أهم ما كان يدرسه المتكلمون بل كبار فلاسفة اليونان أيضاً ، مما يتمحض فيه العقل ولا تمشى فيه التجربة والمشاهدة فتعييب الأستاذ الغمراوى إياهم بأنهم يستندون إلى العقل المحض ـ كأن الاستناد إلى العقل المحض عيب ـ من قلة التدبر .. ألا يرى أن ما وضعه الفيلسوف « ديكارت » فى رأس المدركات اليقينية من انتقاله من شكه الذى هو نوع من الإدراك إلى وجوده قائلا : « أدرك فأنا إذن موجود » ليس إلا استدلالا عقلياً محضاً ؟ فلو قال : « أرانى فأنا إذن موجود ما كان أبلغ وأقوى من قوله الأول . »

ثم نقول فى سر انهماك الناس فى هـذا الزمان فى إطراء التجربة ووضعهم إياها فوق ما يستحقه من المرتبة العلمية ، إن التجربة يستفاد منها كثيراً فى العلوم المادية والصناعات التى يدور عليها رقى الغرب وتقدمه وغلبته ، فتلك العلوم تعطى ثمراتها فى الحياة الدنيا . أما علم ماوراء الطبيعة لاسيما الإلهيات فمعظم ثمراتها يتأخر إلى الحياة الأخرى ، والناس مغرمون بترجيح العاجل وإيثاره على الآجل . فماذا يستفيد رجل الدنيا والمادة من أدلة وجود الله والتفكير فيها مهما امتلأت بها الـكائنات ؟ فالطبيب الذى قال عنه شاعر العرب الـكبير المعرى :

عجبي للطبيب يلحد في الخا   لق من بعد درسه التشريحا

لاشك أن مايعرفه الطبيب من علم الطب ليس بشيء يحق أن يطلق عليه اسم العلم، لأن مسائله كلها تكاد تكون ظنية ، وقوة الملازمة بين أدويته وبين صحة المريض لاتبلغ عشر معشار قوة الملازمة بين المعانى التى تواجهه عند تشريح بدن الإنسان وبين وجود الله ، فما حضر عنده من العلم بوسائل مداواة المرضى أضعف بكثير مما حضر عنده من دلائل وجود الله مع كونها أيضاً دلائل تجريبية ، كما سنبينه على طول الفصل الرابع من فصول الباب الأول باسم دليل العلة الغائية ودليل نظام العالم ، فلماذا لا تكون للتجربة من أهميتها عند الطبيب فى ناحية ما يكون لها من أهميتها عنده فى ناحية أخرى ؟ ولماذا تهم المشرِّحَ ناحية الطب، فى حين أنه يغمض عن الناحية التى هى أثرى وأجلى ، يغمض عنها كأن لم يمر بها ؟.. وجوابه ظاهر .

ويحسن بنا فى هذا المقام الباحث عن سر اهتمام الناس بالعلوم المادية ويقظتهم بشأنها أن ندل القارئ على حكاية الراهب الحكيم «غاليانى» الآتى ذكرها فى أوائل الفصل المشار إليه آنفا ، ولم نكتبها هنا خوف الإطالة .

٨

وممن لم يقدر علماء الإسلام المتكلمين حق قدرهم فغمطهم ولكن أكثر اعتدالا من غمط الأستاذ الغمراوى ولا سيما من غمط الأستاذ فريد وجدى بك ، الأستاذ أحمد أمين بك القائل فى مقالة من مقالاته فى مجلة « الثقافة » عدد (٦٩٦) عنوانها « فى الحالة الروحية » ، وإن شئت فعد قول الأستاذ إبهام الغمط وليس غمطا بمعنى الكلمة، لكن نوع العقلية المملولة واحد ولهذا يجب التعليق عليه أيضاً. وهذا قوله:

« لقد سلك رجال الدين فى تأييده وتقويته مسلكين : قوم حددوا عقولهم وقوم

حددوا مشاعرهم ؛ فأما الأولون فعلماء التوحيد أو علماء الكلام ، وأما الآخرون فصادقوا الصوفية ـ فى جميع الأديان ـ فالأولون جعلوا الدين منطقاً وفلسفة وخلفوا لنا تراثاً ضخماً من المؤلفات تبرهن برهانا عقليا منطقيا على وجود الله وصفاته وما إلى ذلك . »

إلى هنا كلام فى غاية الصحة والاستقامة . ثم قال الأستاذ : « ولكنى أعتقد أنهم لم ينجحوا فى ذلك نجاح العلماء فى البراهين العقلية على قضايا العلم . إن قانون الكيمياء أو الطبيعة أو الرياضة إذا قال به أحد العلماء وبرهن عليه آمن به كل الناس بلا فارق بين أمة وأمة وأهل دين وأهل دين وشرقى وغربى . أما علم التوحيد أو علم الكلام فبرهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد ، برهان لصاحب الدين لا لمخالفه . ولهذا لم نر فى التاريخ أن علم الكلام كان سبباً فى إيمان من لم يؤمن أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً . إنما كان سبباً فى إيمان الكثير أو إسلام الجم الغفير الدعوة من طريق القلب لا من طريق علم المنطق . »

أقول إن هـذا الأستاذ اتبع فى قوله « انهم لم ينجحوا نجاح العلماء فى البراهين العقلية على قضايا العلم » تيار العرف الغربى فى إطلاق اسم العلم على العلوم الحديثة خاصة المبنية على التجربة الحسية[1] . ولم يصب فى اعتبار الكيمياء والطبيعة مع الرياضة فى صف واحد واعتبار براهينهما براهين عقلية ، كما لم يصب فى تمييز الراجح من المرجوح بين طرفى النجاح . فإذا كان علماء التوحيد المسلمون المتكلمون جعلوا الدين منطقاً فكيف يصح أن يقال إنهم لم ينجحوا فى قضيتهم نجاح علماء الطبيعة والكيمياء أو المتمسكين بعواطف القلب كالمتصوفين فى جميع الأديان ؟ فكأن علماء

---

[١] إنا لانقبل هذا العرف الذى يحتكر اسم العلم للعلوم الحديثة المبنية على التجربة وسيجىء بحثه فى هذا الكتاب.

التوحيد نجحوا فى جعل الدين منطقاً ولم ينجحوا فى إنجاح المنطق ، وهو غير معقول جدا . بل المنطق والعقل الذى يمشى معه لابد أن يكونا ناجحين ، ولا شىء فى الدنيا أنجح منهما . فإن لم ينجحا كان ذلك عنـد العامة العاجزين عن تقدير العقل والمنطق قدرهما ، ومثلهم المتعلمون العصريون الذين فسدت عقولهم بتقليد الغرب المعرض عن العقل والمنطق ، احتفاظا بدينه الذى لا يأتلف معهما ، وغاية فى الخسارة والضلالة انصراف هؤلاء المقلدين عن طريقة علمائهم المتمسكين بالعقل والمنطق ، من غير حاجة منهم فى دينهم إلى أن يبحثوا عن غير هذه الطريقة ، وإنما تقليداً للمحتاجين .

فليعلم هؤلاء المتعلمون وليعلم الأستاذ أحمد أمين بك أن أفضـل طرق النجاح وأقواها طريقة العقل والمنطق ، وثانيتها التجربة طريقة علماء الطبيعة والـكيمياء ، وثالثتها التمسك بالعواطف . ولـكون الطريقة الأولى أفضـل وأقوى لا يعدل العاقل عنها إلى إحدى اثنتين بعدها ما أمكن التمسك بها ، وخصيصاً لا يعدل العاقل عن طريق العقل والمنطق استخفافاً بهما ورغبة فى غير طريقهما .

أما الاستدلال فى رجحان قوانين الطبيعة والـكيمياء على أدلة علم التوحيد المنطقية بعدم الاختلاف بين الناس فى الإيمان بأى واحد من تلك القوانين إذا برهن عليه أحد العلماء ، بخلاف علم التوحيد ، فغلط ناشئ من قلة استعمال المنطق فى التفكير بعد أن ضل مقوموه الطريق فى العهد الأخير . وقد وقع الأستاذ فريد وجدى بك فى مثل تلك الغلطة لما كتب مقالة فى مجلة « الرسالة » بعنوان « الدين فى معترك الشكوك » ــ وقد نقلناها فى الـكلمة المتقدمة على الـكتاب ــ فبعد أن نص الأستاذ فى مقالته على أنه لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان ، صدّق بقول الأستاذ (بيرس) مدرس عـلم النفس بجامعة كمبرديج :

« كنت معتنقاً بالدين لو أمكنت معرفة شىء عن العالم الروحانى على الطريقة التى نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المحسوس . وهـذه المباحث لا يجوز أن تبنى

على التأكيدات التى صدرت عن هـذا الوحى أو ذاك ، بل يجب أن تؤسس كـكل بحث علمى بمعناه الصحيح على تجارب يمكننا تـكرارها اليوم... » فقال الأستاذ فريد وجدى بك « هذا شرط العـلم فى قبول الأصول الاعتقادية وهو شرط لا يجوز الاستخفاف به ولا إغفاله . »

فهؤلاء الأساتذة الثلاثة ــ مع الأستاذ أحمد أمين بك ــ يحاولون فى الشرط الذى وضعوه للإيمان بأصول الدين أن يكون الإيمان بالأديان من الأمور المادية التى لا يختلف فيهـا الناس لاستنادها إلى تجارب حسية كمعرفة كون النار محرقة ومماسة التيار الـكهربائى قاتلة ، فلا يكون هناك امتياز المؤمن على الـكافر ، فإما أن يتحقق شرطهم فلا يبقى على الأرض كافر ينكر الدين ، كما لا يوجد أحد ينكر حرارة النار وإما أن لا يتحقق الشرط فلا يبقى على الأرض من يؤمن بالدين ، بل لا يبقى فى الدنيا إخصائى فى أى مسألة يعرف ما لا يعرفه غيره أو لا تكون معرفته فوق جهل الجاهل فى الصحة والجدارة بالقبول .

وقد ذكّرنى قول الأستاذ أحمد أمين بك : « إن عـلم التوحيد أو علم الـكلام برهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد .. » قول صديق لى فى الآستانة من فضلاء المحامين كتب إلىّ وقوعه فى تفكرات عميقة بعـد أن قرأ تأليف العالم الـكبير فضيلة صديقى الشيخ زاهد رداً على رسالة منشورة لإمام الحرمين فيها حملات شنيعة على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة لا مبرر لها سوى التعصب لمذهب الإمام الشافعى . ويفهم من كتاب الرد أن للإمام الرازى أيضاً مثل تلك الحملات المنكرة . ثم أراد الصديق المحامى أن يطلع على رأيى فيها وهذا ما كتبه :

« إن كان يمكن إفحام أحد بالبرهان والمنطق فلا يمكن طمأنة قلبه بسهولة بل ولا بصعوبة أيضاً ، فلا يستطيع أحد تحويل أحد عن مذهبه مالم تدخل العواطف التى تحمل

كل شيء عاليه سافله ، فى البين ؛ فقد يلعب العشق والحرص والخوف والأمنية الدنيوية دوراً كثيراً حين لا تنفع البراهين مهما كانت منطقية ؛ حتى إن هذه البراهين لا ترى إلا كترنمات مزينة لتلك العواطف أو ساترة لها ، ففى مقابل اتفاق الآراء على قبول مقررات العلوم المادية لا ينصرف أحد فى الساحة الروحية والوجدانية عن حركته الابتدائية ، فالذى وُلد حنفيا مقضى عليه أن يموت حنفيا والذى وُلد شافعيا أن يموت شافعيا والسلام ، كأن العلم[1] لا يجدى أي فائدة فى هذه الأودية ، وكأن هذه العلوم فيما رأيتُ تبقى عبارة عن الدفاع عن مذهب أو مسلك ، حتى إن الأمر يكون دفاعاً للمرء عن طريقة له بين أصحاب المذهب الواحد بعينه ، ولعله مع هذا لا مندوحة عنه . »

فكتبت جوابى إليه وقلت تقريبا : «لابد أن يكون الحق واحداً فى كل ساحة مادية أو غير مادية . فعند وقوع الخلاف فى أى مسألة ، يكون أحد المتخالفين على حق والآخر على باطل ؛ ولا يمنع من هذا الحكم القطعى كون المجتهد المخطئ فى الأحكام الشرعية العملية ينال نصف أجر المصيب تفضلا من الشارع فى مكافأة من اجتهد وكان أهلا له ومخلصاً فى اجتهاده ، كما لا يمنع إصرار المخطئ على مخالفة المصيب قطعيةَ كون الحق فى جانبه ولا يعد هذا الإصرار فشلا لدليل المصيب ، لأن نجاح الدليل فى إثبات الحق يعتبر بالنسبة إلى نفس الأمر وإلى اقتناع المتمسك به غيرَ مقصر فى عرضه على طلاب الحق ، لا إلى اقتناع المخالف المصر على خطأه .

«ثم قلت ، لكم العذر فيما خضتم من التفكرات العميقة ، وخصيصاً ما أصدق قولكم بأن الأدلة لا ترى إلا كترنمات مزينة أو ساترة لما تحتها من العواطف . ومع كون علماء أصول الفقه صرحوا بعدم جواز الاجتهاد مع التشهى ، فإنى لا أظن أن الإنسان يدرك أولا أدلة الدعاوى التى يستدل عليها ثم ينساق إلى ما يتناسب مع تلك الأدلة من

---

[١] لم يرد به العلم الحديث .

الدعاوى ، إلا أن يكون إدراك الدليل قبل الدعوى فى غاية الإجمال . نعم يمكن أن يستثنى من هذا الحكم مسائل الفقه المستندة إلى النقل أكثر من العقل أو حالة الإنسان فى أوقات كونه صادف نظره دليلا لمسألة ثم المسألة نفسها بينما هو خالى الذهن عن كليهما .

«ومع هذا وبعد عد الأفكار المستندة إلى عوارض كالعشق والحرص والخوف والأمنية أو إلى التقليد المحض خارجةً عن البحث بالمرة ، فالذى يتقرر فى ذهنى أولا أو يجذب قناعتى يكون هو الدعاوىَ ، فأنا أميل منها إلى ماأميل من القبول أو الرفض. وهذا هو ساعة تجلى هداية الله على من يطمئن قلبه إلى شىء أو حرمانِه عن هدايته ، فإن كان الرجل مهديا إلى الحق فى دعواه فالهداية الإلهية تجد أدلتها وتأتى بها إلى قلبه، وإن كان من المحرومين تلقن أدلتها أيضا أو بالأصح شبهاتها إلى المدعى .

« أما كون كل الناس فى موقف متفَق عليه تجاه العلوم المادية حين ساد الخلاف فى الساحة الروحية والوجدانيــة وعدم كفاية دليل أحد فى تحويل أحد عن مذهبه وكون المولود الحنفى لهذا مكتوبا عليه أن يموت حنفيا والشافعى شافعيا ، فالمفهوم منه فى النظرة الأولى عدم كون الأدلة العقلية مفيدة ومقنعة بقدر الأدلة المادية التجريبية . وإنى أذكر بهذه المناسبة أن فى مصر فكرة لا شبهة فى مجيئها من الغرب مستولية على حملة الأقلام العصرية من صغارهم المتطفلين إلى كبارهم البارزين[1] مثل الأستاذ فريد وجدى بك الذى تولى إدارة « مجلة الأزهر » ورئاسة تحريرها منذ سنوات وأصبح لسان أكبر محيط دينى ، فعند معتنق هذه الفكرة لايوثق بالأدلة العقلية المنطقية ، حتى إنها لا تسمى أدلة علمية بحجة أن العلم يستند إلى دليل حسى وحتى إن الكلمة القائلة كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به ، دستورهم الذى يتشدقون به ،

---

[١] مع أنهم الآخرون أنفسهم متطفلون على الغرب .

فسميت أنا فى كتابى الذى ذكرت اسمه فى أحد خطاباتى إليكم (هـذا الـكتاب) وأرجأت نشره بسبب أزمة الورق ، لتصحيح هذه الفكرة .

«إن الفيلسوف « كانت » منتقد جميع الأدلة العقلية المقامة لإثبات وجود الله الذى لايدخل فى متناول التجربة الحسية ثم المقيمَ من عنـده دليلا عمليا أو أخلاقيا لإثبات هـذا المطلب .. استفاد اللاحدة كثيراً منه حتى اتخذ أصحاب الفلسفة الوضعية المعتنى بها بين كبار الـكتاب المصريين مثل هيكل باشا ومحمد فريد وجدى بك ، على الرغم من أنها أحدث فلسفة إلحادية وأخبثها . وقد سبق الـكلام عليها باسم الفلسفة المثبتة ... اتخذوا الناحيةَ السلبيةَ لفلسفة كانت، سنداً لهم فى عدم الاعتراف بوجود الله، غير عابئين بالدليل الذى اختاره لإثباته . وفى الواقع لايتسنى إثبات وجود الله الذى هو إثبات موجود واجب الوجود ، إن لم يبق الاعتماد على الأدلة العقلية . ولا محل لأن يقال : « فماذا يكون إن لم يبق ؟ » تفسيراً لموقف أمثالنا نحن المعتمدين على تلك الأدلة ، بموقف المنساقين إلى المحاباة العاطفية المماثلة لتعصب إمام الحرمين والإمام الرازى المذهبى، موقف الذين يحبون أن يموتوا مؤمنين بالله لـكونهم ولدوا مؤمنين .. لا محل لهذا التفسير وذاك التشبيه ، بل الإخلاد ـ فى زمان يركن الـكثير من أبنائه إلى الإلحاد متهمين آباءهم بالغفلة والجمود ـ إلى الصبر والثبات فى موقف الأسير لعاطفة كسدت سوقها وفى موقف المقلد للغافلين ، أصعبُ على ذوى النفوس العزيزة من أن يعابوا بترك عقائد الآباء والأمهات . فلو كنا مؤمنين ومعتمدين على أدلة وجود الله العقلية بدافع المحاباة العاطفية فعاطفة الإلحاد أقوى فى زماننا وأشهى من عاطفة الإيمان بالله .

«فلماذا لم تـكن مسألة الإيقان بوجود الله أو عدم وجوده أو الشك بين الاحتمالين لاسيما عنـد الذين يرون أنفسهم فوق العامة ، غير مسألة اختلاف العقول الفطرى ، فعقلى أنا يستيقن وجود الله ولا يلبث أن يرتب الأدلة لذلك بل يكفى الإنسان فى هذا الباب كما قال « ديكارت » إدراكُ وجوده نفسه ، أما رؤية العالم بأرضه وسمائه فزيادة

على الكفاية بكثير وبأكثر من الكثير . فهذه الحالة البديهية عبارة عن شدة نفوذ مسألة بطلان الترجيح بلا مرجح التي هي المركز الأول لثقلة دليل إثبات الواجب وقوة وطأته في بعض العقول . ولا أغالي في التعبير عنها بالحالة البديهية لأن ماننساق إليه من إنكار الترجيح بلا مرجح هو بعينه الاعتراف بمبدأ العلية الذي هو أحد الأمور التي يسميها علماء الغرب المبادئ الأولى ويرونها فوق كل مناقشة ؛ مع أن كثيراً من العقول الجديدة لا يتحرجون من القول بأن العالم موجود من تلقاء نفسه ، غير متأثرين من تلك البداهة الملتطمة بعقولنا .

«وإني لاأظن أن حضرتكم تتحازون عند القول بأن البراهين العقلية لا تصرف أحداً عن مذهبه ، إلى الأفكار الحديثة التي ذكرتها ، لا أظنكم تنحازون إليها حتى عند ما تشتكون بدافع التأسف المحق من عجز تلك الأدلة عن تقريب علماء أجلة كإمام الحرمين والفخر الرازي إلى رؤية الحق بدعوى الشافعية والحنفية الجاهلية .. إذ لاشك في احتفاظ الأدلة العقلية المنطقية المستجمعة لشرائط الصحة دائماً بقوتها وقطعيتها بدرجة تفوق قوة الأدلة المادية التجريبية المبنية على القوانين الطبيعية التي قال عنها الفيلسوف «ليبنتز» : « إن القوانين الطبيعية ليست قوانين عندية كما ادعى « بايل » ولا ضرورية ضرورة هندسية » لأن الأدلة العقلية تفيد الضرورة مثل الأدلة الرياضية ، وإمكان اجتماع الآراء على ماثبت في العلوم المادية بواسطة التجربة والاستقراء بل وقوع ذلك الاجتماع دائماً ، في حين أن تفريق الحق من الباطل بواسطة الأدلة والبراهين العقلية ليس أمراً سهلا ، لا ينقص قيمة الأدلة العقلية بل يزيد قيمة على قيمتها كما قال شاعر فارسي :

قدر زرزر كر شنا سد ، قدر كوهر كوهرى

ومعناه لا يقدر الذهب والماس قدرهما إلا القسطار والجوهري . ولا يحط من قدرهما أن لا يستطيع كل أحد تمييز صحيحهما من زيفهما .

ولا يقال أليس إمام الحرمين أو الفخر الرازى قسطارا جوهريا ؟ لأنى أقول يفهم من كتابيهما ثم من كتاب الرد عليهما لفضيلة صديق الشيخ زاهد أنهما لم يكونا قسطارين ولا جوهريين فيما أخطآ من المسائل العلمية ، لأن القسطرة فى العلوم تفوق ما عنـد نقاد الأحجار الثمينة من الخبرة وتتوقف على اختصاص وامتياز أسمى وهو الاختصاص بتوفيق الله ، فلـكون تأثير الأدلة العقلية فى العقول منوطا بإرادة الله يظل تمييز صحيحها من سقيمها ، تابعاً لتوفيقه وهدايته ، ولا يدور هذا الحظ الممتاز المختلف باختلاف المسائل حتى مع كثرة العلم والعقل أو زيادة السممة — بعد أن كان كل واحدة من هـذه الميزات أيضاً تابعة لتوفيق الله — بل يكون التوفيق فى كل مسألة بعينها حظا ثانيا مفترقاً عن الحظ الأول المتعلق بكثرة العلم أو العقل أو زيادة السممة . فالذى يكفل بسلامة العقل السليم من الخطأ هو الإرادة الإلهية ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وبالنظر إلى أن كل شيء فى العالم يجرى تحت إرادة الله فاتفاق العقول على قبول مقررات العلوم المادية وإن لزم أن يكون مستنداً أيضاً إلى إرادة الله ، إلا أن إرادة الله التى ساوت التميز بين الناس فى ساحة الماديات ساقت الأفـكار فى المعقولات إلى الاختلاف، تشريفاً للذين أصابوا سواء السبيل فى تلك الساحات وإعزازاً للأدلة التى تمسك بها أولئك الأشراف وصينوا عن خطر الإخطاء . فوجود احتمال الخطأ فى الأدلة العقلية لا يخفض قيمة تلك الأدلة بل يرفع درجة المستدل المصيب للحق ويرفع قيمة دليله الذى امتاز بالصحة واستند إليه الحق . وليس هـذا الفضل والرجحان بالنسبة إلى دليل المبطل الذى حقه أن يسمى شبهة لا دليلا ، بل الفضـل الذى نريد تفهيمه فضلُ صحيح الدليل العقلى الذى كلامنا فيـه على صحيح الدليل من غير العقلى . وفضله من ناحيتين ، الأولى كون تمييز الصحيح من غير الصحيح صعباً فى العقلى

يكسب به المصيب شرفاً ورفعة درجة ، والثانية ارتقاء مدلول الصحيح من الدليل العقلي إلى مبلغ الضرورة .

«وخلاصة الفرق بين الدليلين العقلي وغير العقلي بشرط أن يكون كل منهما صحيحاً، ان الثاني أوضح في الدلالة، ولذا يشترك في فهمه الجميع. والأول أقوى وأفضل..وقد عبرت عنه في محل آخر من الكتاب بأنه دليل الخاصة وعن الثاني بأنه دليل العامة . وأنت تعلم مما ذكر آنفا أن المراد من الخاصة هنا المختصون بتوفيق الله في الاهتداء إلى صحيح الدليل العقلي .

« ومثال ما ذكرنا من فضل الدليل العقلي على غيره مع احتمال الخطأ في الدليل العقلي[1] أن الإنسان يعد أفضل من الملائكة مع كون الإنسان منقسما إلى الخيار والشرار وكون الشرار أضل من الأنعام ، لكن وجود هذا القسم بين الناس لا يحط من مرتبة الخيار بل يعلي قدرهم ، لكونهم لم يقعوا في الشر الذي وقع فيه طائفة من بني نوعهم ، مع احتمال وقوعهم فيه وعدم احتمال وقوع الملائكة ... وهكذا الأدلة بنوعيها العقلي وغير العقلي ، حيث لا ينقص احتمال الخطأ في الأدلة العقلية مرتبة الصائب منها الذي كلامنا فيه ، بل يعلي قدره . فافهم هذا الموقف فإنه دقيق .

«وقولكم من ولد حنفيا يموت على مذهبه ومن ولد شافعيا على مذهبه من غير تأثير الدليل القائم على خلاف المذهب في قلب كل منهما ، معناه أن الإنسان متمسك بالتقليد أكثر من غيره أو يكون تأثير التربية فيه أكثر من غيرها .

«لكن المقلد العامي الذي يصر على ما ورث من آبائه ولا يستمع إلى القول بخلافه ــ ومثله المتعلم المعاند من الخاصة ــ قد تركناه خارج البحث وكان كلامنا في تعيين

---

[١] ومعنى احتمال الخطأ في الدليل العقلي انقسام الناس فيه إلى من يصيب الحق في استدلاله ومن لا يصيبه ، وليس معناه احتمال الخطأ في دليل المصيب كما يتوهم الشاكون في قيمة الدليل العقلي .

أفضل واسطة لهداية الإنسان إلى طريق الحق . فيلزم أن يكون هـذا الإنسان طالباً للحق باحثاً عن أسباب الوصول إليه ، وليس هو المقلد المتمسك بما وجد عليـه آباءه المذموم فى كتاب الله أو المتعصب لما أخذ من أساتذته ، ولا التقليد أو التعصب طريق من طرق الهداية والإصلاح .

«نعم التربية طريق من طرق الإصلاح والهداية إلى الحق ، لـكن يلزم أولا أن يكون الحق الذى تهدف إليه التربيـة والتنشئة حقا فى نفس الأمر لا فى زعم المربين ، لأن التربية كما تـكون موجهة إلى تأييد الحق تـكون موجهة أيضاً إلى تأييد الضلال فيجب قبل كل شيء معرفة الحق وتمييزه من الباطل ، ولا يكون ذلك إلا بدليل العقل .

«ثم إن التربية التى ترجع إلى تنظيم العاطفة ـ وسيجيء بحثها ومقارنتها بدليل العقل والمنطق ـ تأتلف مع العلم والجهل على السواء كما تأتلف مع الهدى والضلال .. فإذا فرضناها تهدف إلى تأييد الدين الحق وتثبيته فى قلوب النشء وسلم دين الأمة بفضل سلامة دين الناشئين ودامت سلامته أعصاراً طويلة كما دامت للترك فى عهد الدولة العثمانية وقبله ... فقد يجيء رجل لا دينى مثل مصطفى كمال ويجد أعواناً له من المتعلمين المشايعين للغرب اللاديني ، فيفتح أبواب الدعاية لهم على مصراعيها ويكم أفواه المدافعين عن الدين . فلما اختلت الموازنة بين الفئتين من خاصة الترك وتغلبت الفئة الفاسدة على الفئة السليمة ، كفى ذلك فى القضاء على دين الأمة فى أقل من ربع قرن .. وسيتجلى صدق ظننا هـذا السيء بدين الأمة المسكينة بعد انقضاء بقية الجيل القديم المسلم التى لا تزال تملأ المساجد وينخدع بها الغافلون ، فلو كان دين الأمة قائماً على دليل العقل والمنطق ـ كما يخدمه علم الـكلام ـ بدلا من قيامه على التربية لـما تسنى للفئة الفاسدة التغلب فى البـلاد ، بل لو كان الغرب الذى هو منبع الفساد يتفق دينه مع العقل وينفذ فى قلوب عقلاء البلاد الذين يكون رجال الحـكومة منهم كما ينفذ فى قلوب

العامة لما كان الدين هناك منحصراً في المظاهر ولما ضربت فوضى الأخلاق والآداب أطنابها في المجتمعات ، وبفضل ذلك كان يبقى الشرق في مأمن من عدوى المدنية الزائفة والعقليات الزائغة إليه .

«فخير ضمان للدين والأخلاق المبنية عليه في أي أمة أن ترتكز عقيدته في قلوب المثقفين بأدلته العقلية ثم يستند إليه أساس دين العامة العاجزين عن الاستدلال والدائرين مع التقليد والتربية .. »

وإذا عدت مما كتبته إلى الصديق المحامي في الآستانة — وربما زدت عليه هنا عند النقل أو نقصت شيئاً عنه — إلى قول الأستاذ أحمد أمين بك فقد تضمن الخطاب كثيراً من الرد على ما ذكره من عدم نجاح علماء التوحيد في براهينهم العقلية المنطقية ونجاح علماء الكيمياء والطبيعة في براهينهم ، وقد عرفت أن نجاح البرهان يقدَّر بإيصال من تمسك به إلى الحق في نفس الأمر ، فلا ينافي نجاحَ برهان المحق في رأيه وإبراهه عدمُ خضوع الطرف المخالف له ، لأن هذا يكون عدم النجاح في نظر المبطل أو نظر من لا يميز بين المحق والمبطل فيجب أن لا يعتد به ، ولا بد أن يكون في كل محل الخلاف من محق ومبطل في نفس الأمر . ولا تقل من يدري مَن المحق ومن المبطل في الاستدلال العقلي الذي يصعب فيه التمييز بين الحق والباطل؟ لأن الفضل كل الفضل يكون حينئذ لمن يدريه ويميزه ، وهو المطلوب .

وآخر ما أقول لأحمد أمين بك الذي استضعف براهين علماء التوحيد لكونها براهين عقلية منطقية وفضّل عليها براهين علماء الطبيعة والكيمياء معتبراً لها في درجة واحدة مع براهين الرياضة : إن براهين الرياضة تفيد الضرورة لكونها براهين عقلية ولا تعادلها في ذلك براهين الكيمياء والطبيعة المبنية على التجربة والتي تفيد الصدق فقط ولا تفيد ضرورة الصدق ، وإنما تعادلها في إفادة الضرورة براهين علم التوحيد العقلية المنطقية .

والدليل عليه ما قاله الفيلسوف «كانت» وقد نقله الأستاذ فى تصنيفه الذى اشترك فيه مع الأستاذ زكى نجيب محمود وسماه : «قصة الفلسفة الحديثة» (ص ٢٧٣) ونقلناه نحن أيضاً فى محل آخر من هذا الكتاب :

«التجربة تدلنا على ماهو واقع ولكنها لاتدلنا على أن هذا الواقع لابد بالضرورة أن يكون هكذا ولا يكون على صورة أخرى ، وهى لذلك لا تمدنا بالحقائق العامة[1] مع أن هذا الضرب من المعرفة هو ما تنزع إليه عقولنا بصفة خاصة ، فالتجربة توقظ العقل أكثر مما تقنعه .. ومادام العقل فى مكنته أن يصل إلى الحقائق العامة مع أنها ليست من التجربة فهو إذن مصدر العلم إلى جانب التجربة . ولعل أنصع مثال يدل على وصول العقل إلى المعرفة من غير طريق التجربة هو مثال الرياضة لأنها يقينية، ويستحيل على التجربة أن تنقضها يوماً ما ، فلقد يجوز لك أن تتصور الشمس (على خلاف التجارب المشهودة منذ تاريخ الدنيا) مشرقة من الغرب فى الغد وأن النار قد تتبدل عليها الظروف فلا تعود قادرة على إحراق عصاك الخشبية ، ولكنك لاتستطيع بحال من الأحوال أن تتصور العالم سيحدث فيه ما يجعل اثنين فى اثنين لا تساوى أربعة ، فهذه الحقيقة الرياضية ثابتة إلى الأبد ومن الأزل ، ولا تحتاج لكسبها إلى تجربة ، لأنها حقيقة مطلقة ضرورية لازمة الحدوث، والتجربة لا تمدنا إلا بإحساسات متفرقة وأحداث مفككة لا يطرد تتابعها ، فقد تجئ فى الغد على غير النظام الذى جاءت به اليوم أو أمس . »

فنعم ما قاله «كانت» فى هذه الأسطر المنقولة بصدد المقارنة بين التجربة والعقل ونبه إلى أن السبب فى قوة الرياضة اليقينية الأبدية استنادها إلى العقل . . ونعم ما قاله

[١] يريد بها المبادئ الأولى التى يجئ بحثها فى هذا الكتاب ويذكر هناك أنها فطرية فى الإنسان على المذهب المختار غير مستفادة من التجارب .

الأستاذ العقاد فى كتابه الجديد : « الله » ص ٤٩ ـ ٥١ ، وقد نقلته هنا على طوله تسجيلا لشدة إعجابى به :

« وقد أحس الإنسان قبل أن يفكر فلا جرم ينقضى عليه ردح من الدهر فى بداية شأنه وهو يفكر حسيا أو يفكر لمسيا فلا يعرف معنى الوجود إلا مرادفاً لمعنى المحسوس أو الملموس . فكل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لاشك فيه ، وكل ماخفى على النظر أو دق عن السمع واللمس فهو والمعدوم سواء[1] .

« وقد كان للحاسة الدينية فضل الإنقاذ من هذه الجهالة الحيوانية . لأنها جعلت عالم الخفاء مستقر وجود ، ولم تتركه مستقر فناء فى الأخلاد والأوهام . فتعلَّم الإنسان أن يؤمن بوجود شيء لا يراه ولا يلمسه بيديه . وكان هـذا « فتحاً علمياً » على نحو من الإيجاد ولم ينحصر أمره فى عالم التدين والاعتقاد ، لأنه وسَّع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عنه فى عالم غير عالم المحسوسات والملموسات . ولو ظل الإنسان ينكر كل شيء لا يحسه لمـا خسر بذلك الديانات وحدها ، بل خسر معها العلوم والمعارف وقيم الآداب والأخلاق .

« ويجيء الماديون فى الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول وتقويم لمبادىء التفكير . والواقع أنهم فى إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى إلى أعرق عصور فى القدم ، ليقولوا للناس مرة أخرى إن الموجود هو المحسوس وإن المعدوم فى الأنظار والأسماع معدوم كذلك فى ظاهر الوجود وخافيه ، وكل ما بينهم وبين همج البداءة من الفرق فى هذا الخطأ ـ أن حصهم الحديث يلبس النظارة ويضع السماع على أذنيه .

« ويحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين حين يلتزمون حدود النفى

[١] زعم الإنسان البدائى هذا يشبه كل الشبه ماسبق للأستاذ فريد وجدى بك من وضعه « الغيب » فى مقابل « الواقع » وجعله الإيمان به إيمانا بخلاف الواقع .

ويصرون عليه في مسألة المسائل الكبرى وهي مسألة الوجود ، بل مسألة الآباد التي لاينقطع الكشف عن حقائقها فيمئات السنين ولا ألوف السنين ولا ملايين السنين.. ونحن لا نستطيع أن نقول « لا » إلى آخر الزمان في مسألة من مسائل الحجارة أو المعادن أو الأعشاب أو مسائل البيطرة وعلاج الأجسام .

« وليس النوع البشرى على أبواب محكمة يخاصم فيها من يثبتون أو ينكرون ويتحداهم وهو جالس في مكانه أن يثبتوا له ما ينفيه ولا يهتدى إليه بالعين والجهار . ولكنه على الأقل أمام « معمل للتجارب » يبدأ فيه البحث ويعيده ثم يبدأه ويعيده في كل عصر على ضوء جديد ، وهو أمام الكون خاصة لم يكد يبدأ البحث في مسألة الآباد إلا منذ مئات معدودة من السنين . فياله من علم بديع هذا العلم الذي يقطع بالنفي إلى آخر الزمان ... دون أن يتردد أو ينتظر مفاجآت الزمان .

« والواقع أن العلم كله يقوم على أساس الإيجاب والترقب ولا يقوم على أساس النفي والإصرار وما من حقيقة علمية إلا وهي تطوى في سجلها تاريخاً من تواريخ الاحتمال والرجاء والأمل في الثبوت ، وإن تكررت دواعي الشك بل دواعي القنوط. فبحثَ الإنسان عن العقاقير وبحث عن المعادن وبحث عن الثمرات والفلات بروحٍ ترقّبُ إيجابا وثبوتا ولا تنتقل من نفى إلى نفى ومن إصرار إلى إصرار ، وهذه هي روح العلم أمام الصغائر من شؤن البيوت والأسواق . فلماذا تكون روح العلم إصراراً محضاً وإنكاراً متلاحقاً على غير إحساس وبغير ترقب أو انتظار في كبرى المسائل على الإطلاق ؟

« وأجدر الأزمنة أن يتبدل فيه هذا الموقف هو الزمن الذي تكشف فيه الأجسام عن عنصرها الأول ، فإذا هو إشعاع أو حركة في فضاء فاقترب الوجود المادي نفسُه من عالم المعقولات والمقدورات ، وتقرر لنا أن الحواس لا تستوعب معنى الوجود في

الصميم ، لأن زوال العدم هو الصفة الوحيدة اللازمة للوجود ، ولا يستلزم زوال العدم تجسما ولا تجرما ولا كثافة من هذه الكثافات التى تتمثل بها الأجسام للحواس بل يكفى حركة مقدورة أو معنى كأنه من طبيعة المعقولات . فما أضيق النطاق الذى بقى للحس مظاهر من أسرار الوجود . وما أحرانا أن نفسح للوعى الكونى وللبداهة مما لايتسع مع الزمان ، ولا نحبسه فى نطاق يضيق ثم يضيق حتى يسقط من الحسبان .

« والإنسان قد رأى نور الشمس والكواكب بعينيه منذ مئات آلاف من السنين ولم يقبس نور الكهرباء من ينبوع الضياء الكونى إلا فى القرن الأخير . فتدرج من قدح الحجر إلى حك الحطب إلى فتيلة الدهن إلى غاز الاستصباح إلى نور الكهرباء فى هذا الأمد الطويل من الدهور وراء الدهور .

« فوعيه الباطن لم يقصر عن وعى عينيه فى هذا الشوط البعيد ، لأنه تنقل من عبادة الحصى والحشرات إلى عبادة الإله الواحد فى بضعة آلاف من الدورات الشمسية وجاز لنا أن نقول إن ضميره كان أسرع من عينيه إلى اقتباس الضياء وكان أقدر من فكره على مغالبة الظلام . وأى ظلام؟ إنه لم يكن إظلاماً كظلام الليالى والكهوف يُسلم مقاده لكل قادح زند أو نافخ عود ، ولكنه كان ظلاماً تجوس فيه مردة الجهل وشياطين العادات وأبالسة المطامع والشهوات . فإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على حاجة الضمير إلى ذلك النور الذى اهتدى به واهتدى إليه . »

كلمة الأستاذ العقاد هذه القيمة جدا لا تحتاج إلى أى تعليق منا سوى أن نقول إنه حارب فيها أصحاب العلم الحديث المادى القاصرين كل تعويلهم على المحسوسات والنافين لما وراءها النفى البات دون أن يترددوا كما قال الأستاذ أو ينتظروا مفاجآت الزمان ودون أن يفسحوا للوعى الكونى والبداهة إلا نطاقاً يضيق ثم يضيق حتى يسقط من الحسبان ... حاربهم فهزمهم هزيمة منكرة ولكن خاصة بالمنكرين دون

الشاكين والمشككين ، والدين لاسيما الإسلام كما يناوئ إنكار وجود الله يناوئ الشك فى وجوده ولا يكفيه الاعتراف باحتمال وجوده ولا الوعى الذى ينطوى على هذا الاحتمال بل يتوقف على قناعة جازمة تحقق التعبير عن الله بواجب الوجود .

فإيمان العامة من المسلمين يقوم على هذا الوعى إجمالا ، وتفصيل هذا الإجمال الذى يجمله قانونا علميا يفيد الوجوب والضرورة ويفوق بهذا ما يستفاد من العلم الحديث فمحله فى علم الكلام وصدور علمائه .

ثم إنا وجدنا الأستاذ أحمد أمين بك بسيطا جدا فى قوله من المقالة المذكورة المنشورة فى « الثقافة » : « وكان نابليون — فى حملته على مصر — فى سفينة حوله ملحدون ، وفى ليلة بديعة لمعت النجوم فى السماء وتلألأت فى رونقها وبهائها وجمالها ؛ فقال نابليون : انظروا أيها الرفاق ما أبدع النجوم وأجملها ! فمن أبدعها ؟ قال ملحد نحن لا نسأل هذا السؤال ، وما يدور فى ذهنك من هذه الأسئلة لا يدور فى أذهاننا ، إنما نسأل نحن كيف تطور هذا العالم ، وكيف وصل إلى ما نرى ، إن برهانك أيها الأمبراطور — دليل جميل لك . »

لأن تطور العالم بنفسه وارتقاءه حتى وصل إلى ما وصل إليه بنفسه من غير وجود واضع لهذا النظام ، محالٌ مخالف لمبدأ العلّية على تعبير علماء الغرب ومستلزم للرجحان من غير مرجح على تعبير علمائنا المتكلمين ، فلا يلتفت إليه ولا يستحق الذكر مقابلا لقول نابليون . لكن الأستاذ نقله من غير تعليق عليه ، وهو يرمى إلى قوله السابق فى المقالة — وكأنه مؤيد له — : « أما علم التوحيد فبرهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد ، برهان لصاحب الدين لا لمخالفه » وهل لا يلزم التحديد أنه برهان فى نفس الأمر أو غير برهان ؟ لأن اختلاف صاحب الدين وغير صاحب الدين فى الاعتقاد لا ينفى نفس الأمر ،

فهل علم التوحيد برهان وغير برهان معاً ؟ ولهذا أقول أنا إن المتعلم المصرى الناشى فى أحضان هذه المقالات والكتب المصرية يختار لنفسه عقيدة الشك .

أما قول الأستاذ بعد الجملة المنقولة آنفا : « ولهذا لم نر فى التاريخ أن علم الكلام كان سبباً فى إيمان من لم يؤمن أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً . إنما كان سبباً فى إيمان الكثير وإسلام الجم الغفير الدعوة من طريق القلب لا من طريق علم المنطق » فمقارنة أخرى من الأستاذ للعقل والمنطق يوازن قوتهما فى تأييد الإيمان بقوة القلب ، بعد مقارنتهما بالتجربة وتفضيلها عليهما ، فكما أنه خص براهين علم الطبيعة والكيمياء المبنية على التجربة بالنجاح دون براهين علم التوحيد المبنية على العقل والمنطق ، عد مساعدة القلب للإيمان أنجح من مساعدة العقل والمنطق .

وفيه عندى نظر ظاهر لأن معنى تأييد القلب للإيمان تأييده بعواطفه وليس التأييد بالعاطفة تأييداً بالدليل والبرهان الذى كلامنا فيه ، ولهذا لا يُبحث عن الحق والباطل فى التمايلات القلبية ، وهذا كاعتزاز كل قوم بقوميته وترجيحها على القوميات الأخرى. فيكون لكل قوم الحق فى ذلك من غير أن تكون قوميات الآخرين معرضة للبطلان ويكونُ الترجيح بمثل هذه العواطف القلبية عنديا محضا ليس من الرجحان الحقيقى فى شىء . لكن المطلوب فى ترجيح الإنسان لِما اختاره ديناً له وعقيدة يبتغى فيها مرضاة الله ، لزم أن يكون ترجيحا ناشئا من كونه حقا وما يخالفه باطلا وأن يكون له فى ذلك دليل من العقل والمنطق ، ولا يجوز أن يكون ترجيحه مبنياً على العاطفة والمحاباة المجردة المنبئة عن عدم وجود مرجح حقيقى لِما يرجحه ، حتى إذا استطاع أن يذكر لعاطفته ومحاباته سبباً معقولا انقلبت العاطفة القلبية إلى الاستدلال العقلى .

الحاصل أن المقصود من العلوم هو الوصول إلى الحقيقة، وعليه فلاشك أن العقل المحايد أحق بالثقة من العواطف المحابية وأن فى إسناد الإيمان إلى العواطف اعترافا ضمنيا

بعدم استناده إلى سبب معقول بل إلى اختيار صحيح أيضا مبنى على الموازنة بين المختار وغير المختار . ولهذا فإن صح هذا الإيمان صح إيمانا تقليديا لا إيمانا استدلاليا، ولا يمكن أن يكون إيمان المقلد أفضل من إيمان المستدل فإن أمكن ذلك فى أي دين فليس بممكن فى الإسلام . وليس بصحيح ادعاء كون الإيمان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم على هـذه الحالة . فإن لم يكن علم الـكلام فى ذلك العصر على شكله المدون كان روحه مركوزة فى عقول الصحابة ، ألا يرى أن كتاب الله مشحون بأدلة الفكر والنظر ، ومن ذا ينكر ما فى قول سيدنا إبراهيم : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض .. » من الاستدلال الـكلامى ، بحجة أنه سابق لتدوين علم الـكلام بقرون كثيرة ؟

فلا شك فى أن ترجيح القلب لأن يكون بعواطفه سنداً للإيمان ، على سند علم الـكلام العقلى والمنطق ، نزعة من الأستاذ إلى عقلية علماء الغرب المتدينين المحتاجين إلى الابتعاد عن ساحة العقـل والمنطق تهريبا لدينهم المسيحى من براثن انتقادهما ومتمسكين بدلا منهما بالقلب وعواطفه، وسيجيء منا كلام عن شنهم الحرب فى هذا السبيل ضد العقل ، كلام ننقله عن كتاب الأستاذ نفسه ثم نعلق عليه ، ولا حاجة فى الإسلام الذى هو ديننا ودين علمائنا المتكلمين إلى تلك الحرب .

ومن حاجة الغربيين فى تقوية الدين إلى تأييد العاطفة القلبية وترجيحها على العقل تراهم قد يدّعون أن إيمان العامة أمتن من إيمان الخاصة وترى مقلديهم فى الشرق يصدقونهم فى ذلك . ولا صحة لدعواهم هذه أيضا[1] وكفى دليلا على هـذا أن حالة

[١] وإنما هذا على ضعف الإيمان فى الخاصة الغربيين بل وفى مقلديهم من الخاصة المصريين فى الشرق الإسلامى أيضا ، فتقتصر مهمة هؤلاء فى الغرب والشرق على الاحتفاظ بدين العامة من طريق العاطفة القلبية لا من طريق العقل والمنطق، إذ لو كانت عقولهم مائلة إلى الإيمان كانوا هم أنفسهم أقوى فيه من العامة .

العامة تتغير بتغير الخاصة من دون عكس ، وتدور قوة ارتباطهم بدينهم مع قوة المنتمين إلى ذلك الدين وغلبتهم فى وجه الأرض فيظن الغافل ذلك قوة فى الدين . وأصدق القول قول علمائنا المتكلمين إن إيمان المقلد عُرضة للزوال بتشكيك مشكك .

ثم إن الأستاذ القائل : « لم نر فى التاريخ أن علم الكلام كان سببا لإيمان من لم يؤمن أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً . إنما كان سببا لإيمان الكثير وإسلام الجم الغفير الدعوة من طريق القلب لا من طريق علم المنطق » لم يفكر فى سبب كون المسلمين احتفظوا بدينهم وصحة عقيدتهم فى القرون الطويلة المتقدمة على اتصالهم أو بالأصح على اتصال متعلميهم بالغرب وتياراته فى الأزمنة الأخيرة . وما كان السبب فى هذا الاحتفاظ إلا استناد علمائهم إلى علم الكلام واستناد الخلق إلى أقوال هؤلاء العلماء وإرشاداتهم . فإذا مست الحاجة إلى المباحثة والمجادلة فى العقائد كانوا يقومون بها متكئين إلى قوة علم الكلام ويقفون فى وجه التيارات المضللة بهذا السلاح المؤيد بالعقل والمنطق . ولم يكن ممكنا فى أى وقت من الأوقات استخدام العاطفة القلبية ولا تهذيب القلب بالتصوف الذى هو الطريق المعروف فى تربية العواطف والمشاعر ، سلاحا للمجادلة الدينية العلمية لكونه سلاحا لا يتعدى تأثيره إلى غير حامله . فلو كان رجال الدين فى العصر الحاضر أقوياء فى علم الكلام وفى الوثوق بعقولهم المؤيدة لهذا العلم كما كان سلفهم ، لما وجد الإلحادُ وكل ما لا يتفق مع الإسلام من الأفكار الغربية ، فرصة النفوذ فى عقول مثقفى الشرق العصريين وما اجترأ الأستاذ فريد وجدى بك مدير ورئيس تحرير « مجلة الأزهر » على أن يتقول بين ظهرانى شيخ وأساتذة كلية أصول الدين أقاويل ضد علم الكلام وينتصبَ فى رأس المجلة عدوا له عداوةَ المرء لما جهله حتى كأنه يجهل أيضا كون هذا العلم اسما آخر للعلم الذى أضيفت إليه تلك الكلية الأزهرية .

* * *

هاجم رئيس مجلة الأزهر علم الكلام وكان صنيعه هذا اقتراحا ضمنيا لإلغاء تدريس هذا العلم بالأزهر، ولكن من غير إقامة علم مقامه تستند إليه عقائد الإسلام، بل ليس فى الإسلام شىء يستحق أن يسمى علماً بعد أن اشتُرط فى العلم أن يكون مؤسساً على التجربة الحسية وتُقُبّل هذا الشرط فى نظر الغرب وأذنابه الشرقيين، ولذا لم يذكر الأستاذ خلفاً لعلم الكلام المطلوب إلغاؤه بل ترك الإيمان بالله معلقاً بذمة المستقبل، لعل جهود علماء الغرب تكتشف يوما وجود الله بتجاربها الحسية كما اكتشفت الروح، ففى ذلك اليوم السعيد فقط يثبت على زعمه وجود الله علميا!

لكن الأستاذ أحمد أمين بك، على الرغم من تسليمه برجحان براهين العلوم التجريبية على براهين العلوم العقلية المنطقية، لم يقع فى سذاجة الاستجارة من التجارب الحسية لاكتشاف وجود الله وامتاز عن أستاذ مجلة الأزهر أيضا فذكر خلفا لعلم الكلام فى حفظ العقائد وهو علم التصوف. وإنى لا أرضى أن يُخترَع من التصوف الذى هو عمل وإخلاص وتربية للنفس أكثر من أنه علم، والذى ينبغى أن يكون متمما لعلم الكلام — مزاحمٌ له، وإن كان هذا الاختراع المقوت قد وقع من غلاة الصوفية القدماء قبل الأستاذ أحمد أمين بك. ولما كان علم الكلام عند ما قلت فى أوائل الكتاب: « انتهت قوة السيف فى الإسلام بانتهاء الدولة العثمانية، وإنى هاجرت إلى مصر فى هذه الفترة فوجدت قوة الإسلام العلمية أيضا فى حالة النزع »، فى طليعة المقصود من قوة العلم الإسلامية المحتضرة — فقد حق لى أن لا أبرح موضوع الدفاع عن علم الكلام وعن العقل الذى بنيتْ أدلته عليه، قبل أن أعطيه حقه فأقول:

الأستاذ الذى يروقه التصوف لإثبات الدين ولا يعوّل على أدلة علم الكلام العقلية والمنطقية، نسأله عن كيفية غلبة الصوفى على منكرى الدين وعن السلاح الذى يستعمله فى إفحامه؟ هل يكون سلاحه إظهار خارقة من كراماته تدهش من عاينها؟ وهل يكون للصوفى أن يتحدى بها فى حين أن الفارق بين معجزة النبى وكرامة الولى أن يتحدى

النبي بمعجزته ولا يتحدى الولى بكرامته وفى حين أن منكرى الدين فى زماننا وكثيراً ممن يعد نفسه من المسلمين لا يؤمنون بالمعجزات الخارقة للقوانين الطبيعيـة ، بله الـكرامات ؟

فالحق أن محاولة تحويل وجهة المسلمين من علم التوحيد إلى التصوف تأييداً لدينهم وتثبيتا لعقائدهم ، تشبه محاولة إحداث نوع من بعثة الأنبياء بعد انقضاء عهد النبوات يستغنى به الناس عن البحث والنظر بعقولهم لتمييز الحق والباطل من الأديان وأضداد الأديان ، وعن العلوم المستندة إلى ظاهر كتاب الله وسنة رسوله ، بل وعن المبالات بآيات الـكتاب نفسه الآمرة بالتفكير فى السماوات والأرض وفى أنفسهم والقائلة مثلا: « إنما يتذكر أولو الألباب ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ولقوم يعقلون وإن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ، والقائلة بألسنة أهل جهنم النادمين على مافاتهم عند معاينة العذاب: « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

وقد كان طروء الضعف على دين المسلمين واستيلاء الشك على قلوب المثقفين ، بل تغلب الإلحاد على الإيمان ، حصل كل هـذه التقلبات فى الشرق الإسلامى بعد أن أخذ الغرب يغزو دين الشرق بعلمه الحديث ، لِما وجد الناحية العلمية فى الدين ضعيفة وصدّقه فى زعمه هـذا أعوانه المقلدون فى البلاد الإسلامية[1] ولم يكن دخول الإلحاد الغربى فى الشرق ناشئا من كون العلم الحديث الذى هو أداة فتحه الوحيدة ، وجد فى الأعصر الأخيرة ضعف البلاد الإسلامية فى التصوف .

فإذا كانت حرب العلم الحديث الغربى متوجهة إلى الأدلة العلمية القديمة الذى كان الإسلام منذ قرون طويلة معتمدا عليهـا ، لا متوجهة إلى التصوف .. وإن شئت فقل لما كان دخول الإلحاد فى كثير من أذهان المصريين بواسطة حرب العلم الحديث ضد

---

[١] وفى استخفاف الأستاذ بعلم التوحيد مثال واضح لهذا التصديق .

الأدلة العلمية الكلامية وجب أن يكون الهجوم المقابل فى نفس الجبهة التى شُنت الحرب منها ، ليكون الحرب بين العلمين لا بين العلم والعاطفة اللذين لا حرب بينهما فى الإسلام ، وإنما المثقفون العصريون من مقلدى الغرب فى الشرق رأوا ملاحدة الغرب يحاربون الأديان بالعلم الحديث الذى لا يؤمن بغير ماثبت بالتجربة الحسية فانحازوا إلى جانب العلم وألحدوا ، ثم رأوا أهل الدين فى الغرب المسيحى يتمسكون بالعاطفة لإنقاذ دينهم من مخالب العقل والعلم فانحازوا إلى جانب الدين وقلدوا المسيحيين فى الاستهانة بالعقل والعلم ، وفى ضمن هذا التقليد استهانوا بعلم الكلام المبنى على العقل والمنطق والذى هو سلاحنا فى حرب الملاحدة ، مع أن العاطفة ترجع قيمتها العلمية إلى قيمة التعصب ولا تنهض حجةً ضد العقل والمنطق ولا نحن فى حاجة إلى التمسك بها أو بالتصوف الذى يربّيها .. لا فى إثبات الديانة ضد الإلحاد ولا فى مقارنة الإسلام بالأديان الأخرى وإنما نحتاج إلى التصوف فى داخل الإسلام لترويض النفس على العمل بأحكامه لنكون مسلمين عمليين بعد أن كنا مسلمين نظريين بفضل علم أصول الدين الذى هو الكلام وفروعه التى هى الفقه .

وأنا لا أغالى ولا أظلم إذا قلت إن الأستاذ الذى يفضل التصوف على علم التوحيد عند المقارنة بينهما ، يفضله أيضا على المنابع الأصلية للإسلام أعنى بها ظواهر الكتاب والسنة ؛ ومما يؤيدنى فى قولى « لا أغالى ولا أظلم » أن الأستاذ حين مدح التصوف مقابلَ علم التوحيد مدحه شاملا للتصوف فى جميع الأديان . ولو كان لغير دين الإسلام علم كعلم التوحيد فى الإسلام لذكره الأستاذ مع علم التوحيد المفضول كما ذكر التصوف فى ذلك الدين مع التصوف الفاضل فى الإسلام ، ولهذا بقى علم التوحيد الإسلامى وحده مفضولا فى كلام الأستاذ ومقابلا للتصوف فى جميع الأديان ، فكأنه لا قيمة لهذا العلم بالنسبة إلى التصوف .. حتى ولو كان تصوفاً غير إسلامى . وفضلُ هذا التصوف عنده حتى ولو كان تصوفاً غير إسلامى ، ناشئ من عدم كونه مبنياً على العقل

والمنطق كما كان علم التوحيد ؟ ومنشأ هـذه العقلية فى الأستاذ ظنه بأن الدين خير له أن لا يأخذ مسنده من العقل والمنطق كما فى المسيحية المتجافية عنهما فيسعى الأستاذ أن يُبعد الإسلام عنهما كما بعدت. فهو إن لم يكن مقلداً للمسيحية فى نظره إلى الإسلام فمقلد للعقلية الغربية المسيحية المعرضة عن العقل والمنطق ، وبهذا التقليد أصبح علم التوحيد الذى يدور مع العقل والمنطق ، منبوذاً عنده تاركا مكانه للتصوف .

وههنا نقطة هامة يجب أن يلفت إليها وهى أن وجود التصوف لا سيما وجوده معترفاً به عنـد الأستاذ ـ فى المسيحية التى لا توحيد فيها ولا علم التوحيد ولا اتفاق مع العقل والمنطق ، ولا الحاجة إلى ذاك الاتفاق ـ يضر عند أولى العقل والمنطق بمركز التصوف فى الإسلام أيضا، إذ يفهم من هذا كون التصوف واسع الصدر إزاء مايوافق العقل والمنطق وما يخالفهما . ولعل الأستاذ يتعجب من أنى أعد مخالفة العقل عيباً، بينما هو يعيب علم التوحيد بأن علماءه جملوه عقلا ومنطقا ، كأنه يقول قول الفيلسوف المسيحى « اسپنسر » : « خير للدين أن يترك هـذا العقل العنيد الذى لا يطمئن إلى غير الحجة المنطقية » وقد نقله فى كتابه « قصة الفلسفة الحديثة » ص ٤٧٨ . فليعلم الأستاذ أن التصوف فى الإسلام إن خالف علم التوحيد وخالف معه العقل والمنطق كان باطلا كما بطل زعم التصوف فى دعوى وحدة الوجود وسيجىء بحثه مستوفى فى هذا الـكتاب ، وليحذر قارئ الـكتاب قبل أن يقرأه ، التكلم ضد العقل والمنطق. فإن كان التصوف يمتاز بالإلهام من الله فالعقل الذى هو قانون الله وسفيره العام الرسمى عند الإنسان والذى هو المهبط الأول الطبيعى لإلهام الله ، يقدّم إلهامه على الإلهام الخاص الذي يخالفه ويكون معنى هذا أن الإلهام المخالف ليس بإلهام . ولهذا لم يجئ فيما جاءت به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مايحيله العقل ، فإذا كان فى سعة علم التوحيـد المتكلم بالعقل والمنطق أن يضع لمقدورات الله حدوداً من الممكنات حيث تقول متونه

عند ذكر صفاته تعالى الثبوتية « قادر على جميع الممكنات » فأولى أن يكون فى سعة ذلك العلم تحديد التصوف دائما .

ولينظر الذين يجعلون التصوف من أساتذة مصر مزاحماً لعلم التوحيد المسمى بعلم الكلام مفضلين الأول ومستهينين بالثانى ... لينظروا بعين العبرة إلى مانقلناه سابقا من كلام الإمام القشيرى[1] فى إنذار من يجحد بعلم الكلام ، وكلمة السيد الشريف الجرجانى شارح المواقف فى إكبار ذلك العلم وتقديمه على جميع العلوم الإسلامية مع كون كلا الرجلين الجليلين ممن جمع العلمين الكلام والتصوف فى نفسه ، ومما يزيد فى العبرة أن ناقل الكلمة عن الصوفى العظيم الأول أي الإمام القشيرى كان هو الصوفى العظيم الآخر نخر الصوفية المعاصرين فضيلة الشيخ سلامة العزامى المصرى متع الله الإسلام بطول حياته ، ونحن نقلناها من كتابه « فرقان القرآن بين صفات الله وصفات الأكوان . »

وقال الصوفى العظيم الإمام الربانى مجدد الألف الثانى أحمد بن عبد الله السرهندى فى «المكتوبات» ، وسننقله أيضا مع تصريحات أخرى منه فى مبحث تدقيق وحدة الوجود (المكتوب ٨٦):

« فينبغى للسالك قبل بلوغه كنه الأمر أن يعد تقليد علماء أهل الحق لازماً لنفسه مع مخالفة كشفه وإلهامه وأن يعتقد العلمـاء محقين ونفسه مخطئاً ، لأن مستند العلماء تقليد الأنبياء عليهم السلام المؤيدين بالوحى المعصومين عن الخطأ والغلط وكشفه وإلهامه على تقدير مخالفته للأحكام الثابتة ، خطأ وغلط . فتقديم الكشف على قول العلماء تقديم له فى الحقيقة على الأحكام القطعية المنزلة وهو عين الضلالة والخسارة . »

---

[١] فى رسالته التى يعدها الصوفية — كما قال أحد فضلاء الكتاب فى مجلة « الرسالة » — ككتاب سيبويه عند النحويين ولا ينصرف الاطلاق إلاها .

أما الإمام الغزالى الذى تشبث الأستاذ أحمد أمين بك فى مقالته الأخرى المنشورة « بالثقافة » والأستاذ عبد الحليم محمود المدرس بالأزهر وكاتب المقالات فى « منبر الشرق » ـ بذيل أقواله ضد علم الكلام ، فهذا الإمام الملقب بحجة الإسلام نقول ـ عملا بقوله الذى نقله هو ـ فى مقالة الأستاذ أحمد أمين ـ عن على كرم الله وجهه : « لا نعرف الحق بالرجال » ـ إنه ليس بحجة الإسلام فى تلك الأقوال التى قالها فى أواخر عمره .. وله رحمه الله أخطاء لا تغتفر ولا تستصغر نبهنا إلى بعضها فى « القول الفصل » وسننبه على بعض آخر منها فى هذا الكتاب غير الذى نتكلم الآن عليه . والأقوال الأخيرة لهذا الإمام ، لاسيما ماقاله فى عدم الاعتماد على المحسوسات والمعقولات التى يُستمد بها للحصول على اليقين، لا تؤثر عندنا فى إكبار علمه الجديد وإنما تحدث تأثيراً سيئاً فى سمعته بقديم علمه . وهذا السيد الشريف الجرجانى الذى يسميه من جاء بعده من فرسان الميدان فى العلوم « سيد المحققين » والذى أكبر علم الكلام إلى حد أنه قدمه على جميع العلوم كما سبق بنصه فى الرقم (٧) ما أكبره جاهلا بالتصوف ولا مطففا فى وزنه أو مجازفا فى وزن علم الكلام . وماذا يقول الإمام الغزالى الذى ينفى الطريق إلى اليقين غير طريق الكشف ، فى قول على رضى الله عنه : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ؟ »

ولقد أتى الغزالى فيما نقل عنه الأستاذ فى الثقافة (عدد ٣٥٨) بالعجيب المعيب حين رفع الأمان عن شهادة الحس والعقل وعن عالم اليقظة . وعنده : كما أن مايشاهده الإنسان فى حالة المنام أي الرؤيا لا حقيقة له مع كون الحالم يراه على أنه حقيقة ، فكذلك يمكن أن يكون عالم اليقظة عبارة عن الخيال الكاذب .. وعليه فلو ضرب زيد عمراً فى منامه فاقتص منه المضروب فى اليقظة ورُفعت القضية إلى الحاكم وقال الضارب اليقظان إنه ضربه قصاصاً ورد عليه الحاكم بأنه لا قصاص على أضغاث الأحلام، فللمقتص أن يجيب قائلا : « من يدرى أن عالم اليقظة ليس له أضغاث كأضغاث

الأحلام ؟ » . والحقيقة السالمة المسلَّمة عند الإمام ومن تصوف معه من الأساتذة المصريين إنما هى فى العالم الثالث المتجلى لهم من دون المشتغلين بالمحسوسات والمعقولات، ولا ندرى أنهم لما تكلموا هذه الكلمات الرافعة الأمان عن حالة اليقظة ، كانوا فى حالة اليقظة أو فى عالم غيرها .

ويرد عليهم أن المبادئ الريبية التى تمسكوا بها فى هدم الاعتماد على المحسوسات والمعقولات صالحة لأن تتسلط على التصوف أيضا . وبالنظر إلى أن التصوف علم الوصلة إلى الله فمن لم يقتنع بوجود الله ولم يكفه فى الجزم بوجوده أدلة علم التوحيد لزمه أن لا يقتنع بأن الذى اتصل به بعد دخوله فى العالم الثالث الذى هو التصوف هو الله بعينه. وكيف يتسنى له التعرف بمن لم يسبق منه التسليم بوجوده؟[1] ومعنى هذا أن علم الكلام يتولى إثبات أن الله موجود وواحد ، من غير تحديد لذات ذلك الموجود الواحد بأنه هذا أو ذاك . وهذا العلم يعترف بعجزه عن التحديد والتعيين، بل يمنع المسلم عن السعى من ورائه ويقول : « العجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث عن سر ذات الله إشراك»، والتصوف أو بالأصح تصوف الإمام الغزالى القائل بوحدة الوجود مع القائلين اشتغال بتعيين ذات الله، حتى إن الاتحادى المعروف الشيخ محى الدين عربى تجرأ على تجهيل من قال : العجز عن درك الإدراك إدراك على الرغم من كونه منقولا عن الصديق الأكبر رضى الله عنه كما سيجئ فى بحث وحدة الوجود ، وحتى إنه صرَّح بأن خطأ النصارى إنما هو فى قصرهم الألوهية على المسيح بن مريم دون سائر الموجودات .. فالإمام الغزالى الذى تنكر للمحسوس والمعقول وتنكر لملومه من نوعهما وقع من التصوف فى هاوية وحدة الوجود . فإن كان من حقنا أن نعرف الرجال بالحق

---

[١] ومن الغريب وقوع التجلى من الله للشاكين فى وجود الله المنكرين للأدلة العقلية التى أقامها علم التوحيد عليه ، دون المؤمنين بوجوده اعتمادا على تلك الأدلة .

ولا نعرف الحق بالرجال فنحن نعده فى طوره هـذا ممن قال كتاب الله عنهم : « ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لـكيلا يعلم بعد علم شيئا . »

وأنا الذى دفعنى تصوف الأساتذة المصريين دراوشة الإمام الغزالى[1] إلى التكلم بما قد يُظن منه أنى من خصوم الصوفية ، وليس الأمر كذلك .. أصارحهم بأنى أحبهم وأجلهم بشرط أن يكون واجبهم تعويد الناس العمل بعلوم علماء الدين الذين قديكونون أي العلماء أنفسهم مقصرين فيـه ، وبذلك يكون فى إمكان الصوفية أن يتولوا إرشاد العلماء وإصلاحهم فضلا عن العامة . ثم لا أرضى بهم أن يجاوزوا هذا الواجب وهو إرشاد الناس وتعويدهم العمل بعلوم العلماء إلى أن يحاربوا علوم العلماء ويدعوا الناس إلى الاستغناء عنها بالتصوف المزيج فى الغالب بالأباطيل والأضاليل . وبفضل إرشاد هذه الطائفة الناس وتمرينهم على العمل ولاسيما الإخلاص فى العمل بعـد أن كانوا قدوة للناس فى العمل والإخلاص ، يمكنهم أن ينالوا من فيوضات الله ما يمتازون به على غيرهم فيصبحوا من عباد الله المقربين ، كما يشير إليه الحديث القدسى : « لايزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يسعى بها »[2] ومع هـذا الامتياز العظيم فالمحجة التى لا عوج فيها ولا أمْتَ ، للحصول على العلم والمعرفة طريقُ العقل ولا يزال قول علماء الـكلام فى أوائل كتبهم : « أسباب العلم ثلاثة الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل . وليس الإلهام من أسباب المعرفة عنـد أهل الحق » قانوناً معترفاً به عنـد ذوى العقول ، قانوناً لا ينقضه خطأ الحواس مثلا فى أحوال نادرة يظهر منشأ الخطأ فيها عند التفتيش بالعقل الذى لا تستقل عنـه الحواس أصلا ولا تستغنى عن

---

[١] دراوشته للطعن فى علم التوحيد وما بنى عليه من العقل والمنطق ، لا للمواظبة على الأذكار والأوراد الصوفية ولا للتخلى عن مناصب الدنيا وملاذها كما تخلى الإمام الغزالى .

[٢] وقد توهم أصحاب المذهب الوجودى من المتصوفين أن هذا الحديث من مؤيدات مذهبهم الباطل

مساعدته فى القيام بدورها ، كما لا تنقضه إصابة الكشف والإلهام من بعض الخواص فى بعض حالاتهم، مع عدم الاطراد فى حالات الإصابة وفى تعيين أصحاب هذا الكشف المصيب كتعيين أشخاص الأنبياء المؤيدين بالمعجزات والمعصومين عن الخطأ . فلا يوثق بإلهامهم كما يوثق بإلهام الأنبياء .

إن تيار الإلحاد الغربى وجد السبيل إلى الشرق الإسلامى من أحد البابين الأول المادية التى لا تعوّل إلا على ماثبت بالتجربة الحسية ويمتاز فى زعم العصريين باسم العلم وقانونها الذى يردده الأستاذ فريد وجدى بك ويتمسك به وهو « كل معقول لايؤيده محسوس فلا يعتد به . » وهذا مذهبٌ إيقانىٌّ فى دائرته المحدودة التى تخرج عنه المغيبات الداخلة فى عقيدة الإسلام وعلى رأسها الإيمان بالله .

وثانى البابين السوفسطائية الريبية التى لاتعترف بالحصول على اليقين لافى المحسوسات ولا فى المعقولات . ويتفق كل من المذهبين على عدم الثقة بالعقل والمنطق اللذين يبنى الإسلام عقائده عليهما . فالإسلام يأبى كلا من هذين المذهبين كما أن المذهبين يتنافيان فى أنفسهما مع بعضهما . فيلزم منطقيا لمن ينتمى إلى أحد المذهبين أن يرفض المذهب الآخر ، كما أن من ينتمى إلى الإسلام لزمه أن يرفضهما . والعجب أن الأستاذ أحمد أمين بك لم يكن ريبيا عند ما قال : « إن علماء التوحيد أو علماء الكلام لم ينجحوا حين جعلوا الدين منطقاً وفلسفةً نجاح العلماء فى البراهين العقلية على قضايا العلم . إن قانون الكيمياء أو الطبيعة أو الرياضة إذا قال به أحد العلماء وبرهن عليه آمن به كل الناس بلافارق بين أمة وأمة وأهل دين وأهل دين وشرق وغربى. أما علم التوحيد أو علم الكلام فبرهان لمن يعتقد لا لمن لايعتقد ، برهان لصاحب الدين لا لمخالفه » وقد تكلمنا عليه . ولم يكن مؤمنا بقضايا العلم التى قال عنها إنها يؤمن بها كل الناس والتى آمن بها مع الناس ، عند تحبيذ كلمة الإمام الغزالى القادحة فى المحسوسات والمعقولات ، فأنكر قضايا العلم التجربى والثقةَ بالحواس إيماناً بمبادئ الريبية ، وأنكر الريبية إيمانا

بقضايا العلم وثقةً بالحواس وآمن بهاتين اللتين أنكرهما، إنكاراً للعقل والمنطق اللذين يستند إليهما علم التوحيد .. وجاوز عند إيمانه بالريبية ريبية الإمام الغزالى القائل عن الرياضيات كما نقل عنه الأستاذ: « وهذه أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها » فعلق عليه الأستاذ قوله: « هذا ما كان يُعتقد فى زمنه » ومعناه أن الأستاذ يجاحدها أيضا لأنه أخذ الريبية عن سوفسطائية الغرب الحديثة قبل أخذها عن الإمام. وسيجئ بحثه منا فى مدخل المطلب الأول من هذا الكتاب. وكذا المنطق يختلف نظر الأستاذ فيه عن نظر الغزالى الذى يعترف بأنه لا يُنكَر. فالأستاذ ريبى تام غير محتاج إلى أخذها عن الإمام.

* * *

وهناك أستاذ آخر من المدرسين فى الأزهر ذكرنا اسمه من قبل، كتب عدة مقالات فى «منبر الشرق» عن التصوف وأخرى بعنوان «على هامش فلسفة الأزهر» فرأيته يدخل فى مسائل مهمة مختلفة ويخرج غير مؤت شيئاً منها حقه فى البحث، وهو أيضاً يرمى علم التوحيد الذى اعتنى علماؤنا بشأنه واعتمدوا عليه قروناً طويلة، بعدم إزالة الشكوك ويرى الخلاص منها فى الالتجاء إلى التصوف بل يعزو مذهب العلماء إلى اعتبار الشك أول واجب على الإنسان. ولعله وصل إلى سمعه من بُعد قول أبى هاشم المعتزلى فى ذلك فظنه مذهب علماء الإسلام مطلقا.

وتراه لا يبت فى أن الدين يسع حرية التفكير أو يحظرها ولا يدرى أن حرية التفكير مضمونة فى أساس الدين الإسلامى المبنى على الأدلة العقلية، إلا أن هذه الحرية الواسعة لا تنافى بعد التسليم والتصديق بكونه الدين الحق القيم، أن يتقيد من اتخذه ديناً له بأحكامه وقوانينه التى يكون العمدة فيها على ثبوتها عن الرسول المبلغ عن الله ولا يكون المنتمى إلى الإسلام حرًّا فى مناقشتها. والمناقشة التى كانت من حق المسلم

العاقل قبل التثبت فى عقيدة الإسلام والاطمئنان على كونه ديناً إلهيا متفقا مع العقل، لا تكون من حقه بعد ذلك . وإلا كانت هذه المناقشة مناقشة الله .

ثم إن هـذا الأستاذ الذى تردد فى الحكم بوجود حرية الرأى فى الدين والذى كتب جُل ما كتبه مشوبا بظلام الشبهات غير مكوّن فيه رأياً واضحا واقتناعاً صريحا، قال فى عدد الصحيفة المذكورة (٣٦١) :

« إلى أى مدى يسمح الدين بحرية الفكر فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ؟ إننا نعلم أن كل الأديان نبذت هؤلاء الذين لم يعتقدوا بوجود الإله واستنكرت أو استغربت لهؤلاء الذين لا يؤمنون « أفى الله شك » ولم يستنكر الأديان هؤلاء فحسب وإنما استنكرت أو نبذت كل أولئك الذين لم يستكملوا الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وليس الأمر كذلك فقط ، بل فى الأديان أيضاً إشارات وإشارات إلى أن الطريق المستقيم ليس هو حرية الرأى وإنما هو اتباع الوحى « فيه آيات محكمات هن أم الكتاب... إلى قوله تعالى : من عند ربنا » وجاء فى الأثر : « إذا ذكر القدر فامسكوا . »

« وموقف الدين فى تلك الناحية موقف طبيعى حكيم ذلك أن تلك الناحية ـ ماوراء الطبيعة ـ لا يمكن مطلقا أن يصل الإنسان فيها إلى رأى ، إذ أن الإنسان لا يمكنه أن يكوّن رأيا إلا فى المحسوس . أما الأشياء الغيبية فكل رأى فيها هو بلا شك ضرب من الأوهام ولا يمكن أن يقر الدين ذلك النوع خصوصا إذا اتصلت المسألة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وفى الواقع كيف يمكننا أن نكوّن رأيا فى تلك الناحية والدين يرشدنا إلى أن « كل ما خطر ببالك فالله غير ذلك . »

« وهذه الخطة ـ خطة الاتباع فى تلك الناحية ـ هي خطة السلف الصالح . خطة الإمام مالك وغيره ، وهى كذلك خطة الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عم كما ذكرت

الجنة أوالنار وكلما ذكر شيء من المغيبات، حيث يقول هذه أشياء أخبرنا الله بها لانعلم حقيقتها ولكنا بها من المؤمنين . »

فزعم هـذا الأستاذ أن الدين لا يسمح بحرية الفكر في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فكأن الإنسان إن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فلا يؤمن مقتنعا بعقله حرا في تفكيره وإنما يؤمن اتباعا للوحي الآمر بالإيمان، وكأن الوحي الآمر به من المتشابهات حيث يأمر بالإيمان بما يستحيل عند العقل الحر في تفكيره ، وكأن الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر يؤمنون بها قياما للواجب بالوحي وإن لم توافقهم عقولهم في هذا الإيمان . وهذه خطة الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم حيث يقول : هـذه أشياء أخبرنا الله بها لا نعلم حقيقتها ولكنا بها من المؤمنين .

وأنا أقول هذا كلام الأستاذ صاحب المقالات في « منبر الشرق » وقد كتبها غير واع لمـا تضمنته ، كالمؤمن بالمغيبات في مذهب الشيخ . والحق أن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لما كان المراد منـه الإيمان بوجودها فلا شك في اعتراف العقل الحر بهذا الإيمان، أما وجود الله فليس العقل يعترف به فقط بل يوجبه أيضا بأدلته القطعية حيث لا يتصور وجود هذا العالم بغير وجوده . وأما ما ذكر بعد الله من الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر فالعقل الحر في تفكيره يعترف بها أيضا ولـكن مع الفرق بينـه وبين اعترافه بوجود الله الضروري فإن معنى اعتراف العقل بهذه الأمور إنها غير مستحيلة في حد ذاتها عند العقل ممكنة الوجود بعد وجود الله القادر على إيجادها ، وحاجة العقل إلى الوحي في الإيمان بهذه الأمور إنمـا تعتبر لتصديق وقوعه تفصيلا لا للاعتراف بها إجمالا الذي يكفي فيه إمكانها . كما قال خضر بك أستاذ المحقق الخيالي في منظومته النونية الـكلامية :

وواقع كل ما نص الصدوق به من ممكن كصراط أو كميزان

فالأمور المذكورة بعد الله يُثْبَت إمكانها بالعقل ويُصَدَّق وقوعها بالوحى ، حتى إنه لو لم يثبت إمكانها عقليا لما كفى الوحى فى الإيمان بها وكان الوحى من المتشابهات. أما الذين يقولون باستحالتها العقلية ويبنون الإيمان بها على مجرد الوحى من غير أن يدعموه باعتراف من العقل الحر فغير جادِّين فى إيمانهم إن لم يكونوا من عامة الناس كائنين من كانوا ، ولذا أنكر الأستاذ فريد وجدى بك معجزات الأنبياء الخارقة للقوانين الطبيعية وأنكر البعث بعد الموت والجنة والنار على أوصافها الواردة فى القرآن وجرى نقاش بينى وبينه قبل سنوات على صفحات « الأهرام » وكان الأستاذ يعدها من متشابهات الكتاب التى لا تحمل على ظواهرها ، ولهذا أيضا اعتاد الشيخ محمد عبده تأويل المعجزات بما يخرجها عن منافاة الطبيعة . والأستاذ كاتب المقالات فى «منبر الشرق» يمشى على آثارهما كما مشى على رأى الأستاذ أحمد أمين بك فى الاستهانة بعلم التوحيد وترجيح علم التصوف عليه فى الاقتناع بأصول الدين .

أما قول الأستاذ : « إن ما وراء الطبيعة لا يمكن مطلقاً أن يصل فيه الإنسان إلى رأى إذ ان الإنسان لا يمكنه أن يكوِّن رأياً إلا فى المحسوس . أما الأشياء الغيبية فكل رأى فيها هو بلا شك ضرب من الأوهام » فاتباع منه للضلال الفكرى المستولى على المثقفين المصريين بمصر ، القائل بأن العلم إنما يبنى على المجربات المحسوسة وما وراء ذلك لا يعتد به، ولذا لايعد ماوراء الطبيعة علماً ولا يعول على الأدلة العقلية. وأنا الذى كتبت هذا الكتاب للقضاء على هذه الضلالات أقول لهذا الأستاذ الماشى على الضلال العصرى مدعياً لعدم إمكان الحصول للإنسان على رأى فى غير المحسوسات : كيف أمكنه أن يرتأى كون التصوف طريقاً إلى الحصول على اليقين فى الدين أفضل من علم التوحيد فى حين أن التصوف بعيد عن المحسوسات؟ .

بل أقول أليس له رأى مكون ومقرر فى وجود الله الذى هو فى رأس مسائل ما وراء الطبيعة ؟ لا أسأل عن رأيه فى كيفية وجوده أو كنه ذاته حتى تلتبس عليه هذه المسألة بما يرشدنا إليه الدين ـ بل العقل أيضا قبل الدين ـ من أن « كل ماخطر ببالك فالله غير ذلك » وقد ذكره الأستاذ فى غير موضعه ـ بل أسأله عن وجود الله الذى ينازعنا فيه الملاحدة الماديون والطبيعيون غير المؤمنين بغير المحسوسات .

ومما التبس على الأستاذ فذكره فى غير موضعه خطة السلف الصالح خطة الإمام مالك وغيره المتوقفين عن تأويل المتشابهات فى كلام الله ورسوله المستحيلة عند العقل إذا حملت على ظواهر معناها مثل قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى»، فقد خلطها الأستاذ بخطة الشيخ محمد عبده أو الأستاذ فريد وجدى بك فى معجزات الأنبياء وأحوال الآخرة ، خطة عدِّ الآيات الواردة فيها من المتشابهات التى تستحيل معانيها الظاهرة على العقل . وعندنا وعند غير المختلطة عقولهم بمبادئ العاكفين على المحسوس لامانع عقليا عن قبول تلك الآيات على ظواهرها، لكن الأساتذة المصريين عاجزون عن التميز بين الممكن والمستحيل والمتشابه وغير المتشابه .

* * *

وفى مختتم بحث المقارنة بين العقل والعاطفة القلبية التى يرجع إليها التصوف ويراها الكتاب المصريون منا قدوة جديرة بالاتباع أفضل من العقل ، تقليداً للعقلية الغربية المتولدة من العقلية المسيحية التى هى فى حاجة إلى استضعاف العقل ليخلص الدين من محاربته ... فى مختتم هذا البحث يحسن لى أن أنبه القارئ على أن العقل الذى يخالف المسيحية ويحاربها والذى لا يمكن التغلب عليه هو العقل السليم . لاعقل الغرب المتجنن بالحياة الدنيا وزيناتها وشهواتها، فتراه يجعل الدنيا عاليها سافلها مستأثراً بتلك الشهوات لذويه وواضعاً للقوة فوق الحق .. وقد سميت هذا العقل فى أوائل الكتاب عقلا شيطانيا تمرد على بارئه وأصبح الشيطان بفضل هذا العقل من المنظرين

إلى يوم الوقت المعلوم . وهكذا يكون ما يكسب الغربيون من عقولهم على أكثر تقدير، وهم لكونهم أقل عقلا من الشيطان لا يدرون مايدريه أستاذهم من العاقبة التي تنتظره في الآخرة وينص عليه قوله تعالى: « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . » بل ربما يكون إنظارهم أقصر من إنظار أستاذهم .

كتبت هذه الأسطر مقدمة للانتقال إلى قصة كتبها الأستاذ إبراهيم المصرى في جريدة « أخبار اليوم » بعنوان « عند ما يتحير الإنسان » يحاول بها إثبات فضل العاطفة على العقل .

وخلاصة القصة: أن رجلا أرستقراطيا أنانيا من كبار أدباء الألمان في القرن التاسع عشر بلغت أنانيته وكبرياؤه أنه لم يعرف الحب ولم يخفق قلبه لامرأة وهو في الثلاثين من عمره ... ثم اتفق له أن يرى فتاة فقيرة يتيمة الأبوين باهرة الجمال اهتم بها أولا ثم أحبها وأحبته خاضعة لكبريائه ومطيعة له في كل مايرومه، فتزوجها واشتد حبه بها فكان يغار عليها غيرة عنيفة أنانية تجاوز حدودها المعقولة ولا تخلو من مضايقتها وهى تصبر على كل ذلك عن طيب نفس .. ثم ولدت غلاماً فأحبته كما تحب زوجها وشق على الزوج الأناني أن يرى من ولده شريكا له في حبها فحاول إبعاده منها فأبت فأصر الرجل على محاولته والمرأة على إبائها حتى عزمت على الهرب من بيته في ليلة من ليالى الشتاء حاملة ولدها فأدركها الرجل وأبت هى إلا أن تخرج ولكن الرجل انقض عليها وانتزع الطفل منها وصفعها أمام الخادمة فحدقت إليه تحديقا هائلا ، ثم ارتمت عليه كاللبوة المفترسة وانتزعت منه طفلها وانطلقت تعدو على غير هدى ، حتى اندفعت من باب الحديقة إلى الشارع الكبير وكان الظلام كثيفاً والبرد شديداً . وإذ ذاك وفى ومض الطرف زادت الريح ودوى الرعد وأبرقت السماء وانفجرت العاصفة وانهمر المطر وانصب على الأم وطفلها كسيل من رصاص فاضطربت وتراجعت ودب الذعر في قلب الرجل فلحق بها وهو يصرخ ارجعى رحمة بابنك .. فاضطرت إلى الرجوع ولكن

الطفل أصابته حمى من تأثير البرد والمطر وتجاذب المتنازعين ، ولم ينفع الطب فى إنقاذه حتى مات فى اليوم الرابع من ليلة الحادثة .

قال كاتب القصة : «وفى تلك اللحظة فقد تحطمت جبروت الرجل وتبددت أنانيته وتقوضت فلسفته فأدرك أمام جثة ابنه العزيز الوحيد أنه لم يكن إنسانا ، لأنه لم يضع القلب فوق العقل والتواضع فوق الكبرياء والرحمة فوق القوة . »

وأنا أقول قد غلط الكاتب فى ظنه الكبرياء والأنانية والغيرة الجنونية التى أرادت أن تمنع الأم من حب طفلها الذى لا حب أسمى وأطهر وأوفق للغريزة الإنسانية والحيوانية منه عقلا ، ثم سهل عليه تعييب رجل القصة بأنه لم يضع العاطفة فوق هذا العقل، وهو ليس بعقل. نعم إنه عقل الغربيين الأنانيين الواضعين القوة فوق الحق . وكاتب القصة كأكثر الكتاب العصريين منا يتبع عقليات الغرب الفاسدة[1] لينال من مركز العقل الصحيح المحترم عند الأمة اتباعاً لعقلية الإسلام الذى يكبر العقل ويمشى معه جنبا لجنب .. فإذا ضل عاقل إلى حد أن يستهين بالعقل فذلك الضلال البعيد .

ثم أقول للمسلمين الغيورين على دين بلادهم : اهتموا بدين مثقفيكم إن كنتم تريدون بقاء الدين محفوظ الكرامة ومرعى الأحكام . واهتموا بكون المثقفين يعتنقون الدين بصميم عقولهم قبل أن يعتنقوه فى صميم قلوبهم فذلك أنسب بهم وأثبت وأسلم من طروء الزيغ عليه . وليس من المعقول أن يكون دين المثقفين الذين هم عقلاء البلاد

---

[١] فيفضل طاعة القلب على طاعة العقل كما رأى قارئ هذا الكتاب مثله فى الأستاذ أحمد أمين بك وسيراه فى الأستاذ فريد وجدى بك ورآه قبلهما — وسيراه أيضاً فى الأستاذ فرح أنطون عند مناظرته الشيخ محمد عبده ، وهو أقدم المدافعين عن القلب ضد العقل — فيمن أعلمهم بمصر — ومنه يعلم صدق ما فهمته من أن الشيخ لم يغلب خصمه فى تلك المناظرة ، فهؤلاء الأساتذة أتباع رأى فرح أنطون ، لا أتباع رأى الشيخ .

مبنيا على العاطفة دون العقل ولم يقل علماء الإسلام عبثا إن مدار التكليف الشرعى هو العقل ... فإذا رسخ الدين فى قلوب هذه الطائفة من الأمة بواسطة عقولهم كان دين العامة ودين البلاد فى مأمن من الضعف والانحلال ، وكل ما نراه فى الشرق الإسلامى الحديث من ضعف الدين وفساد الأخلاق فمنشؤه كون الضعف متمركزا فى الخاصة المثقفة .

٩

الدكتور السيد محمد يوسف الهندى الذى كانت أعجبتنى مقالته فى مجلة « الرسالة » المعنونة « رأى الأكثرية فى السياسة الشرعية » . . هذا الدكتور كتب مقالة أخرى « فى الرسالة » أيضا « عدد ٧٧٢ » بعنوان « مجلس الشورى لإبليس » ترجمه من شعر المرحوم الدكتور إقبال شاعر الهند المشهور ، يضرب فيها الدكتور الشاعر والدكتور المترجم على وتر الاستهانة بعلم الكلام ومعاداته الشائعة بين المثقفين المصريين فى البلاد الإسلامية . وهما لا يبديان استهانتهما بعلم الكلام فى صدد المقارنة بينه وبين التصوف ، أو بينه وبين العلم الحديث بل أنهما يحملان على الكلام والتصوف معا ويعتبرانهما شاغلين عن العمل الذى هو الأولى بالاشتغال فى خدمة الإسلام وإعلاء كلمته .

وأنا أقول إن الذين أحدثوا المقارنة بين علم الكلام المبنى على العقل وبين التصوف المبنى على العاطفة ، مع تفضيل التصوف على علم الكلام فى بناء الدين عليه ، وقد أخطأوا فى كلا الأمرين كما سبق منا إيضاحه وإثباته ... هؤلاء المقارنون المخطئون كانوا على الأقل معقولين فى مقارنتهم ، وإن كانوا مخطئين فى تفضيلهم . . أما إحداث المقارنة بين العمل ومباحث الإلهيات الموجودة فى علم الكلام أو بين العمل والتصوف ثم تفضيل الاشتغال بالعمل على الاشتغال بهما فليس له معنى معقول أصلا .

ولنبدأ من المقارنة بين العمل والتصوف : فهى كالمقارنة بين العمل وبين العمل وقد سبق منى أن قلت عند مناقشة أحمد أمين بك فى أوائل هذا البحث إن التصوف عمل وإخلاص فى العمل وتربية النفس أكثر من أن يكون علما .. فهو أي التصوف لا ينفك عن العمل إلا فى مذهب غلاة المتصوفين القائلين بأن للإنسان مرتبة عند الله من مراتب الكمال إذا وصل إليه يسقط عنه التكاليف الشرعية . وهو مذهب باطل لا نعتد به .

وأما إحداث المقارنة بين العمل وبين علم الكلام فكان هذا كالسعى لإحداث المزاحمة بين العلم والعمل مع دعوى الاستغناء بالعمل عن العلم ، فى حين أنا نحن المهتمين بعلم الكلام لم نقل يوماً بعدم الحاجة إلى العمل بعد تعلم علم الكلام ، بل العلم أوضح طريق إلى العمل وأسلمها، والعمل بدون العلم يكون بناء على شفا جرف هار ، ولا يعتد به إن لم يكن كذلك بل احتفظ بكيانه على خلاف القياس ولم يزل قائما .. لا يعتد به لكونه عملا من غير عقيدة ، وليس المقصود من علم الكلام إلا تأسيس عقيدة الدين على أساسه المتين ، ولذا كان من أسمائه علم أصول الدين ، فصاحب الأعمال الدينية من غير اشتغال بهذا العلم إما أن لا يكون له عقيدة أيضا جازمة بصحة أساس الدين ... فهو منافق ينطبق عليه قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد .. » وإما أن يكون له عقيدة جازمة من طريق تقليد العلماء المشتغلين والاعتماد على علمهم ، أو تقليد المقلدين والمعتمدين .. فلا بد أن ينتهى القائمون بأعمال الدين إلى المشتغلين بعلم أصول الدين .. ولا نقول نحن أيضاً بلزوم هذا الاشتغال لكل أحد من المسلمين ، وإنما نقول كما قال الله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم .. الآية » فيكفيهم أن يكون لهم علماء يعتمدون على علمهم فى تثبيت عقائدهم الدينية ، كما يعتمد الناس فى قضاء حوائجهم الدنيوية على إخصائيين فى علوم أخرى

مثل الأطباء والمهندسين . ولا يكون من شأن العاقل المهتم بدنياه أن يهجم على علم الطب أو الهندسة مدعياً لاستغناء الناس عنه .. وليس ما فعله الدكتور إقبال والدكتور محمد يوسف المترجم عنه إلا من قبيل هذا الهجوم والاستهانة غير المعقولين[1] .

وقد سبق أن قلت فى هذا الكتاب « المسلمون فى زماننا يتلاومون فيما بينهم بالتقصير فى العمل عازين إليه تأخرهم المشهود ، مع أن تقصيرهم فى العقيدة التى لا تقبل التقصير أصلا أشد من تقصيرهم فى العمل .. حتى إن تقصيرهم فيها قد يبلغ كما ترى — مبلغ مناوأتها والاستهانة بها ، وهو داؤهم الذى أصيبت بها الكثرة الساحقة من مثقفيهم فعاقهم عن الصلاة والصيام وعاق حكوماتهم عن العمل بقوانين الإسلام فى بلاد معدودة من البلاد الإسلامية استبدالا بها قوانين فرنسية أو غيرها ، أو تعديلا فى قوانين الإسلام يتضمن الخروج عليها باسم التسهيل على الأمة أو التوفيق بمصلحتها حتى إن الكثيرين يعجبهم فصل الدين عن الدولة ، وحتى كان الشيخ الأكبر المراغى لا يعد الفقه من الدين ولا التغيير فى أحكامه تغييراً فى الدين[2] وكان كل هذه الحالات والمحاولات يتظاهر أصحابها بالخروج على الجمود فى الإسلام طلباً للسهولة والمصلحة والتجديد فى ناحية العمل ، لكن الحقيقة أنهم خارجون على الإسلام نفسه من ناحية العقيدة أى ناحية الإيمان به الذى هو أساس العمل بأحكامه ولهذا سهل عليهم التغيير فى أحكامه العملية ، ولهذا أيضاً عنيت فى هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية التى هى الناحية العلمية وصرفت كل جهد فى تثبيتها . »

---

[١] ولا يمكن الدفاع عن الدكتور الشاعر والدكتور المترجم باحتمال أن يكون مرادهما من الأعمال التى يفضلان الاشتغال بها على الاشتغال بعلم أصول الدين والتصوف ، الأعمال النافعة للمسلمين فى دنياهم ، لأنه إذا لم يكن لإحداث المقارنة بين علم أصول الدين والتصوف وبين الأعمال الدينية ، معنى معقول ، مع كون الطرفين من جنس واحد ... فعدم المعقولية فى إحداث المقارنة بين ذينك العلمين الدينيين وبين الأعمال الدنيوية أولى .

[٢] لهذا البحث تفصيل وتمحيص فى الباب الرابع من هذا الكتاب .

وقلت هناك أيضاً : «وبعد اقتناع المسلمين بعقيدة الإسلام اقتناعاً يتفق مع العقل والعلم الصحيحين يكونون مسلمين حقيقيين ويسهل لهم الحصول على ما يحتاجون إليه من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، إذ العمل المعتد به ينبني — كما قلت من قبل — مباشرة أو انتهاء على العقيدة العلمية التي لا يتعب بها الإنسان أصلا بعد استيقانها بعقله وفهمه ، بل يكون له منها قوة ينشرح بها صدره ويستعين على القيام بالناحية العملية التي ليست سهلة في حد ذاتها سهولة الناحية الاعتقادية لانطوائها على تكاليف وتضحيات . »

نعم إن الناحية الاعتقادية المبنية على تدقيق علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام ليست سهلة أيضا لا سيما على العامة وعلى أكثر العقول الحديثة التي تستصعب هذا العلم لاستئناس أصحابه بالعلوم الحديثة المادية فيسهل عليهم الإعراض عنه والكلام ضده بدل الاشتغال به والتعمق فيه ، بدعوى عدم فائدته وعدم حاجة الإسلام إليه ، لكنا نقطع إن شاء الله في هذا الكتاب خصوم علم الكلام والذين هم خصوم العقل والمنطق أيضا[1] — حتى إن القارئ اطلع على الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير مجلة الأزهر وهو يتمدح في مقالاته بأنها خالية عن الأدلة المنطقية — مع أنا كما قلنا آنفا لا ندعو كل أحد إلى الخوض في مسائل علم الكلام كلها حتى ولا بعضها الذي خصصنا ، بالتدقيق في هذا الكتاب لاشتداد الحاجة إليه في هذا العصر ... لا ندعو الناس إلى أن يكونوا علماء علم الكلام الملقبين بالمتكلمين وإنما ندعوهم إلى الاعتراف بحاجة الإسلام إليهم ليعتمد الناس في عقائدهم إلى علومهم إن لم يكن لأنفسهم علم تعتمد عقائدهم عليه كيلا يبقى اعتقاد لأحد من غير سند علمي ولو بالواسطة أي تقليداً لعلماء السند .

---

[١] وقارئ كتابي هذا يستبين خصوم العقل والمنطق بأسمائهم ونصوصهم في أمكنة مختلفة منه .

فإن قال قائل إن مراد الشاعر والمترجم الدكتورين الهنديين من التكلم ضد التوغل في علم الإلهيات ما يضاهى قول الأستاذ عبد القادر المغربى فى كتابه « جمال الدين الأفغانى » مترجما عن رأيه فى واجب المسلمين ص ٣٠ :

« القرآن وحده سبب الهداية والعمدة فى الدعايه . أما ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم ، فينبغى أن لا نعول عليها كوحى . وإنما نستأنس بها كرأى ولا نحملها على أكفنا مع القرآن فى الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه لصعوبة ذلك وتعسره وإضاعة الوقت فى عرضه . ألسنا مكلفين بالدعوة إلى الإسلام وحمل الأمم على قبوله ؟ وهل تمكن الدعوة من دون ترجمة تعاليم الإسلام إلى لغة الأقوام الذين ندعوهم ؟ هل فى طاقة سكان البرازيل مثلا إذا أردنا دعوتهم إلى الإسلام أن يفهموا كنه الإسلام من ترجمة علماء الإسلام وآرائهم المتشبعة فى تفسير القرآن والحديث ؟ الق نظرك على فهرست أحد الكتب الدينية الكبرى وتأمل فيها لترى ما الذى يمكن عرضه والدعوة إليه من أحكامه وتعاليمه وما لا يمكن ، تجد أن ما لا يمكن العمل به ولا الدعوة إليه ولا تطبيق مفاصله أصبح عبثاً يجب الاستغناء عنه بما يمكن ، والممكن هو ما فى القرآن وحده . »

فجوابى عليه أن كتابى هـذا وإن كان ينطوى على كثير من الانتقادات الموجهة نحو آراء الفلاسفة الغربيين فليس المقصود الأول من الكتاب دعوة الأمم الغربية إلى الإسلام ولا تعليم العامة من المسلمين دقائق علم أصول الدين ، وإنما المقصود دعوة الخاصة المثقفة المصريين منا المولّين وجوههم قِبَل الغرب ليأخذوا كل ثقافتهم منه حتى الثقافة الدينية ... المقصود دعوتهم إلى حظيرة الإسلام وتعلّم ما لم يعلموا من دقائق علومه لتصح عقيدتهم وتأمن شر مايدهمها من الشكوك التى يوحيها إليهم شيطان العلم الحديث المادى ويأمن دين العامة المسلمين وطلاب العلم من الجيل الآتى شر هؤلاء المثقفين .

أما قول جمال الدين الأفغانى «إن القرآن وحده سبب الهداية من غير ماتراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال ..» فنحن نرى آراء الرجال المجددين الذين التفوا حول مدرسة هذا الزعيم الأفغانى مثل الشيخ محمد عبده وتلامذته .. نرى آراءهم التى لاتتجمع حول القرآن ولا تصلح أن تنضم إليه بل تناقض نصوصه مثل إنكار المعجزات والملائكة والشيطان وعدم الاعتراف بصحة قصصه كما وردت ... أليست هى أكثر مخالفة لقضية المحافظة على وحدة القرآن مما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء العلماء المتقدمين ؟

عنيت فى هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية وصرفت كل جهدى فى تثبيتها عسى أن يكون من قوة العقيدة ذخر لآخرتى وليس لى شىء يذكر من الأعمال إلا تعميم هذه القوة لينتفع بها المسلمون الذين هم صفر الأيدى من العمل مثلى ... أما المحتاجون إلى هذه التقوية لابتلائهم بضعف العقيدة فانتفاعهم بهذا الكتاب إن كان فيهم استعداد لقبول الحق ، يكون عظيما إن شاء الله .

وتوضيح هذا المقام يحتاج إلى إطناب فى القول يتضح به أهمية العقيدة التى ترجع إلى العلم وتقابل العمل ... كما يتضح به ماقلنا من أن العقائد لا تكلف أصحابها بعد أن استيقنتها أنفسهم صعوبة تدوم مع دوام العقيدة ، كما كانت الحال فى الأعمال الدائمة الصعوبة مدة دوام العمل .. لا تكلفهم صعوبة وتقيهم شروراً خطرة عند انتشار الفساد فى الأعمال .

مثلا إن وباء السفور الذى أتى الشرق الإسلامى من الغرب بواسطة سماسرة مثل قاسم أمين وجعل نساء المسلمين كاسيات عاريات كالغربيات ، لا شك فى أنه حرام بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة[1] ، وهذه الحرمة دامت إلى هذا العصر الذى

---

[١] ونحن إذا التزمنا الدفاع عن علم الكلام اهتماما بعقائد الإسلام وصيانتها من اعتداء المعتدين، لانضيق عليناموضوع الدفاع بأن نقصره على المسائل التى اعتاد المؤلفون فى علم الكلام=

هو عصر فساد الأمة المشار إليه بالحديث النبوى : « من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد » وفى إعظام الأجر الموعود للتمسك إلى هذا الحد عند تطبيق الحديث إلى فتنة السفور، دلالة على شدة صعوبة هذا التمسك بحيث يعجز رؤساء الأسر عن وقايتها شر هذه الفتنة ، كما دلت هذه الصعوبة على قلة المتمسكات بالحجاب فى زماننا إلى حد الندرة ، ولاشك فى كون التمسك بالإحتجاب أصعب من خرط القتاد فى عصر انتشار السفور وانتشار الشكاية من الحجاب على الرغم من عدم وقوع الشكاية منه طول عصور الإسلام عصور كرامة أحكامه ...

كما لا شك فى كون هـــذا السفور المقلد للسفور الغربى فسقاً وكون إباحته واستحسانه كفراً والحث عليه أشد الكفر[1] والنجاة من خطر هذه الفتنة العظيم الذى هو الكفر المؤدى إلى عذاب الأبد فى نار جهنم إنما تتاح فى عصر ابتلاء المسلمات بالسفور ، بفضل الالتجاء إلى الاحتفاظ بصحة العقيدة ، رغم فساد العمل الذى مهما عظم خطره فهو دون خطر الكفر كما قال الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، وقال : « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . »

= أن يشتغلوا بتدقيقها .. بل نتوسع فندخل فى ساحة الاهتمام الناحية الاعتقادية الموجودة فى الأعمال الدينية التى يفضل الدكتوران الهنديان الاهتمام والاشتغال بها على الاهتمام بعلم الكلام. ويمكننا أن نعبر عن هذه الناحية الموجودة فى العمل ناحيته العلمية ونلحقها بمسائل علم الكلام الاعتقادية ثم نعدها أحق بالاهتمام وأقدم من ناحية العمل على خلاف عقلية الدكتورين .

[١] وإنى أجد فى كثرة السافرات من نساء هذا العصر وما يتلوه من الأعصار ، ما يكفى فى ملء العدد اللازم لتغليب النساء من أهل جهنم على الرجال حتى على فرض أن لا يكون لهن ذنوب أخرى .. تلك الغلبة التى ذكرها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث « اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء » ونساء المسلمين السافرات المتممات للكثرة التى رآها رسول الله فى بنات جنسهن لما اطلع على النار ، إن لم يكن يلازمهن أذى قلبى ناشئ من الاعتراف بإثم السفور ، فخالدات فى النار ؛ وإن لازمهن الأذى فما كثات بها إلى أن يغفر

فإذا سفرت السافرات من نساء المسلمين العاجزات بمقتضى ضعفهن الغريزى عن مقاومة هــذه الفتنة التي عمت عدواها وعز دواؤها ، ولكن مع ذلك لا يزلن معترفات بذنبهن الذى يقترفنه لاعنات للزمان الذى يضطرهن إلى اقترافه ، وإن لم يكن هــذا الاضطرار معدوداً من الضرورات الحقيقية التى تبيح المحظورات ـ وقين أنفسهن بفضل هذا الاعتراف المنبئ عن عدم سراية الفساد إلى عقيدتهن الإسلامية القائلة بأن السفور من عمل الشيطان ، وكان خيراً لهن فى الدنيا والآخرة أن لا يتبرجن تبرج الجاهليــة الأولى والثانية .. وقين أنفسهن شر الوقوع فى الـكفر بفضل هذا الاعتراف الراسخ فى نفوسهن ، وإن كانت هــذه الوقاية المبنية على ذلك الرسوخ أيضاً فى غاية الندرة المتناسبة مع ندرة بقاء العقيدة عند شيوع الفساد فى العمل ، سليمة عن الفساد .

وهؤلاء النوادر العاقلة المحتفظة على الأقل بعقيدتهن الإسلامية ضد السفور كما يقين أنفسهن من أعظم أخطاره الأخروية ، يقينها فى الدنيا من الإفراط والاستهتار فى تقليد الـكاسيات العاريات .

وهذه الطريقة التى عرضناها على المرأة العصرية المسلمة وأوصينا بها إليها ، طريقة الاهتمام والاحتفاظ بالعقيدة على خلاف التقصير فى العمل على وفق الحـكم الشرعى .. أنفع فى حق الموصَى إليها والموصِى جميعاً وأقوم من البحث عن طريق إباحة السفور المحرّم فى طريقة العلماء الدائرين مع الزمان .

كان فى العهد القديم عند المسلمين يُخاف على علماء الدين أن لا يتفق أعمالهم مع علومهم ولا يخطر بالبال أن لا ينطقوا بالحق أو يلتبس عليهم الحق والباطل لاسيما فيما كان معدوداً من الضروريات الدينية التى لم تـكن تلتبس على المسلمين ، إن التبست على العلماء من طريق فرض المحال .

والآن أصبح الإسلام فى حاجة إلى العلماء الذين يقولون الحق مهما كان فيه مصادمة

لأهواء الزمان .. يقولون الحق ويهتدون إلى معرفته بين دعاية المضلين ، كما أصبح الإسلام فى حاجة إلى المسلمين الذين لا يلتبس عليهم العالم من الجاهل ، والمحق من المبطل ؛ وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان . »

لا نتكلم فى سفور النساء بمعنى الكشف عن وجوههن بحجة أن المرأة هى الأخرى إنسان كالرجل يضايقها مايضايقه من الاحتجاب والاستتار .. بل بمعنى كونهن كاسيات عاريات لا يُقنعهن مايقنع الرجل من أعضائهم المكشوفة فيزدن بكثير على مبلغهم فيها .. وإن شئت فقل فى اختصار يتفق مع تعبير القرآن : سفورهن بمعنى إبداء زينتهن لغير الأقربين من الرجال المعدودين فى آية الحجاب التى ينكر أنصار السفور وجودها فى كتاب الله .. إبداء زينتهن مستهترات فى إبدائها الممنوع عنه فى تلك الآية ، يتكون ويتفنن على حسب العادات المستحدثة فى الغربيات غير المسلمات[1] .

هذا السفور وهذا الإبداء للزينة الذى جعل الأندية والمحافل والشوارع معارض وأسواقاً للنساء تنادى بتنازلهن عن منصة الاستغناء والاحتشام إلى ميادين الابتذال، لدلالتها على احتياجهن إلى هذا التصنع والتكلف لاستجلاب أنظار الرجال أو لتلافى

---

[١] وإن شئت فزد عليه كون هذه التزينة الكاسية العارية مستعدة لتلبية من يرغب فى مخاصرتها من الرجال الأكفاء ومراقصتها بين ظهرانى الناس فى المجامع والمحافل . هذا هو المعنى المقصود من السفور الحاضر المختلف فيه بين أنصاره المجددين وأعدائه المحافظين ، ولا تسمع إلى أقوال بعض المنافقين أو الغافلين إن السفور الحاضر الخليع ليس ما كان يريده قاسم أمين داعيته الأول . ولو كان الأمر كما يدعون من أن قاسما أراد شيئا وحصل غير ما أراده لكانت ذكرياته المتكررة المظفرة فى سنيها الطويلة الحاضرة التى يزداد فيها السفور خلاعة واستهتارا ، مليئة لعنا وثبورا لا كما نراها مليئة هتافا وشكورا .

ما فيهن من نقصان الجمال والكمال .. إن لم تكن هذه الدلالة وتلك المناداة بلسان المقال فبلسان الحال الذي هو أنطق[1] .

فهؤلاء المبديات الزينة من أجسامهن كأنهن فى سباق دائم تكسب السابقة منهن وتخسر المسبوقة وتكون أولى الخاسرات أزواج الرجال الذين يصطادهم السابقات ليكنّ خليلات لهم أوأزواجاً ثانية . فيعود ضرر هـــذا السباق السافر إلى أخوات الكاسيات من بنات جنسهن ، فى حين أن السفور عند الغافلين والغافلات يُعد من منافع المرأة .. يعود ضرر هذا السفور والسباق فى السفور إلى أخوات السابقات من بنات جنسهن ثم تنتقم من تلك السابقات سابقات أخرى فى سباق آخر جديد .

فتنة السفور هـذه أدت إلى ضلالات واعتمدت على سخافات لم يتعمق فى مثلها من الضلالات والسخافات أنصار الضلالات والسخافات الأخرى .. فنرى قاسم أمين ينكر وجود احتجاب المرأة فى الإسلام بالمرة ، فيدعى أنه دخيـل طرأ على المسلمين من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوه وأخذوا به وبالغوا فيه وألبسوه لباس الدين كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها !..

وناقض الرجل هـذا الادعاء فى دعواه الأخرى الضالة أيضا فقال إن الاحتجاب أُمرت به أزواج النبي صلى الله عليـه وسلم خاصة .. دون نساء المسلمين فكأن هذه العادة الضارة التى هى دخيلة فى الإسلام ولا مناسبة لها بالدين ، منيت بها من غير مبررٍ أزواج النبي اللاتى هن أقرب الناس إلى الدين وخاصةُ الإسلام ونبيّ الإسلام .

---

[١] ولا يمنع أن تكون الكثرة من غريرات الفتيات والنساء خاليات القلوب عن أغراض الفساد بأن يمشين على التقليد المحض لأترابهن العصريات ... لا يمنع هذا كون ألوان الزينة التى يبدينها مريبة بالشكل والمظهر، وفيه مالايستهان به من الفساد ... على أن سلسلة التقليد الذى تتبعه هؤلاء الغريرات لا بد أن تنتهى من مقلدة بعد مقلدة إلى أصحاب الأغراض الفاسدة من الرجال والنساء الذين اخترعوا تلك الألوان المغرية .

أقول وفى سورة الأحزاب التى فيها قول الله : « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء » الذى تمسك به قاسم فى دعواه الباطلة الثانية متغاضياً عما يحفه من القرائن المانعة عن دعوى الاختصاص كما فصلناه فى مكان آخر من هذا الكتاب ـ آية أخرى تبطل هـذه الدعوى بكل صراحة ، وهى قوله تعالى : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » فكيف ينكر الرجل من غير مخافة ولا استحياء من الله وجود الحجاب للنساء فى الإسلام ، إن كان يؤمن بأن القرآن كلام الله ، أو كيف يدعى اختصاصه بأزواج النبى ؟ ومثله فى نبذ الخوف والحياء المحتفلون كل عام بذكراه فى مصر من مدعى الإسلام والإيمان .

ولم يكف قاسماً أن يستخف بضلال السفور وبإثمه فجاء ولده وادعى استحقاق أبيه لأجر من سن سنة حسنة وجرى على رأى الولد البار أصحاب الذكرى المحتفلين بقاسم فى كل سنة من وفاته بالغة اليوم الذكرى الأربعين وهـذا اعتراف منهم لاسمه بالخلود فى الألسنة رغم كون مسماه من المستحلين ما حرمه الله والحاكمين بغير ما أنزله .

ثم يعود قاسم المخلد فى ألسنة المحتفلين بذكراه مدعياً لكون الاحتجاب أجنبيا عن الإسلام فيصرح بأن السفور تمسك به الغرب وهو قدوتنا اليوم ونِعْمَ القدوة ، فأى شىء يتمسك به الغربيون الذين هم أعقل منا ولا يكون خيراً محضاً ؟

فقد تبين من هذا أن السفور الحاضر يأتينا من الغرب وقد كان الرجل يدعى أن الاحتجاب أجنبى عن الإسلام أخذه المسلمون من مخالطة الأمم . فهل السفور الذى نأخذه من الغرب باعتراف من قاسم أمين لا يكون أجنبيا عنا ، فى حين أن الاحتجاب الذى لا يُعرف من أى قوم أخذناه وإنما يُعرف على الأقل أن أزواج النبى كنَّ مأمورات به .. كان أجنبيا عنا فى زعمه ؟

ضلالات السفور وسخافات الدفاع عنـه لم تنحصر فى قاسم أمين ، بل أصبحت طريقاً معبدة يركض فيهـا من حدثته نفسه الأمارة بالحياة المختلطة من أزرة النساء المتعلمين فى مدرسة المغفلين كما سماه الأستاذ توفيق الحكيم واتخذه عنواناً لإحدى مقالاته فى « أخبار اليوم » ولعل الوجه لهذه التسمية عن الحياة المختلطة وما يسمونها الحفلات الساهرة . أن تلك الحياة التى كثيراً ما يخالطها القمار أيضاً مقامرة بذاتها من غير قمار ، ورأس المـال الموضوع على المائدة عقيلات المقامرين أو قريباتهم الأخرى التى يحضرن معهم محافل الاختلاط .

وقد رأيت فى مجلة « الرسالة » عدد ٧٧٣ ، ٧٧٤ مقالتين بتوقيع الشيخ محمـد رجب البيومى وعنوان « المرأة فى شعر الرصافى » يحكم من قرأهما بأن دين محمد صلى الله عليه وسلم يُكْفَر به فى صحف مصر والعراق جهاراً ويغدق على الكافرين المدح والثناء. أما المحافظون على إيمانهم بهذا الدين وكتابه فهم منهزمون ومقهورون لا يقام لوجودهم وزن ولا يصغى إلى أقوالهم بأذن ، فكأن البلاد ولا سيما العراق أصبح فيها المنكر معروفاً والمعروف منكراً بين عشية الحكم العثمانى وضحى الخروج عليـه من العرب الجدد قبل الترك الجدد .. ولولا هذا التقدم المشئوم فى البلاد الإسلامية المجاورة لما فاز إعلان الجمهورية اللادينية فى تركيا الجديدة .

يقول الشيخ رجب : « حيا الله الشعر العربى ، فلقد آزر النهضة الشرقية أتم مؤازرة، فأيقظ عيوناً نائمة، وأسمع آذاناً موصدة ، وطاح بجبابرة قساة وأدوا الكرامة الإنسانية ، وأرهقوا العزة القومية !..

« ولقد كان الرصافى رحمه الله فى طليعة هؤلاء المباقرة المجاهدين ، فقد اتخـذ من يراعه القوى صارما بتارا ، تنقل به من معركة إلى معركة ، فهو فى ميدان السياسة يشن الغارة على السرطان الاستعمارى ، ويقف فى وجه الطاغوت التركى !..»

« وسأحاول اليوم أن أكشف عن أثر الرصافى فى النهضة النسوية كما أبين شعوره نحو المرأة كإنسان ناضج !.. »

ثم قال الشيخ رجب : « لم تكن حال المرأة فى العراق خيراً منها فى مصر ، بل كان الحجاب والجهل من لوازمه الأكيدة فى كلا القطرين ، فارتفعت الدعوة بتحريرها[1] فى ربوع النيل ، واحتدم الجدال بين الأنصار والخصوم، فكانت معركة طاحنة تردد صداها فى ربوع العراق ، فنهض الرصافى والزهاوى للمطالبة بحق الفتاة ، وتصديا للهجوم العنيف بما يملكان من بيان ، فكانت المقالات الضافية والقصائد الرنانة ، تعبر عن آرائهما الجديدة فى جرأة وعنف ، وأوصل الرصافى جهوده ، فتألب عليه الجمهور وتنبه الحاكم التركى فى غدوه ورواحه ، وهو لا يفتأ يناضل عن حق اعتقده ويقوض أركان عقيدة يراها غير صالحة للبقاء .

---

[١] أنصار السفور الضالون يعدونه حرية المرأة مع أن الأمر بالعكس أعنى إذا سفرت المرأة تأمت ، وبذلك تتضاعف غفلة قاسم أمين وجهالته فى ادعاء أن احتجاب المرأة دخيل فى الإسلام من مخالطة بعض الأمم . انظر ما ذكره صديق الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب فى مجلة « الفتح » الغراء عدد ٨٦٢ :

« فى لسان العرب (مادة : حرر) عند تفسيره معنى الحرة وأنها نقيض الأمة وأن جمع الحرة حرائر ، قال ومنه حديث أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، قال للنساء اللاتى كن يخرجن إلى المسجد : « لاردكن حرائر » أى لألزمكن البيوت فلا تخرجن إلى المسجد . لأن الحجاب إنما ضرب على الحرائر دون الإماء . وتعرض الإماء للناس فى الأسواق معدود فى أخلاق وسنة الإسلام أموة وامتهانا تترفع الحرائر عن مثلها » .

أقول ولقد ذهبت حشمة المرأة وروعة جمالها بذهاب الحجاب وقامت مقامه الأصباغ والمعاجين الملونة الساترة لما تحتها من الحقيقة ، مع فرق ما فى الحجاب من إثارة حسن الظن بتلك الحقيقة المجهولة وما فى الأستار الجديدة من إثارة سوء الظن بها . ومن حماقة الذوة المصريات مسابقة حسانهن بقباحهن فى الاصطباغ .

« كان قاسم أمين فى مصر صاحب الرأى الأول فى حركته التحريرية ، وكان الشعراء والمثقفون يسيرون وراءه فى كثير من التحفظ والاحتياط ، أما فى العراق فقد كان معروف وجميل يقومان بعبء قاسم فى حماسة يصل بها إلى الثورة والاندفاع ، ومن هنا كانت مكانتهما الاجتماعية فى بغداد أقوى من مكانة شوقى وحافظ ومطران فى مصر ، والفرق بين هذين وهؤلاء فرق ما بين الخطيب والمصفقين مع التسامح اليسير . »

أقول منشأ هـذا الفرق بين من ذكرهم من شعراء مصر وبين معروف الرصافى وجميل الزهاوى أن الأولين لم يكونوا فى ضعف الدين بدرجة الرصافى والزهاوى المشتهرين بالإلحاد ، ومن سوء حظ الشيخ رجب والقضيـة الممقوتة التى التزم إثباتها فى مقالته وفضَّل مؤيدَيْها العراقيَّين على المؤيدين المصريين ، كون المفضلَيْن من الملاحدة ، والشيخ لا يكتم فى مقالته الثانية كون معروف الرصافى إباحيا متحللا يبحث عن شهوات الجسد من أى طريق ، وإلحاد جميل معروف أكثر من معروف ، فنعم الشهود إذن شهود قضيـة الشيخ ! وقد قال الرصافى فى إحدى قصائده التى أوردها الشيخ معجباً بها :

لم أر بين الناس ذا مظلمة أحق بالرحمـة من مسلمة
منقوصـة حتى بميراثها محجوبة حتى من المكرمة

والبيت الثانى اعتراض على الله فى تقسيم الميراث بين الذكور والإناث . وفى البيت الأول الذى يرى الشاعر فيه المرأة المسلمة ذات مظلمة وظالمها الذى هو الله لم يرحمها فى تقسيم الميراث وفى غيره من الأحكام الشرعية التى تفترق فيهـا المرأة عن الرجل فى دين الإسـلام[1] . يريد الشاعر أن يكون للمرأة المسلمة أرحمَ من الله الذى يتمدح

[١] وهو يغفل أو يتجاهل أن صاحبات الحظ المساوى فى الميراث لحظوط الرجال من نساء الغرب اللاتى سفرت المرأة فى بلاد الإسلام تقليداً لهن ، يحتجن إلى بذل المال فى سبيل الحصول على =

فى القرآن بأنه أرحم الراحمين . وفى كل هـذا يكفر الرصافى والشيخ صاحب المقالة بل وصاحب « الرسالة » لنشر مقالته فى مجلته من غير تـكير . وإنى أرى حماقة المترضين على أحكام الإسـلام الخاصة بالمرأة ، فى وقوفهم مع المسلمين فى صف واحد رغم خروجهم على حكم دينهم الظالم !!

أما ما سبق من قول الشيخ صاحب المقالة : « لم تـكن حال المرأة فى العراق خيراً منها فى مصر ، بل كان الحجاب والجهل من لوازمها الأكيدة فى كلا القطرين » فالجواب أن القرون الإسلامية قبل عصور السفور الأخير لاسيما القرون الذهبية ، مضت فى الحجاب ولم يمنع الحجاب وجود المتعلمات ومشاهير الفضليات فى تلك القرون كما لم تسمع فيها أية شكاية عن حجاب المرأة ، فهل أهل تلك القرون الطويلة كانوا فى غفلة عميقة عن مظلمة الحجاب والميراث ظالمين ومظلومات ، حتى جاء قاسم أمين فى مصر فتنبه للملاقة بين الحجاب والجهل ؟ ولم يبال بالملاقة بين السفور والفسق مع كون علاقة الفسق أبين من علاقة الحجاب بالجهل فأثار ثورة السفور ، واقتفى شاعران ملحدان فى العراق أثر قاسم وتبعهم الفاسقون والغاوون ففازت دعواهم فى عصر الفسق والفجور ، وأصبحت حال المرأة فى القطرين خيراً من ماضيها على زعم الشيخ صاحب المقالة فى « الرسالة » .

وأما قول الرصافى :

شرف المليحة أن تـكون أديبة   وحجابها فى النـاس أن تتهذبا
والوجه إن كان الحياء نقابه   أغنى فتـاة الحى أن تتنقبا

= الأزواج تلافياً للنقصان الطارئ عليهن من ابتذال السفور ، فى حين أن المرأة قيمة بذاتها فى الإسلام غانية عن مصاريف الحصول على الزوج بما يسمونه الدوطة ، بل الرجل مكلف بالإنفاق عليها عند عقد الزواج وبعده إلى ما شاء الله أن يعيشا عيشة الزوجين .

لمن قبيل التضليل والتسويل ، لأن الحياء فى وجه الفتاة أول ما تدعوها إلى التنقب والتمنع لا إلى السفور والاستغناء عن النقاب ، لأن المناسبة بين الحياء والتنقب أشد من المناسبة بين الحياء والسفور ، ولذا يكنى عن قليل الحياء بخليع العذار .

وبمناسبة الكلام عن الحياء أنقل هنا قول الشيخ عن الرصافى فى آخر مقالته الأولى: « ثم دلف إلى آراء المحافظين فدحضها فى هدوء وبساطة وبيّن موقف الشريعة الإسلامية من المرأة وكيف أخطأ الجامدون فنسبوا إلى الدين ما ليس منه ، واستدل بعائشة أم المؤمنين وما كانت عليه من فصاحة وفقه . »

ثم أتى الشيخ بأبيات من شعر ممدوحه بل إمامه العراقى وفيه قوله عن المحافظين :

وقالوا شرعة الإسلام تقضى بتفضيـل الذين على اللواتى
لقد كذبوا على الإسلام كذبا تزول الشُّمُّ عنـه مزلزلات

أنقل هـذا عن مقالة الشيخ ثم أتعقب قائلا : لا يكون من حق الذين ينكرون وجود موقف خاص للمرأة فى الشريعة الإسلامية موافقٍ لآراء المسلمين بأن تـكون ممنوعة عن إبداء زينتها للرجال غير المحارم الذى هو سفورها الحاضر وأقل من سفورها الحاضر ، وأنّ تـكون مرتبتها دون مرتبة الرجل فى كثير من الأحكام الشرعية كالميراث والشهادة وولاية الطلاق .. لا يكون من حق هؤلاء المنكرين وجودَ موقف خاص للمرأة مع وجود قول الله تعالى فى كتابه : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن. الخ» وقوله : « الرجال قوامون على النساء بما فضـل الله بعضهم على بعض ... » وقوله : « وللرجال عليهن درجة » وقوله : « واستشهِدوا شهيدين من رجالـكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء .. » وقوله : « للذكر مثـل حظ الأنثيين . »

لا يكون بعد هـذه الآيات من حق هؤلاء المنكرين وجودَ موقف خاص المرأة فى الشريعة الإسلامية ، الذين خلقهم الله عارى الوجوه من حلية الحياء ، أن يتكلموا فى الموازنة بين حياء الفتاة المحتجبة والفتاة الكاسية العارية .

الحاصل ان الخصومة فى مظلمة المرأة المسلمة إن كانت هناك مظلمة فهى تتوجه إلى دين الإسلام ثم إلى المحافظين . فعلى أنصار السفور الحاضر وأنصار مساواة المرأة مع الرجل أن يحاربوا الإسلام قبـل محاربة المحافظين على قانون الإسلام . إلا أن يُلتزم التغاضى والتعامى على طول خط المحاربة والمناقشة عن نصوص الكتاب والسنة فى المرأة أو تُقابَل تلك النصوص بوجوه مغلفة بغلف غليظة من المكابرة فى فهم معانيها ، كأن أصحاب هذه الوجوه يمتثلون بأمر أسلافهم القائلين : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » وما دامت تلك النصوص فى القرآن ، فضلا عن نصوص السنة فى كتب الأحاديث ، فلا خلاص لحلة الأقلام المتخذين من المؤمنات الغافلات أدوات اللهو والخلاعة والمجون ومن محاسنهن نصبا وأهدافاً لخائنة العيون .. لا خلاص لهم من الإلزام .. فعليهم إن أرادوا الخلاص أن يخترعوا كتاباً للإسلام يختلف عما أنزل على محمد ، كما اخترع القساوسة بعد المسيح ، وكما قيل لنبينا من قبل : « ائت بقرآن غير هذا أو بدله . »

واستدلال أنصار المرأة الجديدة بسيدتنا عائشة وفصاحتها وفقهها من فقدان الحياء أيضا ، كأنهم يستدلون بفقهها على سفورها ، مع أن زعيم السفوريين قاسم أمين يقصر الحجاب فى شريعة الإسلام على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم . فهل عائشة أم المؤمنين التى إن كان فى الإسلام حجاب فهى مأمورة به حتى فى اعتراف أول قائم بفتنة السفور .. هل سيدتنا عائشة هذه كانت فى ظن الرصافى والشيخ محمد رجب البيومى مثالا رائعا للمرأة الجديدة الناهضة عارية الساقين عارية العضدين عارية السحر والنحر

إلى مفترق الثديين على أن تكون الغاية داخلة فى المغيا؟ .. ولنا كلام آخر مع قاسم أمين فى غير هذا المكان من الكتاب .

* * *

نعود إلى أساس الموضوع : ولدينا مثال آخر يسفر عن أهمية العقيدة وهو معلوم أن المثقفين المصريين مغرمون بمحاربة الحكم الشرعى القائل بجواز تعدد الزوجات ؛ وأخيراً قام أحد الباشوات الكبار يسعى لاستخراج تحريمه من آية التحليل نفسها أعنى قوله تعالى فى أوائل سورة النساء : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » وهو ضلال جديد بناه على غاية من الغرابة فى تفسير تلك الآية، وكان أصحاب الضلال القديم يستخرجونه من قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » فى مكان آخر من سورة النساء أيضا، جمعا بينه وبين قوله عقب القول الأول : « فإن لم تعدلوا فواحدة » ولم يمنع الباشا من سعيه الغريب المكابر ولا الضالين الأولين ماجرى طول تاريخ الإسلام من العمل بتعدد الزوجات .

وادعى الأستاذ عبد المتعال الصعيدى من علماء الأزهر فى مجلة « الرسالة » أن أولى الأمر يملكون تحريم التعدد لا من الطريق الذى سلكه الباشا من طريق المحافظة على العدالة ورعاية المصلحة . وخالفهما أي الباشا والأستاذ الدكتور زكى الدين بدوى نافياً عن أى جهة أن تملك تحريم ما أحله الله .

وأنا أقول إن ما يذكرونه من المصلحة فى تحريم تعدد الزوجات أن الزوجة الأولى يشق عليها أن تشاركها فى زوجها امرأة واحدة على أنها زوجة ثانية ، أكثر من مشاركة ألف امرأة على أنهن خليلات ، كما سمعت هذا القول فعلا من كاتب مصرى معروف سبق أن ناقشته فى الجرائد دفاعاً عن مبدأ التعدد الإسلامى وكتبته فى « قولى عن المرأة » والمفهوم منه أن هذا المبدأ يشق على أعدائه من كُتّاب المسلمين المصريين

قبل الزوجات الأولى وإن السبب الحقيق لمعاداتهم عدم اتفاق هـذا المبدأ مع عقليات الغربيين التى يهتم بها كتابنا منذ زمان أكثر من اهتمامهم بعقليات المسلمين .

أما ظلم الرجل على زوجته الأولى بعـد تزوج الثانية فلأولى الأمر أن يمنعوه بما يملكونه من الطرق الأخرى المشروعة ، لا من طريق تحريم الحلال الذى لايملكونه ويعدونه مصلحة يصادمون بهـا النصوص فيصدمونها .. مع أن تحريم التعدد يسوق الرجال الذين لا يكتفون بالزوجة الواحدة إلى اتخاذ خليلة له بدل الزوجة الثانيـة بل خليلات ، وتساعده إباحة السفور للنساء مع تحريم التعدد على الرجال . ولا شك فى انتشار الزنا فى بلاد تسفر نساؤها ويمنع رجالها من تعدد الزوجات ، فيتضمن هذا المنع مفسدة أكبر من المصلحة التى يبنونه عليها وهى انتشار الزنا فى بلاد الإسلام ، فهل يملك أولو أمرها إباحة الزنا ، كما يملكون تحريم تعدد الزوجات على رأى الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ؟ وهل يقول الأستاذ كما قال الكاتب الذى ناقشته من قبل : إن المرأة يهون عليها أن تكون لزوجها ألف خليلة ويشق عليها أن تكون له زوجة واحدة أخرى؟ أو هل يصدق الأستاذ وجود كرامة فى مثل هذه المرأة لايكون من حق الزوج أن يدوسها كما يدعى أعداء مبدأ التعدد ، بل يكون لأولى الأمر فى سبيل المحافظة على هذه الكرامة المزعومة أن يحرم حلالا كمبدأ التعدد ويحلل حراما كانتشار الزنا فى البلاد أو على الأقل كالتغاضى عن انتشاره ؟

والشاهد المستفاد من هذا البحث لموضوعنا ـ وهى أهمية العقيدة بالنسبة إلى العمل ـ أن تحريم الحلال كفر كتحليل الحرام لأنهما معارضة لقانون الإسلام ورفض لحكم الله ، والتورط فى الحرام فعلا معصية دون الكفر . فإذا استهتر أولو الأمر فأحلوا حراماً وحرموا حلالا تقليداً لسنن الغرب وقام الناس بالعمل على مقتضى التيار الجارف كان التحليل والتحريم اللذان هما حصة أولى الأمر من هذا التحول المعارض

لحكم الله ، كفراً والعمل بموجبهما من غير اعتراف بصحتهما وكونهما حقا وصوابا وإنما استصعابا لمخالفة الجمهور كما ذكرناه فى فتنة السفور أو اتباعاً لشهوات النفس ـ معصية دون الكفر لا ييأس مرتكبها من عفو الله ومغفرته .

فنحن المهتمين بصحة العقيدة التى يمتاز بهـا الإسلام على اللادينية أولا والأديان الضالة ثانيا ، كما عُنينا فى هذا الكتاب بإزالة شكوك الملاحدة فى وجود الله وشكوك أشباههم المنكرين بنبوة الأنبياء فى إنكارهم المعجزات فأسسنا عقيدة الألوهية والنبوة على أساس علمى يفوق علم الملاحدة الحديث الذين يقعون به فى تلك الشكوك ـ فكذلك نستخرج من الأعمال التى تقابل العلم والعقيدة ، ناحية اعتقادية فنلفت إلى الاهتمام بالمحافظة على صحة هذه الناحية عند صحة الناحية العملية وعند فسادها ، أما عند صحة العمل فلكون صحته مبنية ومتوقفة على صحة العقيـدة . وأما عند فساد الناحية العملية فلأن صحة الناحية الاعتقادية تلافى إلى حد لا يستهان به ما فى العمل من الفساد ... فنحن باستجلاب الاهتمام إلى صحة العقيـدة حتى فى العمل ، نخدم طلاب الحق والصلاح من المسلمين المبتلَين فى الزمان الفاسد بفساد الأعمال ونقيهم من الهلاك التام ، ولا نخدمهم بالبحث عن طريق التجويز والتصحيح لأعمالهم الفاسدة .

ثم نقول لمفضلى المصلحة على النصوص عنـد تعارضهما ، الواجدين فى تفضيلهم هذا طريقاً إلى جعل الإسلام ديناً خالداً يأتلف بكل تجديد فى كل عصر .. كسعادة عبد الرحمن عزام باشا مؤلف كتاب « رسالة سنة الله الخالدة » وفضيلة مفتى حضرموت كاتب المقالين فى مجلة « الرسالة » ـ تأييداً لسعادته فيما دار بينه وبين الأستاذ بهجت الأثرى ـ ثم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى المعطى لأولى الأمر حق تحريم ما أحل الله فى تعدد الزوجات ، وقبلهم الأستاذ فريد وجدى بك صاحب كتاب « الإسلام دين عام خالد » والقائل : « لا يوجد تجديد إلا ويسعه صدر الإسلام الرحب » حتى إنه هتف

حكومة أنقرة الكمالية عند إعلانها قبل ربع قرن ، جمهورية لا دينية تلغى الخلافة الإسلامية والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية .. وعند ما عادت أخيراً تتظاهر ببعض آثار الرجوع إلى الدين ، وإن كان لا يؤمن لجديتها إلا الغافلون ، والأستاذ يهتف بتلك الحكومة فى حالتيها أى على خروجها من الدين جملة ثم عودها إليه بنسبة واحد فى المائة وبعد كليهما من الإسلام .. وقد سمعت أن الأزهر الجديد الذى أسسه أستاذه الأكبر المراغى اتخذ مسألة التعارض بين النص والمصلحة مادة امتحانية لطلاب تخصص القضاء فى آخر هذه السنة الدراسية (١٩٤٨) !..

ونحن نقول لهؤلاء العلماء المصريين : أى مصلحة يراها أىُّ فريق من أولى الأمر وتفضلونها أنتم على النصوص ؟.. فهذه تركيا الجديدة قد سن أولو أمرها قانوناً يبيح زواج غير المسلمين بالمسلمات ، ولهم فى ذلك طبعاً مايسمونه المصلحة .. وفى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية من لا يزالون يعدون تركيا دولة إسلامية .. ثم إن الدول الإسلامية الحاضرة غير تركيا الجديدة تنتابها ما نابت تركيا من داء التقليد للغرب حتى قضى على دينها ، وأول دليل على هـذا أن تلك الدول لم تقم بواجب النصيحة نحو تركيا قاطعة صلتها السياسية عنها عند إعلانها عن نفسها جمهورية لا دينية والدليل الثانى أن تلك الدول أيضا قد دخلت منذ زمان فى طريق فصل الدين عن السياسة وقطعت فيها مراحل ...

فلنفرض أن واحدة من تلك الدول سن أولو أمرها ــ لا قدر الله ــ ماسنت تركيا فى زواج غير المسلمين بالمسلمات ، وهم لايعدمون مصلحة فى ذلك على زعمهم كما لاتعدم تركيا الجديدة . فماذا يكون قول مفضلى المصلحة على النص عند تعارضهما فى هذه المسألة المفروضة ؟ وماذا يكون فيها قول الأستاذ الأزهرى عبد المتعال الصعيدى المخول لأولى الأمر قلب الحرام حلالا والحلال حراما لمصلحة يتصورونها فى القلب ؟ والمسألة

جامعة لشروط الأستاذ فى التخويل والتفضيل : أولو الأمر والمصلحة! بل ماذا يكون قولهم وقوله عند ما فرضنا أن أى دولة من تلك الدول أراد أولو أمرها حذف المادة من دستورها القائلة بأن دين الدولة الإسلام وإضافة مادة إلى قانونها المدنى ـ بدلا من المادة المحذوفة عن الدستور تجعل كل من بلغ سن الرشد من أفراد الأمة ، حراً فى اختيار أى دين شاء ؟ كما فعلته تركيا الجديدة أيضا . ولا تسل عن المصلحة فى هـذا الحذف والإضافة ، فـكل تجديد فى عصرنا يتضمن مصلحة يرغب فيها العصريون ولو كانوا من علماء الدين ، لا سيما التجديد الذى يهدف إلى تقليـد الغرب القوى من الشرق الضعيف ، كما سبق فى مسألتى السفور وتعدد الزوجات .

فهذا ما يؤدى إليـه ترجيح المصلحة على النص ، فيجعل الإسلام لا مبادىء له ثابتة بل تابعة لتصرفات الحاكمين فى كل عصر .. يستخدمه من شاء إلغاء أي حكم من الأحكام التى شرعها الله فى الإسلام إلى أن يلغى الإسلام نفسه .. وهـذه سبيلى فى الفصل بين المسلمين المحافظين والمجددين الذين يرمونهم بالجمود ، أناضل الرامين بطريقة عقلية تـكشف عما يستره مشروعهم من مفسدة أعظم ممـا يظهرونه من المصلحة .

يقول الأستاذ عبد المتعال ماممناه قد فسد الزمان وفسدت أخلاق الرجال فاتخذوا ماحل لهم من الجمع بين عدة زوجات أداة لظلم الزوجات الأولى .. ففى مثل هذا الزمان يكون من حق أولى الأمر أن يحرموا عليهم ذلك الحلال القديم ... كما كان من حقهم فى عصرنا هذا قبل سنوات ، إلغاء الطلقات الثلاث بلفظ واحد واعتبارها واحدة ، بعد أن جرت الأحكام على وقوعها مجموعة منذ سيدنا عمر الذى كان هو الآخر قد غير الحكم الجارى فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلافة أبى بكر وصدرِ خلافة عمر نفسه، على وقوعها واحدة .. ولـكن الناس خالفوا ذلك فأوقعوها ثلاثاً ، فامضاها عمر عليهم

عقوبة لهم وأخذ الأئمة الأربعة بحكم عمر .. ثم أصبح حكم أولى الأمر فى زماننا باعتبار الثلاث واحدة ، رجوعا إلى ما كان فى عهد النبى وأبى بكر وموافقاً لمصلحة منع الناس عن الإسراف فى الطلاق .. هكذا قال الأستاذ عبد المتعال .

وأنا أقول يحاسب الأستاذ فساد أخلاق الرجال بفساد الزمان فيعتبر حكم أولى الأمر بتحريم ما كان حلا لهم من تعدد الزوجات ـ إذا حكموا ـ حقا موافقا للمصلحة ولا يحاسب الفساد فى أولى أمر الزمان الفاسد ولا ما أصبح فيه كثير من المفاسد مصلحة !.. وقد أوردنا نماذج منها .

ولا نقبل عنه ما عُزي إلى سيدنا عمر من تحريم ما حلّ أو تحليل ما حرم فى عهد النبى وأبى بكر لأن الشارع فى الإسلام واحد وهو الله الذى لا يتصور له الخطأ فيما بلّغه بواسطة نبيه ، وقد يخطئ النبى فى اجتهاده ثم لا يلبث أن يصحح خطأه من عند الله فى عهده بله أن يلبث التصحيح إلى عهد عمر أو يكون من عند عمر !..

ولا نقبل أيضاً ما عزى إلى عمر من إمضاء الطلقات الثلاث ثلاثاً ، مخالفاً لاعتبارها فى عهد النبى وأبى بكر واحدة . ونبنى عدم قبولنا على أساس عقليتنا الدينية غير القابلة لكون عمر ينقض ما بناه النبى .. لا على ترجيح ما رواه المحافظون من أن الطلقات الثلاث الواردة بلفظ واحد كانت تعتبر فى عهد النبى وخليفته الأول أيضاً ثلاثاً كما أمضاها عمر ، ولو بنيناه على ترجيح هذه الرواية كان حقا ولكنه لا يكفى فى إسكات غير المنصفين من أنصار المصلحة إذا أصروا على ترجيح الرواية المرجوحة وكان ما فعلتُه عبارة عن مقابلة رواية برواية أخرى ، مهما كان إحدى الروايتين أقوى ولم تكن مقابلة حاسمة .

وقد رأينا الأستاذ عبد المتعال يذكر مثالا ويستشهد به على ما ادعاه فى قوله : « نعم نملك تحريم تعدد الزوجات » رداً على الدكتور زكى الدين المستنكر لهذه الملكية

وهو أن الطلقات الثلاث بلفظ واحد قد ألغيت قبل سنين بقرار من أولى الأمر واعتبرت تطليقة واحدة ، بعد أن اتفقت مذاهب الأئمة الأربعة فى وقوعها مجموعة وجرى العمل عليه فى البلاد الإسلامية التابعة لتلك الأئمة الأربعة على طول التاريخ إلى أن جاء هذا العصر فرأى أولو الأمر إلغاء الثلاث . فكأن الأستاذ يقول: وهكذا يفعل أولو الأمر فتلغى إباحة تعدد الزوجات كما ألغيت الطلقات الثلاث بلفظ واحد وينتهى الكلام فى المسألتين كما سكت الدكتور زكى الدين فى الشوط الأخير من النقاش. وأنا أقول فإن كان المحافظون لم يعترفوا بمصلحة الإلغاء فى الطلقات الثلاث كما انتقده فضيلة صديقنا الشيخ زاهد الكوثرى وقضى عليه علميا بتأليف مستقل سماه « الإشفاق على أحكام الطلاق » فالأستاذ عبد المتعال يرى جانب أولى الأمر أقوى ويعتبر كتاب فضيلة الصديق صرخة فى واد ، فيتجاهل عنه بالمرة . أما الحق فهو عند الأستاذ يدور مع المصلحة والمصلحة فى أيدى أولى الأمر يقلبونها كما يشاءون وقد سبق منا أمثلة من تقلباتها يعتبر فيها المعتبرون .

١٠

ولا يسعنا أن نختم الكلام فى الدفاع عن العقل وعلماء علم الكلام قبل أن نضيف إليه كلمة دعتنا إليها مقالتان نشرتهما « مجلة الأزهر » فى الجزء التاسع والعاشر من المجلد الرابع عشر بعنوان « نقد متعلمى الإسلام لقانون الفكر الأرسططاليين » لأحد المدرسين بجامعة فاروق ادعى كاتبهما دعوى غريبة قائلة بأن متكلمى الإسلام انتقدوا منطق أرسطو فى أعظم مبدأين من مبادئه وهما استحالة اجتماع النقيضين واستحالة ارتفاعهما .

ولا أدرى بالضبط أن مراد الأستاذ كاتب المقالتين الطعن على منطق أرسطو مع الطاعنين المتكلمين فى زعمه بإثبات إمكان ما ظنه أرسطو مستحيلا ، أم الطعن على

المتكلمين فى إنكارهم استحالة ما لا شك فى استحالته؟ وعلى كلا التقديرين أراد الأستاذ ابتكار الكشف عن الخلاف بين منطق أرسطو ومتكلمى الإسلام فى أعظم أساسين من أسس ذلك المنطق بل عن الخلاف بين العقل والمنطق وعلى الأقل بينه وبين عقل المتكلمين . وقد ذكر أمثلة من أقوال المتكلمين ومذاهبهم فى سعة قدرة الله وموقف صفاته من ذاته واختلافهم فى إثبات الحال المتوسط بين الموجود والمعدوم ونفيه .

وأنا أقول استخراج الطعن والاعتراض من أقوال متكلمى الإسلام على منطق أرسطو فى مبدأ استحالة التناقض جمعاً أو رفعاً ، وهمٌ لا يعادله وهم واهم فى الدنيا ، كما أن قول كاتب المقالتين عن مذهب المتكلمين الأشاعرة : « إن سلطان قدرة الله يجمع بين الاثنين معاً الممكن والمستحيل، فللقدرة الإلهية أن تجمع بين الوجود والعدم وتجمع بين القدرة والعجز ، وتجمع بين العلم والجهل .. وبهذا قضت الأشاعرة على مبدأ عدم الجمع بين النقيضين قضاء تاما » فرية مافيها مرية ، ناهيك قول المؤلفين على مذهب الأشاعرة من أصحاب المتون فى بيان قدرة الله : « قادر على جميع الممكنات » وقول الشراح : « إن الممكنات احتراز عن المستحيلات » ومن المسائل المعروفة فيما بين علماء الكلام أن المستحيل لا يكون متعلقًا لقدرة الله .

إن كان الأستاذ كاتب المقالتين يرى فى أى مذهب من مذاهب المتكلمين أنه يتضمن التناقض جمعا أو رفعا كان واجبه إبطال ذلك المذهب ورده على أصحابه بدلا من تفسيره بأنه نقد منطق أرسطو ونقضه فى مبدأ التناقض، لأن هذا المبدأ أقوى وأرفع من أن يدركه النقد والنقض ، كما أن متكلمى الإسلام أعقل من أن يعترضوا على منطق أرسطو ويخالفوه فى مبدأ التناقض، لأنه أعرف وأشهر المبادئ الأولى التى أجمع علماء الغرب مع علماء الشرق على كون المناقشة ضدها تعد غرابة وهذيانا . وليس مبدأ

التناقض بمبدأ أرسطو فقط بل من مبادئ العقل البشرى التى فطر الله الإنسان عليها، فمن حاول نقده فقد رجع النقد على نفسه .

ولا يرد علىّ أن وجود الريبيين فى فلسفة اليونان وفى فلسفة الغرب مع (هيوم) و(هيجل) يجعل استحالة التناقض أمراً مختلفاً فيه متردداً بين مذهبي النفى والإثبات ، لا مذهبا عاما بشريا ... إذ لا مذهب للشاك يثبت عليه ويقطع به . والقطع فى مذهب الشك ليس بمذهب بل قطع بنفى المذهب . ولذا قال اسپنوزا إن واجب الحسبانى أى الريبي السكوت ، وقال أرسطو إن الحسبانى الذى لا يقرر على شىء ويؤمن بما قاله ولا يؤمن به معا .. لا يمتاز على النبات .

والحق إنه لا يوجد عاقل ينكر استحالة التناقض فإن أمكن اعتراء الشبهة على هذه الاستحالة انهار علم البشر من طريق البرهنة على ثبوت أى مسألة يقينية ، لأن اليقينيات الضرورية فى مسائل العلوم تستند إلى كون خلافها مستلزما للتناقض .. حتى إن مسألة إثبات وجود الله مبنية على أساسين : لزوم الرجحان من غير مرجح فى وجود العالم ثم لزوم التسلسل على تقدير عدم وجود الله ، وهما مستحيلان لانطوائهما على التناقض المستحيل كما نبينه فى محله من هذا الكتاب ، فلو أمكن عدم استحالة التناقض لما أمكن إثبات وجود الله .

ولهذا فإنّ توهم الأستاذ من بعض مذاهب المتكلمين أن أصحاب تلك المذاهب انتقدوا منطق أرسطو ونقضوه فى مبدأ التناقض ، يكون اعتداء عليهم وعلى مذهبهم فى صورة الاعتراض على منطق أرسطو وهم لا يقبلون ولا يرضون أى توجيه لمذهبهم يتضمن مثل هذا الاعتراض ، والاعتراض على المنطق إنما هو شأن أساتذة مصر العصريين لا علماء الإسلام المتكلمين .

نعم ، ربما يكون من أصحاب المذهب فى العلوم أنهم عند النقاش فيما بينهم ينسبون

المختلفين عنهم فى المذهب إلى التناقض اتهاما لمذهبهم بمخالفة مبدأ التناقض لا اتهاما لمبدأ التناقض بمخالفة مذهبهم .. ربما يكون ذلك ثم يتعقبه جواب المتهَم ساعياً لتبرئة مذهبه عن مخالفة مبدأ التناقض المسلم به عند جميع العقلاء . ولا يخطر ببال أحد من أصحاب المذاهب المختلفة أن يشذ فى مذهبه فيخترق به مبدأ التناقض . انظر ما قاله الفاضل الكلنبوى فى تعليقاته على قول المحقق الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية عند قول القاضى عضد : « متصف بجميع الصفات الكمالية » : « ... ولكنهم تخالفوا فى كون الصفات عين ذاته أو غير ذاته أو لا هو ولا غيره فذهب المعتزلة والفلاسفة إلى الأول وجمهور المتكلمين إلى الثانى والأشعرى إلى الثالث » فقال الكلنبوى تعليقاً على قول الشارح « أو غير ذاته » : « أى ما يطلق عليه فى الشرع والعرف واللغة أنها غير ذاته إطلاقاً حقيقيا كما يدل عليه سياق كلامه من أن الغير لا يطلق فى الشرع والعرف واللغة إلا على الموجود الذى من شأنه الانفكاك عند الأشعرى وعلى ما ليس بعين عند غيره ، فلا يرد عليه أن يقال إن أريد بالغير المعنى المصطلح أعنى جائز الانفكاك فقوله : « وجمهور المتكلمين إلى الثانى » محل نظر ، إذ لم يذهب أحد من المتكلمين إلى جواز انفكاك الصفات عنه تعالى ، وإن أريد المعنى اللغوى أعنى نقيض هو هو فقوله : « والأشعرى إلى الثالث » محل تأمل ، لا لما قيل « فإنه ليس بمختص بمذهب الأشعرى بل مذهب جميع الأشاعرة والماتريدية كذلك» بل لأن مذهب الأشعرى على هذا المعنى يستلزم التناقض فكيف يكون مذهباً له ولغيره . »

فإذن لا وجه يُعقل لفهم كاتب المقالتين موقف متكلمى الإسلام من منطق أرسطو على أنه موقف النقد والاعتراض ولا لانتشار المقالتين فى مجلة الأزهر من غير أي تعليق عليهما من المشرفين على المجلة .. لا وجه يعقل إلا أن كلهم لا يعرفون مذاهب المتكلمين المذكورة على وجه الصحة ولا منطق أرسطو ولا حقيقة مبدأ التناقض المستجمع

لشروط استحالته ولا درجة قيمته فى العلوم ولا مركزه فى العقل البشرى غير القابل للنقد والاعتراض ، وقد هان على كل من الكاتب وأصحاب المجلة تصور الخلاف بين متكلمى الإسلام ومنطق أرسطو بعد أن راجت الاستهانة بالمنطق فى أوساط مصر العلمية الحديثة .

ولعل الحقيقة أن السائد فى جو هذه البلدة المنكودة الحظ منذ عهد الشيخ محمد عبده الذى دالت إليه دولة الزعامة العلمية بها على الرغم من كونها عريقة فى العلوم الإسلامية منقولاتها ومعقولاتها وكون الشيخ ريبيا كما ذكره فضيلة الشيخ زاهد فى إحدى مقالاته المنشورة فى مجلة « الإسلام » نقلا عن اللورد كرومر ، ويؤيده ما ذكرنا فى هذا الكتاب من أنه كان ينكر استحالة التسلسل فى شكله المجمع على استحالته ، لأن إنكار استحالة التسلسل معناه إنكار استحالة التناقض ، بناء على أن التسلسل ينطوى على التناقض .. إن السائد فى جو مصر منذ ذلك العهد عدم الاستيقان بأى شىء والشك فى كل شىء . ناهيك بشك محمد عبده فى بطلان التسلسل وناهيك بشك مدرس فى الجامعة فى استحالة التناقض وناهيك فى شكه فيها بتفسيره لمذاهب المتكلمين بنقد منطق أرسطو فى مبدأ التناقض وناهيك دليلا على كون الفساد مستوليا على الجو انتشار مقالتيه فى « مجلة الأزهر » .

ولا يظن كون الشيخ محمد عبده ريبيا ولا إنكاره استحالة التسلسل ابتكاراً من عنده ، فلعله رأى أن أكبر فلاسفة الغربيين فى أقرب العصور السالفة وأعنى به « كانت » ينكر استحالة التسلسل فأنكرها[1] ، ورأى الحسبانية التى ظهرت

---

[١] مع أن « كانت » لا ينكر استحالة التناقض وإنما غفل عن كون التسلسل الذى أنكر استحالته يتضمن التناقض ، ويلزم أن يكون الشيخ محمد عبده كذلك .

فى فلسفة اليونان ثم قضوا عليها ثم ظهرت ثم قضوا عليها ثم انتقلت إلى فلسفةالغرب وبقيت إلى ان قضى عليها « ديكارت » ثم ظهرت على يد « داڤيد هيوم » ولم يدخل هذا الوباء فى فلسفة الإسلام ، فعلماؤنا رحمهم الله أخذوا ما أخذوه من فلسفة اليونان خالصاً من لوث الحسبانية .. رأى الشيخ محمد عبده هذه الحسبانية فى فلسفة الغرب ارتدت عند « كانت » الذى تولى معالجتها ، ثوباً جديداً[١] ثم ازدهرت تحت هذا الشكل فى فلسفة « هيجل » وهو الذى نفى اليقين فى كل شىء حتى فى استحالة التناقض وفى كون اثنين فى اثنين يساوى أربعة وصدّق أحدثُ آراء العلم الحديث هذه الفلسفة كما يأتى ذكره فى هذا الكتاب نقلا عن « قصة الفلسفة الحديثة » فصارت نتيجة هذه العقليات الفلسفية فى الغرب أن جعلت إمامَ مصر الحديثة ريبيا .

ولا يجوز أن تعتبر هذه الحالة فىفلسفة الغرب التى أوقعت رجلا من علماءالمسلمين فى هوة الحسبانية معذرة للأستاذ كاتب المقالتين مخففة لخطأه الفاحش ، لأن خطأه الذى لا يغتفر هو فى توهم كون الخلاف الحادث أخيراً بين فلسفة الغرب وبين منطق أرسطو المسفر عن إفلاس الفلسفة فىالغرب ، قد حدث مثله فىفلسفة متكلمىالإسلام! فلا يعنينا كون الفلسفة تجننت فى الغرب فأنكرت اليقين والضرورة المطلقة فىالدنيا واكتفت بالظن الغالب والاحتمال الراجح فى جميع معلومات الإنسان حتى أصبح وجود الله عند المؤمنين به احتمالا راجحا بالنسبة إلى عدم وجوده غير بالغ مبلغ اليقين القطعى الذى يستحيل خلافه لعدم وجود المحال وعدم وجود اليقين الضرورى المستند إلى مجانبة المحال وأصبح لذلك كون اثنين فى اثنين يساوى الأربعة أو كون الكل أعظم من الجزء ، غير مقطوع فيهما بالقطعية الضرورية المستحيلة الخلاف .. لا يعنينا

---

[١] يتضح ذلك فى أواخر الفصل الذى عقدناه للنظر فى الحسبانية بين فصول الباب الأول .

كثيراً اعتناق مصر لهذا الجنون تحت زعامة الشيخ محمد عبده ، وإنما يعنينا كل العناية أن لا يتصل شيء من ذلك بفلسفة الإسلام، فلسفة علم الكلام .

أما كون الأمثلة التي ذكرها صاحب المقالتين من مذاهب المتكلمين على أنها مخالفة لمبدأ استحالة التناقض، غيرَ مخالفة له مخالَفة مقصودة ، فإني في غنى عن إطالة الكلام في إثباته وإيضاحه مع كون الكتب الكلامية المعتبرة متولية لهذا الإثبات والإيضاح عند تمحيص تلك المذاهب في أمكنتها الخاصة من تلك الكتب . ولا يعنيني في كلمتي هذه التي لفتُّ بها النظر إلى خطأ كاتب المقالتين وغفلة أصحاب مجلة الأزهر كون هؤلاء المتكلمين أخطأوا أو أصابوا ، وحسبي في إثبات وقوع الكاتب نفسه في أعظم خطأ من الشذوذ الفكري ووقوع المشرفين على المجلة في غفلة عظيمة ، حسبي في كل ذلك أن تكون المقالتان قد سيقتا بنصهما وعنوانهما كتفسير مذهب المتكلمين في الأمثلة المذكورة بإحداث مخالَفة منهم لمنطق أرسطو ونقده في أعظم مبادئه ، في حين أن هذه المخالفة لا يرضاها أصحاب تلك المذاهب قطعا وفي حين أن هذه المخالفة وذاك النقد لا يتصور صدورهما من عاقل .

١١

ومن راجع العدد ١٥٥ من (أخبار اليوم) رأى صفحةً تعرض عواصف حول الكتب المقدسة تحت عنوان « مطران انجليزي ينكر المعجزات » وتعرض طالباً أو معيداً بجامعة فؤاد مسمى خلف الله يقدم إلى كلية الآداب رسالة عن الفن القصصي في القرآن للحصول على دكتوراه فيتهمه الناس بالكفر والإلحاد وهو يلتجئ إلى الكاتب القصصي توفيق الحكيم .

وخلاصة الصفحة أن قصة موسى في سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة بل ابتُدعت على غير أساس من التاريخ وأن ما تمسك به الباحثون

المستشرقون ليس سببه جهل محمد بالتاريخ ، بل قد يكون من عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقعُ التاريخى ولا الحرصُ على الصدق العقلى . وإنما ينتج عمله ويبرز صورته بما ملك من الموهبة الفنية[1] والقدرة على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل !!

ثم قال الكاتب : «وقد طالبه البعض بحرق الرسالة على مرأى ومشهد من أساتذة وطلبة كلية الآداب . وطالب آخرون بفصل الأستاذ خلف الله .. وقد طلبت جريدة (الإخوان المسلمون) باتخاذ إجراءات حاسمة وقالت : إذا ثبت أن ما نقل عن رسالة الفن القصصى فى القرآن الكريم قد ورد فيها كما نقل فلا يكفى أن يحرقها مؤلفها بيديه أو بيدى غيره على مرأى ومشهد من الأساتذة والطلاب ، بل لابد أولا أن يعلن رجوعه إلى الإسلام ويجدد عقد نكاحه على زوجته إن كان متزوجا وأن يقوم بكل ما يقوم به من ارتكب جريمة الردة عن دين الإسلام » .

ثم ذكر الكاتب ردا على هذه الطلبات بما يدل على أن العادة فى مصر رجوع المتهمين فى أمثال هذه الحادثة عن مطالباتهم ، بدلا من رجوع أصحاب الجريمة ، فقال: «وليست هذه الحركة هى الأولى من نوعها فى مصر ، فقد سبق أن ألف الأستاذ على عبد الرازق وزير الأوقاف الحالى كتابا عن الإسلام وأصول الحكم فقامت قيامة الأزهر واحتجت هيئة كبار العلماء وفصلته ، واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيور باشا احتجاجا على الفصل وأقيل وزير العدل عن منصبه ، وكان عبدَ العزيز فهمى باشا ، بهذا السبب .

« وحدث مرة أخرى أن ألف الدكتور طه حسين بك كتابا عن الشعر الجاهلى

---

[١] غير خاف على القارئ اليقظ أن كاتب الصفحة أو الرسالة يدير قلمه ويبنى قوله على أن القرآن تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نادت بذلك تنحيته عن الجهل بالتاريخ وتحليته بالموهبة الفنية .

شك فيه فى بعض المعتقدات فقامت قيامة البرلمان وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه ، فهدد عدلى باشا رئيس مجلس الوزراء بالاستقالة حماية للبحث العلمى . »

ومن عجائب المصادفات فى هذه الآونة الأخيره أن مطرانا انجليزيا قام — قبل كاتب الصفحة فى أخبار اليوم ، كأنه يؤيد المرتد المصرى صاحب الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب — يعد قصة قيام عيسى بعد قتله ، قصة وهمية ، وينفى أن السيدة كانت عذراء كما أنه قال إن أبحاثه أظهرت أن كل المعجزات هى اشاعات عامّية سخيفة وأن الفن القصصى يلعب دورا هاما فى صياغتها وقالت الصحف عن قول كبير الأساقفة ضد المطران: هذا لايصح أن يكون ردا على أبحاثه فى كتابه ، كما أشارت تلك الصحف إلى أن مؤتمر الكنيسة الذى اجتمع عام ١٩٢٢ واستمر ١٤ عاما قرر عدم الأخذ بحرفية الإنجيل .

أقول ولم يختلف صوت الأزهر فى حق الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب على ما نقله كاتب الصفحة فى أخبار اليوم عن فضيلة الشيخ شلتوت والمفتى السابق ، عن قرار مؤتمر الكنيسة على عدم الأخذ بحرفية الإنجيل.. كما أن المطران الإنجليزى القائل بكون كل المعجزات إشاعات عامية سخيفة ، قد سبقه فئة من كتاب المسلمين وعلماء الدين الذين أنكروا المعجزات .

وزاد صوت الأزهر فوعد لصاحب الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب والقائلة بأن القرآن لا يهمه فى قصصه أن تعتمد على أصل واقع من الحياة وعلى أساس معترف به من التاريخ بعد أن كانت مبتدعة على صيغها الفنية وابتكاراتها الخيالية طبق ماهو مهمة الرواة الفنيين ... زاد فوعد له أجرا واحدا إن أخطأ وأجرين إن أصاب ، شأن المجتهدين فى الإسلام ، وهذه الفتوى الأزهرية يتعزى بها فى أخبار اليوم (١) على الرغم

[١] وقد روى فى مجلة « الرسالة » نفى أحد هذين العالمين الأزهريين أو كلاهما ما عزى إليهما من القول المساعد لصاحب الرسالة المقدمة . لكن نبأ النفى إن صح كان الواجب عندى نشره من جانب النافين باهتمام يتناسب مع أهمية الموضوع .

من أن الأستاذ الشائب أستاذ الآداب في الجامعة وجماعة الاخوان المسلمين حكموا بارتداد صاحب الرسالة عن دين الإسلام ، كما أن قول الأستاذ أحمد أمين بك الذي تولى فحص الرسالة مع الأستاذ الشائب لا يقل في التشديد عليها عن قول زميله .

ثم التجأ صاحب الرسالة إلى الكاتب القصصي الأستاذ توفيق الحكيم كآخر مرجع لرفع قضيته وأكبر مفت في البلاد المصرية غير مفتيها الأكبر من اختصاصه النقض والإبرام في المسائل المعضلة الدينية : فقال هذا الأستاذ بعد أن عد اختلاف الطرفين في تفنيد صاحب الرسالة وتأييده ، تحرراً لرجال الأزهر ورجعية وتأخراً لرجال الجامعة، ورأى الأمرَ يدعو إلى العجب لاسيا بعد ضم حادثة المطران الإنجليزي المنكر لمعجزات المسيح عليه السلام إلى حادثة الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب ، ورأيِ جامعة مصر فيها ، لحد أنه لا يدهشه أن يسمع غداً بقيام أساتذة جامعة لندن يفتون بأن ذلك المطران يستحق أن يحرق حيا !.. قال « ما الذي حدث الآن بالضبط في عقول الناس ؟

« رجال التعليم الروحي — كالمطران الإنجليزي وعالمين من كبار علماء الأزهر يريدون الخروج إلى نور المنطق العقلي ، ورجالُ العلم العقلي — كرجال جامعة مصر الحاضرين القائمين ضد صاحب الرسالة — يريدون الدخول إلى معبد النور الإلهي ... إنه ولاشك عصر الجشع.. كل طائفة لاتقنع بما في يدها وتنظر إلى ما في يد الآخرين. حتى في المسائل العقلية والدينية . »

ثم قال: « إني أفهم موقف علماء الإسلام (يعني الذين انحازوا إلى صاحب الرسالة ولم يقولوا ضده) فهم يفتون طبقاً لقواعد مقررة في هذه الرسالة الجامعية ، وشاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا النصوص القديمة بأضواء جديدة .. دون أن يحيدوا عن روح الدين وجوهر العقيدة .. ولكن الذي لست أفهمه هو موقف أساتذة الجامعة الذين

يحكمون بالكفر على طالب جامعى ويطفئون بأيديهم الجامدة مشعل الحرية الفكرية الذى هو صلب عملهم وعمود رسالتهم .. ولئن استطعت أيضاً أن أفهم هؤلاء ، فإنى لاأستطيع أبداً أن أفهم موقف المطران الإنجليزى الذى يحلل المسيحية كما يحلل تاجر الزيوت فن رفائيل أو تاجر المسرح فن شكسبير .

« لماذا يهدم المطران الوقائع التاريخية فى الدين؟ وهو الذى يجب أن يعلم أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشرى ... » ثم قال : « ما قيمة اكتشافات المطران بارنز بالنسبة إلى الحقيقة الدينية ؟.. إذا كان هذا المطران رجل دين حقا لفهم ذلك ، ولكنه فيما يبدو لم يخلق للدين .. ولكن لمهمة أخرى ... وإنى أرشحه لمهمة الصحافة لأنه ولاشك قد خلق لها دون أن يشعر .. »

هذا ما نقلته ملخصا من أخبار اليوم متعلقا بالرسالة المقدمة إلى كلية الآداب والضجة المثارة حولها .. وإنى أتعجب من الأستاذ توفيق الحكيم المتعجب ممن شاء وغير المتعجب ممن شاء ، كونه يعذر الخروج على دين الإسلام من صاحب الرسالة ويعذر العالمين الأزهريين اللذين يجعلان من هذا الخارج على الإسلام مجتهداً يستحق أجراً واحداً على الأقل .. ولا يعذر أبداً المطران الإنجليزى الخارج على الدين المسيحى!

ومن عجائب الأستاذ كونه يرى أن ذلك المطران لم يخلق للدين فيرشحه لمهمة الصحافة كأن الصحفى يجوز له أن يقول فى الدين ما لا يجوز لغيره ، فكأن الدين مسئول عنه رجاله فقط .. ومن أجل هذا يرى للأزهر موقفاً من الإسلام وللجامعة موقفاً مختلفاً عنه .

وإنى لا أقول عن الأستاذ توفيق الحكيم المتطوع للدفاع عن المسيحية حيال حملات المطران الإنجليزى عليها والمتطوع فى الوقت نفسه لمؤازرة الثائرين على كتاب الإسلام ...

لا أقول إنه يفضل المسيحية ويعادى الإسلام ، وإنما أقول إنه لا يعلم الإسلام علمه بالمسيحية[1] وطبيعى أن يكون المرء مدافعاً عما يعلمه ومعاملاً لما لا يعلمه ولا يميز أعداءه من أنصاره معاملة العدو ، وإذا أراد أن يدافع عن الإسلام أيضاً يتكلم عنه بالقياس إلى المسيحية التى يجعلها أسمى من المنطق ومن كل العلوم كما جعل المسيحيون وهو يظن أن علماء الإسلام كرجال الكنيسة فى حاجة إلى الابتعاد عن العقل ،

---

[١] وأخيراً قرأت للأستاذ توفيق الحكيم فى أخبار اليوم كلمة بعنوان « ارتفعوا بالدين » قال فيها « طبل قارئ وزمر وأرعد وزمجر قلقاً على الدين لأنه قرأ فى رثاء عظيم (أنه عاش بالروح كما عاش المسيح ومات مقتولا بيد عشيرته كما قتل المسيح) » ثم قال « ولم يفطن ذلك القارئ إلى أن المقصود هو استعارة صورة لاتقرير حقيقة ، فكتب يذكر بالآية الكريمة (وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم) وهى آية فى الذاكرة لا تنسى ، ولكن من بسطاء القراء من يتوهم أنه وحده الذى يذكر ويعلم . حقا هذه الآية تقول ذلك .. وفسر علماء الإسلام عبارة (ولكن شبه لهم) بأن الذى صلب وقتل هو شخص آخر لا المسيح الذى رفع ، وهذه الحقيقة لم يتعرض لها الكاتب — يعنى نفسه — فهو أراد أن يعرض الأذاء الذى يلحق العظيم من عشيرته وضرب ذلك مثلا بالمسيح الذى آذاه قومه فى شخص ذلك البديل الذى شبه لهم . ذلك أن صورة الاعتداء والإيذاء من العشيرة هى وحدها المقصود بالإبراز .. حتى وإن كان الإيذاء قد وقع على غير المسيح باسم المسيح .. وكان على القارئ المسلم أن يفهم من عبارة « كما قتل المسيح » أن المسيح هنا هو البديل الذى يتفق مع تفسير الإسلام . وللقارئ المسيحى أن يرى الوضع الذى يتفق مع تعليم الكتاب المقدس .. والدين بعدئذ للديان » .

أقول كان الواجب فى زعم الأستاذ على القارئ المسلم أن يفهم من عبارة الأستاذ المكتوبة على أسلوب المذهب المسيحى فى موت المسيح مقتولا المخالف لكتاب الإسلام ، ما يوافق مذهبه أيضا وأن لا يضلله ما تضمنه كلامه فى تشبيه موت غاندى بموت المسيح من ترويج الرأى الذى لايتفق مع الحقيقة وهو موت المسيح مقتولا بيد أعدائه .. ولا ينفع الأستاذ أن هناك مقتولا أيضا وإن كان غير المسيح ، لأن المقصود بالتشبيه هو المسيح لا من قتل بدلا منه .. فالمقتول غير مشبه به والمشبه به غير مقتول ولا مؤذى . . فالأستاذ حاول تشبيه عاقبة غاندى بعاقبة المسيح الذى لا يعلم عاقبته فشبهها بعاقبة غيره من حيث لايشعر .. فكأنه وقع فى مثل التباس أعداء المسيح الذى أرادوا قتله فأخطأوه وقتلوا غيره .. بل الذين أرادوا قتل المسيح فأخطأوا وقتلوا غيره ليسوا من عشيرة المسيح ، فتشبيه غاندى فى مماته لا يستقيم من هذه الناحية أيضا. =

ولهذا أسست الجامعة بجانب الأزهر للمحافظة على الحرية العقلية والمنطقية ، ولهذا أيضاً كان المسموع من صوت الأزهر المقرر إزاء صوت الجامعة المستنكر فى مسألة الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب عن الفن القصصى فى القرآن — عكسَ المتوقع ، حتى التجأ صاحب الرسالة إلى توفيق الحكيم بمقالة عنوانها «أتحررٌ فى الأزهر ورجعية فى الجامعة؟» لكن الرجل وملتجأه قد وقعا فى لبس وبعد عظيمين عن الحقيقة فى تحليل المسألة وتعيين موقف الجامعة والأزهر من الإسلام .. إذ لا يجوز أن يكون للأزهر موقف من الإسلام وللجامعة موقف آخر منه ولا اختلافٌ مع العقل إزاء اتفاق الجامعة معه، بل الأزهر فى موقفه الأصلى القديم أكثر تمسكا بالعقل والمنطق إزاء استخفاف الملاحدة المصريين بأدلة علماء الإسلام العقلية والمنطقية فى إثبات وجود الله ، حين أصبح أولئك الملاحدة متمسكين بالشك استناداً إلى علمهم الحديث القائم على التجربة ، ولى معارك عظيمة فى هذا الكتاب لدحض حججهم بهذا الصدد ، فإن كان الأستاذ توفيق الحكيم المحتكَم إليه ليقول قوله المؤيد للرسالة الخارجة على صدوقية القرآن ، يرغب فى قراءة كتابى اطلع على أنه ليس هناك حقيقة دينية غير مؤتلفة مع الحقائق العقلية ، حتى إن النصرانية الصحيحة المنزلة على سيدنا المسيح غير مختلفة فى ذلك عن الإسلام .. واطّلع الأستاذ أيضاً على أشياء أخرى تنفعه وتحرره من الأغلال التى يرزخ تحتها أفكار المعاصرين التابعين للغرب حتى فى المعلومات الدينية متوهمين لهم التحرر الفكرى فى تلك الأغلال .

= وأصل الغلط الذى وقع فيه الأستاذ عدم معرفته بمذهب المسلمين فى عاقبة المسيح معرفته بمذهب المسيحيين .. فهو لا يعلم الحقيقة ويقابل جميل قارئ علمها ، بالنكران .. ومن العجب أن الأستاذ يقول بعد أن اطلع مصحح غلطه فى مسألة دينية منصوص عليها فى القرآن : « ولكنى مع ذلك أحب كل من يحب الدين وأحث الناس على أن يفخروا بالدين .. » فهل هو يحب الدين جزافاً ويحب كل من يحبه من غير تحقيق الحق فيه ؟

أما مسألة الفن القصصي فى القرآن فضلال صاحب الرسالة فيها لا يوزن بميزان الموافقة لإجماع المفسرين أو المخالفة له ولا بميزان المجتهد المخطئ أو المصيب المستحق للأجر على كلا التقديرين كما وزنه فضيلة الشيخ شلتوت وأشرك معه فى الرأي فضيلة المفتى الأكبر السابق على ما نقل عنه صاحب الرسالة فيما كتبه إلى الأستاذ توفيق الحكيم . وكأن هذه الفتوى الأزهرية أبلغت قضية صاحب الرسالة المنازع فيها مبلغ القضيةالمحكمة بماأعجبت الأستاذ الحكيم آخرَ المفتين .. حتى قال عن أصحابها : «إن هؤلاء العلماء شاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا النصوص القديمة بأضواء جديدة دون أن يحيدوا عن روح الدين وجوهر العقيدة » وإن لم يكن الأستاذ عارفاً لا بروح الدين ولا بجوهر العقيدة كما أشرنا إليه .

لا يوزن ضلال صاحب الرسالة بما ذُكر من الموازين وإنما يوزن بميزان العقل الذى يظن الأستاذ الحكيم أنه بمعزل عن الدين أى دين كان .. فمنذ ذلك يتبين أنه ضلال لا يقبل التبرير ، بل يقضى على مبرره كمايقضى على الرسالة نفسها، لكونه رمياً للقرآن الذى هو كلام الله فى اعتقاد المسلمين ، بأن وجود شىء فيه لايقتضى صحته ومطابقته للواقع . وهو تشكيك صريح فى صدوقية الله يحكم العقل قبل كل شىء بأنه كفر بالله وانتقاص لمقام الألوهية . فإن لم يكن كفراً بالله فهو كفر بنبوة محمد وتلميح إلى أن القرآن كلامه لا كلام الله . لا يؤيد هـــذا الاحتمالَ الأخير اهتمامُ صاحب الرسالة فى سعيه لترويج رأيه ، بنفى الجهل عن سيدنا محمد بالتاريخ دون نفيه عن الله .

والأستاذ الحكيم الذى يسعى عبثا بما يكتبه فى أخبار اليوم لمناصرة صاحب الرسالة وامتداح مساعديه بالفتوى ، غيرَ عابئ بما يطوّقه من اللوازم العقلية التى ذكرناها قاضية عليـه ... لابد أن يكون شريكه فى اعتناق إحدى العقيدتين اللتين أقلهما كفر بنبوة سيدنا محمد وتجويز وجود الكذب فى القرآن باعتبار أنه كلامه لا كلام الله ثم تأويله بأنه كذب فنى .. أو أنه كلام الدين فلا يقاس بمقياس الحقيقة

التاريخية لأن الحقيقة الدينية لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشرى . وهـذا الوجه الأخير الذى هو زيادة من الأستاذ توفيق الحكيم على تأويل صاحب الرسالة بوضع الإسلام مع المسيحية فى بوتقة ثم اعتبار مكان الحقيقة الدينيـة أسمى من كل حقيقة ... معناه الخفى فى كلام الكتّاب المصريين قضاء على الأديان بلطف ولباقة .

ومن عجائب المحاباة من الأستاذ الحكيم أنه يحكى فى العدد ١٥٦ من أخبار اليـوم شكوى الأستاذ أحمد الشائب أستاذ الأدب فى الجامعة والفاحص للرسالة ثم القائل برفضها .. من كون الجهات الرسمية منعته من الكلام .. يحكى شكواه ثم يعلق عليها بما يخيل للقارئ أن الجهات الرسمية منعت الأستاذ صاحب الرسالة من الكلام لا الأستاذ الذى فحصها ورفضها .. يحكى الشكوى عائباً للمنع من الكلام ولا يساعد جانب الممنوع منـه الذى هو الأستاذ فاحص الرسالة ورافضها ، بل يتكلم مؤيدا لصاحب الرسالة المرفوضة كأنه هو الممنوع من الكلام . فهو أى الأستاذ توفيق الحكيم يؤيد المانعين بمناورته فى صورة المهاجمة عليهم ثم يتشدد محابياً لصاحب الرسالة الذى يراه ماشياً فى طريق الحرية الفكرية .. وهو طريق النهضة التى فاتحُها فى مصر هو الأستاذ الإمام ، ومتقدما فى مناورته ضد المتمسكين بكرامة الإسلام والقرآن من أساتذة الجامعة وهم قليلون مثل فاحص الرسالة جزاه الله عنى خيراً كثيراً ..

يتشدد فيدعو رئيس الحكومة ـ النقراشى باشا رحمه الله ـ إلى مشاركته فى التكلم مصدقاً لما بين يديه من الرسالة المقوتة ويتشدد أيضاً فى دعوة الرئيس إلى الكلام قائلا :

« ليس هو الذى يخيف الإنجليز بصوته فى مجلس الأمن وبصمته فى مجلس الوزراء ... ولكن الذى يخيف الإنجليز هو هـذه النهضة الفكرية التى اعتقدوا أنها من الجامعة . وهذه النهضة الروحية اعتقدوا أنها سرت فى الشرق من مصباح الأستاذ الإمام !.. التقـدم الفكرى والروحى فى مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية ... وإذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا .. فلأنها لا تستطيع البقاء طويلا أمام أشعة

عن الفكر والعرفان تعمى أبصارها .. وإذا حسب المستعمرون حساب مصر، فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بأشعتها فى العالم العربى » .

ثم انتهى تحكم الأستاذ الحكيم وتحمسه لترويج الرسالة الجامعية الطاعنة فى أمانة القرآن والتى رفضته حتى الجامعة نفسها ... إلى تهديد رئيس الوزارة المصرية فى أدق أدوار فلسطين وأحوجها إلى استقرار جميع الوزارات فى جامعة الدول العربية المستمدة لمقاومة فكرة التقسيم الغربية الظالمة مقاومة حربية ... انتهى تحكم الأستاذ الحكيم وتحمسه لترويج رسالة الأستاذ خلف الله المتقدمة إلى كلية الآداب لنيل الدكتوراه .. فى تهديد النقراشى باشا بقوله :

« فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد، أطالبك معه بواحد من أمرين لا ثالث لهما : إما أن تدرأ فى الحال الخطر المحيق بهذه المناورة الفكرية والروحية .. وإما أن تستقيل ! »

وأنا أقول لم يقنع حرص الأستاذ توفيق الحكيم على حل مشكلة الرسالة المشئومة المقدمة إلى كلية الآداب ولو كان فى نجاح الرسالة ضعضعة مكان كتاب الإسلام فى قلوب المؤمنين .. لم يقنع حرص الأستاذ على قضية صاحب الرسالة التى جعلها قضية لنفسه أيضا ، بحلها على الطريقة العلمية والعقلية . . بل راجع فى انجاحها الطريقة السياسية فأراد كسب المسألة العلمية بالسياسة أى بقوة الحكومة .. حتى بنى على كسبها كسب قضية مصر . . وكفى هذا عيبا على الأستاذ المحابى واعترافا بضعف أدلته العلمية التى تمسك بها أولا فى ترويج الرسالة .. وقد استحق تحوله هذا من الطريقة العلمية إلى الطريقة السياسية ، تعليقا طويل الذيل ربما لا يتحمله المقام .

لكن لا بد من أن انبسط بعض الشىء فأقول ان معنى ما قاله الأستاذ فى هذه الأسطر الأخيرة ... معناه الخفى بالنسبة إلى بعض القراء والجلى بالنسبة إلى بعض آخر أن المسلمين ولا سيما العرب إن أرادوا وكانوا جادين فى إرادتهم أن يكسبوا

قضاياهم المعلقة بينهم وبين الإنجليز وغيرها من دول الاستعمار فعليهم أن يضحوا بدينهم وتمسكهم بقرآنهم وعقيدتهم فى قرآنهم . وليست هـذه التضحية من قبيل مداراة الخصوم ومصانعتهم أو مخادعتهم ، بل فى ذلك هدى للعرب إلى طريق النهضة وتحرر من الجمود والتأخر وإشراق لأمم الشرق بنور عرفان الغرب الذى اكتشف مصباحه الأستاذ الإمام ... وهـذا النور الذى يصل مصر بباريس ويربط مآذن الأزهر ببرج إيفل كما صوره الأستاذ محمد صبيح فى غلاف كتابه المسمى « محمد عبده » .. هو الذى يخيف الإنجليز وسائر المستعمرين على قول الأستاذ توفيق الحكيم ويعمى أبصارهم .

ولم يفكر الأستاذ فى غرابة خوف الدول الاستعمارية من نور النهضة الفكرية التى اقتبسته مصر الشرقية من الغرب حتى أدى إلى جلاء جيوش الاحتلال عن أرضها .. أي غرابة ... فكانت هذه الحادثة كتحدى تلميذ مصارع لأستاذه الذى علّمه بعض حيل النجاح فى المصارعة ولم يعلّمه تمامها ... أو كما ظن الغافلون أن انسحاب جيوش الإنجليز والفرنسيس والطليان وأساطيلهم من استانبول بعد احتلالها فى الحرب العظمى الأولى ، قد وقع خوفاً من قوة مصطفى كمال الحربية التى هزمت اليونان وأخرجتها من أزمير، على الرغم من أنها أى اليونان كانت حليفة الدول المذكورة الغالبة ثم منتدبتها إلى أزمير .

وأصدق القول فى تحليل هذا المقام أن الإنجليز وغيرهم من دول الاستعمار الكبيرة إن انسحبوا من بلاد المسلمين بعد ما استيقنوا نهضة أهلها الفكرية التى أخذوها من وحى المستعمرين أنفسهم فلا يكون ذلك خوفاً من بأس تلامذتهم فى تلك البلاد الذين لاشك فى أنهم لا يزالون ضعافاً بالنسبة إلى أساتذتهم ، وإنما يكون حبا بأولئك الناهضين .. لكون النهضة الفكرية الموحاة إليهم — والتى وجد الأستاذ توفيق الحكيم أروع مثال لها فى رسالة الأستاذ خلف الله المقدمة إلى كلية الآداب لجامعة فؤاد الأول فروّجها وناضل مستنكريها فى صفحات أخبار اليوم بكل ما فى يديه من قوة القلم

رغم أن الجامعيين لم يتقبلوها بقبول حسن ، فناضلهم الأستاذ أيضا ـ تقربهم من المستعمرين وتحببهم إليهم ، بقدر ما تبعدهم من الإسلام والقرآن الذى طعنت الرسالة المذكورة فى صميمها قائلة : « إن وجود شىء فيه لا يقتضى صحته » .

فالمستعمرون لا تخيفهم النهضة الفكرية المزعزعة إيمان المسلمين بالقرآن بل تحببهم إليهم ، وإنما يخيفهم القرآن كما شهد به القول المروى عن غلادستون .. يخيفهم بقاؤه سليما ومؤمنا به حرفيا عند المسلمين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . والذين إن يكن منهم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منهم مائة صابرة يغلبوا ألفا من الذين كفروا .. والذين قد سبق أن مثلهم من السلف الصالحين ، نصروا الله فنصرهم وكانت لهم الدولة والغلبة فى الأرض.

فالمستعمرون يخيفهم القرآن والإيمان به حرفيا على أنه كلام الله الذى لا يتصور منه الكذب .. لا كلام محمد الذى يكفيه كذبا أن كان كلامَه فعزاه إلى الله ... يخيفهم ويسخطهم المؤمنون به ، ويسرهم دخول ثلمة فى إيمان المؤمنين به ليفتحوا حصن الإسلام من هذه الثلمة المفتوحة ، فيحبون طبعا فاتحيها بأيديهم من المسلمين الأخلاء .. حبا جما ويتخذون منهم سماسرة للقضاء على إيمان الباقين فيحبونهم جميعا .. وربما ينجر هذا الانقلاب فى عقيدة الإيمان بالقرآن ، إلى كف أيدى الدول الكبرى الغربية عن بلاد المنقلبين عن صلابة الإسلام إلى حرية الزندقة والإلحاد . وهنا فقط أعترفُ للأستاذ توفيق الحكيم بإمكان الحصول للأمم الإسلامية على صداقة الدول الغربية .. فأي أمة من هذه الأمم رأت مصلحتها فى اختيار هذه الطريقة لكسب صداقة الدول الغربية والتخلص من عداوتها .. فلها ما تشاء من اشتراء الدنيا بالدين واستبدال عداوة الله بعداوة الدول أعداء الإسلام . ولا بارك الله فى نهضة أمة مسلمة تتنازل فيها عن إيمانها بصدق القرآن لتكتسب صداقة الدول غير المسلمة . كما ذكر فى قوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

فهذا مفترق الطرق فى تحديد المسألة التى دخلها الأستاذ توفيق الحكيم وأبدى كثيراً من النشاط والتعمق فى بحثها .. وكما أن الأستاذ لم يدخر جهداً فى الوصول إلى النهاية التى قصدها حتى دعا رئيس الحكومة إلى حسم المسألة راجياً أن يفعل مثل مافعل أسلافه فى المسائل المماثلة التى ذكرها الأستاذ فى العدد السابق من أخبار اليوم، كنماذج الأمثال للحكومة الحاضرة ـ فإنى أذهب إلى أكثر وأبعد مما طلبه الأستاذ فى حسم المسألة .. بأن يكون الحسم مجاهراً لأساس الخلاف فى الأحداث التى تظهر الفينة بعد الفينة فى الأوساط الفكرية وتثير ضجة تهز كيان الدين فى قلوب المسلمين .. مجاهراً للأساس العامل فى تلك الأحداث غير خاص بجزئيات المسائل والوسائل ... فليقرر المسلمون فيما بينهم : هل هم باقون على الإسلام وعقيدته التى تمسك بها آباؤهم ثلاثة عشر قرناً أفراداً وجماعات أى حكومات ، راضون عنها ومعتزون بها كما رضى آباؤهم واعتزوا ، مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وسائر ما أنزل فى كتابه على خاتم أنبيائه كما آمنوا . . لا مؤمنون ببعض الكتاب وكافرون ببعض ولا متدينون أفراداً ولا دينيون حكومات ومسلمون أسماء وغير مسلمين فى الأعمال والآداب، متبعين سنن غير المسلمين شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه .. أم إنهم غير باقين ؟

يقوم الفينة بعد الفينة من سولت له نفسه بالخروج على الإسلام فى ناحية من نواحيه الاعتقادية فيثور احتجاجا عليه فئة من الغيورين على دينهم ، ويحميه منهم رجال من الوزراء المستبطنين ما أظهره الخارج .. وإن لم يحمه حامٍ محابٍ عاجلا ففى المستقبل القريب أو البعيد ينال الرجل مكافأة خروجه بأضعاف ما كان له من المراكز والمناصب يوم خرج وثار عليه المستنكرون.. ويكون هذا المصير له غبطة لآخرين فتتكرر المهزلة فى أيام أخر على مسائل أخرى مماثلة وتستقر بدعة استخراج فوائد عند قوم من مصائب الدين .. عادةً مستمرة فى بلاد الإسلام إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

هذا ولم يقف حرص الأستاذ الحكيم على تأييد الرسالة الطاعنة فى أمانة القرآن ، عنـد دعوة رئيس الحكومة إلى العمل الحاسم .. بل دعا اللهَ تعالى أيضاً إلى التدخل فى الأمر ليصدّق صاحب الرسالة فى تكذيب ماجاء فى القرآن . وهذا هو معنى الجملة الدعائية التى اختتم بها الأستاذ الحكيم قوله فى العدد التالى لأخبار اليوم المنشور فيه مقال الأستاذ أمين الخولى المشرف على الرسالة معنوناً «إنها لحق..ألقوا بى فى النار» :

« شهادة الأستاذ الخولى خطيرة وإنى أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيهـا ، تلك هى قوله إن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عاما .. إذا كان هـذا القول صحيحاً كما يؤكد الأستاذ الخولى ، فلنا أن نطلب تعليلا لما صرنا إليه . وعلى المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف لأنهم لا يرضيهم أن نرجع إليهم فى عهدهم ـ القهقرى بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام ، أما رجال الجامعة فيلصق بهم زميلهم الأستاذ الخولى فى عقليتهم وخلقهم ، تهمة لا يدفعها عنهم غير دليلهم .. وهى إن صحت لـكانت قديرة على هدم « التعليم الجامعى » من أساسه واقتلاع أهدافه من جذورها ... اللهم لا تخيب أملنا كله فيما حسبناه نهضتنا » .

أقول إن الأستاذ توفيق الحكيم يتحكم فيعدل عن محط النزاع الذى هو تهمة صاحب الرسالة إلى تهمة الجامعيين الذين اتهموه ، استناداً إلى قول الأستاذ أمين الخولى المشرف على الرسالة والمتفق مع صاحبها فى الرأي . لـكن شهادة الأستاذ الخولى لا تُسمع ولا تنفع صاحب الرسالة المتهم ـ كشهادته لنفسه ـ وقد اتهموه مع المتهَم لـكون الرسالة وضعت تحت إشرافه ، فضـلا عن أن للأستاذ العمارى مقالة بل مقالات فى مجلة « الرسالة » عن هذا الأستاذ الخولى وعن دروسه فى الجامعة التى

هو أستاذ البلاغة فيهـا منذ عشرين سنة كما يقال ... مقالات حسبها قاضية عليه وعاراً على الجامعة[1] .

وإنى ألفت النظر إلى أن الأستاذ الحكيم يهتم باتهام الأستاذ الخولى للجامعيين للمتهمين ولا يهتم باتهامهم له ، فماذا السبب لهذا الوضع المعكوس ؟ والجواب أن سند المتهمين للرسالة مخالفتها لكرامة القرآن، وسند الأستاذ الخولى المتهِم المتهِمين موافقة الرسالة لآراء الأستاذ الإمام !.. وفى هذا مفتاح هذه الفتنة وما سبقها من الأمثال ... فمن كان اهتمامه بكرامةِ الأستاذ الإمام فوق اهتمامه بكرامة القرآن لا يسمع كلام المتهِمين للرسالة ويفتح أذنيه بين إطار من كفيه لسماع من يتهم المتهِمين .

ومن أعجب العجائب أن المتهمين لصاحب الرسالة من الجامعيين وغير الجامعيين يقطعون التهمة فى الرسالة والمشرف عليها ولا يعدونها إلى الأستاذ الإمام ، على الرغم من أن كلا من الأستاذين اللذين اتهموهما دافع عن نفسه بإيراد جمل من أقوال الأستاذ الإمام، تتفق مع الأقوال التى وردت فى الرسالة واتُّخِذت تهمة لها وللمشرف عليها ، كما يفهم أيضاً من قول الأستاذ الحكيم الذى نقلناه آنفا . فتلك الأقوال إن صحت نسبتها إلى الإمام فلا كلام عنـد الأستاذ الحكيم فى استحقاق الأستاذين المتهَمين لكسب القضية ضد متهِميها وفى انتقال التهمة منهم إليهم .. بل وعلى مايلزم عنـدى أيضاً لا كلام فى براءة الأستاذين عن التهمة عند متهِميهم أنفسهم إذ كانوا فى اتهامهم لا يَعْدونها إلى الأستاذ الإمام ، فكيف يصح أن يكون قولٌ تهمةً إذا قاله زيد ولا يكون إذا قاله عمرو .. وقد رأينا متهمى صاحب الرسالة والمشرف عليها على مافيها من أقوال قال مثلها الأستاذ الإمام قبل اثنين وأربعين عاما .. رأيناهم سكتوا إذا جاء دور

---

[١] فالله الذى هو أبو المسيح عند النصارى أخو محمد، على قول الأستاذ الخولى فى محاضراته أو بمثابة الأخ يخاطبه يا أخى !! فكأن أستاذنا يقول : وهكذا يكون أستاذ البلاغة فى عصر الحرية والمساواة والديمقراطية وفى عصر التقريب بين الطبقات.

الكلام إلى اتهام الأستاذ الإمام وذلك عند تمسك الأستاذين المتهمين بأقواله دفاعاً عن نفسيهما وهم الآخرون يُتهمون بهذا السكوت إلا الأستاذ الشائب الممنوع من الكلام . وقد رأينا بين الساكتين إذا جاء دور الكلام على الأستاذ الإمام الأستاذَ على الطنطاوى الذى من عادته أن يتظاهر متحمسا فى مثل هذه الأدوار والذى قال عند إحدى حملاته المنشورة فى مجلة « الرسالة » : « لو قال ما نقلته عنها (يعنى رسالة الأستاذ خلف الله) معتقداً به أبو بكر وعمر لكفر به أبو بكر وعمر وصارا به أباجهل وأبا لهب . » فهل مركز الأستاذ الإمام فى الإسلام أحصن من مركز أبى بكر وعمر ؟ .

ومما رأينا فى هذه المسألة قول عميد كلية الآداب صديقنا الدكتورعبدالوهاب عزام بك تخفيفا عن كاتب الرسالة : «إنى فيما أعرف عنه وكما يبدو من كتابته شاب مسلم قصد أن يدفع عن القرآن بعض شبه اللاحدة أو رجال الأديان الأخرى فجاربه رأيه عن القصد وحادبه اجتهاده عن سواء السبيل » وقد كتب الأستاذ الطنطاوى مانقلنا عنه آنفا ، معلقا على قول العميد ومشددا ... ولعل الدكتور العميد الذى شهد على إسلام الرجل ، غاب عنه أن الاعتداد بإسلام أحد مشروط بسلامة عقيدته وابتعاده فى عقيدته عما يناقض الإسلام ، ولا يبرره قصد الدفاع عن القرآن بعد أن تضمن دفاعه التنازلَ باسم التأويل عن صحة القرآن فى بعض ماينطق به نصوصه ، فيكون ذلك قبولا لدعوى أعداء الإسلام فى القرآن لادفعا لشبههم .

وأخيرا انتهى أمر صاحب الرسالة رسميا فيما قال عنه عميد الكلية ونقلناه قريبا إنه شاب مسلم لم تخرجه رسالته من الإسلام ، فقد انعقدت بأمر وزارة المعارف ــ على ما كتبته أخبار اليوم تحت عنوان « عاصفة تهدأ » ــ لجنة مؤلفة من أستاذ الشريعة

فى كلية الحقوق ووكيل كلية الآداب ، تُحقق ماورد فى تقرير الأستاذ أحمد أمين بك عن اتهام صاحب الرسالة بأنه ذهب فى رسالته إلى ثلاثة أمور أولها أن محمدا فنان هذا القرآن وصانعه الخ.. وقد سلم صاحب الرسالة بأنه لو قال شيئا من هذا كان كافرا، كما قال الأستاذ أحمد أمين بك إنه قال هذا فعلا .. أما اللجنة الجامعية فقد قالت بالعكس: « .. أما القول بأن محمدا فنان بهذا المعنى فإنه قد يستنتج من عبارة الرسالة فى آخر صفحة ١٢٥ وأول صفحة ١٢٦ ورأت اللجنة أن العبارة التى قد يُستند إليها فى هذا ليست صريحة ولا قطعية الدلالة على معنى معين ، ولكن توجد فى صفحة ١٦٩ من الرسالة عبارة أخرى تدل على أن الكاتب لايعتقد أن محمدا فنان هذا القرآن وإنما يؤمن بأن القرآن نزل من السماء على أنه معجزة العرب الكبرى وأوحاه خالق مبدع منزه عن كل مايتصف به البشر » .

وأنا أقول لم أر الرسالة كما لم يرها الكثيرون[1] وعابهم الأستاذ سيد قطب بأنهم حكموا عليها من غير أن يقرأوها . لكنى قرأت مع الناس فى مجلة «الرسالة» لصاحب الرسالة وفى أخبار اليوم للاستاذ أمين الخولى المشرف على الرسالة، مقالات بتوقيعهما كافية فى اتهام كل منهما ناصة على أن وجود شئ فى القرآن لايقتضى صحته ، وهما ينقلان هذا القول عن الأستاذ الإمام ويتمزان بل يعتزان بالاستناد إليه فى قطع ألسنة المتهمين — وفيهم الأستاذ أحمد أمين بك الذى لا يُتهم بالجمود وضيق الأفق فى الأفكار الدينية — حتى ان الأستاذ المشرف قال فى دفاعه عن الرسالة : « إنها الحق.. ألقوا بى فى النار » وقد صدقه قرار اللجنة الأخيرة المؤلفة بأمر وزارة المعارف على براءة صاحب الرسالة. لكنا نحن لانستدل على تعيين الحق والباطل بقول فلان أو قرار لجان، لاسيما وأمامنا سوابق من الوزارات المصرية حمت الخارجين على الدين ، وكان اعتماد الأستاذ الخولى

---

[١] لأن أصحابها هربوها كما يهرب الحشيش تاجروه ولا عجب فإن أصحاب الرسالة أيضا راموا تجارة المناصب والمناقب فى عصر العجائب ، وإنما العجب كون الحكومات بمصر لاتعاقب المهربين بل تكافئهم .

عليها فى قوله الحماسى : « إنها لحق ألقوا بى فى النار » لاعلى أنها حق يضحّى بالنفس فى سبيله ويكون المضحون عشاق الحق المحققين، لا النساقين وراء شهرة الأستاذ الإمام والمقلدين لمن سمعوا من بعض أبطال علماء الغرب أنه قال مثل ذلك القول ... وإذا لم يكن فنان القرآن على فهم اللجنة الجديدة من قول صاحب الرسالة ، سيدَنا محمد وكان فنانه هو الله انتقل احتمال الـكذب السائغ فى الفن القصصى — على مذهب الرسالة — إلى الله .. ولا ينفع صاحب الرسالة ما كتبه فى مجلة « الرسالة » دفاعا عن نفسه أن الأساطير التى ذكرها المشركون ردا للقرآن إليها وطعنا فيه ليست بمعنى الأكاذيب ، بل بمعنى الأقوال مطلقا ، واستدل عليه بقوله تعالى « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض » حيث تهتم الآية فى رد قول المشركين بكون القرآن كلام الله لا كلام الأولين . واللجنة المؤلفة بأمر وزارة المعارف المشتملة على عبدالوهاب خلاف بك أستاذ الشريعة لـكلية الحقوق بجامعة فؤاد للنظر فى رسالة الفن القصصى فى القرآن والمقررة على براءتها من تهمة الطعن فى القرآن ، إنما اهتمت بناحية براءة الرسالة من تهمة عد القرآن تأليف سيدنا محمد لا كلام الله[1] ولم تهتم بمـا فيها من القول بأن القرآن لا يعنيه أن يكون جميع قصصه متفقة مع الحقائق والوقائع .. فمؤلف الرسالة كالمشرف عليها ليس إلا بطل الاعتماد على مايعرفه من مسامحة الوزارات المصرية فى أمر الدين وضعفِ التمسك به فى أوساط المثقفين الجدد المفتلين بتقليد المبادئ الغربية من ناحية وتقليد الشيخ محمد عبده من ناحية الذى أحدث بما أسرف من تأويلاته لنصوص القرآن مادية جديدة فى الإسلام أو باطنية جديدة متمشية مع مادية الغرب . أما دفاعه عن الإسلام ضد أعدائه فقد تبخر بين تقهقراته

[١] مع أن فى اهتمام صاحب الرسالة بنفى الجهل عن سيدنا محمد بالتاريخ عند مايرى قصص القرآن مخالفة للحقائق التاريخية كما سبق نقله منا فى هذا البحث عن المقالة المنشورة فى « أخبار اليوم » — مايوهم بحق أن القرآن فى نظر صاحب الرسالة تأليف محمد .

أمامهم .. وقد سبق أن ناقش الأستاذَ فرح أنطون صاحبَ مجلة « الجامعة » مدافعا عن الدين ضد الالحاد ، وفى النتيجة ازداد مستبطنو الالحاد بين المثقفين بمصر كما أشار إليهم الأستاذ فريد وجدى بك فى مقالة من مقالاته وإنى أسجله عليه فى هذا الكتاب عند كل مناسبة .. ومعناه هنا أنه نجحت دعوى الأستاذ فرح أنطون، ولم تنجح مدافعة الأستاذ الإمام .

وممن كتبوا فى بحث رسالة الفن القصصى فى القرآن الأستاذ سيد قطب صاحب كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » لكن مقالات هذا الأستاذ التى كتبها فى مجلة « السوادى » تمتاز بأنها حملات على الطرفين من صاحب الرسالة والأستاذ أمين الخولى المشرف عليها ومن الحاملين عليهما المهددين بإخراجهما من دائرة الإسلام ..

وتمتاز أيضا بأنها كاشفة عن أسباب وأغراض حملت الأولين على اثارة الضجة على نفسيهما والرغبة فى الفرقعة التى تلفت النظر وتُحدث حدثا يتلفت عليه الناس .. والأخيرين أو البعض منهم وهو الأستاذ أحمد أمين بك والأستاذ حسن الزيات صاحب مجلة « الرسالة » على رد جميل الأستاذ أمين الخولى .

قال « فذكرت الوقائع ليعلم الناس أية مهزلة تكمن وراء الموضوعات الجدية . وكيف تُمنح أرق الشهادات العلمية وتمنع فى جامعتنا الوليدة وكيف يصير الكثيرون دكاترة أوماجسترات وكيف لا يصيرون... ثم قال «ولكن ماشأن مجلة الرسالة ومحررها العباس وما شأن الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد أرسل الأستاذ على الطنطاوى صيحته الفرقعة الطنّانة توسلّ سيف الإسلام على رأس الطالب الجامعى وأستاذه . وبذلك وصلت المهزلة أول أهدافها »

والأستاذ قطب ، على الرغم مما ذكر فى خارج الموضوع أموراً كثيرة لاتمنينى، قد خدم الحقيقة فى فتح عيون القراء وسجل على أن الخروج على الاسلام والقرآن بمصر يذهب بالخارجين إلى مارامره من الوظائف والمناصب ، قال : « ثم تمضى خطوة

إلى الأمام فتجد رجالا من رجال الدين ورجالا من المحترفين حماية الدين لم يطلع أحد منهم على الرسالة ولم يحقق قضايا ومواجبها ولم يعلم أكثرَ من إشاعة تشيع، أو تلخيص ينشر ، أو تقرير لايكون صوابا .. ترى هؤلاء الناس لايحترمون أنفسهم ولا يحترمون إسلامهم الذى يوجب التثبت قبل الحكم ، يثيرون ضجة حمقاء شمواء ، يرفعونها إلى القصر ويصرخون بها فى الطرقات .. ويهتفون بها فى الصحف أحرقوا الرسالة اطردوا الخولى من الجامعة طلقوا زوج الطالب الجامعى ... مهزلة لا تقع إلا فى مصر .. وحماقة ليس وراءها تعقلٌ ، وضجة ينقصها الإخلاص الصحيح .

« ووقف الطالب الجامعى خلف هـذه المهزلة يغذّيها بالوقود كلما هدأت والدنيا لا تـكاد تسعه من الفرح وأحسبه قد أعدَّ نفسه عميداً لـكلية الآداب ثم مستشاراً فنيًّا لوزارة المعارف أو يعد نفسه لأن يكون وزيراً للأوقاف !.. ألا يعرف مثـله أن الضجة التى ثارت حول كتاب « الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين بك هى التى جعلته عميداً لـكلية الآداب ومستشاراً فنيًّا بعده ؟ ألا يعتقد مثله أن الضجة التى ثارت حول كتاب « الإسلام وأصول الحـكم » للأستاذ عبد الرازق بك هى التى جعلته كذلك وزيراً للأوقاف ؟

« فلماذا إذن لا يرشح نفسه لأحد هـذه المناصب ، ونحن فى مصر . والضجات الحمقاء التى يثيرها رجال الدين والمحترفون حماية الدين حول هذه الموضوعات ترفع الذكر وتنشر الصيت وتغير الأقدار . »

أقول فهل على رأى الأسـتاذ قطب خير للذين أثاروا الضجة من رجال الدين والمحترفين حماية الدين على الطالب الجامعى أى صاحب رسالة «الفن القصصى فى القرآن» وحمَّقهم الأستاذ .. خير لهم أنفسهم بل خير للدين نفسه أيضاً أن لا يثيروها عليـــه فيخدموا من حيث لا يشعرون أغراضه المنكرة فى اكتساب الشهرة وتصيد المناصب

بواسطة الخروج على الإسلام والقرآن ؟ فقد أصبح مبلغ الفساد بمصر فى رأيه إلى الحد الذى لو قلتَ للخارج المعتدى على كرامة الإسلام وقداسة القرآن : « أسأت » كان تأثير قولك هذا عنـد الرأى العام الحاكم فى تقسيم المناصب أو فى تمييز المسىء من المحسن .. كأنك قلت له : « أحسنت » !!

أم ان الأستاذ لا يرى فى رسالة الطالب الجامعى ولا فى تأييد أستاذه المشرف عليها ما يستحق الضجة التى أثارها عليهما المثيرون ؟ وإنما يرى خطأ الطالب بل وأستاذه المشرف على رسالته أيضا ـ الذى يراه الأستاذ قطب فى أزمة نفسية وقد حكاها مفصلة فى مقالته ـ فى قياس نفسهما على الدكتور طه حسين بك والأستاذ على عبد الرازق بك كما يفهم من قول الأستاذ بعد أقواله المنقولة آنفا : « وليس صغار الطلاب مكلفين أن يدركوا أن للدكتور طه حسين بك مواهبه الذاتية وأن للأستاذ على عبد الرازق بك ميزاته الشخصية والعائلية .. فهم معذورون إذا رأواهذا الطريق جيد التوصيل»

أقول وهل هم معذورون أيضا ومعهم الأساتذة المشرفون عليهم ، فى التلعب بكرامة القرآن ابتغاء لنيل المناصب العالية ؟ ومن عبّد لهم طريق التوصيل هذه ، إن كان الذين اتخذوهم قدوة لهم نالوا ما نالوا بمواهبهم وميزاتهم ، لا بما ابتدعوا فى القرآن والإسلام ما يمس كرامتهما ؟ ولماذا لم يحل ـ على الأقل ـ شذوذهم هذا بينهم وبين المناصب المذكورة التى نالوها فى بلد إسلامى عريق ولو بمواهبهم وميزاتهم ؟

وعلى كل حال فلا يفهم موقف الأستاذ قطب من اتهام الطالب الجامعى وأستاذه المشرف على رسالته ، بقدر اتهام المثيرين عليهما الضجة من رجال الدين ومن الذين سماهم المحترفين حماية الدين ، وإن كان مذهب الأستاذ لا يتفق مع الأولَين فى تصور التصوير الفنى فى القرآن ، بمعنى أنه يراه أعلى شأنا من عرض قصصه على تصديق المؤرخين من أهل الغرب والشرق ثم تأويله عند الاختلاف معهم بالمسامحة الفنية . ومع هـذا لا يبت الأستاذ فى فساد مذهبيهما بل وفى صحة مذهبه نفسه أيضاً ، حيث

قال فى آخر مقالته الثالثة المنشورة فى مجلة « السوادى » بعد إيضاحاته القيِّمة المسفرة عن إعظام القرآن :

« وبعد فلست أنكر أن شبهات اعترضت طريق وأنا أبحث موضوع القصة فى القرآن ومَشاهد القيامة فى القرآن أهذا كله مسوق على أنه حاصل واقع ؛ أم ان بعضه مسوق على أنه صور وأمثال ؟

«وقفت طويلا أمام هذه الشبهات ولكنى لم أجد بين يدىّ حقيقة من حقائق التاريخ أو حقائق التفكير فأطمئنّ إلى يقينيتها وقطعيتها ، فأحاكمَ القرآن إليها وما كان يجوز لدى أن أحاكم القرآن إلى ظن أو ترجيح .

« ولم أكن فى هذه الوقفة رجلَ دين تصدّه العقيـدة البحتة عن البحث الطليق بل كنت رجل فكر يحترم فكره عن التجديف والتلفيق .

« فإذا وجد سواى هـذه الحقيقة التى يحاكم إليها القرآن فإنى على استعداد أن أستمع إليه فى هدوء واطمئنان » .

أقول : لا يحتاج إلى البحث والتنقيب عن حقيقة من حقائق التاريخ أو التفكير ليحاكم إليها القرآن ، إلا من يخالج قلبه الشك فى كونه كلام الله الذى لا تحوم حوله شبهة الكذب . وبعد استيقان أنه كلام الله يكون البحث فى حاجة إلى حقيقة تاريخية أو تفكيرية ليحاكمه إليها ، تناقضاً لا يقبله منطق الفكر والعقل قبل الحقيقة التاريخية التى لاتعدل الحقيقة الفكرية والتى يقول عنها الأستاذ حسن الزيات فى مجلته عدد ٨١٦ التاريخ مادته عمل ابن آدم وابن آدم حيوان كذاب لا يقول الحق على نفسه ولا ينقل الصدق عن غيره إلى آخر ماقال فى مقالة برأسها عن منزلة مايسمونه الحقائق التاريخية بالنسبة إلى الحق وأحسن كل الإحسان .

وأنا لا أقول هـذا القول كرجل دين تصده العقيدة البحتة عن البحث الطليق ،

بل رجل عقل ومنطق يصدانه عن التناقض المستحيل ويحترم دينه وعقيدته فى ضمن احترام العقل والمنطق . وليس رجل الدين فى الإسلام من يكون فى واد والعقل والمنطق فى واد آخر ، بل هذا الرجل أشد تمسكا بالعقل والمنطق من غيره كما يتبين قارئ هذا الكتاب ، حتى إنى أرى الأستاذ قطب الذى يقول فى مقالته المارة الذكر : « إن الذهن البشرى خليق بأن يدع للمجهول حصته » دون رجل الدين فى تقدير العقل الذى لا يلتبس عليه المحال بالممكن ، قيمتَه فهو أقوم قسطاس فى الفصل بينهما وليس له أن يدع للمجهول حصته فى هذا التمييز. ومادام يعرف هو أى العقلُ حدود الممكن والمحال بمبادئه الأولى التى فطره الله عليها ففى إمكانه أن يدرك بسهولة ما يصلح لأن يكون متعلقاً لقدرة الله وهو جميع الممكنات التى لا حد لها ولا حصر وما لا يصلح له ، وهو ينحصر فى أمور معينة مستحيلة يعرفها العقل بالبداهة الفطرية كجمع النقيضين ورفعهما والدور والتسلسل. فالعقل المقيد بقوانينه الخاصة مهما كان طليقاً فليس له أن يكون أداة شبهة فى العقيدة الدينية المتعلقة بالقرآن الذى هو كلام الله ، إلا أن ينطلق خارقاً لقوانينه نفسه. فهو أى العقل الحر فى دائرة قوانينه الخاصة حسبُ المسلم نبراساً فى إنارة طريقه إلى أصول العقائد الدينية . ولذا قال خضر بك أستاذ السلطان محمد الفاتح العثمانى وأستاذ المحقق الخيالى أيضاً صاحبِ التعليقات الدقيقة على شرح العلامة التفتازانى للعقائد النسفية ، فى قصيدته النونية الكلامية :

وواقع كل ما نص الصدوق به ... من ممكن كصراط أو كميزان

فقصص القرآن كلها ومَشاهد القيامة المذكورة فى القرآن كلها ما دامت من الممكنات وما دام الله قادراً على جميع الممكنات — كما هو مقرر فى علم الكلام — فلا وجه لصاحب العقل وصاحب الفكر الحر أن يتردد فى قبول ماورد فى القرآن منها كما ورد .. فلو عرف الأستاذ قطب هذه الحقيقة الوجيزة التى يتضمنها بيت خضر بك ،

أو لو لم يكن الأستاذ أجنبيا عن العلوم الإسلامية لحد أن لا يعرف أن الله قادر على جميع المكنات ، أو لو لم يكن غافلا عن عدم جواز وضع حد للممكنات الواسعة المحدود إلا بالمحال .. لما احتاج إلى أن يقول : « وبعد فلست أنكر أن شبهات اعترضت طريق وأنا أبحث موضوع القصة فى القرآن ومشاهد القيامة : أهـذا كله مسوق على أنه حاصل واقع ؟ . »

نعم ، تلك الشبهات التى اعترضت طريق الأستاذ قطب والتى اعترض أكثرُ منها طريقَ غيره مثل الطالب الجامعى وأستاذه الخولى ومن سبقهما من أصحاب الفتن بمصر .. تلك الشبهات اعترضت طريق كثير من الناس[١] بعد مقررات وضعها الأستاذ الإمام قبل أربعين سنة وضعضع بها حصن القرآن عن مركزه الراسخ فى قلوب المؤمنين فتضمنت تأويلاته الموجهة نحو المغيبات مطلقا أو بالنسبة إلى أهل الأزمنة البعيدة عن زمان الأنبياء مثل الملائكة والشيطان وأحوال القيامة والمعجزات ، نفىَ هـذه الأمور نفيا مؤولا !.. وقد صرّح بذلك الطالب الجامعى وأستاذه فى الجرائد والمجلات عند الدفاع عن نفسيهما أمام الضجة المثارة ضدهما من رجال الدين وتحدياهم بنقل كلمة الأستاذ الإمام الناصّة مثلا على أن وجود الشىء فى القرآن لا يقتضى صحته ووقوعه .. وقد كان وجود الشىء فى القرآن حجة عند المسلمين بصحته لا تعدلها حجة ولا يتناولها تأويل ، إلا إذا كان الحمل على ظاهره يستلزم محالا عقليا كقوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » و « جاء ربك » .

فإذا لم يقتض وجودُ شىء فى القرآن صحته ووقوعه مع كون وقوعه فى متناول قدرة الله لعدم استلزامه المحال العقلى بمجرد استبعاد المستبعدين الذين لا يقدرون الله

[١] والأستاذ قطب الذى لم يأل جهدا فى الاعظام بشأن القرآن ولم يعرض رضى الله عنه محاكمة نصوصه إلى حقيقة تاريخية أو تفكرية ، فهو أقرب الضالين فى تقدير القرآن، إلى الهدى. وإنى أتمنى له تمام الهداية إلى أن لا يكون عنده مسألة جديرة بأن تسمى حقيقة تاريخية إذا كان كلام الله نزل على خلافها .

حق قدره ولا القرآن الذى هو كلام الله حق قدره ولا سعة حدود الممكنات التى يدخل جميعها تحت قدرة الله حق قدرها .. فماذا يكون معنى قداسة القرآن التى يعترف بها الأستاذ قطب؟ وماذا يكون الفرق بين كلام الله وكلام البشر؟ أم القداسة المعترَف بها للقرآن لا تبلغ مبلغ أن يكون كلام الله؟

فهذه النقطة المنتهى إليها الكلام هى منبع جميع المشكلات والشبهات فى موقف القرآن التى تنتاب أفكار العصريين من كتّاب مصر وعلمائها بعد أستاذهم وإمامهم الشيخ محمد عبده والتى تختلف شدة وخفة باختلاف أشخاصهم ، أو قل إن شئت : بالنسبة إلى شدة إيمانهم بالشيخ وضعف إيمانهم بالقرآن !.. وإذا فكرت وتعمقت فى التفكير فأدنى شك فى قداسة القرآن وأقل استبعاد لصدقه فى جميع ما نص عليه يمان على أنه شكٌّ فى كونه كلام الله بدلا من كونه كلام محمد ، ثم يُعدى الشك نبوته صلى الله عليه وسلم بل نبوة جميع الأنبياء فيرتكز فيها بل يتقوى ويتحول إلى النفى البات بإنكار المعجزات التى هى شواهد نبوتهم وقد اشتهر هذا الإنكار من كتّاب مصر وعلمائها العصريين ، حتى ظن الدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بجامعة فاروق أن ابن خلدون شذ فاعترف بالمعجزات من غير تأويلها بما يخرجها عن كونها خارقة لسنة الكون ، مع أن جميع علماء الإسلام متفقون قبل ابن خلدون وبعده فى الاعتراف بها من غير تأويل.. وليس الشذوذ فى ابن خلدون المعترِف بل فى الأستاذ الإمام المؤول، إذ التأويل كما يخرج المعجزات عن كونها خوارق، يخرجها أيضاً عن كونها معجزات. ولا يغرنك قولهم : « إن المعجزات غير القرآن شبهة لا حجة » أنهم يعترفون بمعجزة القرآن باعتباره معجزة عقلية وإنسانية وخارقة ـ وقد سبق منا شرح قولهم هذا ـ كما أن ذلك الاعتبار الخاص منهم بالقرآن تسترٌ فى إنكار معجزة القرآن ، وهم ملاحدة مستبطنون كما وصفهم الأستاذ فريد وجدى بك ـ متظاهراً باستثناء نفسه من بينهم ـ

فى قوله الذى أردده كثيراً فى هذا الكتاب ، لا مجاهرون ، وإلا فإعجاز المعجزة ليس إلا فى خرقها لسنة الكون .. ولا بد أن تكون معجزة القرآن كذلك .

وعند ضم إنكار المعجزات التى هى شواهد صدق الأنبياء فى دعوى نبواتهم ، إلى عدم تصديق القرآن فى كل ما حكاه عن الأنبياء وغيرهم ، كما علم القارئ من رسالة الفن القصصى فى القرآن .. ثم تجريد النبي فى التعريف الذى ذكره الشيخ محمد عبده له، من خواص النبي المعروف فى الإسلام ـ لاسيما من أخص خواصه الذى هو الوحى وسيأتى بحثه فى هذا الكتاب ـ ثم إنكار وجود الملائكة الذين ملك الوحى منهم وتأويلهم بالأرواح والقوى .. ثم النظر إلى اجتماع هذه الإنكارات فى الشيخ ـ يكون الإنسان معذوراً فى سوء ظنه بدين هذا الشيخ الذى هو أستاذ وإمام عصر الفتن الدينية بمصر وسند مؤلف رسالة الفن القصصى وأستاذه المشرف على رسالته ـ سندهما الذى أصمت اسمه ألسنة الثائرين عليهما ـ موجهاً ذلك الظن السيء الذى يكاد أن يكون يقيناً ، إلى إيمانه بالنبوة . وقد عرفت ماهية هذه الإنكارات عدا إنكار الملائكة ودرجة منافاته لعقيدة الإسلام .

أما إنكار وجود الملائكة ـ ومثله إنكار وجود الشيطان الذى لم يهمله الشيخ أيضاً[1] ـ فإنى لا أقضى العجب من جرأة الشيخ على هذا الإنكار من غير اكتراث منه بمصادمته لآيات جد كثيرة من القرآن ناطقة بوجود طائفة من عباد الله تسمى ملائكة .. ولا يعنينى زيغ الشيخ وضلاله فى دينه إذا اهتديت أنا وسلم المسلمون من سراية زيغه إليهم .. ولكنه يعنينى كل العناية إذا رأيته يجر من ورائه الجيل الحاضر

---

[١] وفضيلة الشيخ شلتوت عضو هيئة كبار العلماء ومنكر وجود الشيطان غير مبتكر فى هذا الضلال بل تابع الأستاذ الإمام .

من مثقفى المسلمين الذين سحرتهم شهرته فى التجديد ولم تكفل لهم ثقافتهم بالتمييز بين الحق والباطل من الجديد .. وقد كان الإسلام القديم يسمّى الحادث بدعة ويأخذ حِذره فى انتقاء النافع منه لا يغره كل ما هب ودب ، ولا يقول لكل جديد لذة . قال الشاعر :

لكل جديد لذة غير أننى وجدت جديد الموت غير لذيذ

فإن لم تُجْدِ عنايتى بوزن مبتدعات الشيخ محمد عبده فى ميزان التحقيق ، ماتستحقه من الاهتمام والالتفات فى الجيل الحاضر بمصر لانفلات أزمّة عقولهم إلى تقليد الشهرة الواصلة إليهم من الغرب والشرق ... فسيهتم بها الجيل الآتى إن شاء الله وهو شهيد على أنى قد بلّغت .

نصوص كتاب الله على وجود طائفة من عباده تسمى ملائكة

وهى جمع ملأك على الأصل لأن الهمزة متروكة بكثرة الاستعمال .. فلما جمعوها ردوها . وهو مقلوب مألك من الألوكة بمعنى الرسالة .. سُموا به لكون الطبقة العالية منهم رسلا بين الله والناس. وقد اختلف علماء الإسلام فى المفاضلة بين الملائكة والبشر ، لكن الراجح تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة وتفضيل رسل الملائكة على عامة البشر وتفضيل عامة البشر على عامة الملائكة ، والدليل على هذا الترتيب مذكور فى الكتب الكلامية .

وعلى كل حال فهم يوصفون بما يوصف به ذوو العقول والحياة يتلقون القول ويقولون ويخاطِبون كما يخاطَبون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا

يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . وأول شاهد على ما قلنا تسميتهم بالملائكة التى هى بمعنى الرسل ، وقد قال الله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » وقد قال : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير »[١] والمراد من الرسول فى قوله تعالى فى سورة التكوير : « إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين » ـ جبريل عليه السلام ، وفى وصفه بذى قوة مانع آخر عن تأويله بالقوة ، وإلا كانت للقوة ، قوة .. ومثله قوله تعالى فى سورة النجم : « علمه شديد القوي ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى » لأن المراد من هذا المعلم الشديد القوى أيضا جبريل .. فهل تصلح القوى التى أول بها الشيخ محمد عبده الملائكة ، أن توصف بالتعليم ؟

ولا ينحصر تعبير القرآن عن الملائكة بالرسل فيما ذكرنا ، قال « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط .. ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تُخزونِ فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قالوا يا لوط إنا رسل

---

[١] كنت قرأت فى « منبر الشرق » الأغر لرجل يكتب فيه الفينة بعد الفينة : أن ما فى كتب التفسير من الملائكة ذات الأجنحة حديث إسرائيلى لا أصل له . فلعل الرجل لا يقرأ كتاب الله أو لا يعول عليه تعويله على أقوال الأستاذ الإمام .

ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل .. الخ » وفى هـذه الآيات دلالة ظاهرة على أن الملائـكة مستعدون للظهور فى غير صورتهم الأصلية كما ظهر المرسلون منهم إلى قوم لوط فى صورة أناس من الشبان الحسان .

فمن سولت له نفسه إنـكار وجود الملائـكة وتأويلهم ـ من غير داع ـ بغير مانعرفه نحن المسلمين وعرّفنا القرآن أى القوى والأرواح ، ومن غير اكتراث بما فى تأويله من إلغاء جميع ماجاء به كتاب الله للملائـكة من الأوصاف الـكثيرة المختلفة التى لا تنطبق على غير ذوى العقل والشعور والحيـــاة ، مثل « عباد مكرمون » و « الملائـكة المقربون » و « الملائـكة يشهدون » و « يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » و « الذين تتوفاهم الملائـكة طيبين يقولون سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » و « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » « لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » ... وجميع مافيها من صيغ الجمع جمع العقلاء والضمائر ضمائر العقلاء ـ فهو[1] مجنون مصاب فى عقله إن لم يكن مصاباً فى دينه[2] .

---

[١] جواب « من سولت له نفسه » فى صدر الـكلام

[٢] مفرطا فى احترام نصوص الله فى كتابه ... وليس بشىء مايقوله اصحاب هذا المفرط المغترون بمقرراته مثل الطالب الجامعى صاحب الرسالة المقوتة وأستاذه المشرف على رسالته : « ان إيمان المؤول يكون أقوى من إيمان المستسلم بنصوص القرآن فى القصص وغيره من غير تأويل » فأى الإيمانين أقوى من رجلين يؤمن أحدهما بوجود الملائـكة المذكورين فى كتاب الله بأوصاف مختلفة لا تنطبق إلا على الكائن الحى العاقل فيؤمن بوجودهم طبق ما ورد فى الـكتاب من غير حاجة إلى تأويل يغيرهم عما ورد ، ولا يؤمن أحدهما بوجودهم إلا بتأويل يغيرهم إلى حد انه ينفيهم ، كأن قدرة الله لا تسع إيجاد المنصوص عليهم بعينه لـكون المؤول الغافل يظنه محالا عقليا كما قال الله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

وهل لايخاف منكر الملائكة قولَ القرآن : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبَل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين » وقولَه « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» وقوله «ومن يكفربالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا».

فهذه الآيات صريحة فى كون الإيمان بالملائكة من أركان الإسلام ، معدوداً فى صف الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .. والشيخ محمد عبده إمام وأستاذ مصر الحديثة ساه عن هذه الآيات المروعة أو لاه . وقد أدهشنى مما كتب الطالب الجامعى المار الذكر دفاعاً عن رسالته فى الفن القصصى وأسوة بإنكار الأستاذ الإمام كثيراً مما جاء فى القرآن، قولُه المنشور فى مجلة « الرسالة » عدد ٧٥٠ عن إنكار الملائكة الكاتبين لحسنات الإنسان الملازمين لجانبه الأيمن والكاتبين لسيئاته الملازمين لجانبه الأيسر : « هل ترى شيئاً من هؤلاء الملائكة مهما طال نظرك إلى جانبيك » كأنه يتهكم أو يعاند قوله تعالى : « وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » وقوله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلق المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

والذين ينكرون وجود الملائكة بحجة أنهم لم يروا أحداً منهم إلى الآن فسيندمون «يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » يندمون «إذا دكت الأرض دكا وجاء ربك والملك صفا صفا » وأما نحن فلا نؤول من هذه الآيات إلا مجىء الرب لتنزهه عن الأوصاف الجسمانية كالحركة والسكون ونؤمن بما عداه كما ورد ، من غير تأويل .

آيات الملائكة فى كتاب الله كثيرة جدا[1] لا تنحصر فيما ذكرته بمناسبة الرد على أصحاب فتنة الفن القصصى فى القرآن الذين جرّأهم على إيقاد نارها أقوال الشيخ عبدمقبل اثنتين وأربعين سنة فى الخروج على نصوص كتاب الله فنبذوها وراء ظهورهم وتمسكوا بأقوال الشيخ . ولهذا فإنى بعد حدوثها وتبين مايعتمدعليه محدثوهاومؤيدوها عند دفاعهم عنها ، كتبت مقالة وصوبت حملاتى فيها على الشيخ المذكور وأرسلتها إلى مجلة « لواء الإسلام » ثم سمعت أن صاحبها سعادة احمد حمزه بك يأبى نشرها قائلا : « أنا لا أنشر مقالة فى مجلتى ضد الشيخ محمد عبده » وهذا على الرغم من أنى كنت تلقيت من سعادته وهو متأهب لتأسيس مجلته ، خطابا يبدى رغبته فى مقالاتى ، وكنت يومئذ كتبت جوابا أنصح له فيه وأذكر نوع مجلة دينية تحتاج إليها البلاد الإسلامية فى أعصرها الأخيرة ، ثم لا أدرى ما بدا لى فكففت عن إرسال هذا الجواب إليه واكتفيت بحفظه عندى .. إلى أن كتبتُ مقالتى فى نقد مبادئ الشيخ محمد عبده وأرسلتها إلى مجلة لواء الإسلام فلم تحظ بالقبول فتبينت منه إصابتى فى عدم إرسال مقالة النصح وتبين أنه لواء الإسلام الذى يهمه الأسماء والأهواء أكثر من الإسلام نفسه، فقد يقوم واحد من علماء مصر يحارب العلماء ويتجرأ على تغيير مبادئ الإسلام المعروفة عند المسلمين ويقول إن وجود شىء فى القرآن لا يقتضى صحته ، فيجيز له هذا اللواء ذلك ولا يجيز أن يتجرأ أحد على المتجرئ .

وإنى قد رأيت أن أنشر هنا مقالة النقد على الشيخ والمقالة التى كتبتها جوابا لخطاب صاحب اللواء المتضمن طلب مقالات منى لنشرها فى لوائه والتى كتبتها ثم لم أرسلها .. رأيت نشر المقالتين هنا بادئا من ثانيتهما ليحكم القارئ بيننا ثم يحكم الله وهو خير الحاكمين .

---

[١] وهناك حديث مسلم وأبى داود والترمذى والنسائى عن عمر بن الخطاب : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » .

المقـالة التي كتبتها جوابا على خطاب سعادة الأستاذ أحمد حمزة بك ثم عدلت عن إرسالها إليه :

حضرة الأستاذ الـكبير صاحب مجلة لواء الإسلام الغراء

تحية وتـكريما ثم مباركة عطرة لأثركم الخطير وسؤالا مرفوعا إلى الله تعالى أن يؤيدكم بتوفيقاته إنه سميع قريب مجيب .

وبعد فإن مصر المحروسة لم تعدم ذوى همة من القادرين فى العلم والأدب والمـال تتابعوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها فى وضع الـكتب وإصدار الصحف والمجلات ، بل سابقوا وضع الحرب أوزارها بوضعهم ذاك ، كما لم ينقص هذه الموضوعات فى جملتهم ماينحو نحو الدين ويعنى المسلمين . لـكن أعظم الواجب فى التأليف والإصدار أن يسد فراغا محسوسا ويقضى حاجة ملحة من حاجات الزمان ، فهل قام بهذه المهمة فى ناحية الدين أحد المؤلفين والمصدرين فى هذه الأيام الأخيرة ؟ ولا أعد من القيام بها ما كُتب أو يُكتب فى هــــذه الناحية ويهدف إلى التزيد فى المعلومات أو الحث على الباقيات الصالحات والردع عن المنكرات ، لأن حاجة الزمان فى مسألة الدين غير هذا وأهم من هذا .. ألا وهى مسألة الفصل فى أمره ووضعه من أساسه إلى الميزان ، حتى ينجلى الحـكم والحسم فى هل له أصل ثابت يقوم عليـه ، كما كنا نحن المسلمين نعتقده غير مدخرين فى سبيل الاحتفاظ بهذه العقيدة كل نفيس ورخيص عندنا وشاركنا فيهـا الجادون من أهل الأديان الأخرى ... أم إنه خرافة من الخرافات يُعد استمرار العاقل فى التمسك بها غفلة ورجعية لا تليق بعصر العلوم ؟

ولا يقال لى من أين هذا الاحتمال المظلم المتشائم فى موقف الدين حتى يلزم أن يحتاج المؤمنون به إلى وضعه فى الميزان ليكونوا على بينة حاسمة من أمره ؟ إذ مما لا شك فيه ولا مساغ للتغاضى عنه أن دين الأجيال الأخيرة من المسلمين بل من جميع المنتمين

إلى الأديان أصابه ضعف ظاهر فى نفسه يرى آثاره أولا فى إهمال العبادات أو الاجتراء على المحرمات المسفرَين عن التقصير والتفريط فى معاملاتهم مع الله، ثم يرى آثار ذلك الضعف فى ضياع الأخلاق التى يقوم عليها نظام معاملات الناس بعضهم مع بعض.

ومما يلفت إليه أن هذا الضعف فى الناحيتين إن كان يبدو الثانى منهما كثيراً بين العامة، فالأول يبدو كثيراً وواضحاً بين الخاصة ولا سيما الخاصة المثقفة المصريين .. فلا يوجد من يصلى ويصوم فيهم إلا نادراً ولا يُسمع صوت الأذان فى دور الوزارات وكليات الجامعة وسائر المدارس الحكومية يدعو الموظفين والمدرسين والطلاب رسميا إلى الصلاة بالجماعة فى مساجدها التى لابد أن تشتمل عليها تلك الدور، والمحافظون على الأخلاق من الخاصة المثقفة إنما يحافظون أو يتظاهرون بها لئلا يكونوا شر مثال للعامة الذين يحتاجون إلى كونهم محافظين أكثر منهم أنفسهم ليستقر الأمن فى المجتمع، بل الواقع أنهم إذا اعترفوا بلزوم الدين نفسه فإنما يعترفون بلزومه للعامة ولا يؤمنون به لأنفسهم، ولا بلزومه للعامة إلا ليكون واسطة إلى حفظ أخلاقهم، فكأنهم أنفسهم ليسوا فى حاجة إلى الدين حتى للاحتفاظ بالأخلاق .. مع أن الأخلاق لاتستقيم بلا دين ولا يكون الدين المقصود لغيره ديناً صحيحا ولا واسطة يوثق بها فى حفظ الأخلاق، كما لا يصح الاعتماد على دين العامة وصلاحهم، من غير دين فى الخاصة ولا صلاح يقوم على الدين أو بالأصح من غير دين فى الحكومة. فعدم الدين فى الخاصة المثقفين الذين تتشكل الحكومة أيضاً منهم منشأ كل شر وفساد فى المجتمع، والدين مع ضعف وشبهة فى العقيدة مساو لعدم الدين. ولا ينفع فى معالجة هـذا المرض الاجتماعى نشر المقالات الناصحة فى الصحف والمجلات إذا كان الفساد فى الكتّاب الناصحين.. فهم يكتبون ما يكتبون إما لينالوا فيه مكسبا أو ليعمل به غيرهم. ومادامت الخاصة المصريون على شك فى عقيدتهم الدينية غير متثبتين ـ ويكون أكثر الكتاب

منهم فى زماننا ـ فلا بد أن يكونوا متخبطين فيما كتبوا أو غير مأمونين من التخبط، فلا خير للمجتمع منهم ومن العامة التى لابد أن يكون لزيغ الخاصة تأثير فيهم .

فأعظم الواجب لكاتب الزمان فى الدين تصحيح عقيدة الخاصة ، وحاجة الأمم الإسلامية الأولية اليوم ترتكز فى الاهتمام بمداواة خاصتهم قبل عامتهم .. حتى إن أخطر مرض اجتماعى فى الزمن الحاضر وهو الشيوعية والبلشفة وإن كانتا تأخذان مادتهما وقوتهما من العامة ويتظاهر دعاتها بادعاء أن كل الكسب فيهما للعامة ، لكن الرأى والتدبير فى نجاح الثورة الشيوعية والبلشفية وتمشية نظامهما بعد النجاح يكون التمويل فيهما على عقول الخاصة الماكرين وهما نفسهما من شباك الصيد الجديدة لهم المنصوبة للعامة والخاصة .

ولنا أن نقول فى تحليل المرض الحاضر إن الخاصة المثقفين كان يوجد فيما بينهم قدما مقصرون فى العبادات والمجترئون على المحرمات ، ومع هذا لم يكن مستوى الدين فى المجتمع نازلا الى هذا الحد الذى نراه فى الأجيال الأخيرة بعد أن اتصل الشرق الإسلامى بالغرب وأتت منه إلينا مع أنواع الملاهى المتنافية مع الدين من ناحية العمل ، عقليات أفسدت عقيدة الدين وأصبح تأثير هـذا الوباء الثانى ظاهراً فى الخاصة المثقفة . فأخذ الذين كتبوا فى الصحف والمجلات ليدلوا الناس بأقلامهم على الطريقة الحديثة التى يجدر بهم أن يسلكوها ، يضلون طريق الهدى ويحتاجون إلى من يدلهم عليها ، وحق أن نقول ـ كما يقال حاميها حراميها ـ هاديها معاديها .

وقد سبق قبل أكثر من بضع عشرة سنين أن كتب الأستاذ فريد وجدى بك فى « الأهرام » أن العلم الحديث الذى نجم فى الغرب ودالت إليه الدولة فى الأرض، قذف بالأديان جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) حتى إن الشرق الإسلامى لما اتصل بالغرب وعلومه ورأى دينه ماثلا فيها مع سائر الأديان لم ينبس بكلمة ، لأنه يرى الأمر

أكبر من أن يحاوله ، ولـكنه استبطن الإلحاد متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية .. كتبه حضرة الأستاذ الذى هو اليوم ترجمان لسان الأزهر وقرأه القراء المسلمون بمصر فلم ينبسوا هم الآخرون بكلمة إلا راقم هذا الخطاب ، فإنى نبست وما حبست لسانى ، كما لم يرعنى سلطان دولة العلم الحديث أن أنصب من قلمى العربى الأعجمى رقيبا عليه يناقشه الحساب على قذفه بدينى العزيز إلى عالم الأساطير.. اتخذت كلام الأستاذ هذا ـ الذى قاله لا حسرة على الدين بل تلقيناً لليأس على ناصريه ـ حجة ضده أردد ذكرها فى كتبى عند كل مناسبة وأندم الأستاذَ فى سره ألف مرة على ما قاله وإن لم تـكن الندامة على فرطاته عادة له .

وقال الأستاذ حديثا ـ بالنسبة إلى قوله الأول ـ فى مقالة نشرها فى مجلة «الرسالة» « صرح علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر بأن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامية ، فإذا نشر العلم رواقه على العامة زال الدين كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه »[١] .

ولا يستطيع الأستاذ أن يعتـذر عن هذين القولين اللذين نقلناهما ، بأن ذكرهما حكاية للحالة الواقعة ثم ذيل كلا منهما بما يراه لتلافى مافات .. لأن ماذكره فى ذيلهما من هذا القبيل ـ وقد سبق نقله بنصه ـ لا يغنى فتيلا عنه ، وبعيد كل البعد أن لا يدركه الأستاذ ، لـكنه الدس الذى لا يتركه ـ كما ذكره أيضا فيما ذكره مع قوله الأول ، عازيا إلى نوابغ الـكتاب والشعراء فى البلاد الإسلامية المستبطنين للإلحاد .

الحاصل أن نوابغ الـكتاب العصريين فى الشرق الإسلامى ـ والأستاذ منهم ـ إن كتبوا عن الدين فإنما يكتبون فتّا فى عضده ودسا للشر فى خيره ، ولا خير للدين

---

[١] وحول هذين القولين اللذين نقلتهما أقوال أخرى للأستاذ نفسه تماثلهما كففت عن نقلها هنا اكتفاء بأنى اشتغلت بنقدها فى غير هذا الخطاب .

فيهم ، فهم ليسوا من أنصاره . وإنى اقتصرت فى الكلام عن موقف الدين ومركزه الحاضر فى قلوبهم على أقوال كاتب واحد هو الأستاذ فريد وجدى بك باعتبار أنه كاتب مجلة الأزهر وخطيب منبره فى عهد شيوخه الأربعة الأخيرين . . فإذا سمعنا انقطاع الأمل عن بقاء الدين فى غير قلوب العامة السذج الجهال وزواله عن قلوبهم أيضا عند بسط العلم رواقه على الجميع ، كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه — فماذا نؤمل من الخير للدين فيما نسمعه من الكاتبين الكرام بعد كلام كاتب الأزهر . وسبب كل ذلك أن هؤلاء الكتاب يريدون أن يمشوا وراء العلم الحديث الذى أذَّن مؤذن بينهم أنه لايعد الأديان إلا أسطورة من الأساطير، ولم ينكره الهاتفون عليه .

ولعل سعادتك تقول لى : ما بالك فى اقتصار الكلام عن موقف الدين على ماسمعته أو تسمعه من الكتّاب ولو كان فى طليعتهم كاتب مجلة الأزهر ، وعلى علم هؤلاء الكُتَّاب الحديث الذى هو داعيهم إلى الانصراف عنه ؟ أليس هناك علماء الأزهر وعلومهم المؤيدة للدين وعلى رأسها علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام ؟

وجوابى عليه : ماذا تقول سعادتكم أنتم إذا كان حضرة الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر نفسه قاضياً على هذا العلم فى مجلته قائلا : « فإذا كان فى الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام فهو الإسلام .. ثم إن الأستاذ محمد صبيح الذى نشر فى الماضى القريب كتابا عن الشيخ محمد عبده مسمى باسمه، يقول فى ذلك الكتاب إن الشيخ لم يُبق على علماء الأزهر وعلومهم وكتبهم جميعا ولم يستثن منهم أحداً إلا فضحه فى الامتحان العام الذى تحداهم به .. وبقى هذا العار إلى يومنا هذا غير مغسول عن هؤلاء العلماء وعلومهم وكتبهم ، يجدد الكتّاب من أمثال الأستاذ صبيح ذكراه الفينة بعد الفينة .

فيفهم من هذا أن الدين والعلم القديم الذى يقوم الدين عليه والعلماء القدماء الذين يحرسونه، قد أبيد كلهم من زمان بمؤامرة فتحت الحصن من داخله باتفاق من شذ منهم

مع المؤامرين ليحصل على مكانة عظيمة عندهم يحتفظون بسمعته ويسبحون بحمده على مر الزمان. وقد ساعدت المؤامرةَ المختلطة الماسونيةُ المعروفة بعبادتها ضد الدين، فكان لانتساب أقطاب الأزهر إليها منذ عهد محمد عبده وجمال الدين الأفغانى مما لم يُمهد مثله فى علماء تركيا، معناه.

فات الدين وعلمه القديم وعلماؤه القدماء وأصبح الذين على قيد الحياة منهم، فى حكم الموتى، وقام مقامهم علماء أحداث[1] متمسكون بالعلم الحديث الغربى الذى لا يؤمن بغير المحسوسات، فلا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لكون كل منها لا يمكن إثباته فى زماننا بالتجارب الحسية. وقد نقل أستاذ مجلة الأزهر فى مقالته المارة الذكر هنا والمنشورة مقالةً افتتاحية فى مجلة «الرسالة» قبل سنين وكان عنوان المقالة «الدين فى معترك الشكوك»، عن أستاذ علم النفس فى كمبردج: «أن هذه المباحث لا يجوز أن تبنى على التأكيدات التى صدرت من هذا الوحى أو ذاك، بل يجب أن تؤسس ككل بحث علمى بمعناه الصحيح على تجارب يمكننا تكراره اليوم مؤملين أن نزيد عليها غدا، ويكون الدافع إليه هذه القضية: إذا كان يوجد عالم روحانى ظهر للناس فى أى عهد كان، فيجب أن يكون كذلك قابلا للظهور فى أيامنا هذه».

نقله الأستاذ مصدقا ومحبذا لما يتضمنه من عدم الإيمان بعقائد الإسلام الأساسية. وليس الأستاذ فريد وجدى بك صاحب المقالة وحيداً فى هذا التصديق والتحبيذ، بل معه كل من لا يؤمن بمعجزةٍ غير القرآن، بحجة عدم كونها فى متناول التجربة الزمنية، حتى إن معه الأستاذ الأكبر المراغى مقدم كتاب هيكل باشا «حياة محمد» المجرد عن المعجزات ومستبدع قول البوصيرى :

[١] كما قال الدكتور زكى مبارك فى مقالة له منشورة فى مجلة «الرسالة»: «نزعنا راية الإسلام من أيدى الجهلة وصار إلى أقلامنا المرجع فى شرح أصول الدين».

لم يمتحنا بمـــا تعيي العقول به   حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

ومعه أيضاً فضيلة الشيخ شلتوت الذى ينكر وجود الشيطان لعدم وجود من رآه فى الزمان الحاضر .

فتبين من هذا أن الفتنة المثارة ضد الدين الواصلة إلى حد إنـكار وجود الله، لعدم كونه أيضا فى متناول التجربة الحسية ، أو لـكونه لا يزال محلا للشك فى وجوده على الأقل ، أولعدمالاعتراف بثبوتهعلميا..وإنكارِ معجزات الأنبياء الخارقة المستلزملإنكار النبوة لـكونها أيضا من الخوارق التى لا نقدر على تجربتها فى هذا الزمان ـ وكل هذه الإنكارات مروقمنالإسلام ـ طمّت وعمت كبارَ علماء الأزهرالجدد وأكبرَ كبارهم بعد الـكتاب المصريين ، والمؤامرة المحبوكة للقضاء علىالدين قد أُحكمت لحمتها وسداها وشد أزرها بالعلم الحديث وعلماء الدين الأحداث ، فتهيبها العلماء الأزهريون الباقون على عقيدة الإسلام وسكتوا ، ولم يكن سكوت البعض منهم تهيبا بل إسرافاً فى حسن الظن بالمؤامرين وإبطاء فى فهم مراميهم لعدم كونهم مجاهرين فى محاربة الدين .

وإنى أرسلت مقالة إلى مجلة « الثقافة » قبـل بضع سنين للدفاع عن معجزة رفع عيسى عليه السلام إلى السماء التى أنـكرها فضيلة الشيخ شلتوت رغم صراحة القرآن فى أمره .. أنـكرها اتباعاً لقواعد العلم الحديث الغربى فى عدم الاعتراف بالخوارق ، وإن تعلل فى إنكاره بأسباب أخرى واهية ، فلم تنشر مقالتى ... وأرسلت مقالةأخرى قبل سنتين إلى مجلة « الرسالة » للرد على مقالة الأستاذ فريد وجدى بك المنشورةفيها بعنوان « الدين فى معترك الشكوك » كما مر ذكرها .. فلم تنشر أيضا . وكل هـذا من شواهد الاهتمام بإحكام المؤامرة من المؤتمرين .. فنشرتُ كتابى « القول الفصـل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » بدل المقالة غير المنشورة فى مجلة « الثقافة » ، فـكان له تأثير بالغ فى قلوب من قرأوه من أصحاب التمييز والإنصاف، وتأثير من نوع آخر فى قلوب محاربى الدين دفعهم إلى وضع سياج من السكوت حوله

محجمين عن محاربته أى محاربة كتابى لئلا تتسع دائرة اطلاع الناس عليه ، وإن كان الكتاب يوسمهم ضرباً موجعاً بحملاته المقابلة .. وليس هذا الكتاب إلا جزءاً من الكتاب الكبير المنطوى على مايقرب من ألفى صفحة أو يزيد عليهما والذى يدخل معترك الشكوك أو بالأصح معترك التشكيك ويكافح المشككين وعلمهم الحديث الذى اتخذوا منه دعامة لشكوكهم ، ويقف كلا من هذا العلم وعلمائه عند حدودهما .. وإنى أريد نشر هذا الكتاب من زمان فلا أستطيعه بسبب غلاء الورق ومصاريف الطبع .

وبينما أنا فى هـــذه الحالة جاءنى كتابكم الكريم يطلب منى مقالات لمجلتكم الإسلامية الغراء ، لكن مقالاتى التى تكرمتم بتقديرها ، مهما أجتهد فى تهذيبها فنهى متعلق بالكتاب وهو أجدى منها لحاجة الزمان التى سعيت فى هذا الخطاب لتوضيحها . وكم يسرنى نشر هذا الكتاب فى مجلتكم منجّما لو كانت المجلة شهرية ضخمة الحجم ونشر منه فى كل عدد منها ما لا يقل عن ملزمتين .. وكل من المجلة والكتاب يساعد بعضهما بعضا ويزيد فى انتشاره بدلا من أن يضره. وليس معنى هذه الرغبة منى أن أحصل على طبع الكتاب فى ضمن طبع المجلة وأستغنىَ عن طبعه مستقلا بعد انتهاء نشره بالمجلة فى عدة سنين، فإذا قرأتموه مجزأ فى أعداد المجلة وأعجبتم به أنتم وقراؤه ففى إمكاننا نشره ثانيا على شكل كتاب مؤلف من ثلاثة أو أربعة أجزاء ومطبوع فى مطبعة المجلة على حسابى .

ولا مؤاخذة فى إطالة الكلام عن هذا الكتاب فى أول تشرفى بمخاطبتكم . وإنى قوى الأمل فى أن تكون خدمته للإسلام وإعلاء كلمته علميا مضمونةً عند أولى الألباب إن وفقنى الله للاهتداء إلى طريقة معقولة فى نشره بفضل تقدير من سعادتكم واهتمام به .

الأستاذ الإمام وكتاب الله تعالى في كفتي الميزان[1]

بمناسبة رسالة الأستاذ خلف الله التي قدمها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فاستنكرها رجال من الجامعيين وغيرهم لقولها بعدم لزوم الصدق ومطابقة الواقع في قصص القرآن .. ودافع عنها أستاذ البلاغة في الكلية الأستاذ أمين الخولي والمشرف على الرسالة استناداً على اتفاقها مع مقررات الأستاذ الإمام محمد عبده .

طلب إليّ بعض أصدقائي من علماء الدين أن أدلي برأيي في الموضوع فقلت قولي الآتي .. باعتبار أن القرآن كلام الله وكتاب المسلمين جميعا على اختلاف أقوامهم وأجناسهم ، لا باعتبار أنه كتاب العربية الأكبر كما سماه الأستاذ الخولي في مقالة وجهها إلى الأستاذ توفيق الحكيم ونشرتها (أخبار اليوم) .

قلت قولي الآتي بعد أن تطور الموضوع بإقامة الأستاذ الخولي مؤيد الرسالة سنداً لحسم هذا النزاع من مقررات الأستاذ الإمام .. وكان حق الإنصاف يوجب عليّ أن أعترف بأن هـــذه المقالة قد نقلت مسؤولية الرسالة ومسؤولية تأييدها ، إلى عهدة الأستاذ الإمام صاحب المقررات المذكورة التي ينطبق عليها قول كل من كاتب الرسالة ومؤيدها لاسيما مقرّر الإمام القائل : « إن وجود شيء في قصص القرآن لا يقتضي صحته » .. والناقل يزعم أن الأستاذ الإمام لا تصعد إليه المسؤولية بل تتلاشى قبل ان ~~ سل إلى مقامه البعيد .. يزعم هكذا ولا يبالي أن يكون مع إمامه من الذين « إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعفٌ ولكن لا تعلمون » .

---

[١] مقالة أرسلتها إلى مجلة « لواء الإسلام » فلم تنشر .

قلت قولى هذا وإنى أرى الرسالة المستنكرة وما سبقها فى مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده .. كلها ناشئة من الأسس التى ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام .. فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها ، من أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين .. وكان هذا الواجب قد بقى منذ أمد بعيد على عاتق مصر حملا ثقيلا ودينا عظيما غير مقضى .. ولعل هذا الوقت الذى تكافح مصر فيه داء الكوليرا ، قدره الله لمعالجة هذا المرض أيضا الذى هو وباء أفتك من وباء الكوليرا ، بحيث لو ترك على حاله لكان شر ميراث للأجيال الآتية يظهر نكسه الفينة بعد الفينة ويشتد بأسه عليهم حتى يكفى لأن يأتى بنيانهم من القواعد فينهار به فى نار جهنم .

كان المسلمون قبل عهد الشيخ محمد عبده على طول ثلاثمائة وألف عام يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ومعجزات رسله وبكل ما ورد فى نصوص كتاب الله وسنة رسوله السليمة الاسناد ، من الأوامر والنواهى والقصص وأحوال الآخرة .. وكان لهذين الركنين الأساسيين لدين الإسلام مهابة عظيمة فى قلوب علماء الإسلام الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا .. لا يجترىء أحد منهم على تأويلهما والعدول عن ظاهر نصوصهما ما لم يترتب على الاحتفاظ بالظاهر محال عقلى خارج عن متناول قدرة الله الذى خلق بها السموات والأرض .. وكان مما لا يطوف ببال أحد أن ينكر وجود الملائكة ووجود الشيطان الرجيم الذى نعوذ بالله منه فى أول كل صلاتنا والذى تأبى صفة الرجيم وسائر الأوصاف الحية له المذكورة فى القرآن تأويله بدواعى الشر .. مع أنه لامانع قطعيا وعقليا من أن يتصور هذا الشيطان الرجيم كائنا حيا كما وصفه كتاب الله ... ولم يكن المسلمون فى تلك الأعصار الطويلة يعتريهم أى شك فى وجود الأنبياء وتأييدهم من عند الله بالمعجزات الخارجة عن طوق البشر .. فكانوا يؤمنون من غير تردد بأن الله تعالى كلّم موسى ومنحه يداً بيضاء وعصا تنقلب

حية إذا ألقاها تلقف ما يأفكه سحرة فرعون .. ولما ضرب بها البحر شقته إلى أفراق كل فِرْق كالطود العظيم ففتحت له ولمن معه من بينها طريقاً فى البحر يبساً اجتازوه وغرق فرعون وجنوده الذين اتبعوه ، فى البحر ... ويؤمنون بأن عيسى ولد من غير أب وكلم فى المهد صبيا وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله .. فلما أراد اليهود قتله وصلبه رفعه الله إليه وسوف ينزله فى آخر الزمان .. وأن إبراهيم بنى له قومه بنيانا وألقوه فى الجحيم فلم تحرقه النار وأصبحت بأمر ربها برداً وسلاماً عليه ... وانشق القمر لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم وأسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأمده الله فى غزواته بآلاف من الملائكة مردفين ومسومين ...

حتى جاء الأستاذ الإمام فوضع منهاجا عجيبا لتأويل النصوص يمثل باسم النهضة الدينية الحركة القهقرية أمام خصوم الإسلام الغربيين المسلطين على كتابه ويلقى الشك فى قلوب المسلمين الذين يعتقدونه كتابا منزلا من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ... قائلا : « إن وجود شىء فى القرآن لا يقتضى صحته » .

وبهذه النهضة المعكوسة والحماسة الضالة المأثورة من الإمام ، قال تلميذه الشيخ صاحب المنار فيما كتبه دفاعاً عن كتاب (حياة محمد) لمعالى هيكل باشا: « إن المعجزات شبهة لا حجة » وبتلك الحماسة أيضا اتهم معاليه فى الطبعة الثانية لكتابه ، جميع ما فى كتب الحديث من أقوال رسول الله بشبهة الكذب وكان هذا التشكيك العام منه فى كتب الحديث ، للتوصل إلى إسقاط أحاديث المعجزات من حيز الاعتماد والاعتداد. وقد ارتكزت فكرة إنكار معجزات الأنبياء فى قلوب العلماء الأزهريين من تلامذة الإمام ، وفيهم من تولى مشيخة الأزهر ... حتى شجع هذا الاستخفاف الموروث بنصوص الكتاب والسنة ، بعضاً منهم على إنكار رفع عيسى إلى السماء المنصوص عليه فى القرآن ونزوله فى آخر الزمان المذكور فى ستين حديثا رواها ثلاثون صحابيا .. كما شجعته مقررات الإمام فى المغيبات إلى نفى وجود الشيطان . . وأصبح إنكار

الخوارق عادة مألوفة بمصر عندالمتعلمين بعد انتشار مبادئ الإمام واشتهاره فيا بينهم، حتى إن معجزة القرآن الخارقة لسنة الـكون ولو بالنظر إلى نزوله من عندالله بواسطة الملَك ، ينكرونها أيضا أو يلزمهم ويفهم من أقوالهم إنكارها .

إن علماء الإسلام يؤمنون بجميع مانص عليـــه القرآن من قصص الأنبياء ومعجزاتهم التي تدخل أيضا في قصصهم ، وأحوال الآخرة مثلهما في إيمان العلمـاء بها كما ورد في القرآن ولا يتصورون وجود أي شيء فيه يخالف الواقع ويحتاج إلى التأويل والتغيير لأن هـذه المذكورات إخبارات لا تحتمل حتى النسخ من عند الله وإلا كانت كذبا أو جهلا يجب تنزيهه تعالى عنه ... وعقيدة المعجزات الخارقة لسنة الـكون ــ ولابد أن تخرقها لتكون معجزة ــ تنبني على ثلاثة أسس، الأول: الاقتناع بأن الله الذي خلق المعجزة ــ لا النبي الذي تظهر على يديه ــ قادر على أن يخلقها ، أعني أنها ليست مما يستحيل عقلا حتى تكون خارجة عن متناول قدرة الله . والثاني: أنها ، فضلا عن إمكانها في حد ذاتها ، يشهد كتاب الله الذي لا يجيز العقلُ أن يحوم حوله الـكذب ، بوقوعها .. فيمكن أن يكذب التاريخ أو يخطئ ولا يمكن أن يكذب الله أو يخطئ .. ومن شك في صدق وقوع ماأخبر به الله ، من غير مانع عن وقوعه يتصوره في عدم إمكانه عقلا أو عدم كفاية قدرة الله على إيجاده ، فهو كافر .. وهذان الوجهان لعقيدة المعجزات يجريان في قصص القرآن غير المعجزات ويجريان في أحوال الآخرة أيضا .. والثالث : حاجة الأنبياء إلى المعجزات ليستندوا إليها في دعوى نبوتهم وفي دعوة الناس إلى أن يثقوا بهدايتهم .. فهذه الحالة الواقعة من وجود المقتضى وعدم المانع ، توجب علينا الإيمان بما نص عليه كتاب الله من معجزات الأنبياء وقصصهم وأحوال الآخرة .. والذين لا يؤمنون بصدق النصوص الواردة في القرآن متعلقةً بهذه الموضوعات ، كما ورد فيه .. ويحتاجون إلى تأويلها ، فهم لايؤمنون لمانع

ناشئ من ضعف دينهم وعقولهم التى تعتمد على أقوال المؤرخين والمستشرقين من أعداء الإسلام والقرآن ولا تعتمد على نصوص كتاب الله .

فعند ما قارنتَ بين كتاب الله وما أشار إليه الأستاذ الخولى من مقررات الإمام الموجبة للتنازل عن الآيات المتعلقة بالشيطان والملائكة والمعجزات والقصص، بواسطة التنازل عن الاعتماد والاعتداد بنصوص تلك الآيات .. وأضفت إلى ذلك الآيات الواردة فى أحوال الآخرة من البعث بعد الموت والحشر والسؤال ووزن الأعمال والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار المبتدئَيْن من القبر وسائر المغيبات التى لاتقبلها عقول الكتاب المصريين المقيدة بالعلوم الطبيعية التجريبية ، فينكرونها .. وقد فتح الأستاذ الإمام لهم طريقاً معبدة يقتحمونها رغم خطرها ، فى كل أمن وحصانة وهى طريق التأويل وتفسير النصوص تفسيراً يؤدى إلى إلغائها ... عند هذه المقارنة لايبقى جل آيات القرآن إن لم يكن كلها ، مستحقا لاعتقاد صدقه والاعتصام بمنطوقه ، ويكون الباقى بعد التنازل : آيات التوحيد ، كما يكون الكثيرُ الذاهبُ أدراجَ الرياح : آياتِ معجزات الأنبياء وقصصهم وجميع المغيبات .. مع أن تلك الآيات الباقية أعنى آيات التوحيد أيضا تنهار بضربة تشكيك أخرى من العلم الحديث المبنى على التجربة ، ثم لا يبقى بعد هذا التنقيح الثانى إلا آياتُ الفضيلة .

فكأن الأستاذ الإمام قرر العمل بما اقترح عليه الأستاذ فرح أنطون منشئ (مجلة الجامعة) عند ما جرت بينهما مناظرة قلمية فى ست مقالات من الطرفين[1] . وهو أن يختارا بعض الآيات من الإنجيل والقرآن فيعضّا عليه بالنواجذ ثم يدعا ما بقى بعد ذلك من الكتابين ، تحت ستار مقدس .. فيتفقا فيما بينهما على الآيات المنتقاة من الإنجيل والقرآن ويعتبراها الإنجيل كله والقرآن كله ثم يتخذا لهما من تلك الآيات

---

[١] والمقالات جمعها الأستاذ فرح وأوردها فى باب الردود من كتابه (فلسفة ابن رشد).

المختارة ديناً أبديا معقولا ليس فيه سيف ولا نار ، بل كله إخاء عام ومحبة مطلقة لجميع بنى آدم .. وإن أنكر هذا التخصيص والاختيار المتعصبون من أهل الكتابين .. فالدين الأبدى المقول لا يوجد على رأى الأستاذ المقترح إلا عند القائلين بهذا التخصيص وهم أنصار الفضيلة المفضلون على أنصار الديانات !!..

والآن ، وبعد أن بلغ السيل الزبى بحادثة الرسالة الممقوتة المقدمة إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد والتى بُنى أساسها على فكرة احتمال الكذب والاختلاق والابتعاد عن الحقائق التاريخية فى قصص القرآن ، تمشيا فى تلك الفكرة مع أقوال المستشرقين والمؤرخين ... بعد هذا وبعد إعلان الأستاذ المشرف على الرسالة تضامنه مع صاحب الرسالة فى جميع ما تضمنته .. إلى أن يقول : « إنها حق .. ألقوا بى فى النار ! » .. ثم استقبال لأعيه من المسلمين الغيورين على دينهم ، بنقل بعض كلمة من مقررات الإمام يضم تضامنه إلى تضامنه ويكون آخر كلام يقطع جميع ألسنة الملام .

بعد كل هذا ، وإنى يدعونى واجب النصيحة لله ولرسوله وللمسلمين إلى أن أقول وقفا لـكبرى الأستاذ الإمام فى هـذه البلاد ، عند حدودهم : إن المسلمين المصريين مضطرون إلى البت فى أمرهم باختيار أحد الدينين : فينتمون إليه ويُدعَون به يوم يدعى كل أناس بإمامهم فى الدنيا، دين ٍ للمسلمين القدماء يعتمد على نصوص الكتاب والسنة ودين للأستاذ الإمام والمؤمنين به لا يعتمد عليها فيلغى كثيراً منها ويتصور الكذب والاختلاق فى قصص القرآن ، وهم يعتمدون فى ذلك على أقوال المستشرقين والمؤرخين من أهل الغرب التى لا تتفق مع تلك النصوص ، فتلجىء أصحاب الدين الجديد إلى الانصراف عما نطق القرآن بشأنها ، والبحث عن طريق التأويل المتمشى مع أقوال الغربيين ، مع الاهتمام بنفى الجهل عن سيدنا محمد بالتاريخ . وهم ينسون كون القرآن كلام الله قبل أن يكون كلام محمد .. ولو أن هؤلاء الغافلين اعتمدوا على أنه كلام

الله كان تصور الحاجة إلى الانصراف عن نصوصه اعتناء بأقوال المستشرقين والمؤرخين الذين لا يمكن أن يكون لهم علم بالحقائق التاريخية لا سيما ما يتعلق منها بالقرون الخالية ، أصدق وأوسع من علم الله ـ تصوراً فى غاية الجراءة والضلالة .

على أن أنصار الدين الجديد لا يكفيهم التنصل من قصص القرآن للحصول على مرضاة المستشرقين والمؤرخين من أهل الغرب لأنهم لا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ولا يمنحون القرآن رتبة كلام الله ، مهما ضحّى ضعاف العقل والدين منا بنصوص القرآن فى قصص الأنبياء توفيقاً لآرائهم .. كما قال الله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من أهل الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .. فيلزم الذين يرون لهم ضرورة تطبيق قصص القرآن وغيرها على آرائهم.. أن ينكروا نبوة سيدنا محمد إرضاء لخاطرهم.. وقد يجدون فى ذلك أيضا سنداً لهم من قول الأستاذ الإمام الصالح لنفى النبوة عن جميع الأنبياء ، ينم على ذلك تعريف النبي الذى أتى به الإمام فى تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية .. وكما يفهم هـذا النفى من إنكار معجزات الأنبياء التى هى علامة النبوة وحجة إثباتها .

فإذا انهدمت النبوة بانهدام المعجزات وتعريف النبي بما لا ينطبق على النبي المعروف فى الإسلام ، ولم يكن القرآن كلام الله ولا كلام محمد النبى ، احتمل بالضرورة أن ينطق عندئذ محمد مؤلف القرآن الذى هو بالنسبة إليه كواحد من المؤلفين ، عن الهوى رغم قوله فيه (وما ينطق عن الهوى) وإن كان الهوى الذى يحتمل أن ينطقه هوى فنان كبير عربى ، وكان له أن يزين كلامه حول القصص عن الأولين ، بطلاء من الأكاذيب .. وإن كانت أكاذيب فنية ـ كما ادعاه صاحب الرسالة والمشرف عليها ـ من صنع الشعراء الخياليين الذين قال عنهم شاعر تركى :

سرمايهٔ شاعران توكنمز دنيا توكنير ، يالان توكنمز[1]

والذين لا يقام ـ إلا من طريق عد مؤلف القرآن منهم ـ وزن لاكتشاف صاحب الرسالة والمشرف عليها ومُلهمها فى تبرير الكذب ومخالفة الواقع التى تصوروها لآيات القصص ...

وكل هذا على الرغم من أن القرآن يقول عن نفسه : « وما هو بقول شاعر » .. إلا أن يقال عنه وعن قوله المار الذكر قريبا : إنهما ـ والعياذ بالله ـ كذب فى كذب !!..

فإذا كان القرآن كتاب فنان لايتقيد فى كثير من آياته بالتزام الصدق ومطابقة الواقع بل يسوقها كما يقتضيه هوى الفن الذى يكون مطمع النظر فيه جذب القلوب والأسماع .. فماذا هو المانع إذن من أن يأتى بمصر زمان يُقرأ فيه القرآن بين عزف العود والدف والكمان، كما يقرأ اليوم بين عزفها قصائد فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم.

مصطفى صبرى

١٢

وإليك نموذج آخر من أشباه ما ذكرته فى رقم (٦) يدل على رواج الفكرة اللادينية والابتكارات الدائرة حولها بمصر ويؤيد طغيان العلم الحديث الغربى أو بالأصح طغيان المفتونين به فى الشرق الإسلامى على الدين بعد ما حكاه الأستاذ فريد وجدى بك من أن الدولة فى الأرض دالت إليه .. وهو أن الشاعر محمد إحسان المحامى نشر شعراً فى جريدة « الأهرام » قبل سنوات ولم ينكر عليه أحد من المسلمين ولا من المسيحيين ولا من اليهود ، إما استئناسا بأمثاله فى الجرائد والمجلات المصرية أو تهيبا لغلبة أصحاب الفكرة اللادينية وأنصارها ، مع أن الشعر كله كفر بالأديان واستهانة بأنبياء

[١] معناه : «لا ينفد ولاينتهى رأس مال الشعراء لأنه تنتهى الدنيا ولاينتهى الكذب»

الله ومعجزاتهم تبجحاً من الشاعر بعلم الغربيين ومكتشفاتهم التى لهم فضل اكتشافها وللشاعر وأمثاله الشرقيين أن يطيشوا بمفاخر غيرهم فيرموا دين آبائهم وأجدادهم فى الأرض كما ترمى الأوانى الزجاجية ويعلن بكسرها السرور والمرح فى مجالس السكارى السفهاء. وهذا هو الشعر المنشور فى « الأهرام » لناظمه محمد إحسان المحامى :

النبي الجديد

أو نبوءة عن المستقبل

قام فى النـاس نبي إنما ... شأنه ليس كشأن المرسلين
وحّد النـاس وقـد فرقهم ... كافة الرسل على مر السنين(١)
جاءهم من غير إنجيـل ولم ... يأتهم بالوحى جبريل الأمين(٢)
لم يروا منـه عصا موسى التى ... تلقف الإفك وسحر الساحرين(٣)
معجزات العـلم قد أوفت على ... معجزات الدين فى ماضى القرون(٤)
إذ أراهم كيف يُحيي علمه ... ميتا لولاه وارته المنـون(٥)
خاطبوا المـريخ حتى إنهم ... سمعوا المريخ فى صوت مبين
ورأوا منـه الذى أدهشهم ... قدرة العلم على جنس الجنين(٦)
آمنوا بالعـلم ديناً وهدى ... ليس بعد العلم للأفهام دين

أراد بالنبي الجديد الذى فضله على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، العلمَ الحديث. ونحن نرد عليه هفواته فى أبياته على ترتيب الأرقام :

١ — كذب الشاعر والشعراء يكذبون ويتبعهم الغاوون، لم يفرّق الناسَ رسلُ الله والأديانُ التى جاءوا بها من الله، وإنما فرقتهم فكرة القومية الجاهلية القديمة والتى

راجت عصبيتها فى الأعصر الأخيرة أيضاً ، حتى إن الأمم يقتتلون على المبادئ القومية لا الدينية ويساعد اقتتالهم العلمُ الحديث بأسلحته الجهنمية ؛ فى حين أن الدين يعيب — ومعه العقل — هذه العصبيات القومية والانقسامات الدولية ، ويحرم عليهم التحارب والتقاتل فى سبيلها .

أما تفريق الأديان بين معتنقيها فهو لم ينشأ من طبيعة الأديان نفسها ، وإنما الناس ابتدعوا هذا التفريق فيما بينهم فيجب أن تكون تبعته عليهم لا على الأديان ، إذ لا تزاحم بين أديان الله فى أى زمان من الأزمنة . وتوضيحه أن الله تعالى منزل الأديان السماوية لم يأمر اليهود والنصارى والمسلمين أن يكون كل طائفة منهم على دين ينتمون إليه حتى يصح أن تعد الأديان مفرقةً بين الناس ودافِعَتَهم إلى الخلاف بعضهم مع بعض ، وإنما أمر الله أن يكون الناس فى عهد كل رسول تابعين لشريعة ذلك الرسول مجمعين عليها ، ولم يكلفهم فى زمان واحد بشرعين مختلفين حتى يكون اختلاف الأديان سبباً لافتراق الناس وانقسامهم على أنفسهم . فلو كانوا امتثلوا أمر ربهم لأصبحوا فى كل زمان على دين واحد . لكنهم لم يتفقوا فى مراعاة واجب العهد الحاضر ، فكان منهم من أصر فى عهد عيسى على دين موسى الماضى ولم يعترف برسالة عيسى ، فحصل الخلاف بين اليهود والنصارى . وكان منهم من أصر فى عهد محمد على دين موسى وعيسى الماضيين غير معترف بالإسلام ، فحصل الخلاف بين اليهود والنصارى والمسلمين ، ولا ذنب للأديان فى هذا الخلاف ولا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم . والدليل على هذا أن الرسل لا يختلفون فيما بينهم ولا يكذب بعضهم بعضا .

فتبين أن دين الله واحد فى استطاعة كل إنسان أن يجتمع فيه مع جميع أبناء نوعه فى كل زمان ومكان ، بخلاف المبدأ القومى المفرِّق الحقيقى بين البشر ، فلا يمكن أن يكون العربى تركيا بكلمة واحدة ولا الهندى ألبانيا ولا الفرنسى ألمانيا حتى ولو أرادوا أن يكونوا . وهذا على الرغم من كون كلهم من نسل أب واحد وأم واحدة .

وكتاب الإسلام ينص على وحدة دين الله وعدم التفريق بين رسل الله ومبادئهم ، فيقول : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ويقول : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » والتفرق فى الدين سببه التفريق بين الرسل وعدم الإيمان بجميعهم.

٢ — فيه تعريض لسيدنا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما الإنجيل والقرآن ، ولم يجترئ الشاعر على ذكر اسم الأخير فى معرض الاستهانة ، بصراحة .

٣ — ماذا يريد أن يقول الشاعر؟ نعم: لم ير الناس بعد سيدنا موسى عصا تنقلب ثعبانا وتلقف ما يأفكون .

٤ — هذه الدعوى إنما تروج عندالجاهلين بالفرق الأساسى بين المعجزة والصناعة لأن الصناعة مبناها على العلم التجريبى مهما عظم أثرها ، فهى تابعة للسنة التى اختارها الله فى خلق الأشياء والتى سماها الغرباللاديني قوانين طبيعية ، لاتتخطى إلى ماورائها. فأصحاب المكتشفات العلمية الراقية لم يأتوا بالخوارق وإن نمت مكتشفاتهم بها مبالغة، لأنهم يحتاجون فيما يخترعون إلى التوسل بالأسباب الفطرية المواتية ، ولا يزال هذا الاحتياج يبقى مهما ارتقى العلم . ولا كذلك المعجزات التى تخرج على تلك القوانين وتخرقها ، فلا تحتاج إلى توسط الأسباب ، فهى من صنع الله مباشرة ، ولهذا يفوق أصغرها أعظم المخترعات العلمية ويمتاز عليه بدلالته على أن من ظهر هذا على يده فله صلة خاصة بالله ورسالة منه إلى عباده . ولقد أحسن المغفور له الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا حيث قال فى مقالته المنشورة فى الجزء التاسع من المجلد السابع من « مجلة الأزهر » :

« إرادة الخالق جل وعلا ليست مقيدة بسنة أبدا ولا نعلم من طريق إنجازها إلا :

« كن فيكون » وهذا هو الفرق الأساسى بين المعجزة التى هى من صنع الله مباشرة وبين أفعالنا المقيدة بالسنة الإلهية . »

ولايعرف الشاعر الجاهل الذى استصغر معجزات رسل الله إكباراً للعلم ومكتشفاته، أن المعجزة شيء عظيم إلى حد أن علم الملاحدة يراها مستحيلة الوقوع ، ومن استصغرها تعظيما للعلم فقد استصغر العلم الذى يستعظمها وينكرها لاستعظامها . فانظر ما قال هذا الغافل وما قال عبد العزيز إسماعيل باشا تغمده الله برحمته .. فقد أثلج صدرى كلامه وفهمه لحقيقة المعجزة بين الكثرة الذين حُرموا هدايةَ الفهم ـ ولا أدرى ماذا قال الأستاذ مدير المجلة ورئيس تحريرها لما قرأ مقالة الباشا؟ والأستاذ من منكرى المعجزات كما عرفت مما سبق . ولقد أحسن الباشا المغفور له أيضا فى التعبير بالسنة الإلهية عما يتداول فى ألسنة الكتاب المعاصرين بلفظ «الأسباب الطبيعية» وهو التعبير الصحيح وإن كنا قد نجارى الألسنة المصرية فى هذا الكتاب ، لكوننا فى موقف التفاهم معهم على موضوعه .

٥ — الضمائر غير ضمير (وارثه) راجعة إلى النبى الجديد القائم فى الناس والمفهوم أنه الغرب ، ولو قلنا إنه العلم الحديث والضمائر راجعة إليه كان للعلم علم . والشاعر كذب مرة ثانية فى هذا البيت ، لأن علم الغرب لم يُحى بعدُ ميتا كما أحياه المسيح عليه السلام، ولا يزال الطب يتضور عجزا عن مداواة كثير من الأمراض بله أن يحيى الميت .

٦ — الجنين ما استتر عن العيون . وكأنه أراد به الميكروبات التى لا ترى إلا بواسطة الآلات المكبِّرة . والعلم وإن كان استطاع رؤية بعض أنواعها والوقايةَ من بعض مضارها فكم هناك منها ما لم يره أو لم يتغلب عليه بعد رؤيته ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

ويحتمل احتمالا بعيدا أن يكون مراده من الجنين معناه المعروف مما فى بطون الأمهات ، فيشير الشاعر إلى إمكان معاينته بواسطة ما اكتشف العلم وما يكتشف من الأشعة وتعيين جنسه ذكراً أو أنثى . ثم يحتمل احتمالا أبعد أن يحاول بهذا البيت معارضة كتاب الله القائل « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . لكن الآية نزلت على سؤال بعض الناس الرسول عليه الصلاة والسلام هل يعلم الأمور الخمسة المذكورة ؟ فجاء الجواب بالنفى يعنى أن الله يعلمها ولا يعلمها الرسول . وفضلا عن هذا فإن جواب القرآن أتى عن ثانى الأمور الخمسة وثالثها فى أسلوب يختلف عن أسلوب الثلاثة الأخرى وإن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .

فالشاعر أتى فى شعره بما أتى من الفرطات ثم نفى فى آخره الأديان غير دين العلم وصرح بأنه أى العلم وحده جدير أن يكون دين العقول وذويها ، يعنى أن العلم يكفيهم ويغنى عن الدين . لكن العاقل يعرف أن قول الشاعر هذا ليس بقول ذى عقل وفهم. ولنا عودة إلى التكلم على هذا الشعر إن شاء الله .

غير انى أقول هنا عن هـذا الشعر المستهين بدين الله وأنبيائه ومعجزاتهم ، إن صاحبه نشر أخيراً فى جريدة الأهرام أيضاً قصيدة بعنوان « فرنسا » يبكى فيها على فرنسا التى انهارت فى أوائل الحرب الأخيرة أمام جيش الألمان فقال فى تلك القصيدة مخاطباً لفرنسا ومعظما لشأنها :

لولاكِ ما عرف الإنسان قيمته   لولاكِ ما أصبح الإنسان إنسانا

وكتب فى هامش هذا البيت أنه يشير إلى ماسبق للفرنسيين فى ثورتهم المشهورة من أنهم كانوا أعلنوا بيانا عن حقوق الإنسان .

وأنا لا أذكر ما تضمنته تلك الثورة من الأخطاء الفاحشة والمظالم الطائشة وما

أعقبها من انهيار المبادئ الدينيـة والأخلاقية الذى لابد أن يكون له تأثير فى انهدام فرنسا فى الحرب ، كما لا يصعب فهم ذلك من تصريحات رجالها الآخذين بزمام الحكم على أثر الانهدام والانهيار وعلى رأسهم المارشال «بيتان» ولا أذكر أيضا ماللفرنسيين أنفسهم بعـد نشر ذلك البيان عن حقوق الإنسان، من استعمار البلاد الذى لا معنى له إلا استرقاق أهلها . أما الذى أذكره فهو أن الشاعر نفسه ما عرف قيمة إنسانيته وإنسانية إخوانه حتى بعد أن عرّفت فرنسا قيمة الإنسان ، حيث لم يتذكر حين تعبّد لفرنسا بقصيدته أنمعبودته استعبدت المغاربة ومن قبلُ السوريين وهم إخوانه العرب. فهل هم عرفوا قيمة إنسانيتهم بفضل سادتهم الفرنسيين ، أم إنهم ليسوا معدودين من أفراد الإنسان عند الشاعر ؟

وليعرف هو إن كان لايعرف، أن قيمة الإنسان معروفة منذ نص كتاب الإسلام على قوله تعالى للملائـكة : «إنى جاعل فى الأرض خليفة» . . معروفة منذ قال لهم ذلك ومنذ أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا .

* * *

فقد استبان القارئ مما قدمنا من الأمثلة الهامة لاسيما البعض منها الحائز لقوة أمثلة كثيرة ، أن الرأى العام العلمى السائد فى مصر مسموم ، وهو يظل ينتحر بهذا السم[1] منذ نشوب النقاش بين الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية وبين الأسـتاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » كما حكينا فى الرقم (٣) وعدمِ توفق الشيخ المفتى للتغلب على الأستاذ المنشئ . فلو كان الشيخ صرع خصمه الذى استمد فى حملاته على مصارعه من دعوى أن العقل والعلم ينكران كل مالم يثبت وجوده بالتجربة الحسية

[١] وإن كان تأثير السم فى البعض النادر من المصابين المذكورين بأسمائهم ، خفيفا يرجى له العصمة من الهلاك بفضل إيمانه القوى، ولا يصعب على القارئ النبه تعيين ذلك البعض .

لما كان الأستاذ فريد وجدى بك يجترئ بعد أن شهدت مصر ذلك الصِّراع والصرع ولم تنسهما ، على أن يقول عند مناقشته إياي المنشورة قبل سنوات على صفحات جريدة الأهرام : « إن العلم الحديث الغربى قذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير وإن الشرق الإسلامى اطلع على هذا القذف بعد اتصاله بالغرب وعلومه ورأى دينه ماثلا بين الأديان المقذوف بها فأحجم عن مكافحة القاذف ولم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية !!. »

فدل هذا القول من الأستاذ على كثير من المعانى الخطرة المتعلقة بحياة مصر الدينية. ودل أيضا على أن الأستاذ فريد لايعتد بما سبق للشيخ محمد عبده المسمى الأستاذ الإمام من الدفاع عن الإسلام عند مناقشته الأستاذ فرح أنطون ، بل لا يعده كلمة منبوسة ؛ ودل كون الأستاذ فريد ـ الذى جىء به عقب هذه الإفشاءات إلى رأس مجلة الأزهر ـ ترجمانا عن الشرق الإسلامى فى استبطان الإلحاد ، على أن اليأس عن الدفاع المستولى على الأستاذ حتى بعد شهود الدفاع الواقع من الشيخ محمد عبده ، مستولٍ عنده على الشرق الإسلامى مطلقا ، حيث استبطن الإلحاد واختاره بدلا من مكافحة العلم المسلط على دينه .

وهذا السقوط الدينى للشرق الإسلامى أفظع عندى وأعظم خطرا وأكثر مساسا بكرامته من سقوطه السياسى الذى جعل له فى الدنيا موقف الذل والتطفل على دول الغرب فقد يكون له الحصول على مايستحقه من المكان فى الأرض بعد ذاك السقوط بواسطة السؤال الملحف أمام تلك الدول والتفنن فى الإلحاف ، وليس له بعد السقوط الثانى الدينى إلا الحصول على مكان فى جهنم يتلو أمكنة تلك الدول . يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين .

فكأن الرأى العام العلمى الذى كان يراقب النقاش الجارى بين الشيخ وبين الأستاذ فرح أنطون فى حينها وفيما بعد ذلك الحين ، اطمأن إلى جانب الأستاذ فأخرج الدين من دائرة العقل والعلم وبقى من بقى بعد هذا من المسلمين على دينه ــ إن لم يكن من العامة السذج ــ فى عقيدة يساورها الشك فى صحتها ولا سيا فى موافقتها العقلَ والعلم أو يخالطها الحذر من وضعها موضع البحث والنظر، فلا ينبس بكلمة فى هذا الصدد كما قال الأستاذ فريد وجدى بك ويخلى الجو للذين يتكلمون ويدسون فى كلامهم مايهيئ الأذهان لقبول ما يستبطنونه ويتمسكون به من الإلحاد من غير مبالاة ولا وجل من مغبة مايدسون تيقناً منهم بأن مصير إخوانهم القارئين مصيرهم متى وصلوا إلى درجتهم العلمية .

وأنت ترى منذ عهد الشيخ محمد عبده الذى ناقشه وغلبه فى نقاشه ــ أو عده الرأى العام كذلك ــ الأستاذُ منشئ مجلة «الجامعة» ومؤسس عقلية الإنكار فى مصر لما لا يشهد به الحس والتجربة ومقدمها للناس على أنها شمار العلم والعلماء ... ترى أن هذه العقلية ارتكزت فى نفوس المتعلمين، لحد أنه لم يبق شىء مما أنكره ملاحدة الغرب الماديون إلا وأنكره هواة العلم الحديث بمصر ولو كانوا من علماء الدين . حتى إن فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء ووكيل كلية الشريعة أنكر وجود الشيطان وادعى كون المراد من الشيطان الوارد ذكره فى القرآن نزعات الشر المنبثة فى العالم . ثم أيد إنكاره لمّا اعترض عليه ، بقول من الإمام الغزالى يوهم عدم وجوده . والشيخ يعلم أن الكتاب والسنة لا يُنسَخان بقول الغزالى ، فلهذا لا نشتغل بنقل قول الغزالى ولا ببيان الفرق بين قوله وقول الشيخ شلتوت ، وإنما نقف على نص الأستاذ القائل فى تفسير قوله تعالى « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا » :

« معنى الشيطان نزعات الشر المنبثة فى العالم على مقتضى سنة الله من الابتلاء بعوامل الخير والشر فهم بذلك يتبعون قوة خفية أُطلق عليها كلمة الشيطان جريا على عادة

العرب المألوفة أن كانوا يتصورون قوة الشر شياطين تتحدث وتناجى وتغرى وتدفع إلى ماتريد . »

وعندى أن السند الحقيق الذى لم يصرح به الشيخ العصرى قولُ العلم الحديث الغربى غير المعترف بوجود أى شيء لم تشهد به التجربة الحسية ، لا قول الغزالى ، إذ لا داعى لتأويل مايتصوره القرآن كشخص يؤمر بالسجود لآدم فيأبى، ويجادل اللهَ لتبرير إبائه بأنه خير منه لكونه مخلوقاً من نار وآدم مخلوقاً من طين .. لا داعى لتأويل هذا الشخص بنزعات الشر ، غير كون العلم الحديث التجربى لايؤمن بوجود شيطان غير مشهود .

ولا يلتفت إلى ما اعتذر به الشيخ بعد ذلك من أن القرآن ماعرّفنا بكنه الشيطان، كأن القول بوجوده يستلزم العلم بكنهه ، فقد كفانا أن القرآن ذكر عنه أوصافاً وحالات لا تتفق مع تفسيره بما فسر به الشيخ كقوله : « كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى » ، وقوله : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » ، وقوله : « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين »، وقوله: « فاخرج منها فإنك رجيم » ، وقوله : « وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين » ، وقوله: « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين » ، وقوله بعد الآية التى فسر فيها الشيخ الشيطان : « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا .. ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا. يعدهم ويمنِّيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ».

فهذه الآيات صريحة فى أن الشيطان كائن حى يتكلم ويرى ويتكبر ويجادل ويقسم وينسل ويُطرد ويُرجم ويعذب فى جهنم مع الذين أغواهم . ورجم الشيطان من مناسك الحج فى الإسلام . ولوجود هذه التصريحات وأمثالها فى القرآن بكثرةٍ تجعل الشيخ

المنكر لوجود الشيطان مضطراً إلى الاعتراف بأن بيانات القرآن لاتتحمل ذلك التفسير المبتدَع ، نرى الشيخ يقول مناقضاً لادعائه بأن القرآن ما عرفنا بكنه الشيطان : «إن القرآن جارَى اعتقاد العرب فى تصويره كشخص يتحدث ويناجى ويُغري ويدفع إلى ما يريد» وهو جرأة شنيعة على القرآن الذى جاء للقضاء على عقائد العرب الباطلة ، جرأة تقلبه فتجعله ماشياً على عقائدهم مؤيداً لها .

لم كل هذه التخبطات التى لايقوم صاحبها منها إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ؟ أليس دافع الشيخ الأزهرى إليها كونه اتخذ العلم الطبيعى الحديث الذى لا يعترف بوجود ما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية ، أساساً وجعل كل شىء حتى كتاب الله تابعاً له ؟ كما صرح به شيخ أزهرى آخر مدرس فى كلية الشريعة بصدد الدفاع عن الشيخ الأول ، وكما هو أساس الداء المصرى الذى نضعه فى هذا الكتاب تحت مشرح الدرس .

كان علماء الإسلام قبل حدوث العقليات المصرية يقبلون كل ما ورد فى نصوص الكتاب والسنة على ظواهرها إلا ما تعارض منها مع العقل المحض لا العقل التابع للحس . فعند ذلك يؤولون النصوص . لكن علماء آخر الزمان يعاملون المانع الطبيعى معاملة المانع العقلى ، وهم مخطئون فى عدم التمييز بين العقل الذى يكون حكمه قطعيا مستندا إلى أحد المبادئ الأولى ويكون ما ينفيه مستحيل الوجود كشريك البارى وما لاينفيه ممكن الوجود ، وبين الطبيعة وعلمها الذى لا يكون ما اعترف به واجبا ضروريا وما لم يعترف به مستحيلا ، كما يأتى تفصيل كل ذلك فى محله من هذا الكتاب. ولا شك أن نظر العلماء المتقدمين المحققين أدق من نظر المتأخرين المقلدين أدعياء العلم الحديث الغربى التجربى ، والعلم لا يجدى شيئاً بدون العقل السليم ، فهل العلم المذكور اطلع بتجاربه على كل موجود حتى يكون ما لم يطلع على وجوده كالشيطان ، غير

موجود ؟ فإذن يلزم أن لا يصح للعلم اكتشافات جديدة عن وجود أشياء لم تكن معلومة له من قبل فيقفَ العلم فى الحد الذى وصل إليه وينسدّ على وجهه أبواب الرقى والاتساع الجديدين .

وآخر ما أقوله هنا : إذا بنى أمر الإنكار والإقرار على شهادة التجربة الحسية كما هو شرط العلم الحديث فى زعم الغافلين عن حدوده فلا مانع من أن يكون منكر الشيطان ومؤوله بنزعات الشر منكراً للرحمن أيضا ومؤولَه بنزعات الخير !!

بقى أن فضيلة الشيخ شلتوت قال لى عند اجتماع لجنة النهوض بالمساجد فى بيتى بمصر الجديدة وكنا عضوين فى تلك اللجنة : « أنا لا أنكر وجود الشيطان وكيف أنكر وجود إبليس » .

وكأنه يقول إن الشيطان الذى أنكره غير الشيطان المعروف المسمى إبليس . وهو يريد بهذا القول القصير تهيئة خط الرجعة لإنكاره بتأويل قوله الأول بصدد الإنكار .

وكان لفظ الشيطان فى الحقيقة صالحا لأن يكون له معنى مجازى غير معناه المعروف كما فى قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » لكن أقوال الشيخ التى تقوّلها من قبل تأييداً لقوله المنكر كادعاء أن القرآن لم يعين كنه الشيطان وإنه جارى عقائد العرب ، ينافى قوله الأخير الشفهى فى تأويل الشيطان الذى أنكره أولا ، وقد صدر هذا الإنكار منه عند تفسير قوله تعالى : « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا » مع أن تمام هذه الآية نفسها وهو « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا » يتعين فى إبليس ويأبى تراجُعَ الشيخ تحت ستار التأويل .

***

عود على بدء : كنت قلت : كأن الرأى العام العلمى الذى راقب المناقشة الصحفية الجارية بين الشيخ محمد عبده وبين الأستاذ فرح أنطون فى حينها وفيما بعد ذلك الحين، اطمأن إلى جانب الأستاذ فرح فأخرج الدين من دائرة العقل والعلم ، وبقى من بقى بعد هذا من المسلمين على دينه ـ إن لم يكن من العامة السذج ـ فى عقيدة يساورها الشك فى صحتها أو يخالطها الحذر من وضعها موضع البحث والنظر ، فلا ينبس بكلمة فى هذا الصدد كما قال الأستاذ فريد ويخلى الجو للذين يتكلمون ويدسون فى كلامهم ما يهيئ الأذهان لقبول ما يستبطنونه ويتمسكون به من الإلحاد ، من غير مبالاة ولا وجل من مغبة ما يدسون ، تيقناً منهم بأن مصير إخوانهم القارئين مصيرهم متى وصلوا إلى درجتهم العلمية .

ففكرت ملياً وملئ الأسى والأسف، ثم رأيت من الواجب بل من أوجب الواجبات أن أدعو هذا الرأى العام العلمى المعاصر إلى الإفاقة عن غيه وأريه الغبن الفاحش فى اشترائه الضلالة بالهدى لا من ناحية الدين فقط ، بل من الناحية العلمية أيضا ، وإن كان الذين طبع الله على قلوبهم لا يفقهون العلم من الجهل ولا ينفعهم التعليم والتنبيه، إذ لا شيء من ذلك يُسقط منى واجب التفهيم ولا من القارئ واجب الإصغاء والاهتمام. ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم .

وبعبارة أخرى لما لم تنتج المناقشة الجارية بين الشيخ محمد عبده وبين الأستاذ فرح أنطون غلبةَ الحق على الباطل بل أدت إلى زعزعة مكان الحق فى قلوب كثير من المؤمنين بدلا من ترصينه، وجب استئناف تلك المناظرة على أتباع الأستاذ فرح القائلين بمثل ما قاله وإثبات أن الدعاوى التى ادعاها فى مناقضة العقل والعلم للدين افتئاتٌ على العقل والعلم القديم والحديث. اللهم إلا إذا كان العلم فى الشرق والغرب منحصراً فى علم الملاحدة مثل « بوخنر » وأضرابه وأذنابه ، والعقل فى عقولهم السخيفة ، وليس الأمر كذلك

لأن فى الغرب مسالك فلسفية ورجالا آخرين كثيرين انتقدوا مذهب المادية الإلحادية والإثباتية الوضعية انتقاداً شديداً ولم يوافقوهم على القول بمنافاة العقل والعلم للدين .

وإنى أردت أن أكون القائمَ بهذا الواجب الكبير[1] مع عجزى وغربتى بمصر وباللغة العربية ، لأنى بحمد الله غير غريب عن الإسلام وعن العقل الذى يحفه من كل جانب، ولأن الإسلام أيضا أصبح غريبا فى هـذا الزمان فلا غرو إذا كان الغريب للغريب نسيبا وظهيرا . ثم إنى مؤمل أن يكون قد حصل بعض الألفة فى هذه البلاد بكتابى العربيـة الأعجمية، فإن وفقنى الله عز وجل لإعادة أحد من القراء إلى رشده بإزالة الشبه التى ألقاها فى قلبه دعاة الإلحاد ومستبطنوه الدساسون ـ الذين ذكرهم الأستاذ فريد وجدى بك تبجحاً بهم وإنذاراً لى بنبوغهم ـ فهو غنيمتى من هجرتى إلى مصر ، غنيمتى الباردةُ التى لا تنغص بهجتَها شمسُ مصر فى الصيف ولا خيال ظلال بوسفور ، وهو خدمتى وشكرى لمصر التى آوتنى وأسرتى[2] والتى كانت لها سمة قديمة فى الإسلام منذ فتحها عمرو بن العاص فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما

---

[١] خلاصة المقصود من هذا الـكتاب إحياء علم أصول الدين الذى نعاه الناعون فى مصر باسم علم الـكلام ، إحياؤه بتدريس من لم يدرسه أو تفهيم من لم يفهمه من الدارسين منحصرا فى مسائل منه تشتد الحاجة فى هـذا العصر إليها وإلى تفهيم من لم يفهمها ، بأسلوب مزيج من الفلسفة القديمة والحديثة وطريقة تخضع لها العقليات المستعارة من الغرب ، مع بعض من غير مسائل علم الـكلام شديد الحاجة إليه أيضا بل شديد الاتصال أيضا بذلك العلم . وليس المقصود استعراض علم أصول الدين بجميع مباحثه فى هذا الـكتاب ، ولا أن يكسب به القارئ النجاح فى الامتحانات المدرسية التى يحصل الفائز فيها على الشهادات بل ليكون ناجحا فى الامتحان الأكبر الذى ينتظره فى الآخرة ويعيش فى الدنيا مؤمنا حقيقيا .

[١] ولا تقل كيف تقضى لمصر حق الشكر بهذا الـكتاب مع ما فيه من النقد المر لـكثير من كبار كتابها وعلمائها الحاضرين والغابرين ؟.. لا تقل هكذا لأن الشكر النافع للمشكور لاسيما من مثلى يكون كذلك . أما شكر المدح والثناء فصر متخمة منه بأحيائها وأمواتها . على أنى ـ كما يرى القارئ ـ لا أضن بهذا النوع من الشكر أيضا عند ما وجدت أهلاله فى غضون مباحث الـكتاب وأدعو الله سبحانه أن يكثر من أمثالهم .

ومكانة معروفة فى العلم منذ توطنها وقضى نحبهم فيها أئمة الدين العظام ـ الشافعى والليث والمزنى والطحاوى والجصاص وابن الحاجب وابن الهمام وأكمل الدين والاتقانى وعز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد وابن خلدون والبدر العينى وابن حجر العسقلانى والسبكى والجلال السيوطى وغيرهم ممن لا يحصى عددهم ، ودامت سيادة الإسلام والعلم فيها إلى أن خلف من بعدهم خلف سودوا العقلية الإلحادية التى يتصل حبلها بالجاهلية القديمة الفرعونية وضيعوا سيادة الإسلام بين الجاهليتين الحديثة والقديمة .

ثم إن مسألة وحدة الوجود التى ترجع إلى فكرة جد غريبة فى موقف العالَم من الله كما أشرت إليه فى اسم الكتاب ، رأيتها عقلية شائعة بين طائفة من المتصوفين يرأسهم الشيخ محيى الدين بن عربى وبين مكبريه من المسلمين الذين لايقدرون قدر خطر تلك العقلية على العقيدة الإلهية الصحيحة ، بالرغم من وجود كثير من العلماء الأعلام بين أولئك المكبرين ، ورأيت بعد تفكير ملىٍّ أن هذه النظرية العظيمة الخطر والضرر مشتقة من القول بأن وجود الله عين ذاته كما ذهب إليه الفلاسفة وتبعهم جمع من محقق المتكلمين ومتأخريهم وفضلوه على مذهب جمهور المتكلمين القائلين بأن وجود الله غير ذاته ، أى غير متحد معها فى التصور ، والخلاف بين الفريقين فى مسألة كون وجود الله عين ذاته أو غير ذاته بحث معروف فى علم أصول الدين . فأردت درس المسألتين أيضا فى هذا الكتاب أعنى مسألة وحدة الوجود ومسألة كون وجود الله عين ذاته درساً وافياً يستكشف جذور ما فيهما من الأخطاء والأضاليل ثم يستأصلها وإياها .

فهذه أربع مسائل يتكون منها موضوع الكتاب جعلت لكل واحدة منها باباً: مسألة إثبات وجود الله إثباتا علميا لايقل قيمةً وقوةً عن مسائل العلوم المثبتة بل يفوقها، ومسألة وحدة الوجود وما اشتقت هى منه ، ومسألة إثبات إمكان المعجزة ومعها إثبات

النبوة وإثبات النشأة الأخرى مع ما فيها من بعث وحشر ونعيم وعذاب ، ومسألة فصل الدين عن الدولة هل يسوّغه الدين الإسلامى وتتطلبه مصلحة الأمة أم تمانعانه ؟

ومسألة وحدة الوجود التى هى الثانية من هـذه المسائل الأربع المتكون منها الـكتاب والتى شغلت أذهان كثير من مفكرى الإسلام واستمصت على الفحول من العلماء الأعلام : جاءت فى كتابى وحيدة فى بابها من حيث تحرى الدافع إلى نظرية غريبة كهذه لا ينساق إليها العقل إذا خلى وطبعه ومن حيث التعمق فى المقارنة بين أدلة الإثبات والإبطال . والـكاتبون عن هذه المسألة فى الأزمنة القريبة إنما حاموا حول اكتناهها من بُعدٍ ولم يدقوا الباب فضلا عن دخولهم الدار . ومن نـكد الأيام وطغيان الجهل أن يكتب عن هذه المسألة الموصاء شاعر عراقى أو ناثر مصرى معروفان لو فرض فرض المحال فاتحدت الموجودات على مقتضى وحدة الوجود وأصبحت موجودا واحدا ينطوى على وجودهما أيضا ، لأفسدا تلك الوحدة بشذوذ عقلهما عن عقول الآخرين .

فأمامنا أربع مسائل لا تقل أخراها خطراً فى الدين والمجتمع عن أولاها مع كون هذه الأخرى أحوج الـكل فى زماننا إلى الدرس والتمحيص لـكون انخداع النـاس بها أكثر وظنهم أنها منشأ رقى الأمم الأوروبيـة وأن ترك العمل بها منشأ تأخر المسلمين[1] كما أشار إليه مؤلف « حياة محمد » وكما ادعاه الأستاذ فرح أنطون مناقش

---

[١] كما أن الإيمان بالقدر الذى يؤول إلى عقيدة الجبر والذى يلام به الإسلام وينسب تأخر المسلمين إليه فى زعم الزاعمين من أهل الغرب ومقلديهم فى الشرق ، عنيت بتحقيقه مرة ثانية فى هذا الـكتاب بعد أن درسته مستقلا فى كتابى « تحت سلطان القدر » وتعمقت فى دراسته ، لـكونه من أعوص مسائل الدنيا الدينية والعلمية .. حتى إن أحسن حل له فى الاعتراف بامتناعه عن الحل . فهو يجارى مسألة « وحدة الوجود » فى الإعضال وإن كان خطر الخطأ فيه لايبلغ مبلغ خطر الخطأ فيها .. وللعقل السليم أن يتخلص من إعضالها بالبت فى إبطالها ، من دون أن يكون له التخلص من إعضاله .

الشيخ محمد عبده ولم يرد عليه الشيخ ردًّا حاسماً وإنما أجاب بما يشبه التقهقر أمام خصمه أكثر من الرد عليه فحمل تأخر المسلمين على جمود علماء الدين . وجاء هـذا الجواب ضغثاً على إبالة ، فصدق الناس ما ادعاه مناقش الشيخ فى المسائل التى كانت مواضع الخلاف بينه وبين الشيخ وصدقوا الشيخ فى هجومه فقط على جمود العلماء فأصبح مصيبة رابعة على الإسلام زيادة على المصائب التى أتت من قِبل خصمه .

وشاهدى على صدق قولى هذا أيضا ما كتبه الأستاذ فريد وجدى بمناسبة ما حدث فى تركيا من فتنة ترجمة القرآن وإقامة الترجمة التركية مقام الأصل العربى فى الصـلاة وغيرها[1] ولم يقتصر الأستاذ على تحبيذ حادثة الترجمة فقط ، بل حبذ جميع ما فعلته حكومة أنقرة ، وإن كان جل ما كتبه بهذا الصدد قبل أن عين مديراً ورئيس تحرير لمجلة الأزهر . وقد ذكرت ذلك ورددت عليه فى كتابى « مسألة ترجمة القرآن » . ولا بد من نقل بعض كلمات الأستاذ المذكورة هناك ليُعلم مبلغ خروج الناس على الجمود بعد أن شجعهم الشيخ محمد عبده عليه كقوله :

« إن الشعب التركى الذى أشبه الشعوب الحية فى دخوله أدوار الانقلابات الاجتماعية لَيستحق منا كل الإعجاب وكل التشجيع إن لم يكن باعتبار أنه أقرب الأقربين إلينا فباعتبار أنه دفع شبه القائلين بأن العالم الإسلامى متحجر لا يصلح أن يجارى سواه فى حلبة الحياة الاجتماعية » .

وقوله : « فنحن الذين شهدنا هذه الآية [يعنى الانقلاب التركى الكمالى] يحرم علينا أن نصغر من شأنها أو أن نمر بها غير مكترثين ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مر بها الترك متى جاء دورنا فى نهوض حقيق صحيح فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درسا فلا أقل من أن نعجب به مع المعجبين » .

---

[١] ومما يلفت النظر أن هـذه الفتنة على الرغم مما وجدت مظاهرين فى مصر مثل الأستاذ فريد وجدى بك والأستاذ الأكبر المراغى لم تنجح فى تركيا التى هى محل حدوثها .

يعنى المعجَبين الغربيين الأجانب عن الإسلام، وأكثرهم إعجاباً به أعداهم للإسلام والترك ، لأن خلاصة ذلك الانقلاب قطع صلة الترك بالإسلام وبتاريخ الترك الذى مضى فى المجاهدة فى سبيل الإسلام وإعلاء كلمته ، والذى لم يجئ فى ماضى الترك أشرف من ذلك التاريخ ولن يجيء فى المستقبل لا جاءهم الله به ماداموا منحرفين عن الإسلام. ثم إن الخلاصة الثانية لتلك الانقلابات القضاء على جميع مقومات الترك من الدين والزى والحروف واللغة حتى الموسيقى وحتى النكاح والغيرة على النساء، ولا يتمنى مثلَه لقوم إلا عدو ذلك القوم . فالأستاذ فريد وجدى الذى يتمنى لمصر أن تمر بكل الأدوار التى مر بها الترك الكماليون متى جاء دور مصر فى نهوض حقيقى صحيح ، معناه أنه يتمنى أن تكون لمصر حكومة لا دينية وحروف لاتينية ولغة غير عربية أو عربية عامية ونكاح غير شرعى وقانون يبيح زواج المسلمات بغير المسلمين ويبيح الارتداد عن الدين ويساوى فى الميراث بين الذكر والأنثى ويأمر بلبس القبعة وخلع الطربوش والعمامة ويقاتل من أراد لبسهما ويسد المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية ويمنع منح جواز السفر إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج ويحل الجمعيات الدينية مثل جمعية تحفيظ القرآن والهداية الإسلامية والشبان المسلمين وشباب محمد . وهكذا يكون لمصر النهوض الحقيقى الصحيح ، كما كان لتركيا الجديدة .

وهذا الأستاذ مدير « مجلة الأزهر » اليوم ورئيس تحريرها الذى ما كنت أحب إطالة الكلام عنه وعن مذهبه فى الإسلام والقرآن والنبوة والمعجزة لكنه يتمثل شخصه ومركزه فى منبر الأزهر دليلا ناطقا بحال مصر وموقفها من الإسلام ، هذا الأستاذ كتب مرة ان الأمم الإسلامية لفى حاجة إلى تقليد الغربيين فى كل شيء حتى ملاهيهم ومراقصهم والحادهم إن أرادت أن تبلغ شأوهم فى حلبة الحياة[1]

[١] ما أشبه هذا القول بقول « آغا اوغلى احمد » من كتاب أنقرة: « إنا عزمنا أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التى فى رئيهم والنجاسات التى فى أمعائهم » .

وأن اليابان لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد تقليدهم فى جميع هذه الأمور . وادعى فى كتابه « الإسلام دين عام خالد » أن علماء الغرب مستغنون عن الاهتداء بهدى الشرائع المنزلة لأنهم أنفسهم وُضّاع الشرائع والمذاهب وهذا القول من الأستاذ الذى لا يؤمن بمعجزات الأنبياء يدل دلالة واضحة على أن منشأ عدم هذا الإيمان عدم إيمانه بنبوات الأنبياء بمعناها المعروف عند أهل الأديان وهو كونهم مبعوثين من عند الله إلى الناس، إذ لو كانوا كذلك لكان الناس عامتهم وخاصتهم سواء فى وجوب طاعتهم والعمل بشرائعهم التى أتوا بها من الله كما يكون عامل الملك وقانون حكومته مطاعَين للجميع من غير فرق بين الخاصة والعامة فيه ، ولكان ما قاله الأستاذ من استغناء العلماء والحكماء الغربيين عن طاعة الأنبياء بمثابة استغنائهم عن طاعة الله .

ومعنى كون الإسلام دينا عاما خالدا فى نظر الأستاذ أن هذا الدين مستعد لكل تجديد وكل تعديل وتغيير حتى قال الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » عن الأستاذ فريد وجدى بمناسبة مقالة له نشرت فى « الفتح » رداً على مقالة الكاتب الكبير المرحوم الأمير شكيب أرسلان ، وما أحسن قوله :

« الأستاذ لا يزال مصرا على أننا نحن المسلمين فى أنحاء المعمورة مجبولون على الجمود وأن هذا الجمود لا يمكن علاجه إلا بنسف الإسلام وأنه بعد انقضاء الأمد الطويل على الثورة التى يُنسف بها الإسلام سيرجع الثائرون على الإسلام إلى الإسلام فيكونون أحسن منا نحن الجامدين » .

وأنا أقول ليسمعْ مفتى الديار المصرية الشيخ محمد عبده فى قبره أقوال رئيس تحرير مجلة الأزهر الناسفة للإسلام فى معالجة جموده ، وهو الذى طالما كان يشكو فى حياته من جمود الأزهر ، فليسمعها وليبتهج من كثرة ما أثمرته شجرة الخروج على الجمود . وبقية الكلام فى الجمود والخروج على الجمود تأتى إن شاء الله فى الباب الرابع المعقود لمسألة فصل الدين عن الدولة .

سؤال مفروض أُورده عليّ ثم أُجيب عنه :

فإن قيل إن ثورة الأستاذ فريد وجدى على الدين دفاعاً عن ثورة الأتراك الكماليين وقوله الشاذ فى آيات المعجزات والبعث بعد الموت الواردة فى القرآن والتى وجدها الأستاذ لا تأتلف مع العقل والعلم ، وقوله فى حاجة الأمم الإسلامية إلى تقليد الغربيين فى كل شىء حتى ملاهيهم ومراقصهم وإلحادهم ، وقوله باستغناء علماء الغرب عن الاهتداء بهدى الشرائع الإلهية المنزلة على الأنبياء .. كل ذلك من الأمور الماضية التى لا ينبغى أن نذكرها مهما كانت قريبة العهد لم ينسها قراؤها ، لكن الأستاذ يحامى اليوم من علا منبر الأزهر عن الإسلام كأحد علمائه الغيورين على دينهم وكمحاماته التى اشتهر بها فى ماضيه البعيد . وما فرط منه بين ذلك الماضى والحال يكون عفواً كشر مضمحل بين خيرين ، فالأستاذ ليس من الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا المذمومين فى كتاب الله ، بل من الذين آمنوا ثم ثاروا على الدين ثم سكنت ثورتهم وآمنوا من جديد . فهل من الحق والعدل هذه المؤاخذات المصوبة نحوه وإدخال شخصه فى مقدمة هذا الكتاب المؤلف ضد الملاحدة كعنصر هام من أسباب تأليفه ؟

قلت على فرض توجيه هذا السؤال إلىّ فإنى أسأل القائل السائل : هل الأستاذ رجع فى دوره الثالث عن أقواله فى دوره الثانى الثائر ، وصرح بكونه مخطئاً فى تلك الأقوال ؟ ولا سيما فى قوله بأن آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت من متشابهات القرآن غير المفهومة أو غير ممكنة القبول عند العقل على ظواهرها ، استبعاداً منه لوقوع تلك المعجزات فى زمان الأنبياء ووقوع البعث بعد الموت للإنسان إذا جاء وقته المقدر بمشيئة الله[1] وقوله بلزوم تقليد الشرق الغرب فى كل شىء حتى فى إلحاده

---

[١] وجواب هذا الاستفهام أن الأستاذ لا يسعه مركزه فى عالم التحرير أن يرجع عن أخطائه مهما عظمت، فهو لا يعتبرها أعظم من مركزه ، ولو وسعه مركزه لايسعه فهمه أن يقدر =

وملاهيه ومراقصه إن أراد أن يرق رقيه . وقوله باستغناء العلماء الغربيين عن اتباع الشرائع المنزلة . وقوله فى مقالة عنوانها « سطوة الإلحاد على الأديان » ولا أدرى أين نشر الأستاذ هذه المقالة وإنما رأيت نقولا عنها فى مجلة « الهداية الإسلامية » بعددها الصادر فى صفر سنة ١٣٥١ قال :

« تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين فاقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الإقناع وفى هذه الأثناء كان العلم يؤتى ثمراته من استكشاف المجهولات وتخفيف الويلات وترقية الصناعات وابتكار الأدوات والآلات ويعمل على

= عظمة تلك الأخطاء . فلا يتنازل أبدا عن ضلاله القديم فى جوهره، لاسيما إذا سبق أن ناقشه أحد على ذلك الضلال ، وإنما يسعى ليسيغه فى أسلوب يظن الغافل أنه يقوم بواجبه فى رئاسة تحرير « مجلة الأزهر » وربما يتجلد فيصرح بأنه ثابت فى رأيه أو بالأولى يصرح بما يفهم منه من يفهم أنه ثابت فى رأيه الذى يبعد عن وظيفته فى الأزهر بعد المشرقين وهو لا يتزحزح عنه قيد شعرة .

ألا يرى أن الأستاذ بعد أن مضت عليه فى دوره الثالث سنوات طويلة وأوشك أن تكون أقواله فى دوره الثانى المادحة للإلحاد النافية للمعجزات نسيا منسيا ، يقول فى الجزء السابع من المجلد الحادى عشر « لمجلة الأزهر » من مقالة له عنوانها « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » :

« الأمور الخارقة للنواميس فى وقعة بدر »

انظر إلى هذا الكلام كيف يتراجع فيه الأستاذ بين إنكار المعجزات والاعتراف بها ؟ فأولا يدعى أنه يكتب السيرة المحمدية تحت ضوء العلم أى يكتبها على الأسلوب العلمى خالية عن الخوارق التى هى المعجزات الكونية ومتفقة مع النواميس الطبيعية ، بناء على أن العلم والنواميس الطبيعية لا يقبلان الخوارق ، ولهذا أخلى الدكتور هيكل باشا كتابه « حياة محمد » من المعجزات الكونية واعتذر عما فعله بأن العلم لا يقبلها . وهكذا يريد الأستاذ فريد وجدى أيضا أن يكتب فى « مجلة الأزهر » السيرة المحمدية ، لا كما كتبها كاتبو السيرة القدماء المضيفون إلى حياته صلى الله عليه وسلم خوارق . ولذا قال الأستاذ بعد عنوان مقاله المنقول آنفا :

« تمتاز العصور النبوية « يعنى عصور الأنبياء » بالخوارق للنواميس الطبيعية . فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . =

تجديد الحياة البشرية تجديداً رفعها عن المستوى فشعر الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا إليه فى عهد الحياة الحرة وتحت سلطان العلوم المادية وبين ما كانوا عليه أيام خضوعهم لحفظة العقائد . فانتهز الإلحاد فرصة هذا الشعور الجديد وازداد كلبا على مهاجمة الدين واستهتر فى مطامعه فرمى إلى القضاء عليه القضاء الأخير » .

= « وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها وكانت أعظم شأنا وأجل أثرا من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ومما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه ؛ ولكن أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم فى أقل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون المديدة والآماد الطويلة .

« وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة على أن لا نسرف فى صرف كل ناحية إلى ناحية الإعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشىء من التكلف . مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت والمحافظين على إقامة الدستور العلمى ، ثقة بأن بحثا لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدى إلى ما قصد منه من الخدمة العامة » .

ومعنى هذا القول أنه يحرص فيما يكتبه على إخراج الحادثات التى اعتبرت معجزات عند قدماء المسلمين ، من أن تكون معجزات وردها إلى الأمور العادية حتى ولو بشىء من التكلف . وليس الدافع إلى هذا إلا كون العلم لا يقبل المعجزات وأن النخبة المثقفة ثقافة عصرية تؤمن بالعلم ولا تقبل المعجزات التى لا يقبلها العلم .

فظهر أن الأستاذ بعد أن تولى الوظيفة الأزهرية كالأستاذ قبله فى عقليته المناوئة للمعجزات ومذهبه مذهب المحافظين على إقامة الدستور العلمى الذى لا يقبل ما لا يمكن إثباته بدليل محسوس كالأمور الغيبية التى تؤمن بها الأديان ، وليس هذا إلا مذهب ملاحدة الماديين والإثباتيين أو الوضعيين. ومراده من النخبة المثقفة التى لا يحترم عنده ما لا تحترمه هى ، الفئة التى عبر عنها حين كان حرا من وظيفته الأزهرية بالشرق الإسلامى المستبطن للالحاد . فالأستاذ لم يغير شيئا من مبادئه الضالة . فهو عند القيام بواجبه فى رأس « مجلة الأزهر » يستطيع أن يحول وجهه إلى فئته ونخبة قارئيه فيصارحهم فى مناجاتهم ولا يكتم ثقته بغفلة القراء المؤمنين من ناحية وبضعف مركزهم فى البلاد من ناحية، رغم تسميتها بالبلاد الإسلامية . فأين لجنة الفتوى الأزهرية ورئيسها الذى أرسل كتابا =

وقوله أيضا فى تلك المقالة : « وهم (يعنى رجال الدين الذين قد يتستر فيعبر عنهم بحفظة العقائد) يرون أن العـلم والفلسفة ينقصان من أطرافهم كل يوم وأن الناس يتسللون عنهم زرافات حتى لم يبق سواهم فى المجال الذى هم فيـه . فابتنى على ذلك أن الفلسفة المادية التهمت الطبقات المتعلمة وأصبحت عنصراً من عناصر روح العصر تنزل منها العادات والآداب والأخلاق بل والأنظمة والقوانين والمثل العليا » .

= إلى وزارة الشؤون الاجتماعية يعاتبها على مانشرته مجلة الوزارة واستفتى المسلمون اللجنة بشأنه من أن سيدنا موسى لقيط وسيدنا عيسى فى حكم اللقيط ينسب إلى نجار ؟ أين لجنة الفتوى؟ ولماذا لا ترى « مجلة الأزهر » وما يكتب فيها رئيس تحريرها ؟ ولعل محرر « مجلة الشؤون الاجتماعية » لا يملك حذاقة كافية فى صنعة الدس فلا يستطيع القيام بخدمة المبادئ العلمانية اللادينية من غير أن تثير ضجة المسلمين من أصحاب الأفـكار القديمة . أما محرر « مجلة الأزهر » فقد رأيت كيف يكلم الناس فى مقالة واحدة بلسانين ويتناجى مع فريق من مخاطبيه فى غفلة فريق .

فهو فى الخطوة الأولى من كتابة « السيرة المحمدية » يسجل على مذهبه ومذهب نخبته فى المعجزات ، ثم لا ينسى أن يولى وجهه الآخر نحو منصبه فى رئاسة « مجلة الأزهر » وقرائه من غير نخبته فيفكر فى أن النبى لابد أن تكون له معجزة ، فالواجب فى حياة نبينا الممتازة على حيـاة أسلافه الـكرام أن تشتمل على معجزات ليست بمعجزات ، والأستاذ لا يعجز عن الجمع بين هذين النقيضين ، حيث قال أولا عن عصور الأنبياء إنها عصور الأساطير من حيث اشتمالها على الخوارق للنواميس الطبيعية وإن واضعى تلك الأساطير وضعوها لأن لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب على الإذعان للمرسلين . فهذا إعلان من رئيس تحرير « مجلة الأزهر » بإنكار المعجزات جميعا لا لإنكار واحدة منها مثل تولد سيدنا عيسى من غير أب كما فعلته « مجلة الشؤون الاجتماعية » .

ثم يقول : « وقد حدثت أمور من هـذا القبيل فى العصر المحمدى » ، فتظنه يعترف للعصر المحمدى بما أنكره لعصور الأنبياء من المعجزات وحملها على الأساطير ، ثم يضيف إليه قوله : « وكانت أعظم شأنا وأجل أثرا من كل ماسبق من نوعها » وهو مقدمة للرجوع من الإقرار إلى الإنـكار ، يعنى أن معجزات العصر المحمدى ليست كمعجزات العصور الأولى من قبيل الأساطير، ثم يزيد فى إيضاح مراده مما اعترف للعصر المحمدى بما أنكره للعصور الأولى من الخوارق فيقول : « ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس » راجعاً إلى مذهبه الأصلى الذى هو إنكار المعجزات مطلقا سواء كان للعصر المحمدى أو لغيره من العصور المتقدمة ، لأن هذه الأمور الثلاثة التى ذكرها أمثلة لما لم =

فعلى ما ادعاه الأستاذ الشامت بالدين وحَفَظَة عقائده أن العلم قد قضى عليهم كلهم القضاء الأخير . وكان الأستاذ يوم كتب هذه الأقوال لا يدرى أنه سيتولى الوظيفة الأزهرية ويدخل فى عداد حفظة العقائد المقضى عليها وعليهم . فهل حدّث قارئيه عن الطلسم الذى أحيا به الموتى؟ ولم يكن الأستاذ يؤمن بالمعجزة ولا بالبعث بعدالموت

= يقصده من المعجزات المحمدية التى اعترف بها، أمثلة الخوارق الحقيقية للنواميس الطبيعية . وهو أى الأستاذ لا ينأى بجانبه عنها لشبهة فى صحة رواية بعضها بل لكون كل منها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس . فمذهبه مذهب الماديين غير المؤمنين بغير المحسوس ، مع أن الأمثلة المذكورة من الأمور المحسوسة فى حينها . فإذن يلزم من نفاها أن ينفى كل ما مضى فى التاريخ وينفى حتى وقعة بدر لعدم إثباتها اليوم بدليل محسوس . لكن مراد الأستاذ من إمكان إثبات الشىء بدليل محسوس إمكان الإثبات بمثال محسوس من جنسه فى العصر الراهن وذلك بأن لايكون من الخوارق للنواميس الطبيعية . وإعراضه عن الأمثلة الثلاث المذكورة التى تناقلها الناس ليس لكونه يدعى أنها لم تقع فى حينها بل لكونه يدعى عدم إمكان ذلك لمخالفتها النواميس ، وهذا هو الداء العياء للشرق الإسلامى المصرى المثقف بالثقافة المادية والذى لم يتخلص منه الأستاذ رغم توليه الوظيفة الأزهرية منذ سنوات طويلة ورغم نقاشه فى خلال هذه الوظيفة الأستاذ نصيف المنقبادى المحامى المادي وسنتكلم على ذلك النقاش أيضا .

فمحصل مذهب الأستاذ فريد وجدى بك فى المعجزات أن ما سبق الإسلام منها فى عصور الأنبياء كلها أساطير وما ينسبه الناس إلى العصر المحمدى من الخوارق للنواميس الطبيعية فهى أيضا أساطير لا أصل لها .

ثم إن الأستاذ الذى لعب دوراً وافتنا إليه من اللف والدوران المنتهى فى إنكار المعجزات المحمدية أيضا ، يعود فيحاول أن يستخرج من الأمور الواقعة فى بدر غير الخارقة للنواميس الطبيعية خوارق لتلك النواميس مثل غلبة العدد القليل من المؤمنين على العدد الكثير من المشركين، ولينظر القراء من غير النخبة المثقفة إن لم تنظر هى : كيف يكون الأستاذ المنكر للمعجزات الخارقة للنواميس مضطرا إلى إيجاد معجزات خارقة للنواميس من الأمور غير الخارقة ؟ فهذا الاضطرار منه حسبه منبها — لو كان ينفعه التنبيه من غيره ومن نفسه — على خطأه الفاحش فى إنكار معجزات الأنبياء الخارقة للنواميس وعلى أن المعجزات يلزمها أن تخرق النواميس الطبيعية لتكون معجزات ، وإلا فلماذا يسعى الأستاذ أن يقلب الأمور الواقعة فى بدر مما لا يخرق النواميس الطبيعية فيجعلها خارقة لها كغلبة القليل على الكثير؟ وهى رغم ادعاء الأستاذ أشبه بالأمور العادية منها بالمعجزات لو وقع =

فهل الطلسم بين فكى قلمه إن شاء يوما قضى به على الدين وإن شاء يوما قضى على العلم (وسيجيء ذلك منه) وأحيا المقضى عليهم الأولين فينضم إليهم ؟ أم الأستاذ كما قال الشاعر :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن ... وإن لقيت معديًا فعدنانى

وهل صرح الأستاذ أيضا بعد تولى الوظيفة الأزهرية ، برجوعه عن تحبيذ الانقلاب التركى اللادينى وتشجيعه قائلا : « إننا سنمر بكل الأدوار التى مر بها

= مثلها فى جيش من لا يدعى النبوة . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وإن كان ذلك لاسيما مثل غلبة بدر فى غاية الندور ، لكن المعجزة لا تطلق على النوادر وإنما تطلق على الخوارق .

ومثل ما وقع فى بدر من غلبة القلة على أضعافها من الكثرة ولم يصح مع ذلك عده معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يده فى أقل من ربع قرن والتى اعتبرها الأستاذ معجزة أعظم شأنا وأجل أثرا من المعجزات كما نقلنا من قبل ، وهى ليست بمعجزة حقيقية لعدم كونها خارقة للنواميس فهى معجزة وليست بمعجزة فى الوقت نفسه ، معجزة لكونها أعظم شأنا وأجل أثرا من المعجزات ، وليست بمعجزة لعدم كونها خارقة للنواميس ، ولكونها ممكنة الحصول على يد غير النبى عند الأستاذ نفسه ، حتى لو لم تكن كذلك وكان حصولها على يد غير النبى مستحيلا كانت خارقة للنواميس وكان حصولها على يد النبى أيضا مستحيلا عند الأستاذ . فإذن لا يصح ذكر هذه الانقلابات من الأستاذ على أنها معجزة دالة على نبوته صلى الله عليه وسلم .

ودليل آخر على أن الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد نبينا ممكنة الحصول عند الأستاذ على يد غير النبى ، أن الانقلاب التركى الذى تم على يد مصطفى كمال فى أقل من ربع قرن جدير أيضا عند الأستاذ أن يعد معجزة وهو ينعت صاحب هذه المعجزة بأنه « عبقرى أنقذ أمة الترك من مخالب الدول العظيمة الغالبة فى الحرب العالمية الأولى » فجعلها كأنها غالبة على الغالبين وأرى العالم أكبر مثال لغلبة القليل على الكثير ، وزاد على ذلك « أن دفع أمة الترك للتقدم بخطوات لم يعهد لها مثيل ولا فى تقدم الأمة اليابانية » فهذه غلبة ذلك العبقرى وهذا انقلابه اللذان تما على يده . والغريب أن الانقلاب الاجتماعى الذى تم على يد مصطفى كمال تجلى بهدم الانقلاب الاجتماعى الذى تم على يد نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان نعت الأستاذ لمصطفى كمال خاليا فقط عن =

الأتراك متى جاء دورنا فى نهوض حقيقى صحيح فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك فلا أقل مع أن نعجب به مع المعجبين »[١] .

ثم هل نوابغ الكتاب والشعراء فى البلاد الإسلامية الذين ذكر الأستاذ استبطانهم الإلحاد رجعوا بعد تولى الأستاذ رئاسة «نور الإسلام» و «مجلة الأزهر» عما يستبطنونه وأصبحوا من أنصار الإسلام ؟ وكان فى الإمكان أن يجاب عن هذا السؤال الأخير بالإثبات لو وُجدت رئاسات مثل رئاسة مجلة الأزهر ووُلِّى كلٌّ واحدة منها واحد من أولئك المستبطنين ، أو كانت لآية المحكمات والمتشابهات التى وجدها الأستاذ فى القرآن

= وصفه بصفة النبوة على الرغم من كونه صاحب معجزة أعظم شأنا وأجل أثرا عند الأستاذ من المعجزات .

الحاصل أن الأستاذ يصر على إهمال المعجزات الحقيقية وعدم الاعتداد بها إلا من الأساطير ، مستنداً فى إصراره إلى دعوى التماشى مع العلم ، ثم يسعى فى اعتبار الحادثات التى لا يصح عدها من المعجزات ، معجزات ! حتى إنه يغمض عينيه عن ألف من الملائكة مردفين أمد الله بهم المؤمنين فى وقعة بدر ، كما قال الله تعالى « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » يغمض عينيه عنهم مع كونهم منصوصا عليهم فى كتاب الله، ومع كون نص الكتاب هذا مذكورا فى مقالة الأستاذ عن السيرة النبوية ومع كون الإمداد بالملائكة معجزة حقيقية غير قابلة للتأويل بالأسباب العادية ، وأصل العلة التى فكرة الأستاذ معتلة بها مع فكرة نخبته المثقفة المصرية كونه لايؤمن بالمعجزات ، فلهذا تراه يتلاعب بها نفيا وإثباتا . وغير خاف على الفطن أن فى اعتبار ماليس بمعجزة معجزة ، علاوة على إلغاء المعجزات التى تكون خارقات للعادات والنواميس الطبيعية والتى هى المعجزات الحقيقية ، استهانة مضاعفة بالمعجزات وإنكارا لها مضاعفا .

[١] راجع كتابى «مسألة ترجمة القرآن» ص (١٤٢). على أن من رأى الجزء الثانى من المجلد الثامن من « مجلة الأزهر » الصادر تحت إشراف الأستاذ فريد وجدى وقرأ التقريظ الآتى لم يتردد فى الحكم بأن الأستاذ فى دوره الثالث لم يتغير عنه فى دوره الثانى : « كمال أتاتورك .. هذا عنوان ملحق لمجلة الهلال نشرته فى نهاية سنة ١٩٣٦ على عادتها فى نهاية كل سنة من سنى حياتها المباركة . وموضوع هذا الملحق من اجل الموضوعات وأنفعها : درس حياة عبقرى أنقذ أمته من مخالب الهلاك وزاد على ذلك بأن دفعها للتقدم بخطوات لم يعهد لها مثيل ولا فى تقدم الأمة اليابانية فهذا الكتاب آخذ بالقلب من رواية وأنفع للقارئ من كتاب علمى . »

وأعلنها فى « الأهرام » وقت حدوث النقاش بينى وبينه ، مانعةَ الصواعق ، قيمةٌ إقناعية حقيقية للوقاية من صاعقة الإلحاد .

وهل يُعقل أن رجلا كالأستاذ هدم الأديان ـ ولو فى زعمه ـ بمعول العلم الحديث الذى اعترف له بالدولة فى الأرض وقذف بما هدمه إلى عالم الأساطير قاطماً صلته بعالم الحقائق .. هل يعقل أنه يستطيع أن يبنى ما هدمه فى مرأى ومسمع المشاهدين لحادثة الهدم أو بالأصح لحادثة مساعى الهدم .. هل يستطيع أن يبنى بأقوالٍ تُناقض أقوالَه الأولى الهادمةَ لا مؤلفا بين أقوال الدورتين دورة الهدم ودورة البناء ولا معترفاً فى دورة البناء بأخطائه فى عملية الهدم السابقة[1] أفلا يقول الناس عن أقواله فى دورته البنائية أنه يتكلم بدافع الوظيفة الرسمية لا عن عقيدة صميمية ولا يمدونه فى تلك الأقوال « غير مصارح بالحقيقة غير أمثاله » كما ذكره هو نفسه عن نوابغ الكتاب والشعراء فى البلاد الإسلامية المستبطنين للإلحاد ؟ فهل الأستاذ حين قال فى دورته الهادمة وتشدّق فى القول :

« فى تلك الأثناء وُلد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا « الأساطير » ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف

---

[١] فكأن الأستاذ فريد وجدى البانى غير الأستاذ فريد وجدى الأول الهادم وكأنه ليس عند الأستاذ الثانى خبر عن الأول ولا عن هدمه وإلا كان من واجبه أن يناقشه حساب الهدم.

من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية.

«وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو يُنفوْا من الأرض » .

إلى آخر مقالته المنشورة فى « الأهرام » والتى لا تكفى لغسلها أنهر مقالاته اللاحقة المكتوبة فى « نور الإسلام » أو « مجلة الأزهر » ولا أبحرها ، فهل هو حين صال صولته وقال قولته الخارجة على الأديان الجارحة فى مَقاتلها ، لا يفكر فيما سيقوله يوما فى ص (٤٨٩) من الجزء السابع من المجلد الخامس من مجلة « نور الإسلام » الأزهرية :

« استمر الناس محتفظين بعقائدهم حتى وُلدت الفلسفة المادية فى القرن السادس عشر فاتخذت مظهراً خطيراً من الاعتقاد بالعلم الطبيعى فافتتن بها قصار النظر (كنوابغ كتاب البلاد الإسلامية وشعرائها) وما زالت تؤثر فى أمثالهم فى القرنين التاليين وصارت فيهما له دولة (يسكت الأستاذ فى هذه المرة عما لدولتها من المستعمرات فى الشرق الإسلامى) فتدارك الله الناس بما وجه عقولهم إليه من مكتشفات علمية فى المباحث النفسية أثبت لهم من طريق الأسلوب العلمى أن هؤلاء الماديين على ضلال مبين » .

فهل هذه المكتشفات العلمية ضد الفلسفة المادية الإلحادية وتدارُك الله الناس بها كل ذلك حصل مع تولى الأستاذ رئاسة تحرير مجلة «نور الإسلام» أم إنه كان حاصلا قبله فكتمه حين كتبه فى « الأهرام » كلماته التى تحدى فيها الأديان بلسان العلم

الحديث وأعلن عجزالشرق الإسلامى عن أن ينبس بكلمة أمام هذا التحدى واضطرارَه إلى استبطان الإلحاد وتمسكه به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية ، وأعلن اضطرار الأستاذ نفسِه بسبب هذه الكارثة إلى إلغاء ربع القرآن وإخلائه عن المعنى المفهوم ؟ فن أين للأستاذ هذه القوة السحرية التى بُعثت بها الأديان من قبورها بعد أن كانت مقذوفاً بها إلى عالم الأساطير ؟ فهو جعل الأديان أولا أماتها العلم الطبيعى ثم يجعلها يحييها علم النفس ، مع أن كلا من الإماتة والإحياء لا أصل له إلا فى مخيلة الأستاذ وستعرف ذلك .

وكان الأستاذ حين كان مع العلم الطبيعى والفلسفة المادية اللتين أذعن لدولتهما فى الأرض ، يستشعر من تشابه الأديان السماوية بعضها مع بعض أنها من موضوعات البشر مشتقة الأصول بعضها من بعض وأن إسنادها إلى الله كذب ودجل ، كان فى ذلك الحين يسلّم للعلم الطبيعى والفلسفة المادية بهذا الظن السيء نحو الأديان ولم ينبس بكلمة فى الرد عليــه مع أن تشابه الأديان السماوية الحقّ بعضها مع بعض فى الأصول ضرورى ، لكون واضعها جميعها هوالله الذى لا يناقض نفسه فى أديانه التى دعا إليها عباده فى أزمنة مختلفة[1] كما ناقض الأستاذ نفسه حين اعتبر تشابه الأديان مع بعضها أولا من عيوبها وهو يومئذ متكلم بلسان العلم لا يسمع لكلامٍ غير كلامه . ثم اعتبر هذا التشابه بعد أن عين لرئاسة مجلتى الأزهر وتولى الدفاع عن الدين كمحام يدافع عن قضية موكله ــ من فضائلها مناقضةً خالصة من غير أن يرجع عن قوله فى مقالته التى ناقشتُه عليها والتى نقلت منها آنفا ما يلفت إليــه . فانظر ماذا يقول فى الجزء السابع من المجلد السابع من « مجلة الأزهر » من مقالة رئيسية وهو يمتدح الإسلام :

---

[١] وكتاب الإسلام لا يخفى هذا التشابه بل يجهر بقوله فى خطاب خاتم الرسل : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه » .

« ومن الوسائل التى تذرع بها الإسلام للتقريب بين الأمم المختلفة ما نص عليه كتابه فى مسألة الإيمان برسالة محمد خاصة ورسالات المرسلين عامة ؛ فقد صرح سبحانه وتعالى أنه لم يرسل خاتم رسله بدين جديد ولكنه أرسله بالدين الذى أنزل على جميع من تقدمه من المرسلين . فقال تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب. وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير) .

« نصت هذه الآية على أن وظيفة النبى صلى الله عليه وسلم إعادة ماسبق به الوحى على ألسنة جميع المرسلين من الدين والصراط السوى فحرفه أتباعهم وخرجوا به عن حقائقه » .

وهل الأستاذ عند إيمانه بالعلم وحده ـ أعنى العلم المادى ـ لايعرف ماسيقوله أيضا فى ص ٣٩ من المجلد السادس من مجلة نور الإسلام :

« كتبنا مرارا فى سقوط المذهب المادى وتدهوره إلى الحضيض وصورنا بعض المعارك التى حدثت بينه وبين أركان العلم فى العالم الغربى ونرى أن الواجب (واجب الوظيفة) يدعونا إلى متابعة الكشف والإيضاح عن هؤلاء المعارك الفلسفية . فإن الدين فى العصر الحاضر لا يُخدَم بأحسن من دحض هذا المذهب الذى كان له رواج لدى بعض العقول فتخيلوه من العلم وما هو منه فى كثير ولا قليل . »

وما سيقوله فى مقالة ينشرها فى جريدة « الأهرام » عدد (١٩٣٨) عند مناظرته الأستاذ نصيف المنقبادى المحامى الذى أنكر حادثات تحضير الأرواح وردها إلى الدجل والنصب مستنداً إلى عدم قبول العلم أى العلم الحديث المادى أمثال تلك الحادثات فقال الأستاذ فريد وجدى مجيباً عليه :

« يقول حضرته (يعنى الأستاذ المنقبادى) العلم يبرأ من هذه الخرافة . فأى علم يريد ، والعلم نفسه يعلن أنه لم يجاوز قشر الأشياء ولم يعد يعرف بعض الملاقات بينهما وأعلن حيرته فى كنه المادة وحقيقة الإدراك وما لا يحصى من دساتير فيزيولوجية وبيولوجية وغيرها مما لا يحصى كثرةً وقد صرح أكبر أقطابه أنه لا يزال فى المهد . فأى علم هذا الذى ينطق بلسانه الأستاذ المنقبادى ويجمله يقول هـذا ممكن وهذا مستحيل ؟ »

وأنا أقول لو كنت مكان الأستاذ المنقبادى ـ ولا أود أن أكون ـ لقلت جوابا على سؤال « أى علم هذا .. » : هو العلم الذى قال الأستاذ السائل نفسه عنه فى مقالته المنشورة على « الأهرام » قبل أن عين مديراً ورئيس تحرير لمجلة « الإسلام » الأزهرية تأييداً لإنكار معجزات الأنبياء :

« .. فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليهـا أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخـذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا للتقدس تقديسا ولـكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله . وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سـنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس

من مدنيته المادية ووقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا (الأساطير) ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية .

« وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه المباحث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض »[1] .

ولو كنت مكان الأستاذ النقبادى لقلت أيضاً هو العلم الذى قال الأستاذ السائل نفسه عنه فى مقالة أخرى سابقة : « إن العلم والفلسفة ينقصان كل يوم من أطراف رجال الدين وإن الناس يتسللون عنهم زرافات حتى لم يبق سواهم فى المجال الذى هم فيه فابتنى على ذلك أن الفلسفة التهمت الطبقات المتعلمة وأصبحت عنصراً من عناصر روح العصر تتنزل منها العادات والآداب والأخلاق بل والأنظمة والقوانين والمثل العليا » .

يكاد لا يوجد فى الدنيا مثال لمناقضة الإنسان نفسَه أبلغ وأظهر مما ناقض الأستاذ فريدوجدى بك بعد توليه الوظيفة الأزهرية نفسَه قبل توليها : فهو يخوّل للعلم الحديث المادى أولا حق الحكم والسلطان فى الأرض ثم حق القذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير ولمتعلميه حق استبطان الإلحاد ، ويجعله يحكم باستحالة ما نطقت به كتب الأديان السماوية من معجزات الأنبياء وأنباء البعث بعد الموت . وهو القائل ثانيا :

[١] نقلت كلام الأستاذ هذا من قبل أكثر من مرة أو مرتين أو مرات وبودى أن أكرره كلما دعت إليه مناسبة التحكك فى هذا الكتاب بأقوال الأستاذ لأنه — ولم يحرك ساكنا غيرى عند نشره على صفحات « الأهرام » — حسبه معرفا بموقف مصر من العناية بالدين ، والسهر على حياته وصيانته من مكايد المعتدين .

« أى علم هذا الذى يحكم بأن هذا ممكن وهذا مستحيل ؟ والعلم لم يجاوز قشر الأشياء وهو بعد فى المهد » .

ويكاد لا يوجد فى الدنيا بلد « كل شيء فيه ينسى بعد حين » مثل مصر كما قال أمير شعرائها ، ولا فى مصر مثل الأستاذ فريد وجدى بك حيث يجترئ على أن يدعى نقيض ما ادعاه من قبل على صفحات الصحف اعتماداً على غفلة القراء واعتبارهم أقل من أن يسجلوا ما كتبه عليه ، لا رجوعا عن دعواه الأولى واعترافاً بخطئه فيها ولو فعل ذلك كان فضيلة لنفسه ...

بل لا يكاد يوجد مثل مشيخة الأزهر رأت فى الصحف والمجلات مقالات ثار كاتبها على الأديان جملة وحمل عليها حملات باسم العلم ساعياً لهدمها ورأت أنه ينكر معجزات الأنبياء والدار الآخرة ويلغى فى سبيل إنكارها ربع القرآن تقريبا . رأت كل هـذا فانتدبت ذلك الساعى فى هدم الأديان وإقامة الإلحاد مقامها باستبطانه أولا ثم الجهر به لما جاء أوانه ، للدفاع عن الإسـلام ، انتدبته للدفاع عنه على الرغم من أنه ادعى عند ثورته على الأديان أن الإسلام كغيره فى عدم إمكان الدفاع عنه وأن إنقاذه وإخراجه عن حفرة الأساطير التى قذف به إليها مع سائر الأديان أكبر من أن يحاوله محاول لـكون القاذف هو العلم الحديث الذى دالت الدولة إليه فى الأرض .

وأنا لا أدرى أى الموقفين أعجب وأمس بكرامة الواقف ؟ أموقف الأزهر الذى احتاج إلى شخص الهادم لأمر البناء ، أم موقف الهادم المتولى بناء ما هدم بيده ؟ وأطرفُ ما فى الأمر أن الرجل لا يستطيع البناء كما أنه لم يستطع الهدم ، وإنمـا هو هادم نفسه فى حالتيه ، وعلى هـذا فقد يمكن الاعتذار عن فعل الأزهر الذى انتدب الهادم للبناء ، بأنه استدرجه ليهدم نفسه !!

أقول هذا غير حاسد الأستاذ فى مركزه بالأزهر ومجلة الأزهر وليس فى الإمكان

أن أحتل محله فى رئاسة تحريرها ، ولـكنه إن لم يوجد فى الأزهر ولا فى مصر للدفاع عن الإسلام غير من سعى بالأمس ليهدم الأديان كلها ولم يكن هذا التحول لشعور منه أو اعتراف بأنه مخطئ فى أقواله السابقة الهدامة فيرجع عنها كما يرجع التائب عن ذنبه ، بل لأجل وظيفة فى مقابل أجرة لا بأس بها حتى إنه إن أقيل عن وظيفته خيف من معاودته إلى تعديه على الأديان، ولا تـكون تلك المعاودة أول تحوله ضد الأديان. فما هو إلا كالسجين يؤمن شره مادام فى السجن وسجن هذا السجين وظيفته الأزهرية، ولعل موقفه الخاص بين الموظفين يكفل له بدوام الوظيفة . لـكنه إن لم يوجد فى الأزهر ولا فى مصر من يدافع عن الدين غير هـذا الذى يدور مع الزمان وينقلب مع انقلابه فعلى الأزهر وعلى مصر العفاء .

وجدّ عجيب من الأستاذ تحوله ضد الفلسفة المادية لا من قبيل تصحيح الخطأ ولا من حيث لا يشعر بالتحول بل من حيث لا يُشعر به . انظر كيف نزل العلم الحديث المادى الذى ما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فقضى بسلطانه المسلَّم به على الأديان كلها ولم يستطع الشرق الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه مع جميع كتابه وشعرائه النوابغ (وأين علماؤه؟) أن يدافع عن دينه أمام القاضى عليه فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله بل اضطُر إلى اعتناق الإلحاد دينا سريا له ... كل هذا مأخوذ من كلام الأستاذ فى إكبار ذلك العلم وتأثيره فى الشرق الإسلامى ضد الدين .. انظر كيف نزل هذا العلم بين عشية توليه الوظيفة الأزهرية وضحاه إلى حد أنه « كان يوما ما له رواج عنـد بعض العقول أو بالأصح عند بعض قصار النظر فتخيلوه من العلم وما هو منـه فى كثير ولا قليل ! » وكيف حق له هذا الاستصغار بعد ذلك الإكبار ؟ فماذا كان إذن معنى كون الشرق الإسلامى

يرى الأمر أى أمر الدفاع عن دينه أكبر من أن يحاوله؟ وإذا لم يكن ما تخيلوه من العلم فى كثير ولا قليل منه فلماذا كان الأستاذ قبل توليه الوظيفة الأزهرية يحاول هدم الأديان به ويُوليه اسم العلم بملء شدقيه ويراه صاحب الدولة فى الأرض؟ أفكل هذا الذى يسلبه الجدارة باسم العلم تعلّمه الأستاذ فى هذا المهد الأخير؟

وهل الأستاذ أيام إيمانه بالعلم وحده كان لا يعرف أيضا ما سيقوله فى ص (٦٩٥) من الجزء العاشر من المجلد السادس من «مجلة الأزهر»:

«مضى الزمان الذى كان يُعتبر الدين سخرة أو تقييداً للحرية الصحيحة أو حرماناً للنفس من مشتهياتها فى الحدود العلمية (قل أو شيئاً يقذف به إلى حضيض الميتولوجيا) وهذا زمان (لما جلا عينى الأستاذ بكحل الوظيفة)[١] تجلى فيه بالدليل القاطع أن الدين حاجة أولية للروح لا معدى لها عنه[٢] وإذا قلنا الدليل القاطع قصدنا به الدليل العلمى المؤسس على علم النفس. ولا يتسع المجال الآن لبيان ذلك على وجه يوفى بالحاجة العقلية من كل نواحى هذا الأمر الجلل، ولكنى أستطيع أن أقول على عجل إن الفلسفة المادية التى حاولت فى قرون ثلاثة أن تقطع كل صلة بين الإنسان وما فوق المادة، قد منيت بفشل حاسم لا قيام له من طريق العلم الطبيعى نفسه لا من طريق العلوم الدينية، فقد توصّل العلم إلى إحالة المادة إلى قوة أى إلى إثبات أن لا وجود لها وأنها عرض من أعراض القوة، وبزوال هذه العقبة الكأداء من طريق العقل الإنسانى انفتحت أمامه باحة لا حد لها إلى عالم القُوى التى هى مصدر كل موجود فى عالم الشهادة».

---

[١] الكحل معروف ويعنى المال الكثير.

[٢] الإيمان بالدين لكونه حاجة أولية للروح ليس بطريق متين فى إثبات الدين بل الواجب أن يؤمن به لكونه حقا.

على أن انقلاب الأستاذ لحساب الدين ضد الفلسفة المادية بهذه الطريقة مما لا حاجة إليه للدين لأن صلة عقل الإنسان بما فوق المادة كانت موجودة قبل ما ذكره الأستاذ من وصول العلم إلى عدم وجود المادة..وأن ما ذكره فى هـــذا الصدد لا يثبت عدم وجودها ولا كونها عرضاً من أعراض القوة وإنما يُثبت كونها قابلة للفناء الذى كان معلوما لأهل العلم الحقيق، لأن كل شيء غير الله تعالى قابل للفناء عندهم ، فمن مسائل المتون الـكلامية المؤلفة فى الإسلام قدماً أن العالم حادث وأنه قابل للفناء لأن ما لم يثبت قدمه لا يمتنع عدمه وأن المادة لم يثبت قدمها عنـد علماء الإسلام فلهذا لم يمتنع فناؤها . ثم إن المادة لو فرض أنها قديمة وأنها لا تنعدم بناء على أن ما ثبت قدمه امتنع عدمه فلا يمنع ذلك صلة عقل الإنسان بما فوق المادة، ألا يرى أن الفلاسفة الإلهيين أعنى المعترفين بوجود الله مثل أرسطو قائلون بقدم المــادة مع القول بوجود الله فليس ما اعتبره الأستاذ عقبة كأداء بعقبة ولا ما ذكره فى زوالها بمزيل . لـكن الأستاذ عند التكلم عن الفلسفة وعلوم الغرب ومكتشفاته لا يتكلم بميزان يميز النافع للدين من غير النافع بل ولا الحق من الباطل .

ومثال ذلك ما كتبه فى مقالة بعنوان « إلى الذين لا يؤمنون بالغيب » ص ٧٥٠ من الجزء العاشر من المجلد الرابع من مجلة « نور الإسلام » عن أمور لم تدركها الحواس فى حالتها الطبيعية مثل المـكروبات وغيرها مما لا يحس وجوده إلا بآلات دقيقة راقية ، ويحاول الأستاذ بتعدادها الاعتراض على الذين لا يؤمنون بالغيب، لـكنه ينسى أو يتناسى كونه نفسه هو الذى علَّم الناس ولا يزال يعلِّمهم عدم الإيمان بالغيب فى تمسكه دائما بقاعدة الفلسفة المادية القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به . وعلى هذا فالذين لا يؤمنون بالغيب الملومون فى مقالة الأستاذ لهم أن يقولوا جوابا على تلك الأمور التى عددها الأستاذ : إنها اليوم ليست بغائبة عن حواسنا ولو بواسطة الآلات ونحن لا نؤمن بالغيب ما دام غيبا ، وماذا فائدة ذكر الأمور التى كانت غيبا

ثم أصبحت شهادة ، بصدد الاعتراض علينا ؟ فإن كانت فائدته أن يستدل بها على إمكان وجود غيب آخر لم يصر بعدُ شهادة فلا يتعين أن يكون ذلك الغيب مايعتقده المؤمنون بالدين مثل وجود الله ، مع أن الاعتراف بإمكان وجود الله مثلا لا يكفى فى الدين بل يجب القطع بوجوده . فليس لنا بالنظر إلى أسلوب الأستاذ فى الدفاع عن وجود الغيب إلا أن نقول للذين لايؤمنون بالغيب: انتظروا وأنتم معذورون فى الانتظار حتى تكتشف فى الغرب آلة تعرض الله على الحواس !!

ومن قبيل ما كتبه الأستاذ فى هذه المقالة ما كتبه فى مقالة أخرى عنوانها : « لماذا يصادَف أكثر الشاكين فى المتعلمين ؟ » ص ٣٨٢ الجزء الخامس من المجلد السابع من « مجلة الأزهر » وقد قال فى صدر المقالة :

« من الشبهات التى تُكدِّر على بعض أذكياء العامة صفاءهم الاعتقادى أنهم يصادفون كثيراً من المتعلمين شاكين مستهينين بالدين ، وبعضهم مجاهرين بالزندقة زارين بالاعتقاديين ، وقد كثر أمثال هؤلاء فى طلبة المدارس وبخاصة الذين يتلقون العلم منهم فى أوروبا[1] حتى لا يخجل الواحد منهم أن يهاجم معتقدات أبويه مثيراً عليهما من الشبهات ما لم يصلا إليه ، فتسرب إلى عقول العامة أن العلم يفسد العقائد ويغرى بالزندقة ويُمِدّ القلوب للإلحاد » .

سبحان الله ، ما تسرب إلى عقول العامة من مضادة العلم للدين كان الأستاذ جهر به على صفحات « الأهرام » قبل الحصول على الوظيفة الأزهرية بأسبوع ، فهل كان هو يومئذ من العامة يجرى على قلمه ما تسرب إلى عقولهم ؟ إلا أن يلاحظ الفرق بينه وبينهم بأن العامة لكونهم لم يصلوا إلى درجة الأستاذ العلمية لايميلون إلى جانب العلم

---

[١] كان الأستاذ من قبل يجد طبيعيا التهام الفلسفة المادية للطبقات المتعلمة حتى إنه كان يشمت برجال الدين على انفضاض الناس من حولهم وعدم بقاء غيرهم فى المجال الذى هم فيه كما سبق نقله عن لفظه .

خاذلين الدين فى الحرب القائمة بينهما، ولا يقاس عليهم الأستاذ طبعا لا سيما بعد أن قال ما معناه : « إن العلم قذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير وانتهى الأمر ولم يبق للناس إما أن يكونوا متدينين من غير علم أو يكون علماء بلادين فلهذا اختار الشرق الإسلامى وعلى الأخص نوابغه من الكتاب والشعراء أن يستبطنوا الإلحاد ، على أن يظلوا جهالا ، فمن تردد فى اعتناق الإلحاد فمنشأه نقصان العلم ولا بد أن يكون مصيره مصيرَ النوابغ فى قبول الإلحاد سرا أو جهرا متى وصل إلى درجتهم العلمية . »

هذا كله مأخوذ من نص كلام الأستاذ من غير أدنى مبالغة زدناها عليه ، فهكذا قال من قبل ورسخ قوله فى قلوب المعترفين له بالنبوغ ثم أعدى الضلال منهم إلى غيرهم. فلا محل للتعجب إذا كان أكثر المتعلمين بمصر وغيرها من البلاد الإسلامية وبخاصة الذين تلقوا العلم منهم فى أوروبا مُلْهِمَةِ أقوال الأستاذ المضلة ، شاكّين مستهينين بالدين ألا يحبون أن يكونوا نوابغ بلادهم المعتاد أن يكونوا ملاحدة والمنتظر من كل من هو فى سبيل التعلم أن يكون مصيره مصيرَهم من الإلحاد متى وصل إلى درجتهم العلميــة؟ وكل كلام للأستاذ اليوم مخالفٍ لما قاله أولا فليس ببعيد أن يقول عنه الناس ولاسيما المتعلمون تلامذة الأستاذ الأولون : إنه محمول على مسلك الاستبطان الذى هو ملاذ النوابغ عند الحاجة كما نبه عليه الأستاذ نفسه من قبل وأطلعهم على هذه المهمة أيضا. وإلا فكيف أمكنه اليوم أن ينبس بكلمة فى الدفاع عن الدين على حين أن الشرق الإسلامى يرى الأمر — على قوله — أكبر من أن يحاوله ؟

وقال فى آخر المقالة : « أكثر المتخرجين فى العلوم يتوهمون أن ما حصلوه هو نهاية ما يبلغه الإنسان من العلم وأن الموازين والمقاييس التى تحت أيديهم تكفى لأن يدركوا بواسطتها ما هو موجود وما ليس بموجود وما هو ممكن وما هو محال . فمتى دُعوا لينظروا فى أمر من الأمور العلوية وزنوه بتلك الموازين فإن لم يتأثر به حكموا بعدم وجوده .

« هنا لعل قائلا يقول : هذه موازيننا فإن كان لديكم غيرها فأتوا بها، فإن لفتمونا إلى الموازين العقلية والذوقية فلا يخفى عليكم ما مُنِيتْ به من النقد فى العصور المتأخرة، وهى وإن كانت قد أقنعت أهل القرون الخالية فإنها اليوم لا تقنع أمثالنا ممن أدركوا الفرق بينها وبين الدستور العلمى » .

ونحن نقول إن المنهج الذى انتهجه الأستاذ فى إثبات الدين بقسر الوظيفة الأزهرية الطارئة غير مضمون النجاح ، لا أقول إنه غير صميمى فى الدفاع عن الدين صميميتَه فى حملته عليـه حين كان حرا من الوظيفة ، لـكنى أقول إنه لا يعرف طريق الدفاع الناجح كما أنه كان ولا يزال غير عارف بسخافة موقفه لما ضرب الدين بمدفع العـلم ، فلو كان ذا بصيرة فى موقف الهجوم لـما اجترأ عليه ولو استبصر فى موقف الدفاع وأدرك خطأه السابق لما سلك فى الدفاع طريقا وعرا . فهو فى حالتيه لا يفارق الضلال الفكرى ، فهو فيما نقلنا عنـه آنفا من السؤال المقدر الذى أورده على نفسه من جانب المتعلمين الشاكين، نص على خطأه الذى كان دافِعَه فى حالته الأولى إلى مهاجمة الدين، وهو فيما سننقل عنه من جوابه على سؤاله ينص على محل خطأه فى حالته الثانية . فهذا السؤال والجواب يلخصان ضلال الأسـتاذ القديم والحديث ويلخصان أيضا أعماله ومساعيه وخدماته القلمية الموجهة نحو إرشاد النـاس فى دورتيه المختلفتين . فليس للأستاذ قناعة اعتقادية متقررة فى مسائل الدين ، فهو يسعى لإقناع نفسه فيما كتبه لإقناع قارئيه على طول السنوات وهو فى طليعة الشاكّين عند ما يلومهم ويعمل على إزالة الشك من أذهانهم ، وهو زيادة على ما عليه الشاكون من أكبر المشككين ، وقد قرأتم سؤاله فاقرأوا جوابه عليه :

« فنحن نجيبه بأن الحق سبحانه وتعالى قد أتى هذه النزعة العلمية بما يوفى بحاجتها فقد فتح على أقطاب العلم تحت إشراف البحوث النفسية أبوابا من المشاهدات المحسوسة خرت لها أعناقهم خاضعين ، ولـكنهم لا يعيرون هـذه البحوث التفاتا ، فإن ذكروا

بها قالوا إنها أوهام قوم مخدوعين وهى فى الواقع تجارب ومشاهدات قام بها أقطاب العلم المقدمين من أعضاء الأكاديميات وعمداء الجامعات ، فإن كان خصومنا يصرون بعد هذا على موقفهم فالتبعة عليهم لا على نقص الموازين .

« وهـذا هو السبب الرئيسى فيما يصادفه الرائى من مظاهر بعض المتعلمين بعدم الأبه بغير المسائل المادية وقد بينت أنهم فى هـذا الشذوذ هم المقصرون ، وأن الحق جل شأنه آتى العقول فى كل زمان بما أحست بالحاجة إليـــه من وسائل البحث والتمحيص والسمو إلى أقصى مراتب العلم بعالمى الشهادة والغيب » .

فالأستاذ بعد أن قال فى مقالته السابقة التى نقلنا عنها بعض الجمل : « وهذا زمان تجلى فيه بالدليل القاطع على أن الدين حاجة أولية للروح » فـكأن هذه الحاجة إلى الدين ثبتت اليوم ولم تـكن من قبل حاجة إليه ، وكأنه إذا ثبتت الحاجة إلى الدين يثبت الدين من نفسه !! قال : « ونعنى بالدليل القاطع الدليل العلمى المؤسس على علم النفس » فسجل على أن أدلة الدين لم تـكن قبل هذا الزمان قاطعة ولا علمية .

وبعد أن أورد فى المقالة الأخيرة اعتراضه على معتقدات الدين بألسنة الملاحدة العصريين وسجل مرة ثانية على أن الموازين العقلية المثبتـة غير خاف على العصريين أنها ممنوّة بالنقد وأنها إن أقنعت أهل القرون الخالية فاليوم لا تقنع المتعلمين المدركين الفرق بينها وبين الدستور العلمى ، كما سجل عليه مرة ثالثة بقوله فى مقالة أفردها لنقد آراء الفيلسوف (على تعبيره) الزهاوى العراقى ونشرها فى الجزء الخامس من المجلد الثامن من « مجلة الأزهر » :

« أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلمات العقلية والقضايا المنطقية والتدرج منها إلى إدراك العلل الأولية (يعنى إدراك وجود الله) وهو أسلوب أصبح لايقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة » .

وقال فى نفس المقالة عن الفيلسوف الذى ينتقد آراءه : « افتتن بمقررات العلم الطبيعى وشُغف حبا بالفلسفة المادية تخلّصته عن العقائد الدينيـة ولم يستطع أن يتغلب على عقائده الوراثية فيعلنَ أنه أصبح ماديا[١] فوقف حائراً لايدرى بأى فريق يلتحق؟ أبفريق الذين يؤمنون بالغيب أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع ؟ »

فوضع الإيمان بالغيب فى مقابل الإيمان بالواقع وهو أقبح تسجيلات الأستاذ على نفسه كأن الإيمان بالغيب إيمان بغير الواقع[٢] فزعزع بهذين القولين الأخيرين واللذين قالهما قبلهما مكانَ الثقة بالدليل العقلى المنطقى القائم على أساس الدين أعنى وجود الله وخلّى الزعزعة تفعل فعلها فى القلوب بل أيدها وأيد اعتراض خصوم الدين بقوله فى مقالة أخرى بصدد مدح العرب فى خدمة العلوم ص٢٨٣ الجزء الرابع من المجلد الخامس من « مجلة نور الإسلام » : « ومما حير أنهم اتبعوا فى بحوثهم العلمية الأسلوب العلمى الذى يؤدى إلى نتائج صحيحة لا الأسلوب العقلى الذى يكثر فيه الخطأ » .

بعد كل هذا الذى يقضى فى زعم الأستاذ على الدليل العقلى بالرغم من أنه كان مدار إثبات وجود الله عند علماء الإسلام على هذا الدليل منذ تأسيس فلسفة الإسلام بتدوين علم الكلام الذى هو علم أصول الدين الوحيد فى الإسلام[٣] .. بعد كل هذا علق الأستاذ

---

[١] وقال فى نفس المقالة أيضا : « إن الزهاوى كان يكتب شيئا ثم ينقضه بقول آخر وهو أسلوب فى الكتابة كل ما يمكن أن يعتذر عنه أنه يلجأ إليه هربا من تبعة ما قرره من الآراء الإلحادية فى نظر الرأى العام والحكومة ، ولكنه اعتذار غير وجيه ، وكان الأولى أن يتحمل تبعة ما يقول كما فعل جميع الذين تقدموه من ضحايا آرائهم أو أن يسكت » أقول أو أن يفعل كما فعل الأستاذ فريد نفسه فتأمل .

[٢] فلماذا إذن كان الأستاذ فى مقالته المذكورة من قبل يلوم الذين لا يؤمنون بالغيب مادام الإيمان بالغيب إيمانا بخلاف الواقع .

[٣] مر على الإسلام زمان كان المترددون فى أمر الدين لايقنعهم الدليل النقلى كالآيات والأحاديث فيطالبون العلماء بدليل عقلى وكان بعض معانى تلك المطالبة أنه لايقتصر حل المسألة على =

أمل تأسيس العقيدة الدينية على أساس متين علمى ، بما اكتشفه أقطاب العلم فى الغرب وما سيكتشفونه تحت اسم البحوث النفسية ، وبالخلاصة علق إثبات وجود الله باكتشافات « الاسپيرتيزم » واعترف فى ضمن هذا التعليق بأنه لم يثبت بعدُ فى صورة قطعية علمية ، لأن ما اكتشف منها أيضا لم يقنع أكثر المتعلمين المصريين الشاكين كما لم يقنعهم الدليل القديم العقلى المنطقى . أما كونه يحمّلهم تبعة عدم الاقتناع بالدليل الجديد العلمى المكتشف فليس له الحق فى ذلك ، لأن الأستاذ نفسه أيضا كان قبل تولى الوظيفة الأزهرية لا يقتنع بثبوت عقيدة الديانة بتلك البحوث النفسية ولم تكن تلك البحوث يوم أعلن الأستاذ عجز الشرق الإسلامى عن إنقاذ دينه المدفون مع سائر الأديان فى مقبرة الأساطير ، مجهولةً للذين لهم اتصال بالغرب واكتشافاته مثل الأستاذ، وقد قرأت أنا كثيراً من تلك البحوث فى كتاب ألفه كاتب تركى ونشره فى سنة ١٩٢٨ وهذا التاريخ يتقدم بسنوات على مقالة الأستاذ التى صوب فيها حملته العنيفة على الأديان مستنداً إلى العلم الحديث المادى والتى نشرها فى « الأهرام » أثناء المناظرة الجارية بينى وبينه وتولى رئاسة المجلة الأزهرية بعد أسبوع أو أسبوعين ، وقد نقلنا عنها فيما سبق فقرات وسننقل تمامها فى نهاية هذا الكتاب إن شاء الله .

الحاصل أن الناظر المدقق يرى الأستاذ فى دورة دفاعه عن الدين أى فى دورة البناء أيضا لا يُقلع ولا يتخلى عن الهدم كما أن دورته المتقدمة المتحاملة على الدين كلها هدم. وأصل الداء الذى ساق هؤلاء المتعلمين إلى الشك المنتهى فى الإلحاد ــ وفى قلب الأستاذ أيضا على الرغم من تعييبهم به أثر عميق منه ينكس الفينة بعد الفينة ــ اعتقاد

ــــــــــــــ

= ما بين المسلمين ، لكن الأستاذ فريد وجدى بك تقدم شأوا آخر فقضى بآية المحكمات والمتشابهات على الدليل النقلى فيما بين المسلمين أيضا . ثم دار الزمان ومل الإنسان عقله فأصبح الآن لا يقنع الشاكين دليل يقنع العقل فيطالبوننا بدليل يقنع البصر . ويخشى من حلول زمان لا يروج فيه غير دليل يشبع البطن !! وقد لا نغالى إن قلنا بأن ذاك الزمان حل فعلا .

أن الله تعالى لايثبت وجوده ثبوتا علميا ما لم تشهد به التجارب الحسية كما شهدت بسائر المسائل الثابتة فى نظر العلم الحديث وأن ثبوته بالدليل العقلى المنطقى لا يكفى ، لعدم الوثوق بسلامته عن الخطأ . ولهذا لا ترى الأستاذ أبدا يجابه اعتراضه الحاكى عن أفكار الذين لا يقيمون لغير ماتشهد به التجربة الحسية وزنا ، بأن الدليل المنطقى المبنى على العقل يغنى كل الغنى عن غيره وأنه دليل من الطراز الأول ، وكتابنا يُعنى على طوله بإزالة الخطأ الفاحش القائل بأن الحس والتجربة طريق الوصول الوحيدة إلى الحقيقة دون العقل ، إذ لا يمكن تثبيت عقيدة الدين إلا بإزالة هذا الخطأ الذى صعَّب الأمر على المتولين الدفاع عن الدين فتركوا الطريق العظيم المستقيم وسلكوا الترهات الصحاصح .

والأستاذ فى دورة مؤازرته الدين يستمد دائما من اكتشافات الغرب التجريبية ، كما أنه فى دورة كتاباته ضد الدين كان أيضا يقلد الغرب ولا يُرويه الدليل العقلى فى دورتيه حتى دليل العلة الغائية الآتى فى محله من الكتاب على الرغم من كونه مزيجا بالتجربة ، لعدم محوضته فيها . وآخر آمال الأستاذ معلق بتكمل التجارب الحسية بواسطة ترقى البحوث النفسية فى الغرب إلى حد أنها تُقنع المتعلمين المصريين الشاكّين فى حقية الدين ولا تبقى مجالا للشك فى قلوبهم .

ومحور تمحيص البحث الذى تدور حوله أفكار الأستاذ وأقواله أن الدليل العقلى المنطقى الذى أقنع العقلاء والعلماء بوجود الله فى القرون الماضية ، لا تقنع المتعلمين المصريين . ولكن المهم أن نعرف هل عدم اقتناعهم اليوم به ناشئ من عيب فى الدليل العقلى نفسه ظهر للمصريين بعد أن كان خافياً على الأوائل ، أم العيب والتقصير فى المصريين الذين لا يقتنعون به ؟ فقبل إعمال الفكر فى الأمر يظهر لصاحب العقل ظهورا بديهيا أن القول بكون الدليل العقلى المنطقى غير مقنع ليس بقول ذى عقل ،

فلماذا لا يقابل الأستاذ المتعلمين المصريين غير المقتنعين بالدليل العقلى المنطقى ، بهذا الاستنكار ليصدهم عن غيهم ويوقظهم من غفلتهم ؟ أكان ذلك لعدم اعتماد الأستاذ نفسه على عقله ومنطقه وقوة إيمانه بوجود الله الذى يقوده عقله ومنطقه إلى هذا الإيمان؟ فماذا هو إذن واجبه فى رأس « مجلة الأزهر » ؟ فهل واجبه أن يقول للناس : انتظروا نتيجة تقدم البحوث النفسية فى الغرب لتقتنعوا بوجود الله اقتناعا علميا ؟ والأستاذ وإن تراءى فى مسألة عدم الاقتناع بالدليل العقلى المنطقى كالمحايد الحاكى لرأى المتعلمين المصريين ، لكن ميله إلى رأى أولئك المتعلمين ظاهر من أنه لا يعاتبهم على عدم اقتناعهم بهذا الدليل وإنما يعاتبهم على عدم اقتناعهم بالدليل الجديد العلمى ، فيفهم أن الأستاذ نفسه فى طليعة غير المقتنعين بالدليل القديم العقلى وإن لم يصرح بذلك تمام التصريح تخوفاً وجبناً ناشئين من عدم كونه على بينة من حقيقة هذه المسائل رغم وقوفه موقف المعلم الأول إزاء المتعلمين المصريين وغيرهم ، والأستاذ من دأبه أن يقوّل غيره ما لا يجترئ أن يقوله . ومع هـذا فنحن قانعون بأن الأستاذ نفسه لا يعوّل على الدليل القديم العقلى لما ذكرنا الآن ولقوله الذى نقلناه أولا من مقالة له يصرح بأن الأسلوب العقلى يكثر فيه الخطأ . لـكن الخطأ فى الأستاذ الذى يعيب الدليل العقلى بهذا القول ؛ وهـذا القول أيضا لا يصدر من صاحب العقل السليم ، لأن النزاع يلزم أن يكون فى قيمة الدليل العقلى المنطقى الصحيح المستجمع لشرائط الصحة لا فى قيمة الدليل العقلى الذى وقع الخطأ فى ناحية من نواحيه ومثله لا يعد دليلا حتى يعاب به الدليل العقلى المنطقى . فهل لنا إذا وقع الخطأ فى بعض التجارب أن نعيب على التجربة مطلقا ونحكم بعدم التعويل عليها أبدا ؟ وليعلم الأستاذ أن الدليل العقلى الصحيح الذى يعبر عنه بالدليل المنطقى كناية عن صحته يحتفظ بقيمته أبد الآبدين[1] ولا يفوقه

[١] وإنى أذكر مثالا للدليل العقلى المنطقى داخلا فى موضوع هذا الكتاب ومذكوراً فى

بل لا يعدله أى دليل. وامل الأستاذ وأمثاله ممن يستخفون بالأدلة العقلية المنطقية إزاء الأدلة التجربية لا يعرفون أن المنطق لا تقبل قوانينه الانتقاض كالقوانين الرياضية، ففى الإمكان أن تنحل القضايا التجربية المتقررة فى يوم من الأيام بتجارب أخرى جديدة وليس فى الإمكان أن ينحل دليل عقلى منطقى .

نعم يمكن أن يقال لا يقدر كل أحد على تمييز صحيح الدليل العقلى من سقيمه . وعلى ذلك فالدليل التجربى الذى يسميه المصريون وفيهم الأستاذ الدليلَ العلمى يكون بعد تقرر صحة التجربة وعرضها على غير المجربين الأولين دليلَ العامة ، والدليلُ العقلى

= محله منه، وهو دليل وحدانية الله تعالى المعروف فى علم أصول الدين ببرهان التمانع المستنبط من قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » فإن كان فى استطاعة الأستاذ فريد وجميع خصوم الدليل العقلى المنطقى فى الشرق والغرب نقضه فلينقضوه فإنى أتحداهم به . وقد سبق منا فى رقم ٣ مثلا عن كتاب الأستاذ محمد صبيح « محمد عبده » أنه وضع مسألة الوحدانية موضع امتحان عام لعلماء الأزهر ، مع مائة جنيه جعلها مكافأة للعالم الناجح فى الامتحان فعجز جميع العلماء عن دخول هذا الميدان ثم قرر الشيخ نفسه الدليل الذى طالبهم به . هكذا حكى الأستاذ المؤلف حادثة الامتحان العام ولم يدع شيئا من تفصيل ماوقع فى الحادثة الهامة المذكورة من غلبة الشيخ محمد عبده وهزيمة من عداه من الشيوخ، غير مذكور إلا الدليل الذى أقامه الشيخ وعجز عنه الباقون فلم يطلعنا عليه الأستاذ .

ثم إنى راجعت « رسالة التوحيد » تأليف الشيخ محمد عبده لاطلع على دليله الذى أطراه الأستاذ محمد صبيح من غير ذكر الدليل نفسه فوجدته لا يكفى ولايستقيم لإثبات المطلوب ، وإنما هو مثال للدليل العقلى المنطقى الذى يقول الأستاذ عنه إنه يكثر فيه الخطأ ويصعب تمييز الصحيح منه عن غير الصحيح . . ثم ذكرت فى الرقم ٣ دليلا آخر لهـذا الموضوع . أما ذكر الصورة الصحيحة للدليل الذى أراد الشيخ أن يأتى به — والذى يسمى برهان التمانع — فلم ينجح . . فقد أرجأته إلى محله من هذا الكتاب . وكلا الدليلين اللذين أوردت أحدهما فى الرقم ٣ بدلا من دليل الشيخ ، وأرجأت الآخر محالا الى محله الخاص بإثبات الوحدانية . . أتحدى أعداء الدليل العقلى المنطقى ليجدوا عيبا فى أى واحد منهما يردونه بسببه على .

المنطقى دليلَ الخاصة والمعولون عليه كالإخصائيين المميزين للأحجار الكريمة الثمينة من زيفها ورخيصها[1] .

ثم أقول للأستاذ : إذا لم تبن مسألة وجود الله على الدليل العقلى المنطقى فعلى أى دليل تبنيه ؟ وسيكون جوابه حتما : أبنيه على الدليل العصرى أى الدليل العلمى الطبيعى التجربى ! وعند ذلك أقول ولا تمنعنى عن القول حكاية البحوث النفسية الجارية فى الغرب ، أقول من غير انتظار لنتيجة تلك البحوث : إن العلم الطبيعى ولا أى علم تجربى لا يعطينا بوسائله التجربية دليلا على وجود الله وأعنى بذلك أنه لا يستطيع أن يعطيناه وهو أقل من أن يعطيه ولا يكفينا ما يعطيه ولا يقنعنا نحن أصحاب العقل والمنطق كما لا يقنعكم أنتم أعداءَ العقل والمنطق، الدليلُ العقلى المنطقى . نعم إن دليل العلم التجربى لا يكفى إزاء عظمة المسألة ، لأن أخص صفات الله ومميزاته وجوب وجوده وغير الدليل العقلى المنطقى قاصر عن إعطاء هذا الوصف أعنى وجوب الوجود لأى شىء أثبت وجودَه إلى الآن أو سيثبته من بعد . لكن أستاذ مجلة الأزهر، لعدم معرفته بعلم الكلام وعداوته لذلك العلم عداوة المرء لما لا يعرفه ، لا يعرف عجزه الأبدى عن إثبات وجود الله الذى هو إثبات وجود موجود واجب الوجود ، بواسطة العلم الحديث التجربى الذى لا يستطيع إثبات وصف مضاعف هو وجوب الوجود ، لما يُثبت وجودَه،

[١] كان يقول الأستاذ فيما نقلنا عنه قريبا ، مستخفا بالدليل العقلى المنطقى : « أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلمات العقلية والقضايا المنطقية والتدرج منها إلى إدراك العلل الأولية وهو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة . ويقول الفيلسوف « كارو » من كبار أعضاء الأكاديمية الفرنسية فى كتابه «مذهب الماديين والعلم» «مسائل المنشأ والعلل الأولى سواء كان المطلوب إثباتها أو نفيها فهى حائزة لصفة فوق التجربة لا يقدر على نزع هذه الصفة منها أدق مهارات علم الجدل ولا أرق رقيات العلم . فإذا حصل الوصول إلى أعلى حد لمعرفة البشر فعند ذلك تعجز الحواس . وهذا المحل الذى تتوقف فيه الحواس مهما ساعدناها بآلاتنا الدقيقة الراقية هو دائرة الفكر والنظر » .

لعدم كون الوجوب فى متناول التجربة كما كان الوجود فى متناوله ، وإنما يستطيع إثبات ذلك الوصف المضاعف العلمُ القديم المبنى على الأدلة العقلية لاسيما الدليل العقلى القائم على إبطال تسلسل العلل الذى خفى بطلانه على الشيخ محمد عبده فورط نفسه فى القول بأن كل ما قيل أو يقال فى إبطاله فمن قبيل الأوهام والخيالات الكاذبة . لكن القارئ سينجلى عليه فى هذا الكتاب بطلان ذلك رغم مساعى الشيخ لسد الباب على الإبطال وتعليق قفل كبير عليه . ومعنى قولى هذا سيفهمه القارئ حق الفهم عند تغلغله فى أبحاث هذا الكتاب وأنا لا أذكر فى مقدمته كل مافيه .. والآن أقول شيئاً غير هذا فى حسم المسألة المنازع فيها بينى وبين الأستاذ ومتعلميه المصريين . فمن شاء من هواة الدليل التجربى الذين يقيمون له أكثر مما يستحقه من الوزن ، فلا يقتنعْ من الآن بكون التجربة قاصرة عن إعطاء الدليل على وجود الله !!

والذى أقوله الآن هنا[1] إن المؤمنين بالله الماضين إيمانا بالغيب أى مع غير مشاهدته بإحدى الحواس الظاهرة ولكن مستيقنين بوجوده كأنهم شاهدوه لاسيما علماء هؤلاء المؤمنين ، أسندوا إيمانهم على قول الأستاذ رئيس «مجلة الأزهر» وغيره من المثقفين المصريين، إلى غير مسند وهو الدليل العقلى المنطقى، إلا أنهم كانوا يزعمونه دليلا يقتنع به فاقتنعوا وآمنوا .. والمقل وقد تحقق بذلك ماذكره الأستاذ فى مقالته التى نقلنا منها بعض الجمل ، من أن الله يأتى العقول فى كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث . وبانقلاب الزمان تبين للاستاذ وزملائه المتصلين بالعلم الحديث الغربى أن دليل الأولين ليس بدليل على جدير بالاعتبار والاقتناع ــ كمانص عليه أيضا فى مقالته المنتشرة أخيرا فى مجلة « الرسالة » بعنوان « الدين فى معترك الشكوك » لكن الأستاذ نراه بعد برهة من الزمان وجد مايعوّضه عمافات : وهو ما اكتشفه بعض العلماء الغربيين

---

[١] نقلت الصفحتين الآتيتين فيما كتبته قبل الشروع فى الكتاب بعنوان « التعريف بمنهج الكتاب » لمناسبة دعت إليه .

فى بحوثهم النفسية فاقتنع به واعتبره دليلا قاطعا علميا ؛ وإن لم يوافقه على ذلك كثير من العلماء الآخرين وقالوا إنها أوهام قوم مخدوعين . وعلى فرض كونه دليلا قاطعا ، يلزم التنبيه إلى أن ماوجده الباحثون الغربيون واكتشفوه بالطريقة العلمية التجربية ليس ذات الله أو وجوده بل وجود الروح ، إلا أن هذا الاكتشاف قد أطمع الأستاذ فى أنهم يجدون الله أيضا فى الزمن القريب أو البعيد سواء تحقق فى المستقبل ما كان يطمع فيه أو لم يتحقق وصار طمعا مقضيا عليه بالخيبة . وعلى كلا التقديرين فليس لدينا اليوم — استغفر الله — لا ، لا ، بل ليس لدى الأستاذ وأمثاله العصريين غير المقتنعين بغير الأدلة التجربية ، ليس لديهم فيما بين الزمان الماضى الذى كان يُعتمد فيه على الدليل العقلى المنطقى وبين الزمان الآتى الذى يجد الباحثون الغربيون فيه ذات الله بالطريقة العلمية التجربية — إن وجدوها — كما وجدوا الروح . ففيما بين هذين الزمانين من المدة — مدة انتظار نتيجة البحوث النفسية — التى يمكن أن تطول أعصارا ، وفيها زماننا الحاضر الذى وُجد فيه الأستاذ على رأس « مجلة الأزهر » وهو يدافع عن الدين — لا دليل على وجود الله ، ولا يجرى بالنسبة إلى هذا الزمان المتوسط ما قاله الأستاذ من أن الله يأتى العقول فى كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث ، لأنه لم يأت العقول الحاضرة وفيها عقل الأستاذ بما أحست الحاجة إليه من الدليل على وجود الله ، وإنما أتاها بأن الدليل القديم العقلى لا يكفى لإثباته علميا ولا أحست تلك العقولُ بالحاجة إلى دليل جديد يكفيه إذ لو أحست لأتى به ، وإنما أحست بالانتظار إلى أن يكتشفه الباحثون . فليس لدى الأستاذ وأمثاله المنتظرين دليل فى هذا العصر على وجود الله ولا حاجةٌ إليه محسوسة ، وما لادليل على وجوده فلا مانع من أن يقال عنه إنه غير موجود عندهم فى العصر الحاضر .

بل أقول إن الله تعالى لم يكن عندهم موجودا فى الأزمنة الماضية أيضا التى كان

الناس فيها يظنونه موجودا ، لعدم كون دليلهم على وجوده دليلا علميا يصح الاعتماد عليه .. بل أقول لا دليل عندهم أيضا على أن الله تعالى سيكون موجودا بأن يكتشفوا وجوده فى المستقبل بالدليل العلمى . إذ لا معنى لانتظار الاكتشاف عن وجود ما لم يوجد إلى الآن ولم يقم على وجوده دليل يعتمد عليه[1] فالله تعالى على رأى الأستاذ المنجلى من أقواله – ويا للأسف انجلاء منطقيا – ليس بموجود فى أى زمان من أنواع الأزمنة الثلاثة . نعم كان الله تعالى موجودا عند أصحاب السذاجة العامية والذين يلتحقون بهم من العلماء المعتمدين على الدليل العقلى ، غير أن العلم الحديث قضى على علم هؤلاء العلماء ودليلهم المبنى على العقل والمنطق والأستاذ فريد وجدى بلّغنا هذا القضاء من علا منبر الأزهر الحديث .

فهذه خلاصة أعمال الأستاذ فى رئاسة « مجلة الأزهر » منذ أكثر من عشر سنين أعنى إعدام الله الموجود عند الناس فى الماضى وتعليق الحكم بوجوده من جديد إلى أجل غير مسمى بل غير مرجو الحلول . هذه خلاصة أعمال الأستاذ وخدمته للأزهر خاصة والإسلام عامة فليقدر أجرها فى الدنيا والآخرة القادرون .

وهذه الكلمة منى نموذج من الدليل العقلى المنطقى فى الرد على مقالات الأستاذ ضد هذا النوع من الأدلة . فإن لم يكفه مفحما ومفهما لخطئه الفاحش فى تقدير قيمة الدليل العقلى المنطقى قدرها فسيقول جوابا علىّ : هذا كلام معقول منطقى ولكن « لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان ! »[2] .

---

[١] فلو كان وجود الله معلوما بالدليل وكان المنتظر هو اكتشاف ذاته وحقيقته وكنا سلمنا بإمكان هذا الاكتشاف كان للانتظار وجه معقول .

[٢] هذه الجملة الموضوعة بين القوسين نص عليها الأستاذ فى مقالته المنشورة فى « الرسالة »

***

بمناسبة النقاش بين أستاذين :

وقد وقع بعد سنتين من كتابة الأستاذ فريد وجدى هذه المقالات التى نقلتُ منها كلمات وعلقتُ عليها كلمات، أن جرى نقاش بينه وبين الأستاذ نصيف المنقبادى المحامى دام على صفحات جريدة « الأهرام » أكثر من أسبوعين وأردت أنا أن أنشر رأيى بصدد هـذه المسألة المختلف فيها بين الأستاذين ، فى مقالة طويلة وكتبتها فعلا . وبينما أنا منتظر لانتهاء القول منهما فى مقالاتهما المتقابلة لأرسل مقالتى إذ أعلنت «الأهرام» إقفال باب المناقشة وكففت أنا عن طلب فتحه لنشر مقالتى .

والآن أريد أن أدرج تلك المقالة هنا وإن ازدادت بها مقدمة كتابى طولا على طولها ، لأنى لا أكون خرجت بهذه الإطالة عن موضوع الكتاب ، غاية الأمر أن القارئ يصير عارفا فى مقدمة الكتاب ببعض ما سيعرفه بعدها ، لمناسبة دعت إليه . وهذه هى المقالة :

رأيى فى علاقة الدين بالبحوث النفسية

— ١ —

عقليتان أراهما سائدتين اليوم فى الشرق الإسلامى بين الأوساط المتعلمة : أولاهما أن التعلم والتثقف للشرق أن يُثبت ما ثبت فى الغرب وينفى ما نُفِى فيه . فإذا اختلف كاتبان هنا فى مسألة وجرى بينهما النقاش على الصحف فالمنازعة والمناقشة إنما تكون فى : مَن منهما أصاب الرأى السائد هناك ؟ أو بالأصح أصاب الرأى الأخير هناك . والمستحق لأن يُعترف له بالنجاح والغلبة يُعتبر هو الذى جعل رأيه وعقله وقفاً لرأى الغرب وعقله ، فكأنه ظل الغرب الممدود إلى الشرق لا عقل له يفكر بنفسه أو تكون

له حصة من التفكير . وهذا التفانى فى الغرب بمصر بين الكتاب المصريين يسود فى حين أن الأزهر يحاول أن ينفلت من التقيد بأقوال أئمة المذاهب الأربعة فى العمل وأقوال المتكلمين أهل السنة فى العقيدة .

وثانيتهما - ويمكن عدها فرع الأولى - أن حصول العلم اليقينى فى الإنسان بوجود أى شيء ، يتوقف على رؤيته بالبصر أو لمسه باليد أو بالأعم على استناده إلى التجربة الحسية ولا يكفى فيه الاستدلال العقلى ، فإن حصل به اليقين فى أناس، كان من حق آخرين أن يشكّوا فيه وأن لا يعدوه عليهم حجة مفحمة . وهذا يؤدى إلى نفى الأديان المستندة إلى عقيدة وجود الله ، لعدم كون الله مرئيا أو ملموسا . فإن اعتقده المؤمنون موجوداً فهذا منهم يكون اعتقاداً لا يعترف به العلم . نعم إن العلم قد يعترف بوجود بعض ما لم تصل إليه التجارب الحسية إلى الآن ، لكنه يعترف فى دائرة الإمكان بناء على احتمال وصوله إليه بالتجارب فى المستقبل . أما الجزم بوجوده قبل الوصول إليه بهذه الواسطة الوحيدة أعنى التجربة الحسية فهو الذى ينافى العلم . وقد يغالى هواة العلم التجربى فينكرون ما لم تصل إليه التجربة بتاتا . والفريق الأول الذين يرون فى العلم سمة القول بإمكان وجود الله هم اللادينيون المعتدلون والفريق الثانى المتطرفون. وإنما سمينا أصحاب الاعتدال من هواة العلم أيضا باللادينيين لأن الدين ينبنى على عقيدة الجزم بوجود الله لا على عقيدة تجويز وجوده الذى يرجع إلى الشك فيه ، كما لا ينبنى على إنكاره البات .

فهذه العقلية اللادينية بكلتا درجتيه موجودة فى مصر بين الأوساط المتعلمة، يكون الإنسان على تقدير صحتها واقعا بين شرين عظيمين فإما علم بلا دين وإما دين بلا علم ، ومن المؤلم المؤسف أن الدين لا يمانع العلم فى حين أن العلم يمانع الدين بشرطه فيما يعترف بوجوده . فلابد إما من إبطال هذا الشرط وتخليص العلم من ذلك الجهل الدخيل، ففيه أعظم خدمة للدين والعلم معا ؛ أو إثبات أن دائرة العلم أوسع مما يزعمون ويحتكرون

اسمه أى اسم العلم له . وفى الحقيقة أن الذى يسمونه « العلم » ويشترطون بناءه على التجربة الحسية ماهو إلا فرع محدود من فروع العلم. وهناك علم يجهلونه أحق باسم العلم مما يعلمون لا يخضع معلوم هذا العلم للتجربة الحسية ، وإنما يخضع للعقل والمنطق . ففى إثبات هذا النوع من العلم وضمه فى نصابه الحقيق. أما الذين وضعوا العلم فى دائرة ضيقة مادية واشترطوا له التجربة الحسية ثم اضطروا إلى تطبيق هذا الشرط على غير محله ليجعلوا الدين المبنى على الغيب شهادة، فقد حمّلوا الدين مالايحتمله وألقوا أنفسهم فى مأزق العقلية اللادينية . ثم إنا نرى المعتدلين من أصحاب هذه العقلية وهم الذين يميلون منهم إلى الديانة ويودون أن يكون الله موجوداً ، وجدوا فى شخص الأستاذ فريد وجدى وكيلا لهم فضولياً يعللهم الفينة بعد الفينة بالنتيجة المنتظرة للبحوث النفسية الجارية بين بعض البيئات العلمية فى الغرب.

وقد حدث نقاش على صفحات « الأهرام » منذ أكثر من أسبوعين بين الأستاذين محمد فريد وجدى بك رئيس تحرير « مجلة الأزهر » ونصيف المنقبادى المحامى فى هذه المسألة أعنى مسألة البحوث النفسية مع مسائل أخرى، مثل كون منشأ الشيخوخة فى الإنسان المنتهية إلى الموت الكويرات البيضاء الموجودة فى الدم أو عدم كون الأمر كذلك ، ومسألة غريزة الخير كيف نشأت فى الإنسان ؟ فطعن الأستاذ المنقبادى فى مسألة تحضير الأرواح وردّها إلى الدجل والنصب..وتحامل عليه الأستاذ فريد وجدى ووثّق المسألة بوثائق من شهادات علماء الغرب مؤملا منها كل خير للدين وعقائده، حيال إنكار المنكرين الذين كانت لهم ولعلمهم المادى دولة وغلبة على الأرض فى العصرين الأخيرين إلى أن نجم العلماء الروحيون وتألق نجمهم بمحادثات تحضير الأرواح . ثم انضم الأستاذ أحمد أبو الخير بمقالته المعنونة « عالم الأرواح » إلى جانب الأستاذ فريد وجدى بك .

وإنى أريد أن أبين رأيى فى هذه المسألة . أما المسائل الثلاث الأخرى فاثنتان منها

لاشك فى خطأ الأستاذ المنقبادى فيهما وهما طمع الحياة الأبدية للإنسان فى هذه النشأة الأولى وتعيين منشأ الأخلاق فى الفرد والمجتمع وبناؤها على أساس المنافع المتقابلة .

يريد الأستاذ المنقبادى أن يقول إن غريزة الخير فى الإنسان والحيوان لايعطيهما الله وإنما تحصل وتترقى بمرور الزمان. فرور الزمان المعبر عنه بقانون التطور أو النشوء والارتقاء منشأ كل كمال فى العالم ، حتى إن الأستاذ على ما كتب فى مقالته ينتظر من مستقبل البشر أن يكتشف لكل داء دواء ويتغلب على الموت وترتقىَ أخلاقه فيلغىَ الحروب والمظالم وينال الجنة والحياة الأبدية فى الدنيا ، ولا حاجة بعد ذلك إلى جنة الآخرة.. فطوبى للآتين وتعساً للماضين .

ونحن نرى الأستاذ يرى المستقبل البعيد ويغفل عن حال العالم الحاضرة ومواقف الدول الراقية الظالمة . على الرغم من أنه يفضِّل التجربة على كل دليل ولايعتد بغيرها ، فكأنه جرب المستقبل ولم يجرب الحال . على أن كون مبدأ المنافع المتقابلة يعين الظالم القوي على المظلوم الضعيف ، معلوم للعقل من غير حاجة إلى التجربة .

وما ذكره من تأخر الإنسان فى الأخلاق وتقدم النمل فيها لكونها أقدم من الإنسان بملايين من السنين فجرى عليها من التطور مالم يجر على الإنسان، فمبنى على فروض خارجة من حدود التجربة ، وإن كان أساتذة الأستاذ فى الغرب الذين تكلموا فى هذه المسائل استناداً إلى تلك الفروض ، والأستاذ نفسه الذى تكلم فيها استناداً إلى أقوال أساتذته، يظنونها أحكاماً قطعية مؤيدة بالتجربة. فإذا كان مقتضى قانون التطور التقدم على حسب القدم فلماذا تتقدم النمل القديمة على الإنسان الحديث، فى الأخلاق فقط ولا تتفوق فى مزايا الإنسان البارزة ؟ وعلى فرض التقدم العظيم الذى ينتظره فى المستقبل للانسان إلى حد الحياة الأبدية كيف تستوعب كرتنا الأجيال الآتية المتراكمة من البشر التى تنسل ولا تمرض ولا تموت ؟ فعندئذ يشتد الجدال بل الاقتتال بين الأفراد والجماعات والدول وتتضاعف الشرور المتغلبة على غريزة الخير فى الإنسان . وما أصدق قول المتنبى :

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئة وذهوب
تملّكها الآتى تملُّكَ سالب وفارقها الماضى فراق سليب

لست أريد أن أكتب فى هذه المقالة عن مثل هذه المواضيع، فقد وفَّيت الرد على مدعيات العلم والتجربة المغالى بها وأفضت فى تحليل العقليات العليلة الناشئة فى الشرق الحديث من تعظيم الغرب واتخاذه القدوة فى حقه وباطله ، فى كتابى الذى عُنيت بتأليفه منذ سنين (هذا الكتاب) وسميت فيه أن أحدث انقلابا فى العقليات التى أشرت إليها فى هذه المقالة وسأنشره إن شاء الله .

ولا يعنينى مهما كان سبب الشيخوخة ، وهو إحدى النواحى الثلاثة التى اختلف فيها الأستاذان والتى لم أكتب مقالتى هذه لبحثها ، وإن كنت لا أجتاز قول الأستاذ المنقبادى فى غضون كلماته: «أجدادنا من الحيوانات القديمة» من غير تنبيه إلى أن أكثر الناس وأنا منهم ـ لا يقبلون الدخول فى ضمير الجمع المتكلم الذى أضاف إليه الأستاذ أجداده .

فبقيت مسألة تحضير الأرواح لتكون موضع الكلام فى مقالتى ، لكن لا على أنها خرافة من الخرافات كما ادعاه الأستاذ المنقبادى ولا على أنها حقيقة من الحقائق المكتشفة الحديثة كما ذهب إليه الأستاذ فريد وجدى بك والأستاذ أحمد فهمى ، فلا يعنينى أحد الطرفين فى هذه المسألة أيضاً ، وإنما دافعى إلى التكلم فى هذا البحث ما يوهمه أقوال الأستاذين الأخيرين المتفقين من كونهما ينتظران من نتيجة البحوث النفسية المجراة فى الغرب تأثيراً هاما لمصلحة الدين باستئصال جذور الشبهة التى لازالت تحوم حول عقائده ، بناء على ظن أن أدلة الدين التى كان الدين قبل تلك البحوث مبنيا عليها عقليةً أونقليةً ، لا تُقنع أبناء الأعصر الأخيرة لعدم استنادها إلى التجربة الحسية التى هى طريق الإثبات العلمى الوحيدة ، لكن تلك البحوث يكسب بها الدين دليلا جديداً قائما على شرط العلم الحديث كما قال الأستاذ فريد وجدى بك فى مقالته المنشورة

فى « الأهرام » عدد (١٩٣٦٨) وهى من جملة المقالات المكتوبة رداً على الأستاذ المنقبادى : « ومَن أحوج من أصحاب الأديان إلى هذا الدليل فى عصر تُقرر الفلسفة الوضعية فيه[١] أن كل معقول لايؤيده محسوس لا يجوز الاعتداد به ؟ » وقال أيضاً : « يجب أن يكون الإنسان من أهل القرن الذى يعيش فيه »

فهذا ما أوهمه بل نص عليه كلام الأستاذين فريد وجدى واحمد فهمى لاسيما كلام الأستاذ الأول وهو الموافق لمسلكه الذى يمشى عليه فى « مجلة الأزهر » منذ تولى رئاسة تحريرها مملِلا قراءه الغيورين على دينهم والمشفقين عليه من اعتراضات المنكرين والمشككين ، وممنّياً إياهم بتلك البحوث النفسية التى أجريت ولا تزال فى الغرب . لكنى أنا لا أوافق على إسناد الدين إلى هذا الدليل الجديد المنتظر أن يطلع الباحثون عليه ، لاأوافق على إسناد الدين إليه ترجيحا له على أدلته القديمة وأرى ضرره أكبر من نفعه .

فأولاً : لا أرضى أن يكون حتى ديننا مترجما من الغرب مع كل شىء مترجم عنه بمصر ، لاأرضى أن نكون مؤمنين بالدين إذا آمن الغرب وكافرين به إذا كفر . وإنى أخاف أن يكون قول الأستاذ فريد وجدى : « يجب أن يكون الإنسان من أهل القرن الذى يعيش فيه » مؤديا إلى هذا .

وثانياً : أن انتظار ثبوت الدين ثبوتا علميا من نتيجة البحوث النفسية الجديدة، يتضمن الاعتراف بأنه لم يثبت قبلها ثبوتا علميا يضطر العقولَ السليمة إن لم يضطر المتعلمين المصريين ، إلى اعتقاد صحته . وهذا ما لا أرضاه ولا أقبله . وكيف أرضى أن يكون الدين من عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى زماننا ، مع من مضوا فيما بين

---

[١] انظر درجة أهمية الفلسفة الوضعية عند أستاذ مجلة الأزهر على الرغم من أنها فلسفة « اوجوست كونت » الإلحادية التى سبق منا الكلام عنها ...

الربانيين من أئمة الدين وعلمائه الراسخين ، لم يثبت على أساس متين يؤيده العلم .. حتى جاء العلماء أصحاب البحوث النفسية فى الغرب فأثبتوه أو سيثبتونه . فكأن سلفنا الصالحين رضوان الله عليهم إن كانوا آمنوا بالله فإنما آمنوا به عن عاطفة قلبية أو متابعة وراثية . وليس فيهم ولا فى علمائهم أصحاب التأليفات الذائعة الصيت فى العلوم أحد كان على بينة من أمر دينه وعقيدته فيه ، فإن كان قد ظن أن دينه وإيمانه بالله مبنى على دليل يفيد اليقين فليس الأمر فى الحقيقة وفى نظر العلم المثبت كذلك .

أنا لا أرضى هذه العقلية الخاطئة التى هى التسليم بعدم ثبوت وجود الله ثبوتا قطعيا علميا قبل البحوث النفسية التى يقوم بها الغربيون منذ آونة ، وأكافحها بكل ما أوتيت من قوة العقل وعزة النفس الدينية وتكون مكافحتها عندى دينا « بفتح الدال » على كل عزيز النفس من أصحاب الديانة الذين اتخذوا ما اتخذوالهم من الدين، عن علم وبينة.. فقد كان وجود الله ثابتا ثبوتا علميا بتمام معنى الكلمة قبل تلك البحوث النفسية، ومن اعتقد خلاف هذا فهو لا يدرى بعقل نفسه كيف يكون الثبوت العلمى وإنما يترجم عن رأى وعقل غيره .

ثم إنى لا أقبل خصيصا قول الأستاذ فريد وجدى بك اتباعاً لما قررته الفلسفة الوضعية الإلحادية فلسفة الإثباتيين أصحاب « اوجوست كونت » من أن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به . بل أعده أكبر خطأ إن جاز صدوره من قلم أى أحد فلا يجوز من قلم رئيس تحرير مجلة الأزهر ، وإن جاز صدوره من قلمه فلا يجوز وقت ظهوره فى مظهر البانى للدين الذى قد هدمه قبل تولى هذه الوظيفة ، لأن فيه تصديق ملاحدة الماديين فى أكبر دعواهم التى ينفون وجود الله أو على الأقل ثبوت وجود الله استناداً إليها . ومن العجب أن الأستاذ رئيس التحرير يتمسك بهذا القول فى صدد الرد على مناظره الذى يمشى فى مناظرته على أسس الماديين أعنى الأستاذ نصيف المنقبادى ، ولهذا كان الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » يقول

حين ناقش الشيخ محمد عبده قبل أكثر من ثلث قرن كما سبق ذكره ، مدعياً عدم ائتلاف الدين أى دين كان مع العلم : « إن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور ووحى ونبوة ومعجزة .. الخ . وكلها غير محسوسة ولا معقولة (أى غير معقولة لكونها غير محسوسة) ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين فى كل ملة (!) ينادون بإبعاد العقل عن الدين . بل إن الأديان تخالف أيضا العلم الذى يجب أن يوضع فى دائرة العقل لكون قواعده مبنية على المشاهدة والتجربة » يعنى أن وجود الله لا يعتمد على دليل محسوس فلا يقبله العلم . وهو عين ما قاله الأستاذ فريد وجدى فى الرد على الأستاذ المنقبادى، كأن هذا الأستاذ هو الشيخ محمد عبده والأستاذ فريد فرح أنطون! أعنى أن فى قول الأستاذ غرابة إلى هذا الحد .

الحاصل أن القول بعدم الاعتداد بأى معقول لا يؤيده محسوس ، على الرغم من تمسك الأستاذ مدير «مجلة الأزهر» ورئيس تحريرها ، به لمصلحة الدين، مضر بموقفه إلى حد أن إثبات وجود الله الذى هو رأس الدين لا يتسنى إلا بعد إبطال هذا القول.. حتى إن شكوك المتعلمين المصريين الذين يشكو منهم الأستاذ فى مقالته السابقة الذكر ترتكز على هذا القول ، وبإبطاله تتبدد تلك الشكوك لا بتحضير الأرواح ولا بغيره، ولهذا كان أهم ما عُنيت به فى كتابى الذى أشرت إليه (هذا الكتاب) هو هذه النقطة .

وثالثا : ماذا يتصور أن تكون نتيجة البحوث النفسية ؟ فلنفرض أن الباحثين تمكنوا من تحضير الأرواح وضبط صورها الفطوغرافية ووزنها وجس نبضها وتسجيل أصواتها كما ادُّعى أو بالأصح كما حكى . وعنـــد ذلك يكون وجود الروح قد أُثبت بالتجربة الحسية ، لكن أساس الدين يقوم على وجود الله لا على وجود الروح ، ولا يلزم من وجود الروح وجود الله إلا بقدر ما يلزم من وجود أى موجود ممكن

وجودُ موجودٍ واجب ، ومعناه الرجوع فى إثبات وجود الله إلى الدليل القديم العقلى المنطقى ، فلا فرق بين الروح وغيرها من الموجودات فى الدلالة على وجود الله . وإنما مناسبة مسألة وجود الروح بالدين أن ملاحدة الماديين إذا أنكروا وجود الله لعدم وجود من رآه وإن شئت فقل لكونه معقولا لا يؤيده محسوس ، كان يقال لهم : ولم يوجد من رأى الروح أيضاً مع أنه لاقِبَل لأحد بإنكار وجودها . فكانوا يُضطرون فى جوابهم إلى أن يقولوا ، نحن ننكر وجود الروح أيضا ، وكان إنكارهم هذا الاضطرارىُّ يجلب عليهم الهزء والسخرية ويدل على تناهيهم فى العناد والتمرد ، فكانت استفادة الدين من إنكارهم الروح مضطرين إلى إنكارها، أكثر من استفادته فى اعترافهم بها مضطرين إليه بالبحوث النفسية التى قام بها ولا يزال بعض علماء الغرب .

فإذا لم يبق لهم مجال فى إنكار وجود الروح بعد تلك البحوث النفسية، يُفتح لهم باب لإنكار وجود الله أوسع مما كان قبلها ، لأن لهم أن يقولوا : قد كان إنكارنا وجود الروح ناشئاً من عدم محسوسيتها ؛ وليس علينا من حرج إذا اعترفنا بها بعد ظهورها للحواس ، فأرونا الله كما أريتم الروح نعترفْ بوجوده أيضا . وقولهم المفروض هذا يكون أوقع فى النفوس من قولهم بنفى وجود الروح كوجود الله . فهل يمكن تحضير الله لإفحامهم كما أمكن تحضير الأرواح ؟ وهل يتصور أن تبلغ البحوث النفسية فى الغرب يوماً من الأيام مبلغ أن تجعل الله تعالى يُرى بالعيون أو يلمس بالأيدى أو توزن ثقلته أو تمثل صورته بواسطةِ أدق وأرقى آلة من آلات الرؤية واللمس والوزن والتصوير الحاضرة ؟ ولا أظن أولئك الباحثين يخطر ببالهم أن يبحثوا عن ذات الله من طريق المعاينة والتجربة الحسية . وإذا خطر ببال أحد كان ذلك رجوعا باسم الرقى العلمى إلى عقليات الجاهلية الأولى وتمثيلا لعهد فرعون القائل «ياهامان ابن لى صرحا

لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى » أو عهد بنى إسرائيل القائلين : « يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

والقول الفصل هنا الذى أتحدى به أدعياء العلم الحديث فى الشرق المولين كل التعويل على التجربة الحسية والمزدرين للأدلة العقلية المنطقية لقلة نصيبهم من العقل والمنطق غير الباتين لهذا السبب فى الاعتراف بوجود الله اعترافا علميا ، معلقين آمالهم فى الحصول على اليقين بهذا الصدد على التجارب الروحيـة الجارية فى الغرب المترقية يوماً عن يوم : أن معنى هذه الفكرة ليس إلا الغفلة عن أن وجود الله لن يكون موضوع التجربة . فإذا أمكن إثبات وجود كل شىء بالتجربة فلا يمكن إثبات وجود الله بها ، لأنها إنما تدل على أن هذا الشىء موجود فقط ولا تدل على أن هذا الوجود واجب الوجود الذى هو الله والذى لا يشاركه أى موجود فى وجوب وجوده .. فهو أى وجوب الوجود العلامة الوحيدة فى كون ما وجده الواجد المجرِّب هو الله . لـكن وجود الشىء إن عرف بالتجربة الحسية فلا يعرف بها وجوب وجوده الذى هو استحالة عدمه والذى ربما يعبر عنه بالوجود بوصف مضاعف، لـكونه أمراً لا تتعلق به الحواس .. ومن يضمن للمجربين أن ذلك الذى وجدوه وزعموا أنه الله يكون موجوداً إلى الأبد ولا ينعدم فى يوم قريب أو بعيد من أيام المستقبل الذى لا تدركه تجربتهم ؟ ومن يضمن لهم أيضا أنه موجود من الأزل الذى لا تصل تجربتهم إليه أيضا ؟ مع أنه حتى الوجود أزلا وأبدا لا يستلزم وجوبَ الوجود الذى هو المطلوب والذى هو فوق الوجود الأزلى والأبدى . فلو فرضنا أن الباحثين اكتشفوا بتجاربهم الحسية موجوداً فرأوه بأعينهم أو لمسوه بأيديهم وادعوا أن هذا الوجود هو الله المنشود ، يقال من أين علمتم أنه الله؟ فلعله ملك من ملائـكته أو شيطان أو مخلوق آخر له غركم ما أحسستم به فيه من القوة أو العظمة التى لا يوجد مثلها فيما عرفتموه إلى الآن من الوجودات ، وهذا لا يكفى فى الدلالة على أنه الله ما لم يثبت كونه واجب الوجود وإنـكم لن تجدوا هـذه الميزة

لأى شىء مما وجدتموه أو ستجدونه أو سوف تجدونه بالدليل الحسى وإنما تعرفون بالدليل العقلى المنطقى أن هذا الكون المركب من الممكنات غير واجبات الوجود لابد أن يستند إلى موجود واجب الوجود وهو الله ، فتحكمون بوجوده المفهوم من وجود الموجودات المحسوسة ، من غير حاجة منكم إلى مشاهدته بإحدى الحواس ويكون وجود هـــذا الموجود الذى عرفتموه بالدليل العقلى ولم تشاهدوه، أقوى من وجود الموجودات التى تشاهدونها لكون وجوده واجبا ضروريا ووجودها غير ضرورى .

وقولى هذا أيضا الذى أتحدى به أدعياء العلم الحديث فى الشرق والغرب والذى لايستطيعون نقضه : دليل عقلى . فهل عرفتم الآن الفرق بين الدليل العقلى المنطقى وبين الدليل التجربى الحسى ، بما ينجلى به عكس ماتزعمون فى مفاضلة أحدهما على الآخر ؟

ثم إنه كما لا تثبت البحوث النفسية وجودَ الله لعدم كونه روحا ـ وإن قال من قال من جهال أولئك الباحثين إن الله هو الروح الأعظم وقلّده الأستاذ أحمد فهمى أبوالخير ـ لأن الله تعالى لاتعرف حقيقته وإنما يعرف وجوده .. لا تثبت تلك البحوث حتى وجود الروح، لثبوت وجودها أيضا قبل وجود الباحثين النفسيين وبحوثهم ، والثابت لا يحتاج إلى إثبات ، بل يستحيل إثبات الثابت كتحصيل الحاصل .. فقد كان وجود الروح معلوما لذوى العقول من الناس منذ خلقهم الله وخلق الموت والحياة ، ولم يكن إنكار الماديين الروح لعدم كونها محسوسة، غير مكابرة منهم مضحكة قصدوا بها المحافظة على قاعدتهم النافية لوجود كل ما لا يكون محسوسا والتى فى معناها قول الأستاذ فريد وجدى « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به » ومع ذلك فقد كانوا متعسفين فى نفى وجود الروح للمحافظة على تلك القاعدة .. متعسفين لحد أن وجود الروح كان يدل على بطلان قاعدتهم أكثر من دلالة تلك القاعدة على عدم وجود الروح ، أعنى أن وجود الروح كان واضحا إلى هذه الدرجة .. وقد حق للشاعر

الفرنسى المشهور «هوجو» تعريضه الظريف لمنكرى وجود الروح قبل ظهور البحوث النفسية قائلا فى مبتدأ ما كتبه عن الروح :

« أنا أعرف كون باريس اليوم ماديين إثباتيين (أو بعبارة أخرى وضعيين) لحد أنهم لايؤمنون إلا بسراويلات الراقصات الضيقة ومحفظات الصرافين » كما نقله الكاتب التركى إسماعيل فنى بك فى كتابه « اضمحلال مذهب الماديين » وقد نص الفيلسوفان الكبيران «ديكارت» و « ليبنتز » على أن وجود الروح قطعى أكثر من وجودالأجسام، حتى إن «ديكارت» أثبت وجودنفسه أى روحه قبل إثبات وجود العالم ووجودِ الله وقال إنها الحقيقة الأولى الثابتة، وسيجىء بحثه فى الباب الأول من كتابى الذى أشرت إليه (هذا الكتاب).

أنا لا أغمط الباحثين الغربيين فى النفس وغيرها وإنما أقول لا تُثبت بحوثهم النفسية وجود مالم يكن وجوده ثابتا قبلها عند ذوى الألباب ، ولو قلنا مع القائلين إن وجود الروح يثبت أول مرة بهذه البحوث أولم يكن ثبوته قبلها ثبوتاً علميا معتداً به لكنا سلمنا بدعوى الملاحدة الإثباتيين (أو الوضعيين) والماديين القائلة « كل معقول لايؤيده محسوس فلايعتدبه » تلك الدعوى التى نحن المتدينين فى حاجة إلى إبطالها قبل كل شىء وفى التسليم بها ظفر الماديين ، حتى إن فى إثبات الروحيين وجود الروح بطريق التجربة الحسية ظفراً لهم أيضاً أى الماديين على حساب أصحاب الدين، لتنازل الروحيين على شرطهم فى الإثبات.

فالماديون الذين يأمل ذوو العقليات الضعيفة من المتدينين أن يتغلبوا عليهم بفضل الأبحاث النفسية، لهم ان يقولوا بعد ثبوت وجود الروح من طريق التجربة الحسية : ثبت الآن وجود الروح وليس ثبوته هكذا ظفرالروحيين بل ظفر طريقة التجربة الحسية التى هى طريقتنا نحن الماديين . وفى إمكاننا بعد هذا أن نلحق الروح بالماديات كما قال الأستاذ احمد فهمى أبو الخير : « إن السير وليم كروكس وهو ذلك العالم الذى تُدرس

فى مدارسنا تجاربه فى الإشماع ، قدتمكن من تجسيد روح فتاته (كاتى كنج) ثم من جس نبضها وخبر رئتها » وقال الأستاذ فريد وجد بك « إن ذلك العلامة الكيميائى يعمل تجارب خاصة فى معمله توصّل بها إلى رؤية أمور كثيرة خارقة للمادة [1] حتى أمكن أن تتجسد روح من تلك الكائنات ففحص أعضاءها ووزنها وخاطبها » .

وقال أيضا : « قد ثبت أن للأرواح جثمانا أثيريا لا يعتريه الانحلال كالأثير نفسه وأنها إذا أرادت الظهور استعارت من الكون أو من المجربين بعض المواد لتظهر فى أعينهم » .

وليست العمدة فى اختلاف الماديين مع غيرهم لاسيما المتدينين وجود الروح وعدم وجودها ، فنى إمكان الماديين أن يقولوا عن الروح بعد ثبوت وجودها على طريقتهم ما قلنا آنفا حكاية عنهم ، فهل فى إمكان غيرهم أن يثبتوا وجود الله بمثل التجربة الحسية الامتحانية التى أثبتوا بها وجود الروح؟ فهل لله جثمان أثيرى كما كان للأرواح؟ وهل هو إذا أراد الظهور للمجربين يستعير بعض المواد فيحل بها ليظهر فى أعينهم مثل ما استعارت الروح وظهرت ؟ ذلك مما لا نعتقده ولا إمكانَه[2] فعندئذ يكون كسب المتدينين المعتقدين وجود الله من البحوث النفسية المثبتة للروح بالتجربة الحسية، منحصراً فى كونهم قد فقدوا مثالا لِمايوجد ولا يُرى . وعندذلك يكون للماديين الحق فى إنكار وجود الله لكونه معقولا لا يؤيده محسوس حسب الشرط الذى تواضعوا

---

[١] انظر كيف يعترف الأستاذ بالخوارق لعلماء الغرب وهو لا يعترف بها للأنبياء فى مذهبه المنكر لمعجزاتهم .

[٢] فان قيل كيف تنفى إمكان رؤية الله مع كونها واقعة لأهل الجنة فى الجنة كما هومذهب أهل السنة ؟ أقول رؤية الله تعالى فى الجنة تقع بإرادة من الله مبنية على وعده بها، ورؤية الله التى تنفيها وإمكانها ما يقع بإرادة المجربين الغربيين من غير إرادة من الله .

عليه مع الروحيين والمتدينين الذين علقوا أمانيهم الدينيـة على البحوث النفسية. وليس هذا عندنا إلا تعريض الدين للخطر المحدق والفشل المتحقق .

ومهما يكن مبلغ اكتشاف الغرب فى الأبحاث النفسية فالدين مبنى على الغيب ، وسوف يكون مع سطوع برهانه فى كل زمان محتفظا بمبناه هذا ولا ينتقل إلى متناول الحواس ، وبه يدوم امتياز المؤمنين على الـكافرين والمهتدين على الضالين[١] أما الذين يعلقون مسألة كون الناس على بينة من أمر دينهم بالحصول على الأدلة الحسية فقضىّ عليهم بخيبة الآمال . هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائـكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تـكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون .

— ٢ —

الخلاف الحادث بين الأستاذ نصيف المنقبادي المحامى المادى والأستاذ فريد وجدى غير المادى غريب من ناحية أن الأستاذ الأخير يعترف بأساس المذهب المادى ولا يعترف بالمذهب نفسه والأساس الذى يعترف هو به : « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به » كما سبق منا نقله عن نص الأستاذ فى إحدى مقالاته التى كتبها ردًّا على الأستاذ نصيف ، بل قلما تخلو مقالاته فى « مجلة الأزهر » من هذا النص . فالأستاذ فريد إذن مادى من حيث لا يشعر[٢] ويلزم على هـذا أن يكون بينه وبين الأستاذ

---

[١] قال الشاعر وهو من قدماء الترك المسلمين :

غيبه ايمان كتير أى ملحد غافل كه سكا آخر تدن خط تعليق ايله حجت كلمز

ومعناه آمن بالغيب أيهـا الملحد الغافل إن كنت تؤمن ، فلا يأتيك حجة من الدار الآخرة مكتوبة بالخط الفارسى . وتخصيصه بالخط الفارسى مبنى على كون الحجج والمناشير مكتوبة فى المعتاد بهذا الخط الجميـل .

[٢] وقد كان قبل توليه الوظيفة الأزهرية ماديا من حيث يشعر .

نصيف المادى خلاف ونزاع . أما الخلاف بينهما من حيث أن أحدهما يسلم بوجود الروح بعد ثبوته بالأبحاث النفسية الحديثة المطابقة لطريقة الإثبات المادية والآخر لا يسلم به ، فراجع إلى الخلاف فى صحة تلك الأبحاث وعدم صحتها لا إلى الاختلاف فى المذهب المادى المبنى على الأساس المذكور . ويلزم على هذا أيضا أن يكون الحق فيما اختلفا مع الأستاذ نصيف إلى أن يريه الأستاذ فريد وجدى الروح كما رأى الباحثون فى الغرب وأروها منكريها . أما نقله لشهادات الباحثين هنالك فمجرد دليل نقلى لا يكفى فى تبكيت خصمه على قاعدة الإثبات المادية التى اتفق عليها الأستاذان المختلفان والتى هى رأس الأخطاء عندى ، لعدم تأيد مانقله الأستاذ فريد وجدى بتجربة من الأستاذ المنقبادى بل ولا بتجربة من الأستاذ فريد نفسه لأن رواية أقوال المجربين ليست بتجربة للراوى بله المروى إليه .

ومن العجب أن الأستاذ فريد يوجه بعض حملاته فى المقالات التى كتبها ردا على الأستاذ المنقبادى ، إلى العقلية العلمية ويدعوها إلى الإفاقة من غرورها . فإن كان الأستاذ نفسه أفاق قبل إفاقة العقلية العلمية فماذا حاجته إلى إثبات وجوده بالطريقة العلمية الحسية ؟ أو إن كان فى عهده الأخير لا يعجبه المذهب المادى وعقليته العلمية حقيقة ويرى حتما أن تفيق من غرورها فليرفض قبل كل شىء تلك القاعدة القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به وليرفض انحصار طريق الإثبات العلمى فى التجربة والمشاهدة ، بل ليرفض الامتياز باسم العلم لما يثبت بالتجربة الحسية دون ما ثبت بالدليل العقلى .. بل لِيَرُضْ نفسه لقبول كون الثانى أحق باسم العلم من الأول ولا يهبْ اشتهارَ عكسه عند الغربيين ولا يغرنه انتقاد العقل المحض للفيلسوف « كانت » ، فلا ينبغى للمتكلم من علا منبر الأزهر أن يكون عقله فى أسر العقلية الغربية ولا أن يقيد نفسه — بينما دعا العقلية العلمية إلى الإفاقة من غرورها — بأقسى قيد مادى ، فقد

لا يُستبعد من الغرب المسيحى أن يناوئ العقل فيحطَّ من كرامته مرة ثانية بعد أن أعاد له الفيلسوف « ديكارت » حقوقه المهضومة طوال القرون الوسطى .

ومع عدم كون المذهب المادى مذهب التدريب الخالص لأن العلم حتى بوجود المادة لم يكن مؤيَّدا بالتجربة إذ المادة لا ترى ولا تلمس — فعدم الاعتداد بغير التجربة فى استيقان وجود أى شىء ، يدفع الإنسان إلى إنكار البديهيات بل إلى الشك فى وجود نفسه ، وقد أنكروا وجودهم أنفسهم فعلا بإنكارهم الروح ، فإنكارهم الروح التى أجمعت مدرسة « ديكارت » على أن وجودها قطعى أكثر من قطعية وجود الأجسام[1] ، معناه إنكارهم بوجود أنفسهم لا أكثر ولا أقل . ولذا كان موقف الماديين المنكرين للروح — سواء أنكروها قبل الأبحاث النفسية المجراة فى الغرب أوبعدها — موقفَ من لا تجوز مخاطبتهم ولا يعبأ بنفيهم وإثباتهم ، وهل يعبأ بأقوال الغافلين عن وجود أنفسهم ؟

وكون إنكار وجود الروح كإنكار المنكرين لوجودهم أنفسهم ، يظهر عند تفكير الإنسان فى شخص ما يعبر عنه بقوله « أنا » .. فإن كان هذا الشخص بعينه موجوداً مستمر الوجود طول حياة القائل يلزم أن لا يكون هو جسمه الذى يزول بالتدريج ويحل محله غيره ، حتى إنه لا يبقى فيه شىء مما كان موجوداً قبل سنين فيكون فى شبابه غيرَ الذى كان فى طفولته وفى شيبه غيرَ الذى فى كهولته ، لا من حيث المنظر فقط أو القوة والضعف فقط بل فى شخص الممثل له ، فكيف يعد نفسه فى أدواره المختلفة شخصاً واحداً ويقول عنه « أنا » ؟ وكيف يُسأل فى الأربعين من عمره عن أفعاله فى الثلاثين مثلا ؟ بل وكيف يتذكر فى الخمسين ما فعله فى الثلاثين أو العشرين وهما شخصان متغايران بالكلية ؟

---

[١] المطالب والمذاهب لبول ژانه.

فإن لم يكن وراء هذا الجسم المتغير شيء يستمر ولا يتغير طول عمره يعبر عنه بالروح أو النفس لم يوجد هناك مايصح أن يقال عنه «أنا» ضميراً للمتكلم وحده. فهي وحدها مرجع هذا الضمير ، فهي تقول عن نفسها « أنا » وهي صاحبة هذا البدن، وأعضاؤه من مفرقه إلى أخمصه آلاتها التي تستخدمها حسبما تريد [١] وهذا الدليل على وجود الروح الدلالة العامة لجميع الأزمنة ماقبل جريان البحوث النفسية الحديثة ومابعده ولجميع أفراد الإنسان من الذين أجريت عليهم التجارب النفسية أمام أعينهم ومن غيرهم في البلاد الدانية والقاصية.. هذا الدليل العام لفي غنى عن الدليل الجديد الحسي الخاص زمانه ومكانه وأشخاصه، وفي قوة أكثر من قوة ذلك الدليل الجديد . أما الذين يدّعون من الماديين والإثباتيين (الوضعيين على تعبير المصريين) ومن يلتحق بهم من حيث يشعرون ولا يشعرون : ان الدليل العقلي العام لايعتد به مالم يؤيده دليل محسوس، فهم أنفسهم لا يُعتد بهم لعدم وجودهم على موجب ادعائهم هذا كما بينا .

وأما ماقد يقال في الاعتذار عن الذين يهتمون بالدليل الجديد أكثر من الدليل العقلي القديم ، من أن في إثبات وجود الروح بالدليل الجديد الحسي تأييداً لثبوتها قديما بالدليل العقلي ، ولو لم يكن فيه إلا إفحام الماديين لكفى في ان يكون باعثا على استبشار المتدينين بالبحوث النفسية واعتبارها ظفرا على خصومهم الملاحدة ـ ففيه أن مآل الاعتذار عن المستبشرين بالاكتشاف الجديد من أهل الدين يستند إلى أن في هذا الاكتشاف إثبات

---

[١] نعم قال « ا . رابو » في « دروس الروحيات » : « ليس « أنا » بجوهر روحاني فقط وإنما هو كل طبيعي روحاني وجسماني . فالبدن محل تطبيق نشاطنا وبواسطته يمكن تعديل الأشياء وتغييرها . فهو لهذا السبب جزء حقيقي من ذواتنا واللسان العادي يشهد به لأنا نقول نأكل أو ننمو كما نقول نفكر أو نريد » .

لكن الحق أن البدن ليس بجزء أصلي منا لتجدده وعدم احتفاظه بوحدته العينية .

الروح بالدليل الحسى علاوة على إثباتها من قبل بالدليل العقلى، وهو لا يمنع كون وجود الروح ثابتا قبل هذا. ولـكن تحرير مراد المستبشرين بهذا الشكل من الاعتذار لا يجتمع ابدا مع التسليم والتنويه بالقاعدة المادية القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به كما فعل الاستاذ فريد وجدى، لأنها تجعل ثبوتها بالدليل العقلى القديم غير معتد به كما لو لم يكن هناك أى دليل وأى إثبات، لا أنها تعده إثباتا وتعد الإثبات بالدليل الجدى الحسى زيادة عليه مفحمة للمنكرين المعاندين، فعندئذ يكون تعليل المتدينين وتبشيرهم بالاكتشاف الجديد وبناء القصور والعلالى عليه ضرره أكبر من نفعه .

فمن مضاره أنه يجعل ثبوت الروح إلى هـذا الزمان بدليله العقلى كعدم الثبوت ومثلها كل ما لم يؤيد وجوده إلى الآن بمحسوس كوجود الله تعالى .

ومنها أن وجود الروح وإن كان يَثبت الآن وبعد الآن بدليله الجديد الحسى فلا يثبت وجوده تعالى ــ الذى هو العمدة فى إنـكار المنكرين وإقرار المؤمنين وفى استبشارهم بالبحوث النفسية ــ بالبحث الحسى ولا يتحقق الأمل فى أن يظفر الباحثون لذات الله كما ذكرنا ، فيبقى وجوده المعلق بالوصول إلى ذاته مجهولا كذاته وهلك المسوّفون .

ومنها أن الاقتناع بوجود الروح من طريق التجربة الحسية يقتصر على المجربين ولا تـكون التجربة الحسية دليلا تجربيا لغيرهم بل يبقى دليـلا سمعيا يحتمل الصدق والـكذب ولو بلغ المجربون حد التواتر ، لأن غواة التجربة الحسية القاصرين لأسباب العلم على الإحساس بإحدى الحواس يلزمهم أن لا يعتدوا بالخبر المتواتر أيضا . فلا يقتنع عنـدهم بوجود مدينة « باريس » مثلا من لم يذهب إليها ويرها بعينيه فهو معقول لم يؤيده محسوس لعـدم تجربة وجودها من جانبه ، ولذا لم يصدق الأستاذ المنقبادى إخبارات الأسـتاذ فريد وجدى عن حوادث تحضير الأرواح ، وهكذا يكون نطاق الدليل التجربى ضيقا جدا . أما المقتنعون بوجود باريس بناء على تواتر الأخبار بوجودها

من المسافرين إليها المعاينين بحيث لا يجيز العقل تواطأهم على الكذب ، فدليلهم خليط من التجربة والاستدلال العقلى ، على أن يكون الفضل فى الاقتناع والاستيقان للاستدلال دون التجربة .

لا يقال إن التجربة الحسية لا تنحصر فى الرؤية والمشاهدة ، فسماع الأخبار أيضا تجربة حسية بإحدى الحواس الخمس ، فلا وجه لبناء الاقتناع بوجود باريس ممن لم يسافر إليها على الاستدلال العقلى . لأنى أقول متعلَّقُ التجربة فى هذا المثال المحسوسُ بحاسة السمع أقوال المخبرين عن باريس لا باريس نفسها وهى نفسها من المبصرات لا من المسموعات ، كما أن سماع الأستاذ المنقبادى من الأستاذ فريد وجدى فى مسألة تحضير الأرواح لا يعد تجربة لحادثة التحضير بل تجربة لكون الأستاذ فريد قال أقوالا عن تلك الحادثة .

قلنا فيما سبق إن الانهماك فى التجربة الحسية وعدم الاعتداد بغيرها يؤدى إلى إنكار البديهيات وإلى إنكار المجرِّب حتى وجود نفسه وأوضحنا كون إنكار الروح قدما مساويا لإنكار المنكر وجود نفسه ، بأن نفسه ليس عبارة عن بدنه الذى يتغير ويتجدد بالتدريج حتى لا يبقى فيه شىء مما كان موجوداً قبل سنين ، فماذا هو الشىء الباقى مع الإنسان طول عمره محتفظا بعينيته لو لم نقل بوجود الروح ؟ وهذا دليل وجود الروح التى إن لم نعلم حقيقتها نعلم وجودها بهذا الدليل العقلى القطعى . وليس لمنكرى الروح ما يقولون جواباً عنه غير ماادعاه الفيلسوف الحسبانى «داويد هيوم»:

« كل إنسان يتوهم له نفساً بسيطة متحدة فى ذاتها يعبر عنها بقوله « أنا » مع أن شهودات الإنسان متمايزة قابلة للتفريق فكيف يرتبط بعضها مع بعض ويحصل منها « أنا » المتحد ؟ : وتوضيحه أن الذاكرة تعيد لنا دائما خيالات إحساساتناالماضية فتتشكل منها سلسلة وتدور الذاكرة بسرعة على حلقات هذه السلسلة بفضل الاعتياد وينجر الأمر إلى أن يُرى لنا تتابع الأجزاء المتمايزة كأنها ملتحمة الأطراف بعضها

مع بعض، بمنظر المتصل وتمتد السلسلة المركبة من الأجزاء الماضية والحالية إلى جانب المستقبل أيضا قبـل وقوعه . فاللذة والألم كما يرجعاننا إلى أمثالها السابقة يُريانا أيضا ما سيقع منهما بعد الآن . فمع كون الروح مجموعة شؤونات باطنية تُرى بتأثير قوانين المخيلة كأنها جوهر بسيط ويرجع اعتقاد أن روحى موجودة أيضا فى حين أنها لم تحس ولم تدرك ولم تشعر بنفسها ، إلى اعتقاد دوام هذه الحالات » .

أقول فـكأن « هيوم » اعتبر « أنا » كالحركة بمعنى القطع المعروفة فى كتب المتكلمين والتى لا وجود لها فى الخارج ، فإن الحركة كيفية بها يكون للجسم توسطٌ بين المبدأ والمنتهى مستمر لا يجتمع مقدمه مع مؤخره وبها يكون الجسم فى حيز بعد أن كان فى حيز آخر ، وتسمى الحركة بمعنى التوسط ، وحقيقته أمر واحد متصل فى نفسه منقسم بحسب الفرض بين المسافة والزمان . وقد تطلق الحركة على ما يتوهم من الـكل المتصل الممتد بين المبدأ والمنتهى ، وهى الحركة بمعنى القطع ، ولا وجود لها فى الخارج ، لأن للمتحرك نسبة إلى المـكان الذى تركه وإلى المـكان الذى أدركه ، فإذا ارتسمت فى الخيال صورة كونه فى المـكان الأول ثم ارتسمت قبل زوالها عن الخيال صورة كونه فى المـكان الثانى فقد اجتمعت الصورتان فى الخيال وحينئذ يشعر الذهن بالصورتين معا على أنهما شىء واحد .

ولـكن يرد على « هيوم » الذى قلنا إن قوله عن الروح يشبّهها بالحركة بمعنى القطع فيجعلها أمراً مخيلا لاوجود له فى الخارج مثل هذه الحركة .. يرد على هيوم مع ما أورده عليه « استوارت ميل » وقد ذكرته فى كتابى المار الذكر (هذا الـكتاب وسيجىء ما أورده فى محله) أن فيه اعترافاً بوجود الذاكرة التى تنسج من الشهودات سلسلةً ملتحمة الأطراف والتى تبقى محتفظة بعينيتها طول امتداد السلسلة إلى آخر الحياة فتكون الذاكرة هى المعبر عنها « بأنا » إن لم يكن هو الروح ، ويكون نزاعه لمثبتى

الروح نزاعا لفظيا ، وهو خلاف المفروض على مذهب هيوم الذى لا يعترف بوجود أى شيء لكونه حسبانيا مؤسس الحسبانية الأخيرة . وهـــذا كما يرد على مذهب « كانت » الذى لا يعترف هو الآخر بوجود « أنا » لا لكونه ماديا ولا لكونه حسبانيا ، وإنما لكونه من التصوريين ، الذين لا يعترفون بوجود أى شيء فى غير الأذهان ، فيرد عليه أنه ملزم بالاعتراف بوجود الذهن ، ولا يقال إن الذهن لا يوجد إلا فى الذهن لاستلزامه التسلسل الباطل .

وليس للفيلسوف هيوم الذى لم يكن ماديا معارضا للروحيين ، دافع إلى إنكار وجود الروح المعبر عنها « بأنا » بل ولا لإنكاره المادة أيضا وإحيائه لمذهب الحسبانية الذى كان « ديكارت » قضى عليه ، إلا كونه تدريبيا تامّ التمسك بمذهب التدريب لا ناقصه كالماديين الذين اعترفوا بالمادة ولم يعترفوا بالروح فى حين أنهم لم يروهما كليهما ولم يجربوا وجودهما حسيا .

وفى هذا القدر من الكلام فى مبلغ كون المذهب المادى مذهباً تدريبيا وفيما ينجر إليه المذهب التجربى الحقيقى ، كفاية للقارئ اليقظ .

وزيادة على كل هذا فإنى أرى من الواجب التصريح بكونى متعجباً من تخصيص الغربيين اسم « العلم » فى الأعصر الأخيرة بما ثبت بالدليل التجربى دون ماثبت بالدليل العقلى وتقليد الشرقيين الجدد إياهم من غير تدقيق كما هو دأبهم[1] حتى ملأ العصريون كتبهم ومقالاتهم بحديث الطريقة العلمية والأسلوب العلمى إلى حد ممل . وقد عرف قراء « مجلة الأزهر » كيف تمدّح الأستاذ فريد وجدى بأنه يكتب السيرة المحمدية مستنداً إلى الأدلة العلمية التجريبية لا إلى الأدلة العقلية المنطقية ، تمدّح بإبعاد العقل

---

[١] ولذا أى لكون العلم عند الفئتين المقلدة والمقلدة منحصرا فيما يثبت بالتجارب الحسية ، شاع فيما بينهما أن العلم لا يعترف بوجود الله ، لتعذر بناء القول بوجوده على التجربة .

والمنطق عما كتبه من غير أبه لعقول القراء ، وهو لايدرى أن الثابت بالدليل التجربى لا يكون أقوى مما ثبت بالدليل العقلى ، بل الثابت بالدليل العقلى أقوى، كما لا يخفى على من طالع مبحث المعرفة من مباحث الفلسفة بدقة . وحسبك أن الثابت بالدليل العقلى يكون خلافه مستحيلا ولا يستحيل خلاف الثابت بالدليل التجربى كما يشهد به علماء المذهب التدريبي أنفسهم . ومن هـذا ترى المسائل العلمية التجربية قد ينتقض قديمها بحديثها ولا ترى شيئاً من القوانين الهندسية والمنطقية المستندة إلى العقل تتبدل أبد الآبدين . أفليست الهندسة والمنطق علماً ، فى حين أن العلم الطبيعى علم ؟[1] .

وصاحب العقل السليم الذى يثق ببصيرته ثقته ببصره ولا يرضى أن يكون عقله الذى يمتاز به على البهائم لا بحواسه ، أدنى من حواسه ـ يدرك أن مناسبة العلم بالعقل أقوى وأشد من مناسبته بالحواس ، لأن العقل والعلم كلاهما من جنس واحد غير محسوس . قال الفيلسوف « كوزين » : « إن العلم إلهى بالطبع » فكيف يكون إذن هـذا العلم مهنة ملاحدة الماديين والإثباتيين أو الوضعيين دون الحكماء الإلهيين ؟[2] وقدكان الأجدر بالأستاذفريدوجدى بك مدير « مجلة الأزهر » ورئيس تحريرها أن ينتقد تخصيص اسم « العلم » بالعلم المادى بدلا من شماتته بذلك العلم ودعوته إلى الإفاقة من غروره ، تقليداً للشامتين الغربيين ، والشامتون أنفسهم كانوا خوّلوا العلم المادى هذا الغرور ، أو بالأصح كانوا هم المغرورين ، وكان الأستاذ فى طليعة المقلدين للمغرورين ، واليوم هم المفيقون بعض الإفاقة وهم الشامتون .

* * *

انتهت المقالة التى كنت كتبتها من قبل على أن تنشر فى الصحف ثم انصرفت عن نشرها فيها رائياً أن أدرجها فى هذا الكتاب الذى أشرت إليه فى المقالة غير مرة .

---

[١] ونحن ندرس فى هذا الكتاب هذه المسائل أكثر من هذا.

[٢] كما أن الأنسب بالروح غير المادية أن يكون الدليل على وجودها عقليا غير مادى .

هذا ، وبعد مُضيّ ما يقرب من عامين على جريان النقاش بين الأستاذين ، نشر الأستاذ فريد وجدى بك مقالة فى «الأهرام» عنوانها : «اعتراف العلم بالظواهر النفسية نشوء عهد جديد للعاطفة الدينيـة » ذكر فيها نقلا عن « سنداى تيمس » وغيرها خبر إنشاء فرع خاص بتدريس المباحث النفسية وحاول بنشر مقالته التعريضَ للنقاش السابق بينـه وبين الأستاذ نصيف المنقبادى مستغلا للخبر المذكور فى الشماتة بخصمه فى غير مصارحة .

وذكر فى صدر مقالته مالا يزال محتفظا به فى أدواره المختلفة المتحولة ولا أزال أنا أنـكره عليه من عقليته الخاطئة فى تقدير الحقائق العالية الفلسفية ، فقال :

«لما بدأت حياتى التأملية وكانت مبكِّرة وعرضتُ العقائد الأولية على عقلى ، شعرتُ بالحاجة إلى إقامتها على أدلة محسوسة كما هو شرط الفلسفة الوضعية السائدة اليوم ، وإلا هان أمرها وضعف تأثيرها عند الذين نهلوا من حياض العلوم الغربية » .

فـكأن الأستاذ عند ماعرض العقائد الأولية على عقله غلط فعرضها على حواسه وأصبحت نتيجة العرض انه أنـكرها لعدم وجود الأدلة المحسوسة على تلك العقائد التى ورثها من آبائه وهو معنى وصفها بالأولية . وهذه الفقرة من كلام الأستاذ كالصريح فى أنه غير معتقد للدين منذ ابتدأت حياته التأملية ولم ينس التمدح بأنها كانت مبكرة . والفلسفة الوضعية التى اعترف بسيادتها اليوم واعتمد على شرطها هى فلسفة «أوجوست كونت » الإلحادية المسماة تارة بالفلسفة الإثباتيـة وتارة أخرى بالفلسفة الوضعية «پوزيتويزم» وشرطها المذكور وَضَعه أصحاب هذه الفلسفة لئلا يعترفوا بأساس الأديان المبنية على الإيمان بالغيب أى الغائب عن الحواس[1] أماقوله بعد هـذه التمهيدات :

---

[١] وصاحب المعالى مؤلف كتاب « حياة محمد » لا يقل إيمانه بهذه الفلسفة عن إيمان أستاذ مجلة الأزهر ، راجع ماكتبناه تحت الرقم .

«وإلاهان أمرها وضعف تأثيرها عند الذين نهلوا من حياض العلوم الغربية » فرجوع إلى مسلك الدس والاستبطان ليظن من ظن من القراء أن الأستاذ يسعى لإزالة الشكوك التي تساور عقائد المتعلمين المصريين الدينية لاعقائده نفسه ! ! فهل هو لما بدأت حياته التأملية ـ وكانت مبكرة ـ وأحست بالحاجة إلى إقامة عقائد الدين على الأدلة المحسوسة، كانت تلك الحاجة التي أحس بها ، حاجة غيره من الناس قبل حاجة نفسه ؟

وعلى كل حال فعقل الأستاذ الذى عرض عليه العقائد الأولية فضلا عن كونه محدودا بنطاق الحس فإنه محروم أيضا عن استقلال الفكر تحت تهيب الذين نهلوا من حياض العلوم الغربية والتقيد بحاشاتهم . وإنى أهنىء الأزهر فى عهد فضيلة الأساتذة الأكابر المراغى والظواهرى قبله ومصطفى عبد الرازق ومأمون الشناوى بعده بلسان انتدبوه للأزهر ينطق فى دفاعه عن الإسلام بعقل يأخذ الوحى من فلسفة «أوجوست كونت » الإثباتية والوضعية الإلحادية . وقد سبق منا الـكلام (ص١٤٨) عن مبادئها المعروفة بقانون الحالات الثلاث .

ثم قال الأستاذ: «فدأبت أبحث عن هذه الأدلة فى الثقافة العربية فأعوزتنى، فلجأت إلى الثقافة الغربية فاهتديت على أوسع وأوفى ما كنت أتمنى فى التجارب التى كانت تتولاها من علماء كل أمة متمدنة طائفة من أقطابهم فى الناحية النفسية عقب حوادث خوارق للعادة ظهرت فى الولايات المتحدة سنة ١٨٤٧ وثبتت صحتها بالدلائل المحسوسة..» وكان عجيبا من الأستاذ الذى لايعترف بحوادث خارقة للعادة ظهرت على أيدى أنبياء الله فى عهودهم المختلفة ، اعترافُه بحوادث خارقة ظهرت فى الولايات المتحدة، رغم كون الخوارق الظاهرة على أيدى الأنبياء أيضا من المحسوسات، فلعل ما ظهر منها على أيديهم لم تثبت صحته عنده ولم تكفه شهادة القرآن بوقوعه ، كما كفت شهادة مخبرى الغرب بوقوع خوارق سنة ١٨٤٧ .

وبعد أن أشاد الأستاذ فى المقالة بفضل ثمرات تلك التجارب النفسية من حلول معاضل اعترف العلم المادى بعجزه عن حلها، ختم مقالته بقوله: «فحيا الله العلم وأيد دولته وقوى شوكته حتى يعم نوره الخافقين» ففى المقالة الواحدة مدح الأستاذ العلم وأذعن لدولته وشوكته ورماه بالعجز، والعلم الذى أطراه والذى ازدراه كلاهما العلم المادى المستند إلى الأدلة المحسوسة . وحسبك فى مدح العلم وذمه معا عنوان المقالة القائل : «اعتراف العلم بالظواهر النفسية» الدال على أن المنكر أولا والمعترف بما أنكر هو العلم نفسه ، فهو أى العلم فى التحول من رأى إلى رأى كالأستاذ صاحب المقالة الذى قال قبل بضع عشرة سنة فى مناقشته إياى على صفحات جريدة «الاهرام» .

« .. فى تلك الأثناء وُلد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الأساطير » .

وقد قال قبله بسنة أو سنتين فى مقالة أخرى : « إن العلم والفلسفة ينقصان كل يوم من أطراف رجال الدين وان الناس يتسللون منهم زرافات حتى لم يبق سواهم فى المجال الذى هم فيه فابتنى على ذلك أن الفلسفة المادية التهمت الطبقات المتعلمة وأصبحت عنصراً من عناصر الروح الحاضر» .

ثم قال بعد سنوات عند مناقشته الأستاذ المنقبادى : « أى علم هـذا الذى ينطق بلسان الأستاذ المنقبادى ويجمله يقول هذا ممكن وهذا مستحيل ، أى علم يريد؟ »

« والعلم نفسه يعلن أنه لم يجاوز قشر الأشياء » وهذا على الرغم من أن الأستاذ المزرى بالعلم فى هذه المناقشة كان فى حين مناقشته إياى قد جعل للعلم دولة فى الأرض تخوّله حق الحكم باستحالة ما نطقت به كتب الأديان من معجزات الأنبياء وأنباء البعث بعد الموت ، حقّ القذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير .

وأخيراً يقول فى العلم المنكر للحقيقة والمعترف بعجزه وبما أنكره : « حيا الله العلم وأيد دولته وقوّى شوكته حتى يعم نوره الخافقين » .

قلنا كأن العلم فى التحول من عقلية إلى عقلية كالأستاذ نفسه فى أدواره . نعم إن العلم ينصف فقد يعترف بما كان ينكره لكن الأستاذ لايعترف فى تحولاته بما كان ينكره بل يتحول كأنه رجل آخر ، وخصيصاً لا يعترف بعجزه أبدا .

وقال الأستاذ بعد كل تلك المقالات التى نقلنا إلى الآن شواهد منها ، قولَه الأحدث فى الجزء الثامن من المجلد الحادى عشر من « مجلة الأزهر » تعليقاً على مانقله من كتاب « فلسفة الدين » للفيلسوف « سباتييه » أستاذ الفلسفة بجامعة باريس ، وهو أى الأستاذ فريد وجدى لا يزال يضرب على الوتر القديم الذى لا يتركه مهما تحول من مظهر إلى مظهر منذ تولى الوظيفة الأزهرية وهو داؤه الذى لا يقبل المداواة :

« ولا أخفى على القراء أنى مهما أظهرت إعجابى بالتحليل النفسى الذى قام به الأستاذ « أوجوست سباتييه » وأثبت به أن التدين هو معنى الإنسانية ولا إنسانية بدونه فإنى لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه ، يأتى النفوس من ناحية الدستور الذى سنه وأصبح العمل به ضربة لازب على العقول .

« ذلك أن العلم قد غرس فى النفسية البشرية فى العهد الحديث أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس لا يمكن أن يؤدى إلى اليقين الذى تثلج عليه الصدور وتطمئن إليه القلوب ، فمهما تأتى الإنسان بواسطة التحليلات الموفقة إلى نتائج فإنها لا تخرج عن كونها من المعقولات التى يعوزها الدليل المحسوس ، ولا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملى إلا إذا وصلت إلى درجة اليقين . وأين هى فى هذه الحالة النفسية للمعاصرين الذين يتطلبون الدليل المحسوس ولا شىء غير الدليل المحسوس ؟ فالتدين فى هذا العهد يحتاج إلى الدليل المحسوس » .

وأنا أقول أستاذ « مجلة الأزهر » والمدافع عن الدين على رأس هـذه المجلة ، منذ سنين طويلة يلح فى عدم إدراك ما يحتاج إليه التدين بالضبط الصحيح فى هذا العصر ، فيزعم أنه محتاج إلى الدليل المحسوس . وصوابه أنه محتاج إلى إبطال حاجته إلى الدليل المحسوس التى هى دعوى الملاحدة ، لكن الأستاذ الذى يقوم فى رأس « مجلة الأزهر » بتمثيل دور القضاء على دعاوى الملاحدة والذى يعجز عن إبطال دعواهم التى هى المبنى الحقيق للإلحاد المصرى ، يردد فى مقالاته التسليم بتلك الدعوى ، ثم ينحو نحو إبطال ما لا ينفعه إبطاله وإثبات ما لا يستطيع إثباته فيقع أولا فى هاوية دعواهم ثم يجتهد عبثا لكسب القضية مغمورا وقائلا :

« ليس الحصول على الدليل المحسوس فى الشؤون الاعتقادية فى هذا العصر من الصعوبة فى الدرجة التى يتوهمها الأكثرون ، فيكفى فيهـا هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية لا من طريق الأدلة الحسية واكتسبت بالجرى عليها حكمَ المقررات اليقينية وما هى منها فى شىء » .

أقول ولا أُحصى أخطاء الأستاذ : إن التدين لا يحتاج إلى الدليل المحسوس، وهو ما عنينا بإثباته فى هذا الكتاب وأن الحصول على هذا الدليل المحسوس بالمعنى الذى يُقنع الطالبين به ليس بسهل كما زعمه ، بل ليس بممكن لعدم إمكان إثبات وجود الله الذى هو أساس الدين ، بالدليل المحسوس ، إذ الدليل المذكور قاصر عن إثبات الوجود الواجب الذى هو وجود الله كما سبق منا التنبيه عليه وكما يأتى تفصيله . ومن أخطاء الأستاذ أنه يزعم عدم حصول اليقين إلا بالدليل المحسوس مع أن اليقين يحصل بالدليل العقلى أيضا ويكون اليقين الحاصل به فوق اليقين الحاصل بالدليل المحسوس كما سيطلع عليه القارئ إن لم يطلع إلى الآن .

أما قوله : « وأين هى (يعنى العقيدة الواصلة إلى درجة اليقين) فى هـذه الحالة

النفسية للمعاصرين يتطلبون الدليل المحسوس ولا شيء غير الدليل المحسوس ؟ فالتدين في هذا العصر يحتاج إلى هذا الدليل المحسوس » ففيه إبهام لا يُعرف تماما أن الأستاذ في تطلب الدليل المحسوس يترجم عن المعاصرين أو يترجم عن نفسه . فإن كان الأول كان واجب الأستاذ الممثل للسان الأزهر في رأس مجلته أن يتشجع فيصدمهم عن ضلالهم ويعلّمهم الحقيقة التي هي عكس ما ادعاه الأستاذ من جانبهم أو من تلقاء نفسه أنه لا شيء غير الدليل المحسوس ! . ففضلا عن أن يكون الدليل المحسوس هو كل شيء ولا شيء غيره (أي هو كل الدليل ولا دليل غيره)[1] فالعقيدة الواصلة إلى درجة

---

[١] ويحتمل أن يكون معنى قوله « ولا شيء غير الدليل المحسوس » ولا شيء يتطلبه المعاصرون غير الدليل المحسوس . وعلى هـذا التقدير يكون الأستاذ معترفا بعجزه التام عن إرشاد المعاصرين الضالين ، إلى الحق فيتبعهم هو من رأس مجلة الأزهر بدلا من أن يجعلهم يتبعونه .

ويؤيده ما سبق من قول الأستاذ في مقالة عنوانها « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » وهو من أحدث أقواله وقد نقلناه من قبل في ص ٣٧٣ عن الجزء السابع من المجلد الحادي عشر من مجلة الأزهر ، استشهاداً على أن الأستاذ بعد تولي الوظيفة الأزهرية كالأستاذ قبله في الخضوع لسلطان العلم الحديث المانع عن الإيمان بالغيب : « وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل ناحية إلى ناحية الإعجاز مادام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت والمحافظة على الدستور العلمي ، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة » .

وأنا أقول : عار كبير على الأزهر أن يقول رئيس تحرير مجلته هـذا القول مصارحاً قراءه بأن المنهج الذي انتهجه ودأب عليه في القيام بوظيفته في رأس المجلة أن يماشي أهواء العصريين الذين لا يؤمنون بالغيب ويتابعهم في عقلياتهم ، وقد أكبرهم بتسميتهم النخبة المثقفة ومدح مذهبهم بأنه مذهب المتثبتين والمحافظين على الدستور العلمي ومدح نفسه بالحرص فيما يكتبه على هذه المماشاة والمتابعة ، كأن واجبه في رأس المجلة الأزهرية أن يتفق مع ملاحدة العصر في عدم الإيمان بالغيب المتواري عن الحواس بدلا من أن يجاهدهم وينبه القراء على ضلالهم عن الحق الأحق بالاتباع ، بل ينير للضالين طرائق العودة إلى حظيرة الإيمان . =

اليقين بشأن وجود الله الواجب الوجود تتطلب الدليل العقلى ولا ينفع فيهـا الدليل المحسوس ، اللهم إلا إذا كان المراد من الدليـل المحسوس دليل نظام العالم الذى يأتى تفصيله فى هذا الـكتاب إن شاء الله تحت عنوان « دليل العلة الغائية » لـكن هذا ليس ما أراده الأستاذ من الدليل المحسوس ... كان واجب لسان الأزهر أن يتشجع فيجاهر المعاصرين بالحقيقة لا أن يماشيهم فى الضلال البعيد عن الحقيقة . وإن كان الثانى ولم يكن هـذا ضلالهم بل ضلال الأستاذ نفسه كان الواجب أن يبدأ بتصحيح الخطأ من نفسه ويتعلمَ الحقيقة قبل تعليم غيره .

ولا يزال الأستاذ فى قوله : « ليس الحصول على الدليـل المحسوس فى الشؤون الاعتقادية فى هذا العصر من الصعوبة فى الدرجة التى يتوهمها الأكثرون فيكفى فيها هدم عقيـدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية لا من طريق الأدلة الحسية واكتسبت بالجرى عليها صفةَ المقررات اليقينية وما هى منها فى شىء » متمسكا بالدليل المحسوس، حتى إنه يعيب على أصحاب الفلسفة المادية المتمسكين بالأدلة المحسوسة كونَهم لم يتمسكوا فى عقيدتهم السلبية التى ذكرها بالدليل المحسوس، وينزعُ عنهم بهذا السبب حق إجراء صفة المقررات اليقينية على تلك العقيدة . ولا يدرى الأستاذ أن السلب لا يقوم عليه دليل محسوس كما لا يقوم على الوجود بوصف مضاعف أعنى الوجود الواجب ، وإنمـا يقوم على الوجود العادى . ولا يدرى أيضا أن خطأ أصحاب الفلسفة المادية فى عقيدتهم السلبية لم ينشأ من عدم كون تلك العقيدة مبنية على الدليل المحسوس بل نشأ من انهماكهم فى المادة والأدلة الحسية فإذا لم يجدوا دليلا حسيا على وجود أى شىء حكموا

= فإن كان هذا الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر الذى يعلن هكذا عن برنامجه فى القيام بوظيفته متفقا فى العقيـدة مع من يسايرهم من المنكرين فهو كمحام عن التدين متفق مع أعدائه وباع قضيته منهم برأى ومسمع من مؤكله الذى اختاره للمحاماة وهو يأخذ ثمن المبيع منـه لا من الأعداء المشترين قضية الدين . وإن كان يماشيهم بعجزه عن مقاومتهم ، لا لبيع قضيته منهم .. فيا خسارة الدين والأزهر من هـذا المحامى العاجز الظاهر بمظهر أكبر بطل فى الدفاع عن الإسلام خاصة والديانة عامة لم يوجد مثله فى الأزهر فانتدبوه من خارج الأزهر !!

بسلب وجوده وليس حكمهم هذا من طريق الآراء العلمية كما توهم الأستاذ، لأن الرأى العلمى لا يسلب الوجود عما لم يقم على وجوده دليل حسى ، وإنما يسلب العلمَ بوجوده من طريق الأدلة الحسية ولا يلزم من عدم العلم بوجوده من ذلك الطريق ، بل من أى طريق عدمُ وجوده فى نفس الأمر . فنشأ خطأهم الانحصار والانحباس فى الأدلة الحسية الذى يباريهم فيه الأستاذ ، ويجاوزهم فيطالبهم بالدليل المحسوس للسلوب .

ثم يقول الأستاذ : « هـذه العقيدة السلبية هى أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الإنسانية ولا شىء فوقه أو وراءه يدبر ويتحكم فيـه فهو قديم بمادته وقواه وقائم بنفسه لا يحتاج لسواه وأن كل مايقال عن خضوعه لقوى أرفع منه وعن تخلف نواميسه بعوامل غير طبيعية فهراء لا يجوز الالتفات إليه .

« يتنزل من هـذه العقلية أصول تناسبها وهى أنه لا روح مستقلة للإنسان ولا بقاء لها بعد هذه الحياة فى عالم أرفع من هذا العالم ... فهذه العقلية السلبية التى أقامت صرحها الفلسفة المادية وأحكمت بناءها فى مدى الثلاثة القرون الماضية قد صادفت فى العهد الأخير من الاكتشافات العلمية ما هدمها من أعمق قواعدها بل ما نسفها نسفاً وذراها فى الهواء ونصب مكانها علم التعاليم الروحية مؤيداً بأقوى الأدلة الحسية » .

وأنا أقول من العجب أن يُكشف وجود الروح ويُثبت بأدلة حسية أى أن تُدرَك الروح بالحواس فيزعمَ الأستاذ كون هذا الكشف هادما لعقيدة الفلسفة المادية القائلة بأن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الإنسانية ، وكيف يخفى على الأستاذ أن الماديين المنكرين وجود الروح لعدم إدراكها بالحواس ، لا يصعب عليهم الاعتراف بوجودها بعد إدراكها بالحواس بفضل الكشف الجديد وتسلم لهم عقيدتهم السلبية ولا تنهدم بل تتأيد كما ذكرناقريبا فى المقالة التى لم ننشرها فى حينها وأرجأنا نشرها إلى نشر هذا الكتاب . فإذا قيل لهم لماذا كنتم تنكرون وجود الروح ؟ قالوا لأنها لم

تـكن مدركة بالحواس . وإذا قيل لماذا تعترفون اليوم بوجودها؟ قالوا : لأنها أدركت بالحواس فتحقق شرطنا فى الاعتراف بوجود أى شىء وكان المرعى من قبل ومن بعد هو شرطنا .

وأصل السبب فى عدم ظهور النتيجة كما يرومها الأستاذ وهو هدم عقيدة الماديين السلبية بالـكشف الجديد وإفحام الماديين ، أن الأستاذ نفسه مربوط بالعقيدة المادية السلبية التى يريد هدمها، ولذلك فهو يريد هدمها ولا يستطيعه . وكيف يستطيع الإنسان هدم عقيدة هو نفسه مرتبط بها؟ أليس الأستاذ مقتنعا ومصدقا للعقيدة القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به ؟ وماذا الفرق بين هذه العقيدة السلبية وبين العقيدة السلبية التى نسبها إلى الماديين القائلة بأن الوجود ينحصر فيما يدركه الحواس؟ ما الفرق بين العقيدتين؟ وكلاهما لا يعتد بغير المحسوس . فلعل الأستاذ أخذ العقيدة السلبية التى يعتنقها ويرتبط بها من ملاحدة الفلسفة الوضعية «پوزيتويزم» فظن أنها غير العقيدة السلبية التى يعتقدها ملاحدة الماديين، مع أن أصحاب الفلسفة الوضعية أخذوا تلك العقيدة عن الماديين وكلاهما واحد فى المعنى . فلو هدم الـكشف الجديد العقيدة السلبية المادية هدم العقيدة الوضعية معها وإذا لم يهدم العقيـدة الثانية التى هى عقيدة الأستاذ أيضا لم يهدم العقيدة الأولى المادية أيضا المطلوبَ هدمها عند الأستاذ . ولو أدرك الأستاذ عدم وجود الفرق بين العقيدتين اللتين احتفظ بإحداهما وأراد هدم الأخرى لـما أخطأ فى وضع عقيدة الماديين السلبية ولما أصابه الفشل فى هدمها .

والوضع الصحيح لتلك العقيدة المطلوب هدمها أن توضع بحيث إذا انهدمت انهدمت معها العقيدة التى لا يزال الأستاذ محتفظا بها انهداما واضحا يفهمه الأستاذ أيضا ، فيقال إنهم قد حصروا طريق الاستيقان بوجود الشىء فى قيام الدليل الحسى على وجوده، وأنـكروا وجود ما لم تدركه الحواس إلى الآن مثل الروح، على الرغم من وجود الدليل العقلى على وجودها منذ كانت الروح وكان العقل . فكذبتهم الـكشفيات الأخيرة الروحية وأثبتت

صدقَ العقل ويقظتَه أكثر من الحواس لكونه تقدمها فى إدراك بعض الموجودات إدراكا جازما .

ولايكون للماديين إذاصورت عقيدتهم المطلوب هدمها كما صورنا، أن يقولوا:لافائدة فى هذا الاكتشاف الجديد عن الروح لأهل الدين ولامضرة بنا فنحن ماشون على شرطنا فى الاعتراف بوجود الشيء عند قيام الدليل الحسى عليه وثابتون فى عدم الاعتراف بوجود الله حتى بعد ثبوت وجود الروح بالدليل الحسى. فليؤجل أهل الدين حكمهم القطعى بوجود الله إلى أن يروه بأعينهم كما رأوا الروح ... ليس لهم أن يقولوا هكذا ، لأن إثبات وجود الروح بالدليل الحسى إن لم يأت بفائدة جديدة لأهل الدين فى إثبات وجود الله بناء على أن إثباتها بالدليل الحسى ليس إثباته بالدليل الحسى ، إلا أن لهم فى هذا الإثبات فائدة انهدام العقيدة السلبية المادية .

ومن كل هذا يتبين خطأ الأستاذ فى إبهام القول عن موقف أهل الدين وموقف الماديين بعد الاكتشافات الأخيرة الروحية على تقدير صحتها ، حتى كأنه حصل بها كل شيء يصدّق الأولين فى قضيتهم ولم يبق للأخيرين ما يقولون دفاعاً عن فلسفتهم . نعم ثبوت بقاء الروح بعد انفصالها عن البدن ينفع بعض النفع فى تنبيه الأستاذ على خطأه الذى كان مصرًّا عليه لما ادعى استحالة معجزات الأنبياء وجرى عليه النقاش بينى وبينه قبل سنوات على صفحات « الأهرام » وفى أثناء جريانه أضاف إلى دعواه فى استحالة المعجزات دعوى استحالة البعث بعد الموت أيضا . وهذا الخطأ الفاحش وإصرار الأستاذ عليه مسجل فى مقالاته التى سأثبتها بحروفها فى ذيل هذا الكتاب ، ولم يسبق من الأستاذ حتى الآن اعتراف صريح بخطأه فى ذاك الصدد أو شبه صريح، كما هو دأبه فى أخطائه .

ثم ماذا قد تكون استفادة أهل الدين من اضطرار الماديين بعد الاكتشافات الروحية إلى التسليم بوجود الروح وبقائها بعد هذه الحياة فى عالم أرفع من هذا العالم ؟

فأين الركن الأول للدين وهو الإيمان بوجود الله؟ وليس وجود الله وجودَ الروح ولا وجودَ عالم أرفع من هذا العالم ، وإنما هو وجود موجود واجب الوجود . وثبوت هذا الوصف المضاعف لأى موجود أعنى وجوب الوجود الذى لا يكون الموجود إلها إلا به ، يتطلب دليلا عقليا منطقيا ولا ينفع فيه أى اكتشاف نفسى يكسب دليلا حسيا لوجود الروح أو لوجود عالم أرفع من عالمنا لينتقل به الذهن إلى احتمال وجود الله فى ضمن ذلك العالم وماذا هو الفائدة فى حصول هذا الاحتمال ؟ فأين احتمال وجود الله من الله الذى يجب وجوده ويقصر عن مداه الوجود المتحقق فضلا عن الوجود المحتمل ؟ وقد عرفت أن مرتبة الألوهية هى وجوب الوجود فكل موجود يكون وجوده دون هذه الدرجة فهو غير الله . والذين لم يستيقنوا الله بما له من ضرورة الوجود التى يمتاز بها عن كل موجود سواه منذ استيقنوا أنفسهم ، يبحثون عن الله فى الاحتمالات المنتظرة من الكشوف الجديدة الغربية ، ولا يبحثون إلا عبثا . فقد سبق الشرق الغربيين بحكمائه اليونانيين وعلمائه الإسلاميين فى اكتشاف وجود الله بالدليل العقلى المنطقى الذى لا يحتاج إلى دليل غيره . والذى يبقى فضل هــذا السبق إلى الأبد للشرق على الغرب، إن تأخر عنه فى اكتشافات كثيرة أخرى لا يقاس فى الأهمية والخطورة بهذا الاكتشاف الأعظم. ولا إخال أنا كون أساتذة الغرب الباحثين عن الروح بالتجارب الحسية ، يستخدمون هذه التجارب فى البحث عن الله . أما أستاذ مجلة الأزهر فما أجدره بأن يتمثل بقول الشاعر :

قالت وقد فتشت عنها كل من ... لاقيته من حاضر أو باد
أنا فى فؤادك فارم طرفك نحوه ... ترَنى فقلت لها وأين فؤادى ؟

فالله تعالى على رأى هذا الأستاذ الذى يستمد فى ثبوت وجوده بالاستكشافات النفسية

المستقبلة ، سيثبت وجوده فى الغرب ثم يثبت فى الشرق بفضل الغربيين ، ولم يثبت بعدُ لا فى الشرق ولا فى الغرب ولم يتحقق الركن الأول للدين من تلك الكشوف الحاصلة، وإنما تحقق وجود الروح وبقاؤها بعد هـذه الحياة ، حتى إنه لا يلزم من تحقق بقائها تحقق خلودها . وأين بعد هـذا مسألة النبوة التى لا تتم أركان الدين إلا بها[1] والتى لا يعترف بها الأستاذ كما يعترف أهل الدين فيجتهد فى تنزيلها منزلة العبقرية .

ولنختم الكلام هنا بتكرار لفت النظر إلى نقطة وهى أن العقيدة السلبية المادية لا تنهدم إلا مع العقيـدة الفلسفية الوضعية السلبية القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يُعتد به كما أشرنا إليه من قبل مع التنبيه إلى أنها عقيـدة الأستاذ أيضا التى لا يزال محتفظا بها ومعناها أن غير الدليل المحسوس لا يفيد القطع واليقين . ومن الغريب أن الأستاذ الذى يريد فى طوره الثالث هدم عقيدة الماديين السلبية لا يألو جهداً فى الاحتفاظ بعقيدته السلبية الوضعية ولا يدرى أنها متلازمة مع العقيـدة التى نسبها إلى الماديين وأراد هدمها . فإن لزم هدم إحدى هاتين العقيدتين لزم هدم الأخرى أيضا وإن لزم الاحتفاظ بإحداها لزم الاحتفاظ بالأخرى ، وإلا يلزم أن يكون الأستاذ متمسكا بالمادية ومكافحاً لها فى وقت واحد .

* * *

نعود إلى مواصلة ما كنا فيه من النظر فى مقالات الأستاذ فريد وجدى بك فى « نور الإسلام » و « مجلة الأزهر » وإنى أستسمح القراء ان لا يعاتبونى على إطالة هذا البحث والإكثار من تعقب قول الأستاذ رئيس تحرير المجلتين الأزهريتين فى مقدمة هذا الكتاب ، لأن الأزمة الاعتقادية المخيِّمة على العقليات الحديثة والتى أردنا القيام

---

[١] ولهذا لم يعد الفيلسوف « سباتيه » مذهب الراسيوناليزم القائل بوجود الله وخـلود الروح وأداء الواجب ، مذهبا دينيا لعدم وجود الاعتراف بالوحى فى هذا المذهب . وسيجئ ذكره منا . والشاهد هنا أن الكشوف الروحية لا تتضمن إثبات الدين ولا تكفل به .

بالسعى فى سبيل انفراجها، يتوقف حل عُقَدِها على مثل هذه التعقيبات فضلا عن أن لها صلة قوية بموضوع الكتاب .

فما يجب أن نلفت إليه القراء أن الذين يهتمون بالحواس فى إثبات وجود الموجود ويحطون من قيمة العقل ومكانته فى إدراك الحقائق ويفرّعون عليه الحط من قيمة إثبات أساس الدين الذى هو وجود الله بالدليل العقلى وعلى رأسهم الأستاذ فريد وجدى الذى سجلنا عليه ذلك بتصريحات مقالاته فى مختلف أدواره؛ فبينما أنت تراهم قادحين فى العقل والدين باعتبار انهما حليفان ، إذاهم يُبعدون الدين عن العقل ويُنزلونه فى ساحة القلب ويقولون فى تارتهم هذه : لوكان الدين سند من العقل اعتبرناه من الحقائق الثابتة ولكنه يستند إلى القلب أى إلى عاطفته لا إلى العقل . وفى هذا التفريق بين العقل والدين اعلاء للعقل واعتراف بقوته مع توهين مركز الدين . وأنت تجد هذا التفريق والتبعيد بينهما فى كلام الأستاذ فرح انطون مناقش الشيخ محمد عبده (وقد نقلنا كلامه فيما سبق) بل وفى كلام الأستاذ فريد وجدى أيضا وإن كان بين كلاميهما فرق فى درجة الصراحة ، حتى إن الأستاذين بعد اعترافهما بافتراق العقل من الدين وبطروء الوهن على مركز الدين من هذه الحيثية، تراهما فى حالة التظاهر بمؤازرة الدين: يؤيدان القلب ضد العقل .

فهذه ثلاث نظريات للأستاذين واضرابهما من مقلدى الغرب المادى تدل على ماهم فيه من عقيدة مضطربة كل الاضطراب فى موقف العقل والدين بعضهما من بعض وفى موقف العقل من الحقيقة . النظرية الأولى أن الدين يستند إلى الدليل العقلى وهو سند ضعيف غير مقنع ، والثانية أن الدين يستند إلى القلب لا إلى العقل ولواستند إليه كانت حجته قوية . والثالثة أن الدين يستند إلى القلب وهو أفضل من العقل الذى قد يطغى فيجر صاحبه إلى الشر . وفى النظرية الثالثة تقليد للغرب المسيحى كما أن فى النظريتين الأوليين تقليد للغرب المادى مع شىء فى ثانيتهما من تقليد الغرب المسيحى أيضا .

فالنظرية الأولى تنبيء عن وهن مركزى العقل والدين باعتبار أن الدين يستند إلى الدليل العقلى ويعوزه الدليل العلمى المحسوس . والنظرية الثانية تنبيء عن قوة مركز العقل ووهن مركز الدين باعتبار أنه يستند إلى القلب لا إلى العقل . والنظرية الثالثة تنبيء عن قوة مركز الدين المستند إلى القلب ووهن مركز العقل المفترق عن القلب . والأستاذان لايدريان بالضبط أن الدين يتفق مع العقل ويستند إليه أو لا يستند، وأن العقل سند قوى أوضعيف ؟ فى النظرية الثانية القائلة بافتراق الدين من العقل مع قوة العقل وضعف الدين، تناقضٌ وتصادم بالنظرية الأولى القائلة باتفاقهما وضعفهما معا . وفى النظرية الثالثة تناقضٌ فى تناقض، لأن مرمى النظرية الثانية المفرقة بين العقل والدين توهين أساس الدين بإبعاد العقل وتأييده عنه ، فترجيح مسند الدين أعنى القلب وتأييده ضد العقل فى النظرية الثالثة يكون تراجعا وتغافلا عن النظرية الأولى . فالأستاذان يتناقضان مع أنفسهما بين عقليات ثلاث، فى حين أن المعروف فى التناقض أن يكون بين أمرين اثنين.

وإثبات ماقلنا من أن الأستاذين يعتنقان فكرة إبعاد العقل من الدين الذى يستند إلى القلب مع تأييد القلب ضد العقل[1] تلك الفكرة المادية والمسيحية معا[2] . فالدليل عليه من كلام الأستاذ فرح أنطون سيجىء بعد الفراغ من مقدمة الكتاب المستوعبة للجزء الأول منه، ومعنى هذا أن الفراغ من المقدمة يتأخر إلى الجزء الثانى من الكتاب.. أما الدليل عليه من كلام الأستاذ فريد وجدى فما كتبه فى الجزء الرابع من المجلد الخامس من مجلة « نور الإسلام » ص ٢١٥ :

---

[١] وهو ما ذكرنا فى النظرية الثالثة . أما الفكرتان المذكورتان فى النظريتين الأوليين فلا حاجة هنا إلى الاستشهاد لهما من كلمات الأستاذين لكونهما معلومتين للقارئ مما سبق ، وسيزداد علما بعد التوغل فى الكتاب .

[٢] وبهذا الاشتراك فى العقلية بين الأستاذين اللذين كان أولهما أعنى الأستاذ فرح أنطون أول دافع إلى تأليف هذا الكتاب ، يتبين عذرى أيضا فى إطالة النقد والتعقيب فى الكتاب على أقوال الثانى أعنى الأستاذ فريد وجدى .

«للإنسان عقل وقلب وهما وإن كان مظهرين لروحه المدبرة فإنهما لاختلاف اختصاصهما في حياته الأدبية قد يُعتبران مستقلين لكل منهما مقومات خاصة وسلطان خاص، فمقومات العقل العلوم ومهمته النظر والتمحيص لإدراك الواقع [1] ومقومات القلب الشعور الفياض والعواطف الكريمة . . . ولا نقوم على جادة الحياة الصحيحة إلا إذا تعادل فيها هذان المظهران الروحيان، فإن طغى أحدهما على الآخر اضطربت أحوالها على نسبة ذلك الطغيان .

«هنالك يتساءل سائل فيقول إذا تغذى العقل بلباب العلوم فأصبح قويم النظر في الأمور مدركا للواقع على ماهو عليه ، ألا يكفي ذلك في إقامته على صراط الحق المستقيم؟... نقول : لا ، وهذه بعينها شبهة الذين وقفوا التربية على العقل وحده من أصحاب المذهب الحديث في التعليم فقصروا التدريس على العلوم وما إليها وأهملوا تربية القلب جانبا فكان أثر ذلك أن بطل التعادل بين العقل والقلب ، فإن كان شيء يبطل هذا المذهب فهو ما نشاهده من حال الجيل الذي نُشِّئ هذه التنشئة إذ قل اعتداده بالآداب النفسية ، بل منهم من اتخذ الإباحة البهيمية مذهبا وأخذ يدعو إليها في عبارات تحتمل وجهين وهي ترمي بجملتها وتفصيلها إلى إحلال الملاذِّ البدنيةَ المكانة العليا من النفوس. فكل مايصدر من ثمرات العقول اليوم ويباع من مطبوعات الملايين لايرمي إلا إلى تقديس الأهواء النفسانية والجري وراء الميول البدنية.. حتى أصبح الناس لا يتنفسون إلا هواء مشحونا بالملهيات والمثيرات للشهوات، ونرى في الأمم المتمدنة التي أهملت تربية القلب الشاهدَ العدل على ماقلنا . فهي اليوم ترزح تحت كلاكل الإباحة التي ضربت

---

[١] هذا هو النظرية الثانية من النظريات الثلاث المارة الذكر ، وفيها ينسى الأستاذ مؤدى النظرية الأولى التي التزمها في كثير من مقالاته — وقد سبق قريبا ذكر نماذج منها — من أن الدليل العقلي لا يوثق به ويكثر فيه الخطأ وفي نظر العقل وتمحيصه لإدراك الحقائق . ومن هذا لا يقتنع المتعلمون العصريون بالعقائد الدينية المبنية على الأدلة العقلية المنطقية .

بجرانها فيهم على عظم مايبذلونه من الجهود الجبارة فى تربية العقول. ولسنا نرى دليلا أقوى وأوضح من هذا الدليل المحسوس على أن سلطان العقل وحده لا يكفى فى تقويم الشخصية الإنسانية ، وان لا محيد لها عن سلطان القلب لإبلاغ هذه الشخصية إلى كمالها المنشود .

«فالإسلام الذى أنزل رحمة للعالمين قد عنى بتربية القلب عنايته بتربية العقل فكما منح العقل سلطانه فى التمييز بين الحق والباطل أعطى القلب سلطانه ليقود الإنسانية إلى العواطف النبيلة وليفتح له كوة إلى عالم الأرواح كى يستمد من نفحاتها مايقوَى به على الدواعى البدنية الثائرة عليه .

«قال الله تعالى « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » ولم يقل لمن كان له عقل إيذانا لسلطان القلب فى الردع وعدم كفاية العقل وحده فى ذلك.. فقد يعقل الإنسان ماتجرُّ عليه المنكرات فلا يقوى وحده على الإقلاع عنها إلا إذا أيده قلبه ولولا ذلك ماوُجد على سطح الأرض من يجرى وراء منكر قط فإن أقل الناس يدرك سوء المنقلب ممايجترحه من السيئات ولكن لحرمانه من عزيمة القلب لايصادف وازعا يزعه عن الغى فيتمادى فيه .

« وقد زاد الله فى التنويه بسلطان القلب فقال تعالى « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها » وقال « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يفقهون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فصغَّر عاهات الجوارح فى جانب عاهات القلب »

وأنا أقول ما أعظم خطأ الأستاذ الذى حمل سقوط الجيل الحديث من الأمم المتمدنة فى الأخلاق والآداب إلى دركة الإباحة البهيمية ، على طغيان العقل بما بذلت الجهود الجبارة فى تربيته وتنميته وأهمل الاهتمام بالقلب ! ! فهذا السقوط إلى دركة الإباحة منشأه عندنا انتشار الالحاد فى الجيـــل الحديث المتمدن واعتقاد أنه

لا حياة بعد هذه الحياة الدنيا ، لأن فساد العمل إلى هذا الحد لابد أن يكون متولدا من فساد العقيدة التى تتكون تحت حكم العقل الفاسد ، فلو أنهم اهتموا بتربية عقولهم وتنميتها لهدتهم إلى طريق الدين المستقيم الذى كان يكفيهم على الأقل وازعا من الإباحة البهيمية. فإما أن لا يكون لهم عقول تدلهم على الاقتناع بالدين ومالك يوم الدين وإما أنهم لايقتنعون بالعقل مهما دلهم على الدين جاهلين قدر الدليل العقلى ومنتظرين الدليل المحسوس ، وإما أن دينهم لايتفق مع العقل فلا يطمئن إليه عقلاؤهم ويروجون الإباحة .. وعلى كل حال فالخوض فى إرضاء الشهوات من الجيل الحديث المتمدن والسعى من وراء اللذات البدنية واتخاذها المثل الأعلى فى الحياة مانشأ من زيادة أو رجحان فى العقول كما زعم الأستاذ بل من نقصان فيها وأى نقصان ! !

ويمكننا أن نقول فى توضيح مافى هذه المقالة التى نقلنا عنها جملا طويلة، من خطأ العقلية : إن الأستاذ يبنى ما ضمَّن مقالته من المواعظ الحسنة على تفريق العقل من القلب وهو أسلوب الدين المسيحى الذى لايجد له مسندا ومتكأ من العقل فيستند إلى القلب وعواطفه.. والأستاذ رئيس تحرير مجلة « نور الإسلام » الأزهرية ينتهج هذا المنهج لا لأنه يستحسن المذهب المسيحى بل لأنه المنهج الغربى الذى لايعرف الأستاذ غيره.. وهذا الأسلوب المفرِّق بين العقل والقلب ينتهى إلى القول بأن الإنسان يؤمن بالعقائد الدينية بقلبه ولا يؤمن بعقله . وهذا القول كما ينطبق على الدين المسيحى ينطابق على الإسلام أيضا فى نظر الذين يرون كثيراً من عقائده أيضا من المستحيلات العقلية كالأستاذ رئيس التحرير .

لكن الإسلام لايفرق بين العقل والقلب ولا يوجد فى عقائده ما لا يقبله العقل وهو يعتبر صلاح القلب صلاح العقل وفساده فساده . والآيات القرآنية التى أوردها الأستاذ شواهدَ لسلطان القلب المستقل من سلطان العقل شواهدُ نقضٍ لدعواه . ألا يرى أنها تنسب الفقه إلى القلب نفياً وإثباتا فتقول « لهم قلوب لا يفقهون بها » ،

وتقول « فتكون لهم قلوب يفقهون بها » وليس الفقه والفهم إلا فعل العقل . والمفسرون فسروا القلب فى قوله تعالى « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » بالعقل على الرغم من قول الأستاذ : « ولم يقل لمن كان له عقل » ومن جراء ما ذكرنا أُتخذت هذه الآيات بعينها فى « المواقف » وشرحه ، (اللذين اطلع القارئ فيما سبق منا على أنهما كتابان جليلان فى علم الكلام) شواهد على أن محل العقل هو القلب ، وهو مذهب أرسطو. وفى مختار الصحاح : « القلب الفؤاد وقد يعبر به عن العقل » ، قال الفرّاء فى قوله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » أى « عقل » .

أما قول الأستاذ : « فقد يعقل الإنسان ما تجره عليه المنكرات فلا يقوَى وحده على الإقلاع عنه إلا إذا أيده قلبه » فهو مسألة العلم والعمل وعدمُ استلزام الأول للثانى، لكن العقل التام القوّام يكفل ناحية العمل أيضا . ولهذا ما سمى العقل عقلا إلا لكونه عقالا عما لا ينبغى اقترافه . والأستاذ التبس عليه العقل بالعلم الذى قد يفترق عن العمل فلا يتدخل فيه وإن أعدَّ صاحبَه له ، أما العقل فيتدخل فيه ويصلحه لأنه يعلم أيضا وجوب العمل بمقتضى العلم ، ومن هذا يصح أن يوصَم العالمُ غيرُ العامل بعلمه بنقصان العقل وإن لم يوصم بنقصان العلم . ومن هذا أيضا يصح أن يقسم العقل إلى عقل نظرى وإلى عقل عملى فى حين أن العلم لا يقبل القسمة إلى علم عملى .

والعقل الذى هو أشرف مواهب الإنسان لا تكون الزيادة فيه إلا زيادة فى الخير ولا يعبر عنها بالطغيان كما عزا الأستاذ مدنية الجيل الحديث من الأمم المتمدنة المنهمك فى الملهيات والساعى من وراء الشهوات والمتمذهب بمذهب الإباحة البهيمية ، إلى طغيان العقل والاهتمام بتربيته . فهل الأستاذ يعترف لأهل الأهواء وأنصار الإباحة البهيمية بعقول زائدة مربّاة فيحمل جريهم المعيب من وراء الشهوات على زيادة عقولهم؟

ومن العجيب المضحك أنه يخص العقل بوظيفة التمييز بين الحق والباطل ثم يعزو

مذهب الإباحة البهيمية إلى طغيان العقل وتغلبه ، فهل ذلك المذهب حق فى نظر العقل أو فى نظر عقل الأستاذ ؟ ومنشأ الغلط أن الأستاذ كما التبس عليه الأمر فظن العلم عقلا فهو ظن طغيان الهوى طغيان العقل .

ثم إن الأستاذ يتصور الطغيان والغواية فى العقل ولا يتصورهما فى القلب ، أتراه لم يسمع قول القائل :

قلبى إلى ما ضرنى داع   يكثر آلامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى إذا   كان عـــدوى بين أضلاعى

وقال البحترى :

ولست أعجب من عصيان قلبك لى   عمداً إذا كان قلبى فيك يعصينى

والآن ننتهى من الكلام فى مقدمة الكتاب على تخبطات الأستاذ فريدوجدي بك فى مقالاته للتدليل على أن الأستاذ بعد توليه الوظيفة الأزهرية كالأستاذ قبله .

* * *

ثم إن الشيخ محمد عبده الذى حكينا فى الرقم (٣) المناقشة الجارية بينه وبين منشىء مجلة « الجامعة » الأستاذ فرح أنطون ، كان قد حمل فى أثناء المناقشة على النصرانية فاستوجب ذلك من الأستاذ مقابلة الحملة بالحملة ، ولما لم يجد ثلمة فى الإسلام يدخل منها فى النيل منه، صوّب حملاته نحو جميع الأديان وأنكر ائتلافها مع العقل والعلم الحديث المبنى على التجربة الحسية . وهناك لم يوف الشيخ حق القيام بما حمّل عاتقَه موقفُ الدفاع عن الدين لاسيما الإسلام الذى لا تعارض فى أصول عقائده مع العقل ولم يوفّق لحراسة عقول الخاصة بمصر الغافلين عن حقائق الدين ودقائق الفلسفة، من أن يفتتنوا بدعاية خصمه ضد الأديان حتى كانت نتيجة ذلك النقاش أن استولت فكرة الإلحاد على سرائر أكثر المثقفين فأصبح الدين فى نظرهم تراثا مزعجا لا يُرغب فيه ولا يُجهر بالتخلى عنه، فإن قالوا بحسب اقتضاء الحال إنهم مؤمنون فلا يجاوز إيمانهم حناجرهم.

وخلاصة الموقف أن إخواننا المصريين لم يكفهم وقوع بلادهم تحت استعمار الغرب حتى تملَّك الاستعمار قلوبهم وكان المنافون منه العامةَ خاصة والقليلَ من الخاصة غيرَ مسموع الكلام، لاتهامه بالجمود والرجعية وأمسى خلاص البلاد من الاستعمار الثانى أصعب من خلاصها من الاستعمار الأول . وقد تمت صفقة ذاك التملك بثمن بخس من نشرات «داروين» فى بلاد العرب. قالوا إن هذا العلم ينفى كل مالا يثبت وجوده عن طريق المشاهدة والتجربة ، ففضَّل متعلمو مصر المصريون الإيمان بالعلم كما قال الشاعر محمد احسان المحامى :

آمنوا بالعلم دينا وهدى   ليس بعد العلم للأفهام دين

على الإيمان بالغيب ولم يرضوا أن يعودوا جهالا . وما نفعهم تحفظ الأستاذ فرح لحساب الدين بتخصيص القلب محلا للإيمان به من غير استئذان العقل والعلم اللذين لايعترفان بالدين، لأن عقلية المسلمين لاتأتلف بهذا التناقض الذى تعودت العقلية المسيحية قبوله بدون تمحيص . فتبين عندهم أى المسلمين المصريين بطلان ماادعاه رجال دينهم وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده من استناد الإسلام إلى العقل والعلم ، ولم يبق فى مصر من انتسب إلى العقل والعلم من المسلمين غير الجامدين أو بالأحرى ممن كانوا من المسلمين إلا واستبطن الإلحاد ــ كما قال الأستاذ فريد وجدى فى مقالته التى سبق منا الكلام عليها ــ وتمذهب بمذهب الاثباتيين الذين نوَّه بهم معالى هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى بك فى كلمتيهما المنقولة سابقا باسم أصحاب الفلسفة الوضعية ، وجاء قاسم أمين فأعلن شعار المذهب وهو عبادة المرأة [1] فياله من انقلاب بلغ بالاستعمار مالم يبلغه الإيمان فأسر القلوب وحل رباط الإسلام وحرر المرأة وأسامها فى الأسواق وقدمها على الرجل.. فالعربى الجاهلى القديم كان إذا بُشِّر بالأنثى يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه

[١] تقدم منا إيضاح هذا المذهب الفلسفى ودينه الصناعى السخيف الذى يستعبد للمرأة .

على هون أم يدسه فى التراب ، والعربى الحديث العلمانى يبدأ خطبته بقوله : سيداتى ، سادتى[1] ولايتوارى من القوم عندما خاصر قرينته رجل غيره وراقصها بين ظهرانيهم ، لعلمه بأن له عوضا فى أن يخاصر هو الآخرُ قرينة ذلك الرجل أو قريبته ، وفى الحقيقة أن هذا العربى أيضا جاهلى ولـكن من طراز آخر .

ولست بكاشف عن عيوب مصر أو الشرق الإسلامى الحديث ، وإنما بنيت قولى فى استبطان الإلحاد من عقلاء البلاد على كشف الأستاذ فريد وجدى عنهم ونشره على صفحات « الأهرام » قبيل توليه رئاسة تحرير مجلة « نور الإسلام » الأزهرية بأسبوع أوأسبوعين ولم يَلْقَ كشفه ونشره كلمةَ إنـكار من الجمهور فصار كالمؤيد بالاجماع السكوتى.. وقد أدخل الأستاذ نفسه فى عقلاء البلاد الذين ذكرهم واستبطانَهم الالحاد ، ثم لم يأت فى إخراجه من بينهم بمقنع ؛ على أن الإلحاد رغم استبطانه لايعد عيبا فى هـذا الزمان بل ثقافة وعلمانية ، وكانت هـذه العقلية هى التى قوالته تلك الأقوال قبل توليه

[١] وقد بلغنى أن حفلة من الحفلات التى تـكثر إقامتها فى مصر وقد تجمع بين الجنسين ، ألقيت فيها خطب وكان ملقوها يبدأونها بالقول المتعارف العصرى : سيداتى سادتى ! فلما جاء دور أستاذ أزهرى قام واستهل خطبته كاستهلال الذين تقدموه من الخطباء ، ثم قال ما معناه : أنه لم يجر فى خطابه على ترتيب الآداب العصرية فى المحافل الجامعة للجنسين ، وإنما اتبع ترتيب القرآن الحكيم فى ذكر الاناث قبل الذكور ، ثم قرأ قوله تعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » .

وأنا أقول بل اتبع الأستاذ العادة المحدثة وزاد فأفتى بحسنها ومطابقتها لأسلوب كتاب الله ، ولـكون الأستاذ معجبا بها افتته آية الشورى التى قرأها ولم يقرأ ما بعدها وهو : « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » ولم تلفته آية الأحزاب :

« إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» وخصوصا لم يلفته إدماجهن فى ضمير الجمع المذكر المذكور فى آخر الآية . ولا اذكر قوله تعالى : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » .

الوظيفة الأزهرية. فإن كان المصابون غير مرتاحين له فليس كتمان الداء أولى من مكاشفته وأقرب إلى مداواته .

وأما مسألة المرأة فظاهرة وغنية عن الكشف ، وحسبك فيها الحفلات الساهرة التي تشترك فيها الأسر الإسلامية ونشرات الجرائد والمجلات عن صور العقيلات والفتيات الكاسيات العاريات . وقد قال لي أحد رجال مصر الواقفين على دخائلها (المرحوم أبو بكر يحيي باشا) إن الأحداث التي تحدث في تركيا الحديثة تحت إكراه حكومتها ، تحصل بمصر في هدوء وطواعية[1] .

ومما يجدر بالذكر أن سجلت جريدة « الأهرام » في عددها الصادر ٢٣ إبريل سنة ١٣٣٨ الذكرى الثلاثين لقاسم أمين مؤلف كتاب « تحرير المرأة » مع صورته الفطوغرافية وكلمة لابنه قاسم قاسم أمين عن هذه الذكرى استهلها بالحديث الشريف : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

ثم قال « أما الصدقة الجارية فقد مات قاسم عن غير تركة ، وأما الولد الصالح الذي يدعو له بخير فإني لا أستطيع أن أدعي لنفسي ذلك الصلاح لا عن تواضع بل عن تقصير ، ثم أستميح سادتي العلماء العفو في أن أذهب إلى أبعد من ذلك أيضا فأقولَ إني أرجو لقاسم عند الله أجرا عظيما بقدر خدمته للإسلام والمسلمين فقد جاء في الحديث : « من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها إلى يوم القيامة »

---

[١] على أن مسألة المرأة كتبت عنها مرات في اللغتين التركية والعربية ، وأن ناحية الحق والصواب فيها جلية لا تخفى على أحد ، وإنما يضل من يضل فيها عن الصراط السوي بدافع من شهوات نفسه يقضيها — قليلا أو كثيرا — من نساء الناس في إباحة اختلاط الجنسين ، بعد ما أمكنه التغاضي عما يجر عليه هذا الكسب على حساب الناس من تعويضهم بنسائه .. فهذه المسألة فيها خسارة وفيها منفعة لمن لا يخشى العار . أما الإلحاد فليس له ما يعوضه غير نار جهنم ، وليس له دافع من النفس غير الحمق واشتراء أعظم جهل باسم العلم .

« وأى خدمة أجل من هذه الخدمة التى كان يراها أبناء جيـل نقمة لِما كان عالقا بالأذهان إذ ذاك من أن الدين يفرض الحجاب ويحتِّمه ويمقت السفور ويحرِّمه فما زال يقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل مابين معقول ومنقول حتى هدى الله قومه سواء السبيل وبدد الظلمات المخيمة على العقول » .

أقول[1] فكأن حجج قاسم القارعةَ نسخت نصوص الحجاب الواردةَ فى كتاب الله وسنة رسوله وبرعتها وأبطلت عمل المسلمين إلى عهد قاسم وأقنعت مصرَ بذلك .. ولم يتأخر ولده عن أبيه فى الإتيان بالعجب العجاب حيث استخرج من ذنب أبيه عملا له ثوابه وثواب من عمل به إلى يوم القيامة . فهو بعد أن تواضع فنفى عن نفسه الصلاح والتواضعَ فى نفيه ونفى بهذا كله انطباقَ الحديث النبوى الناطق بانقطاع عمل ابن آدم بعد موته إلا من ثلاث ، على قاسم فى ثالثة الثلاث ـ أثبت انطباق الحديث عليه فى ثانيتها وهى علم ينتفع به . فهذا الولد ذهب كما قال هو نفسه إلى أبعد من موقف الولد الداعى لأبيه واختار لنفسه موقف المحامى عنـه ولعله عندما اعتبر إباحة السفور علما ينتفع به نظر إلى أنها ـ وقد كان مسلمو مصر يجهلونها إلى أن جاء أبوه فعلَّمهم وأماط أحوط حاجز بين الجنسين ـ كم انتفع بها زيرة النساء من الرجال فى قضاء مآربهم منهن وزيرة الرجال من النساء فى قضاء مآربهن منهم .

وحديث تأميل الثواب من الله لقاسم أمين من سفور النساء المسلمات بمصر لـكونه رائد نهضتها نحوَه ، كُرر فى قصيدة الأستاذ على الجارم بك بالراديو من محطة الحـكومة ليلة الاحتفال بذكرى قاسم والمنشورة فى « الأهرام » فى اليوم الثانى من نشر كلمة ابنه .

---

[١] وإنى كتبت ما كتبته هنا عن قاسم أمين قبل مطالعة كتابه ، وأما ما كتبته بعدها فيجده القارئ فى نهاية الجزء الأول من هذا الـكتاب .

فقد كان هذا الشاعر الـكبير يقول فى مختتم قصيدته :

كنت فى الحق للإمام نصيرا   والوفى الصفى من أصحابه[1]
نم هنيئاً فمصر نالت ذرى المجد   وفازت بمحضه ولبابه
منك عزم الداعى وفضل المجلّى   ومن الله ما ترى من ثوابه

وبهذا يتأيد أن مهزلة رجاء الثواب من معصية السفور لروجيها شوّطت فى مصر أشواطا بعيدة كادت تـكون جدا .. وبهذا يستحق تبرجها أن يفوق تبرج الجاهليـة الأولى حيث لم يكن عرب الجاهلية القديمة جاهلة لحد أن تؤمّل على تبرج نسائها ثوابا من الله .

وقد كانت مجلة « المصور » عدد (٧٠٠) نشرت قبل أيام من الاحتفال بذكرى قاسم أمين الثلاثين هـذه ، صورة فطوغرافية لحفلة ساهرة كل رجل بها خاصر امرأة نصف عارية . وتقول المجلة مانصه :

« الاحتفال برأس السنة الهجرية »

« تمثل هذه الصورة لفيفاً من المدعوين والمدعوات فى حفـلة جمعية إحياء الأعياد العربيـة التى أقيمت ليلة رأس السنة الهجرية ، وهذه أول مرة تحتفل بها على هـذه الصورة بالعام الهجرى . وكانت حفلة باهرة خصوصاً وقد خلت من الشراب احتراماً للمناسبة الهجرية » .

وأنا أقول خلت من الشراب المحرم وماخلت طبعا من مخاصرة المدعوين للمدعوات

[١] مراد الشاعر من الإمام الشيخ محمد عبده ! فيفهم منه ومما كتبته السيدة هدى شعراوى رئيسة الاتحاد النسائى فى « الأهرام » بمناسبة ذكرى قاسم أمين هـذه أعنى الثلاثين ، أن للشيخ أيضا إصبعاً فى اليد البيضاء العاملة على نهضة مصر السافرة بل المفهوم أن اليد للامام والإصبع لقاسم .

كما يشاهَد فى الصورة وهى من لوازم السفور المصرى[١] الثاب عليه بفتوى قاسم أمين والذى لقاسم أمين بل وللإمام قسط جزيل من ثواب العاملين والعاملات به ومنه ثواب لوازمه إلى يوم القيامة !!

ومن العجائب السارة من ناحية والمحزنة من ناحية أخرى أن الشبان والشابات الطالبين والطالبات فى المدارس العالية لا يروقهم الاستهتار الاجتماعى ضد آداب الإسلام وقوانينه ، وما نسينا مراجعة فئة من طلبة الجامعة ومن مختلف كلياتها رئاسة الجامعة بكل حرارة وحماسة شريفة لتغيير أصول التدريس المختلط من الجنسين ، ثم ما نسينا أيضا عدم إصغاء أولياء الأمور إلى تلك الطلبات التى كان الأحرى أن تنبعث من جانبهم وهم شيوخ أو كهول . لكن أملى عظيم فى إسلام الشبان والشابات الذين ابتعد عهدهم عن المناقشة الجارية بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة «الجامعة» وكانت كلمات الأخير أثرت فى نفوس الجيل الذى أدرك زمن المناقشة أو وعيه [٢] وأملى عظيم أيضا فى تأثير كتابى هذا فى عقول أولئك الشباب الطرية غير الجامدة على الضلال الحديث[٣] .

---

[١] السفور اليوم ليس على معناه فى أصل اللغة وهو كشف الوجه ، بل معناه تقليد المرأة الغربية فى سفورها الذى قد يجعلها أكثر من نصف عارية.

[٢] وذلك الزمن يتفق مع العهد المشئوم الذى كانت وطأة النفوذ الإنجليزى فيه على وزارة المعارف بمصر على أشدها ، ولا خير للاسلام فى رجال البلاد الناشئين فى ذلك العهد إلا من ندر منهم وظلوا فى عصمة الله .

[٣] لاسيما « شباب محمد » جماعة المجاهدين المجاهرين لصوت الحق إلى الآذان المضيعة وعيها بين تلاطم أصوات المستهترين والمتسكعين فى سبل الضلال والانحلال ، تقليداً لمدنيـة الغرب الزائفة فى هذه البلاد المسكينة العريقة فى الإسلام العامرة بعلومه والمتأدبين بآدابه .

وإنى كما أدعو لجماعة هؤلاء الفتيان بتأييد من عند الله وتسديد لما يسلكونه فى خدمة الإسلام وتقويته من السبل .. لا أكتم إعجابى وتعجبى من أنه كيف نجم هذه الصفوة المباركة بعد شيوع الفساد والابتعاد عن الدين والأخلاق فى أوساط الناشئين والمتعلمين بمصر ، حتى اعتبر التحرر من قيود الدين والأخلاق شعار الشباب والنهوض . ثم أقول ليس ببعيد عن قدرة الله وسنته بمصر =

وهناك ناحية أخرى بمكان من الأهمية وهى أن مصر تخوّل نفسها بعد زوال تركيا الإسلامية وانقلابها إلى تركيا العلمانية (لاييك) زعامةَ الإسلام.. فمن حق كل أحد إذن من المسلمين ولو كان من غير المصريين أن ينتقد ما فيها من الأحوال المتنافية مع هذه الزعامة، بل من واجبه أن ينبه المصريين إخوانه فى الدين ليتداركوها بالإصلاح فتسلم لهم زعامتهم الدينية أو ينبهَ المسلمين الأباعد ليكونوا على بينة من موقف مايتصورونه للزعامة.

وقد وقع قبل بضع سنين أيضا أن قررت الجامعة المصرية أن تكون شارات حراسها رموزاً من صور آلهة المصريين القدماء ، فتكون شارة كلية الزراعة صورة إله الزراعة وشارة كلية الطب صورة إله الحكمة وهلم جرا . فكتب صديقى المغفورله الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين مقالة فى الجرائد يستنكر هذا القرار ويلفت نظر الجامعة والوزارة إلى واجبهما نحو دين الدولة الذى هو الإسلام البعيد كل البعد عن الوثنية ورموزها ، فلم تسمعا له وسكتت مشيخة الأزهر عن تأييد شيخ الكلية فاستقرت شارات الآلهة وشكر الله وحده سعى الشيخ اللبان .

وكتب بعض المتهوسين ردًّا على الشيخ بأن متخذى تلك الشارات لايقصدون عبادتها . والجواب عليه: فماذا يقصدون من اتخاذها ؟ وأى علاقة يتصورون بين تلك الآلهة وبين الزراعة والطب وغيرها ، فإن كانت آلهة باطلة لزم أن تكون الصلة بينها وبين الأمور المنسوبة إليها باطلة أيضا وتذكيرها تذكيرا للباطل . وفضلا عن أن يكون هذا الاتخاذ غير خليق بأن يتصدى له عاقل ، فإن الإسلام غيور لايسوّغ التشبه بالمشركين .

= أن تنشئ فيها جماعة من شباب سيدنا محمد وينصرهم على الكثرة الزائغة عن طريقة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما نشأت سيدنا موسى فى أحضان فرعون الطاغية وجنوده وغلبه عليه وعليهم من غير حرب وتصادم بين الغالب والمغلوب ومن غير جند للغالب سوى المعجزة . وإنى أعنى أن تكون غلبة الإيمان بمصر على الإلحاد والصلاح على فساد الأخلاق فى هدوء المعجزة وسكونها . والله على كل شيء قدير .

وكان وزير المعارف الذى اتخذت الجامعة شارات حراسها من صور الآلهة فى عهد وزارته ، قد افضى قبل توليه الوزارة بقليل إلى محرر جريدة تنشر فى القاهرة على اللغة الفرنسية ، ببيان يعرب عن رأيه فى الجامعة ولم تتناوله الجرائد العربية ، وهو أن تكون الجامعة لادينية « لاييك » وينحصرَ التعليم الدينى فى الأزهر. فحديث اختيار الشارات فى مجلس الجامعة من صور الآلهة كان يلائم ذلك البيان السابق كما يلائمه حديث الأستاذ فريد وجدى السابقُ الذكر عن عقليات نوابغ الشرق الإسلامى المستبطنى الإلحاد الذين لا يعزب كثيراعنهم أعضاء مجلس الجامعة المصرية.

ومما يجدر بالذكر هنا أنه كتب صديق الدكتور طه حسين بك مقالة فى الأهرام بعنوان « تقاليد » تدل على أن وزارة المعارف بمصر إن صادفت وزيراً يحترم شعائر الإسلام وآدابه استهدف حملات ساعيةً لأن تجعله غريباً كالإسلام نفسه .. فقد سخر الكاتب فى مقالته هذه من وزير المعارف معالى مرسى بدر بك لإلغائه الرقص التوقيعى فى مدارس البنات والبعثات منهن إلى مدارس البلاد الغربية مع استثناء لندن التى توجد فيها دار خاصة لهن بنتها الحكومة المصرية أو تملكتها وتوجد فى تلك الدار سيدة مصرية تشرف عليهن ... سخر من قرار الوزير هذا قائلا ما معناه إذا لزمت المحافظة على التقاليد فالمعقول تأسيس وزارة باسم وزارة التقاليد وتخيير معاليه بين الانتقال اليها أو البقاء فى وزارة المعارف التى هى وزارة التعليم غير مشتغل بما هو أجنبى عنه .

وقد ذكر الكاتب فى مقالته من وزراء المعارف من يتهكم عليه ويستحق فى زعمه لقب وزير التقاليد غير مرسى بدر بك وهو معالى محمد حلمى عيسى باشا الذى تولى وزارة المعارف قبل سبعة عشر عاما وفعل مثل ما فعله الوزير الحالى جزاهما الله عنى خيرا.

وأنا أقول : إن « التقاليد » يستعمله الكاتب فى معنى الآداب والعادات الدينية

التى ورثها النــاس من آبائهم وأجدادهم واهتموا بها تقليداً لهم أى بمجرد أنها تراث الآباء والأجداد لا لأنها جديرة بالاحتفاظ والاهتمام ، وتـكون خلاصة ما قصده من وزارة التقاليد وزارة الدين التى تسهر على شعائره وتظل قوة الظهر للمحافظين ... لـكنى أنالاأرضى التقاليد التى هى جمع تقليد ، اسماً لوزارة الدين ، كما لا أقبـل مايدل عليه كلام الـكاتب من عدم وجود تلك الوزارة بمصر فى الحالة الحاضرة ... فأولا لأنوزارةالدين الذى هو حقيقة من الحقائق العالية لاتكون وزارةَ التقليد ، بلوزارة التحقيق ، وإنما الوزارات غيرها التى تتخذ الغربَ لها قدوة وتحاول أن تأخذ من هذا الاتخاذ قوة ، أحق باسم وزارات التقليد من وزارة الدين التى يسخر منها صديق الـكاتب بهذه التسمية على تقدير تأسيسها .

وثانياً لأن هذه الوزارة أى وزارة الدين موجودة فى مصر لا حاجة لها إلىتأسيس جديد ، وهى مشيخة الأزهر . والذى جعل صديقى غافلا عن وجودها كونُها مجردةً عن سلطتها اللائقة بها ـ بفضل مساعى أناس قائمين بأعمال وكلاء الغرب اللادينى أو الطابور الخامس له فى الشرق الإسلامى ـ[1] ومتروكةً فى خارج الوزارة الحاكمة ، اسماً بلا معنى ولا وزنٍ غير وزن مرتبها المقدر بالقناطير المقنطرة ، كأن هـذا الوزن الثقيل المالى لهذه الوزارة غير المتناسب مع الواجب المهزول المحمول على عاتقها ، ثمن التنازل عن التدخل والمساهمة فى وزارة الحـكم والتخلى من الإشراف على رؤساء المحاكم الشرعية وفيهم رئيس المحـكمة العليا وكذا مفتى الديار المصرية الأكبر وكلهم اليوم أتباع وزير العـدل مقطوعى الصلة بمشيخة الأزهر ، مع أن المحاكم الشرعية

---

[١] فإن لم يكن كاتب المقالة الساخر بتسمية وزارة الدين وزارة التقاليد ، منهم فإنى أعده مقلد الغرب بل مقلد مقلدته فى الشرق الإسلامى الذين كانت لهم مصلحة التمتع من سفور النساء ومن التفنن فى أوضاع سفورهن المستهترة ، فى حين أنه لا يتصور مثل هذا التمتع لـكاتبنا شخصيا، وإنما هو يقلد المتمتعين .

والإفتاء الدينى لو خليا وطبعهما كانتا تحت إشراف وزارة الدين التى لا ممثل لها فى مصر سوى مشيخة الأزهر... لكن هذا المقام الذى يُعتبر صاحبه فى المظاهر والمراسم فوق الوزير، لا محل لها من الإعراب على تعبير علماء النحو العربى[١] وكأنه وزير بلا وزارة يشرف عليها، مع وجود أمور ومصالح فى الحكومة ذكرتُها قطعت صلتها به وجعلت تحت إشراف غيره؛ أو كأنه ليس وزيراً بالمرة لعدم وجود كرسى له فى مجلس الوزراء... والسبب المختفى تحت هذا التفرق الشبيه بحال المتفرقين أيدى سبا الداخل بين شيخ الأزهر وبين ما كان يلزم أن يكون تحت إشرافه من المصالح والمناصب الكبيرة الدينية ـ هو الحد من نفوذ الدين ومركزه فى المشرِف والمشرَف عليه، بتجريد الأول من العمل وربط الثانى بمقام غير مقامه... والذى يشق على المسلم كون هذه المؤامرة ضد عزة الإسلام وكرامته حيكت فى أول وضعها بأيدى طائفة معدودة من المسلمين كما تؤيَّد وتستزاد اليوم بأيدى طائفة من الناسجين على منوال الواضعين. وكلتا الطائفتين من أعوان الاستعمار الغربى الذين احتل الاستعمار قلوبهم وعقولهم زيادة على احتلال بلادهم. فهم يعيشون بأجسامهم فى أوطانهم ويعيشون بقلوبهم وعقولهم فى بلاد المستعمرين وربما يعيشون فيها بأبدانهم أيضا إذا ساعدهم الحال فيكون ذلك الزمان المساعد أسعد أوقات حياتهم، والمرء فى الدنيا والآخرة مع من أحب.

وكاتبنا لم يكتف فى تأنيب وزير المعارف بمقالة واحدة بل عززها بثانية وثالثة.. وكتب فى إحدى المقالات نذيراً موجهاً إلى سمعة مصر عند دول الغرب خلاصته أن انحرافها عن الأوضاع التى اكتسبت بها هذه السمعة تجعلها لقمة سائغة لتلك الدول.

وأنا أقول: فإذا كانت سمعة مصر فى نظر الدول غير الإسلامية مرجعها إلى

[١] ولهذا انتهى أمرها إلى أن أصبح موشكا لتذكير قول الشاعر:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

الحصول على مرضاتهم بالابتعاد عن الإسلام والتقرب إليهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فإن الآية التي يعرفها الكاتب وهي قوله تعالى « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ـ وقد ذكرتها في هذا الكتاب عند التعقيب على أقوال الأستاذ توفيق الحكيم في مسألة الفن القصصي في القرآن ـ تعود عند كاتبنا ، كأنها مؤيدة لإنذاره وحاثة لمسلمي هـذا الزمان على اتباع ملة الدول الغالبة !! ولله في خلقه شئون والحديث ذو شجون وأشجان .

هذا ، وكتب الأستاذ كاتب « نحو النور » في الأهرام بعد زهاء شهرين من مقالات الدكتور طه حسين بك في الموضوع نفسه ، منتقداً لوزير المعارف معالي مرسي بدر بك كما انتقد الدكتور ، إلّا أن انتقاده صادف زمن استقالة الوزارة التي تحتوي معاليَه ، فقال :

« حقا ما أشد حيرة المدرسات والطالبات في وزارة المعارف !

« إلى ما قبل أربعة أيام كانت الأوامر أن يرتدين ملابس فضفاضة وأن لا يبدين زينتهن ، وأن تُوقف البعثات إلى الخارج ويُمنع الرقص التوقيعي !

« أما اليوم فقد أضحت هذه الأوامر بغير سند تعتمد عليـه ، فإن الوزير الذي أصدرها متحمساً لها قد استقال ، وحل محله وزير آخر له رأي آخر ! فلا بد أن الأمور في هذه المسائل ستعود إلى سابق عهدها .

« ولـكن يبقى بعد ذلك وضع حد لمثل هـذه القرارات والأوامر العاجلة ، فإنها إذا كانت تُقبل فيما يملك الإنسان التصرف فيه وفيما لا يمس سياسة قديمة استقر العمل بها ، فإنها أخطر ما تـكون إذا تناولت نظاما قائماً ومست ما لا سبيل إلى التصرف فيه إلا بعد دراسة وتقرير وبحث .

« إن حدود عمل الوزير ينبغي أن تكون واضحة ، واستقرار الأنظمة الحـكومية

ينبغى أن يكون له احترامه وإلا إذا خضعت المصالح والوزارات إلى الأفكار الشخصية للوزراء فكيف يكون الحال ؟

« ليكن لكل وزير ما يشاء من الآراء ، ولينفذها فى النطاق الشخصى الذى هو وحده صاحب الشأن فيه كبيته أو عائلته . أما إذا تعلق الأمر بسياسة أمة وسياسة جيل ، فليس معنى كونه وزيراً أن يستقل بالفصل فيه ، وإلا انقطع الاستمرار وخضعت التوجيهات العامة للآراء الشخصية .

« إن هناك مسائل لابد أن تكون حرما لا يستباح بسهولة وفى أولها التعليم وما يجرى مجراه من نظم تعد عمادا وكيانا . ولسنا نعنى بذلك أن يُحرَّم تعديل هذه النظم ، كلا .. فإن الكثير منها لا يتفق مع رأينا ، ولعلنا نوافق مرمى بدر بك فى بعض ما ذهب إليه ، ولكن تعديل النظم لا يجوز أن يتم بمثل هذه السهولة وبجرة قلم ... لأنها نظم وتقاليد استقرت خلال أجيال طويلة ، فإذا أريد تعديلها فلابد أن يكون باقرار عام وبعد دراسة طويلة ... الخ »

وقال فى آخر مقالته : « ولعل الدرس الذى وعيناه من قرارات وزير المعارف السابق والمصير الذى آلت إليه ، يفتح أعين المشتغلين بالمسائل العامة ممن تؤول إليهم سلطة التنفيذ فلا يتعجلون المسائل ، ولا يجعلون بالهم إلى هدم القديم بينما لدينا المجال الواسع للبناء والتجديد . وقيمة الوزير لا تجئ من أن يهدم ولكنها تجئ من أن يبنى » .

وأنا أقول : انتقاد هذا الكاتب يختلف عما كتبه الناقد الأول ، حيث عد هذا قرار وزير المعارف بإلغاء الرقص التوقيعى للطالبات وحظر ابتعادهن وابتعاد مدرساتهن عن ملابس الحشمة وأزيائها ، هدماً للقديم وخروجاً على التقاليد .. فى حين أن الدكتور طه حسين بك كان يعد ما فعله الوزير رجوعاً إلى التقاليد القديمة المنسوخة وإحيائها . ولهذا ذهب إلى لزوم تأسيس وزارة التقاليد لينتقل إليها هذا الوزير الذى يسخر منه

فى انتقاداته .. ومع ذلك فإن أسلوب الكاتب الثانى الخالى عن التهكم أغرب من أسلوب الدكتور طه وأبعد عن الحق ، فإنه يجعل الرقص والبعد عن الاحتشام فى ملابس الطالبات ومدرساتها ، أساساً وما فرض عليهن الوزير خروجاً على الأصل المتبع .. يدل عليه قوله عن هـذه الأمور التى ألغاها الوزير : « إنها نظم وتقاليد استقرت خلال أجيال طويلة » . وقوله فى فقرته الأخيرة : « فلا يتعجلون المسائل ولا يجعلون بالهم إلى هدم القـديم » . مع أن تلك الأمور التى ألغاها الوزير لا يعرفها الإسلام إلا من البدع المنكرة ولا يعترف لها بالقدم والاستقرار ، اللهم إلا ما كان لها من النظام والاستقرار فى الجاهلية الأولى المشار إليها فى قوله تعالى : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

أما قول الناقد فى صدر مقالته : « حقا ما أشد حيرة المدرسات والطالبات فى وزارة المعارف !

« إلى ما قبل أربعة أيام كانت الأوامر أن يرتدين ملابس فضفاضة وألا يبدين زينتهن ، وأن توقف البعثات إلى الخارج ويمنع الرقص التوقيعى ! »

فهو كالصريح فى أن مانهى الوزير عنه يتفق تماما مع نهى الإسلام القائل فى كتابه « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ... ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن » كما أن قول الكاتب المنقولَ يكون بمثابة المعارضة لنهى الإسلام فى معناه ولفظه . وجد فظيع وبشيع فى بلدة إسلامية كمصر أن يكون ما أنكره الإسلام ونهى عنه فى كتابه ، كيانا لها ونظاما مستقرا وحرماً لايستباح بسهولة .. بعد أن لم يكن ماعرفه الإسلام واعترف به وجرى العمل عليـه بين جميع المسلمين مدة ألف سنة وثلثمائة ــ نظاما مستقرا وحرما لا يستباح بسهولة .

ولو سألنا الكاتب عن مقصوده بما اشترط لإعادة نظام الإسلام فى مصر من

الإقرار العام بعد أمر الحكومة بلسان وزير المعارف وعدم احتمال مصادمة هذا النظام بآراء عامة المسلمين فيها ـ فماذا يكون جوابه ؟ . . ولعل نصاب الإقرار العام عنده إقرار نفر من الكاتبين الكرام فى الصحف أمثال الدكتور طه حسين بك وكاتب « نحو النور » فى الأهرام . ومعنى حصول الإقرار العام بإقرارهم على الرغم من كونهم قلة ضئيلة ولا كواحد فى مائة ، كونهم يجرون من ورائهم آراء الغربيين غير المسلمين.

ولا يمكن اجتياز هذا البحث من دون تعرض لمسألة خطيرة الشأن تدل على أن حكومة مصر لا يهمها أن ينشأ أولاد المسلمين نشأة إسلامية ، لأن مدارس مصر الرسمية لا يدرس فيها الدين بتاتا عدا المدارس الابتدائية وفيها لا يعتبر درس الدين من المواد الأصلية المؤثرة فى نجاح الطالب فى الامتحانات أو رسوبه فيها . وهذه المسألة الغريبة المبكية لأصدقاء مصر ليس المسؤل عنها عند الله الحكومة فحسب بل الأمة أيضا الباعثة نوابها إلى البرلمان . فمثلو مصر التى تباهى بزعامة الإسلام يكونون أدنى مرتبة وأقل حيازة لحقوقهم الدينية قبل الحرب العالمية الأخيرة ، من مسلمى بلاد البلقان التى كانت تحكم فيها حكومات غير إسلامية مثل يوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا واليونان ، لأن جميع المدارس التى كانت تتولى أمورها الجماعات الإسلامية فى تلك البلاد لاسيما بوسنه وهرسك التى لم تستطع تركيا الجديدة اللادينية أن تفسدها بفضل ثبات أهلها المسلمين فى التمسك بدينهم إفسادَها لمسلمى اليونان ورومانيا وبلغاريا ، هذه المدارس الإسلامية فى تلك البلاد كانت تعتبر دروس الدين من أهم موادها الأصلية .

لا يقال جوابا على انتقادى هذا لموقف المسلمين بمصر أن للمسلمين فى بلاد البلقان موقفا خاصا يقفونه إزاء كون حكوماتهم أجنبية عن الإسلام وكون مدارسها لا يدرس فيها دين المسلمين فلا يقاس عليهم مسلمو مصر . ومع هذا فلهم أن يؤسسوا مدارس كمدارس المسلمين فى البلقان يدرس فيها ماشاءوا من علوم الإسلام معدودة من المواد

الأصلية . كما أن هذا الحق بأيدى المدارس الحرة الموجودة بمصر وماسيوجد منها.. لأنى أقول ماذا يريد أن يقول هذا المجيب على نقدى لمدارس مصر الحكومية؟ فهل مسلمو مصر فى حاجة إلى تشكيل جماعة إسلامية فيما بينهم تشرف على حاجات المسلمين الدينية وتعتبرهم فى مصر كأنهم يحكم فى بلادهم الأجانبُ عن الإسلام فتؤسس لهم مدارس تهتم بالدين وتمد دروسه من المواد الأصلية كما كانت تفعل الجماعات الإسلامية فى بلاد البلقان غير المسلمة .

وقد سمعت أن عذر الحكومة المصرية فى إغفال دراسة الدين فى مدارسها الرسمية عدم اختصاص تلك المدارس بأبناء المسلمين . فلو علَّمتهم دينهم وأهمل دين طلابها من غير المسلمين مع كونهم أيضا من أبناء مصر كالطلاب المسلمين ، لِيمَتْ بعدم مراعاة المساواة إزاء أهل بلادها . والجواب عليه أن مثل هـذه الملاحظة واردة على تصريح الدستور المصرى بأن دين الدولة الرسمى الإسلام ، فالذى يوجب ترجيح الإسلام فى دين الدولة يكفى مرجحا لتدريس هذا الدين فى مدارسها الرسمية ، وإلا كان امتياز الإسلام فى هذه البلاد بأن يكون هو دينَ الدولة ، لفظا ، من غير معنى .

هذه حالة المدارس المصرية التى تديرها أو تشرف عليها وزارة المعارف. أما الأزهر فالباحث الحازم يتردد كثيرا فى القول بأنه أحسن حالا .. ولو عرف العالم الإسلامى أو بالأولى لو عرف علماء الإسلام فى أقطار العالم أن الأزهر الجديد فى حيرة عن أمره فى الاحتفاظ بما ورثه من قديمه من العلوم والعقائد حتى التى كان يعتقدها من الضروريات لقضوا عجبا منه .

حسبك شاهدا على هذا أن هيأة كبار العلماء الأزهريين ، بعد أن دعيت قبل بضع سنين هى أو لجنة منتخبة منها إلى إبداء رأيها فى الغلام أحمد القاديانى الهندى ، حدث خلاف بين أعضائها أو على الأقل شكٌّ يخالج بعضهم فى خروج من لم يعترف بكون محمد

صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء عليهم السلام ، عن الإسلام[١] والذين اقتنعوا به من أولئك الأعضاء لم يجدوا نصا قاطعا بهذا الصدد يكفى فى إفحام من شك من زملائهم ، وتمسك بوجود احتمال فى قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » يفتح الطريق إلى الشك ويمنع الحكم بكفر صاحبه مهما كان احتمالا ضعيفا وهو احتمال أن يكون المراد من الخاتم الزينة لا الخاتمة .

وأنا أقول وقد سألنى أحد أقطاب الأزهر أعنى صديقى المغفور له الشيخ عبد المجيد اللبان أن أجد نصا فى إكفار من قال بإمكان بعث نبي بعد نبينا أصرح من الآية الناصة على أنه خاتم النبيين... سألنى ذلك كيلا يبقى للشاك فى هذه المسألة — وهو غير الشيخ المغفور له طبعا — مجال الجدال وإن كان هذا السؤال بعد وجود الآية المذكورة تكليفا بما لا يطاق ودافعه إليه مَن شك فى البديهيات . وكم كان واجبى فى هذا العصر إزالة الشبهة فى البديهى ! ..

أقول طلب الدليل بعد هذه الآية فى القطع بأنه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء كطلب الدليل على النهار بعد طلوع الشمس ، وقد انعقد الاجماع على كفر من ادعى النبوة بعده كما صرح به المولى على القارى فى شرحه على « الفقه الأكبر »[٢] وأيضا لولم تكن دعوى النبوة بعد نبينا كفرا لما قاتل سيدنا أبو بكر المتنبئين وأتباعهم .

---

[١] أنا لا أقول بوجود عضو فى هيئة كبار العلماء يشك فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، ولكن هل لا يكون التردد فى الإفتاء بكفر من قال بخلافه فأجاز أن يبعث الله نبيا بعده ، شكا فى كفر القائل والشك فيه شكا فى كونه آخر الأنبياء ؟ فإن كان المفتى المتردد لا يفهم الملازمة بين هذه الأمور فسلام على العلم والعلماء وعضوية كبار العلماء .

[٢] وهناك إجماع غير هذا يستلزمه ويغنى عنه وهو أن المسلمين جميعا يعتقدون كون نبينا آخر الأنبياء ، وهو إجماع عام يعرفه الخاصة والعامة ولا يشك فى كفر من أنكره كالإجماع على عدد ركعات الصلوات الخمس .

أما احتمال التأويل فى لفظ « الخاتم » بالزينة فبعيد جدا بحيث لايعقل ولا يجوز أن يعد احتمالا . أما أولا فلعدم التئامه بما قبله وهو نفى كونه صلى الله عليه وسلم أباأحد من الرجال، إذ لامانع فى كونه زين الأنبياء من كونه أبا أحد من الرجال ، وإنما المانع منه كونه آخر الأنبياء لئلا يكون ابنه نبيا بعده كما هو المعتاد فى أبناء الأنبياء .

وأماثانيا ـ وهو المهم وإن لم يتصد لذكره أحد من المفسرين لأن الشبهة التى خالجت عقول بعض الأعضاء [١] من هيأة كبار العلماء الأزهرية لم تكن تخالج عقولهم ـ فلأن الختم بمعنى الإنهاء أو الطبع ، والخاتم ما يختم به أى مايجعل فى النهاية أوما يطبع به ، وهو بالمعنى الأول نص فى الخاتمة وبالمعنى الثانى يكون كناية عن الخاتمة تشبيها لطبع الشئ بالخاتم، بإنهائه لأن طبع الشئ بالخاتم ينهى الأمر ويسد الباب على التصرف فيه . فإن كان الخاتم فى « خاتم النبيين » بمعنى النهاية فالأمر ظاهر وخاتم النبيين آخرهم . وإن كان الخاتم بمعنى مايطبع به فالمراد منه أيضا أنه آخرهم تشبيها للختم بمعنى الطبع بالختم بمعنى الإنهاء ، كأنه صلى الله عليه وسلم الخاتم المضروب على قائمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فلا يكتب فيها بعده اسم نبى لكونها مختومة .

أما أن يكون المراد من الخاتم ما يلبس فى الأصابع ويتزين به ويكون معنى خاتم النبيين زين الأنبياء فلا وجه له لامن طريق اللغة ولا من طريق البلاغة، لأن الحلقة الملبوسة للزينة وإن كانت من جملة مايطلق عليه الخاتم فى اللغة ، إلا أن ذلك إطلاق مجازى مبنى على أنهم كانوا يكتبون أسماءهم على تلك الحلق الملبوسة ويستعملونها فى الطبع والتوقيع .

---

[١] بينى وبين فضيلة الشيخ شلتوت عضو كبار العلماء أخذ ورد فى كون هذه الشبهة أثيرت فى الهيأة عند درس مسألة الطالبين الألبانيين القاديانيين ، يأتى تحقيقهما بمكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

وقد صرح الزمخشري فى « أساس البلاغة » بكون هذا الاطلاق مجازا مبنيا على هـذه المناسبة ، فسبب إطلاق الخاتم على الحلقة الملبوسة كونها أداة الختم بمعنى الطبع لا كونها أداة الزينة . فلا يصح استعمال لفظ الخاتم الذى معناه المدلول عليه بصيغته هو أداة الطبع ، كمجرد واسطة للانتقال منه إلى معنى الزينة ، فلا يجوز أن يقال عنه صلى الله عليه وسلم «خاتم النبيين» ويراد به أنه زينتهم المجردة عما يدل عليه لفظ الخاتم من الختم بأحد معنييه أى الإنهاء والطبع ، لأن الخاتم هو ما يختم به بأحد المعنيين المذكورين لا ما يتزين به وإن وجـد عرضا فى بعض ما يطلق عليه الخاتم أنه يستعمل أيضا للزينة . ووزان الخاتم فى هذا الشأن مثلا وزان ساعة اليد التى يتسورها بعض الناس فى الأزمنة الأخيرة لمعرفة أوقاتهم بسهولة ودون غفلة ، بل ساعة الجيب أيضا وربما يتزين بهذه أو بتلك من يتزين ويتأنق فى التزين فيغالى فى اختيارها ماشاء .. لـكن المقصود الأصلى منهما معرفة الوقت كما أنه المفهوم من لفظهما ، وإن حصل بهما التزين أيضا لمن يتخذ منها وسيلة إليـه . فـكل منهما بالنظر إلى لفظها أداة معرفة الوقت قبل أن تكون وأكثر من أن تكون أداة الزينة ، مع أن إمكان أن يكون كل منهما مستعملة أيضا للتزين وهما من ناحية القابلية للاستعمالين كلفظ الخاتم . فهل يطلق على نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ساعة اليد أو ساعة الجيب للأنبياء ؟ وهل يكون لهذا الاطلاق مساغ فى الـكلام الفصيح ؟ مع أنه صلى الله عليه وسلم زين الأنبياء وأن كلا من الساعتين قد يتزين بهما . والسبب فى عدم جواز هذا الاطلاق مع جواز إطلاق «خاتم الأنبياء» ووروده فى الفصيح المعجز أن المعنى الذى يجب أن يراد من ساعة اليد أو ساعة الجيب للأنبياء أو خاتم الأنبياء هو المعنى الذى يدل عليه اللفظ مباشرة وهو ما يعرفون به أوقاتهم فى الأولين وخاتمهم بمعنى خاتمهم أو طابع الختم لهم فى الأخير ، أو لازم هذه المعانى المباشرة ؛ وأن هـذا المعنى المباشر أو لازمه الذى لا يفارقه صادق وواقع فى الخاتم دون الساعتين ، أعنى أنه

صلى الله عليه وسلم خاتمة الأنبياء أو طابع الختام لهم ، وليس صلى الله عليه وسلم ساعة لهم يعرفون به أوقاتهم ولا أن الزينة التى قد توجد فى بعض ساعات اليد أو الجيب مطردةٌ فى كل منهما يصح انتقال الذهن منه إليها انتقاله من الملزوم إلى اللازم ولا أن هذه الزينة محترمة جديرة بأن يوصف بها أشرف المرسلين . . ويماثل الساعتين الخاتمُ فى عدم كون الزينة لازما له مطردا ولا زينة محترمة تمام الاحترام ، ولهذين المانعين لا يقال عن نبينا أنه خاتم الأنبياء مراداً به زينهم كما لا يقال عنه أنه ساعة اليد لهم أو ساعة الجيب المانعين المذكورين ، وكذا لا يقال إنه قرط الأنبياء ولا خلخالهم وإن كان قصد الزينة مطردا فيهما فيصح الانتقال منهما إلى معنى الزينة ، لكون الأول زينة خاصة بالنساء وكون الثانى مع هذا الاختصاص زينة غير محترمة . وليس فى « تاج الأنبياء » شىء من الموانع . هكذا ينبغى أن تميَّز زينةٌ عن زينة ويوفَّى لتحقيق المسألة حقه ويراعَى مقامُه صلى الله عليه وسلم فى الوصف ومقامُ القرآن فى الإعجاز ، ومنه يفهم حق الفهم مبلغ قوة السند الذى يستند إليه إجماع المسلمين على أنه صلى الله عليه وسلم خاتمة الأنبياء لا نبى بعده .

وأما ثالثا وفيه تلخيص القول ، فلأن الخاتم معناه الحقيقى ما يختم به من الختم بمعنى الإنهاء أو بمعنى الطبع . وليس معناه ما يتزين به لأن الختم لا يجئ بمعنى التزين قطاعا . . إلا أن بعض ما يختم به من الختم بمعنى الطبع يُتزين به أيضا كما فى الحلقة الذهبية أو الفضية التى يحك عليها أو على فصها الثمين اسم الرجل ويتخذ منها أداة الختم والتوقيع فيجتمع فيها معنى الطبع ومعنى الزينة . . وقد تكون أداة الطبع مما لا يلائم أن يتخذ زينة سواء كانت على غير شكل الحلقة الملبوسة أو كانت على شكلها من المعدن الرخيص ، فيتحقق فيها الخاتم أعنى ما يختم به من الختم بمعنى الطبع ولا يتحقق فيها الزينة . وهناك أدوات الزينة لا يختم بها ولا يوقع . فالزينة لا تلازم الخاتم وإنما توجد فى بعض

ما يطلق عليه الخاتم بل فى بعض ذلك البعض كما عرفت . فبين مايختم به وما يتزين به عموم من وجه، فقد يجتمعان فى مادة ويفترق كل منهما عن الآخر فى مواد كما بينا ، فبينهما مغايرة وبينهما مناسبة ، ومع هـذا لا تبلغ هذه المناسبة مبلغ أن يصح ذكر أحدهما مراداً به الآخر ، فلا يصح أن يقال خاتم النبيين ويرادَ به زينهم ، إذ لو صح ذلك لصح أيضا أن يعكس فيقال زين الأنبياء مراداً به طابعهم .

وليت شعرى أن من لا يرى القطع فى دلالة « خاتم النبيين » على كونه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء، مستندا إلى احتمال تأويل الخاتم بالزينة لا لـكونها مدلول اللفظ ولا لازم مدلوله وإنما لاستعمال بعض الناس بعض مسمى هذا اللفظ لمجرد الزينة إخراجاً له من وضعه الأصلى .. ليت شعرى كيف يَقطع بدلالة خاتم النبيين على نبوته صلى الله عليه وسلم قبل دلالته على أنه خاتمهم؟ وكذا دلالة قوله تعالى « ولـكن رسول الله » على رسالته بالمعنى المعروف ، مع أن للنبى معنًى غير معناه المعروف فى اصطلاح الشرع وكذا الرسول ، لاسيما وأن الـكتاب المصريين ابتدعوا للرسالة معنى عاما اختلسوه من معناه الخاص بعدد ممتاز من البشر فجعلوا لـكل فرد أو جنس منهم رسالة من الله بمعنى أنه خُلق لأدائها . فلماذا لايفكر ذلك العضو من جماعة كبار العلماء ـ الذى تعلق ذهنه باحتمال معنى الزينـة فى الخاتم ولو احتمالا ضعيفا ـ فى احتمال أن يكون رسالة الرسل المذكورين فى كتاب الله من هذا القبيل، فيشكٌ فى كفر من ينكر رسالته بذلك المعنى كما شك فى كفر من ينكر كونه خاتمة الرسل ؟

هذا ، ومع القيام بواجب الذود عن خاتم النبيين انتهيت من الـكلام فى موقف مصر من الإسلام وانتهت عند ذلك مقدمة الـكتاب التى شرحت فيها أسباب تأليفه . والتى انتهى معها الجزء الأول من الـكتاب وكان الذى دفعنى إلى هذا الشرح الطويل عن موقف مصر بيان تأكد الحاجة إلى تثبيت عقيدة الدين بها الذى يخدمه هذا الـكتاب

إن شاء الله . وليس المقصود تعيير شخص ولا تشهير أمة[1] إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

---

[١] وكيف يكون لى تعيير مصر باعتبار أنى أجنبى عنها مع أن بلادى اليوم أشد استحقاقا للتعيير من أى بلد إسلامى ؟

الهوامش أو بقاياها التى لم تنشر فى محالّها من صفحات هذا الجزء من الكتاب لطولها فننشرها فى ذيله مرتبة ومقيدة بأرقام تلك الصفحات .

« بقية الهامش من الصفحة ١٥٤ »

فهذا أمير الشعراء شوقي بك الذى أنفق عمرا في مدح السلطان عبد الحميد وآل عثمان تراه يمدح مصطفى كمال ولايعرفه ويذم السلطان وحيد الدين بل يشتمه ولايعرفه فيقول : ولىّ الطواغيت يدعى بأمير المؤمنين . حتى قلت له : في خطاب مفتوح : إنى أعرف الشعراء على ما وصفهم الله فى كتابه الكريم بأنهم يقولون ما لا يفعلون لكنى وجدتك ـ والحق يقال ـ من الذين يقولون ما لا يعلمون . ثم إنه على الرغم مما وجهت إليه من التنبيه والتحذير ، يقول ـ وبئسما يقول ـ فى قصيدة هنأ بها الجمهورية التركية اللادينيه عند إعلانها وإلغاء الدولة العثمانية الإسلامية به ، والخطاب لأنقرة عاصمة تلك الجمهورية اللادينية :

إن الذين بنوكِ أشبه نية ... بشباب خيبر أو شباب تبوك

ويقول فى القصيدة تعريضا بى وبقولى المذكور عن الشاعر :

قد ظننى اللاحى نطقت عن الهوى ... وركبت متن الجهل إذ أطريك

زاعما أن تلك الجمهورية التى لا يعرف أنها جمهورية لادينية ولايعرف أنه لايعرف ، تؤيد الخلافة . وبعد بضعة أشهر يلغى مصطفى كمال الخلافة وينفى عبد المجيد الذى ولاه الخلافة قبل سنة ونصف سنة من تركيا تصديقا لى وتكذيبا بمدّاحه فى عالم الإسلام الذين لا يعرفون حقائق الأحوال ولا يريدون أن يتعلموها من العارفين، فيقول الشاعر فى قصيدة جديدة :

الهند والهة ومصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟

وجواب هذا السؤال من الشاعر : نعم ، محا ، وأنف الغافلين غير سامعى التنبيه فى أوانه راغم ! فكأن الشاعر يستدرك مافاته فى هذه القصيدة التى عنونها « خلافة الإسلام » ويبكى فيها على الخلافة الملغاة، ويرجع عما فرط منه أولا فى مدائح الملغى .

وهل نفع استدراكه هـذا الخلافةَ المهدومة كما نفعت مدائح المادحين الهادمَ وشجعته على الهدم؟ بل هل نفعها وهى مهدومةٌ قوله فى ذم الهادم بعد خراب البصرة :

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث ... بالشرع عربيد القضاء وقاح

أفتى خزعبلة وقال ضلالة ... وأتى بكفر فى البلاد براح

ثم رجع الشاعر عن رجوعه قائلا :

أستغفر الأخلاق لست بجاحد ... من كنت أدفع دونه وألاحى

مالى أطوِّقه الملام وطالما ... قلدته المأثور من أمداحى

هو ركن مملكة وحائط دولة ... وقرين شهباء وكبش نطاح

أأقول من أحيا الجماعة ملحد ... وأقول من راعى الحقوق إباحى

وأنا أقول : سواء قال أو لم يقل فهو كذلك وسواء قوله هـذا وعدمه لخلافة الإسلام والإسلام مقضى عليهما فى تركيا بيد ممدوحه بإصرار ومذمومه بتردد ، ولات حين ينفع الذم والندم ، وإثم القضاء يشاركه فيـه الخائضون فى مدحه من غير إصغاء إلى نصح ناصح . وكان واجب الهاتفين له المستمرين فى نصره بالفعل والقول إلى أن يقضى على الخلافة والإسلام ، أن يستمروا فى الهجوم عليه بعد تبين أمره إلى أن يقضوا عليه وتعودَ الخلافة والإسلام إلى تركيا أو الإسلام فقط على الأقل . فهكذا كانوا يقومون بواجب تصحيح أخطائهم حق التصحيح ، لـكن الشاعر يقول بدلا من هذا :

أدوا إلى الغازى النصيحة ينتصحْ ... إن الجواد يثوب بعـــد جماح

وقصيدة البكاء على الخلافة مصدَّرة فى « الشوقيات » بكلمة منثورة يقال فيها : « ماكاد العالم الإسلامى يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم فى ميدان الحرب والسياسة

ذلك النصر الحاسم الذى كان حديث الدنيا والذى تم على يد مصطفى كمال فى سنة ١٩٢٣ حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة و نَفَى الخليفة من بلاد الترك ... »

أقول : قاتل الله الجهل الذى أشرت إليه فى قولى المنقول آنفا « إن الله تعالى قد وصف الشعراء بأنهم يقولون مالا يفعلون ولكنى وجدت هذا الشاعر من الذين يقولون مالا يعلمون» حتى إن هذه الكلمة التى صُدِّرت بها قصيدة التندم تستشف ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض ، فلم تكن الخلافة التى أُلغيت ليلة نفى الأمير عبد المجيد من بلاد الترك ، بخلافة ولا الأمير المرحوم بخليفة ، وإنما كان موظفا من غير وظيفة ، عينته حكومة الجمهورية اللادينية القائمة بأنقرة ليقيم فى قصر من قصور السلاطين بالآستانة مدة سنة ونصف سنة ويأخذَ مرتبا ثم يخرجَ من البلاد فى منتصف ليلة من الليالى على أثر أمر أتى من مدير البوليس بأنقرة إلى مدير البوليس بالآستانة .

وأقول أيضا إن أساس جهل الجاهلين عدم تفكيرهم فى كيف يتم ذلك النصر الحاسم على يد مصطفى كمال ؟ فهل هو غلب باسترداد أزمير من يد اليونان على الإنجليز والفرنسيس والطليان والأمريكان جميعا الذين كانوا حلفاء اليونان فى الحرب الكبرى الأولى؟ وانتهت الحرب بغلبتهم على الترك والبلغار والنمسا والألمان وكان احتلال أزمير من جيش اليونان بقرار من حلفائها الغالبين بلغوه الترك . فهل هزم الرجل أعنى مصطفى كمال بمفرده جيوش هؤلاء الغالبين وأساطيلهم المحتلة للآستانة فأكرههم على الانسحاب منها مع التنازل عن الامتيازات القديمة ؟ بل كيف استرد أزمير من اليونان ولم يحرك هذا الاسترداد ساكناً من حلفائها الغالبين الآمريها باحتلال أزمير؟ بل اعتُبرت غلبة الترك على اليونان غلبة فى ميدان الحرب والسياسة على الجميع ، وكيف قامت الترك فى غد الحرب بهذا الانتصار العظيم، وقد عمل الألمان حليفة الترك فى الحرب الأولى بمثل قيام الترك، بعد إحدى وعشرين سنة تحت قيادة هتلر وأقامت القيامة على الدنيا فلم تنجح فى عملها ، فهل كانت الترك تحت قيادة مصطفى كمال أقوى من الألمان تحت قيادة هتلر ؟

فهذه أسئلة لا يمكن الجواب عليها ، وكل من عنـده قليل من المنطق يوردها على نفسه قبل أن يعتبر مصطفى كمال ، بطل نصر الترك الحاسم فى ميدان الحرب والسياسة .

والحقيقة أن الشاعر لم يكن عارفاً بأن أكبر الدول الغالبة وأمكرها كانت تعمل من وراء الستار مع مصطفى كمال لينتصر على المنتصرين ثم يقضى بفضل هذا النصر المبين السحرى على دولة الخلافة ونعرةِ الترك الإسلامية اللتين كانتا منذ قرون طويلة قذى فى عين الدولة المختفية وراء مصطفى كمال وشوكة فى جنبها . فكيف يقبل الرجل إذن النصيحة ضد القضاء عليهما وهو الثمن الموعود لانتصاره السحرى فى الميدانين.. ذلك الثمن الذى لا تقدِّر له تلك الدولة مثل قيمته الغالية من أى دولة إسلامية غير دولة تركيا وأمة إسلامية غير أمة الترك ، اللتين قامتا بأكبر جهاد وأطوله فى سبيل الإسلام لا يزال يطن صداه فى آذان تاريخ العالم رغم أنف الأستاذ محمد عبد الله عنان .

* * *

ولا بد قبل انتهاء هذا البحث أن أسجل أسفى على بساطة فى النظر وشطط فى التقدير لسعادة حافظ رمضان باشا اطلعت عليهما من مقالة الأستاذ يوسف كمال حتاتة سكرتير جماعة الأنصار، المنشورة فى « منبر الشرق » الأغر عدد ٤٢٤ بعنـوان الخليفة الشهيد وحيد الدين ، وقد كتبها الأستاذ جزاه الله عن الحقيقة خيرا لتبرئة الخليفة المغفور له مما رمى بها رئيس حزب مصر الوطنى فى مقال له فى مجلة آخر ساعة ونصه :

« ماقولك فى مصطفى كمال الذى كان فاراً فى الأناضول ؟ ألم ينشئ جيشه تحت سيل من قنابل الأعداء ؟ فى وقت كان خليفة المسلمين يطالب فيه برأسه لقاء جنيهات معدودات . »

أقول : ليعلم سعادة حافظ رمضان باشا وغيره من المجازفين وليتقوا الله فى القول

عن موقف وحيـد الدين من مصطفى كمال فى نشأته شخصيةً بارزةً رفعته إلى رئاسة دولة تركيا وجملته يظنه الرأى العام العالمى ـ الذى هو أشبه شىء فى نفسه بالرأى العامى مهما وُجد كثيرون من خاصة الرجال أمثال رمضان باشا بين أصحاب ذلك الرأى العالمى العامى ـ بطلا من أبطال الدنيا بل وربما بطلا من أبطال الإسلام ، وقلما يوجد أحد فى الدنيا ائتمن أحداً وأولاه ثقته كما ائتمن وحيد الدين مصطفى كمال ، ولا أحد خان أحداً وغدره كما خان مصطفى كمال وحيد الدين .

يقول رمضان باشا : « إن مصطفى كمال الذى كان فارًّا فى الأناضول أنشأ جيشاً تحت سيل من قنابل الأعداء فى وقت كان خليفة المسلمين يطالب برأسه لقاء جنيهات معدودات » وفيما قاله تغيير فاحش للواقع ، لأن مصطفى كمال لم يكن فارًّا فى الأناضول بل مرسَلا إليها من حكومة الخليفة التى كنت أنا عضواً من أعضاء وزارتها ، مرسلا بصفة رسمية مهمة أعنى مفتش الجيش العام الذى يندرج تحت أمره جيوش ، كما نص عليه مصطفى كمال نفسه فى الخطبة التى ألقاها بعـد أن تولى رئاسة الجمهورية وألغى الخلافة والتى استغرق إلقاؤها شهوراً وكوّن طبعها مجلداً ضخماً[1] وكان بعثه إلى الأناضول بهذه الصفة الممتازة الرسمية والسلطة الواسعة ، بإيماز من الخليفة وحيدالدين إلى الوزارة يصادف عقب انتهاء الحرب العامة الأولى بمغلوبية تركيا مع ألمانيا واضطرارها إلى فتح الدردنيل لأساطيل الحلفاء واستسلام عاصمة الخلافة لهم .. تلك الحرب التى

[١] أما قوله فى تلك الخطبة عن بعثه إلى الأناضول بهذه الوظيفة الـكبرى ذات السلطة الواسعة : « إنه كان المقصود منه إبعاده عن العاصمة » فادعاء مضحك ينقض نفسه بنفسه ، فـكأن الخليفة ووزارته خافوا الرجل مجرداً عن القوة وهو فى قبضة أيديهم فأجلوه إلى الأناضول وخولوا له قيادة الجيش العامة ليجعلوه جديراً بأن يخافوه !

وكنت هذه المهزلة مسقطة لخطبته التى تؤلف من طولها كتابا ضخما ، عن حيز الاعتداد عند أولى الأبصار والتى كتبها لتبرير حركاته ضد ولى نعمته ، وذكره فيها بأخس الألقاب البذيئة.

دخلتها تركيا متورطة فى دخولها ، قبل عهد وحيد الدين فى زمن السلطان محمد رشاد ووزارة الأمير المصرى المرحوم محمد سعيد حليم باشا . فلما توفى السلطان رشاد فى أواخر الحرب وجاء وحيد الدين وارثاً لشؤم عواقبها تذكَّر مصطفى كمال الذى وُجد فى معيته أثناء سفره بصفة ولى العهد المرسل إلى ألمانيا من جانب السلطان لإهداء السيف إلى الأمبراطور ويلهلم . وكان مصطفى كمال قد كسب تقدير وحيد الدين فى ذلك التعارف وحبب نفسه إليه فاتخذه لما تولى العرش ياوراً خاصا له ثم بعث إلى الأناضول بعد انتهاء الحرب وسقوط العاصمة إلى أيدى الحلفاء ، مزوداً بصفة رسمية كبيرة كما ذكرنا وبامتيازات أخرى من المساعدات المالية والمنشورات السرية ... بعثه ليجمع قوة من فلول الجيش المغلوب ويستخدمها فيما تعجز عنه حكومة الخليفة المكتوفة تحت احتلال الأعداء وحجرِ أحكام الهدنة الموقع عليها فى عهد الوزارة المتقدمة على الوزارة التى بعثت مصطفى كمال إلى الأناضول والتى كنت أنا عضواً فيها بصفة شيخ الإسلام .

دخل مصطفى كمال الأناضول من طريق البحر الأسود ونزل إلى صمسون فى ١٩ مايو مع حواشيه الذين اختارهم من الرجال العسكريين والإداريين كما نص عليه فى خطبته وجمع ماجمع من عناصر المقاومة ، وليس فى أثناء هذا الجمع شىء مما ذكره رمضان باشا من سيل القنابل الملقى عليه .

يقول مصطفى كمال إنه دخل مدينة صمسون فى ١٩ مايو ١٩١٩ فيلزم من هـذا أنه خرج من عاصمة الخلافة قبـل ذلك التاريخ بيومين أعنى ١٧ مايو ، وهو يصادف احتلال جيش اليونان بميناء أزمير قبل يومين أي ١٥ مايو بقرار من لجنة الحلفاء العليا المقيمة فى باريس المؤلفة من رؤوس وزرائها ... وقد بلغونا هذا القرار مساء ١٤ مايو وحذّرونا من مقاومة اليونان أي تحذير معتبرين ذلك مقاومة جميع الحلفاء أى نقض الهدنة .

وفى مصادفة احتلال أزمير لما قبل سفر مصطفى كمال إلى الأناضول بيومين ، عبرة عظيمة لأولى الأبصار الذين يعرفون أن إحداث مسألة أزمير من الحلفاء بنزعها من حكومة الخليفة ومنحها لليونان ثم نزعها من اليونان وإعطائها لمصطفى كمال ، ما هو إلا بداية مؤامرة الإنجليز على الخلافة وبداية مؤامرة تهدف إلى خروج تركيا من الجامعة الإسلامية .. أما حرب مصطفى كمال لاسترداد أزمير من اليونان ونجاحه فيها بعد أكثر من ثلاث سنين وبعد توسع دائرة الاستيلاء من اليونان فى هذه المدة حتى استغرقت نصف بلاد الأناضول ووصلت إلى أبواب أنقرة[1] ، فكل ذلك وسائل ومناورات من الإنجليز لتهيئة أذهان العالم وفيها أذهان الحلفاء غير الإنجليز ، إلى خذلان الطرفين المتنازعين من الخليفة الذى بعث مصطفى كمال لتأسيس قوة تقاوم الأحداث المحتملة واليونانَ المأذونة لاحتلال أزمير بل المأمورة به .. والنتيجة المقصودة من المناورة خسران الخليفة وخسران اليونان رغم كونها من أعضاء الحلفاء الغالبين فى الحرب التى لم تجف دماؤهم فيها ممزوجة بدماء اليونان . وهذا الخسران الأخير الخاص باليونان من بين الحلفاء تضحيةٌ منهم ، أو بالأصح تضحية من الإنجليز بإحدى حلفائها — وهى التى لا تصادق ولا تحالف غير نفسها — فى سبيل خذلان الخليفه بأى ثمن .

فالمطلوب خسران الخليفة وخسران اليونان فى سبيل خسرانه وكسب مصطفى كمال لحساب نفسه وبقطع النظر عن كونه مندوب الخليفة ومبعوثه إلى الأناضول .. كسبه قوة وسمعة بهــا يقتدر على إلغاء الخلافة وخيانة شخص الخليفة . ولا يدرى

---

[١] ولو شاء الإنجليز ما استطاع مصطفى كمال أن يغلب جيش اليونان ويسترد أزمير ، وكانت هذه المشيئة واجب محالفة اليونان وواجب القرار الصادر من الحلفاء على إنزال جيش اليونان إلى أزمير . . ولم يكن مصطفى كمال الغالب على اليونان غير مصطفى كمال المغلوب بالأمس فى جبهة غزة والمنظور حديثا من صحف تركيا فى كونه هو بطل موقعة آنافارطه بالدردنيل .

سعادة رمضان باشا مساعى الإنجليز المدبرة لإفساد مابين الخليفة ومصطفى كمال بتضييق حكومة الخليفة واضطرارها إلى استمادة الرجل من الأناضول. حتى إنهم كانوا يشددون التضييق على وزارة ويخففونه على وزارات حسب اختلاف الوزارات فى الانحياز إلى الخليفة أو إلى مصطفى كمال الذى كان من رجال حزب الاتحاد والترقى وكان هـذا الحزب قد قسم الترك إلى قسمين متعاديين كأنهما أمتان مختلفتان .

ولا يصعب بعـد كل ما ذكرنا آنفا وتلخيصا من وقائع الماضى القريب لاسيما مصادفة بعث مصطفى كمال إلى الأناضول لقرار احتلال اليونان من الحلفاء ومقاربة زمان الأمرين بعضهما من بعض ، إلى حد أن أحدهما كان مدبّرا من جانب الخليفة والآخر مدبرا من جانب الحلفاء متقابلين ومتعاقبين بعضهما إثر بعض ، فإن سبق قرار الحلفاء على احتلال اليونان خروجَ مصطفى كمال من الآستانة بيومين ، فقد سبق قرارَهم قرارُ حكومة الخليفة على تعيينه مفتشا عاما للجيش ... لايصعب بعد هذا وبعد إجالة النظر الدقيق إلى ما اشتملت عليـه أقوال مصطفى كمال فى خطبته المطبوعة من التهويش والمجازفة التى تنم على استيقانه من أول الأمر بالفوز والنجاح فى مشروعه . فقد كان الرجل ـ على تصريحه فى ص ١٠ من خطبته المدونة ـ يسخر من أعوانه ومستشاريه الذين يخالج أذهانهم كيف تـكون تركيا المغلوبة فى الحرب حين كانت معها زميلاتها الألمان والنمسا والبلغار، غالبةً على الغالبين بمفردها .. وانظر إلى قوله ص ١٠ (وقوله هذا قبل إلغائه الخلافة ببضع سنين وقبل اكتساب الشهرة والسمعة فضلا عن السلطة التى جرّأته على الإلغاء ... أيام كان مندوب الخليفة) : « أما الخلافة فلم تعد مسألة ذات موضوع عنـد عالم المدنية بعد أن جعل العلم ذلك العالم ، غريقاً فى نوره ، إلا موضوع الضحك » .. لايصعب بعد هذا وذاك لمن عنده الفهم أن يفهم أن الرجل كان لما كان فى الآستانة يفاوض الخليفة فى بعثه إلى الأناضول للقيام بوظيفة هامة جدا

مستحقة لتقدير الخليفة والوطن ـ كان يفاوض الإنجليز أيضاً فى الوقت نفسه لمهمة أخرى تهم الإنجليز وتهم الرجل خاصة ، على حين غفلة من الخليفة والوطن ، أعنى به وطن الإسلام فى تركيا .. الله يرحمه .

ومما يدل على ما ذكرنا قول مصطفى كمال الذى نقلناه فى الهامش المتقدم أنه يفسر بعثه إلى الأناضول من طرف الخليفة وحكومته ، بخوفهم منـه .. وقد أبطلنا هذا التفسير الذى إن كان له معنى معقول فإنما هو كون الرجل عند ما اتخذه الخليفة بطانة له فعزم على بعثه إلى بلاده التى لا تمتد يده إليه بسبب وقوعه مع عاصمة ملكه تحت استيلاء الأعداء ... عندما اتخذه بطانة له معتمداً على ذمته وأمانته ومتوقعاً منه خيراً وحماسة فى الخير ـ يسئ هو الآخر ظناً بالخليفة وحكومة الخليفة ويكنّ نحوهم فى قلبه شراً وعداوة فهم يأتمنونه وهو لا يأمنهم فهم يتصورونه لأكبر وظيفة وهو يتوجس منهم خيفة .. فإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه من غير سبب سوى ما فى قلبه من السوء .. وذلك قبل الالتيا والتى حدثت فيما بينـه وبين الخليفه من المباعدة والمناوأة ، بكثير .

عود على بدء . . اطلع الحلفاء المحتـلون على ما يهدف إليه بعث مصطفى كمال إلى الأناضول فاحتجوا على الوزارة القائمة فى استانبول المحتلة مستندين إلى أحكام الهدنة المعقودة فى عهد الوزارة السابقة وطالبوها باستعادة الرجل . وفضـلا عن هذا فقد حدث اختلافات وارتباكات بين الولاة فى الأناضول وبين قواد مصطفى كمال ـ كما توقعه توفيق بك وزير المالية فى الوزارة التى أولته وظيفة التفتيش العام واعترض على سعة سلطته قائلا إنه يتحكم بها على الولاة ـ فدعوناه إلى استانبول بلسان وزير الحربية فلم يجب الدعوة .. ثم تـكرر الاحتجاج من قيادة الاحتلال وتمادت أصوات الشكاية من الولاة إلى وزارة الداخلية حتى أعدى الخلاف الذى قام بينهم وبين قواد

مصطفى كمال ما بين وزير الداخلية الشهيد على كمال بك ووزير الحربيــة شوكت طورغود باشا وتــكررت منا دعوة مصطفى كمال إلى العاصمة واستمر هو فى عدم الإجابة ... إلى أن اضطُرت الوزارة المهددة من جانب الحلفاء بانتهاء الاحتجاجات إلى إعادة حالة الحرب حتى قررت الوزارة على إقالته من منصبه وهى مؤلفة يومئذ من أكثر من عشرين وزيراً بزيادة وزراء بلا وزارة من الأحزاب والمستقلين ، بينهم من تولوا الصدارة العظمى سابقا، وأنا يومئذ بصفتى شيخ الإسلام الذى يتعين للنيابة عن الصدر الأعظم عند غيبوبته ، رئيسُ مجلس الوزراء بالنيابة عن الصدر الأعظم فريد باشا المسافر إلى أوروبا لحضور مؤتمر الصلح .

قررت الوزارة إقالة مصطفى كمال من منصبه وعرضتُ القرار على السلطان وحيد الدين لـكنه لم يوافق عليـه موصياً الاكتفاء بدعوته إلى العاصمة والاستمرار فى الدعـــوة ففعلنا وتمـادى التملل والمِطال منه فى الأجابة ومن السلطان فى التوقيع على قرار إقالة المدعو غير المجيب ، وتمادى الاحتجاج على الوزارة من الحلفاء لعدم البت فى أمر مصطفى كمال .. حتى قررت الوزارة قرارها الأخير يوم ٨ يوليه : فذهبت إلى القصر وقابلت السلطان ومكثت عنده من أول المساء إلى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وهو يماطلنى منتظراً لإجابة الرجل إلى دعوة رئيس الديوان الذى يتكلم معه تلغرافيا باسم السلطان فى الغرفة المتصلة بمجلسنا ، حتى انقطع الأمل من إجابته . واضطر السلطان إلى قبول قرار الوزارة على إقالته ، فـكان جوابه على بلاغ الإقالةِ استقالتَه عن السلك العسكرى بالمرة فى عبارة تنم على التمرد والعصيان . وتاريخ الإقالة هكذا مسجل عليه فى خطبة مصطفى كمال مع الفرق فى بعض ساعات من الليل.

فظهر من هذا أن وحيد الدين وافق بكثير من الـكراهة على إقالة مصطفى كمال بعد شهرين وعدة أيام من نصبه. ومع هذا لم يُصدر ضده أى أمر بعد الإقالة بل غيّر الوزارة فى ٢ أكتوبر التى طلبت من السلطان إقالته ، وأنا معهم وفى رئاستهم حين الطلب، وأتى بوزارتين ملائمتين

لحركات مصطفى كمال فى الأناضول أكسبتاه بعد مايقرب من ثلاثة أشهر مضت فى زمان وزارتنا، مدة قضاها فى التمرد تقرب من سنة، ولم يحصل من مهاجماته على اليونان غير توسع اليونان فى الاستيلاء على الأناضول كما ذكرنا من قبل حتى تولت وزارة فريدباشا التى بعثت الرجل إلى الأناضول ، الحكم مرة ثانية فأصدرت هذه الوزارة أمرها ضد مصطفى كمال مع الفتوى القائلة ببغيه وخروجه على السلطان . وكان شيخ الإسلام صاحب الفتوى فى هذه الوزارة عبد الله بك درى زاده الذى توفى فى مكة المكرمة. ثم مالبث وحيد الدين كثيراً حتى استبدل بها وزارة توفيق باشا وأبقاها فى الحكم سنتين خدمت فيهما هذه الوزارة آمال مصطفى كمال ومساعيه المدبرة ضد السلطنة والخلافة[1] إلى أن عاين وحيد الدين الخطر على حياته من جانب مصطفى كمال ففر من مقر عرشه بعد أن دام على ثقته وحسن ظنه به غير مصغ إلى كلمة قيلت عن مكره وسوء نيته نحوه ولا مُصدر أمراً ضده إلا كارها ومستمداً كل الاستعداد للعدول عنه . تشهد به الوزارات التى أقامها السلطان غير وزارتى دماد فريد باشا ، تُفضّل ترك الحبل على غارب الرجل بل تؤيده سراً وجهرا تحت سمع السلطان وبصره .

فهذا السلطان الذى فقد عرشه ومات غريبا وفقيرا[2] والذى طالت ضده ألسنة الدعاة المفترين من أنصار الجمهورية اللادينية فى الشرق وأعداء الخلافة الإسلامية فى الغرب ، قد غلبه مصطفى كمال مستغلا لوطنيته البالغة فى التحمس مبلغا لم يُبق لنفسه شيئا من التحوط والتردد فى الثقة بذمة الرجل وأمانته ، حتى قال له بعض رجال الترك القدماء بعد أن قابل بلاغ السلطان فى إقالته بكلمات تنم على التمرد فى ضمن

[١] وفى تلك الأثناء اقترح مصطفى كمال على السلطان وحيد الدين أن يتنازل عن الحكم ويكتفى بالخلافة المجردة عن السلطة لينتقل الحكم والسلطة إلى أنقرة ويقيم الخليفة فى الاستانبول متقاضياً مرتبه .. فلم يقبل وحيد الدين هذا الاقتراح الذى قبله عبد المجيد بعده .

[٢] أما طلبه برأس مصطفى كمال لقاء جنيهات معدودات وهو يجمع جيشه تحت سيل من قنابل الأعداء فمن أفرى الفرى والحق منه فى بعد الثريا من الثرى .

استقالته عن السلك العسكرى بالمرة ثم استمر فيه وتوسع ، « هذا الرجل لا يُستبعد أن يغتصب عرشك » فكان جواب السلطان ملحا على ثقته به : « ليخدم الوطن وليغتصب عرشى . » وشاعت كلمة فى الأوساط السياسية سمعتها لما كنت ، فى بلادى منسوبة إلى أحد الإنجليز مؤداها أن السلطان وحيد الدين حاول أن يكيد الإنجليزَ بمصطفى كمال فكاد الإنجليز به السلطانَ نفسه . فالحاصل أن غلبة مصطفى كمال للسلطان حصلت من غير مغالبته من السلطان وكان سلاحه فى الغلبة وطنيةَ السلطان وكيدَ الإنجليز الذين وجدوا فى شخص مصطفى كمال استعدادا للخيانة من ائتمنه وعززه بأكبر منصب وأنواع أسلحة كما سبق ذكره .. واستعداداً للمساومة على خلافة الإسلام ومقومات تركيا الروحية من الدين والأخلاق والآداب ، بثمن بخس هو احتفاظ الدولة باستقلالها بعد تجريدها عن مزاياها بأن تتنازل عن الخلافة وعن البلاد التى تولت الخلافة لمّا تولتها وتتجردَ الأمة من هويتها الممتازة بين أمم المسلمين ودولهم بنعرتها الدينية التى عانت الدول المسيحية منها ماعانت... حتى تصبحَ الترك غير الترك التى تمتز بدينها المختلف عن دين تلك الدول وقوانينها الشرعية السماوية المختلفة عن قوانينها الوضعية وزى رجالها عن زى رجالها تحت القبعات والبرانيط وتستر نسائها عن تعرى نسائها ومنازلها المنقسمة إلى الحرم والسلاملق عن منازلها المختلطة وحروفها المكتوبة من اليمين إلى اليسار عن حروفها المنعكسة ... وبالاختصار حتى تصبح الترك غير الترك الممتزة بنفسها وعقيدتها الإسلامية على مصداق قوله تعالى الصادق المنطبق على كل زمان : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ـ المختلفة عن أمم الدول المسيحية مهما كانت راقية ، فلا تعدها أكفاء لأمتها ، ولهذا كانت لاتبيح زواج نسائها برجال تلك الأمم حتى أباحه مصطفى كمال.

غيّر مصطفى كمال هذه الترك القديمة الممتزة بنفسها وعقيدتها الإسلامية وجعلها داعية الأفرنج وأذنابهم فى الشرق[1] وفى مقابل ذلك أعفاها الحلفاء الغالبون فى الحرب التى

[١] وإنى متعجب من إخوانى المصريين الذين عانوا وعاينوا من مكر الإنجليز منذ عهد طال =

دخلتها ضدهم ثم انهزمت مع زميلاتها الألمان والنمسا والبلغار . . أعفوها وعاملوها بين المغلوبين معاملة الغالب ، فكأن مسئولية الحرب المترتبة على الترك المحاربة ثم المغلوبة ، زالت مع زوال تركيا الكبيرة المسلمة واستحالتها إلى تركيا الصغيرة اللادينية المقطوعة الصلة بولاياتها العربية مثل الحجاز واليمن والعراق وسوريا والمقطوعة الصلة بماضيها المجيد المجاهد فى سبيل الإسلام وإعلاء كلمة الله ، حتى إنها لاتعرف اليوم ذلك الماضى بسبب استبدال الحروف اللاتينية بحروفها العربية والمقطوعة الطريق إلى حج بيت الله الحرام .

والآن تسعى حكومة تركيا الوارثة للمبادىء المستبدلة بالترك غير الترك ، إلى القضاء على لغتها بإخلائها عن الألفاظ العربية والفارسية لاسيما العربية المستولية عليها ممتزجة بلحمها ودمها منذ أعصار بعيدة تمتد إلى بداية إسلام الترك . . تسعى إليه فلا تستطيعه ، وليس ببعيد أن ينتهى الأمر إلى اختيار لغة من لغات الغرب فيختصروا الطريق إلى

= وكفى المعمرين المتذكرين منهم أن يتذكروا وجاءهم النذير . . كيف خفى عليهم مكر الإنجليز بتركيا فى نهاية الحرب العظمى الأولى حيث استخرجوا بواسطة مصطفى كمال من الدولة المغلوبة مع زملائها فى الحرب ، دولة جديدة غالبة ومن الدولة المتدينة الملكية ، دولة جمهورية لادينية.

فمصطفى كمال الغازى هذا الذى سماه المسلمون الغافلون فى فترة من الزمان « بطل الإسلام » ثم لا يزال يعتقد كثير منهم منقذ تركيا . . . رجل لعب دوراً فى خدمة الإنجليز وإهانة وطنه ثم مات حتف أنفه وأوصى بأن لا يصلى على جثمانه — ثم صُلى برجاء من أخته — وجعل دين تركيا وعرضها وكرامتها وجميع تقاليدها ملعبة لهواه كان يدوسها ويرقص عليهــا مع من يشاء من بناتها ونسائها . فخلق من قوم شم الأنوف بدينهم وبتاريخ مجدهم وبمجاهدتهم فى سبيل الإسلام أذنا بالانجليز ، وقد دعيت تركيا الجمهورية إلى مؤتمر الإسلام الذى عقد قبل أعوام فى القدس — ومصطفى كمال يومئذ حى — فلم تجب لأنها لا تعد نفسها دولة إسلامية ، حتى إنها أمرت القنصلية التركية فى القدس بإنزال لوائها المرفوع فوق بناء المؤتمر على ظن أنها من الدول الإسلامية . ودعيت تركيا هــذه أخيراً إلى مؤتمر آسيا المعقود فى دلهى الجديدة عاصمة حكومة الهند فلم تجب أيضا لأن تركيا التى أنشأها مصطفى كمال بطل الإسلام عند المسلمين الغافلين وجعلها دعية من أدعياء الدول الغربية لا تقبل أن تبقى دولة إسلامية ولا أسيوية .

التخلص والابتعاد من التركى القديم المسلم الذى بلغ اتصاله بالإسلام إلى حد أنه قد ظل لفظ الترك يستعمل أجيالا طويلة على لسان الغربيين كرادف المسلمين كما صرح به المرحوم الدكتور على زينى عميد كلية التجارة بجامعة فؤاد فى كتابه «أصول القانون التجارى».

انتهت حالة تركيا بسبب هذه التقلبات القاضية على كيانها الإسلامى إلى أن أصبحت أندلسا ثانية.. وزادت على أولاها بأن القضاء عليها أتاها من نفسها بأيدى أعداء الإسلام من أبناء أهلها، بل أعداء الترك أيضاً المتتلمذين على الغرب الآخذين منه عداوة الإسلام وعداوة الترك القدماء المجاهدين فى سبيل الإسلام، فى حين أن القضاء على الأندلس الأولى أتاها بأيدى الأجانب عن الإسلام.(١)

---

[١] ولقد شق على أن أرى سعادة رمضان باشا خليفة المغفور لهما مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك العارفين قدر الدولة العثمانيــة والخلافة الإسلامية .. أن أرى سعادته يكبر عدو الإسلام والخلافة والعرب جهراً وعدو الترك السرى المنتدب من الدولة الغربية العريقة فى عداوة الإسلام، لهدم تركيا المسلمة المجاهدة فى سبيل الإسلام وبناء تركيا الجديدة اللادينية، ويذكر الخليفة المظلوم وحيد الدين بسوء.

وقد يعترض على بأن سعادة رمضان باشا ليس من طراز أسلافه فى زعامة الحزب الوطنى، بل من رجال الوطنية المجددين، فلا يهمه دين تركيا عنــد ما يتمنى لها الخير لـكون الصلة بينها وبين مصر ولو فيما سبق تجعلها شقيقتين ... لايهمه دين تركيا بقدر ما يهمه مركزها الدولى المستقل لعدم كونه مشايعاً للمذهب القديم الذى يبنى الدولة على أساس الدين والعنصرية ... ولهذا قرأنا عن سعادته فى الأهرام بتاريخ ٥ يوليو سنة ١٩٤٨ أنه يعيب الدول المعترفة بدولة إسرائيل المزعومة على أساس الدين اليهودى.

ونحن فى جوابنا عن هذا الاعتراض ننعى على سعادته انخداعه برجوع الدول غير الإسلامية من بناء الدولة على أساس الدين، فى حين أن ذلك تظاهر من تلك الدول حثا للدول الإسلامية على الابتعاد عن هذا الأساس ... والدليل عليـه احتفاظ تلك الدول بمناوأة الدول الإسلامية وأمها البارز مثالها فى ميولهم إلى الإجحاف بحقوق العرب فى مسألة فلسطين، سعياً لإضعافهم فى مقاومة اليهود المعتدين على بلادهم، لأن الدول الـكبيرة الحاضرة صاحبات النفوذ فى الأرض يرين فى قوة الإسلام بنفسه مع كثرة عدد المنتمين إليه، مزاحمة لقوتهن فيضغطن على المسلمين فى كل صة ويسعين ضدهم ... أما اليهود فلا يخفن من قوة دينهم ولا من كثرة نفوسهم وثروتهم التى يستعملنها عند الحاجة فى أغراضهن الخاصة. =

أنا الذى ينشرح صدرى بسماع كلام الله تعالى كل صباح من راديو قبل مغادرة سريرى وأشكر مصر من أجل ذلك .. أسأل سعادة رمضان باشا المصر على اتهام وحيد الدين وإكبار مصطفى كمال بوصفه منقذ تركيا وبانيها من جديد .. هل يسمع صوت القرآن من راديو تركيا الجديدة مع وجود آلاف من حملة القرآن بين بقية المسلمين من أهلها المشرفين على الانقراض ؛ وما المانع من انتشار هذا الصوت فى عهد المنقذ وخليفته ؟

ومما زادت به الأندلس الثانية أعنى تركيا المسلمة على أولاها فى فظاعة المصيبة ، أنها ذهبت فى خذلان تام وحرمان حتى من الباكين عليها المأمول وجودهم بين المسلمين الأباعد ، لكونهم زاعمين ولا يزالون خروجها على تقاليدها الدينية والقومية ، تقدما ورقيا ... فى حين أن الأندلس الأولى لم تعدم مااستحقته من بكاء المسلمين عليها ، وقد قال شاعرهم :

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة   حتى المنابر ترثى وهى عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد   إن كان فى القلب إسلام وإيمان

أما الأندلس الثانية فقد مات شاعرنا الأعظم عاكف بك ـ مع كونه حاملا للقب شاعر الإسلام ـ ولم يهرق قطرة دمع على تركيا الخارجة من الجامعة الإسلامية

= ثم أقول : وعلى كل حال فليس الحزب الوطنى المصرى اليوم على متانة رأيه وبعد نظره فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد ، وقد رأيت مقالة فى الأهرام عدد ٢٢٨٧٤ بعنوان « بين بطلين » للأستاذ الوطنى فتحى رضوان المحامى بمناسبة ذكرى من ذكريات قاسم أمين الذى لا تنسيه عند مكبريه عشرات السنين الماضية على موته ، وقد جمعه الأستاذ كاتب المقالة مع المرحوم مصطفى كامل باشا تحت كلمة « بطلين » وجعله ثانى اثنين ثم ذكر معتذراً عن جانب البطل الأول مامعناه انه شغلته الناحية السياسية لخدمة الوطن عن السعى لتحرير النساء المسلمات مع قاسم أمين الذى هو البطل الثانى ، ولكنه كان قلبه معه .

وأنا أقول لم أر مثل الأستاذ الكاتب فضوليا جمع بين البطل والباطل ولم يخلط النابل بالحابل بل خلطه بالخابل وجعل لمصطفى كامل بعد موته نصيبا من إثم رجل لم يشاركه فى حياته .

ولم ينبس بكلمة لوم على مخرجها كمال آتاتورك لِما أعوزته الشجاعة المدنية.. ومحاريب المساجد هناك ومنابرها يشغلها عن البكاء المصلون الترك من الجيل القديم المسلم الذين لايمر وقت طويل عليهم إلا وهم ينقَضون ويدرجون .

وكان تغيير الحروف العربية وحده ـ الذى قطع صلة الترك بماضيها فى الإسلام الى حدأنه لاتعرف عنه شيئا ولاتقرأ كتابا ألف فيه، كما قطع صلتها الثقافية بالأمم الـكاتبة بالحروف العربية ـ كافيا فى تنبيه الغافلين من الترك والعرب عما كان مصطفى كمال يهدف إليه فى ذلك التغيير .. فلم يكف ... فأين رجل من الترك كاتب فى الصحف أو نائب فى البرلمان ولو من المعارضين يصيح قائلا : إلى متى تعيش مهزلة كوننا نحن الترك ممنوعين من أن نكتب بالحروف التى كتب بها آباؤنا منذ ألف سنة ؟ أليس للترك تاريخ ولثقافتها نسب، وإنما هى لقيطة مصطفى كمال وتاريخها يبتدىء من ظهوره فى تركيا ؟؟

ثم أين رجل من العرب يعز عليه كون الإسلام واللغة العربية والحروف العربية منبوذة نبذا رسميا من تركيا التى أنشأها مصطفى كمال ... يعز عليه ذلك فيكف من إكبار الرجل مع المكبرين من أعداء الإسلام؟ لـكن الملاحدة الذين لاتعدمهم العرب أيضا يقومون بواجب الاتصال بينها وبين تركيا الجديدة اللادينية ولاينسون فضل زعيمها العظيم على ملاحدة كل من الأمتين .. ألا يرى إلى قول الأستاذ فريد وجدى بك عن الانقلاب التركى ، وقد نقلناه فى كتابنا « مسألة ترجمة القرآن فى ص ١٠٢ » : «فنحن الذين شهدنا هذه الآية الاجتماعية يحرم علينا أن نصغر من شأنها وأن نمر بها غير مكترثين ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مر بها الأتراك متى جاء دورنا فى نهوض حقيقى صحيح . فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درسا فلا أقل من أن نُعجَب به مع المعجبين » .

والتحول العظيم فى نفسية الترك الذى ذكرنا هنا شيئا كثيرا منها ، قد وقع تحقيقاً لما وعد به مصطفى كمال مصريا على لسان مندوبه فى مؤتمر لوزان وخليفته اليوم فى رئاسة

الجمهورية الأنقروية .. وتفسيراً لانسحاب الإنجليز الاختياري مع زملائهم من الاستانبول التي احتلوهـا وأحاطوها بأساطيلهم ، تبعا لانسحاب زميلهم الصغير أى اليونان من الأزمير مضطرين إليه أمام الترك الأناضوليين الذين أثارهم مصطفى كمال مقنَّعا بقناع الحماسة الإسلامية ، وإن كان هو نفسه الذى دعاهم إلى نبذ الإسلام بعد أن قضى حاجته منهم .

ولم يشقّ على الإنجليز الذين نراهم فى نهاية الحرب العالمية الثانية كيف يحمون اليونان ويساعدونها حتى ضد حليفتهم الروس .. لم يشق على الإنجليز أن يخذلوا اليونان فى حرب أزمير على الرغم من أنها حليفتهم ومن أن احتلالها من اليونان قد كان واقعا بقرار بلغوه لنا من باريس باسم اللجنة العالية المؤلفة من رؤساء الحكومات الإنجليزية والفرنسية والطليانية واليونانية .. بلغوه وحذروا من مخالفته بإلغاء الهدنة...

لم يشقّ على الإنجليز خذلان حليفتها اليونان ومساعدة عدوتها الترك فى سبيل المنافع التى اكتسبتها فى تلك المناورة السياسية. ومن يومها دخلت تركيا المغيِّرة نفسها تحت محالفة الإنجليز وفى حمايتها الخفية، وليست هذه المحالفة أوالحماية التى تريد مصر التخلى عنها وتدخل فيها الترك الجدد ، وليدة الحرب العالمية الثانية .

فهل أتى على الذين أطروا تركيـا الجديدة التى خلقها مصطفى كمال آتا تورك قبل مضى وقت طويل على خروجها من الحرب العالمية الأولى التى انهزمت فيها مع زميلاتها الألمـان وغيرها وانكسرت أمام الحلفاء شر انهزام وانكسار .. خلقها ونفخ فيها حياة جديدة وقوة قادرة على تحدى الغالبين وطردهم مع أساطيلهم المحشودة أمام الاستانبول، من بلاد الترك ؟ .. فهل أتى على الذين أطاروا تركيا الجديدة هذه فى سماء النهضة والعظمة بأجنحة خلقها لها مصطفى كمال مع خلقتها الجديدة ؟ . هل أتى عليهم زمان ينتبهون من نومهم فيرون تركيا الجديدة مخلوقة مصطفى كمال ــ على الرغم من أنها ما دخلت الحرب العالمية الثانية ، غير أنها استعدت للدخول واستراحت طول امتداد

الحرب ـ كيف ترتعش أمام خطر الروس ، وكيف تؤمل النجدة والمعونة إزاء هذا الخطر المحدق بها ، من الإنجليز ؟ مع أن كلا من الدولتين اللتين ترتعد تركيا الكمالية وتأرق الليالى قلِقةً أمام إحداهما وتعتمد على الأخرى ، قد أنهكتها الحرب الأخيرة واستنفدت قواها .

وربما يوجد الآن من المسلمين السذج الموجودين فى خارج تركيا ، من يدفعه إيمانه القوى ببطولة كمال أتاتورك إلى القول بأنه لوكان حيا لما خشى الترك بأس الروس ، وكيف تخشاه وهى التى اضطرت تحت قيادة البطل الراحل حلفاء الحرب العالمية الأولى المتغلبين على الألمان فى الأولى والثانية ، إلى الانسحاب بجيوشهم وأساطيلهم عن عاصمة تركيا التى هى الاستانبول ، لانسحاب اليونان من الأزمير فقط والفرنسيس من كاليكيا ... والجنون فنون ، ولله فى خلقه شئون.

إن تركيا العثمانية التى كان الغربيون من أعداء الإسلام أسموها الرجل المريض ، كانت فى الواقع تُمثل الحق المريض بعد أن مثلت الحقّ القوى قرونا ، ثم أجهز عليها مندوب هؤلاء الأعداء الذى اختاروه من داخل تركيا أعنى مصطفى كمال وخلق هذا المندوب باطلا مريضا مكان الحق المريض .

وليسأل إخوانى العرب قدر ذلك الرجل المريض المكنى به عن تركيا القديمة ـ إن لم يعرفوه إلى الآن ـ عن إخوانهم الفلسطينيين .

« الهامش [١] من الصفحة ٢٣٢ »

ومن عجائب النكران للجميل ما يروى من علماء مصر المتتلمذين على الشيخ محمد عبده مثل الطنطاوى الجوهرى والأستاذ الأكبر المراغى أنهم كانوا يشكون علمى الكلام والفقه لحيلولتهما بين المسلمين وصلتهم بالكتاب والسنة حيث يأخذون دينهم بأصوله وفروعه منهما ، فهم اليوم يراجعون علم الكلام فيما يعتقدون والفقه فيما يعملون ويهجرون الكتاب والسنة .

والجواب أن السلف من علماء الإسلام الذين دونوا الفقه والكلام لم يرفعوا الكتاب والسنة من متناول المسلمين المحاولين أن يستنبطوا أصول دينهم وفروعه منهما إن استطاعوا الاستنباط واستجمعوا ما يجعلهم أهلا له . فإن كانوا يراجعون الفقه والكلام دون الكتاب والسنة يراجعونهما لسهولة الأخذ عليهم منهما وعدم سهولة الأخذ من الكتاب والسنة الذى هو شأن العلماء الراسخين . وماذا كان يعمل هؤلاء الذين لايسهل عليهم الأخذ والاستنباط من الكتاب والسنة لولم يجدوا الفقه والكلام فى متناوَلهم؟ لاجرم أنهم كانوا يحاولون الأخذ من الكتاب والسنة غير مستأهلين لذلك فيضلون ويضلون .

ثم إن أصول الدين معظم ماتستند إليه الأدلة العقلية التى تكون حجة على المعترفين بالأديان والملاحدة المنكرين جميعاً والتى يحتويها علم الكلام أكثر من الكتاب والسنة، حتى أن كون الكتاب والسنة نفسهما حجة يصح الاستناد إليها وتصلح لاستنباط الأحكام عنها . يتوقف على تلك الأدلة العقلية . ومن هذا تقلُّ حاجة علماء الكلام إلى إيراد أدلة من الكتاب والسنة ويجدر علم أصول الدين أن يعد من العلوم العقلية .

أما الفقهاء فرؤوسهم مربوطة بالكتاب والسنة وكل مسألة استنبطوها فلها مستند من أحد هذين الأساسين ، وهم رضى الله عنهم لم يألوا جهدا فى إيراد تلك المستندات

فى أمهات كتبهم ، انظر مثلا إلى مبسوط الإمام «السرخسى» فى الفقه الحنفى المكون من ثلاثين مجلدا، تجد كل مسألة ذكرها قائمة على دليلها من الكتاب أو السنة . وقد عددت أنا فى الباب الثالث من هذا الكتاب علم الفقه الإسلامى من معجزات هذا الدين الباقية كما يأتى إيضاحه وفضلتُ هذه المعجزة على ما يدور فى ألسنة الكتاب العصريين من معجزة الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم فى أقل من ربع قرن ومعجزةِ « غلبة القلة على الكثرة »

فإن كان من الفقهاء المتأخرين من ألَّفوا كتبا وقصروها على ذكر الأحكام الشرعية مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة فقد وقع ذلك منهم تسهيلا للأخذ بأحكام الشرع الاسلامى على العاملين بها المنتمين إلى أحد المذاهب الفقهية المعتبرة واعتمادا على وجود الأدلة فى مطولات كتب المذهب ، لاقطعا لصلة المسلمين بالكتاب والسنة وتعليما لهم بأحكام دينهم مستغنين عن ربطها بهما . وكيف يُظن بالفقهاء أئمة الدين أن يكونوا عاملين فى تدوين علمهم على قطع صلة المسلمين بالكتاب والسنة ليتعلموا دينهم من كتبهم ويهجروا كتاب الله وسنة رسوله .. كيف يظن بهم ذلك وهم دونوا بعد الفقه علما ثانيا من أدق العلوم باسم أصول الفقه ووضعوا فيها قوانين استنباط الأحكام المسماة بالفقه من أدلتها المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، حتى إن صاوا باشا الرومى من علماء الحقوق ومن رجال الدولة العثمانية فى زمن السلطان عبد الحميد الثانى، الف كتابا باللغة الفرنسية فند فيه الزعم الذى يلوكه بعض الأفواه المصرية من أن قسم المعاملات من الفقه الإسلامى مأخوذ من قانون الرومان وقال: «انه كان هو أيضا يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره (بناء على ماذكره ونقلناه نحن بنصه الطويل عن ترجمة الأمير شكيب أرسلان فى الباب الرابع من هذا الكتاب) ثم أخذ يدرس هذا الموضوع درسا دقيقا ويتعرف كيفية نشوء التشريع فى الإسلام فاستنجد بعضَ علماء أصول الفقه من الأتراك وقرأ الفقه الحنفى جيدا وذكر الكتب التى طالعها أو راجعها

وتجرّد لمرفة هذا الأمرمدة طويلة، فوجد هذا الرأي الذى معناه أن التشريع الإسلامى مأخوذ من القانون الرومانى رأياضعيفا أشبه بأن يكون خيالا من أن يكون حقيقة » .

وقال أيضا « لاشك أن لكل تشريع منبعا مختلفا عن الآخر : ففقه ژوستنيانوس الامبراطور الذى أسس مدرسة فى بيروت لتدريس الحقوق الرومانية ، عمل مبنى على العقل السليم البشرى وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . أما فقه الإمام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله « القرآن » وسنة الرسول ، ولن ترى فى الفقه الإسلامى حكما واحدا غير مدعم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لاريب فيه يظهر لكل من درس فقه ژوستنيانوس وفقه أبى حنيفة »

هذه قيمة علم الفقه الإسلامى بشهادة شاهد من غير أهله (فضلا عن أهله) الذى قال فى آخر كلامه «أنامسيحى معتقد بدينى ولكن المسيحى الحقيق هو الذى يعامل جميع الناس بالحق ولهذا أنا أفحص الشريعة الإسلامية وأقدر قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام» .

لكن المصريين من أشباه العلماء رأوا كتب الفقه الخاصة بتدوين المسائل وقصرت أنظارهم عن أمهات الكتب المشحونة بأدلة تلك المسائل من الكتاب والسنة فلم يتتبعوا آثار السلف الصالحين ولو بقدر ذلك الباشا المسيحى وغفلوا بالمرة عن علم أصول الفقة وموضوعه فى حين أن هذا الباشا المسيحى لفت إليه الأنظار فكأنه لفت أشباه العلماء المصريين الغامطين لعلم الفقه وخدمة الفقهاء للشريعة الإسلامية مع الغامطين الأجانب عن الإسلام ، فمن كانوا يدونون علم الفقه ويستنبطون من الكتاب والسنة لو لم يكن الفقهاء تغمدهم الله برحمته وأسبغ عليهم رضوانه ، قاموا بتدوين علم الفقه واستنبطوا من الكتاب والسنة ؟ أهؤلاء الذين يغفلون عن المدوّن وارتباطه بالكتاب والسنة ؟ .

تتمة الهامش من ص (٤٤٥)

قرأت كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » فرأيته يشن الحرب على حجاب المرأة المسلمة وابتعادها من الرجال، مع الاجتهاد الماكر فى توفيق هذه الحرب بقواعد الشرع الشريف. فهو يظهر فى مظهر المُدافع عن السفور بمعنى كشف الوجه ونبذ النقاب الذى لم يوجبه فقهاؤنا إلا لخوف الفتنة ، وهذا مع علمه بأن السفور فى عرف عصرنا خلاصته أو نتيجته التزيى بزى الغربيات إلى أن تصبح نساؤنا مثلهن كاسيات عاريات، كما أصبحن كذلك فى الحالة الحاضرة التى تسع حتى مخاصرة الرجال النساء فى الحفلات الساهرة .

وقد يُسمع من بعض الأفواه أن قاسماً لم يرد هذه الحالة . وهى أفواه الغافلين عن أن دعوى السفور حدثت فينا مترجمة عن اقتراح جديد يدار تحت خطة منتظمة وضعها طائفة من الرجال تقليدا للغرب، وهم كانوا على معرفة تامة بمقدمات الاقتراح وما تصل إليه تلك المقدمات من النتائج .. وكان قاسم ومكبروه من هؤلاء العارفين لا الغافلين ، ألا يرى أن الذين احتفلوا بذكراه الثلاثين لايرون أى خلاف بين ماسعى له الرجل وبين حالة نسائنا الحاضرة ، حتى إن ابن المحتفَل بذكراه يطلب ثوابا من الله لأبيه على سَنه هذه السنة الحسنة وثوابا جاريا لا انقطاع له مشتقا من ثواب العاملين والعاملات بها إلى يوم القيامة !

ثم لايخلو الكتاب نفسه من تعمد القضاء على الخواص المميزة للمرأة المسلمة وافساد حالتها تحت ستار السعى لمصلحتها فى حدود الشرع الإسلامى، فيروج لها المعاشرة المختلطة بالرجال له .. وربما يعد اختلاطَ الفتيات بالفتيان لزاما ، ليحصل التعارف بين الفريقين ، فلايكون الزواج مجازفة عمياء ولا مبنية على معرفة الوسطاء الأجانب، وان كان هؤلاء الأجانب من آباء الطرفين أو أمهاتهما .

أما الحجاب المعروف فى الإسلام فيراه قاسم مختصا بنساء النبى صلى الله عليه وسلم، ويستدل

على هذا الاختصاص بقوله تعالى فى سورة الأحزاب (يانساء النبى لستن كأحد من النساء) وقوله (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) بناء على أن ضمير الجمع المؤنث راجع إلى أزواج النبى فتكون الأوامر والنواهى المذكورة الواردة بشأن أزواجه صلى الله عليه وسلم لاتجاوز بطبيعة الحال غيرهن .

هذا ما يحاول أن يقوله مؤلف « تحرير المرأة » . ونحن نقول : إن المراد من قوله تعالى (يانساء النبى لستن كأحد من النساء) امتيازُهن المذكور قبله فى قوله : (من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعفْ لها العذاب ضعفين) وقوله : (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) وإلا فليس المراد من الأوامر والنواهى المذكورة بعد قوله (لستن كأحد من النساء) وهى (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) . أنها خاصة بأزواج النبى لاتجاوز غيرهن من النساء المسلمات فيباح للغير أن يخضعن بالقول ليطمع الذى فى قلبه مرض وأن لا يقلن قولا معروفا وأن لا يَقَرْن فى بيوتهن ويتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ولا يقمن الصلاة ولا يؤتين الزكاة ولايطعن الله ورسوله .

وقياسا على هذا ليس المراد من قوله تعالى فى آية أخرى من آيات سورة الأحزاب خطابا للمؤمنين فى معاملة أزواج النبى (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أن السؤال من وراء الحجاب خاص لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مع أزواجه وأن المحافظة على طهارة القلوب ليست ضرورية لعامة المسلمين والمسلمات .

فظهر من هذا البيان أن الأحكام المذكورة فى سورة الأحزاب المتعلقة بحجاب أزواج النبى لم تكن خاصة بهن بناء على أن علل الأحكام المذكورة فى تلك الآيات كلها تجرى فى غيرهن أيضا . لكن صاحب « تحرير المرأة » يغالط الأفهام والعقول لترويج

هواه ويحرّف الكلام عن مواضعه فى تفسير آيات الله .

وهناك آية أخرى فى سورة الأحزاب أيضا تنقض ما ادعاه قاسم أمين من اختصاص نساء النبي بواجب الاحتجاب وتنص على أن هذا الواجب عام لجميع نساء المؤمنين لا فرق بين نسائه ونسائهم فى ذلك، وهى قوله تعالى: (ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذَيْن) والجملة الأخيرة من الآية المبينة لفائدة الحجاب تبين أيضا عدم الفرق المذكور، وهى أن يعرف كونهن عفيفات غير مائلات وغير مميلات فيسلمن عن مراودة الفساق ويكونَ احتجابهن علامة لعدم رغبتهن فى تلك المراودة التي يعبر عنها القرآن بالأذى والتى تكون أذى فى حق نساء وبنات المؤمنين كما كانت أذى فى حق نساء النبي وبناته. وفى نصب حجاب المرأة فى هذه الآية ـ علامةً لعدم رغبتها فى مراودة الفساق من الرجال ، إشارةٌ بالغة على رغم قاسم أمين ـ إلى شدة لزوم هذه العلامة للمحصنات من النساء .

وفى كتاب قاسم كثير من الكلمات الحقة التي أريد بها الباطل: انظر قوله ص ٥٦ :

« لو أن فى الشريعة الإسلامية نصوصاً تقضى بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب علىّ اجتناب البحث ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة فى ظاهر الأمر (!) لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشة لكننا لا نجد نصًّا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة وإنما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم (!) فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها . ولذلك لا نرى مانعاً من البحث فيها بل نرى من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة فى شأنها وحاجة الناس إلى تغييرها » .

أقول : كل باحثٍ حادثٍ فى الإسلام يعرف أن فيه حجاباً للمرأة يحبذه من يحبذه من المحافظين على تقاليد دينه ويكرهه من يكرهه من هواة الغرب السافر ، أعنى أن

المعروف كون السفور حدثاً حدث فى بعض المسلمين تقليداً للأجانب عنهم ثم أخذ ينتشر انتشاراً يعلم الله منتهى مداه ؛ ولم يقل أحد قبل قاسم إن الحجاب حادث فى المسلمين على أى شكل من أشكاله أخذوه من عادات أمم أخرى وتعوّدوه وبالغوا فيه ثم نسبوه إلى دينهم والإسلام براء عن الحجاب ! فهذا قلب للأمر ومضادة للواقع. وكان له على الأقل من منطق الإنصاف أن يقول أخذوه من نساء نبيهم اللاتى اعترف فيما سبق بوجوده فيهن ووجوبه عليهن نصًّا فى القرآن ـ ولو مع دعوى اختصاصهن به ـ ثم تعودوه وبالغوا فيه ونسبوه إلى الدين ؛ فهل كتاب الإسلام أخذه ولو لنساء النبى من الأجانب والإسلام براء من الحجاب ؟

ثم قال قاسم أمين : « جاء فى الكتاب العزيز : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن) .

« أباحت الشريعة فى هذه الآية أن يظهر بعض أعضاء المرأة من جسمها أمام الأجنبي عنها غير أنها لم تسمّ تلك المواضع » .

أقول : هذه آية الحجاب للنساء الذى يسعى مؤلف « تحرير المرأة » أن ينكر وجوده فى الإسلام ، مهما كانت الآية مجملة فى تعيين محل الكشف المستثنى من الاحتجاب . فالقرآن صريح فى فرض الحجاب على النساء عامة والتفريق بين الجنسين فى اللُّبس على أن تكون أعضاء المرأة أكثر تستراً أمام الأجنبي عنها من أعضاء الرجل

لا أكثر انكشافاً منها كما هو الواقع الآن فى الأمة الإسلامية وخاصة فى مصر بعد النهضة التى أدى إليها تحرير المرأة ملهماً من كتاب قاسم أمين المسمى باسمه نفسه .

وفى الآية كلمة هى قوله تعالى (أو نسائهن) الدال على مبلغ لزوم الحجاب للمسلمات إلى حد كونهن ممنوعات من إبداء زينتهن لنساء الأجانب عن الإسلام .. كلمة لو كان قاسم أمين أصغى إليها لوجد فيها عظة بالغة تُعارض كلمته وتناهض نهضته ، كلمة تكفى فى إثبات أن كتابه وما يرمى إليه فى واد ومرمى كتاب الله فى واد بعيد عنه كل البعد ، وهو أى قاسم نفسه يثبت فى كتابه هذه الكلمة من كتاب الله التى تكفى وحدها للقضاء على كتابه .

ولم يَفُتْ مؤلفَ « تحرير المرأة » مايقع فيه كثير من الكتاب المصريين ولا يَسلم منه علماؤهم أيضاً ، من غلط الفهم لمعنى القرآن الكريم فى مسألة تعدد الزوجات ، حيث يرتِّبون قياساً منطقياً مؤلفاً من مقدمتين كلتاهما مأخوذة من كتاب الله أعنى قوله تعالى : (وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ، وقوله : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) وكلا القولين فى سورة النساء ، فيُلغون بهذا القياس الجوازَ الشرعى المعروف فى تلك المسألة المأخوذَ هو الآخر أيضاً من كتاب الله متصلا بالقول الأول مما قبله أعنى قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ومعمولا به من صدر الإسلام إلى يومنا هذا . ونحن نحاشى السابقين من المسلمين أن يغفلوا عما تنبه له كتّاب هذا الزمان من معنى كتاب الله المؤدى إلى الهدم بعد البناء من حيث لا يشعر . فليبحث هؤلاء الكتاب عن عدم الشعور فى أنفسهم وليقرأوا مابعد الآية الثانية الهادمة أو بالأصح التى يزعمونها الهادمة ، وهو (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) .

أما المحاذير الاجتماعية التى قلما يخلو عنها تعدد الزوجات والتى أحصاها قاسم

فى كتابه فنحن نعرفها أيضاً ونعرف مع هذا انتشار الزنا فى البلاد المُعرِضة عن هـذا المبدأ الإسلامى تفادياً من تلك المحاذير . فمبدأ تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام لا بد أن يسد فراغَه الزنا ، لأن من يرى نفسه من الرجال فى حاجة إلى امرأة ثانية فهو يحصل عليها خليلة إن لم يحصل عليها حليلة . ومن درس مسألة تعدد الزوجات لينتهى إلى منعه فليدرسها فى المقارنة بين النكاح والسفاح ، ثم ليختر أهون الشرين .

هذا كلام وجيز قاس ولـكنه كلام صادق ، ولى كلام هنا غير هذا الـكلام القاسى وهو أن حقيقة المسألة أعنى مسألة تعدد الزوجات تقسيم النساء اللاتى فضَلْن من ذوات الأزواج إما لـكثرة المرأة بالنسبة إلى الرجل أو لعدم رغبة طائفة من الرجال فى الزواج .. فضلن واحتجن إلى الاتصال بالرجال بدافع الغريزة الجنسية أو لـكسب النفقة . فحقيقة المسألة تقسيم هؤلاء النساء بين الرجال المتزوجين أزواجاً ثانية للمحافظة على عفتهن وعفة الراغبين فيهن بغير واسطة الزواج . فبالنظر إلى هـذه الحقيقة يعود مبدأ تعدد الزوجات إلى مصلحة المرأة ويخدم المحافظة على كرامة الجنس ، والذين يعتبرون تعدد الزوجات ضربة قاسية على شعور المرأة وكرامتها يقصدون بالمرأة الزوجة الأولى التى هى بعض النساء فيحتكرون كل المحافظة على الشعور والـكرامة لهذه البعض على حساب البعض الأخرى التى هى عرضة لضياع عفتها قبل المحافظة على شعورها وكرامتها .. بل إن اجتماع الرجل بالمرأة الثانية من طريق الاستنكاح أدنى إلى الاحتفاظ بكرامة الزوجة الأولى أيضا من اجتماعه بالمرأة الثانية من غير ذلك الطريق ؛ وقد كنت أنا عبَّرت فى شعر نظمته فى قديم الزمان باللغة التركية فى موضوع تعدد الزوجات عن المرأة التى تحتمل أن تشاركها فى زوجها خليلة ولا تحتمل أن تشاركها فيه زوجته الثانية .. عبرت عن هذه المرأة بامرأة ذات قرنين .

أما القول بالتسوية بين الرجل والمرأة فى اختصاص كل منهما بالآخر بعد أن كانا

زوجاً وزوجة ، والاعتراضُ على مبدأ تعدد الزوجات بلزوم أن يكون من حق المرأة أن تجمع بين زوجين إذا كان من حق الرجل أن يجمع بين الزوجتين كما أشار إليه مؤلف « تحرير المرأة » فنشأه عدم إدراك الفروق الكبيرة بين فطرة الرجل وفطرة المرأة ، وقد بينت تلك الفروق فى « قولى فى المرأة » المنشور قبل سنين .

ولو لم يكن فرق ما بين الجنسين إلا أن الإلقاح الذى هو أهم مقاصد الزواج يقيِّد الزوجة على طول مدة الحمل والوضع والإرضاع ولا يقيد الزوج أصلا ، وإن شئت فقل إن الرجل الواحد يستطيع أن ينتج من الأولاد مالا تستطيعه مائة امرأة ، فهو يعادل فى القيام بوظيفة الإنتاج أكثر من مائة امرأة ... لو لم يكن غير هذا لكفى فارقاً بين الجنسين . فإن كانت كثرة التناسل مما يُرغب فيه لتقوية أمة بإكثار أفرادها من أبناء الحلال — ولا بد أن تكون — فلا طريق لها سوى تعدد الزوجات[1] .

---

[١] أما ما قرأته فى مقالة نشرته مجلة « الإثنين » عدد ٥٤٤ بعنوان « السيدات أولا » للأستاذ الكبير محمد فريد بك أبو حديد الذى أقرأ مقالاته فى المجلات بلذة ، وهو قوله : « ومهما يكن من الأمر فإنى أطلب التفكير فى المرأة ، وجعلت أتأمل مكانها من الإنسانية ، فتبين لى فى وضوح لا غموض فيه أن المرأة هى لب الحياة وهى نواة الإنسانية وسرها .

« فلو هلك نصف الرجال فى هذا العالم — كما يحدث فى الحروب الطاحنة التى يعرض الرجال عليها منذ القدم — لوهلك هؤلاء لأمكن التعويض عنهم بعد قليل ، ولكن لو هلك نصف النساء — لا قدر الله — لما أمكن هذا العالم أن يعوض صفوف الإنسانية إلا بعد حقب وأجيال » .

فلا يكفى فى إثبات ما يتضمنه عنوان المقالة ولا يدل على نقصان أهمية الرجل بالنسبة إلى المرأة وإنما يدل على تقابل عدد قليل من الرجال بالكثير من النساء ، والتعويض الذى ذكره فى صفوف الإنسانية عند هلاك نصف الرجال يكون طريقه بتفريق عدة من النساء سهما لكل واحد من الرجال ، أى بإحياء المبدأ الإسلامى الذى هو تعدد الزوجات .

ويدل قوله فى عدم إمكان التعويض عن النساء إذا هلك نصفهن إلا بعد حقب وأجيال على حكمة من حكم كون الرجال مكلفين بالحروب دون النساء ، ومثلها الأعمال الشاقة التى تضنى مزاولها وتفنى وتكون على الأكثر فى خارج البيوت وقد خصتها التقاليد الإسلامية بالرجال مثل الحروب ، خلافا للمصريين الذين يدعون كون المرأة صالحة لكل ما يصلح له الرجل من الأعمال والوظائف .

كتاب قاسم أمين يحتاج إلى تأليف مستقل للرد على سخافاته وإن كان « قولى فى المرأة » الذى ما كنت مطلعاً عنـد تحريره على « تحرير » قاسم ـ يسد كثيراً من الحاجة ، وإنما أشرت هنا إلى مواضع خروجه على الأحكام المنصوص عليها فى القرآن ردًّا لدعوى مسايرته فى كتابه مع كتاب الله . وكم فيه مع الخروج الصريح على الأحكام الشرعية من خروج على بدائه العقول السليمة فى سبيل استفزاز السذج.. انظر ما ادعاه من أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهه ، ثم قال :

« عجباً لِمَ لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتُبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه واعتبرت المرأة أقوى منـه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ومُنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقطَ فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخَلق؟ إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بأن المرأة أكمل استعداداً من الرجل ـ فلم توضع حينئذ تحت رقّه فى كل حال ؟ فإن لم يكن هذا الاعتبار صحيحا فلم هذا التحكم المعروف ؟ »

يفهم من هذه الأقوال أن مؤلف « تحرير المرأة » غافل أو متغافل حتى عن أبسط ما بين الرجال والنساء من فروق الفطرة ، فهو بنى كتابه على أساس المساواة بين الجنسين ـ فعلى رأيه يلزم أن يُخاف على الرجال أيضا من اعتداء النساء على عفتهم إن صح الخوف على النساء من اعتداء الرجال على عفتهن ، وهذه المساواة تقتضى كونه منكراً حتى لصحة ما هو المعروف من اعتبار الرجل فاعلا والمرأة قابلة فى الفعل الجنسى الحاصل باشتراكهما . فعند وقوع الشكوى من أى رجل بأنه اعتدى على

امرأة ، يكون من حق ذلك الرجل على رأى قاسم أمين أن يدعى كون الاعتداء عليه من جانب المرأة ويصح شك القاضى فى تعيين المكْرِه والمكْرَه منهما، بناء على أنه كما يُخاف الفتنة على النساء من الرجال تخاف عليهم منهن ، فلماذا تحذر المرأة الرجل وتستخفى منه ولا يحذر الرجل المرأة ويستخفى منها؟ فالمؤلف لم يلتفت فى تمشية مغالطاته فى الجمل المذكورة آنفا إلى موقف الذكر والأنثى فى أى نوع من الحيوان، وتضمَّن اعتراضه على تخصيص الحجاب بالمرأة دون الرجل من غير تفريق بين حسانها وقباحها ، اعتراضا على القرآن فى قوله (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أوآبائهن أوآباء بعولتهن أوأبنائهن أو أبناء بعولتهن) ... الآية التى أوردها المؤلف أيضا وسعى فى إلغاء أحكامها .. ولا أدرى لماذا لم يعترض على اختصاص المرأة بالزينة الذى يخل بالمساواة المدعاة والذى لم تنج منه أوربا الواصلة إلى شوط يحبذه المؤلف فى التسوية بين الرجال والنساء والذى كان ينبغى أن يوقظه من غفلته فى دعوى المساواة بين الرجل والمرأة ، إن لم يوقظه ماهو الواقع من تحكم الرجال على النساء بحق أو بغير حق ؟ بل حسبُ انهماك المرأة فى الزينة واختصاصِها به فى الشرق والغرب من غير فرق بين حسانها وقباحها ، مبطلا لما احتشده قاسم أمين فى كتابه من المغالطات لإبطال حجاب المرأة المسلمة . فمعنى تزين النساء وتبرجها فى مرأي الرجال سواء كانوا بعولتهن أو غيرهم ، أن فيهن الميلَ الطبيعى إلى استمالة قلوب الرجال وأنظارهم ، وهـذا الميل إلى الاستمالة هو جُل ما عندهن من السعى إلى الفتنة المتوقعة الحصول بين الجنسين ؛ أما الحركة الفعلية لحصولها فإنما يقوم بها الرجال . فلهذا وضعت الشريعة الإسلامية الحجاب حاجزاً دون استمالة المرأة التى يقع منها التحريك ثم تقع الحركة من الرجل ، وكان منع الفتنة فى أولى المراحل المؤدية إليها أسلمَ وأسهل من منعها فى المرحلة الثانية .

وانظر قوله ص ٨٩ ـ ٩٠ : « لعل يظن المصريون أن رجال أوربا مع أنهم بلغوا

من كمال العقل والشعور مبلغاً مكّنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده بأعيننا وأن تلك النفوس تخاطر كل يوم بحياتها فى طلب العلم والمعالى وتفضّل الشرف على هذه الحياة . هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التى نُعجَب بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة وحفظ عفتها ؟ هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيراً فيه ؟ كلاّ . وإنما الإفراط فى الحجاب من الوسائل التى تبادر عقولُ السذج وتركن إليها نفوسُهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق » .

وقوله ص ٩١ : « وقبل أن أختم الكلام فى هذا الباب أرى من الواجب علىّ أن أنبه القارئ إلى أنى لاأقصد رفع الحجاب الآن دفعة والنساء على ماهن عليه اليوم : فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لايتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى . وإنما الذى أميل إليه هو إعداد البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير ، فيعوّدن بالتدريج على الاستقلال ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة فى النفس لا ثوب يختفى دونه الجسم » .

وأنا أقول إن المؤلف وإن كان يتظاهر فى كلامه بالنظر إلى بعض القيود الاحترازية التى اكتمن وراءها أنه يشكو من الإفراط فى الحجاب لامن الحجاب مطلقا . ولكن المفهوم واضحا من مدح الأوربيين الذين تركو الحجاب ، بكمال العقل والتهالك فى اقتناص الشرف ، أن مقصوده رفع الحجاب بالمرة كما رفعه الأوربيون وبلغوا منه مبلغ الإفراط فى الكشف بدلا من الإفراط فى الحجاب ، وإن كان يريد الوصول إلى مبلغهم بالتدريج والتبكير فى اختلاط الجنسين الذى هو من جملة ماعُنى به وحث عليه فى كتابه . فهذه الأسطر المنقولة من كلامه تهدم كل مافى كتابه من تظاهر الاحتياط فى رفع الحجاب والارتباط بنصوص الشرع الإسلامى فى تقديره ، فهو يبتغى اتخاذ الأوربيين

فيما اختاروا لنسائهم قدوة للمسلمين . وإذا كان القارئ يقتدى بمؤلف « تحرير المرأة » المقتدى بالأوربين ويصدّق رأيه فى هذه المقدمات التمهيدية فلا بد أن يقول تعقيبا لقوله « هل يظن المصريون أن الأوربيين يتركون الحجاب لو رأوا خيراً فيه : وهل يكشفون أظهر نسائهم إلى أردافهن علاوة على مناكبهن ونحورهن وسحورهن وسيقانهن إلى أفخاذهن ثم يخاصرونهن ويراقصوهن أزواجا أزواجا فى الحفلات الساهرة لولم يرواخيراً فى تلك الكشوف والمخاصرة والمراقصة ؟.. بل يقولَ : لوكان فى الاسلام خير لرآه الأوربيون الممتازون علينا بكمال العقل واكتشاف الحقائق واختاروه دينا لهم .

وهذا دين قاسم أمين الذى ادعى التمسك به والتمشى معه فى تحرير المرأة . وما أغلظَ غشاوةَ الغفلة فى أعين الذين قالوا تعنيفا لما وصلت إليه حالة نسائنا الحاضرة من الاستهتار وخلع العذار مع الإزار : « لم يكن هذا ماقصد إليـه قاسم أمين » إن لم يتكذبوا فى قولهم هذا .

أما ما أوصى به الرجل من التدريج فى رفع الحجاب وتعويد المرأة السفور بإعداد البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغير وتعويدهن على الاستقلال ، حتى يتأسس فيهن الاعتقاد بأن العفة ملـكة فى النفس ، لا ثوب يختفى دونه الجسم .. فهذه الوصايا الواقية إذا جُمعت مع اتخاذ الأوربيين الذين اعترف لهم بأنهم أعقلمنا وأرشد ، قدوتَنا وأساتذتنا فى معاشرة الرجال والنساء ومجالستهما ثم نُظر إلى احتواء مجالس المعاشرة الأوربية التى تـكون فى النتيجة نماذج امتثال لنا بلا مراء ولا جدال ، مخاصرةَ النساء الأجانب ومراقصتهن نصف عاريات أوأكثر من النصف ... كما بدرت بوادرها اليوم ، فدعوى العفة والنزاهة فى هذه المعاشرة تذوب وتتبخر مع ماء الحياء فى وجوه الأزواج الراقصة ووجوه الحضار المشاهدين الذين لاينقصهم بعولة تلك النساء أو أقاربهن .

فتلك المجالس والمحافل وضعتها أوربا المدنية الفاجرة على أن تـكون محافل تمهيد

وتعويد للإباحة الغريزية البشرية التي بجزيئاتها ومُغرياتها وطريقها المبدة الشيطانية ، تتقدم الإباحة البهيمية وتجمل ما يتظاهر به المتظاهرون من أحاديث المحافظة على العفة وطهارة الأخلاق في طيات تلك المحافل ، أكذب من حديث خرافة .

وقد انجلى من هذا البيان المستند إلى تصريحات قاسم أمين أمور : الأول أنّا مقلدو أوروبا في السفور وما كنا مقلدى أمة في الحجاب كما ادعى قاسم . والثانى أن ما يظنه الغافلون من أن قاسما لم يرد هـذا السفور الخليع ، لا أساس له من الصحة . والثالث أن قاسما والأوربيين الذين قدمهم لنا قدوةً ، ليسوا بغافلين عن أن السفور وما يلابسه من الملامسات بين الجنسين لا مناص من تطوره وتأديه إلى هدم صرح العفة والنزاهة .. بل إنهم يهدفون بتأسيس هـذه الحياة المختلطة إلى التخلص من تلك المبادئ القديمة التي باعدت بين الجنسين وحالت دون استفادة كل منهما بالآخر باسم الديانة والدين براء من هذه الحيلولة كما نص قاسم فيما سبق على كون الدين براء من وضع الحجاب ورفض السفور ، وقد حكيناه فيما سبق .. وكان معنى كون الدين براء من وضع الحاجز بين الجنسين أنه براء من التزام العفة والنزاهة لما عرفتم من وضوح الطريق بين السفور الخليع والحياة المختلطة وبين انهيار صرح العفة والنزاهة . ومعنى المعانى التي يعنيها أعداء الحجاب والعفة والنزاهة من براءة الدين عن التزامها مع وضوح هذا الالتزام للبصائر والأبصار ، أن الدين لا يقام له ولعقائده القديمة وزن عند أصحاب العقول الجديدة . فلهذا يرانى القارئ على طول هذا الكتاب الذى انتهيت هنا من أول أجزائه بعون الله وتوفيقه ، أبذل كل جهد فى تثبيت عقائد الإسلام وأعدّه أهم أسس الإصلاح وأقدمها ولله الأمر والحمد من قبل ومن بعد .

تصحيح الأغلاط التى غابت عنا عند الطبع
ثم اطلعنا عليها

الصفحة ٨ س ١٦ رمتنى بدائها ص ١٢ السطر ٨ وعز مكانى فلا أُظـلم ص ٣١ س ٢١ إن برهانك ص ٤٥ س ١٤ المصريين إن ص٤٥ س١٦ المراغى بين العلم والدين ص ٤٧ س ١١ لتتمشى ص ٥٣ س ٧ لم تُصَن ص ٦٦ س ١٥ من زمانٍ ص ٦٧ س ٣ تضمنته الـكلمة المنقولة ص ٦٩ س ٩ وهذه كلمة من كتابى ص ٧٨ س ١٥ من الصفات الحسنة حسنة س ١٩ منبراً لبيت ص ٨٢ س ١٧ العثمانية الإسلامية ص ٨٣ س ١٦ بماضيها الإسلامى ومؤلفاتها فيه ص ٨٧ س ٢١ الحشف ص ٩٣ س ٢٦ بالمنصب ص ١٣٥ س ٩ من يجادل ص ١٤٥ س ٢١ دهثيزم ٢٢ آنهثيزم ص ١٤٨ س ١ يأتَمُّ ص ١٦٣ س ١٥ من عداد ٢٢ ومغزى قول ص ١٧٨ س ٢٢ غاية ما يكون ص ١٩٠ س ٤ بمـا سوى الله ص ٢٢٩ س ١١ لا يعترف، ص ٢٣٦ س ١٨ الازدياد ، ص ٢٤٠ س ١٥ موجود » ما كان أبلغ وأقوى من قوله الأول ص ٢٤٥ س١٦ على خطأه . » ١٧ ثم قلت : « ص ٢٦٦ س ١٥ يقينا » ؟ ص٢٦٩ س ١٠ لاتعترف ص ٢٨٨ س٢ من زِيَرَةَ النساء ص ٢٩٥ س١ وأن السبب ص ٣٠٢ س ٩ والحق أنه ص ٣١١ س ٢٧ فتشبيه غاندى به ص ٣٤١ س ٣ سمعنا منـه ص ٣٥١ س ٨ فريقاً من الذين أوتوا الـكتاب ص ٢٩٦ س ١١ نقلا عن كتاب ص ٤١٤ س ١٦ أن لا يكون ص ٤١٥ س ٦ الباحثون فى الغرب ص ٤٢٣ س ٢١ الرقم ٤ ص٤٢٧ س ١٤ وإن الحصول ص٤٢٨ س ١ للمعاصرين الذين ص ٤٣٧ س ١ وهما وإن كانا ١٤ الملاذ البدنية المـكانةَ العليا ص ٤٤٢ س ٦ كما قال الشاعر ص ٤٤٧ س ١ بفتوى قاسم قاسم أمين ص ٤٥١ س ١٨ يجعلها لقمة ص ٤٥٥ س١٣ ورومانيا واليونان ١٨ إن للمسلمين ص ٤٥٩ س ١٣ مع إمكان أن يكون ص ٤٦٠ س ١٠ ويوفَّى ص ٤٧١ س ١٤ فى ص ٨ ص ٤٨٢ س ١٧ حتى إن ص ٤٨٨ س ١ فى بعض بلاد المسلمين .

الرجال المذكورة أسماؤهم فى الكتاب
بمناسبات الأبحاث

فهرس

الإشارة إلى بعض المباحث المهمة التى ينطوى عليها هذا الجزء من الكتاب

التى هى وضع إلهى لابد أن تفوق الديموقراطية الموضوعة بأيدى رجال سياسيين ١٧
أصدق ناحية القول عن البلشفية التى ينساق إليها الفقراء وأصحاب القلوب المتألمة بآلامهم ١٧

كيف يكون الروس البلاشفة أقوى الأمم الحاضرة ولا نكون نحن المسلمين أقوى منهم ؟ ١٨ من أدلة كون الروس السوفييت لايتفق ظاهرهم مع باطنهم وقوفهم فى مسألة فلسطين بجانب اليهود ١٨ ـ ١٩

دعوة علماء الدين إلى أن يكونوا رسل الديموقراطية الإسلامية بالسعى لتعديل ما بين طبقات الناس من الفروق الشاسعة التى يمكن أن يعد بقاؤها تهمة على الإسلام ٢٠ـ٢١

تلخيص ما بعثنى على تأليف هذا الكتاب من الأسباب مما رأيته فى مصر التى آوتنى بعد مغادرة بلادى فأصبحت بدلا منها ، يعنينى ما يعنيها من خير أو شر ٢٢

دولة الترك المسلمة التى دفاعها بسيفها عن حياض الإسلام يستغرق الثلثين من تاريخه ، كان آخر سلاح حاربتها به الدول الوارثة لضغائن تلك القرون الطويلة ، نشر الإلحاد بين أبناء البلاد الإسلامية ونشر المبادئ القومية بين العناصر المندرجة تحت لواء هذه الدولة ٢٢

وكنت لما كنت فى بلادى كافحت ذينك السلاحين على طول فترة انتقال الحكم فيها إلى أيدى الملاحدة .. وكان ظنى عند مغادرة تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب أنى أستريح من مجاهدة الملاحدة ٢٣

نائب سلانيك قره صو اليهودى يتولى تبليغ السلطان عبد الحميد قرار خلعه فى ضمن بعثة اختارها البرلمان العثمانى لهذه المهمة ٢٢ ـ ٢٣

مؤلف كتاب باسم « محمد عبده » يضع فى غلاف الكتاب لوحة تصور إيفل الباريسية مع مآذن الجامع الأزهر تقتبس رؤوس الثانية ضياء من الأولى ٢٣

قول الأستاذ فرح أنطون عند مناقشة الشيخ محمد عبده وقول الأستاذ فريدوجدى

عند مناقشة الشيخ التفتازانى وقوله عنـد مناقشتى ٢٤ نوابغ البلاد الإسلامية من الـكتاب والشعراء يستبطنون الإلحاد على قول الأستاذ فريد وجدى ٢٤

إن الدين بمصر لفى حالة عجيبة ، فمعجزات الأنبياء الخارقة غير معترَف بها عنـد المبرِّزين من علماء الدين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا صاحب المنار والأستاذ الأكبر المراغى ٢٥

قول الدكتور توفيق الطويل فى كتابه « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » : « إن ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث الذى ينكر المعجزات وخوارق العادات من غير تأويلها بما يبدو متفقة مع منطق العقل وسنة الـكون ٢٥

نبوات الأنبياء تنهار بانهيار المعجزات .. وعدم الاعتراف بوجود الله له علامات أبرزُها تصريح الأستاذ فريد وجدى بأن جميع الأديان قذف بها العـلم الحديث الذى دالت إليـــه الدولة فى الأرض ، إلى عالم الأساطير ٢٥ ــ ٢٦ وحسبك ما ينادى به الأستاذ المتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر من أن العلم لايعتد بمعقول لايؤيده محسوس.. وقوله فى مقالة افتتاحية لمجلة « الرسالة » : « إن الدين إن كان يعيش الآن فإنما يعيش فى قلوب السذج من العامة » ٢٦

عقلية إنـكار المعجزات غير معجزة القرآن على أن يكون إعجازه أيضا غير مفهوم منذ أزمنة طويلة خلت كما صرح به الأستاذ الأكبر المراغى ٢٧ ومعنى إعجازه على قول هيكل باشا .. وعلى قول الأستاذ فريد وجدى بك ٢٧ ــ ٢٩

فالدين بكلا ركنيه الأساسيين مقذوف به بيـد العلم إلى عالم الأساطير ٣٠ قول الأستاذ الأكبر المراغى عنـد توديع بعثة الأزهر فى محطة مصر : إن العقول تنظر إلى الأديان نظرها إلى شىء تاريخى خال عن الحياة ٣١

قول الأستاذ أحمد أمين بك فى مجلة الثقافة إن علماء التوحيد لم ينجحوا فى مهمتهم

بالكف عن ذكر الأسماء فى المعاصرين ، تحتاج إلى شىء من الإيضاح والتمهيد ٤٢ ـ ٤٦ وليس من حق القارئ المنصف أن يتوقع منى عند نقل الأقوال وضع توطئة لعملية النقد تتضمن مدح أصحاب تلك الأقوال وإكبارهم ٤٤

وأمر ثان وهو أن البعض الآخر ممن قرأت عليهم من أصدقائى بعض أبحاث الكتاب وجد فى أسلوب نقاشه شيئاً من الشدة والقسوة.. وجوابى عليه ٤٦ وماقسوت فى القول إلا على الذين قست أقوالهم على أساس من أسس الدين أو علم من علومه أو طائفة من علمائه ، وما فرّطت فى جنوب من ناقشتهم وفيهم المفرِّطون فى جنب الله والمستهينون بالعقل والمنطق ٤٦

القول بأن المعجزات من غير تأويل لا تتفق مع منطق العقل فتخرق العقل والعادة معا ، ناشىء من عدم التمييز بين خارق العادة الممكن وبين خارق العقل المستحيل ٤٨

نقولٌ عن « القول الفصل » منبهة على الفرق بينهما أغمض عنها الدكتور الطويل.. ولو كان الدكتور وغيره ممن يصرون على إنكار المعجزات واعتبارها شبهة لا حجة مثل صاحب المنار ، مصارحين بأنهم لايأبهون بنصوص القرآن التى أحصيتها فى القول الفصل ، لكونهم غير مخلصين أيضاً فى الإيمان بحجية القرآن ـ لهان الأمر وانتهى الكلام

موقفى فى الكتاب ليس موقف الواعظ ، ولو كان كذلك لكان الرفق واللين أوقع فى النفوس وأنجع ، وكان للوعظ أهل غيرى من أهل اللسان العربى ٥١ ـ ٥٢

وقد يخطر ببال بعض القراء أن كثيراً من المناقشات التى عُنيت بها كان المحل الأولى به الصحف والمجلات ٥١ ولقد رأيت كثيراً من كبريات الصحف والمجلات الواسعة الانتشار ، واقعة تحت سيطرة كتّاب متآزرين فى السعى لإضعاف نفوذ الدين

فى المجتمع متلاعبين بأحكامه وقواعده ، ولهذا لا تتسع صدور تلك الصحف والمجلات لمقالات الذود عن الدين ٥٢ ـ ٥٦

مقالتى التى أبت الرسالة نشرها فى الرد على ما انتشر فيها من مقالة الأستاذ فريد وجدى بك المعنونة « الدين فى معترك الشكوك » ٥٧ ـ ٧٠ المنطق الذى يستهين به من يستهين من المصريين كالأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر ومعالى هيكل باشا معلنين استهانتهم بأن يسموه المنطق الصورى أو التجريدى ، وهو المنطق العظيم الذى يجد القارئ أمثلة ونماذج هامة من عظمته وبراعته فى أماكن مختلفة من كتابنا هذا ٦٩

إن لهذا الكتاب المعروض على نظر القارئ قصة تستحق الذكر ٧١ قول الأستاذ محمد عبدالله عنان: « وإذا كان الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتز بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة » والرد عليه بشهادات شهود من أهل الأستاذ وغيرهم ٧٢ ـ ٩٠

انظر قول المرحوم محمد فريد بك زعيم الحزب الوطنى المصرى وخليفة مصطفى كامل باشا : « وقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى أهلوه من أهوال الأحوال ما تندكّ به الجبال فانفرط عقد بنيه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه ، فأغار الدهر بخيله ورَجله على الشرق ودوله فتناسوا ما كان لهم من فخامة الاقتدار واستكانوا إلى المذلة والهوان صاغرين وقد أوشكوا أن يقضى عليهم الدمار ويكونوا عبرة لأولى الأبصار .. لكن العناية الصمدانية تداركتهم فأضاءت الأفق الإسلامى بظهور النور العثمانى وأمده بالنصر اللدنى والعون الربانى فقامت الدولة العلية بحياطة الدين وحماية الشرقيين ٧٤ ـ ٧٥

كان الحاكم فوق الحكومة فى الدولة العثمانية هو الإسلام .. فإن كنت فى ريب من هذا فانظر قول (ا د . آنكلهارد) من سفراء فرنسا بتركيا فى مقدمة كتابه عن

تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية : « إن الإســلام الذى قد كان مؤسس الحــكومة فى الدولة العثمانية بقى حاكما مطلقا فوق الحــكومة ناظما » ٨١

وقال الأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة » الذى ناقشه الشيخ محمدعبده وتحامل فى نقاشه على المسلمين منغير العرب : « إن الأتراك قد حفظوا حياةالإسلام بقوة السيف » وقال أيضا إن ميراث العرب لولا الدولة العثمانية لم يبلغ هــذا المقام ، بل ربما لم يثبت بعد أصحابه بضعة أعوام ٧٧

كان صلة الأتراك بالإسلام رغم الأستاذ عنان إلى حد أنلفظ الترك ظل يستعمل أجيالا طويلة على لسان الغربيين كرادف المسلمين .. صرح به المرحوم على الزينى بك عميد كلية التجارة بجامعة مصر فى كتابه أصول القانون التجارى ٧٩

وانظر قول الأستاذ عنان أيضاً إن مصر الإسلامية لم تعرف رغم ما توالى عليها فى عصور الاضطراب والفتنة من الخطوب والمحن نــكبة أعظم من الفتح العثمانى ولم تعرف حكما أقسى وأمر من حكم الدولة العثمانية الذاهبة ٨٣

ثم اقرأ قول عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية : « لمـا وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكانها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية ، فـكسروا الأغلال السجون وأقاموا مقامها صرح الحرية الفردية وتعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب ولم يكن فوز آل عثمان مستمدة من سيف وشجاعة ، بل ما هو أعظم منهما : احترام الحق والخضوع لسلطان القانون والشرع ٨٦

وقول صديق المرحوم شكيب أرسلان فى « حاضر العــالم الإسلامى » : احترام المعاهدات والعمل بموجب الـكلمة المعطاة الذى يدور تاريخ العثمانيين كله عليه ناشىء من كونهم مسلمين حقيقيين ٨٨ وقوله فى ديوانه يخاطب الأتراك العثمانيين ٨٧ :

أحبكم حب من يدرى مواقفكم | فى خدمة الدين والإسلام من حقب
وكل غر يمارى فى فضائلكم | لا يعرف الحشف البالى من الرطب
مجدى بعثمان حامى ملتى وأنا | لم أنس قحطان أصلى فى الورى وأبى

وآخر رد على الأستاذ عنان تولاه كتاب «تاريخ أوروبا الحديثة» تأليف رتشاردلوج وتعريب محمد عبد الله عنان ، حيث قال : « وسر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم فى تضحية نفوسهم وهى عاطفة الجهاد التى غرسها الإسلام فى قلوبهم ، وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم الدينية والحربية ٩٠

دامت عزة الإسلام إلى أن أخذ يطرأ الضعف على صمصام الدولة العثمانية ، فمنذ ذلك بدأ الإسلام يضعف يوماً بعد يوم ويسير جنباً لجنب مع ضعف شوكتها ٩٠ تجريد الإسلام من قوة السيف — كما يسعى إليه كثير من جملة العلم والقلم بمصر — يصير كتجريد الإسلام من غزوة بدر الكبرى ٩٠

ومن غريب المصادفات الهامة أن اكتشاف الآلات الجديدة الحربية الذى كان مبدأ قوة الدول الغربية وضعف دولة الإسلام المجاهدة فى سبيله ، لا يختلف زمانهما عن زمان رواج العلم الحديث فى الغرب ، ذلك العلم الذى يدور مع الحس والتجربة ولا يعتد بحجة العقل ، على الرغم من أنها كانت مستند أساس الدين طيلة قرون الإسلام التى راج علم الكلام فيها واحتفظ برواجه مدة احتفاظ الأمم الإسلامية برواج الدين فيما بينهم ٩٠ — ٩١

وزادت فى إضعاف المسلمين وإضعاف الرابطة الدينية فيما بينهم بل وفى ضعف الإسلام فى قلوبهم ، بقدر ما أضعف السلاح الحديث والعلم الحديث من كل ذلك — فتنةُ النزعات القومية الداخلة فيما بين الإمم الإسلامية تقليداً منهم لأمم الغرب وإغراء من تلك الأمم بينهم بواسطة تلك النزعات .. فقد قرأت كتاب «حاضر العالم الإسلامى»

من ترجمته العربية ، فأحسست منه أن مؤلفه الأمريكي كتبه لتنفير المسلمين العرب من المسلمين الترك . وقد أدخل الإنجليز في برامج المدارس المصرية ، الدعاية ضد عهد الدولة العثمانية بمصر ٩١

المسلمون اليوم أقوام مختلفة أكثر من أنهم مسلمون ، فلا يمنع إسلام قوم أن يناوئهم ويتجرأ عليهم مسلمون من قوم آخر .. فهذا محمد عبد الله عنان العربي الذي ينكر إفادة الإسلام من تركيا يوم كانت دولة شامخة ويرميها بأشد أنواع الهمجية والتخريب ٩١

ويقوم شيخ عربي نجدي قصيمي فينكر إفادة الدنيا من المسلمين أجمعين في جميع القرون ويرميهم بما رمى الأستاذ عنان به الترك ، حتى قال الأستاذ سيد قطب : «وليس المسلمون هم الأتراك فأجد عذرا ولكنهم أصحاب محمد بن عبدالله وعمر بن الخطاب .. بل القرآن الذي أباح التخريب والتمثيل ٩١

ويقوم شاعر عربي فيقول : ٩١

أليس قريشكم قتلت حسينا   وقام على خلافتكم يزيد

أصبحت لغة العرب بفضل القرآن واعتناء علماء الإسلام بشأنها من كل أمة، بذلك الفضل ، وقد وضعوا علم النحو الذي لا مثيل له في أي لغة الدنيا ـ أفصح جميع اللغات وأفضلها ٩٢ وفي الأيام الأخيرة أخذت نغمة جنونية تسمع في مصر من الكتاب المستصعبين لعلم النحو العربي ، داعية إلى إلغاء هذا العلم أو تعديله على وفق أهواء الجاهلين بالنحو ٩٢

ومن عجائب مصر المضحكات المبكيات أن واحداً من أكابر أعضاء المجمع اللغوي اقترح استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية وحاول سد الفراغ الحاصل من وجود حروف في لغة العرب لا مقابل لها في الحروف اللاتينية ، بوضع حروف جديدة تضحك

الشكلى ، نصفها لاتينى ونصفها عربى فأفسد الحروف العربية واللاتينية معا ٩٣

قتلة سيدنا حسين من المسلمين العرب وفيهم عمرو بن سعد بن أبى وقاص من العشرة المبشرين بالجنة.. رضى قتله ووضْعَ جسده من البطن والظهر تحت أقدام الخيل، فى مساومةٍ بينه وبين عبيد الله بن زياد ابن أبيه والى الكوفة يوليّه قيادة جيش القتلة وبعده أمارة رقة فيقبله الرجل لا بغضا لحسين ولكن حبا بالمنصب ٩٣

والجواب على الشيخ القصيمى الطاعن فى المسلمين وكتابهم أن الآية نزلت فى رهط من اليهود نقضوا العهد وكان رسول الله عاهدهم على أن لايكونوا له ولا عليه.. وقد سبق فى تركيا وأنا لم أغادر البلاد أن كتب الدكتور عبد الله جودت صاحب جريدة الاجتهاد المعروف بنزعته اللادينية مقالة عاب فيها على النبى صلى الله عليه وسلم ما فعله بيهود بنى قريظة .. وكتبت أنا فى مقالة الرد عليه أنهم نقضوا العهد فى أحرج وقت على المسلمين وانضموا إلى أعدائهم .. ونالت مقالتى شكراً من السلطان المغفور له وحيد الدين ٩٥ ـ ٩٧

ما وقع فيه معالى مؤلف « حياة محمد » من خطأ التوجيه لانتهاء حرب الأحزاب بسلام على المسلمين ٩٦ ـ ٩٧

استمر تقهقر الدولة التى تولت الجهاد فى سبيل الإسلام من استمرار تألب أعدائه عليها واستمر معه تقهقر مكان العلم القديم الذى تولى قرونا طويلة الحاجة لانتصار عقائد الإسلام ، أمام العلم الحديث المبنى على الحس والتجربة .. استمر تقهقر المسلمين من الناحيتين ، حتى إنه لما ختمت الدولة العثمانية أنفاسها وانسلخت الدولة المحتلة مكانها من صبغتها الإسلامية ، استتبع هذا الانقلاب الخاص بتركيا انقلابات كثيرة فى البلاد الإسلامية الأخرى أيضا ٩٧ ـ ٩٨

ومما زاد فى طين الضلال بلة انحصار لقب العلم عند المتعلمين العصريين فى العلم

الحديث الذى يتمرد على الأديان فيقذف بهـا جميعا إلى عالم الأساطير أو على الأقل لا يثبتها ولا ينفيها .. فهم لا يرضون بغيره من العلوم الدينية المعروفة عنـدنا علماً .. وعلى هذا يكون الإسلام خارجاً عن ساحة العـلم كالنصرانية وقد ادعاه الأستاذ فرح أنطون عند مناقشته الشيخ محمد عبده ٩٩

وهناك مسألة أخرى وهى أن هذا الشيخ الذائع الصيت يكافح الأستاذ الذى ضرب أساس الأديان بمعول التشكيك.. ثم نراه ومن تتلمذوا عليه ينكرون معجزات الأنبياء ويسمون لتأويلها، مع أن إنـكار المعجزات ليس إلا رمزاً لإنـكار النبوات وأن أساس الدافع إلى هذه الإنـكارات هو العلم الحديث الذى لا يقبل الخوارق ٩٩

إن مصر فى حاجة إلى نصر دينها الذى يوشك أن يتغلب عليه الإلحاد لقوة دعاته وانقسام العلماء المـكلفين بحراسة الدين على أنفسهم ١٠٠ فهل لى أن أكون القائم بهذه المهمة على الرغم من شتات شملى وضعف صحتى ؟ . هل لى أن أجد بين مفارقة الشباب ومفارقة البلاد والأحباب مايعوضنى عن كل ذلك بما هو أعز من الـكل وهو خدمة الإسلام ؟ ١٠٠

على أن بى ضعفاً آخر كدت أنساه وهو ضعف اللغـة مع ما كان فى طبيعتى من شدة الحرص على التعمق فى بحث المسائل، فـكيف يكون لى الجمع والتأليف بين ضعف اللغـة والتعمق فى معضلات الأبحاث ؟ . أضف إلى ذلك أن القارئ المصرى ينجذب فى الغالب إلى قوة اللغة وجمال الأسلوب . لـكنى أرجو الله تعالى أن يجعل ضعفى فى اللغة ومايؤدى إليه من معاناة الصعوبة عند الـكتابة ، ثقلة للـكتاب فى ميزانى يوم عرض الأعمال ، لا ثقلة على قارئه فى الدنيا. والله تعالى قادر على أن لا يخيب سائله ١٠١ ـ ١٠٢

انتهينا من قصة الـكتاب ، وقد فُهم منها سبب تأليفه إجمالا .. لـكنا لا نـكتفى بذلك ١٠٢ أصحاب الشكاية عن جمود الدين غيرُ مخلصين فى نواياهم .. يبتغون الهدم لا التيسير ١٠٣

معالى هيكل باشا مستيئس من إحياء الفكرة الدينية فى قلوب الناس مبتدئاً من إثبات وجود الله على الطريقة العلمية ١٠٥ مؤلف حياة محمد التجأ إلى سيرة نبينا ودل الناسَ عليها لعلهم يجدون فيها ما لا يجدون فى العلم والعقل من طريق الوصول إلى الدين وواضعه جل شأنه ١٠٦ وقد يلاحظ فى أسلوب معاليه بعض الشَّبَه بإيمان المسلمين فى عصر النبي ١٠٧

معالى المؤلف معلول العقلية بداء إنكار المعجزات غيرِ معجزة القرآن ١٠٨ قوله لم يذكر التاريخ أن المعجزات حملت أحدا على أن يؤمن .. وجوابه ١٠٩ ـ ١١١ وانظر قول الإمام الرازى إن النبوة تنطوى على ثلاث معجزات ولا تكون النبوة بدونها نبوة ١١١

يجب على من يريد إثبات الدين أن يتشجع ويبدأ الأمر من إثبات وجود الله إن لم يكن بالعلم الحديث فبالعلم القديم ١١٢ أمامنا ثلاث مسائل.. إثبات وجود الله ووجود منصب النبوة ووجود معجزة النبي ١١٣ كتاب الأستاذ العقاد الحديث (الله) ١١٣

إثبات وجود الله أهم وأقدم من إثبات وجود رسل الله ، ودليل وجوده أقوى وأظهر من دليل وجودهم . وأنت تجد الكثرة الساحقة من الفلاسفة مؤمنين بالله والقليل منهم مؤمنين بالأنبياء ١١٤ والمذهب السائد اليوم فى الأوساط المثقفة هو الاعتراف بوجود الله دون وجود الأنبياء ١١٦

أستاذ مجلة الأزهر يحاول إثبات وجود النبوة بوجود العبقريات ١١٧ ـ ١١٨ هذا الأستاذ له فى مراحل خضوعه للعلم ، كلام يحاول ترويجه فى سُوق المساومة على وجود الله أسخفُ من كلامه فى سوق المساومة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .. مسألة وجود الأثير ١١٩ ـ ١٢٠

استهانة الأستاذ بالأدلة العقلية المنطقية ١٢١ وإذا كان داء المرء فى عقله ومنطقه فلا دواء له ١٢٤ مؤلف «حياة محمد» وضع جميع كتب السيرة والحديث تحت شبهة

الـكذب لئلا يصدّق الروايات الواردة فيها عن معجزات نبينا الـكونية ١٢٥

الدكتور شبلى شميل معرّب كتاب بوخنر فى شرح مذهب داروين ، يسمّى الإيمان بالدين إيمانا بالمعجزة المستحيلة . ومن أخطاء الرجل الفاضحة أنه يرى فى الإلحاد سعادة الدنيا ١٢٦

النقاش بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون وقوله جوابا لنقد الشيخ المسيحية بأنهالاتتفق مع العقل : «إن كل دين كذلك لا فرق فيــــه بين المسيحية والإسلام لأن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور ووحى ونبوة ومعجزة وآخرة وبعث وحشرالخ وكلها غيرمحسوسة ولا معقولة» ١٢٧ ثم قال الأستاذ إن العدو الحقيقى للأديان فى هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجاً عنها وهوالمبادئ المادية المبنية على البحث بالعقل.

وهذا الـكلام يستهدف انتقادات واسعة فى أمكنة مختلفة من هذا الـكتاب .. حتى أنى قلت فى أحدها إن الـكتاب استئناف المناظرة التى جرت بين الشيخ محمدعبده والأستاذ فرح أنطون . وسلفا أقول هنا وأزيد على قول الأســتاذ الذى تعزّى بمعاداة العلم الحديث المادى للإسلام كمعاداته للمسيحية : إن ذلك العــلم أضرّ بالإسلام أكثر من المسيحية وإن كان الإسلام المتضرر إسلام المتعلمين المحدثين ..وتوضيحاً لهذا رأيت أن أنقل القسم الأول مما كتبته فى التقرير المتقدم إلى وزارة الأوقاف ١٢٨ ـ ١٣٢

وكانت فيما ادعى الأستاذ فرح فى مقالاته حاجة الأمم إلى فصل الدين عن الدنيا وعن سياسة الحـكومات وقد عزا رقى أوروبا إلى العمل بهذا الفصــل كما رأى سبب تأخر المسلمين فى إهمال العمــل به .. وخصمه الشيخ حمل تأخر المسلمين على جمود علماء الدين ١٣٣

وبالنظر إلى اشتهار اسم الشيخ وإكباره يُظن أنه الغالب فى النقاش المذكور ، لـكن ما نراه اليوم فى جو مصر الثقافى من غلبة فـكرة الإلحاد على الإيمان يثبت عكس ذلك .. فلو كان الفوز والغلبة فى جانب الشيخ لما ارتـكزت فى نفوس الجيل المتعلم

القريب العهد بزمان الشيخ ، عقليةُ اعتبار الدين فى جانب والعقل والعلم فى جانب آخر كما هو رأى الأستاذ معارض الشيخ ١٣٣

أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين فقرّب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة ١٣٣ـ١٣٤ حكاية تحدّيه مشايخ الأزهر فى إثبات وحدانية الله تعالى نقلا عن كتاب الأستاذ محمد صبيح المسمى باسم الشيخ ١٣٤ ـ ١٣٨

ويقول هيكل باشا إن الشيخ محمد عبده وزملاءه لم ينجحوا فى إدحاض مزاعم المتعصبين على الإسلام من أبناء الغرب لكونهم لم يسلكوا الطريقة العلمية فى دفاعهم ولكونهم قد اتهموا بالكفر والزندقة ١٣٨

الطريقة العلمية التى عاب معاليه الشيخ وزملاءه بأنهم لم يسلكوها يلزم أن تكون الطريقة العلمية التى يفضلها الأستاذ فريد وجدى على الطريقة المنطقية ١٤٠ والشيخ ومن معه إما لم يفطنوا لمحال الضعف فى دفاعهم عند الغربيين أو فطنوا لها ولم يقدروا على مجابهة الخصوم بإثبات القوة لما يستضعفونه وتبيين الخطأ فيما يدعونه ويتمسكون به من الانقلاب فى نظام الاستدلال ، كما نفعله نحن إن شاء الله ١٤١

ما هو حقيقة موقف الشيخ من الدين ؟ هل هو صديقه الساهر أو عدوه الماكر ؟ وماذا سر أصرار الأقلام العصرية على إكباره ؟ مع عجزه عن إثبات وجود الله ووحدانيته رغم تبجحه بأنه المثبت الوحيد ١٤٢ الشيخ يغلب علماء الأزهر والأستاذ فرح أنطون يغلب الشيخ ١٤٤

الشيخ جمال الدين الأفغانى لم يستطع أن يسحر علماء استانبول برسالته التى أنجحها فى مصر فلعب دورا هاما فى هدم الأزهر القديم ١٤٤

من أسباب شيوع الإلحاد بمصر عدم كون الكتب الفلسفية الهامة سهلة الدرس والمطالعة وكون الاهتمام بتدقيق المسائل وقتلها بحثا غير معتاد فى الأوساط العلمية ١٤٥ وقد كان لإهراع من استطاع سبيلا من الناشئين إلى الغرب ليُرووا غلتهم من مناهله

غير مكترثين بالمحافظة على كيانهم الإسلامى ، أثر فى تكون الجو اللادينى بعصر ١٤٥

عصر الإلحاد فى فرانسة ، قال پول ژانه مؤلف تاريخ الفلسفة : « لم يؤلَّف فى أى قرن ما أُلف فيه من الكتب الكثيرة لإثبات وجود الله» ١٤٥قول الماديين: الإنسان آلة ميكانيكية وجسم متحرك من غير إرادة..ورد مونتسكيو عليهم قائلا : ماأبعد أن تكون قدرة عمياء خلقت ذوى العقول ١٤٦ ـ ١٤٧

أصحاب الفلسفة الإثباتية وبالتعبير المصرى الوضعية كانوا عاملين فى زيغ فرنسا إلى الحكومة اللادينية ولم تخلُ أقوال معالى هيكل باشا وأستاذ مجلة الأزهر عن التنويه بفلسفتهم حتى قال الثانى إنها أدق وأصدق الفلسفات المصرية فى أصولها الأولية ١٤٧ ـ ١٤٨

قول هيكل باشا عن اتهام الشيخ محمد عبده وغيره من العلماء بالكفر والزندقة: «إنه كان عميق الأثر فى نفوس الشباب المتعلمين حيث شعروا بأن الزندقة فى نظر جماعة من علماء المسلمين تُقابل حكم العقل ونظام المنطق وأن الإلحاد قرين الاجتهاد كما أن الإيمان قرين الجمود ١٥١ لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان وأخذوا يقرأون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة، اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين» ١٥١

ولم يكن معالى الباشا منصفاً فى اتهام العلماء بمناوأة حكم العقل ونظام المنطق ١٥٢ ذلك المنطق الذى يجله معاليه تارة ويحتقره أخرى محترمٌ مطلقا إذا كان منطق الغربيين. وكان أبشعَ أقواله وأمسها بكرامة مؤلفى الإسلام وكتبهم وصفُه لمؤلفى الغرب بصدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق، ممالم يجدوه حتى فى كتب أئمة الإسلام الأقدمين ١٥٣

وقد أخذنى العجب كل الأخذ من قوله بعد المقارنة الظالمة بين مؤلفى الإسلام ومؤلفى الغرب :«انصرفت نفوس الشباب المتعلمين عن التفكير فى الأديان وفى الرسالة الإسلامية كيلا يثور بينهم وبين الجمود حرب لاثقة لهم بالانتصار فيها» والدكتور المؤلف المحارب نفسه صعد إلى كرسى الوزارة وكذا مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » المفصول بسببه عن الأزهر ١٥٦

ولأن يكون معالى مؤلف حياة محمد قد جمع أخطاء جمة فى صفحة واحدة من مقدمة كتابه ، أثنى فى مختتم كلامه على المبدأ الغربى المتعلق بفصل الدين عن الدولة ١٦٢

مناقشتى الأستاذ فريد وجدى على صفحات الأهرام لكونه ينكر معجزات الأنبياء ويحمل الآيات الواردة عنها فى كتاب الله على المتشابهات ١٦٥ ـ ١٨٦

قد أدهشتنى عقلية الأستاذ فى زعم أن معجزات الأنبياء مستحيلة عند العقل وزعْم أن الحكم باستحالتها مقتضى العلم كما أنه مقتضى العقل .. يعلنها على صفحات الأهرام ، ولا يقابلها الرأى العام الإسلامى بالاستنكار حتى ولا إفشاءه عن نوابغ البلاد الإسلامية من الكتاب والشعراء فى استبطانهم الإلحاد تماشياً مع العقل والعلم ، ولا يكون بين إعلان هــــذه العقلية عن نفسه وبين تعيينه مديراً ورئيس تحرير لمجلة « نور الإسلام » الأزهرية إلا بضعة أيام ١٧٣

مناقشة استاذ يكتب مقالة من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية بالقاهرة ويكسب الجائزة الأولى ١٨٦ ـ ١٩٨ من مناقضات كاتب المقالة لنفسه الدالة على عـدم إلمامه بالمباحث العلمية التى يتكلف التكلم فيهـا ، أنه قال يعد رمى علماء الكلام بعدم الفهم لقدرة الله أو تفهيمها للناس : إن النظام المطرد فى العالم وتسلسل العلل والمعلولات أدل على قدرة الله اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته ١٩١

الأســتاذ يجعل من قدرة الله اللامتناهية وسيلة لإغناء الكائنات عن وجود الله ولا يرى ما فيه من الركاكة البالغة حد الاستحالة وهى قدرة الله على أن تجعل سلسلة الكائنات مستغنية عن الله ، فتجعلها أى الكائنات موجودة من غير حاجة منها إلى وجود الله ، فبالنظر إلى أن هذا الجعل من الله فالله موجود وبالنظر إلى وجود الكائنات من غير حاجة إلى وجود الله فالله غير موجود . فهذا تناقض ناتج من كلام الأستاذ فى مقالته ١٩٢

مناقشتى الأساتذة محمد أحمد الغمراوى ومحمد فريد وجدى وأحمد أمين بك ومحمد يوسف والشاعر إقبال ، دفاعاً عن علم الكلام والأدلة العقلية اللذين استهان بهما أولئك الأساتذة ١٨٦ ـ ٢٨٢

قول علماء الإسلام الأعلام مثل القاضى عضدالدين الإيجى صاحب المواقف والسيد الشريف الجرجانى شارحه والإمام القشيرى صاحب الرسالة المشهورة ، فى إكبار علم الكلام وسعة دائرته ٢٠٣ ـ ٢٠٥

أستاذ مجلة الأزهر لا يعرف ـ لعدم معرفته بعلم الكلام ـ أن الحصول على الدليل الملموس لإثبات وجود الله محال. وماذنب علم الكلام الذي يكرهه الأستاذ؟ ٢١٢ـ٢١٣ علماء الكلام المساكين وعلمهم المغموط يطعن فيهم ابن رشد الأندلسى وصدرالدين الشيرازى صاحب الأسفار الأربعة بمخالفتهم الفلاسفة اليونانيين والأستاذ الغمراوى بموافقتهم ، وكذا ابن تيمية وابن قيم الجوزية ومن تابعهما ، ويعاديهم المتصوفة أصحاب مذهب وحدة الوجود ٢٢٤

مقارنة الأستاذ أحمد أمين بين قوة العقل والمنطق وبين قوة القلب فى تأييد الإيمان بعد مقارنتهما بالتجربة وتفضيلها عليهما وتبيين خطأه فى المقارنتين وتمييز الفاضل والمفضول ٢٥٨ ـ ٢٦٠ هاجم رئيس تحرير مجلة الأزهر علم الكلام ، وكان صنيعه هذا اقتراحا ضمنيا لإلغاء تدريس هذا العلم فى الأزهر من غير إقامة علم من العلوم الإسلامية مقامه ، لكن الأستاذ أحمد أمين بك على الرغم من تسليمه برجحان براهين العلوم التجريبية لم يقع فى سذاجة الاستجارة من التجارب الحسية لاكتشاف وجود الله .. وامتاز عن الأستاذ الأول أيضا ، فذكر خلفا لعلم الكلام وهو التصوف ٢٦١

قول الإمام الربانى مجدد الألف الثانى فى تفضيل أقوال العلماء على كشف وإلهام الصوفية ، لأن سندهم تقليد الأنبياء عليهم السلام المؤيَّدين بالوحى المعصومين عن الخطأ والغلط ٢٦٥ أما الإمام الغزالى فقد أتى فيما نقل عنه أحمد أمين بك بالعجيب المعيب

لما لم تنتج المناقشة الجارية بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون غلبة الحق على الباطل وجب استئناف تلك المناظرة ٣٦٤ وإنى أردت أن أكون القائم بهذا الواجب الكبير مع عجزى وغربتى بمصر وباللغة العربية ، وهو شكرى وخدمتى لمصر التى آوتنى وأسرتى والتى كانت لها سمعة قديمة فى الإسلام ومكانة معروفة فى علومه ٣٦٦

وهناك مسألة وحدة الوجود ومسألة فصل الدين عن الدولة ٣٦٦ ـ ٣٦٧ فهذه أربع مسائل يتكون منها موضوع الكتاب ، كما أن مسألة الإيمان بالقدر الذى يؤول إلى عقيدة الجبر عُنيت بتحقيقه مرة ثانية ٣٦٧

قول الأستاذ فريد وجدى «إن الشعب التركى الذى أشبه الشعوب الحية فى دخوله أدوار الانقلابات الاجتماعية ليستحق منا كل الإعجاب وكل التشجيع ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مرّ بها الترك متى جاء دورنا فى نهوض حقيق صحيح» ٣٦٨ـ٣٧٠

سؤال مفروض أورده علىّ دفاعاً عن الأستاذ فريد وجدى ، ثم أجيب عنه ٣٧١ـ ٣٧٨ انقلاب الأستاذ إلى مضادة العلم الحديث المادى بعد أن اتخذه سلاحاً هائلا لهدم الدين ٣٧٩ ـ ٣٨٦ يكاد لا يوجد فى الدنيا مثال لمناقضة النفس أبلغ وأظهر مما ناقض الأستاذ بعد توليه الوظيفة الأزهرية ، نفسه قبل توليها ٣٨٣ بل لا يكاد يوجد مثل مشيخة الأزهر انتدبت لبناء الدين من سعى لهدمه .. ولا أدرى أى الموقفين أعجب وأمس بكرامة الواقف ، أموقف الذى احتاج إلى شخص الهادم لأمر البناء ، أم موقف الهادم المتولى بناء ما هدم ؟ ٣٨٤

وجد عجيب من الأستاذ تحوله ضد الفلسفة المادية ، لا من قبيل تصحيح الخطأ ولا من حيث لا يشعر .. بل من حيث لا يُشعر ٣٨٥ الأستاذ عند التكلم عن الفلسفة وعلوم الغرب لا يتكلم بميزان يميز النافع للدين من الضار بل الحق من الباطل ٣٨٧ـ٣٩١

الأستاذ يضع الإيمان بالغيب فى مقابل الإيمان بالواقع ، كأن الإيمان بالغيب المُثنَى على أصحابه فى كتاب الله إيمانٌ بخلاف الواقع ٣٩٢ الحاصل أن الناظر المدقق يرى

الأستاذ فى دورة دفاعه عن الدين أى فى دورة البناء أيضا لا يُقلع ولا يتخلى عن الهدم.. كما أن دورته المتقدمة المتحاملة على الدين كلها هدم ٣٩٣

ومحور تمحيص البحث الذى تدور عليه أفكار الأستاذ وأقواله أن الدليل العقلى المنطقى الذى أقنع علماء القرون الماضية لا تُقنع المصريين .. ولكن المهم أن نعرف هل عدم اقتناعهم اليوم به من عيب فى الدليل العقلى نفسه أم العيب والتقصير فى الذين لا يقتنعون به ؟ ٣٩٤ ـ ٣٩٦

نعم ، يمكن أن يقال لا يستطيع كل أحد تمييز صحيح الدليل العقلى من سقيمه كما قال الأستاذ فملا عنـــد الطعن فى هذا الدليل .. فالدليل التجربى إذن ـ الذى يسميه المصريون الدليل العلمى ـ يكون دليل العامة ، والدليل العقلى المنطقى ـ الذى يعد منطقيا عند استجماعه لشروط الصحة ـ يكون دليل الخاصة.. والمعولون عليه كالإخصائيين القادرين على تمييز الأحجار الكريمة الثمينة من زيفها ورخيصها ٣٩٦ ـ ٣٩٦

أذكر مثالا للدليل العقلى داخلا فى موضوع الكتاب، وأتحدى به الذين لا يعوّلون على الأدلة العقلية لاحتمال الخطأ فيها .. فإن كان فى استطاعتهم نقضه فلينقضوه ٣٩٦ وإذا لم يبن الأســتاذ مسألة إثبات وجود الله على الدليل العقلى المنطقى فإن كان ينتظر إثباته تجريبيا من مستقبل البحوث النفسية فإنى أقول من غير انتظار لنتيجة تلك البحوث إن البحث النفسى ولا أى علم تجربى لا يعطينا بوسائله التجريبية دليـلا على وجود الله ، وأعنى بذلك أنه لا يستطيع أن يعطيَناه وهو أقل من أن يعطيه .. نعم إن دليل العلم التجربى لا يكفى إزاء عظمة المسألة ٣٩٧

مقالة كتبتها بمناسبة نقاش بين أستاذين ردا على تصور علاقة الدين بالبحوث النفسية ٤٠١ ـ ٤٢٢ الأستاذ المنقبادى ينتظر من مستقبل البشر أن يكتشف لكل داء دواء ويتغلب على الموت ٤٠٤ أنا لا أرضى أن يكون ديننا مترجما من الغرب مع كل شىء مترجم عنه بمصر ٤٠٦

لا أقبل خصيصا قول الأستاذ اتباعا لما قررته الفلسفة الوضعية من أن كل معقول

لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به .. بل أعده أكبر خطأ إن جاز صدوره عن قلم أحد فلا يجوز عن قلم رئيس تحرير مجلة الأزهر.. والعجب أن الأستاذ يتمسك بذلك القول الذى هو دستور الماديين ، فى الرد على الأستاذ المنقبادى المادى ٤٠٧

إن التمسك بهـذا القول يتنافى مع مصلحة من يدافع عن الدين لحدّ أن إثبات وجود الله الذى هو رأس الدين لا يمكن إلا بعد إبطال ذلك القول ٣٠٨ ماذا يُتصور أن تـكون نتيجة البحوث النفسية ؟ فلنفرض أنهم وجدوا الروح على الرغم من عدم اعتراف الأسـتاذ المنقبادى بذلك ، لـكن أساس الدين لايقوم على وجود الروح بل على وجودالله، ولا يلزم وجود الله من وجود الروح إلا بقـدر ما يلزم من وجود أيّ موجود ممكنٍ وجودُ موجود واجب ، ومعناه الرجوع فى إثبات وجود الله إلى الدليل القديم العقلى ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

فإذا لم يبق للماديين بعد تلك البحوث النفسية التجريبية مجال لإنكار وجودالروح يُفتح لهم باب لإنـكار وجود الله أوسع ممـا كان قبلها ٤٠٧ إن وجود الله لن يكون موضوع التجربة ، فإذا أمكن إثبات وجود كل شىء بالتجربة فلا يمكن إثبات وجود الله بها ٤١٠

وكما لا تُثبت البحوث النفسية وجود الله لعدم كونه روحا .. لا تثبت حتى وجودَ الروح، لثبوت وجودها قبل وجود الباحثين النفسيين وبحوثهم، والثابت لا يحتاج إلى إثبات ، بل يستحيل إثبات الثابت كتحصيل الحاصل . وقد نص الفيلسوفان الـكبيران ديكارت وليبنتز على أن وجود الروح قطعى أكثر من وجود الأجسام ٤١١ ـ ٤١٢

ومع عدم كون المذهب المادى مذهب التدريب الخالص لأن العلم حتى بوجود المادة لم يكن مؤيداً بالتجربة ، إذ المـادة لا ترى ولا تلمس ـ فعدم الاعتداد بغير التجربة فى استيقان وجود أى شىء، يدفع الإنسان إلى إنكار البديهيات ٤١٦ إن لم يكن وراء هذا الجسم المتغير شىء يستمر ولا يتغير طول عمره يعبر عنه بالروح أو النفس لم يوجد

نعود إلى مناقشة الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون: كان الشيخ قد حمل على النصرانية بعدم ائتلافها مع العقل، وخصمه لما لم يستطع الدفاع عن دينه ولم يجد ثلمة للنيل من الإسلام، صوّب حملاته على جميع الأديان مدعيا عدم ائتلاف كلها بالعقل .. وهناك لم يوفِّ الشيخ حق الدفاع عن الدين لاسيما الإسلام الذى لاتعارض مع العقل أصلا فى أصول عقائده، فافتتنت عقول الخاصة بدعاية خصمه ضد الأديان وإن كان الرجل قد غالطهم بوضع المحسوس مكان المعقول واعتبار عدم الائتلاف بالعلم الحديث المبنى على التجربة الحسية، عدمَ الائتلاف بالعقل.. وكان واجب الشيخ الذى عجز عن القيام به مكافحةَ هذا العلم ووقفَه عند حده ٤٤١ ـ ٤٤٢

افتتن المثقفون المصريون فى الشرق الإسلامى بالعلم الحديث وأتبعوه العقل بغير حق فلم يبق من انتسب إلى العقل والعلم إلا واستبطن الإلحاد كما ذكره الأستاذ فريد وجدى وتمذهبوا بمذهب الإثباتيين الذين نوه به هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى باسم الفلسفة الوضعية، وجاء قاسم أمين فأعلن شعار المذهب وهو عبادة المرأة ٤٤٢

كان العربى الجاهلى القديم إذا بشر بالأنثى يتوارى من القوم من سوء مابشر به والعربى الحديث العلمانى يبدأ خطبته بقوله سيداتى سادتى ولا يتوارى من القوم عندما خاصر قرينته رجل غيره وراقصها بين ظهرانيهم، وهذا العربى أيضا جاهلى ولكن من طراز آخر ٤٤٢ ـ ٤٤٣ قصة أستاذ أزهرى فى حفلة جامعة بين الجنسين ٤٤٣

ذكرى قاسم أمين الثلاثين وادعاء ولده قاسم قاسم أمين بأن والده قد سن سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ٤٤٤ تأميل الثواب من الله لقاسم أمين من سفور النساء المسلمات كُرر فى قصيدة الشاعر على الجارم بك .. والقصيدة تتضمن الإشارة إلى أن للأستاذ الإمام إصبعا فى تشجيع قاسم، ومثلها خطبة السيدة هدى الشعراوى بمناسبة الذكرى ٤٤٥ ـ ٤٤٦

أملى عظيم فى تأثير كتابى هذا فى عقول الشباب الطرية غير الجامدة على الضلال

الحديث لا سيما جماعة المجاهدين المتسمين شباب محمد صلى الله عليه وسلم ٤٤٧

وقد وقع قبل بضع سنين أن قررت الجامعة المصرية على جعل شارات حراسها رموزا من صور آلهة المصريين القدماء ، فكتب المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين فى الجرائد يستنكر هذا القرار فلم تسمع له الجامعة والوزارة وسكتت مشيخة الأزهر عن تأييد شيخ الكلية ، فاستقرت شارات الآلهة وشكر الله وحده سعى الشيخ اللبان ٤٤٨

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه كتب الدكتور طه حسين بك مقالة فى الأهرام تدل على أن وزارة المعارف بعصر إن صادفت وزيراً يحترم شعائر الإسلام وآدابه استهدف حملات ساعية لأن تجعله غريباً كالإسلام نفسه فقد سخر الكاتب فى مقالته من مرسى بدر بك لإلغائه الرقص التوقيعى فى مدارس البنات والبعثات منهن إلى البلاد الغربية وشبّه هذا الوزير بوزير المعارف الأسبق محمد حلمى عيسى باشا ٤٤٩ ــ ٤٥٢ وكتب ضد قرار الوزير مرسى بدر بك أيضاً كاتب نحو النور فى الأهرام ٤٥٢ ــ ٤٥٥

وهناك مسألة عدم تدريس الدين فى مدارس المعارف أو عدم اعتبار دروسه من المواد الأصلية ٤٥٥ــ٤٥٦ أما الأزهر فالباحث الحازم يتردد فى القول بأنه أحسن حالا ٤٥٦

هل يجوز الشك فى أن نبينا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وفى أن قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » يدل عليه دلالة قطعية لا يمكن تفسيره بغير هذا المعنى ٤٥٦ ــ ٤٦٢

قصيدة الشاعر المرحوم شوقى بك التى مدح فيها مصطفى كمال وهجا السلطان وحيد الدين قائلا إنه أمير الطواغيت يدعى بأمير المؤمنين والتى قلت عنها فى زمن انتشارها على رأس الأهرام : إن الله تعالى وصف الشعراء فى كتابه بأنهم يقولون مالا يفعلون لكنى وجدت أولى صفة لهذا الشاعر أنه من الذين يقولون ما لا يعلمون.. وكان معنى قولى ذلك أن ابتعاد الشاعر فى شعره من أفعاله نفسه لا يكون أفظع من